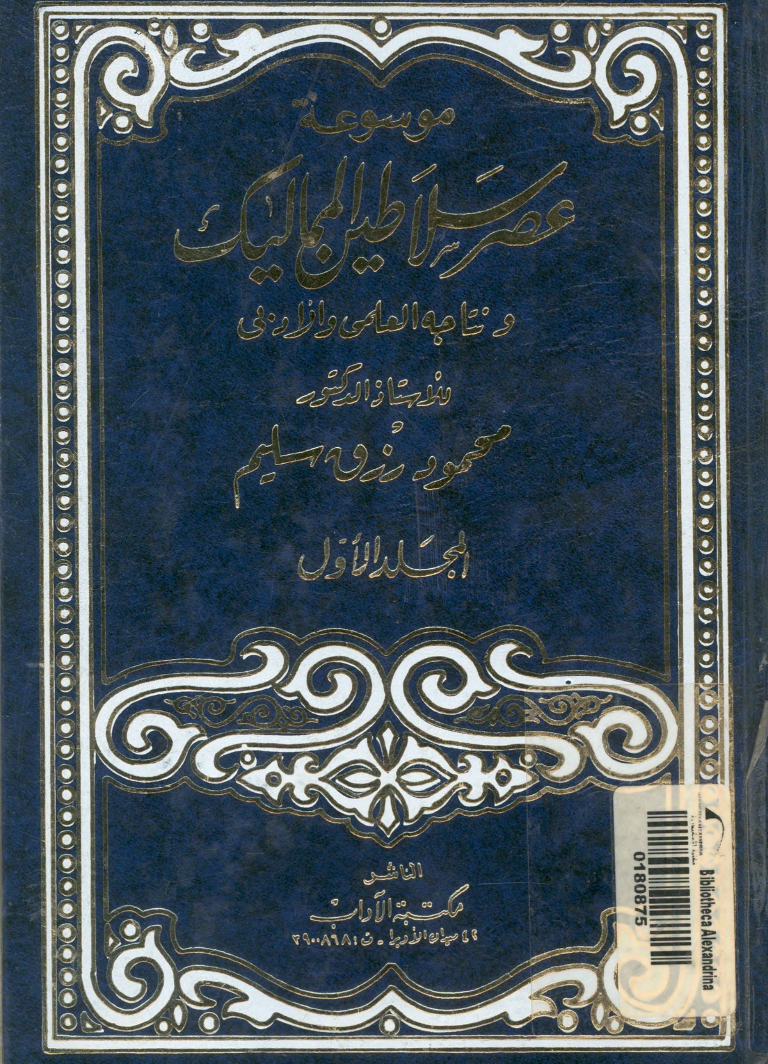
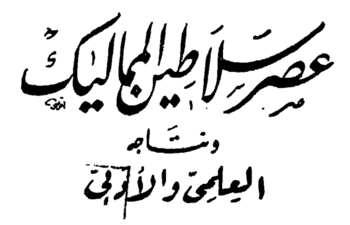

موسوعة
عصر سلاطين المماليك
ونتاجه العلمي والأدبي
للأستاذ الدكتور
محمود رزق سليم
المجلد الأول
الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - ت : ٢٩٠٠٨٦٨
Bibliotheca Alexandrina
0180875



تأليف

محمود رزق سليم

وكيل كلية الدراسات العربية — جامعة الأزهر

المجلد الأول

وهو القسم الأول من الجزء الأول

ويحتوى على خلاصات فى سير ملوك هذا العصر ، وأحوال الدولة ونظمها وعاداتها ومايتصل بذلك من شئون ، مع ترجمة كثير من رجالها .

الطبعة الثانية

١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

أغرانى الله سبحانه وتعالى لأن وجه قلبى وجهة صالحة ارتضاها ، ويسر لى سبيل عمل حبيب إلى ، ووفقنى إلى أن أجد فى هذا العمل النافع لذة نفسية ومتاعا روحيا بريئا ، وهدانى إلى أن أبرزه للناس فى ثوب قشيب ، راجيا منه جل وعلا ، أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، لا رياء فيه ولا سمعة ، وأن يهب لى من لدنه توفيقا وقوة وجلدا ، إنه سميع مجيب .

وأصلى وأسلم على نبيه سيدنا محمد أكمل الناس خلقا ، وأغزرهم علما ، وأسماهم مثالا ، وأعلاهم همة وأمضاهم عزما ، وأنبلهم مقصدا ، وأبعدهم أثرا ، وعلى آله وصحبه الكرام .

وبعد ، فهذا كتاب سميته « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » يتكون من أربعة أجزاء ، يصدر كل جزء منها فى مجلدين - يحتوى الجزء الأول منه - على خلاصات تاريخية واجتماعية ونحوها ، للعصر المذكور ، ويحتوى الثانى على وصف الحركة العلمية فيه وما يتصل بها ، مع ذكر المؤلفات العلمية وترجمة عدد من العلماء بين التفصيل والإيجاز . ويتكلم الثالث عن النثر الفنى وعن الكتاب وما يتصل بذلك . وخصص الرابع للحديث عن الشعر والشعراء وتراجمهم والمجلد الذى نقدمه الآن هو المجلد الأول أو القسم الأول من الجزء الأول .

وأعنى بعصر المماليك ذلك العصر الذى ولى عصر الأيوبيين فى مصر ، لحكمها فيه سلاطين من المماليك ، حتى احتلها الأتراك العثمانيون ، وهى الفترة الواقعة بين سنتى ٦٤٨ هـ و ٩٢٣ هـ .

ويرجع تفكيرى فى وضع هذا المؤلف إلى نحو عام ١٩٢٨ م ، وكنت أدرس لطلابى المواد الأدبية العربية المختلفة . فلحظت أن تاريخ الأدب العربى لم يدرس حتى اليوم الدراسة الكافية الشافية ، ولم توضع فيه مؤلفات واسعة منظمة مبوبة تكون معينا فياضا سائغا سهلا ، قريبا للناهلين ، من طلاب الأدب فى هذا الجيل . ولحظت أننا لانزال ندرس الأدب العربى المصرى تابعا لآداب الدول العربية ومضافا - فى الغالب - إلى أدب دمشق أو بغداد فى عصورهما الأولى . وفى ذلك ما فيه من اهتضام الأدب المصرى الخالص ، وضياع معالمه وخفاء سماته واتجاهاته . ولحظت أن عصر المماليك بصفة خاصة من أكثر العصور الأدبية المصرية ، اهتضام حق وضياع معالم . فهالنى ما رأيت .

ولا أريد فى هذا المقام أن أغمط أهل الفضل فضلهم ، ولا أنقصهم حقهم .

وليس بالفاضـــل فى نفسه من ينكر الفضل على

فإن لكثير من أدباء العصر الحديث ، محاولات مشكورة ، وضروبا من مذكورة ، اقتحموا بها على الأدب بابه ، وولجوا أعتابه ، وداعبوا أكوابه الطريق ، وأناروه ، فكان لنا من عملهم خير نبراس ، وأثبت أساس .

غير أننا نشعر أن الوقت قد حان لوضع موسوعات جامعة فى تاريخ الأدب العربى بعامة ، خروجا به عن هذا الحيز الضيق ، الذى لا يزال يمشى فيه وئيدا . ونشعر أن الوقت قد حان لوضع موسوعات جامعة فى تاريخ الأدب العربى فى مصر بخاصة ، وأن نبذل من عنايتنا بالآداب نصيبا محمودا لدراسة الأدب المصرى وحده ، ولربط عصوره أحدهما بالآخر . فإن فى دراسته تلك تنبيها للعقلية المصرية ، والعاطفة المصرية ، وتركيزا لها ، وسموا بهما وإصلاحا لاتجاههما .

آن الأوان إذن للانتقال بحركة التأليف فى آداب العربية وتاريخها انتقالا جديدا يراعى فيه الإسهاب وعرض النماذج عرضا مشوقا مع النقد والتحليل والربط والتعليل ، وتوضيح الملابسات وقوة الاستنباط ، مع حسن التوجيه وتيسير الفهم والكشف عن المراجع ، حتى لا تظل ضربا من المغيبات . بذلك نميط اللثام عن نواحى الجمال فى أدبنا ونهىء للباحث الجديد سبيل البحث ، ونعينه على بلوغ إربته بأيسر طريق وأقل مشقة .

وأحق بالعناية مصروآدابها . فلو وضع فى كل عصر من عصورها الأدبية مؤلف جامع على هذا النمط الذى رسمناه ، وأحسن الربط والصلة بين كل مؤلف وآخر ، لبلغنا من وراء ذلك أملا مرموقا ، وحققنا أمنية طالما جاشت بها النفوس ، وأنصفنا تلك العصور من ظلم النسيان .

ومن أبرز العصور المصرية المظلومة المهتضمة ؛ عصر المماليك ، الذى نحن بصدد الحديث عنه ، فقد راعنى ما أصابه من جفاء ، وهالنى ما ناله من صد ، وما رمى به حينا من أنه عصر ظلمة وتأخر ، وانحطاط وتقليد ، مع أنه جليل الخطر عظيم الأثر . . . ولم تقدم لنا منه الكتب الحديثة إلا صبابة لا تنقع غلة ، وإلا ثمالة لاتروى طالب نشوة . فاكتنفته غموضة فى أذهان كثيرين من طلاب الأدب الناشئين ، أكثر مما اكتنفت عصرا غيره . لذلك أحببت أن أدرسه ، وأن أطيل الوقوف بمعالمه ، حتى أصل إلى

قرار الحق فيه . وعولت على الرجوع إلى ما كتبه بنوه أنفسهم الذين عاشوا ، فيه . آتيا البيوت من أبوابها ، فإنهم - بلا شك - أصدق عنه حديثا ، وأقرب رجعا ، وأجمل نجوى. وأغرانى البحث والقراءة ، حتى وجدتنى غارقا فى محيط من مؤلفات لا عدد لها ، فيها بغية كل أديب ، والمنهج لكل ناهج ، وهى كالبحر لا ينضب معينه ، وكالسيل لا تغيض عيونه . ينهل المرء منه ، ويتجدد ظمؤه إليه . حينئذ انبهرت عينى ، وماجت الآمال فى نفسى موجا ، ووددت لو استطعت أن أضع موسوعة جامعة فى أدب هذا العصر ، تكون منه للقارىء بمثابة المائدة الشهية التى عليها ألف طعام وطعام . يتناول منها ما لذ وطاب . ولكننى شعرت أن محاولة ذلك تحتاج إلى رفاهة عيش وبلهنية بال ، وفسحة أجل وطول صبر ، حتى تتم الموسوعة كما لاحت فى الخيال . غير أنى أجمعت العزم وتقدمت إلى العمل قائلا للنفس : حسبى أن أضع لبنة فى البناء .

ومن الإنصاف أن أذكر أن عوامل عدة حببت إلى الإقدام على دراسة هذا العصر ، والكتابة فى آدابه وعلومه بعد قراءة الكثير من مؤلفات أهله . ومن هذه العوامل ، كتاب «تأهيل الغريب» لابن حجة الحموى أحد أدبائه عثرت على هذا الكتاب عرضا . وهو من المخطوطات الثمينة المجفوة ، وفيه جمهرة كبيرة من شعر شعراء هذا العصر فى فنون شتى ، فزادنى بهم معرفة وفيهم حبا ، وأثار فى نفسى كلفا بدراستهم ، والوقوف على حياتهم ، فقرأت «خزانة الأدب» لابن حجة أيضا ، وهو سجل قيم لكثير من رجال العصر كذلك . فوسع أمامى الأفق وأفسح المجال . وهكذا وهكذا ، تناولت كتب القدامى فى التاريخ والتراجم والأدب ، كبدائع ابن إياس وطبقات السبكى ، وطالع الأدفوى ودرر ابن حجر ، وخطط المقريزى وسلوكه ، ونجوم أبى المحاسن ، وضوء السخاوى وحسن المحاضرة للسيوطى ، وغير ذلك من دواوين ومؤلفات علمية فقبست من كل قبسا ، وجمعت فى كل أثارة ، وأعملت الفكرة فى كل أولئك ؛ حتى استقام لى هذا الكتاب واتسقت موضوعاته .

وقد أعجبت إعجابا لا حد له بكتاب تاريخ مصر لابن إياس ، وهو المعروف «ببدائع الزهور فى وقائع الدهور» . وشعرت حين قراءته ، أن رجلا مصريا صميما معاصرا شديد الصلة بى ، يحدثنى . وهو إلى قصه الأحداث السياسية والتقلبات الإدارية ، له نقدات عارضة ، وأوصاف اجتماعية قد يستطرد إليها فى هوادة ورفق بمناسبة ، أو يفجأ

القارىء بها ، وكأنها غير مقصودة لذاتها ، ولكنها تنبه الذهن على كثير من خفيات الأحوال العامة فتتأملها وإذا بك تشعر بجلالها وخطرها ، وإذا بك بتتبع جزئياتها ، تستطيع أن تكون فكرة ، أو ترسم صورة ، تجلى فيها حالا من تلك الأحوال .

وكان بحثى أولا متجها إلى دراسة أدب عصر المماليك ، فاضطررت إلى دراسة تاريخه دراسة ما ، تمهيدا لدراسة أدبه . فأكببت على كتب تاريخه ، وهى فياضة بفنون أدبية لاحد لها . وأعجبت – كما ذكرت – ببدائع ابن إياس . فاتخذته أساسا ومحورا ، وتجلى لى فيه ما تجلى من أفكار وصور . هذبتها ، وغذيتها ، ونميتها ، بما وجدت من أمثالها فى كتب تاريخ العصر المذكور الأخرى . وحبب إلى أن أجمع من جزئيات كل موضوع على حدة ، جملة ، ألائم بينها ، وأحسن الصلة بين متفرقها ، حتى يكون ذلك عونا على دراسة أدبية نافعة . فرأيتنى مسوقا – بدون عمد – إلى أن أكتب فصولا تاريخية فى عدة نواح للحياة المصرية إذ ذاك ، وجملة من تراجم رجالها . فتألف منها « الجزء الأول » من هذه الموسوعة . وهو هذا الجزء الذى أدفع قسمه الأول بين يدى القراء . وأقل ما يقال فيه . إنه ضرب من العرض جديد لبعض ما فى بدائع ابن إياس وأنداده .

الجزء الأول إذن ، جملة خلاصات فى نواح شتى إدارية واجتماعية ونحوها . وفى إثر كثير منها تراجم لرجال من العصر ، بينهم وبين موضوعها صلة ، وبينهم من لم تجمع ترجمته حتى اليوم . هذا إلى أن حوادثهم الفردية ، تعين على فهم الأحوال العامة .

ووجدت من الضرورى ، أن أقدم هذه الخلاصات بموجزات يسيرة فى التاريخ السياسى لملوك العصر ، ووقائع حروبهم ، وأن أقدم هذه الموجزات ، بملخص سريع فى تاريخ مصر القديم أسير به حثيثا ، حتى أربط بينه وبين العصر المملوكى ، على نمط من المؤلفات التاريخية القديمة ، حتى يكون الحديث أتم وأوفى وأكثر صلة . وبذلك يتم الجزء الأول .

وقد قسمته قسمين تسهيلا للاقتناء والحمل . وهذا هو قسمه الأول ، وأتبعه بالقسم الثانى .

ثم أتبعه بالأجزاء الأخرى ، على النمط الذى سيراه القارىء الكريم ، مزودة بموضوعاتها المدروسة ، وتراجمها المفصلة أو الموجزة ، وعرض كثير من الكتب والآثار العلمية والأدبية النافعة ، ما بين مطبوعة مجفوة ، أو مخطوطة مخبوءة ، مما يغنى القارىء عن عشرات المؤلفات .

وأرجو ألا يتخيل القارىء أن لا صلة بين هذا الجزء – الأول – والأجزاء

الثلاثة الأخرى . نظراً لاختصاصه بمسائل تاريخية بحتة ، واختصاصها بوصف الثمرات الفكرية والأدب من شعر ونثر ، فإن فهم هذه المسائل ، يعين على معرفة روح العصر واتجاهه ، ويمهد تمهيدا حسنا لدراسة آدابه واقتطاف ثمراته .

وفى الحق أننى أحببت أن أرسم للعصر المذكور صورا كثيرة متعددة ، لكل ناحية فيه ، صورة . وأن أضع هذه الصور جميعها فى إطار واحد . فإذا جال فيها الناظر بنظره جولة ، أمكنه أن يعى العصر من كثير من نواحيه ، فى سهولة ويسر .

وقد أشيرَ علىَّ ، بأن أفصل هذا الجزء — الأول — عن أجزاء الكتاب الأخرى ، لاختلاف موضوعه ، عن موضوعاتها ، وأن أصدره وحده مستقلا بعنوان آخر . ثم أصدر الأجزاء الأخرى وحدها ، كأنها كتاب جديد مستقل . والمسألة كما يرى القارئ لا تعدو أن تكون شكلية ، فضلا عن أنها لا تحقق الغاية التى أرمى إليها من جمع صور العصر فى إطار واحد — كما ذكرت — وهى غاية تركزت فى نفسى ، واستقرت فى ضميرى . ففصل هذا الجزء عن إخوته ، يشوه — كما أشعر — جمال هذه الغاية ، ويبعد القارئ عن فهم ما أرمى إليه .

وتوخيت فى كل فصول الكتاب ، سهولة العبارة ، والبعد عن الغموض وتبسيط الحديث بما يلائم ذوق عصرنا ، دون أن يبعد بنا عن جو العصر الذى نؤرخه . مع الاقتباس ، وإيراد النص القديم عند الحاجة ، ومع الإشارة إلى المرجع عند كل مناسبة حتى أعين القارئ على الاستيعاب السريع . وأعين الباحث على متابعة بحثه واستكماله . ولم يكن همى الاستقصاء فى كل خطوة . فهذا — وإن لم يكن أحد أغراضى — ضرب من العسر لا يستطيع تذليله رجل واحد ، وفى عمر محدود . وإنما أشرت إلى ذلك لكى أطمع الباحثين فى البحث ، وأثير فيهم عوامله ودوافعه وحسبى أن أضع بذوراً تصلح ، إذا سقيت ، للنماء . وفى نمائها من بعد ، سعادة لا تحد للمخلصين للعلم .

على أنى وطدت العزم ، بعد الفراغ من طبع الكتاب كله ، أن أعود إليه — إذا كان من الله عون ، وفى الأجل فسحة ، وفى العيش رفاهة وفى الصحة بقية — فأهذب فيه ما استطعت ، وأضيف إليه ، وأصحح منه ، وأعلق عليه .

ولا يخلو كل مؤلف صغير من هفوات ونقائص . فما بالك إذا كان بضع مجلدات مليئة بالحوادث المقيدة بتواريخها ؟ وفى الحق أننى أنفقت جهدا كبيرا ، ووقتا طويلا ،

فى سبيل الدقة وحسن الضبط ، ويشعر بذلك كل مزاول لمثل هذا العمل . فإن يكن من خطأ ، فغير مقصود . وأرجو أن يقيض الله لى من يرشدنى إلى صوابه فى رفق ولين .

ولا بد من الإشارة هنا إلى حاجـــه الباحث الماسة إلى دور الكتب المصرية على اختلافها . وهو - بلا ريب - يجد من رجالها كل عون . غير أن فهارسها جديرة بالعناية فياحبذا لو وضعت بها فهارس لأعلام المؤلفين الذين لهم كتب بالدار ، وترتب إلى جانب الترتيب الأبجدى ، ترتيبا حسب سنوات وفاتهم ، أو حسب عصورهم التاريخية التى عاشوا فيها . ويا حبذا لو قسمت فهارس المؤلفات هذا التقسيم أيضا ، ووضعت مؤلفات كل عصر على حدة . ويا حبذا أيضا لو عنى بوضع فهارس للموضوعات حتى يرجع إليها الباحث فى يسر وسرعة .

هنا وإنى فى النهاية لأرجو من الله سبحانه وتعالى ، أن يجعل هذا الكتاب نافعا للناس ، وأن يهيء لى أو لغيرى ، وضع مؤلفات على نمطه فى العصور الأخرى . حتى تكمل من الجميـــع سلسلة وثيقة الحلقات فى تاريخ الآداب المصرية . لنقدم بذلك بعض ما يجب علينا نحو وطننا العربى العزيز . والسلام ؟

المؤلف

مراجع القسم الأول من الجزء الأول

عنينا بإثبات مراجع موضوعات هذا الكتاب عقب التراجم وعند المناسبات ، ذاكرين فى أغلب الأحيان أرقام الصفحات مع أسماء الكتب . وفيما يلى نثبت بعض هذه المراجع وطبعاتها التى اعتمدنا عليها :

١ — بدائع الزهور لابن إياس المصرى : طبع مطبعة بولاق . ج ١ ، ٢ طبع سنة ١٣١١ هـ ، وج ٣ طبع سنة ١٣١٢ هـ ، وج ٤ ، ٥ طبع مطبعة الجوائب بالقسطنطينية

٢ — الخطط المقريزية : طبع مطبعة النيل بمصر ج ١ طبع سنة ١٣٢٤ هـ ، ج ٢ طبع سنة ١٣٢٤ هـ . ج ٣ طبع سنة ١٣٢٥ هـ ج ٤ سنة ١٣٢٦ هـ .

٣ — حسن المحاضرة للسيوطى : طبع مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر فى شوال عام ١٣٢١ هـ .

٤ — التعريف بالمصطلح الشريف لشهاب الدين بن فضل الله العمرى : طبع مطبعة العاصمة بحوش الشرقاوى بمصر عام ١٣١٢ هـ .

٥ — تاريخ ابن خلدون : الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية .

٦ — صبح الأعشى للقلقشندى : طبع دار الكتب بالمطبعة الأميرية عام ١٣٣٢ هـ

٧ — طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى : الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية بكفر الطماعين ، تمت فى شعبان سنة ١٣٢٤ هـ .

٨ — الانتصار لابن دقاق : ج ٤ طبع مطبعة بولاق عام ١٣٠٩ هـ .

٩ — ديوان ابن مطروح : طبع الجوائب عام ١٢٩٨ هـ .

١٠ — سلوك المقريزى طبع دار الكتب المصرية ولجنة التأليف والترجمة والنشر . لناشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، منذ عام ١٩٣٤ م .

١١ — الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى طبع حيدر أباد بالهند .

١٢ — فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى طبع مطبعة بولاق عام ١٢٨٣ هـ .

١٣ — الضوء اللامع للسخاوى لناشره مكتبة القدسى بباب الخلق ، منذ عام ١٣٥٣ هـ

١٤ — تاريخ حماة للصابونى . طبع حماة سنة ١٣٣٢ هـ

١٥ — النهج السديد لابن أبى الفضائل . طبع باريس سنة ١٩٢٠ م

١٦ — الكواكب السائرة لنجم الدين الغزى ج ١ طبع المطبعة الأمريكية ببروت سنة ١٩٤٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرة سريعة فى تاريخ مصر

من الفراعنة إلى المماليك

تمهيد

مصر بنت النيل . الطيبة تربتها ، الصافية سماؤها ، المعتدلة أجواؤها ، الرضية حياتها ، السمح أهلها ، الرحب جنابها ، مرت بها العصور تتوالى دونها ، وهى خود كعاب . صاحبت الشمس منذ مطالعها ، ورافقت الزمن منذ نشأته . وعبرت بها الأحداث حيرى دونها ، مع كثرة غيرها وصروفها ، ولكن مصر كانت هادئة بإيمانها ، مطمئنة بيقينها . لذلك لم تكن تألو أن تخلع على هذه الأحداث والغير والصروف أثوابا من الهزء ، وأردية من السخرية ، أن آمنت أن العاقبة لها ، وأن الخلود فى جانبها ، وأن البقاء من نصيبها . أما مادونها من عوادى الزمن ومحن الأيام ، فإنها أمامها أشبه ببساط منشور ، يستعين به المهرجون والمتبذلون ، فيفكهون الناس حينا ببعض ألعابهم وقصصهم ، فاذا ما انقضت آونتهم ، وانتهت فترتهم ، طووا بساط اللهو ، ورجعوا إلى عقر دارهم قافلين ، فينشر غيرهم بساطا آخر جديداً ، وهكذا دواليك .

بين هذه الأمواج الصاخبة فى بحر الزمان ، وبين هذه العواصف المتلاحقة فى جو الليالى ، شهدت مصر ألوانا شتى من قصص الحياة ومثلها . آناً تسمو إلى ماهى له أهل من السمو ، فتقبض بيدها على صولجانها ، فيأتمر الناس بأمرها ، وينتهون بنهيها ، وآنا تتهددها الأحداث ، وتتعاورها الخطوب ، فتنثنى باسمة أمام العاصفة فتهزم شدتها بما وهب لها من لين ، وتقهر قسوتها بما منحته من لطف ، وهى هى ، مصر الباقية الوادعة .

مصر الفرعونية :

ومنذ فجر التاريخ ، ومنذ نحو أربعين قرناً ، ومنذ عهد مينا ، حين وحّد وجها

مصر بزعامته ، أشرقت هذه البلاد شمسا فى سماء الحضارة والعرفان ، وطلعت على الدنيا بألوان من المدنية والرقى ، وضروب من العلم والفن ، تشهد بذلك نقوشها الخالدة وأهرامها الضخمة إحدى عجائب الدنيا وتماثيلها الدقيقة ، ومدوناتها وجثث موتاها المحنطة ، وغير ذلك ، مما خلد عظمتها وسموها فى فنون الرسم والبناء ، وعلوم الهندسة والطب والتشريح ، وضروب الصياغة والصباغة ، مع ... من الأدب الرفيع ، وصنوف من مظاهر الأبهة والترف ؛ مما لا تزال الأيام تضرب به الأمثال ، ومما لا يزال علم القرن العشرين عاجزاً عن استنباط سره واكتناه أمره .

وقد بسطت سلطانها فى حقب كثيرة إذ ذاك ، على بلاد النوبة والسودان ، وفينيقية وسوريا ، وشواطىء الفرات ، وارتبطت آنا بجملة معاهدات سياسية واقتصادية . وازدهى ملكها وامتد نفوذها فى عهد بناة الأهرام ، وكذلك فى عهد سيزوستريس وأمينحعت الثالث . وهى وإن سادها من بعد ذلك عهد ظلمة وفوضى ؛ أدى إلى أول احتلال اجنبى عرفه لها التاريخ ، فتحكم فيها ملوك أجانب هم « الهكسوس » أو « ملوك الرعاة » — كما يسميهم بعض المؤرخين — وذلك قبل الميلاد بأقل من ألف وسبعمائة عام ، فإن هؤلاء الأجانب — وكانوا قد بادروا إلى ظلم المصريين — لم يلبثوا أن اندمجوا فى غمار أبنائها ، وتطبعوا بطباعهم ، وتدينوا بأديانهم ثم كونوا من أنفسهم أسرتين من الأسر المصرية الحاكمة هما الأسرة السادسة عشرة والسابعة عشرة . غير أنه قامت لإجلائهم عن البلاد ثورة وطنية جامحة ترأسها الأمير المصرى « أحمس » من أمراء طيبة بالوجه القبلى ، فطردهم من البلاد المصرية فى أوائل القرن السادس عشر (ق . م) ثم أسس الأسرة الثامنة عشرة . فدخلت مصر بذلك فى دور حديث ، هو طور رقى ونهوض ، وعزة ومنعة ، وبسط سلطان ، وامتداد رقعة ورخاء . وكان بين ملوكها البارزين فى هذا الدور : « تحتمس الأول » و « تحتمس الثالث » و « أمينحتب الثالث » ثم من ملوك الأسرة التاسعة عشرة : « سيتى الأول » و « رمسيس الثانى » أو الأكبر ، و « منفتاح » . ولكل من هؤلاء الملوك غزوات موفقة رفع بها رأس مصر ، وإصلاحات عمرانية عدة .

ثم ما عتمت مصر بعد أن دالت الأسرة العشرون ؛ أن دخلت فى دور اضمحلال

وتأخر ، لتضخم نفوذ كهنة آمون ، ثم استيلائهم على الملك ، مع ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، وذلك بزعامة أحدهم وهو « حرحور » .

وقد كان هذا الضعف تمهيدا للاحتلال اللوبى ، وهو ثانى احتلال إبتليت به هذه البلاد ، إذ أسس بها قائد اللوبيين بمصر وهو « شيشنق » أو « شيشـاق » الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ ق م) التى حكمت مصر زمنا . وبينما وقعت مصر فى أيدى هؤلاء اللوبيين إذ فر أمراء الكهنة إلى إثيوبيا ؛ فكان لهم بها شأن عظيم .

وكما حالت حال الهكسوس من قبل ؛ حالت حال اللوبيين ؛ فقد أخذوا فى تقليد المصريين ، وتدينوا بأديانهم . وعبدوا إلههم « آمون » ، واتخذوا مصر موطنا ومستقرا ودستا لحكمهم . ومهبطا لأسلابهم وغنائمهم . إلا أنهم ما لبثوا أن ضعفوا . فمكنوا بذلك الضعف لملوك إثيوبيا من احتلال البلاد المصرية ؛ فدخلوها بزعامة ملكهم « بيمنخى » . (٧٢١ ق . م) وحكموها منذ أيام الأسرة الثالثة والعشرين . وحافظوا على تقاليد البلاد وأديانها . وأقاموا شعائرها فازدهرت فى عهدهم ازدهارا يذكر .

غير أن الحروب التى قام بها المصريون بعدُ ضد الآشوريين قد انتهت بهزيمتهم . وباستيلاء الآشوريين على مصر سنة ٦٧٢ ق . م . فعانت مصر على يد الآشوريين مصاعب جمة وشدائد كثيرة . جعلت أمراءها الوطنيين يتربصون الدوائر بالآشوريين . وما هى إلا أن حانت الفرصة حتى هب من بينهم الأمير المصرى « إبسمانيك » ، وطرد الآشوريين من بلاده . كما طرد « أحمس » ملوك الهكسوس من قبله .

ثم أسس « إبسماتيك » الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٠ – ٥٢٥ ق . م) وبذلك خلصت مصر من الاحتلال الأجنبى . وبدأت تدخل فى دور نهوض جديد . إلا أنه كان يشوبه تضخم نفوذ الإغريق . لأن « إبسمانيك » وغيره من ملوك أسرته . استعانوا بهم على توطيد سلطانهم ونشر نفوذهم .

غير أن ذلك لم يدم إلا ريثما ظهرت دولة الفرس ظهوراً قويا . آخذة فى غزو البلاد المجاورة ، وضمها إلى ملكها . فغزوا مصر فى عهد « إبسمانيك » الثالث بقيادة ملكهم « قمبيز » ، وأسسوا بها أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة السابعة والعشرين لجاروا على المصريين وعبثوا بأرضهم . ولبثوا حتى عام ٤٠٥ ق . م فطردهم المصريون . وأسسوا

بها أسرا منها الأسرة الثلاثون التى ظلت تحكم البلاد حتى استولى عليها « الإسكندر المقدونى عام ٣٣٢ ق . م بعد أن دخلها الفرس مرة أخرى .

مصر من عهد الإسكندر إلى فتح العرب:

نشطت دولة مقدونيا الصغيرة . وأخذت توسع نفوذها . وتستولى على جاراتها . حتى غدا ملكها ملكا على بلاد الإغريق . وكان ذلك فى نحو عام ٣٣٨ ق . م . ثم ظهر ملكها « الإسكندر « الأكبر » . فقام بحروب عدة . وفتح بلاداً كثيرة . ووصل فى فتوحه إلى بلاد الهند . وكانت مصر فى جملة البلاد التى رحبت بقدومه وفتحت له بابها على مصراعيه . ويعتبر فتح الإسكندر لمصر فاتحة عهد احتلال أجنبى طويل . وقد كان من أهم ما خلفه هذا الملك العظيم بمصر إنشاء مدينة « الإسكندرية » . وبث نفوذ الإغريق فى أرجاء البلاد . كما أنه خلف فيها دولة « البطالسة » . فإنه بعد موته اقتسم قواده ممتلكاته . فكانت مصر من نصيب قائده الشجاع « بطليموس الأول » الذى ما لبث أن استقر بمصر . واتخذها موطنا له ولذويه ، وأسس فيها دولة « البطالسة » الشهيرة ، وهى الدولة التى زهت فى عهدها مصر وازدهرت بضروب من الإصلاح العلمى والعمرانى . فى مقدمتها إنشاء مكتبة الإسكندرية وجامعتها المسماة «دار المتحف .

ودولة البطالسة ـ وإن كانت إغريقية الأصل ـ لا شك فى أنها أصبحت مصرية صميمة، لأنها توطنت مصر . ووهبت جهودها لمصر . وحكمت باسم مصر . وغزت البلاد المجاورة وفتحتها ونشرت فيها راية مصر ، متخذة من شعب مصر شعبا . ومن جنودها جنودا . على الرغم من أنها عاشت بها معيشة الإغريق . وجلبت إليها علم الإغريق . وإن زمنا طويلا كالذى قضته فى حكمها (٣٢٣ — ٣١ ق . م) وعاشت فيه لمصر دون سواها لجدير بأن يخلع عليها ثوب المصرية الكريمة . ولا نشك فى أن عهد البطالسة . لو امتد فى مصر . لكان لها خيرا من الاحتلال الرومانى . الذى مهد له ملوك البطالسة الضعفاء فى أخريات دولتهم .

فبينما كانت الدولة الرومانية تظهر فى الوجود . ويشتد ساعدها . وينتشر سلطانها . إذ أهلك الترف والنزاع أمراء البطالسة . وغلبهم على أمرهم . حتى تراموا فى أحضان الرومان ، يستمدون منهم العون والحماية . ويستجدونهم الفصل فى منازعاتهم . وما زالوا حتى انتهى أمرهم بانتحار آخر ملوكهم . وأعنى « كليوبترا » واستيلاء « أوكتافيوس »

الرومانى نهائيا على مصر .

بدأ عهد الاحتلال الرومانى حوالى عام ٣٠ ق . م . وفيه كانت مصر مزرعة لسادة روما وشعب روما . يسعدون ويشقى سكان مصر فى سبيل سعادتهم . كان عهدا ملء ظلما وعسفا وإرهاقا . ولم يخفف من أعبائه تلك الإصلاحات الضئيلة التى كان أباطرة الرومان يجودون بها على مصر بين الفينة والفينة . ولهذا ظلت مصر وليس لها كيان سياسى نحو ٦٧٠ سنة (٣٠ ق م — ٦٤١ م) . ولهذا كان تمام فتح العرب لها فى هذا العام الأخير . وانتزاعها من يد الرومان . ظفرا لها عادلا . ونجدة مفاجئة . أخذت من بعدها تثوب إلى رشدها . وتفيق من سباتها الطويل . وإن يكن هذا الفتح ضربا من الاحتلال . ونحن نمقت الاحتلال أيا كان نوعه .

مصر من فتح العرب حتى قيـــام دولة المماليك :

شغل العرب بفتح البلاد المصرية بين سنتى ١٨ هـ و ٢٠ هـ (٦٣٩ م - ٦٤١ م) وتم فتحها فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وبيد القائد العربى الكبير عمرو بن العاص قاهر الرومان . فأصبحت من ذلك الحين جزءاً من الدولة العربيـة الفتية العظيمة فوفدت إليها وفود عدة وجلت إليها جوال كثيرة من بطون العرب وأفخاذها وتوالى عليها أمراء من العرب . يحكمونها من قبل الخلفاء الراشدين . ثم من قبـل ملوك بنى أمية . وحينما زالت من الوجود دولة الأمويين . لم تجـــد خليفتها الدولة العباسية . صعوبة تذكر فى الاستيلاء على مصر . ومن ثم تتابع ولاة العباسيين أيضا على هذه البلاد . غير أن كثيرا من ولاة العباسيين حينئذ . كانوا من الترك ومنهم من يفضل الإقامة فى بغداد قريبا من دار الملك . عن النزوح إلى مصر . فكان منهم من يرسل نائبا عنه يحكمها باسمه . وفى ذلك ما فيه من هوان لمصر ، وإغفال لمرافقها . ومضاعفة الظلم لأهلها . ولهذا كان طبيعيا أن يتخلل حكم العرب لها ثورات متعددة ، آنا ضعيفة ، وآنا قوية . قوامها العنصر العربى حينا ، والقبطى حينا آخر ، وقد يتحد العنصران معا ، بدافع من المصلحة المشتركة .

ومهما يكن من شيء ، فإن الفتح العربى أرخى ذيل النسيان على الفرعونية القديمة ، وأنشأ مصر إنشاء آخر . وكان الحكم الرومانى من ممهدات هذا النسيان . ويذكر التاريخ أنه منذ فتح العرب مصر ، أخذ أهلها من مسيحيين ويهود وغيرهم ، يدخلون فى دين

الله أفواجا ، وبخاصة فى زمن الخليفة الوليـــد بن عبد الملك الأموى إذ خف ضغط الضرائب ، واتخذت العربية أداة لضبط الدواوين . حالة محل اللغات الوطنية فيها . فساد الإسلام واشتد أزر اللغة . وغلبت على المصريين مقومات عربية كثيرة من عادات وتقاليد ونحوها .

ونحن وإن نعمنا من الفتح العربى بنعمة الإسلام ، وحُبّبت إلينا لغته العربية لاننسى أنه أزال استقلال البلاد مرة أخرى ، فظلت تابعة لامتبوعة . وظلت كذلك حتى تقلد ولايتها من قِبَل العباسيين الأمير التركى « بكباك » أو « بقبق » وذلك فى عام ٢٥٤هـ فأناب عنه فى حكمها « أحمد بن طولون »، وكان تركيا أيضا ، وعندما مات « بكباك » عهد الخليفة بولايتها إلى أمير آخر هو « ماجور » وكان حما ابن طولون . فاستبقاه فى نيابته ، فجمع ابن طولون حزمه وعزمه لكى يستقل بالبلاد ، فأصلح مرافقها وقوى جيشها ووفر مالها ، ثم منع إرسال اخرجها إلى بغداد ، وحذف اسم الخليفة من خطبة الجمعة عام ٢٦٩ هـ فكان ذلك إعلانا باستقلاله . وبنى مدينة القطائع وجامعه المشهور بها ، فكان ذلك منه إيذانا بعودة الروح الاستقلالية إلى البلاد . غير أن خلفاء ابن طولون لم يحافظوا محافظة تامة على هذه الروح ، وإن كان مُلك ابنه خمارويه قد امتد إلى البلاد الشامية والموصل والجزيرة . ولقـــد عرف عن خمارويه ولوعه بالإنفاق والسرف ، والإغراق فى الترف ، حتى أصبحت خزائن أبيه خاوية على عروشها ، وبخاصة من جراء زواج ابنته « قطر الندى » بالخليفة المعتضد العباسى . لذلك سرعان ما آلت مصر إلى حكم العباسيين بعد ولديه : « أبى العساكر » و « أبى موسى » . وذلك عام ٢٩٣ هـ .

أخذ العباسيون يرسلون عليها ولاتهم من جديد ، فظلت نحو ثلاثين عاما كذلك ، وهى تموج بالفتن والاضطرابات ، حتى ولى عليها الأمير « محمد بن طغج » الإخشيد ، من قبل الخليفة العباسى عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) فنهض بالبلاد نهضة محمودة ، وأبدى كفاءة ونشاطا فى حكمها وصد الخارجين عليها ، ودفع الطامعين فيها . وامتد سلطانه حتى حكم دمشق ، وقلده الخليفة حكم مكة والمدينة ، وجعل الحكم من بعده وراثيا فى فى عقبه . غير أن ابنه « أبا القاسم أونوجور » كان حدثا صغيراً ، فأقيم « أبوالمسك كافور الإخشيدى » وصيا على عرشه . وكان كافور خصيا حبشيا مملوكا من قبل للإخشيد ، علت عنده مكانته لرجاحة عقله وثقوب بصره ، فحكم البلاد زمنا باسم سيده

ه أبي القاسم ، ثم استأثر بالحكم نهائيا بعد موته ، ثم مات كافور ، فلم تقم لدولة الإخشيديين من بعده قائمة .

هنا وجد الفاطميون مصر مراحا مباحا ، وملكا شاغرا لا يحميه أحد ، فاستولوا عليها زاحفين من الغرب بقيادة قائدهم المظفر « جوهر الصقلى » مولى المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٥٨ ﻫ . والفاطميون ينتسبون إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمؤرخون مختلفون فى صحة هذا النسب . ويروى أن المعز الفاطمى بعد أن وفد إلى مصر ، جمع النسابة وأقنعهم بصحة نسبه إلى جعفر الصادق من نسل سيدنا على كرم الله وجهه ، ويروى أنه نثر بينهم الذهب وبسط أمامهم السيف وقال : « هذا حسبي وهذا نسبي » .

وقد كانت للفاطميين ببلاد المغرب دعوة فدولة ، فلما فتحوا مصر جلوا إليها واتخذوها دار مقام ووطنا وبنوا بها قاهرتهم المعزية وجامعها الأزهر ، وتشبهوا بخلفاء بنى العباس الأوائل ، فتسموا بالخلفاء . ونظموا دولتهم وعنوا بمظاهر الأبهة والفخامة وأكثروا من الحفلات والموائد العامة والخاصة ، وأشاعوا الكثير من الموالد الدينية والأعياد والمواسم ، متخذين منها فرصة للبر والإحسان لكى يشغلوا الشعب عنهم بكل أولئك . وقربوا إلى مجالسهم العلماء والأدباء والشعراء ؛ فوجدت اللغة العربية لها منهم أكبر عون ونصير . فازدهرت بآدابها ورجالها . وعنوا بالبناء والزخرفة حتى أصبحوا ولهم طراز خاص . وكانوا فى جملتهم محبوبين من أهل البلاد . لما تحلوا به من تسامح وعقل وعلم ، هذا على الرغم من غلوهم فى مذهبهم الشيعى . ورغبتهم فى نشره بالبلاد . وعلى الرغم من قساوة بعض ملوكهم كالحاكم بأمر الله . وعلى الرغم مما أصيبت به البلاد فى بعض أيامهم من قحط وجدب وغلاء ، كما وقع فى عهد المستنصر بالله .

ويهمنا أن ننوه هنا بأن البلاد كانت مستقلة عزيزة الجانب فى عهدهم . وانتشرت كلمتهم إلى نواح عدة من الشام والحجاز والعراق ، حتى قيل إنه خطب للخليفة المستنصر بالله على منابر بغداد نحو أربعين خطبة دعى له فيها .

ثم دب فيهم دبيب الضعف ، وكان مذهبهم الشيعى الذى يخالف مذاهب الجمهور المصرى فى مقدمة الأسباب التى نفرت عنهم . هنا ظهرت طائفة من الزعماء سعى كل منهم

إلى الوزارة واستبد بها دون الخليفة ، فتنازعوا بينهم أمرهم ، واستفحل النزاع وتشبهوا بالخلفاء فى الرواح والغدو والحفلات والمجالس وما إلى ذلك ، وعرفوا « بالوزراء العظام » واجترءوا على أن يتلقبوا بألقاب الملوك ، ومنهم الملك الصالح « طلائع بن رزيك » أو رزيق » وزير الفائز الفاطمى ، وكان أديباً شاعراً وعالما مصلحا . فكان ضعف الخلفاء وتشاحن الوزراء ، واستنجادهم بأمراء الشام ، ليعينوا بعضهم على بعض ، وازدياد نفوذ العناصر التركية ، والحقود الكامنة بين الترك والمغاربة ، بسبب الحكم والسعى إليه ، ثم عدم الوحدة بين الجنود المصريين — إذ كان فيهم ترك وعرب ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد سود — ثم قيام الحروب الصليبية ، كان كل أولئك من أسباب زوال دولة الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ . إذ قبض على زمام الأمر فى البلاد دونهم البطل الكردى المعروف « صلاح الدين الأيوبى » .

وفد « صلاح الدين بن أيوب بن شادى » مع عمه « أسد الدين شيركوه » إلى مصر لإصلاح الحال فيها . وكان « أسد الدين » أحد قواد أمير الشام « نور الدين ابن زنكى » . استعان العاضد الفاطمى هو وبعض الوزراء ، بنور الدين ، ليعينهم ويقضى على منازعيهم ، فبعث إليهم بأسد الدين وابن أخيه صلاح الدين . فما زال صلاح الدين ، حتى دفعت الأيام بين يديه بمنصب الوزارة المصرية ، فى خلافة العاضد المذكور ، فاستبد بالأمر دونه ، وأقصى عنه المتنافسين من الوزراء . وساعده على ذلك حنكته ودهاؤه وبعد همته وشجاعته . فجمع السلطة فى يده ، وحكم مصر نائباً « عن نور الدين » ثم قطع اسم العاضد من الخطبة ، ودعا للمستضىء العباسى خليفة بغداد ، وكان العاضد مريضاً فمات . ثم مات من بعده « نور الدين » وبذلك خلا وجه مصر لصلاح الدين الأيوبى وحده فأعلن نفسه سلطانا عليها ، ومن هنا ابتدأت الدولة الأيوبية .

أخذ صلاح الدين يسوس البلاد بمهارة وقدرة ، ويصلح من أمرها ويعالج مريض الشئون فيها ، ويقر مضطربها . فأبطل المذهب الشيعى ، وعمل على نشر المذاهب السنية وبخاصة مذهب الإمام الشافعى ، وعفّى كثيرا من آثار الفاطميين ، ووحد عناصر جيشه ، فاتخذ جنوده من الأكراد خاصة ، فكانت عدتهم نحو اثنى عشر ألفاً . ونظم الضرائب وأقام المبانى ، وعدل بين الرعية فأحبته وتعلقت به . ثم خاض غمار الحروب الصليبية ، وانتزع بيت المقدس ، وأرعب المسيحيين . فسجل اسمه بين أبطال الإسلام الخالدين .

ويعتبر العصر الأيوبى فى جملته امتدادا للعصر الفاطمى من ناحية استقلال البلاد فى إدارة شئونها وغزو أمرائها باسمها . زد على ذلك أن الأيوبيين — وعلى رأسهم مؤسس دولتهم صلاح الدين — نصبوا أنفسهم حماة عن الدين وقادة عن أهلة ضد متعصبى المسيحية . الراغبين فى الاستحواذ على بلاد المسلمين باسم البلاد المقدسة . فوقفوا دونهم سداً منيعا . ومنعوا توغلهم فى بلاد المسلمين خاصة وبلاد الشرق عامة . فلم يستطيعوا أن ينالوا فى تلك العصور الوسطى مانالوه فى العصور الحديثة . وكم للأيوبيين من بعد صلاح الدين من موقعة أذلوا فيها أنوف الفرنجة ، ونهنهوا من كبريائهم ، وتلك موقعة « المنصورة » فى عهد المعظم « توران شاه » . وفيها أسر جنود مصر « روادى فرانس » أى ملك فرنسا لويس التاسع وغيره . وسجنوه فى دار ابن لقمان وهو القاضى فخر الدين بن لقمان الذى كان كاتبا للسر ، وداره بالمنصورة . ثم افتدى نفسه وعاد إلى بلاده على ألا يفكر فى غزو مصر مرة أخرى . وفى هذه الغزوة بالذات ظهر تضامن طبقات الشعب ظهوراً محمودا وعاونوا أولى الأمر حتى تم لهم النصر . وقد قال ابن إياس فى الجزء الأول من تاريخه بصدد الموقعة المذكورة ما نصه :

« فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة ، ركب الأمير بيبرس البندقدارى ، والأمير لاجين ، وغيرهما من الأمراء ، وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلاحين وغير ذلك ، وفى أيديهم السيوف والدبابيس والرماح ، ومنهم طائفة يرمون بالنشاب ، فحملوا على الإفرنج حملة واحدة ، فكانت ساعة تشيب منها النواصى . فانكسر الإفرنج أبخس كسرة ، وولوا مدبرين والله تعالى ناصر الناصرين وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فبلغ عدة من استشهد فى هذه الواقعة من أمراء السلطان سبعة وستين أميراً غير المماليك . وقتل من العوام ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الإفرنج على فارسكور ما يزيد على اثنى عشر ألف إنسان » .

وكان سبب هذه الموقعة غزو الفرنجة للديار المصرية عن طريق دمياط . أقول : ولم يقتصر نصيب الشعب على ما قام به عوامه ، بل قام الخطباء يثيرون الحماسة فى النفوس ، ويوغرون الصدور على هؤلاء المعتدين . وفى كتاب (الخريدة) للعماد الأصبهانى ، وكتاب « الروضتين » فى أخبار الدولتين للمقدسى ذكر لهذه الحروب ومالابسها من خطب وأشعار .

ولم يقصر ملوك بنى أيوب فى تقريب العلماء والنابغين والاستئناس برأيهم ومشورتهم. وهذا هو القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى أديب مصر الذائع الصيت ، كان وزيراً لصلاح الدين وعضدا له قويا . وابتنى كثير منهم العمائر والمساجد ، ورتبوا الدروس، وشجعوا أدباء العربية ، وأسدوا ضروبا من البر والإحسان كثيرة . حتى بهروا الناس. غير أن دولتهم لم تسلخ من عمرها إلا نحو ثمانين سنة (٥٦٧ هـ — ٦٤٨ هـ) حتى كان الهرم قد أصابها لضعف ملوكها حينذاك ، ووقوع الخلف فى صفوفهم . وطغيان نفوذ مماليكهم — مما سنفصله بعد — فكان آخر ملوكهم زوجة الصالح الأيوبى « شجرة الدر » أم خليل ، التى تزوجت أحد كبار مماليك زوجها « عز الدين بن أيبك » وخلعت نفسها من الملك ، فتسلم « عزالدين » مقاليده معلنا بنفسه سلطانا على البلاد عام ٦٤٨ هـ وبذلك دالت دولة الأيوبيين . وبدأت دولة المماليك . وهى التى نفصل الكلام تفصيلا فيما يلى :

مصر فى عهـــد المماليك

(٦٤٨ هـ — ٩٢٣ هـ . (١٢٥٠ م — ١٥١٧ م) .

نقصد بهذا العصر ، الفترة التى حكم فيها سلاطين المماليك فى مصر ، منذ انقضاء عهد الأيوبيين عام ٦٤٨ هـ إلى أن فتحها الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ ، ولا نقصد هنـــا استيعابا تاريخيا للعصر المذكور ، وتفصيلاوافيا لحوادثه السياسية وحروب ملوكه ووقائعه فإن ذلك مما يضيق به صدر كتاب كهذا ، زد على ذلك أن بين أيدينا موسوعات تاريخية ، كفلت إيضاح تلك الحوادث والحروب والوقائـع ، وفيها إسهـاب ينقـع الغلة ويروى الظمأ . وإن كانت هذه الموسوعات تروى رواياتها وتقص قصتها بعبارات تحتاج إلى التجديد والتمحيص والمقارنة ، مع جمال العرض وحسن التحليل ودقة التعليل ، كما يقتضيه فن كتابة التاريخ فى عصرنا الحديث ذلك لأن الموسوعات المشار إليها قد كتبها مؤرخون عاشوا فى العصور الوسطى ، كان أكبر همهم سرد الحوادث غالبا ، دون الربط بينها أو تعليلها أو تحليلها ، وعرضوها غالبا عرضا لا أناقة فيه ، ممزوجة بصنوف أخرى من الحوادث والوقائع المختلفة . وهى بذلك تحتاج إلى إعادة النظر فيها لإخراجها فى صورة جديدة شائقة تلذ للقارئين من طلاب التاريخ فى العصر الحديث . وليس همنا هنا أن نقص قصتها ولا أن نعيد النظر فيها إلا بمقدار ما نخرج منها خلاصات سريعة وصوراً عاجلة لحالات شتى من حالات عصر المماليك تعين على رسمه فى الأذهان رسماواضحامقبولا . وإن يكن موجزا . همنا هنا أن نعرض النظم المرعية فى الدولة والأمة ، ونصف ضروبا من عاداتهما وتقاليدهما ، حتى نعين القارىء على تصور الأمة المصرية فى ذلك العصر وتفهم اتجاهاتها ومعرفة روحها وأسس معيشتها ومدار حياتها ، ونشفع ذلك بتراجم كثيرمن رجالها . فترجمتهم تعين على حسن التصور ، وتساعد على تفهم الاتجاهات . ولن نترك الحوادث السياسية وسير الملوك جانبا . بل سنعرض لها بمقدار يسير . حتى لايخلو هذا المؤلف من إحدى الدعائم الهامة التى يرتكز عليها تصوير العصر . وإننا بذلك كله — أو بالأحرى بهذا الجزء التاريخى — نعين على فهم الحركات الأدبية والعلمية فهما أدق

وأوفى . وبذلك كله نغنى القراء عن عشرات من المصنفات التى لا غنية عنها لمن يريد فهم العصر على أكمل وجـــه .

أصـل المماليك

كان الرق منتشرا فى العصور الوسطى ، وكانت تجلب الغلمان المرد والفتيان الحسان من بلادهم البعيدة إلى أسواق الرقيق ، حيث توجد الرغبة فى اقتنائهم ، وحيث يتنافس فى ذلك المتنافسون للخدمة أو اللهو . وكان هناك تجار أخصاء ، هم النخاسون ، يعرضون هذه الأجسام البشرية بضاعة فى الأسواق العامة وغير العامة ، ويصفون محاسنها للناظرين .

أما طريقة جلبهم لهذه البضاعة فالسرقة والخطف ، يسرقون الغلمان ، ويختطفون العذارى من أهلهم ، ثم يستحلون بيعهم للناس ويستحل الناس شراءهم . وقد ينتشر قحط أو غلاء ، أو يعم وباء . فتهون حينذاك فلذ الأكباد على أهلها . فيفرطون فيها بالبيع . تخفيفا للبلوى ، وحفظا للرمق ، بما يدفعه لهم الشارى الكريم ، ومما كان يساعد على رواج تجارة الرقيق الغارات الحربية التى يشنها غاز فاتح قاس غليظ القلب ، على أهل بلد وادعين آمنين ، فيفرق شملهم ويبدد جمعهم وييتم الولدان ، ويسبى الجوارى الحسان . فينشط النخاسون حينذاك ، ويغالون فى شراء هؤلاء . ولم لا يغالون ؟ وفى انتظارهم خلفاء وملوك وأمراء ووزراء وعظماء ، على أهبة لقائهم بصرر الدنانير الذهبية والأعطيات الثمينة أجرا لبضاعتهم الجيدة ! . فقد كان منهم من يدفع الألف والألفين بل والآلاف ، ثمنا لجارية جميلة أو غلام وسيم ومما ساعد على رواج هذه التجارة أيضا ما يتوقع من الحظ الحسن للأرقاء فى مستقبل حياتهم . فقد تدفع بهم الأقدار إلى أن يصلوا إلى ما يصل إليه أحرار الرجال وعقيلات النساء ، من عز ورفاهية ومجد وطيب أحدوثة .

لهذا انتشر الرق فى العصور الوسطى . وكان الأرقاء فيها أحيانا ضربا من المنح والهدايا ، يتبادلها العظماء والمترفون . وتذوق الناس وجود الرقيق بلا غرابة ولا استكراه ، وكثر التسرى ، وتعددت جيوش الجوارى فى القصور ، وامتلأت أروقتها بالغلمان ، وأصبحوا أحيانا أولى قوة وأولى بأس شديد .

ولم يبل بالرق شعب دون آخر ، أو جنس دون غيره ، فقد كان من الأرقاء : التركى

والجركسى والرومى والزنجى والحبشى والفارسى وغيرهم . وأروج ما كانت تجارتهم فى الأجناس التركية والجركسية ، لما تتصف به من جمال وطيب مجاس ، ولما ابتليت به بلادهم من غارات وحروب طاحنة .

واستكثر منهم خلفاء بنى العباس والفاطميون والأيوبيون وغيرهم . ولقد كان لمصر نصيب من هؤلاء كبير :

وقد ذكر بعض مؤرخى عصرنا الحاضر ، أن أول من استخدم المماليك الأتراك فى مصر ، وجلبهم إليها ، واستعان بهم على تثبيت سلطانه ، خلفاء الفاطميين ، تشبها منهم ببنى العباس ببغداد ، ثم اقتفى أثرهم فى ذلك ملوك الدولة الأيوبية .

ولكن الحق أن أول من استخدمهم وجلبهم إلى مصر ، وجعلهم عمدة جيشه هو « أحمد بن طولون » . وهو أول الولاة الذين استقلوا بمصر بعد الفتح العربى كما بيناه فقد قال القلقشندى فى صبح الأعشى بالجزء الثالث عند الكلام عمن ولى مصر ملكا قبل دولة الفاطميين ما يلى : « وأولهم أحمد بن طولون . . . وفى أيامه عظمت نيابة مصر ، وشمخت إلى الملك ، وهو أول من جلب المماليك الأتراك إلى الديار المصرية ، واستخدمهم فى عسكرها » .

وقال ابن إياس فى الجزء الأول من تاريخه عند ذكر دولة الأمير أحمد بن طولون ما يلى : « قال ابن وصيف شاه : فلما تم أمر الأمير أحمد بن طولون فى ولايته على مصر ، واستقامت أحواله بها ، استكثر من مشترى المماليك الديالمة ، حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك » .

فأنت ترى أن ما اشتراه ابن طولون من هؤلاء المماليك — على فرض المبالغة فى عددهم — كان خير نواة لوجود المماليك فى مصر . وقد اتبع هذه السنة ملوك الفاطميين وخلطوا فى جندهم بين أجناس مختلفة . ولما آل الملك إلى صلاح الدين الأيوبى اتخذ جنوده من الأكراد ومجلوبى المرتزقة ، وحذا خلفاؤه حذوه .

ثم جاء الملك الصالح نجم الدين بن أيوب فى سنة ٦٣٦ هـ ، فرأى أن يثبت ملكه بجنود جدد ، فاستكثر من مشترى المماليك الأتراك ، ونشأهم تنشئة عسكرية . غير أنهم كانوا كثيرى العبث والشر ، يجوسون خلال الأسواق ، وينهبون البضائع من التجار ، حتى علا الضجيج بسببهم . فبنى لهم سيدهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة ليقيموا بها

ولا يبرحون . وسماهم البحرية واتخذ منهم أمراء دولته وخاصته وبطانته وحراسه . وكانوا أقل من ألف مملوك (١) .

وقد كان هؤلاء البحرية عضدا قويا للملك الصالح حرسوا ملكه وذادوا عنه ، وثبتوا دعائمه ، وأبلوا بلاء عظيما فى موقعة « المنصورة » التى هزموا فيها الفرنجة ، والتى نوهنا بها . وعلى يد هؤلاء البحرية انتقل الملك من بنى أيوب إلى أمراء المماليك ، فملكوا مصر وأصبح منهم سلاطينها وكونوا فيها طبقة حاكمة جديدة ودولة من طراز جديد هى « دولة المماليك » .

وإذا ما أطلقنا هنا لفظ « المماليك » أو « دولة المماليك » فإنما نقصد الدولة التى كونها هؤلاء . دون من تقدمهم فى عصر الأيوبيين أو الفاطميين ، أو تأخر عنهم فى العصر العثمانى .

وقد تتابع سلاطينهم على عرش مصر زهاء ثلاثة قرون ، واتبعوا فى الحكم نظاما سنبينه فيما بعد . وقد جدّ السلاطين والأمراء فى مشترى المماليك الجدد باستمرار . فكان من هؤلاء الجدد المدد التقليدى لهذه الطبقة الحاكمة . وقد ساعدهم على مشتراهم تعدد هجمات التتار إذ ذاك على أواسط آسيا الخوارزمشاهية وبلاد التركمان وشرق آسيا الصغرى ، وغير ذلك من نواحى آسيا . فكثر سبى الصغار وفرار الكبار أمام هذا الخطر الداهم : وأقبل سلاطين مصر وأمراؤها على شراء هؤلاء المماليك ، وغالى بعضهم فى ذلك ، ورفع أثمانهم حتى كانت الآباء تعطى أبناءها للنخاسين القادمين إلى مصر وتوصيهم ببيعهم فيها (٢) ، لما كان يدفع فيهم من ثمن كبير ، ولما كان ينتظرهم من مجد خطير .

ولو أنك رجعت إلى سيرة كثيرين من سلاطين دولة المماليك ، وأمرائها ، لوجدتهم من هذه المماليك المشتراة . وإليك أخبارا عن بعضهم ، نقلا عن ابن إياس :

الملك الظاهر بيبرس : أصله تركى الجنس ، أخذ من بلاده وهو صغير ، فبيع لشخص يسمى العماد الصائغ ، ثم اشتراه منه الأمير علاء الدين البندقدارى ، ثم آل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبى . ثم أعتقه وجعله من جملة المماليك البحرية .

---

١ — راجع خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٨٤ تحت عنوان « ذكر دولة المماليك البحرية » .

٢ — راجع خطط المقريزى ج ٣ ص٣٤٨ تحت عنوان « الطباق بساحة الإيوان »

ثم دفعت به الأقدار فصار أتابك العسكر فى دولة المظفر قطز . فلما قتـــل قطز صار بيبرس سلطاناً .

والملك المؤيد شيخ المحمودى : أصله من مماليك الظاهر برقوق ، اشتراه من الخواجا محمود شاه ، وأعتقه وأخرج له خيلا ، ثم أخذ يترقى فصـار أميرا ونائبا ، وعاونته الأيام حتى أصبح سلطانا على مصر ، بعد خلع الخليفة المستعين بالله العباسى .

والملك الأشرف قايتباى : أصله من الجركس ، جلبه إلى مصر الخواجا محمود ، فاشتراه الملك الأشرف برسباى هو وعدة مماليك صغار ، كل مملوك بخمسين دينارا ، ثم أعتقه وترقى فى سلك الإمارة ، حتى بلغ الأتابكية فالسلطنة بعد خلع تمربغا .

وعلى مثال ما تقدم تجد الأمراء . حقا قد ولى سلطنة مصر فى ذلك العصر أحيانا ملوك لم يكونوا من قبل أرقاء مثل : الناصر محمد بن قلاوون ، والناصر محمد بن قايتباى ، والمنصور عثمان بن جقمق . وهؤلاء وهؤلاء أبناء ملوك ، حكم آباؤهم من قبل ، فورثوا عنهم الملك ، ولكن بعد أن جرى الرق على آبائهم ، وربما جرى على أمهاتهم أيضا

ومن غريب الأمر أن بعض الأمراء كانوا يتنادرون بعضهم على بعض بالبيع والرق ! ... فقد روى ابن إياس فى ترجمة الناصر بن قلاوون . قال : (١)

« وقع يوما بين الأتابكى « بكتمر » وبين الأمـــير « قوصون » تشاجر . فقال قوصون للأتابكى : « أنا ما نقلت من الأطباق إلى الاسطبلات ، بل أخذنى السلطان من شخص تاجر كنت فى خدمته . فلما أخذنى السلطان اتفق أن فى ذلك اليوم توفى واحد من الخاصكية الثقال ، فأنعم علىّ السلطان بإقطاعه وبركته وبيته . وصرت خاصكيا فى ذلك اليوم . وسبب ذلك أن التاجر الذى كنت عنده ، لما قال له السلطان : « بعنى هذا المملوك » قال التاجر : « هو حر لوجه الله تعالى » فأخذنى السلطان برضاى ولم أقعد فى طبقه ، ولم أكن تحت حكم أغا . ولم أبع مثل بقية المماليك » . فلما سمع الأمير « بكتمر » ذلك ، سكت عنه ولم يجبه بشىء » .

ويلاحظ أن قوصون وبكتمر المذكورين كانا من أمراء عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وكان بيدهما الحل والربط فى البلاد المصرية يوما ما .

---

١ — بدائع ج ١ حوادث عام ٧٣٢ هـ .

ومن النوادر الطريفة المناسبة ما رواه ابن إياس قال : (١)

« غضب السلطان قايتباى على « شاد بك أباز » الإينالى الأشرفى . أحد الأمراء فألبسه زنطا عتيقا » . وأمر بحمله إلى خان الخليلى ليباع ! . . . وقد ثبت أنه باق على ملك المنصور عثمان ، فأمر السلطان بأن يباع ويحمل ثمنه إلى الملك المنصور . فشفع فيه الآتابكى « أزبك » فما قبل منه . وآل الأمر إلى أن حمل إلى الملك المنصور (٢) . فأشهد على نفسه بعتقه » .

ويروى عن شيخ الإسلام « عز الدين بن عبد السلام » أنه صمم يوما على بيع عدد من أمراء الدولة الأتراك ، لأنه لم يثبت لديه أنهم أحرار . وكان هو إذ ذاك قاضى القضاة . فاعتقد أنهم من جملة مال المسلمين ، وأنهم ملك لبيت المال . فعجب الأمراء ! وكان بينهم نائب السلطنة ! ... فأرسلوا إلى الشيخ يطلبون عدوله عن ذلك ، ولاطفوه ولاينوه ، فلم يزدد إلا إصرارا على رأيه ، ولبث لا يجيز لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا ولا أى نوع من أنواع المعاملة ، حتى لحقهم من ذلك أذى كثير ، مع أنهم سادة الناس وحكام الأرض . فغضبوا وهم أحدهم بضرب هامة الشيخ بالسيف تأديبا له ، فيبست يده . ! فأسقط فى يده ، وانتهى الأمر بعرضهم للبيع ، وغالى الشيخ فى بيعهم وضم ثمنهم إلى بيت المال ، لينفقه فى شئون المسلمين » (٣) .

هذا . ونظرا إلى أن هؤلاء المماليك ، وفيهم السلاطين والأمراء ، أرقاء ، والأرقاء لا ينسبون عادة إلى آبائهم ، تجد أغلبيتهم العظمى قد نسبت إلى غير الآباء والأجداد جريا على العادة المذكورة . وينسب أحدهم إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء فيقال مثلا : شيخو الناصرى (٤) نسبة إلى الناصر حسن حفيد قلاوون ، لأن شيخو من مشترياته ومعتوقيه . أو ينسب إلى من باعه من التجار فيقال مثلا : « برقوق العثمانى (٥)»

---

١ — بدائع ج ٢ ص ١٥٣ .

٢ — الملك المنصور عثمان هو ابن السلطان جقمق . ولى الملك ثم خلع وأقام مكرما فى عهد قايتباى . ومات بدمياط ثم نقل رفاته إلى القاهرة .

٣ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٠ ، طبقات السبكى ج ٥ ص ٨٠ .

٤ — انظر ترجمته فى باب « أفذاذ الرجال » فى هذا الجزء من كتابنا .

٥ — انظر ترجمته فى بدائع ابن إياس ج ١ ص ٢٥٨ .

نسبة إلى الخواجا عثمان بائع الرقيق الذى جلبه إلى مصر . أو ينسب إلى مبلغ المال الذى اشترى به . فيقال مثلا : « قلاوون الألفى (١) » لأن الأمير علاء الدين آق سنقر اشتراه بألف دينار .

هذه طريقة نسبتهم . ومن الحق أن نقول : إن النسب إلى الشارى أكثر من النسبة إلى غيره ، وأن المملوك قد ينسب إلى أكثر من واحد ، ممن تداولوا ملكه . وقد ينسبه إلى البائع والشارى معا ، وهكذا .

ويظن المرء لأول وهلة أن مماليك مصر هؤلاء ، كلهم من الجنس التركى أو الجركسى . والواقع أن فيهم من أجناس أخرى عددا ، فمنهم التركى كالظاهر بيبرس (٢) ، والجركسى كالأشرف قايتباى (٣) ، والتترى كالعادل كتبغا (٤) والقبجاقى كالمنصور قلاوون (٥) والهندى كالأمير جوهر التركمانى اليشبكى (٦) ، والرومى كالظاهر تمربغا (٧). ولكن الجنس التركى والجركسى كانا غالبين . وكانت للجنس التركى السيادة فى الدولة الأولى « الدولة البحرية » ، وللجنس الجركسى السيادة فى الدولة الثانية « الدولة البرجية أو الجركسية » . وكان من الأجناس الأخرى جماعات من الأويراتية ، وهم طائفة من المغول ، استقدمها إلى مصر العادل كتبغا المنصورى ، وهيأ لهم مساكن مناسبة . وقد كانت مساكنهم الأولى على مقربة من جبال الأكراد (٨) . وكان منها أيضا طوائف من التركمان واللاظ والكرد والقرانصة والأرمن والخطا (٩). وكثرت أنواعهم وتعددت فى الجزء الأخير من الدولة الجركسية .

ويلاحظ أن المملوك كان يشترى صغيرا ، ثم يربى — كما سنبينه — غير أنه فى أخريات الدولة الجركسية . جلبت المماليك كبارا . ومنهم من كان عاملا أو صانعا محترفا قبل جلبه . فكان ذلك فى جملة أسباب فسادهم ...

---

١ — انظر ترجمته فى صبح الاعشى جزء ٣ ص ٤٣٥ .

٢ — و ٣ — ٤ — راجع تراجمهم فى بدائع ابن إياس .

٥ — خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٨٧ . ٦ — بدائع ج ٢ ص ١٠٤ .

٧ — بدائع ج ١ ص ٨٧ . وراجع تراجمهم جميعا أيضا فى الضوء اللامع للسخاوى ، والمنهل الصافى لأبى المحاسن ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى .

٨ — كتاب التعريف باب « المحرقات » .

٩ — تاريخ ابن خلدون ج ٥ ٣٦٩ تحت عنوان « الخبر عن دولة الترك »

انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك

أخذ عدد المماليك يتكاثر فى مصر من الأيوبيين وأخذ نفوذهم يزداد ويعظم . وكلما أصاب الضعف ملوك الأيوبيين ، ونهكهم الترف والانغماس فى الملذات ، ودب بين أمرائهم الشقاق ، وقادتهم الأطماع غير المشروعة ، أتاح ذلك لمماليكهم أن يكونوا ذوى شأن وسلطان . لأنهم اليد العاملة ، والقوة الفعالة فى ملافاة هذا الضعف ، وفى فض هذا النزاع . فأكسبهم ذلك بأسا على بأس، وسلطانا فوق سلطان .

وقد قوى بأسهم فى عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبى . فإنه بعد أن استعان بفريق منهم على نزع الملك من أخيه العادل سيف الدين عام ٦٣٦ هـ ، اشترى عدداً كبيرا من المماليك ومرنهم تمرينا عسكريا ، واتخذ منهم حراسا وجندا . ولكن كان فيهم شر ، وضج الناس من شرهم — كما بينا — فبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم « البحرية » (١) وأنشأ حول تلك القلعة مستودعات حربية مملوءة بالسلاح والذخيرة . وأمرهم ألا يخالطوا الناس بالمدينة ، وأجرى عليهم الرواتب والطعام والشراب والكسى . وكانوا دائما على قدم الاستعداد لتلقى أوامره للخروج إلى القتال .

وأخذ نجمهم فى الصعود ، منذ أن هيئت لهم الفرصة ، لقتال الفرنجة والتغلب عليهم ، وأسر ملكهم لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٤٧ هـ فى موقعة فارسكور والمنصورة كما بينا . وكان ملكهم الصالح قد أهاب بهم ودعاهم إلى القتال .

وكانت الأخبار قد تواردت بأن « روا دى فرانس » أى ملك فرنسا ، أتى فى جموع من الفرنجة زاخرة ، وفى ألوف من المقاتلين ، تحملهم السفن إلى « دمياط » حيث ظلوا يحاصرونها زمنا . ثم ضيقوا عليها الخناق ، وخاف أهلها من القتل والسبي ، فهجروا مدينتهم فارين تحت جنح الليل ، فدخلها الفرنجة فى الصباح . ومن ثم شرعوا يزحفون على بقية البلاد متجهين نحو مدينة المنصورة ، مقيمين فى طريقهم الاستحكامات . وكان الملك الصالح قد أهاب بمماليكه البواسل فأحاطوا به وحملوه فى محفة لمرضه ، وساروا به نحو مدينة المنصورة ، ونودى أن يجتمع إليهم عربان الجهات ،

---

١ — اقرأ فصلا عن الروضة فى كتاب الانتصار لابن دقماق ج ٤ ص ١٠٩ طبع بولاق سنة ١٣٠٩ هـ .

ليتعاون الجميع على دفع العدو عن البلاد .

هنا فتك الملك الصالح بنائب دمياط ، وطائفة أخرى من أمراء المماليك ، كانوا معه فى إخلاء المدينة ، وفراره منها ، وتركها غنيمة باردة فى يد الفرنجة . فأنف مماليك السلطان من غدره ، وحاولوا الفتك به جزاء لما قدمت يداه . ولكنهم تريثوا حتى يوقعوا بالفرنجة . وبعد ذلك يحاسبونه عما فعل . ولكن الموت سبقهم إليه ، وكفاه شرهم ... فكتم موته حتى لا تكون إذاعته سببا فى تخاذل جنده ، وتقوية الروح المعنوية عند الفرنجة ، فتكون العاقبة وخيمة . وحملت جثة الملك فى زورق ، وسيربه تحت ستر الليل إلى القاهرة ، ودفن بالقلعة مؤقتا . وأرسلوا إلى ابنه « المعظم توران شاه » — وكان مقيما فى حصن « كيفا » ببلاد الشام — وقام أمراء المماليك بتدبير الأمور حتى يعود . وكان على الأمراء : حسام الدين لاجين ، وفارس الدين أقطاى ، وعزالدين أيبك ، وبيبرس البندقدارى . وأقاموا عليهم زوجة الملك الراحل ـ وهى « شجرة الدر » أم خليل ـ زعيمة ، يأتمرون بأمرها ، ويصدرون عن رأيها . فكان ذلك منهم أول خطوة فى سبيل التآمر على ملك الأيوبيين ، وقلب نظام الحكم فيه ، وكان فيه تثبيت لنفوذهم وإعلان مبدئى بأطماعهم .

عاد « توران شاه » بعد نحو ثلاثة شهور من دعوته لتسلم مقاليد الحكم . فدخل القاهرة ، وأذيع موت أبيه الصالح ، ونودى له بالسلطنة وتلقب بالمعظم . ثم اجتمع المماليك تحت إمرته صفا ، وتحفزوا للقاء عدوهم بحماسة للجهاد وحب للاستشهاد . وكانت الأخبار قد توالت بزحف الفرنجة نحو « فارسكور » . فخف إليهم جيش المماليك سائرا إلى شمال « المنصورة » ، يعاضده جمع عظيم من فلاحى البلاد ومعهم المقاليع والحجارة . وعاونتهم أمداد من الشمال ، ضغطت على العدو فأصبح بين قوتين . وكانوا قد أرسلوا هذه الأمداد من قبل ، ومعها سفائن محمولة على جمال لينزلوها فى البحر تجاه دمياط ، ومن ثم تسير فى النيل نحو الجنوب . ثم هجم رجال القوتين هجمة صادقة على العدو فأبادوا جمعه ، وشتتوا شمله ، وأسروا منه عددا كبيرا ، ومنهم لويس التاسع (١) نفسه ـ وقد أشرنا

١ — هذا الملك سماه المقريزى « روا دى فرنس » . وابن إياس « ريدا فرنسيس » . وابن خلدون « رى فرانس » . وابن الوردى « برنس افرنسيس » . وكتب عنه ابن شاكر الكتبى فى وفياته ج ١ ص ١٠٦ فصلا ، وسماه « البرنس الفرنسيس » . وهذا تحريف . ومأخوذ عن Roi de France أى ملك فرنسا . وتبعهم الأدباء فى ذلك كما فى شعر ابن مطروح .

إليه ـ فسجنوه فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان بالمنصورة ، ووكلوا حراسته إلى الطواشى صبيح الفاطمى (١) . فظل فى سجنه حتى افتدى نفسه بالمال . وقتل فى هذه المعركة من الفرنجة نحو ثلاثين ألفا ، عدا من أخذ أسيرا ، وعدا الغنائم والأسلاب .

وبهذه المناسبة نذكر مارُوى عن لويس هذا من أنه بداله أن يعود إلى غزو مصر فى عهد سلطنة المنصور بن عز الدين بن أيبك ، فبعث إليه المنصور رقعة يهدده فيها وفيها أبيات ساخرة للشاعر ابن مطروح . وهى :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق من قئول فصيح
آجرك الله على ما مضى ... من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصر تبتغى أخذها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وأصحابك أودعتهم ... بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يُرى منهمُ ... إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها ... لعل عيسى منكمُ يستريح
إن كان « باباكم » بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذه كاهنا إنه ... أنصح من شق لكم أو سطيح (٢)
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على عهدها ... والقيد باق والطواشى صبيح (٣)

فرجع لويس عن عزمه .

وفى هذه الموقعة التى شرحناها ، ظهر تضامن طبقات الشعب ظهورا محمودا . وقد أسهبنا فى شرحها ، لأنها السبب المباشر لتوطيد سلطة المماليك وظهور قوتهم ، وبروز أطماعهم ، وظلوا من بعدها يتلمسون الفرصة للوثوب العملى إلى عرش البلاد .

وقد أتيحت لهم هذه الفرصة عندما أساء إليهم « توران شاه » وإلى شجرة الدر معا .

---

١ — هكذا سمى « صبيح » هذا بالفاطمى . وسماه ابن خلدون « المعظمى » وهو أقرب لنسبته إلى المعظم توران شاه .

٢ — شق : كاهن كان فى زمن كسرى . وسطيح كاهن آخر من بنى ذئب كان فى الجاهلية .

٣ — هذه الأبيات من حسن المحاضرة للسيوطى ج٢ ص٣٩ ، ومن ديوان ابن مطروح طبع الجوائب سنة ١٢٩٨ م ص١٨١ ، ومن سلوك المقريزى حوادث سنة ٦٤٨ هـ

إذ كف عنهم الخير ، وتوعدهم بالأذى ، وفضل عليهم أخصاءه الوافدين معه من الشام. وكان أولى له أن يتخذ من مماليك أبيه هؤلاء قوة وسندا ، وعونا وعضدا ، لتدبير ملكه وحفظ عرشه ، وبخاصة بعدما ظهر منهم من قوة ونشاط وشجاعة وإقدام، وبعد أن كانوا سببا في انتصاره ودحر عدوه . لذلك كان انصرافه عنهم وتهديده لهم طيشا منه وحمقا ، دفعهم إلى الائتمار عليه . وما زالوا به يأتمرون حتى قتلوه أشنع قتلة وأبشعها . وملكوا عليهم من بعده زوجة أبيه «شجرة الدر» . وأطاعوها تبعا لذلك ولما بدا منها لهم من عدل وكياسة ، ولما فرقته عليهم من وظائف وأعطيات . أو بالأحرى ، لإطاعتها لهم وائتمارها معهم، وانطوائها تحت كلمة أحد زعمائهم وهو الأمير «عز الدين أيبك» . فعينته «أتابك العساكر» أي قائد الجند ، وهي أرفع مرتبة في الجيش . فكان عز الدين المدبر لمملكتها وصاحب الرأي في دولتها ، على الرغم مما يقال من إنه كان لا يتصرف في الأمور إلا بعد مشورتها .

ضربت «شجرة الدر» الحجاب على نفسها ، فكان لذلك أثره في ضعف مشورتها ، وصعوبة اتصالها بأمرائها ، وحسن اطلاعها على مهام دولتها . زد على ذلك أنها كانت أول امرأة تملكت في الإسلام ، فكان تمليكها غريبا ، حتى قيل إن الخليفة العباسي – على ضعفه – أرسل إلى المماليك ينعى عليهم أن يملكوا امرأة ... كان ذلك كله حافزا لهم على إعادة النظر في أمر الملك من جديد ، وكثر بينهم الأخذ والرد . حتى رأت شجرة الدر بثاقب نظرها ، وبعيد رأيها ، أن تخلع نفسها من الملك ، بعد أن مكثت فيه نحو ثمانين يوما . ثم استشير الأمراء والقضاة لاختيار سلطان جديد . فتمت المشورة بسلطنة الأمير «عز الدين أيبك» . ثم تزوج هذا الأمير من «شجرة الدر» ، ليكون ذا صلة بالبيت المالك القديم ، مع أنها زوجة سيده .

كان ذلك في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ . فركب « عز الدين» في حفل جامع زاخر ، وبأبهة وجلال ، وأجلس على سرير الملك . وقبل الأمراء الأرض بين يديه ، ولقبوه « بالملك المعز » . فكان أول سلاطين المماليك بالديار المصرية ، وعلى يده انتقل الملك من الأيوبيين إلى طائفة المماليك ، فمن بعده توالى سلاطينهم على عرش البلاد سلطانا بعد سلطان .

دولتا المماليك

٦٤٨ هـ — ٩٢٣ هـ

بدأ عصر سلاطين المماليك عام ٦٤٨ هـ على يد الملك المعز «عز الدين أيبك»، وظلوا يحكمون البلاد المصرية حتى عام ٩٢٣ هـ أى نحو ٢٧٥ سنة ، وانتهى عهدهم بالاحتلال العثمانى . وانقسموا خلال هـــذه الحقبة دولتين هما : « الدولة البحرية » و « الدولة البرجية أو الجركسية » ، ولنتكلم عن كل منهما بإيجاز ، فنقول :

الدولة البحرية ٦٤٨ هـ — ٧٨٤ هـ

مؤسسها « عز الدين أيبك » . وحكمت نحو مائة وثلاثين سنة بين سنتى ٦٤٨ هـ — ٧٨٤ هـ « ١٢٥٠ م — ١٣٨٢ م » . وكلمة «البحرية» أطلقت على طائفة من المماليك قبل تأسيس دولتهم . وهذه الطائفة هى التى أسكنها سيدها الملك الصالح « نجم الدين الأيوبى » بقلعة الروضة . فعرفوا بالبحرية . وصاحبهم هذا الاسم . وليس معنى ذلك أن كل سلاطين هذه الدولة أو مماليكها من المماليك الصالحية نفسها ، بل منهم سلاطين ومماليك من غير البحرية الصالحية . وذلك لأن هؤلاء تشتتوا من بعد ، وأصبحوا فى حالة مزرية يرثى لها ، بعد قتل رئيسهم « فارس الدين أقطاى » فى عهد السلطان الملك « المعز أيبك » . لأن هذا السلطان شعر بتآمر الصالحية عليه . فأخذ يقوى نفوذه ، ويحصن عرشه ، وجند لنفسه مماليك جددا سموا بالمعزية ، ثم بطش بالبحرية فقتل زعيمهم « فارس الدين » ، وشتت جمعهم فسار كثير منهم إلى الشام . ومع ذلك ظلت هذه التسمية: «البحرية» أيضاً لصيقة بمماليك هذه الدولة فعـــرفوا بها . وسماهم بها المقريزى فى خططه . وسماهم غيره « دولة الأتراك » (١) . وقد جمع الملك المنصور قلاوون ، بعد ذلك شتات الصالحية

---

١ — ذكر الدكتور الفاضل ناشر سلوك المقريزى فى ص ٤٣٧ من السـلوك ، أن تسمية دولتهم «بالبحرية» تسمية حديثة . ولـكن يفهم من الفصل الذى كتبه المقريزى فى خططه تحت عنوان «ذكر دولة المماليك البحرية» أنها تسمية قديمة .

وسماهم «البحرية» أيضا، لأنه أحدهم. فبقى هذا الاسم فيهم وفى بقاياهم، وأطلق على إحدى طوائف أجناد الدولة.

وقد غزت الدولة البحرية جملة غزوات موفقة، وكبحت جماح التتار فى عدة وقائع، فدفعت خطرهم عن مصر دفعا تاما، وكفكفت من عدوانهم على بلاد الشام. وكان ملوكها بمصر مستقلين، وملكوا باسمها ـ فى أغلب أيامهم ـ بلاد الشام وجزيرة العرب، ووصل نفوذهم حينا إلى شواطىء الفرات والجزيرة، وما وراء ذلك، كما وصل حينا آخر إلى بلاد المغرب. وسيتضح ذلك فيما يلى من هذا الجزء.

والآن نورد ثبتا موجزا بأسماء ملوك هذه الدولة مع الإشارة إلى أهم الحوادث فى أيامهم (١). ذاكرين أنه تعاقب على العرش منهم أربعة وعشرون، من بينهم أربعة عشر ملكا من أسرة قلاوون وحدها.

١ ـ الملك المعز «عز الدين أيبك»

٦٤٨ هـ — ٦٥٥ هـ (٢)

هو عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى التركمانى. كان من مماليك الملك الصالح نجم الدين بن أيوب، فأعتقه، وما زال به حتى رقاه أميرا. ولما توفى الملك الصالح اشترك عز الدين فى تدبير أمور الدولة، مع بعض أمراء المماليك البحرية، ريثما يعود «توران شاه» بن الملك الصالح ويتولى عرشه. فلما عاد «توران شاه»، وانهزم الفرنجة، فسد ما بينه وبين أمراء أبيه، فأدى ذلك إلى قتله، وصار الملك إلى «شجرة الدر»، فدبرت ملكها بوساطة «عز الدين». ثم خلعت نفسها، واختير «عز الدين» سلطانا على البلاد، وتزوج «شجرة الدر» ليحظى بعلاقة بيت الملك. وكانت سلطنته فى ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ.

---

١ ـ لم نسهب فى ذكر هؤلاء الملوك وحوادثهم، ففى سلوك المقريزى وبدائع ابن إياس والنجوم لأبى المحاسن متسع لمحبى الإسهاب.

٢ ـ ذكر ابن إياس والمقريزى فى خططه أنه عام ٦٥٥ هـ. وقال القلقشندى فى صبح الأعشى أنه عام ٦٥٤ هـ.

بدأ الملك يصفو لعز الدين،وأ ذذ هو يضبط أموره. غير أن بلاد الشام اعتلت عليه ، وكان قد ملكها الملك الناصر الأيوبى . ويبدو أن الأمراء نفسوا على « عز الدين » أن يصفو له وجه الملك . فانتهزوا الفرصة وأرغموه على إقامة أحد الأيوبيين معه فى الملك ، لكى يستطيعوا به لقاء الخارجين على ملك مصر . فتم لهم ما أرادوا ، واستقدموا إلى البلاد شخصا من الأيوبيين ، اسمه « مظفر الدين يوسف (١) » بن « الملك مسعود الأيوبى » وسنه عشرون ، أقاموه ملكا أيضا ، ولقبوه بالأشرف . فصار للبلاد ملكان هما : المعز والأشرف ! فصبر المعز ريثما قوّى عضده بمماليك جدد سماهم المعزية ، وأمر منهم عددا . ثم انفرد بالملك ، وسجن الأشرف ، ثم نفاه بعد قليل . وكانت قد وقعت بينه وبين الناصر وقائع، انهزم فيها الناصر ، ثم تم الصلح بين الاثنين عام ٦٥١ هـ على أن يكون للمصريين إلى الأردن ، وللناصر ماوراء ذلك . وأن يكون للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله ، وأن تطلق أسرى الشام ، إلى غير ذلك . وقد أخمد المعز ثائرة عرب الصعيد والبحيرة غيرهما ، وشنق زعيمهم الشريف حصن الدين ثعلباً . ثم رأى أن خطر البحرية قد استشرى ، وأنهم استطالوا عليه حتى هموا بقتله ، وثقل عليه زعيمهم « فارس الدين أقطاى » — بالرغم من أنه عاونه فى غزواته — فاحتال حتى قتله ، وأدخل اليأس إلى قلوب أعوانه ، فتفرقوا ، ومنهم من رحل إلى الشام . وبذلك استراح المعز من الشاغبين عليه ، ولم يعد إزاءه غير زوجته الملكة « شجرة الدر » . فقد حاول أن يتزوج سواها فوقع الخلف بينهما ، وأساء فى التصرف معها . قيل : وعزم على قتلها ، فأحنقها وأثار غضبها . ولكنها تلطفت به حتى أمكنتها الفرصة فيه ، ودست إليه من خدمها من قتله وهو يستحم . وهكذا بدأ العصر بالمؤامرات والدسائس التى لازمته . وكانت وفاة المعز فى سنة ٦٥٥ هـ بعد أن حكم نحو سبع سنوات . وكان حازما شجاعا سفاكا للدماء . وقد حملت « شجرة الدر » بعد قتله إلى أم ولده علىّ فقتلها جواريها ودفنت بعد أيام .

٢ — المنصور « نور الدين بن المعز » ٦٥٥ هـ — ٦٥٧ هـ

هو نور الدين على بن المعز أيبك . ولى الملك بعد قتل أبيه عام ٦٥٥ هـ ، وكان صغير السن : فدبر له المملكة الأتابكى « قطز » . وفى عهده زاد خطر التتار ، وخربوا بغداد ،

١ — هذه رواية ابن إياس ، وروى المقريزى فى السلوك أنه « مظفر الدين موسى بن الملك المسعود الناصر صلاح الدين يوسف » وأن سنه كانت نحو ست سنين .

وأزالوا الخلافة العباسية منها ، وهموا بالزحف على الشام ومصر . فشعر أمراء مصر بالخطر الداهم القريب ، ورأوا أن يملكوا عليهم أحد كبارهم ، ليعتمدوا عليه فى صد العدوان . لذلك خلعوا المنصور بعد أن لبث فى الحكم قرابة سنتين وثمانية أشهر وملكوا عليهم أتابكيه « قطز » عام ٦٥٧ هـ .

٣ — المظفر « سيف الدين قطز » ٦٥٧ هـ — ٦٥٨ هـ

أصله من مماليك المعز أيبك ، وليس من البحرية . ولى الملك بعد المنصور بن المعز ، وهو الذى خلعه وقبض عليه وعلى أخيه وأمه وسجنهم ، وذلك عام ٦٥٧ هـ . واعتذر إلى من خالفه ونازعه من الأمراء ، بضرورة التأهب لمحاربة التتار وصدهم عن الديار ، ولا يكون ذلك على يد ملك صغير حدث . وأبدى استعداده للتنازل عن العرش متى تم لهم هزيمة العدو ، ثم ليقيموا فى الملك من يشاءون . وهكذا أخذ يترضاهم ، ومن ثم استعد للقاء التتار . وبعد قليل دهمهم هولاكو التترى مدينة حلب وخربها وقتل أهلها وهدم قلعتها ، ولوى جيده إلى دمشق — وكان عليها الملك الناصر — ففر الناصر ، واستسلمت دمشق للفاتح . وبعث هولاكو خطابا إلى قطز يطلب إليه الطاعة والتسليم . فما كان من قطز إلا أن قتل رسل هولاكو ، ولم شعث أمرائه ، وأعد العدة معهم للقتال ، وخرج للقاء التتار بجيوشهم الجرارة الزاحفة . وهناك بفلسطين التقى بهم بموضعين أولهما « عين جالوت » وثانيهما « بيسان » ، فدحرهم شر دحرة ، وشتت شملهم ، واستولى على الكثير من أسلابهم . وكانت موقعة « عين جالوت » أول موقعة هزم فيها التتار منذ قدومهم من ديارهم . وكان لهذه الهزيمة أثرها المعنوى فى نفوس المسلمين ، إذ فهموا — على الأقل — أن التتار قوة يستطاع التغلب عليها . وبهذه النصرة وقى الله مصر شر التتار ، وفتح أمامها بلاد الشام ، فأصبحت تابعة لها إذ استولى قطز عليها من الفرات إلى حدود مصر .

عاد قطز من القتال مظفرا ، فدبر له الأمير بيبرس البندقدارى مؤامرة لاغتياله . وكان بيبرس فى مقدمة أمرائه الذين أبلوا معه بلاء حسنا فى حروبه . فتمت قتلته على يده ويد المؤتمرين معه ، وذلك فى أخريات عام ٦٥٨ هـ . ولم يكن قد أتم سنة فى حكمه . وقفز إلى العرش بعده الأمير بيبرس .

٤ — الظاهر « ركن الدين بيبرس » ٦٥٨ هـ — ٦٧٦ هـ (١)

هو ركن الدين بيبرس البندقداري . وقد لقب بالظاهر . ولى عام ٦٥٨ هـ . وهو أهم ملوك الدولة البحرية . وأصله من أرض القبجاق ، أسر وبيع ، واشتراه صغير السن رجل يدعى « العماد الصائغ » ، فباعه للأمير « علاء الدين أيدكين البندقداري » . ثم انتقل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، فنسب لذلك إليهما وقد أعتقه الصالح وضمه إلى مماليكه البحرية ورباه معهم ، فشب شجاعا باسلا لا يهاب الموت . وقد عرفته الحروب — وهو أمير — مقداما صنديدا . عرفته في موقعة « المنصورة » التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه ، و موقعتي « عين جالوت » و « بيسان » اللتين هزم فيهما التتار في عهد قطز .

اشترك بيبرس ، قبل سلطنته ، في عدة مؤامرات ، منها مؤامرته مع المماليك البحرية بزعامة « فارس الدين أقطاي » ، ضد الملك المعز . فلما قتل « فارس الدين » وشتت شمل زملائه ، فر « بيبرس » مع بعضهم إلى بلاد الشام ، واتصل بعسكها الناصر . ثم عاد إلى مصر في عهد قطز ، وعين « أتابك العسكر » ، فقاتل معه في الطليعة . ثم دبر مؤامرة اغتيال « قطز » بعد انتصارهم على التتار ، إذ تقدم بيبرس إلى سلطانه ليقبل يده لأنه منحه جارية حسناء من سبايا التتار — كما قيل — وكانت هذه علامة بيبرس لأعوانه ، فانقضوا على سلطانهم بالسيوف فقتلوه . وأقاموا بيبرس مكانه سلطانا . وقيل إن « قطز » كان قد وعد بيبرس بولاية حلب ، ثم أخلف ، فكان ذلك سببا للوحشة بينهما (٢) ، وسبيلا للائتمار فالقضاء عليه .

ويعتبر المؤرخون « بيبرس المؤسس الحقيق لعظمة الدولة البحرية ، لما تم على يده وفي عهده من جليل الأعمال . فلقد اعتلت عليه بلاد الشام في أول عهده بالسلطنة إذ أعلن الأمير « سنجر الحلبي » بنفسه سلطانا عليها ، وتلقب بالملك المجاهد ، وجمع من حوله عدة من الأمراء . وزاد الطين بلة معاودة التتار الزحف على بلاد الشام ، فنهبوا وقتلوا وسبوا . هذا إلى زيادة نفوذ الفرنجة في إماراتهم الشامية ، وإلى قيام مماليك المعز بمؤامرة واسعة النطاق للقضاء على سلطنة بيبرس .

---

١ — ترجمة بيبرس موجودة بتفصيل واسع في سلوك المقريزي ، كذلك في بدائع ابن إياس ونحوها . وفي الفوات لابن شاكر فصل عنه ج ١ ص ١٠٩ .

٢ — هذه رواية السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » عند الكلام عن شرح حال التتار .

هذه أمور جبهت مصر . فلم يكترث لهـا ، وقابلها ثابت الجأش قوى النفس صلب الإرادة ماضى العزيمة . ففتك بمماليك المعز وقضى على مؤامراتهم . وجرد جيشا قوى الشكيمة على بلاد الشام فأخضع أمراءها ، وأوقع بالتتار وردهم عنها دا حزين . وأذل الفرنجة ونهنه من نفوذهم . وهزم الأتراك السلاجقة . وفتح جملة من البلاد منها : البيرة والكرك ، وحمص ، وبيسارية ، وأرسوف ، وصفد ، ويافا ، والشقيف ، وأنطاكية ، وحصن الأكراد ، وعكا ، وصافيتا ، وبلادسيس .

وقد غزا بيبرس بلاد السودان واحتاز منها جزءا ، إلى جانب ما احتازه . فهابه الناس ، ودان له الملوك والأمراء ، وامتد فى عهده ملك مصر ، وانتشر سلطانها شرقا وغربا ، وهيبت منزلتها . وظل بيبرس سلطانا عليها يملأ الدنيا مهابة ، زهاء سبعة عشر عاما ثم مرض وتوفى بدمشق ودفن بها عام ٦٧٦ هـ .

وأهم ما يتصف به بيبرس : الشجاعة والإقدام على الحروب وحسن ترتيبها ، مع الدهاء والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء . وكان يكرم العلماء وينطوى تحت مشورتهم ، ويقربهم . وكان بعضهم يخاشنه فى الحديث والنصيحة فلا يبطش به لخاشنته ، وكان يهاب سلطان العلماء فى زمانه وهو « عز الدين بن عبد السلام » . ووقعت بينه وبين عبدالله يحيى النووى أحد علماء الشام مكاتبات أغلظ له فيها النووى الصيحة ، فما زاد على أن نفاه من دمشق (١) . وبعث إليه ابن مالك النحوى صاحب الألفية المشهور رسالة من الشام يستعينه فيها على صلاح حاله ، فأعانه .

ومن أجل أعماله : أن أمر بإبطال شرب الخمور ومقارفة الزنا ، وأشباه ذلك من المفاسد . وشدد النكير على مقترفى هذه الآثام ، حتى شدا بذكره بعض شعراء عصره ، وتفكه بذلك بعض منهم آخر (١) كما أنه نظم البريد وخصص له الخيل ، وبنى كثيرا من العمائر ، ومن بينها مسجده الشهير . وجدد المسجد النبوى الشريف ، وشاد القناطر والأسوار ، وحفر الترع والخلجان ، إلى غير ذلك من ضروب الإصلاح والإنشاء .

وقد انتاب البلاد فى عهده قحط وغلاء ، وكان به ميل إلى ظلم الرعية والقسوة عليها بفرض الضرائب المرهقة ، بدعوى الحاجة إلى المال للجهاد وإعداد الجند ، مع امتلاء

---

١ — انظر الأغراض الكتابية فى الجزء الثالث من هذا الكتاب .

٢ — انظر باب « الزجل فى الجزء الرابع من هذا الكتاب .

بيت المال بالمال. غير أنه لم يكن به ضنينا على جنده . واتهمت طائفة من نصارى القاهرة بإحداث الحرائق فى بعض أنحائها ، فكاد يحرق أفرادها عقابا لهم . لو لا شفاعة بعض أمرائه ، فعفا عنهم بعد أن دفعوا له غرما ماليا .

ومن أهم الحوادث فى عهده ، أولا: أنه أقام خلافة عباسيه ثانية مركزها مدينة القاهرة وذلك بعد أن زالت الخلافة العباسية الأولى من بغداد على يد التتار . فكان فى هذا كسب أدبى لمصر ، وتأهيل لزعامة العالم الإسلامى وجعل القاهرة مركزا للعلوم الإسلامية . ثانياً : أنه أعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر وعمره هو وجامع الحاكم بعد أن هجر ازمناطويلا. ثالثاً: نصب أربعة قضاة شرعيين ، واحد من كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة ، بعد أن لم يكن بالبلاد إلا قاضى قضاة شافعى واحد يقضى بمذهب الإمام الشافعى . رابعا : أمر بأن يطاف بالمحمل حين خروجه من مصر إلى الأراضى المقدسة . — وولى الملك بعده ابنه الملك السعيد .

٥ - السعيد « أبو المعالى محمد » ٦٧٦ هـ - ٦٧٨ هـ

هو أبو المعالى محمد بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس ، ولى الملك بعد أبيه سنة ٦٧٦ هـ ، وهو فى الثامنة عشرة من عمره تقريبا . فبطش ببعض الأمراء ، فأضمروا له الحقد والضغينة ، وحاكوا له المؤامرات ، وأعلنوه بالحرب حتى اضطر إلى أن يخلع نفسه من السلطنة ، وينزح إلى الكرك ، حيث مات بعد قليل ، ونقل إلى دمشق ودفن مع والده . وكان خلعه بعد نحو سنتين من حكمه عام ٦٧٨ هـ . ومما يذكر أنه كان زوجا لابنة قلاوون الذى ملك فيما بعده أخوه الملك العادل .

٦ — العادل « سيف الدين سلامش » ٦٧٨ هـ

هو سيف الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس . ولى الملك بعد خلع أخيه . كان عمره سبع سنوات . فاستبد بتدبير دولته الأمير « قلاوون » أتابك العسكر . فكان يخطب له مع السلطان يوم الجمعة ، وضربت النقود باسميهما . ثم صفاوجه الأمور لقلاوون ، فخلع العادل ونفاه إلى الكرك ، بعد مائة يوم من سلطنته ، وفى نفس السنة التى ملك فيها . ثم ولى قلاوون السلطنة .

٧ – المنصور « سيف الدين قلاوون » [1] ٦٧٨ هـ – ٦٨٩

هو سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالح النجمي ، ولقب بالمنصور . ولي الملك سنة ٦٧٨ هـ . وكان من قبل مملوكا يبيع للأمير علاء الدين آق سنقر ، ثم ملكه الصالح نجم الدين الأيوبي ، فضمه إلى مماليكه البحرية . ثم أعتق . ولبث يترقى في سلك الإمارة حتى صار أتابكيا في عهد العادل بن بيبرس . وقد اشترك من قبل في حوادث البحرية .

ويعتبر « قلاوون » من أعظم سلاطين هذه الدولة ، لما قام به من فتوح وأعمال جليلة ، ولأنه رأس أسرة قلاوون التي تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكا . وحكموها وحدهم قرابة مائة عام وكان « قلاوون » مغرما بشراء المماليك الجدد ، قيل : بلغت عدة ما اشتراه اثني عشر ألف مملوك . وقيل : أقل .

وبعد توليته بقليل خرج عليه نائبه بدمشق الأمير « شمس الدين سنقر الأشقر » وأعلن بنفسه ملكا عليها وتلقب بالملك الكامل ، فأرسل إليه مملوكه « طرنطاي » وكان نائب سلطنته بمصر ، فما زال به « طرنطاي » حتى استسلم . ودانت بلاد الشام ثانية للمنصور . وكان التتار قد شرعوا في الهجوم على بلاد الشام ، وخربوا مدينة حلب . فوثب عليهم « قلاوون » بجند كثيف ، وشتت شملهم في مدينة « حمص » ، وأخذ يعاود حربهم ، حتى فل من عزيمتهم ، وثبط من همتهم ، وارتدوا عن الشام خائبين . وحاصر مدينة « طرابلس » أربعة وثلاثين يوما ، حتى انتزعها هي و « حصن المرقب » من يد الفرنجة . وخرب « طرابلس » وبنى على مقربة منها مدينة « طرابلس » الحالية وغزا بلاد النوبة مرتين ، واستولى منها على غنائم وأسلاب كثيرة .

ثم مات المنصور بعد أن حكم نحو إحدى عشرة سنة ، وبعد أن أذل التتار والفرنجة وأخضع الشام . وكانت وفاته عام ٦٨٩ هـ .

ومن أجل آثاره « البيمارستان » المنصوري الذي أنشأه بالقاهرة ، وهو مستشفى عام لكثير من الأمراض ، ومدرسة طبية . وكانت الفقراء تعالج فيه بالمجان . وفيه قبة عظيمة دفن فيها . وله كذلك مسجد مشهور . وقيل : إن سبب بناء « البيمارستان » أن المنصور توهم أن العوام خالفوا أمره وخرجوا عليه ، فأمر جنوده فأعملوا السيف في

---

١ — في السلوك والبدائع ونحوها تراجم لقلاوون . وكذلك في فوات ابن شاكر ج ٢ ص١٦٦

رقابهم جزافا ثلاثة أيام ، حتى قتلوا منهم عددا لايحصى ، وأخذ المسىء والبرىء . ثم بدا له سوء عمله ، فكف عنهم ، ثم ندم ، ثم بنى هـذا المسجد تكفيرا لذنبه ، وأوقف عليه أوقافا لاتحصى . كما أوقف غيرها على أعمال البر والإحسان .

ومن حسناته كذلك ، أن ألغى بعض الضرائب المرهقة ، ومنها ماكان يتقاضاه ناظر المال زكاة خاصة للمال ، من صاحبه أو من ورثته بعد موته ، ولو بعدوا ، أوضاع منهم المال . ومنها ماكان يجبيها المبشرون بفتح من الفتوح التى تتم على يد السلطان . ومنها رسم السماط الذى يجبى من الناس للاحتفال بوفاء النيل — وولى الملك من بعده ابنه الاشرف خليل .

٨ — الملك الأشرف «صلاح الدين خليل» ٦٨٩ هـ — ٦٩٣ هـ

تولى الملك بعد وفاة أبيه ، بعهد منه ، وذلك فى سنة ٦٨٩هـ — وكان بينه وبين نائب السلطنة «طرنطاى» فى عهد أبيه بغض ، فقتله فى بدء ولايته ، مع أنه هو الذى حفظ له العرش من عبث الأمراء له بالاستيلاء عليه . ثم أناب السلطان مكانه الأمير «علم الدين الشجاعى» . ولكن كان هناك وزير ذو صلة وثقى بالسلطان ، وهو ابن السعلوس ، فكان هو المتصرف الحقيقى فى شئون دولته .

وقد حارب الأشرف فى بلاد الشام ففتح مدينة «عكا» بعد أن رماها بالمنجنيق وهدم سورها وقلعتها وكانت بيد الفرنجة . وفتح «بيروت» وغيرها ، ثم دخل مصر عائدا دخول الفاتحين .

غير أن الأشرف اشتط فى القبض على أمرائه والتنكيل بهم بالسجن أو الخنق ، وسمع وشاية وزيره ابن السعلوس فى الأمير «بيدرا» وهو من كبار الأمراء ، فأثخنه بهجر القول . فما كان من «بيدرا» إلا أن تآمر هو وبعض الأمراء على اغتياله . فتم لهم ما أرادوا ، عندما كان الأشرف فى بعض نزهة . فوثبوا عليه وقتلوه قتلة شنيعة مزقوا فيها جسده شر ممزق عام ٦٩٣ هـ ، فمات وهو فى نحو الثلاثين . بعـد أن حكم نحو ثلاث

---

١ — بدار الكتب المصرية كتاب عن الأشرف اسمه «الألطاف الخفية» لمؤلفه عبد الله ابن عبد الظاهر . طبع باريس ، وبرقم ١٨٥٨ تاريخ منه جزء — وفى الفوات ج ١ ص ١٩٣ فصل طويل عن الأشرف أيضا .

سنوات . وملك بعده «بيدرا» .

استقر رأى قاتلى الأشراف على تمليك هذا الأمير ، فهو رأس المؤامرة ، ولقبوه « بالملك الأمجد » . غير أن أتباع الأشرف لم يتركوا « بيدرا » فى ليلته تلك إلا مقتولا فلم ينعم بسلطته ، ولم يعترف به أحد . ولذلك يسقطه كثير من المؤرخين من عداد ملوك هذه الدولة .

٩ — الناصر « محمد بن قلاوون » ٦٩٣ هـ — ٦٩٤ هـ

بويع بالسلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف ، ومقتل « بيدرا » ، وذلك عام ٦٩٣ هـ ، وكان فى سن التاسعة . وهذه أول تولية له لأنه خلع من السلطنة وعاد إليها مرتين . وفى هذه المرة قام بتدبير الملك له نائب السلطنه الأمير « كتبغا » ، وكان صغر سن السلطان ، سببا فى طمع الأمراء فى المملكة ، واضطراب أحوالها . فقامت فتنة شعواء بين الأمير « كتبغا » والأمير « سنجر الشجاعى » جرت بسببها حروب داخلية ، انهزم فيها « الشجاعى » وقتل . فاستبد « كتبغا » بالملك ، ووافقه الأمراء على خلع الناصر ، فخلعه بعد أن حكم أحد عشر شهرا . وتولى السلطنة مكانه . وتم ذلك عام ٦٩٤ هـ .

١٠ — العادل « كتبغا المنصورى » ٦٩٤ هـ — ٦٩٦ هـ

تولى الملك بعد أن خلع الناصر عام ٦٩٤ هـ . وأصله من سبايا التتار الذين أسرهم المنصور قلاوون فى موقعة « حمص » ثم أعتقه ، وما زال يرقى حتى أصبح نائب السلطنة ، ثم وثب إلى سرير الملك . ومن أعماله أنه رحل إلى بلاد الشام فى السنة الثانية من حكمه ومهد أمورها ، وبينما هو فى الشام إذ أعان أمراء مصر خلعه سنة ٦٩٦ هـ بتدبير الأمير « لاجين » نائب سلطنته ، ووثب « لاجين » مكانه إلى السلطنة ، فظل العادل إزاء ذلك ، مقيما فى « صرخد » مخلوعا وإن كان مرعى الجانب مكرما ، وكانت مدة سلطنته فى مصر نحو سنتين ، وفيها وقع الغلاء وانتشر الوباء وقصر ماء النيل ، وتوطنت بمصر طوائف من المغول تعرف « بالأويراتية » جلت إليها بأمر العادل .

ومما يذكر أن العادل هذا لبث حتى عاد الناصر بن قلاوون إلى السلطنة ، فولاه ملكا على نيابة « حماة » عام ٦٩٩ هـ . فظل بها نائبا عن سلطان مصر حتى أدركته الوفاة عام ٧٠٢ هـ .

١١ — المنصور « حسام الدين لاجين » ٦٩٦ هـ — ٦٩٨ هـ

أصله من معتوقى قلاوون . وكان نائب سلطنة فى عهد « كتبغا » فانتهز مقام سلطانه بالشام ودبر أمر خلعه ، ووثب على سلطنته عام ٦٩٦ هـ . ومن أعماله : أنه جدد بناء جامع ابن طولون وأوقف عليه أوقافا طائلة . وأنه أعاد تقسيم البلاد المصرية إقطاعات جديدة ، وفرقها بينه وبين الأمراء والجنود ، وخص نفسه منها بنصيب كبير . وهذا التقسيم هو المعروف « بالروك الحسامى » . فكان سببا فى النفرة بينه وبين الأمراء . ومما زاد النفور ، أنه عين مملوكه « منكوتمر » نائبا عنه فزاد نفوذه ، وكان غاشما ، أساء إلى كثير من الأمراء . فدبروا مؤامرة لقتلهما ، فقتلا فى ليلة واحدة من عام ٦٩٨ هـ .

العودة الأولى للناصر محمد بن قلاوون ٦٩٨ هـ — ٧٠٨ هـ

بعد أن قتل المنصور لاجين ، استشار الأمراء بعضهم بعضا فيمن يولونه السلطنة ، فاتفقوا على إعادة الناصر محمد بن قلاوون . فعاد إلى عرشه بعد أن ظل نحو أربع سنوات مقصيا عنه . وذلك عام ٦٩٨ هـ . وعاونه فى تدبير شئون الدولة الأميران « سلار » نائب السلطنة و « بيبرس » الجاشنكير أتابك العسكر (١) وبعد سلطنته بقليل أراد التتار أن يغزوا بلاد الشام ومصر . فاستعد الناصر برجاله وزحف إلى الشام . وهناك فى « سلمية » قرب بعلبك ، وقعت بين الفريقين معركة حامية ، دارت فيها الدائر على الناصر وجيشه ، ففر من وجه التتار . وأمعن التتار فى فلول المصريين سلبا ونهبا ، وفى بلاد الشام قتلا وتخريبا . فتشاور أهل دمشق فيما بينهم ، فاستقر رأى علمائهم على طلب الأمان من « غازان » ملك التتار ، فأمنهم ، وكان الأمير « قفجق » نائب الشام — كان — هو الذى حسن لغازان غزو الشام ، ولذلك عينه نائبا عنه فيها . — ومع ذلك ظل التتار يعيثون فى بلاد الشام فسادا . وأخذ الناصر بعد فراره يحشد جيشا جديداً لملاقاة أعدائه . ثم زحف إلى بلاد الشام ثانية عام ٧٠٢ هـ ومعه الخليفة وقضاة مصر الأربعة ونحو مائتى ألف جندى . فلاقى جنود « غازان » فى موقعة « مرج راهط » (٢) ، فانتصر الناصر

---

١ — ذكر فى السلوك أن بيبرس هنا كان أستادارا .

٢ — ذكر فى السلوك أنهم تلاقوا فى « شقحب » ، وروى فى البدائع « فى مرج راهط » وذكر كل مواضعه أنه « تحت جبل غباغب » قريبا من دمشق . وقيل إن « مرج راهط » هو « شقحب » و « مرج الصفر » راجع العبر لابن خلدون ج ٥ ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

عليهم انتصارا حاسما . وأفنى التتار إفناء تاما، حتى أنه لم ينج منهم إلا القليل ، وغنم منهم غنائم عدة . ولكن بعد أن قُتل من أمراء مصر وجنودها وعربانها عدد كبير . — فدانت بلاد الشام بذلك لمصر ثانية ، وخضعت لمشيئة سلطانها . ثم عاد الناصر إلى مصر ، وقد صفا له وجه الملك . ومازال صافياحتى فسد ما بينه وبين « بيبرس » . فرحل الناصر من القاهرة معلنا بأنه يرحل للحج — ولكنه عندما وصل إلى الكرك ، خلع نفسه من السلطنة ليولى الأمراء من يشاءون . وذلك عام ٧٠٨ هـ بعد أن حكم فى هذه المرة نحو تسع سنوات ونصف .

١٢ — المظفر « ركن الدين بيبرس » ٧٠٨ هـ — ٧٠٩ هـ

هو بيبرس الجاشنكير من مماليك المنصور قلاوون . وكان قد ترقى فى عهد الناصر محمد ، فصار أتابكيا . فلما خلع الناصر نفسه عن الملك وقع اختيار الأمراء عليه فولى السلطنة عام ٧٠٨ هـ . فقبض على الأمراء الموالين للناصر ، فكان ذلك سببا فى هروب بعضهم إلى الناصر والاجتماع به بالكرك . فأرسل المظفر إليه يهدده بسبب من يجتمع إليه من الأمراء . فثار غضب الناصر وكاتب نواب بلاد الشام فى أن يكفوا عنه أذى المظفر بيبرس . فأظهروا خضوعهم للناصر وطاعتهم . فلما رأى ذلك ، سار إلى بلاد الشام ودخلها ملكا وسلطانا ، وخطب باسمه على منابرها . فكان ذلك خير تمهيد لعودته ثانيا إلى عرشه بمصر . ولما رأى المظفر بيبرس أن الأمراء ينحازون إلى جانب الناصر ، كاتبهُ بخضوعه له ونزوله عن الملك . وعرض عليه أن يعيش فى إحدى مدن الشام . ثم إنه فرفى بعض خواصه إلى صعيد مصر . وزحف الناصر إلى البلاد المصرية منتصرا . فلما دخلها سنة ٧٠٩ هـ ، أرسل أمانا إلى المظفر بيبرس ، وأمره بأن يسير من صعيد مصر إلى الكرك مباشرة . على شرط أن يرد جميع الأموال والتحف والمماليك الذين غصبهم من بيت المال والخزائن ، ففعل وامتثل الأمر ، وسار متوجها إلى الكرك . وبينما هو فى طريقه إليها إذ قبض عليه وأُتى به إلى القاهرة ، ثم خِنق أمام الناصر . — وكانت مدة حكمه عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

العودة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ٧٠٩ هـ — ٧٤١ هـ

عاد إلى سلطنتة سنة ٧٠٩ هـ بعد أقل من عام مضى على مفارقتها . ولما دخل القاهرة وصعد إلى القلعة ، بايعه الخليفة المستكفى بالله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . ثم قبض على الملك السابق وأعدمه كما بينا . ثم أخذ فى القضاء قضاء حاسما على أعدائه والمؤتمرين به . ويظهر أنه رأى أن نواب السلطنة خطر عليه ، فكان يفتك بالواحد منهم تلو الآخر ، ثم ألغى نيابة السلطنة . ورحل فى عسكر كثير العدد إلى بلاد الشام ، ومنها إلى البلاد الحلبية ، على أمل أن يلتقى بالتتار . ولكنهم لم يجسروا على لقائه . فامتد نفوذه فى أرجاء تلك البلاد حتى هابه الناس . وخطب باسمه على منابر بلاد المغرب ، وسعت إلى وده الملوك ، وأرسلت إليه الهدايا النفيسة . وذخرت خزائنه بالمال . وبلغ ما كان لديه من المماليك والأمراء نحو أربعة وعشرين ألفا ، وقيل بلغ عدد ما اشتراه اثنى عشر ألفاً ، وألبسهم الأقمشة الثمينة ، وقلدهم السيوف المحلاة . وامتلأ عصره بكثير من مشهورى العلماء والأدباء والشعراء .

ومن أعماله : أنه قسم البلاد الشامية والبلاد المصرية إلى إقطاعات جديدة بينه وبين الأمراء والجند . وهو يخالف التقسيم الذى تم فى عهد الملك المنصور حسام الدين لاجين. ويعرف التقسيم الجديد باسم « الروك الناصرى » . وقد قام الناصر ببناء جملة قصور وعمارات ومساجد وقناطر . وهو الذى حفر الخليج الناصرى عام ٧٢٤ هـ ، ومن ذلك الحين أصبح لكسر سده كل عام يوم حافل . وهو الذى أنشأ حوش القلعة ، وجمّله ببستان بديع . وحج مرتين(١) وبصحبته الملك المؤيد صاحب حماة وجمع من كبار الأمراء. وأهدى إلى الكعبة الشريفة فى حجته الثانية سنة ٧٣٢ هـ بابا من خشب السنط الأحمر مغطى بالفضة . وقد ضيق الناصر الخناق على البغايا وأهل الفساد ، وأبطل بعض المكوس الظالمة . وولد أحد عشر ولدا ذكرا ، اعتلى عرش البلاد منهم ثمانية . وقد مات الناصر عام ٧٤١ هـ ، بعد أن اتسع ملك مصر فى عصره شرقا وغربا ، وهابتها جيرانها وثبتت دعائم دولتها . وهو بلاريب من أعظم سلاطين الدولة ، ولا يدانية منهم سوى أبيه المنصور قلاوون ، والظاهر بيبرس . وكان مجموع السنين التى حكم فيها فى المرات الثلاث ، نحو ثلاث وأربعين سنة وثمانية أشهر. وقد تولى من بعده ابنه أبو بكر ، وكان قد عهد إليه قبل وفاته .

١ — خروج الناصر للحج ثلاث مرات . ولكن فى المرة الأولى عدل عن الحج وأقام فى الكرك .

١٣ — المنصور « سيف الدين أبو بكر » ٧٤١ هـ — ٧٤٢ هـ

هو ابن الناصر محمد بن قلاوون . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه عام ٧٤١ هـ . وكان أبوه قد جعله وليا لعهده ، مع أنه ليس أكبر أبنائه . وجلس على سرير الملك وعمره نحو العشرين . ولكنه لم يدم فيه سوى تسع وخمسين ليلة ، ثم دبرت ضده المؤامرات ، فقبض عليه الأتابكى « قوصون » ، وأرسله إلى السجن بمدينة قوص ، وهناك قتل . وتولى من بعده أخوه .

١٤ — الأشرف « علاء الدين كجك » ٧٤٢ هـ

وهو ابن الناصر محمد ، ولى السلطنة بعد خلع أخيه وذلك فى أوائل سنة ٧٤٢ هـ . وكانت سنه حينئذ أقل من ثمانى سنوات . فاستبد الأتابكى « قوصون » بالأمر وكان قد جمع بين الأتابكية ونيابة السلطنة . وقد اضطربت أحوال الدولة ، ووقع الخلف بين الأمراء . فتجمع عدد من أمراء الشام حول « أحمد بن الناصر محمد » وكان مقيما بالكرك — وهو أكبر إخوته — فرغبوا إليه فى أن يلى السلطنة عوضا عن أخيه « كجك » ، وتوجهوا جميعا إلى مصر فوقعت فتن إذ ذاك كثيرة ، أدت إلى القبض على «قوصون» وخلع السلطان الأشرف « كجك » . وتولى مكانه أحمد . فزال ملك كجك فى عام توليته بعد حكم خمسة أشهر تقريبا .

١٥ — الناصر « شهاب الدين أحمد » ٧٤٢ هـ — ٧٤٣ هـ

هو أكبر أبناء الناصر بن قلاوون . ولى الملك بعد خلع أخيه سنة ٧٤٢ هـ ، وأول عمل قام به أمره بقتل سبعة من الأمراء ، وسجن آخرين ممن توهم فيهم العداوة له . فكان هذا سببا فى نفور قلوب الجند منه . ثم إنه أقام بالكرك زمنا طويلا ، ولم يلتفت إلى شئون الرعية . فنظر الأمراء فى الأمر ، وقر قرارهم على أن يطلبوا إليه الحضور . فلم يلب لهم طلبا . فقرروا خلعه وتولية أخيه إسماعيل . وهكذا انتهت سلطنته بعد شهرين واثنى عشر يوما ، فى أوائل عام ٧٤٣ هـ . وظل مقيما بالكرك زمنا ، ثم قتل بأمر أخيه .

١٦ — الصالح « علاء الدين إسماعيل » ٧٤٣ — ٧٤٦ هـ

هو أبو الفداء إسماعيل بن الناصر بن قلاوون . ولى السلطنة عام ٧٤٣ هـ ، بعد عزل أخيه الناصر أحمد . وشغل بقتال أخيه زمنا حتى استسلم له فى النهاية ، وقبض عليه وقتل . وكان الملك الصالح محبا للعدل معروفا بالبر والإحسان . وقد توفى سنة ٧٤٦ هـ .

١٧ — الكامل « شعبان بن الناصر محمد » ٧٤٦ هـ — ٧٤٧ هـ

بويع بالسلطنة عام ٧٤٦ هـ بعد موت شقيقه إسماعيل بعهد منه . ثم قبض على بعض الأمراء وسجنهم ، وأخذ يصادر أموال المباشرين ، وعادى كثيرا من الأمراء ،وهم بقتل أخوين من إخوته منهما أخوه « حاجى » فكان ذلك سببا فى تحزب بعض الأمراء عليه ، فدارت بين الفريقين موقعة فى جهة قبة الهواء ، انهزم فيها السلطان وولى هاربا . فاتفقت كلمة الأمراء على خلعه وتولية أخيه « حاجى » . وكان ذلك عام ٧٤٧ هـ بعد توليته بنحو سنة وشهرين ونصف . وقد قبض على الكامل فيما بعد ، وخنق فى سجنه بأمر أخيه .

١٨ — المظفر « حاجى بن الناصر محمد » ٧٤٧ هـ — ٧٤٨ هـ

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الكامل شعبان ، عام ٧٤٧ هـ . وكانت سنه دون العشرين . وفى أول عهده قبض على عدد من الأمراء ، وسجنوا بثغر الإسكندرية ، وأمر بخنق بعض الأمراء الآخرين . ثم إنه اشتغل بتربية الطيور والحمام واللعب بها ، ولها عن النظر الصادق فى شئون الدولة ، واستخف بالأمراء . فتغيرت قلوبهم عليه واتفقوا جميعا على خلعه . فوقعت بين الفريقين موقعة رائعة أسر الملك « حاجى » على إثرها وسجن ثم خنق ، فمات بعد سلطنة دامت سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ، وكان ذلك عام ٧٤٨ هـ . ثم ولى الملك من بعده أخوه .

١٩ — الناصر « أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد » ٧٤٨ ﻫ — ٧٥٢ ﻫ

ولى الملك بعد أخيه «حاجى» عام ٧٤٨ ﻫ إذ اجتمع رأى الأمراء بعد لأى - على توليته . وكان عمره حينئذ ثلاث عشرة سنة . فعاونه بعض الأمراء فى تدبير ملكه . ووقع فى زمنه طاعون جارف وهو وباء عام ٧٤٩ﻫ الذى أهلك كثيرا من الناس واشتد بسببه الغلاء . وقامت فتنة شديدة فى بلاد الشام ، إذ اعتدى نائب طرابلس « جبغا »على دمشق ، واغتال نائبها « أرغون شاه »، فوثب جندها على نائب طرابلس ، وقبضوا عليه ثم شنقوه . ثم إن بعض الأمراء تآمر على خلع الملك فقبضوا عليه وسجنوه بالقلعة داخل منزل الحرم سنة ٧٥٢ ﻫ ، بعد أن لبث فى الحكم نحو ثلاث سنين وتسعة أشهر. واختاروا من بعده أخاه صالحا .

٢٠ — الصالح « صلاح الدين بن الناصر محمد » ٧٥٢ ﻫ — ٧٥٥ ﻫ

بويع بالسلطنة عام ٧٥٢ ﻫ بعد خلع أخيه حسن . وكان الساعى إلى تمليكه الأمير « طاز » ، ولذلك أصبح هذا الأمير صاحب التصرف المطلق فى شئون الدولة . فدبت عقارب الحسد والبغض له فى قلوب كثير من الأمراء ، وأجمعوا أمرهم على قتاله هو والسلطان . فوقعت حرب أهلية بين الفريقين قرب المطرية عند خليج الزعفران ، قتل فيها عدد كبير من الأمراء . ثم انتصر السلطان عليهم وقبض على بعضهم وألقاه فى السجن . ثم خرج عن طاعته نائب حلب « بيبغا أروس » ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد وغيرهم ، فوقعت البلاد الشامية فى فتنة قاسية بسبب ذلك . فسار إليهم السلطان بعسكر كثير، وطارد «بيبغا» حتى هرب إلى بلاد التركمان . وقبض السلطان على كثير من جنوده ، وأعدم بعض الأمراء المنضمين إليه ، وسجن بعضا آخر. ثم عاد إلى القاهرة فى حفل عظيم .

وقد مات فى زمنه الخليفة المستكفى بالله العباسى ، فتولى الخلافة ابنه أبو بكر المعتضد بالله . وثار عربان الصعيد فأخمد ثورتهم ، وغنم منهم أسلابا عدة ، وأسر نحو سبعمائة نفس منهم ، وأعدمهم فى القاهرة .

وبعد أن حكم نحو ثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف ، دبرت مؤامرة لخلعه بزعامة الأمير « شيخو العمرى » ، مع أن هذا الأمير كان مسجونا من قبل ، فأطلقه هذا الملك، وقد نجحت مؤامرته ، فقبض على السلطان ، وسجن بمنزل الحرم بالقلعة أيضا . واتفق

الأمراء على إعادة الناصر حسن إلى العرش ثانيا . وكان خلع الملك الصالح عام ٧٥٥ هـ .

عودة الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ٧٥٥ هـ — ٧٦٢ هـ

عاد إلى العرش فى سنة ٧٥٥ هـ بعد خلع أخيه الصالح . وكان طبيعيا أن يطلق يد الأمير « شيخو العمرى » الأتابكى فى الملك . وقد شاركه فى ذلك الأمير « صرغتمش » . وقد بنى الأمير « شيخو » مدرسة جليلة الشأن ، ودورا ، وخانقاه ، وغير ذلك من العمائر النافعة ، ثم أوقف عليها أوقافا واسعة . وكذلك فعل السلطان حسن ، إذ أنشأ مدرسته المشهورة عام ٧٥٧ هـ.

وكان أحد المماليك يحقد على الأمير « شيخو » ، فغافله مرة وعاجله بضربة كانت القاضية . وبموته خلا الجو للأمير « صرغتمش » . وسرعان ما فطن السلطان إلى ضخامة نفوذه ، فخشى عاقبته ، فعجل بالقبض عليه . فثارت ثائرة أتباعه فأخمدها السلطان ، وسجن كثيرا منهم ، ثم إنه خنق « صرغتمش » وهو فى سجنه . إلا أن الفساد كان قد امتد ، حتى لحق « بيلبغا » الناصرى مملوك السلطان ، فثار على سيده وهزمه وقبض عليه ، ثم سجنه . وقيل : إنه خنقه ورماه فى البحر ، لأن جثته لم يعثر لها على أثر . وذلك عام ٧٦٢ هـ . وكانت مدة حكمه زهاء عشر سنوات ونصف . ومن أعمال هذا السلطان : أنه نزع بعض الأراضى المحبوسة على منافع الكنائس والأديرة ، وأنعم بها على الأمراء وأنه أبطل كثيرا من العادات التقليدية الخرافية ، وكثيرا من أنواع الفساد .

٢١ — المنصور (محمد بن المظفر حاجى) ٧٦٢ هـ — ٧٦٤ هـ

هو حفيد الناصر بن قلاوون . بويع بالسلطنة بعد مقتل عمه الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ . وكان عمره حينئذ أربعة وعشرين عاما . وقد قام بتدبير ملكه الأمير « يلبغا » العمرى الناصرى الذى أصبح أتابكيا . وفى أول عهده بالحكم أفرج عن كثير من الأمراء المسجونين . ثم اضطربت عليه أحوال البلاد الشامية ، فخرج إليها فى عدد من أمرائه ، وجمع من جنده ، وأخمد فتنتها ، وقبض على زعمائها ، ثم عاد إلى القاهرة . فما لبث إلا ريثما قبض عليه الأمير « يلبغا » وخلعه وسجنه بالقلعة ، وولى بدله ابن عمه . وذلك فى عام ٧٦٤ هـ بعد أن حكم نحو سنتين وأربعة أشهر .

٢٢ — الأشرف « شعبان بن حسين » ٧٦٤ هـ — ٧٧٨ هـ

هو أبو المعالى زين الدين شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون . ولى الملك بعد خلع ابن عمه المنصور عام ٧٦٤ هـ ، وكانت سنه العاشرة . فدبر له الملك الأمير « يلبغا » العمرى ، وفى عهده غزا صاحب قبرص مدينة الإسكندرية وخربها . فسار إليه السلطان فى جمع كثيف ، ولكنه وجده قد غادرها إلى بلاده . ثم ثارت جماعة من أمراء المماليك على السلطان والأتابكى « يلبغا » ، وخالفوا أوامرهما ، فوقعت بين الفريقين معركة هائلة ، كادت تدور دائرتها على السلطان وجنوده . ولكنهم انتصروا فى النهاية ، وتمكنوا من القبض على أعدائهم ، فسجنوهم بالإسكندرية .

ثم إن الأتابكى « يلبغا » قام بتشييد عمارة بحرية كبيرة ، لاستخدامها فى الذود عن الشواطىء المصرية ، وحمايتها من عبث الفرنجة . وفى يوم إنزال هذه السفن إلى النيل أقيم احتفال رائع ، شهده السلطان . فلما انتهى من شهود الاحتفال عبر إلى جهة الجيزة ومعه أتابكيه « يلبغا » ، وكان « يلبغا » قد عذب طائفة من مماليكه . فانتهزوا هذه الفرصة ، واقتحموا عليهما مخيمهما . ففر « يلبغا » إلى القاهرة ، أما السلطان فقد وقع فى قبضة يدهم وانقاد لهم . وبينما كان هذا يحدث فى ناحية الجيزة ، إذا اجتمع عدد من الأمراء والمماليك بزعامة « يلبغا » ، وملكوا عليهم أخا السلطان الأشرف ، وهو « أنوك ابن حسين » . واجتمع الجمعان متقابلين على شاطئ النيل ، وتراشقا بالنشاب ، وتراميا بقذائف النفط . ثم تمكن الملك الأشرف من العبور إلى القاهرة خفية وصعد إلى مقره بالقلعة ، فالتفت به طوائف عدة من الأمراء والجند الموالين له ، ففت ذلك فى عضد الفريق الآخر فتخاذل . ثم قبض على « يلبغا » وقتل شر قتلة .

هذا . وقد شبت فى عهد ذلك السلطان فتن متعددة منها ما دبر لخلعه من السلطنة ، وفى عهده أيضا اشتدت فتن الأمراء ، وزاد خطر المماليك الجند ، وضعف السلطان عن كبح جماحهم ، كما اشتد خطر الفرنجة على ممتلكات الدولة ببلاد الأرمن والشام ، ونهبوا المدن وقتلوا المسلمين . وفى عهده تفشى وباء جارف فى القاهرة ، وانتشر الجراد فى دمشق وضواحيها ، وثارت العامة على بعض الأمراء .

وخرج السلطان إلى الحج عام ٧٧٨ هـ . وبصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وكبار الأمراء ، فانتهز بعض الأمراء الباقين فى القاهرة ، فرصة غيابه وثاروا ضده ، وملكوا

عليهم ابنه عليا . وكانت المماليك المصاحبة للسلطان شعبان فى ركبه ، قد ثاروا به أيضا ناحية العقبة ، وكادوا يفتكون به ، لولا أنه فر ودخل إلى القاهرة مختفيا ، فدلت على مكانه إحدى النساء ، فقبض عليه الجند ، ثم سجن وخُنق فى ذلك العام . بعد أن قضى فى السلطنة نحو أربع عشرة سنة . ومن عجيب الأمر أن يقول ابن إياس : « لأن أيام هـذا السلطان كانت هادئة من الفتن » مع أننا علمنا أنها كانت ملأى بها .

٢٣ — المنصور « على بن شعبان » ٧٧٨ هـ — ٧٨٣ هـ

هـو ابن الملك السابق . ولى الملك فى غيبة أبيه عام ٧٧٨ هـ . وكانت سنه نحـو سبع سنوات . وقد أصبح الأتابكى « أينبك البدرى » صاحب الحول والطول فى دولته . وامتلأت أيام هذا السلطان بالفتن والحروب الداخلية بين الأمراء . وهى حروب أطماع وأهواء . وكانت إحدى نتائجها أن قبض على الأتابكى « أينبك » ثم سجن . ومازالت الفتن تترى ، والوقائع يندلع لهيبها ، إلى أن توفى السلطان بعد أن مرض زمنا . وكانت وفاته سنة ٧٨٣ هـ بعد أن حكم نحو خمس سنوات . ومما يذكر أن الأمير « برقوق » العثمانى ـ الذى أسس الدولة الجركسية فيما بعد ـ قد ظهر فى عهد هذا السلطان ظهورا قويا وسط هذه الفتن . وأخذ يستبد بأمور الدولة حتى وصل إلى الأتابكية . وبذلك صار صاحب الأمر والنهى فيها .

٢٤ — الصالح « أمير حاج بن شعبان » ٧٨٣ هـ — ٧٨٤ هـ

هو ابن الأشرف شعبان ، وأخو السلطان السابق . بويع بالسلطنة عام ٨٧٣ هـ بعد وفاة أخيه . وكان فى نحو الحادية عشرة . فقام بتدبير ملكه الأتابكى « برقوق » العثمانى الجركسى . وقد قام هذا الأمير بأعمال جليلة منها أنه أرسل حملة تأديبية إلى التركمان المغيرين على البلاد الحلبية ، وطردهم منها . وأدب عرب البحيرة الثائرين . وأقام جسرا عظيما على أحـد خلجان النيل جهة الروضة . إلا أن نفسه حدثته بالوثوب إلى السلطنة . فأخذ يعد العدة لذلك . فقضى على جماعة من منازعيه من الأمراء ، ثم عمل على خلع الملك الصالح ، فجمع لذلك مجلسا من الخليفة والقضاة وكثير من الأمراء وتشاوروا فى الأمر ، فوافقوا على خلع السلطان الملك الصالح ، وتولية الأتابكى برقوق العثمانى . بحجة أن الرعية فسدت وساءت أحوالها . كثر وخروج العربان عليها ، وذلك عام ٧٨٤ هـ . وبذلك انتهت الدولة البحرية . وبدأ عهد الدولة الجركسية . وبرقوق العثمانى الجركسى هو مؤسسها . وقد حكم « أمير حاج » فى هذه السنة نحو سنة وسبعة أشهر .

دولة المماليك الجركسية

٧٨٤ هـ — ٩٢٣ هـ

تلك هى الدولة الثانية من دولتى المماليك . وأصل ملوكها من الجنس الجركسى . ولعل هذا الاختلاف اليسير فى الجنسية بينهما ، هو السبب فى أن يعتبرها المؤرخون دولة أخرى جديدة مغايرة الماضية . مع أن الحق فى أنهما لا يفترقان فى مظهر جوهرى ، لأن ملوكهما من معتوقى المماليك المشتراة أو من أبنائهم ، ولأنهما لم يتبعا فى الحكم إلا نظاما واحدا فى أصل حقيقته . على الرغم من أن النظام الوراثى للسلطنة كان أكثر مراعاة فى الدولة البحرية . وعلى الرغم من أن الثورات والفتن والمؤامرات الداخلية . قد نشطت فى الدولة الجركسية ، وعلى الرغم من فساد الجند ، ومن اختلاط أجناسهم ، وعدم العناية التامة بتربيتهم ، فى الدولة الثانية ، بالنسبة لما كان من ذلك فى الدولة الأولى .

أما ما عدا ذلك فهما فيه متشابهتان . فقد امتد نفوذ مصر المستقلة فى عهديهما ، فملكت بلاد الشام والحجاز فى أكثر الأيام . وبسطت نفوذها أحيانا على بلاد السودان والمغرب ، وما وراء بلاد الشام نحو الشرق . وشغلت بمحاربة التتار والفرنجة والسلاجقة . ويتشابه ملوك هاتين الدولتين فى حب الظهور بمظهر المحافظة على الدين والغيرة على الشريعة ، فهابوا العلماء وقربوا أهل الدين والصالحين . واندفعوا إلى وقف بعض ممتلكاتهم على وجوه البر ، وبنوا المساجد والمدارس والمستشفيات والسبل . كما يتشابهون فى النشأة العسكرية والصبر على الكفاح ، كما أن نظام العمل وترتيب الدواوين وما إلى ذلك ، كان يسير فى الدولتين على وتيرة واحدة تقريبا . ولهذا لا أفهم كبير معنى لجعلهما دولتين لا واحدة ، إلا ما ذكرنا من اختلافهما فى التركية والجركسية . وإلا ما راعاه البعض من أن « البحرية » كانوا يسكنون أول أمرهم قلعة الروضة ، وأن الجركسية كانوا يسكنون قلعة الجبل . وأصلهم من رعايا مملكة خوارزم ، أكثر المنصور قلاوون من شرائهم ، حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف

وسبعمائة ، وأسكنهم فى أبراجها . ولذلك يسمون أيضا « البرجية » (١) . غير أنه من الحق أيضا أن بعض السلاطين البحرية ، لم يكونوا من سكان قلعة الروضة ، وأن بعض السلاطين الجركسية أو البرجية لم يكونوا من سكان أبراج قلعة الجبل . ومهما يكن من شىء فأول ملوك الجراكسة هو « برقوق » بن آنص العثمانى ، وعددهم جميعا واحد وعشرون ، عدا سلطنة أحد آل قلاوون ، وأحد الخلفاء العباسيين كما سنبينه فيما يلى :

١ ـ الظاهر « برقوق العثمانى » سيف الدين ٧٨٤هـ - ٧٩٠هـ

هو برقوق بن آنص الجركسى ، وينسب إلى الخواجا « عثمان » تاجر الرقيق الذى جلبه إلى مصر . وقد أسعده الحظ حتى وصل إلى الأتابكية فى عهد الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان ، فدبر له أمور الدولة ، ثم دبرها لأخيه من بعده ، ثم خلعه ووثب إلى سرير الملك فى عام ٨٧٤ هـ . وعلى يده انقضى ملك آل قلاوون تقريبا . وانتقلت الدولة إلى الجركسية .

وقد كان السبب فى سلطنته أن الملك آل إلى الصغار من آل قلاوون . فسرحت الفتن فى البلاد ومرحت . فرأى الخليفة والقضاة والأمراء ، أن يولوا فى الملك رجلا قويا ينقذ الرعية من الفساد . واختاروا أن يكون الأتابكى « برقوق » هوذلك الرجل .

وكان أول ماقام به ، أن أهدى الخلع الثمينة والمناصب الرفيعة إلى أتباعه وخلصائه . وقبض على كثير من أعدائه ، وأودعهم فى السجن دون رحمة . وكان فاتكا قاسيا فهابه الناس ، وأبطل كثيرا من العادات الذميمة ، وبخاصة ما كان يعمل فى عيد النيروز ، وذلك أن يقف كثير من العوام يقهرون عظماء الدولة على أن يعطوهم مالا . وفى ذلك اليوم ، يكثر تراشقهم بالبيض والتصافع بالأنطاع ، إلى غير ذلك . فشدد « برقوق » النكير على القائمين بذلك وضرب على يدهم وهددهم بالشنق ، حتى كفوا وارتدعوا عن غيّهم . ثم بنى مدرسته الشهيرة عام ٧٨٨ هـ ونظم فيها أمر الدراسة . وساق لمقاتلة « تيمورلنك » التترى حملة من الجنود . فهزمته فى ناحية « سيواس » ومنعته العبث بالبلاد الحلبية . ثم شق عصا طاعته بعض أمراء الشام بزعامة الأمير

١ ـــ فى خطط المقريزى جزء ٣ ص ٣٩١ تحت عنوان « ذكر دولة المماليك الجراكسة » ما يفهم منه أن الذى سماهم البرجية هو المنصور قلاوون . وفى ص ٣٤٨ تحت عنوان « الطباق بساحة الأيوان » ما يفهم منه أن الذى سماهم البرجية هو ابنه خليل .

« يلبغا » الناصرى نائب حلب ، فسير إليهم برقوق جندا كثيفا . ولكن كانت عاقبته الخذلان . وزحف « يلبغا » إلى القاهرة فدخلها بعد قتال يسير . ثم نهبتها جنوده . فنظر الأمراء والخليفة فيمن يولونه سلطانا ، ولا سيما أن « برقوقا » قد اختفى ، فاجتمع رأيهم على إعادة الملك الصالح « أمير حاج » إلى الملك ثانيا . فتم فى ذلك عام ٧٩٠ هـ . بعد أن حكم برقوق نحو ست سنين وتسعة أشهر .

عودة الصالح « أمير حاج بن شعبان » ٧٩٠ هـ - ٧٩٢ هـ

وهو من بنى قلاوون . وآخر ملوك الدولة البحرية . اتفقت كلمة الأمراء على دعوته للسلطنة ثانيا بعد اختفاء برقوق عام ٧٩٠ هـ ولقبوه « بالمنصور » بدل « الصالح » . ودبر له الملك الأمير « يلبغا الناصرى » الأتابكى . فجد فى البحث عن « برقوق » حتى قبض عليه وسجنه فى قلعة الكرك مكرما . ثم شبت فتنة ضد « يلبغا » تزعمها الأمير « تمربغا منطاش » . فوقعت بين الفريقين معركة حامية الوطيس فى جهة الرميلة . فانهزم « يلبغا » وقبض عليه ، وأصبح « تمربغا » أتابكيا مكانه وبيده مقاليد الأمور . ثم إن « برقوقا » انتهز فرصة الفتن الداخلية والحروب الأهلية الواقعة بين الفريقين ، وبث دعايته فى الكرك ، حيث كان مسجونا ، وتحيّل حتى ملكها وقوى بها أمره ، ففر إليه عدد كبير من مماليكه ، فاشتد بهم أزره . وعاونته طوائف من العربان . فاستطاع الزحف بكل أولئك إلى البلاد الشامية ، فملكها بعد جملة وقائع وبعد معاناة شديدة بينه وبين أهلها ونوابها . هنا خرج الملك الصالح ومعه الأمير « منطاش » والخليفة والقضاة والأمراء والجند لمحاربة « برقوق » وانتزاع الشام منه ، فوقعت بين الفريقين معركة حامية فى « شقحب » ، انهزم فيه « برقوق » . غير أنه ما لبث أن كرّ على أعدائه كرة صادقة فغلبهم ، بعد أن أفنى منهم عددا كبيرا . فاضطر « أمير حاج » إلى خلع نفسه من السلطنة ، وأشهد الخليفة والقضاة على ذلك . فبايعوا « برقوقا » فى مكان المعركة ، وعادوا جميعا وعلى رأسهم سلطانهم « برقوق » ، فدخل القاهرة فى حفاوة زائدة ولقاء كريم . وبذلك انتهى ملك آل قلاوون نهائيا من مصر عام ٧٩٢ هـ .

عودة الظاهر « برقوق العثمانى » ٧٩٢ هـ - ٨٠١ هـ

عاد إلى عرشه عام ٧٩٢ . وفى أوائل عهده وقعت اضطرابات متعددة فى بلاد الشام

اشترك فيها « منطاش » . فلما طال عليها الأمد ، أعد السلطان العدة ، وخرج إلى بلاد الشام فى عسكر كثيف ، فتمكن من القبض على كثير من أعدائه هناك وأعدمهم عن آخرهم ، وفيهم « يلبغا » الذى كان سببا فى خلعه من السلطنة فى المرة السالفة . غير أنه لم يستطع القبض على « منطاش » . ولذلك لما عاد إلى مصر ، لبث « منطاش » وأعوانه يعيثون فى بلاد الشام فسادا ، حتى أقلق بال السلطان . فشدد فى طلبه حتى قبض عليه وقتل .

وما فرغ برقوق من القضاء على الفتن الداخلية والفتك بمناوئه ، حتى أخـــذ « تيمورلنك » التترى يزحف على بلاد الشام ، بعد أن اجتاح ملك فارس والعراق . فخف السلطان للقائه ومعه أمراؤه وجنوده ، ومعه الخليفة والقضاة . وحينما بلغ مدينة حلب ، وافته رسل من ملوك عدة يخطبون وده . من بينهم رسول ملك العثمانيين « بايزيد » ، يعاهده على أن يتعاونا لصد التتر . فرحب برقوق بكل هذه الوفادات . وسمع التتار باستعداد الجنود المصرية للقائهم ، ففضلوا العودة إلى ملكهم ، وكفوا عن الزحف على أملاك الدولة المصرية .

ثم مرض « برقوق » وعهد بالسلطنة من بعده لابنه فرج . ومن أهم آثاره مسجده المشهور ، كما أنه أقام كثيرا من الجسور والأسوار والعمائر . وأرصد أوقافا طائلة على وجوه البر والإحسان . ثم توفى فى عام ٨٠١ هـ . بعد أن حكم فى هذه المرة نحو تسع سنين وثمانية أشهر . ومات وعمره ثلاث وستون سنة . وهو ولا شك من أعظم سلاطين المماليك . وعصره شبيه بعصر الناصر محمد بن قلاوون فى كثرة من عاشوا فيه من العلماء والأدباء وأفذاذ الرجال . وقد ولى السلطنة اثنان من أبنائه .

٢ ـ الناصر « فرج » بن برقوق » ٨٠١ هـ ٨٠٨ هـ

هو زين الدين أبو السعادات بن برقوق . ولى الملك سنة ٨٠١ هـ . بعد وفاة أبيه بعهد منه فبايعه الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام عمر البلقينى والأمراء . وكانت سنه حينئذ اثنتى عشرة سنة . فدبر له الملكَ الأتابكيُّ « إيتمش البجاسى » . غير أن « إيتمش » المذكور انقلب ضد السلطان بعد قليل . فوقعت الفتن بين أنصار الاثنين . وتلاقوا فى معركة حامية ، فانهزم جند « إيتمش » ففروا إلى الشام ، بعد أن عاثوا فى القاهرة فسادا . وكان نائب الشام « تنم » قد حدثته نفسه بالخروج عن طاعة السلطان ، فتلقى الجنود

المنهزمة بصدر رحب ، وانضم إليه فى عصيانه نواب حلب وحماه وصفد وطرابلس ، وقويت شوكته ، فجرد السلطان عليهم جيشا قويا ، وسار هو فى طليعته . فهزمهم هزيمة منكرة ، ففروا من وجهه . وتمكن أعوانه من القبض على كثير من هؤلاء العصاة وبينهم « إيتمش » فسجنوا ثم قتلوا . وعين السلطان نوابا جددا عنه فى تلك البلاد .

وفى عهده زحف « تيمورلنك » على مدينة حلب ، واستولى عليها وفتك بأهلها ، ومثل بهم أقبح مثلة . فجمع له السلطان فرج عسكرا كثيفا وخرج للقائه . فتلاقى العسكران لقاء جزئيا ثم تصالحا . إلا أن « تيمورلنك » انتهز عودة السلطان إلى مصر ، لتلافى الفتن التى أثارها أمراؤه ، وطرق دمشق ، وأجبر سكانها على دفع أموال طائلة له ، ثم عاث جنده فيها فسادا ، فعذبوا أهلها ، وأثخنوا فيهم قتلا ، وهتكوا أعراض نسائها ، وأسروا عددا ضخما من علمائها وقضاتها وأعيانها وأمرائها وجنودها ، وصنعوا بها أشنع مما صنعوا بمدينة حلب . ثم أشعلوا النار فى دورها وتركوها خربة مقفرة ... فهم السلطان فرج بالخروج لملاقاته ، ولكن « تيمورلنك » كان قد تلافى هذا التلاق ، ورحل عن المدينة ، ونشطت السفارة بين الملكين ، فتصالحا على أن يطلق كل منهما ما لديه من الأسرى .

ومن أهم ما شغل بال السلطان فرج ، الفتن والثورات الداخلية التى أضرم نارها الأمراء فيما بينهم ، بسبب أطماعهم وحقودهم ونزوعهم إلى العصيان ، واشتداد معاكساتهم له فسئم السلطان تلك الحال ، ورأى أن يهجر القلعة ـ وهى مقر حكمه ـ ويختفى . . بعد أن حكم نحو ست سنوات ونصف . فاتفقت كلمة الأمراء على تولية أخيه « عبد العزيز ابن برقوق » ، وذلك عام ٨٠٨ هـ .

٣ ـ المنصور « عز الدين عبد العزيز بن برقوق » عام ٨٠٨ هـ

اختاره الأمراء ملكا على البلاد بعد أخيه عام ٨٠٨ هـ وله من العمر نحو عشر سنوات . فدبر له الأمر الأتابكى « بيبرس » فأثار ذلك حنق منافسيه ولا سيما الأمير « يشبك الشعبانى » . فتجمع أعداء الأتابكى « بيبرس » وجدّوا فى إعادة السلطان فرج إلى العرش — وكان مختفيا فى منزل أحد أتباعه . فوقعت بين الفريقين المتنازعين معركة هائلة ، انتصر فيها أتباع فرج . فلما علم بذلك ، أسرع من مخبئه بالصعود إلى القلعة ، وسجن أخاه الصغير ، ولما يمض على سلطنته سوى شهرين وعشرة أيام .

عودة الناصر « فرج بن برقوق » ٨٠٨ هـ — ٨١٥ هـ

عاد إلى عرشه بعد قليل . وفى أوائل عودته خرج عن طاعته بعض أمراء البلاد الشامية ، وكاد يفلت من يده زمام تلك البلاد . وكان من الثائرين بها الأميران : « شيخ المحمودى » و « نوروز الحافظى » . فزحفا على البلاد المصرية بكتائب عدة فلاقاهم الناصر ، فهزموه . فأغرتهم هزيمته على أن يتبعوه إلى القاهرة . فكان هذا سببا فى أن يكرّ عليهم ، فهزمهم هزيمة نكراء فروا من بعدها إلى الشام بعد فناء كثير من العسكرين .
وقد كانت هذه الفتن المتوالية والعصيان المستمر، سببا فى أن حبب إلى السلطان استخدام العنف والشذوذ فى معاملة المماليك ، حتى كان كثيرا ما يذبح بعض مماليكه بيده . . انفضت منه القلوب ، وهجره كثير من الجنود ، وانحازوا إلى أعدائه بالشام . فقويت شوكتهم ، وتجمعوا تحت قيادة الأميرين « شيخ » و « نوروز » . فخف السلطان فرج إلى لقائهم بجهة تدعى « اللجون » بالشام ، فهزم وأفل نجمه . فخلع من السلطنة وقبض عليه ، ثم أعدم عام ٨١٥ هـ . بعد أن حكم فى هذه المدة نحو سبع سنوات .
ويعتبر الناصر فرج من أعاظم سلاطين الدولة الجركسية لشجاعته وبطولته فى القتال ، وماجدده من المبانى ، ولامتلاء عصره بكثير من العلماء والأدباء . غير أنه ـ فيما قيل ـ كان محبا لشرب الخمور ، ميالا إلى سفك الدماء ، قليل الحرص على الدين ، ولهذا حكم عليه أعداؤه بالكفر ! ... وعانى الناس فى عهده كثيرا من آلام الظلم والطغيان .

سلطنة الخليفة « المستعين بالله العباس » ٨١٥ هـ

هو أبو الفضل العباس بن الإمام محمد المتوكل على الله وكان هو خليفة ذلك العصر من بنى العباس بمصر . ولى السلطنة المصرية فى عام ٨١٥ هـ وحسما للنزاع القائم بين الأميرين المتزعمين : « شيخ و « نوروز » ، على أثر خلع السلطان فرج ، واختلاف الأمراء فيمن يولونه السلطنة من الأميرين . فاتفق الرأى على تولية خليفة العصر أبى الفضل العباسى ، لدرء أسباب النزاع . وأعطيت بلاد الشام للأمير « نوروز » ابتداء من غزة إلى بلاد الفرات . أما الأمير « شيخ » فاختار أن يكون أتابكيا بمصر .
وهذا الخليفة هو الوحيد من بنى العباس الذى ملك مصر زمنا ، دفعته إلى ذلك أسباب قاهرة خارجة عن اختياره . ونظرا إلى حرج موقفه أمام الأتراك أصحاب السلطان ، ومعرفته

مقدما ماسيئول إليه أمره ، احتاط واستبقى لنفسه منصب الخلافة ، يعود إليه مستقلا به إذا لم تفلح سلطنته . والواقع أنه لم يكن له من أمره شيء ، بل كان المستبد دونه بكل شيء هو الأتابكى «شيخ» المحمودى . وكان وجود هذا الخليفة فى السلطنة ، من باب التمهيد لسلطنة «شيخ» . ولذلك سرعان ما خلعه بعد ستة أشهر تقريبا ، ووثب بنفسه إلى السلطنة بحجة أن البلاد فى حاجة إلى سلطان تركى ، يتولى بحنكته قيادها . وذلك فى عام ٨١٥ ﻫ .

٤ — المؤيد « أبو النصر شيخ المحمودى » ٨١٥ ﻫ — ٨٢٤ ﻫ

كان من مماليك السلطان « برقوق » فأعتقه . وأخذ يدرج فى مدارج الرق والإمارة حتى صار نائب الشام . ثم تعاون هو وصديقه نوروز الحافظى على خلع السلطان فرج . ثم لما تولى الخليفة العباسى سلطنة البلاد من بعد فرج ، استبد به الأمير « شيخ » ، ثم خلعه وجلس مكانه على سرير الملك عام ٨١٥ ﻫ . وكان « نوروز » صديقه نائبا بالشام ، فشق عليه ملك « شيخ » . وخرج عن طاعته ولم يعترف بسلطانه . فما كان من المؤيد إلا أن عبأ الجند وحملهم إلى دمشق وكربهم على عدوه « نوروز » ، فهزمه وقبض عليه وجز رأسه . وأخذ فى تمهيد البلاد الشامية والحلبية . ثم عاد إلى مصر .

ولكن تكررت ثورة أمراء الشام عليه . فشدد النكير عليهم وقتل منهم عددا كبيرا ، فدانت له هذه البلاد . وقد مرض المؤيد ثم توفى فى أوائل سنة ٨٢٤ ﻫ .

ومن أهم آثاره جامعه المشهور بالقاهرة بجوار باب زويلة . وكان المؤيد شجاعـــا كريما محبا للعلم والموسيقى . وقيل كان يفهم العربية وينظم الشعر بها . وتولى بعده ابنه .

٥ — المظفر « أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ » ٨٢٤ ﻫ

اختير للسلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ ﻫ . وكان رضيعا لم يفطم . فدبر له الأمر الأمير « ططر » ، وكان أمير مجلس وليس نائب سلطنة ولا أتابكيا . وكان أتابكى العصر هو الأمير « الطنبغا القرشى » ، وكان قد أرسل على رأس تجريدة لتأديب العصاة من نواب الشام . فلما سمع بسلطنة المظفر امتنع عن طاعته واستقر ببلاد الشام . فترقى حينئذ الأمير « ططر » إلى منصب الأتابكية بمصر . فلما تم له ذلك قوى نفوذه واشتد ساعده ، وتزوج أم السلطان الرضيع ، وعوّل على تأديب « الطنبغا » . فرحل إليه فى جند كثير ، وحمل معه فى ركبه سلطانه ومرضعته وأمه ، فقبضوا على العصاة وأعدموهم .

ولما شهد «ططر» ما آل إليه أمره من بسطة ملك وصفاء زمان، خلع السلطان وهو بدمشق، وأعلن بنفسه سلطانا على البلاد المصرية وما يتبعها. وبايعه الخليفة والقضاة والأمراء وذلك فى نفس عام ٨٢٤ هـ. وعاد إلى القاهرة فدخلها سلطانا، فلقيته فى أبهى حلة... وبذلك انتهت سلطنة المظفر الذى لم يدم فى الملك سوى ثمانية أشهر إلا قليلا. ثم إنه سجن وظل مسجونا حتى توفى مطعونا وسنه العاشرة تقريباً.

٦ - الظاهر «ططر» ٨٢٤ هـ

هو سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهرى الجركسى. كان فى عداد مماليك «برقوق»، ثم دفع به حظه إلى عرش السلطنة المصرية، إذ بويع بها وهو فى دمشق عام ٨٢٤ هـ. ولكنه لم يدم فى سلطانه، إذ مرض بعد عودته من الشام، ثم توفى فى عام توليته. وقيل إن مطلقته - وهى أم السلطان السابق - قد دست له سما كان السبب فى مرضه، وبويع ابنه من بعده.

٧ - الصالح «ناصر الدين محمد بن ططر» ٨٢٤ هـ - ٨٢٥ هـ

بويع بالسلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ، وعمره حينئذ إحدى عشرة سنة. فدبر له الأمر الأتابكى «جانى بك الصوفى»، وكان لهذا الأتابكى أعداء من الأمراء، حاقدون عليه، وعلى ما صار إليه من عز وجاه. وتزعمهم فى ذلك المقر السيفى «برسباى الدقاق» الدوادار. فما زالوا به، حتى قبضوا عليه وسجنوه. وانفرد بشئون الدولة الأمير «برسباى» المذكور. فلما رأى أن شوكته قد أصبحت قوية، خلع السلطان الطفل، وتبوأ مقعده عام ٨٢٥ هـ.

٨ - الملك الأشرف «برسباى» ٨٢٥ هـ - ٨٤١ هـ

هو أبو النصر «برسباى الدقاق الظاهرى. بويع بالملك عام ٨٢٥ هـ فأخذ فى غزو قبرص، فهزم ملكها وأسره مع عدد من جنوده، وسيقوا إلى القاهرة مصفدين فى الأغلال. ولم يهدأ له بال، حتى قبض ثانية على الأمير «جانى بك الصوفى» - لأنه كان قد فر من سجنه - فأعدم. ثم جمع الأشرف جندا كثيفا، ورحل بهما إلى بلاد الأرمن لتأديب الخارجين عليه فيها، وعلى رأسهم «قراملك». ولكنه عاد من غير طائل.

مرض الأشرف بعد ذلك. واختلط عقله. فاضطربت أحكامه، وشذت أوامره

قيل : إنه رسم مرة بنفى الـــكلاب إلى الجيزة ، وعدم خروج النسوة ، وقتل بعض الأطباء ! ... ومازال حتى توفى عام ٨٤١ هـ . ودفن بمقبرته التى أنشأها بالصحراء .

ومن أعماله : مدرسته بسوق الوراقين ، ومدرسته بخا نقاه سرياقوس . ـ وفى عهده وقع طاعونان جارفان بالديار المصرية أحدهما عام ٨٣٣ ، والآخر عام ٨٤١ هـ . واشتهر بدنانيره الأشرفية وأجود أنواع الدنانير . ومما يذكر أنه عهد إلى ولده بالسلطنة من بعده ، وجعل الأتابكى « جقمق » وصيا عليه .

٩ ـ الملك العزيز « يوسف بن برسباى » ٨٤١ - ٨٣٢ هـ

وهو أبو المحاسن جمال الدين ، بويع بالسلطنة فى أواخر عام ٨٤١ هـ ، بعد موت أبيه وبعهد منه . وعمره حينئذ أربع عشرة سنة . فدبر له أمر المملكة ، وصيه الأتابكى « جقمق » ، فحبكت مؤامرة لخلعه ، نجحت بعد ثلاثة أشهر ، فى أوائل عام ٨٤٢ هـ . وتولى السلطنة الأتابكى « جقمق » .

١٠ ـ الظاهر « جقمق العلائى (١) » ٨٤٢ هـ ٨٥٧ هـ

هو سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائى . بويع بالسلطنة عام ٨٤٢ هـ بعد الملك العزيز . وقد همّ الأتابكى « قرقماس الشعبانى » ، بأن ينقض على السلطان ، وينتزع منه السلطنة . فوقعت بين الفريقين معركة شديدة فى جهة الرميلة ، انهزم « قرقماس » على أثرها وفر هاربا ثم تمكن السلطـــان من القبض عليه ، وسجنه ثم قتله ، وخرج عن طاعته نائب الشام ، فأدبه وقتله أيضا . وفى عهده كذلك تجمع عدد من العبيد السود ، فى ناحية الجيزة ، وسلطنوا منهم واحداً ، وعاثوا فى تلك الناحية فسادا . فبطش بهم السلطان جقمق بطشا شديداً ، وجمعهم وساقهم إلى أسواق بلاد الروم حيث بيعوا .

بعد أن انتهى السلطان من إطفاء نار الفتن المتوالية المذكورة ، عاشت البلاد فى كنفه زمنا ، عيشا هادئا بعض الهدوء بالنسبة لعصور سابقيه . ثم مرض عام ٨٥٧ هـ ، وأحس دنو الموت . فنزل عن العرش لابنه فى ذلك العام . وما لبث غير قليل حتى

---

١ — ترجم له السخاوى فى الضوء ببعض التفصيل ج٣ رقم ٢٧٨ ، وقال فى السياق : إن الرضى محمد بن الشهاب أحمد بن الغزى أفرد سيرة جقمق فى حياته بالتأليف هذا وقد ترجم له أيضا شهاب الدين ابن عرب شاه :

قبض ، بعد أن حكم أكثر من أربعة عشر عاما . وكان جقمق كريماً برا محبا للعلماء معظما للأمراء .

١١ - المنصور « عثمان بن جقمق » ٨٥٧ هـ

بويع بالسلطنة قبل وفاة أبيه بنحو شهر ، وذلك فى أوائل سنة ٨٥٧ هـ . وهو أبو السعادات فخر الدين . وكانت سنه تسعة عشر عاما . وعاونه فى تدبير ملكه ، الأمير « إينال العلائى » . إلا أن فريقا كبيراً من المماليك ، رغب فى تمليك الأتابكى « إينال » المذكور . فخلعوا المنصور بعد سلطنته بثلاثة وأربعين يوما لا غير . وتولى السلطنة مكانه « إينال » . فقبض على المنصور وسجنه بالإسكندرية .

١٢ — الأشرف « إينال العلائى » ٨٥٧ هـ — ٨٦٥ هـ

هو أبو النصر سيف الدين إينال العلائى الظاهرى . ولى الملك بعد خلع المنصور عثمان عام ٨٥٧ هـ . وقد ساد فى عهده الهدوء وقلت خلاله الثورات الداخلية زمنا . ثم ثارت عليه المماليك « الجلبان » مرارا . ومن هذه المرار ثورة عام ٨٥٩ هـ التى اشترك فيها خليفة عصره القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل . فانخذلوا جميعا ، وخلع الخليفة من منصبه ، وتولى مكانه أخوه المستنجد بالله . غير أن هؤلاء المماليك اجترءوا على السلطان ، واضطر إلى إسكاتهم ببذل المال لهم .

ومن أعماله : أن أرسل حملة لتأديب المغيرين على أملاكه الشمالية ، فنجحت فى تأديبهم ، وأنشأ عمارة بحرية لتأديب الفرنجة المغيرين على قبرص وسواها ، ولكنها لم تفد كثيرا . وعرف هذا السلطان بالكرم وهدوء النفس . ويقال إنه كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة . وهو من مماليك برقوق .

وقد مرض الأشرف عام ٨٦٥ هـ . ولما أحس دنو أجله ، تنازل عن ملكه لابنه أحمد فى هذا العام أيضا . وما لبث حتى مات بعد قليل ، وبعد أن حكم حوالى ثمان سنوات وشهرين .

١٣ — المؤيد « أحمد بن إينال » ٨٦٥ هـ

هو أبو الفتح شهاب الدين أحمد بن الأشرف إينال . بويع بالسلطنة قبيل وفاة أبيه ، وكانت سنه نحو ثمان وثلاثين سنة . وقد جعل الأتابكى « خشقدم » معينا له فى تدبير

الملك . ثم ثار عليه مماليك أبيه لأنه لم يحابهم بالمال والوظائف . فثارت بين الفريقين واقعة نكراء فى جهة الرميلة ، استمرت ثلاثة أيام . فانهزم السلطان وفر واختفى . فطلب الثائرون الأتابكى « خشقدم » وبايعوه بالسلطنة . وهكذا انتهى حكم المؤيد ولم يمض على يوم توليته سوى أربعة أشهر تقريبا .

١٤ — الظاهر « خشقدم الناصرى » (١) ٨٦٥ هـ — ٨٧٢ هـ

هو أبو سعيد سيف الدين خشقدم . بويع بالسلطنة عام ٨٦٥ هـ ، بعد الاعتداء على الملك المؤيد واختفائه . وكانت رغبة كثير من المماليك ، متجهة إلى تمليك نائب الشام الأمير « جانم » ، فكاتبوه بذلك ، وملكوا عليهم « خشقدم » مؤقتا ريثما يعود الأمير «جانم» ويتسلم زمام السلطنة . إلا أن « خشقدم » ثبت فى السلطنة ، وعاونه على ذلك « إبطاء جانم » فى عودته .

وقد بدأ خشقدم حكمه ، بالقبض على الملك المؤيد ، أحمد بن إينال ، وسجنه مع أخيه وأمه فى ثغر الإسكندرية . ثم أرضى الأمراء والجند ، وفرق عليهم أموالا طائلة . واسترضى كذلك الأمير «جانم» ليأمن جانبه مؤقتا . فاستبقاه فى الشام . ثم رتب أمر البطش به سرا وأغرى به ، فكانت العاقبة قتل «جانم» . وبذلك تخلص من منافس قوى. وهبت بعد ذلك ثورة بين المماليك عاصفة ، بقصد الاعتداء على حياة السلطان . ولكنها باءت بالخيبة ، بعد محاولات عدة . ونظر السلطان من حوله فرأى هناك منافسا جديدا يعظم أمره ، ويشتد ساعده ، ويكثر تابعوه ، وهو الأمير «جانى بك» فلم يتردد فى أن دبر له كمينا ، قتله فى صباح باكر .

ومن أعماله : أن أرسل تجريدة لتأديب الفرنجة فى رودس ، كما أنه أدب العربان الثائرين عليه . وقد مرض فى عام ٨٧٢ هـ واستمر مريضا نحـو أربعين يوما ، كانت البلاد فيها مسرحا لفوضى الجنود والأمراء معا . ثم توفى فى العام المذكور بعد أن حكم نحو ست سنوات ونصف .

---

١ — الظاهر خشقدم أصله رومى الجنس ، وليس جركسيا ، ولذلك لا يعده بعض المؤرخين من ملوك الدولة الجركسية . فهو مثل الظاهر تمربغا .

١٥ ـ الظاهر « أبو النصر بلباى » ٨٧٢ هـ

هو أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى من معتوقى الملك المؤيد شيخ . كان أتابكيا فى عهد سلفه « خشقدم » . وقد دبر له أمر الدولة الأمير الدوادار «خير بك» . ولكنه اضطرب فى حكمه واغتال بعض الأمراء فاضطربت أحوال المملكة ، وكثر فيها الفساد ، وتفاقمت الفتن . فنقم الأمراء الباقون عليه ، وخلعوه من السلطنة فى عام توليته وبايعوا الأتابكى «تمربغا» بالسلطنة . فانتهى حكم « بلباى » بعد نحو شهرين فقط .

١٦ ـ الظاهر « أبو سعيد تمربغا الناصرى » (١) ٨٧٢ هـ

اختاره الأمراء للسلطنة ، بعد عزل الظاهر « بلباى » . فبويع بها عام ٨٧٢ هـ . ولكنه لم يلبث فى السلطنة سوى ثمانية وخمسين يوما . ثم غدر به جماعة من المماليك الخشقدمية ، بزعامة «خير بك» الدوادار ، وقبضوا عليه ثم أعلن « خير بك » بنفسه سلطانا على البلاد . إلا أن أتابكى هذا العصر وهو الأمير « قايتباى » . كان متغيبا . فلما سمع بهذه الحركة ، عاد بسرعة ، ومعه عدد كثيف من الجند ، دهم به السلطانين القديم والجديد ، على حد سواء ، وقذف بهما فى السجن ، ووثب إلى عرش البلاد . ـ أما « تمربغا » فقد سجنه فى مدينة دمياط فظل هناك معززا مكرما إلى أن توفى عام ٨٧٩ هـ .

١٧ ـ الأشرف « أبو النصر قايتباى » ٨٧٢ هـ - ٩٠١ هـ

هو أبو النصر سيف الدين ، الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى . جلبه إلى مصر الخواجا « محمود » ، فاشتراه الأشرف « برسباى » ، ثم انتقل ملكه إلى الظاهر «جقمق» . ولذلك ينسب إلى « محمود » وإلى « جقمق » فيقال : المحمودى الظاهرى . ثم أعتقه الظاهر « جقمق » ، فأخذ سبيله فى معراج الترقى والإمارة ، حتى وثب إلى العرش فى عام ٨٧٢ هـ .

وقد واجه فى بدء حكمه ، جملة عقبات : منها فرار السلطان السابق ، « تمربغا » .

---

١ — ترجم له السخاوى فى الضوء بشىء من التفصيل ج ٣ . رقم ١٧٦ ، والظاهر تمربغا من الجنس الرومى وليس جركسيا وبذلك لا يعده بعض المؤرخين ملوك الجراكسة فهو كالظاهر خشقدم .

من سجنه بدمياط ، إلى بلاد الشام ، ومنها إلى حلب . فعمل السلطان على القبض عليه ، وإعادته إلى سجنه . ومنها خلو الخزائن من الأموال ، مع شعوره بالحاجة إليها لإعداد الجنود ، حتى يرد الأخطار الخارجية عن المملكة . فعمل على جمع ما يستطيع منها ، على الرغم من معارضة رجال الدين له فى ذلك . ومنها انقضاض « سوار » (١) ـ ملك الأبلستين وأحد أمراء التركمان ـ على أملاك الدولة ، فى شمال الشام والبلاد الحلبية . حتى عظم أمره واشتد بأسه ، واستولى على قلعة « إياس » . فجرد عليه السلطان جملة حملات ، فباءت بالخيبة ، إلا الحملة التى قادها الأمير الشجاع الباسل « يشبك الدوادار » « عام ٨٧٥ هـ » ، فإنها هزمت جنود سوار ، وأعادت شمال البلاد الشامية والحلبية إلى طاعة السلطان . ووصلت فى غزوها إلى شواطىء نهر جيحون ، وحاصرت قلاع التركمان ، ثم شددوا الحصار على « سوار » حتى استسلم وخضع . فساقوه إلى مصر هو وجمع من الأسارى مصفدين فى الأغلال ، بعد أن ولوا أخاه على بلاده مكانه . ثم قتل « سوار » على باب زويلة .

ومما شغل بال السلطان أيضا ، إغارة ملك العراقيين « حسن الطويل » على أملاك الدولة فى الشام . فساق إليه جيشا قويا بقيادة الأمير « يشبك الدوادار » أيضا ، فرده على أعقابه . إلا أن هذا الأمير المقدام ، قد قتل بعد ذلك ، حينما خرج بعض أمراء شرق الشام عن طاعة السلطان ، ووقعت بسبب ذلك فتنة عمياء بمدينة حماة ، فخف الأمير « يشبك » لإطفائها عام ٨٨٥ هـ ، فنجح فى ذلك نجاحا تاما . إلا أن انتصاراته المتوالية ، أغرته على أن يمعن فى الفتح ، ويسير إلى شرق الفرات . فأصيب بهزيمة كبرى عند حصار مدينة « الرها » ، وقتل أمامها هو وكثير من جنوده ، وعذبت عدة من أمراء مصر المرافقين له فى الحملة . وكادت البلاد الشامية والحلبية يفلت زمامها من يد سلطان مصر ، لولا أن تدارك السلطان هذا الخطر ، وبعث بحملة جديدة بقيادة الأتابكى « أزبك بن ططخ » ، فكان لها أثر حميد فى إعادة الأمن إلى نصابه فى تلك البلاد .

على أن قايتباى لم يلبث ـ بعد أن فرغ مما تقدم ـ أن واجه عدوا جديدا ، أخذ

١ — سوار هو ابن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر التركمانى . كان حاكما على الأبلستين ومرعش . خرج عن طاعة سلطان مصر ؛ فحاربه مرارا حتى هزم وشنق « اقرأ ترجمته فى الضوء اللامع ج ٣ رقم ١٠٤٦ » .

يطغى على أملاك الدولة ، ويغير على أطرافها . وهذا العدو هو العثمانيون ، الذين لم يكفهم عدوانهم على البلاد ، فأغروا « على دولات » أغا « سوار » بالثورة فى وجه السلطان ، وعاونوه على ذلك . فلم يجد السلطان بدا من محاربته ، فساق إليه جندا من مصر ومن حلب كسروه شر كسرة ، ولكن بعد أن أثخن فيهم قتلا . وكانت هذه الحادثة بدء النزاع الذى وقع بين المصريين والعثمانيين ، والذى كبر ونما فى المستقبل ، حتى أفضى إلى الاحتلال العثمانى الممقوت .

ولما رأى السلطان قايتباى ، ما يقوم به العثمانيون ضد بلاده ، حاربهم أكثر من مرة ، وعادت إليه جنده منتصرة فائزة ، تسوق فى أصفادها عديدا من الأسرى . ولقد خرجت إليهم فى عام ٨٩٣ ﻫ ، حملة مصرية كبيرة العدد بقيادة الأتابكى « أزبك بك » أيضا ، فأوقعت بجند العثمانيين ، وهزمتهم هزيمة منكرة ، فولوا من بعدها مدبرين ، بعد أن استولت منهم على مدينة « أدنه » « أطنا » . وخرجت إليهم حملة أخرى عام ٨٩٥ ﻫ ، فوصلت فى زحفها إلى بلاد العثمانيين نفسها بآسيا الصغرى ، واستولت على « قيسارية » ، ثم تصالح الطرفان على تبادل الأسرى .

وأعتقد أنه لو صفا قلب البلاد لسلطانها فى ذلك الوقت ، وترك الأمراء حرب المطامع والأهواء ، ونبذ الجند حب المال والثورة فى سبيل طلبه بحق وبغير حق ، والتفوا جميعا حول سلطانهم العظيم ، وقادتهم الشجعان ، لتغير بهم وجه التاريخ ، ولنشروا الراية المصرية المجيدة ، فى آفاق من الدنيا بعيدة . ولا غرابة ! فقد واجه قايتباى ، أعداء من الخارج أقوياء عنيدين ، ففل غربهم ، وكفكف من همتهم ، وخضد شوكتهم ، حتى أرغمهم على مصالحته . ولكن مع الأسف الشديد ، ثار الجند فى عهده عدة مرات ، وأتوا بضروب من الفساد كبيرة . وبخاصة المماليك ، الجلبان ، الذين بلغ من حمقهم أن استخفوا بالسلطان ، وأكثروا من العدوان على الناس — واستمروا فى حمقهم وفى غوايتهم هذه ، حتى كانوا شر ما بليت به مصر من جنود . إذ كان تخاذلهم فيما بعد ، سببا من أسباب الاحتلال العثمانى فى عهد الغورى وطومان باى .

ومن محاسن قايتباى : أن أدب العربان الثائرين بنواحى البلاد العابثين بها . كما أنه بطش مرارا عدة بجنود الفرنجة المغيرين على الشواطىء . كما أنه كان كثير التفقد للمدن الكبيرة والأمصار ، فزار مدينة الإسكندرية ودمياط والفيوم ، وطوف فى بلاد

الشام وحلب نحو أربعة أشهر . وعرج على بيت المقدس .

ومن أعماله : إنشاء برج عظيم يكون كالحصن لمدينة الإسكندرية . وقد أقيم فى مكان منارها القديم عام ٨٨٢ هـ . وبناء كثير من العمائر النافعة ، وإصلاح بعض المساجد كالجامع الأزهر ، والحرم النبوى الشريف ، إذ شبت فيه نار صواعق فسببت تلف جزء منه ، فجدده الأشرف قايتباى عام ٨٨٦ هـ . وله عدد من المدارس والمساجد، وضروب عدة من أعمال البر .

وقد أقدم بعض المماليك ، على العدوان على السلطان ، فرماه أحدهم بنشاب وهو فى سريره ، رغبة فى قتله . فلما شعر السلطان بذلك حم ومرض ، واشتدت عليه وطأة المرض ، فتولى الأمر مكانه ابنه محمد . ثم توفى الأشرف بعد قليل . وذلك فى عام ٩٠١ هـ ، وله من العمر نحو ست وثمانين سنة ، حكم البلاد منها نحو تسع وعشرين سنة ونصف .

ومن مساوئه : أنه قطع مرتبات بعض الجند والموظفين ، وصادر كثيراً منهم ، وفرض عليهم الأتاوات والغرامات . كما أنه كان يميل إلى ابتزاز أموال الأوقاف ، للإنفاق منها على حروبه وتجاريده . ومهما يكن من أمر فإن الأشرف قايتباى ، من أعظم السلاطين الذين حكموا البلاد المصرية . وولى ابنه السلطنة من بعده .

١٨ — الناصر « محمد بن قايتباى » ٩٠١ هـ — ٩٠٤ هـ

هو أبو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباى . بويع بالسلطنة عام ٩٠١ هـ ، قبل وفاة أبيه بيومين ، واستبد بتدبير دولته الأتابكى « قانصوه خمسمائة » ، والاستادار « كرتباى الأحمر » . وقد اضطرب حبل الأمن ، وطمع « قانصوه خمسمائة » فى السلطنة ، فدبر مؤامرة اشترك فيها الخليفة المتوكل على الله أبو العز، وقضاة الدولة الأربعة ، وعدد من الأمراء ، وبايعوا « قانصوه » ، فتسمى بالملك الأشرف .

ولكن السلطان الناصر تعصب له جند كثير من مماليك أبيه . فوقعت بين الفريقين حرب أهلية شعواء ، انهزم فيها « قانصوه » وجنوده وأصيب ، ففر واختفى ، بعد أن وقعت القاهرة فريسة للنهب والسلب ، وعاد الخليفة والقضاة إلى مبايعة الناصر ! . . .
وتركت هذه الفتنة فى أعقابها فتناً أخرى متعددة ، قتل فيها كثير من رءوس هذه المؤامرات ومدبريها ، ووقع فيها أنواع شتى ، من فساد الجنود وعبثهم ، حتى اضطروا

الناصر إلى تغيير لقبه والتلقب « بالأشرف » ، حتى يتساوى المماليك الأشرفية وغيرهم ، ويصبح الجميع منسوبين إلى السلطان ... ومع ذلك تمخضت هذه الحوادث عن انقسام الأمراء والجند معسكرين : معسكر يتزعمة الأمير « أقبردى » ، ومعسكر يتزعمه « قانصوه بن قانصوه » ، وهو خال السلطان ، وقد بزغ نجمه فى هذا العهد . ومن عجيب الأمر أن فريق « قانصوه » المذكور كان يدافع عن السلطان ، بينما كان هو طامعا فى الخفاء فى أن يقفز إلى كرسى السلطنة ! . والفريق الآخر يناوئ حزب « قانصوه » ، وهو حزب السلطان الناصر ، بينما السلطان الناصر نفسه يعطف سرا على فريق « أقبردى » ... ! وتقاتل الفريقان وتراميا بالنشاب والرصاص وقذائف النفط ، وانضم إلى كل فريق جمع من العربان . ومن الرياء أن كان كل منهما ينادى : « الله ينصر السلطان » ! ويعلم الله مقدار ما يضمرون له من الحب ! وظلت الحال كذلك ، والبلاد فى قبضة هذه الفتنة الأهلية العمياء ، يصيبها القحط ، ويصمى أبناءها القتل ، ويفنيها الخراب ، أكثر من شهر . حتى أذن الله ، فانهزم « أقبردى » الدوادار ، وسلك سبيله إلى بلاد الشام عابثاً بها . فعجل السلطان بإرسال تجريدة خلفه بددت شمله ، ونكشت فتله ، ثم عادت إلى مصر ، وعاد هو إلى عبثه ببلاد الشام . وبينما الفساد يتفاقم أمره ، والأهواء تذكو شرورها ، إذ عاجل السلطان كمين رصده له أحد أمرائه وهو « طومان باى » فقتل شر قتلة ، إثر ليالى لهو حافلة عام ٩٠٤ هـ . فذهب فى سن السابعة عشرة ، ضحية لطيشه ونزقه ، وعدم إقامته على نية واحدة فى تصرفاته ، بعد أن حكم نحو سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما .

١٩ — الظاهر « قانصوه بن قانصوه » ٩٠٤ هـ — ٩٠٥ هـ

هو أبو سعيد قانصوه الأشرفى ، أصله من مماليك « قايتباى » ، وأخو سريته أم السلطان الناصر بن قايتباى . وقد علا نجمه بسرعة ، فقد كان المتصرف فى شئون الدولة فى عهد ابن أخته . وظل يدبر الأمر لنفسه ، حتى وثب إلى الملك . ولم يمض بين إقامته مملوكا فى أطباق القلعة ، وبين تسنمه كرسى المملكة سوى ست سنوات .

وأول ما عنى به : إرسال حملة تأديبية ، على بلاد حلب ، وبلاد التركمان ، حيث انتشر فيها نفوذ غريمه « أقبردى » الدوادار وأعوانه . فعادت الحملة ومعها عدد كبير من أسراهم . وأدب عرب عزالة الضار بين بجهات البحيرة ، بحملة قادها الأمير « طومان باى »

الدوادار. فهزم جموعهم ، وشتت شملهم وقبض على كثير منهم ، واستاقهم إلى القاهرة مكبلين بالأصفاد.

ومن أهم ماحدث فى عهده: خروج الأمير « قوصروه » نائب الشام عن طاعته ؛ فهم بتأديبه. ولكنه فوجىء بعصيان داخلى عنيف ، بزعامة الأميرين « جان بلاط» الأتابكى و « طومان باى » الدوادار. فوقع بينهما وبين السلطان موقعة ، انتهت بانخذال السلطان واختفائه ، بعد أن حكم أقل من عامين. وذلك فى سنة ٩٠٥ هـ.

٢٠ — الأشرف « جان بلاط بن يشبك » ٩٠٥ هـ — ٩٠٦ هـ

بويع بالسلطنة عام ٩٠٥ هـ ، على أثر اختفاء الظاهر « قانصوه » وهو أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفى — فلما ملك ، دبر له ملكه الأمير « طومان باى » وجد فى البحث عن الظاهر « قانصوه » ، حتى قبض عليه ، وسجنه بالإسكندرية. ثم كثرت مصادراته للموظفين وغيرهم لجمع ما لا ينفقه على الجند.

وأهم ماشُغل به خروج «قوصروه» نائب الشام عن طاعته ، وتحصنه بها ، واستيلاؤه على مدنها. وكذلك الأمير «دولات باى» نائب حلب ، أعلن العصيان ، وقيل : إن هذا كله بترتيب « طومان باى » الدوادار ، إذ كان يمهد لنفسه فى الباطن. ومن سوء حظ «جان بلاط» ، أن أخرج إلى البلاد الشامية والحلبية تجريدة كبيرة ، بقيادة «طومان باى» نفسه. فلما زحف بها على بلاد الشام ، انضم إليه عصاتها ، وأعلن بنفسه بينهم سلطاناً ، وتلقب «بالعادل». ثم عاد إلى الزحف من جديد ، على البلاد المصرية. فلما رأى ذلك السلطان « جان بلاط » ، جمع جنده وعدده ، وتحصن بالقلعة ، وأقام بها على استعداد للقاء الزاحفين ، وترك بقية لجاج البلاد مفتوحة أمامهم. فحاصروه بالقلعة ، ولم ينجه من الهزيمة حصنه العتيد. فأسر بعد موقعة رائعة كثيرة الهول ؛ وسجن فى الإسكندرية ، ثم خنق عام ٩٠٦ هـ ، ومدة حكمه نحو نصف عام وتولى السلطنة العادل « طومان باى ».

٢١ — العادل « طومان باى » ٩٠٦ هـ

هو أبو النصر طومان باى الأشرفى ، من مماليك قايتباى. ذهب فى عهد سلفه إلى بلاد الشام لتأديب العصاة ، فألفهم حوله ، وسار على رأسهم ضد سلطانه الأشرف « جان بلاط » ، بعد أن تسلطن هناك باسم « العادل » ، فى أواسط عام ٩٠٦ هـ. وانتهى

أمره ، بأن أصبح سلطان مصر .

وطومان باى هذا هو الذى غدر بابن سيده فقتله ، وأعنى الناصر «محمد بن قايتباى» ، وهو الذى غدر بالسلطان « قانصوه » ، فكان من أهم أسباب خلعه عن ملكه . ومع ما عرفته الرعية عنه من الغدر ، كان محببا إليها فى أول عهده ، لظهوره بمظهر الرجل المحب لها الحدب عليها . غير أنه مالبث حتى غدر بأحد الأمراء الذين عاونوه على السلطنة ، وأعنى «قوصروه» ، فقد أمر بخنقه . ومن ذلك الوقت أخذ شره يزداد وشدد فى البحث عن أعدائه من الأمراء ، وألحق بالناس - بسبب البحث عنهم - أذى كثيرا ، حتى أصبح بغيضا إلى الجميع . فخرج عليه عدد من الأمراء والجند ووقع بين الفريقين نزال ، انكسر فيه الملك العادل . فاختفى بعد سلطنة لم تدم إلا نحو ثلاثة أشهر . وظل مختفيا زمنا حتى قبض عليه فحز رأسه . وتسلطن بعده الملك الغورى .

٢٢ — الأشرف « قانصوه الغورى » ٩٠٦ هـ — ٩٢٢ هـ

هو أبو النصر قانصوه الغورى ، من مماليك الأشرف قايتباى أعتقه فأخذ سبيله إلى الترقى ، حتى كان أستادارا فى عهد الملك السابق « طومان باى » . فلما اختفى «طومان باى» اتفقت كلمة الأمراء على تولية الغورى . فمازال يتأبى عليهم ، وهم يلحون عليه بالقبول ، حتى لبس خلعة السلطنة ، ودمعه يجرى إذ ذاك ، عام ٩٠٦ هـ . وكانت سنه ستين عاما تقريبـــاً .

تولى الأشرف الغورى أمر المملكة المصرية ، وهى فى أحرج ساعاتها ، فقد اضطربت أحوالها الداخلية ، وتركز فى نفوس أمرائها وجنودها حب العصيان والخيانة ، واعتادوا الفتنة والثورة ، والتأبى على أوامر السلطان . وابتليت مصر إذ ذاك بطائفة المماليك « الجلبان » ، الذين بدأ شرهم فى عهد « قايتباى » ، وضاعت من قلوبهم هيبة السلطان . ضحوا بمصلحة الوطن فى سبيل الاستحواذ على المال ، وإرهاق السلطان بالإنفاق عليهم . فهذا بنيان تصدع داخله ، ولم يبق له قوام ، غير هيكل خارجى ، أصبح ينم عما تحتوى جوانبه . لهذا طمع فى الدولة المصرية الطامعون ، وامتدت إليها أظافر القطط ومخالبها ، ثم استأسدت عليها ، حتى هدمت بنيانها ، وقوضت أركانها ، وأدالت من حريتها ، وأزالت استقلالها ، فأصبحت تابعة ، وكانت متبوعة . وباتت خاضعة ، وكانت عزيزة

منيعة . وتلك عاقبة محتومة لامفر منها ، لمن لها وأمن مكر الزمان .

واجه الغورى منذبدء حكمه ، شرورا فى الدولة متعددة ، وشدائد جمة ، أخذ يعمل جادا فى سبيل القضاء عليها . ولو أنصفه بنو جلدته ، وتركوا الفتن والمطامع ، ونبذوا هواهم جانبا ، لتغير بهم وجه التاريخ ، وانقلبت أمامهم أوضاعه ، ولامتد ملك مصر إلى شواطىء بحر مرمرة . . .

وأول ما عُنى به الغورى ، القبض على السلطان السابق « طومان باى فقبض عليه ، ثم أعدم . وثار فى وجهه الأمير « مصر باى » . فما زال به حتى أعدمه . واضطرب أمر المماليك عليه طلبا لنفقتهم ، فاضطر إلى اللجوء للأموال الموقوفة ، فأخذ منها جانبا وفرض الضرائب على الناس ، حتى تذمروا منها ولكن ماذا يصنع وخزائنه خاوية ؟ واشتدت الفتن فى بلاد الحجاز وبين أمرائها ، حتى اعتدوا على حجاج مصر ، والشام . فعمل على تهدئة الحال وتأمين طريق المسافرين . وشذ عن طاعته بعض أمراء الشام ، فصانعهم حتى أعادهم إليها . وازداد عبث عربان البلاد فى نواحيها ، فكف أيديهم عنها .

إلا أن ذلك كله ، لم يكن غير تسكين وقتى لهذه الأدواء ، لأنها كثيرا ماعادت إلى ثوراتها من جديد .

ومع ذلك كله ، كانت أمامه أخطار خارجية يحسب لها ألف حساب . ولكنه تباطأ فى الاستعداد لها فى الأوقات المناسبة . ذلك — فى أغلب الظن — بدافع الأحوال الداخلية . وأهم هذه الأخطار : عبث الفرنجة ، وإغارة سلطان الفرس « الشاه إسماعيل الصفوى » على أملاك الدولة ، وطموح العثمانيين إلى توسيع مملكتهم .

أما الفرنجة ، ولاسيما البرتغاليون ، فقدهالهم ماكانت تجبيه مصر، ومايجنيه البنادقة، من الضرائب والأجور المفروضة على المتاجر بين الهند والشرق وبين أوربا ، لمرورها بطريق مصر . فما زالوا حتى كشفوا طريق جنوب إفريقيا . فتحولت بعض المتاجر إليه ، ونقصت إيرادات مصر تبعا لذلك . ولم يكتفوا بهذه ، بل أخذوا فى العبث بالسفن المصرية ، والشواطىء المصرية والمتاجر المصرية ، فى الشمال وفى الشرق ، وأثقلوا على بعض أمراء العرب والهند الذين تربطهم بمصر روابط اقتصادية . فاستغاثوا بالسلطان . نخشى « الغورى » استفحال هذا الخطر ، وصنع عمارات بحرية ساقها لتأديب هؤلاء العابثين فى الشمال وفى الشرق ، وفى بحر العرب وشواطىء الهند ، بقيادة الأمير « حسين

الكردى » . ولكنها لم تستطع كبح جماحهم ، بل وقتلوا كثيرا من جندها . ـ ولم يقتصر خطر الفرنجة على هذا ، بل كانوا يرسلون إلى البلاد عددا من الجواسيس ، لاستطلاع أحوالها . وكانوا يُطمعون ملك الفرس « الشاه إسماعيل » بالاستيلاء على أملاك السلطان . واستطاع المصريون ـ فى بعض الأحيان ـ أن يقبضوا على هؤلاء الجواسيس والدساسين ، ويمثلوا بهم شر مثلة .

وأما « الشاه إسماعيل » ملك الفرس ، فكثيرا ما أغارت جنوده على مدينة حلب وأطراف الشام ، وعبثت بها . وكان يراوغ السلطان ، فبينما تغير جنوده على البلاد ، إذ يرسل الهدايا والمكاتبات إلى السلطان ، معتذرا إليه عما جناه هؤلاء الجنود . ولولا ما شغل به « الشاه إسماعيل » من حروب أخرى ، لكان له ـ ولا شك ـ موقف آخر صريح تجاه مصر . فقد ابتلى « بأزبك خان » ملك التتار ، فما زالت الحروب تترى بينهما ، حتى قتل « أزبك » عام ٩١٦ هـ . فتألم السلطان « الغورى » لموت ملك التتار ، لا لأنه مات ، ولكن لفراغ « الشاه إسماعيل » من الاشتغال به ... ومع ذلك فقد سُلط على هذا الشاه من بعد ، العثمانيون الطامعون فى ملكه . فما زال به السلطان « سليم » العثمانى حتى أذله وكسره شر كسرة ، وملك جانبا كبيرا من بلاده . وأخذ يتفرغ للقاء سلطان مصر وأمرائها وجنودها .

ولقد بدأ تدخل السلطان سليم ، فى شئون مصر ، بأن عاون ابن « سوار » ضد عمه « على دولات » ، نائب حلب ، فى نزاع بينهما ، وطلب إلى السلطان أن ينصف هذا الابن ، فرفض السلطان هذا الطلب . وكان السلطان من قبل هذا ، قد أرسل حملة إلى مدينة حلب ، تقيم فيها ، ترقباً للحوادث والحروب الناشبة ، بين « الشاه إسماعيل » و « السلطان سليم » . ومن عجيب الأمر وغريبه ، أن عاث جنود هذه الحملة فساداً فى مدينة حلب ، حتى فضل أهلها أن يهجروها .. ! ثم عادت هذه الحملة عام ٩٢٠ هـ دون أن تقوم بعمل ما .

وفى عام ٩٢١ هـ تحقق السلطان الغورى ، أن العثمانيين يزحفون على البلاد الحلبية ، متجهين نحو الجنوب ، ويبنون القلاع والحصون . فتباطأ الغورى فى الاستعداد لملاقاتهم ورد زحفهم . وأعتقد أن أهم أسباب تباطئه تلكؤ الأمراء عن تلبية ندائه تلبية سريعة ، وروح العصيان البادية فى صفوف الجند ، وتذمرهم بسبب تأخر مرتباتهم .

ومهما يكن من أمر ، فقد أخذ يعد العدة . فجهز حملة قوية ، لم يدخر وسعاً فى الإنفاق عليها والدعوة إليها ، وتزويدها بكافة أنواع الأسلحة ، والخيل والملابس والقوت والمال . ونسلت الحملة من البلاد المصرية فى ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ . فخرجت فى حفاوة باهرة ، بين أكف الدعاء والرضا . وبدت فى أبهى زينة وأجمل حلة بجنودها وأمرائها. وخرج السلطان ومعه الخليفة والقضاة ، فبلغوا أبواب حلب .

هنا بعث السلطان « سليم » ، رسلا من عنده إلى الغورى ، يبدى له الود الكمين والحب الخالص ! ورفع إليه الهدايا الثمينة ! ويعلم الله أنها الحرب والمكر والخديعة . وأنها القدرة فى الاستطلاع ، والبراعة فى التخذيل وتثبيط الهمة . فرد الغورى أجمل رد . . وكان أجمل به أن يحتاط للأمر ، ويأخذ له أهبته . ولكنه كان غافلا عن مكر عدوه . فما وصلت رسل الغورى إلى السلطان سليم ، حتى مثل بهم ، وردهم إليه أقبح رد . وعاالتهم بزحفه للقاء سلطانهم ، فى « مرج دابق » قريبا من حلب .

تلاقى الفريقان فى « مرج دابق » فى رجب عام ٩٢٢ هـ ، وعلى الرغم من كثرة العثمانيين وقوة مدافعهم ، أوقع المصريون الرعب فى نفوسهم ، حتى هم السلطان سليم بالفرار . هنا مع الأسف وقع التخاذل فى صفوف جنود مصر ، فقد أشيع أن السلطان يفضل فرقة منهم على أخرى ، فتقاعدوا عن القتال الصادق ، ثم ظهرت الخيانة المدبرة التى تزعمها « خاير بك » نائب حلب ، إذ فر من المعركة دون سبب واضح ، وكان على ميسرة الجيش المصرى . فلما فر ، تبعه جنود كثيرون . فوقع الاضطراب والخوف فى صفوف جند مصر ، بينما ثبت السلطان الغورى فى عدد قليل من جنوده ، وهو يرى بعينيه ، خيانة خليفته وقضاته وأمرائه ، واستسلامهم لعدوه دون مقاومة تذكر . وهو يرى بعينيه فرار جنده ، فيقول : « إلى أين يا أهل المروءة ! هذا وقت النجدة ... هذا وقت المعونة » . فلم يلتفت إلى ندائه أحد ، فأصيب بالشلل . . . ودهمته الجنود العثمانية من كل جانب ــ وكانت قد عادت إليها شهامتها ــ فوقع إلى الأرض ، فتلقفته منا بك الخيل . ولم تدر أين جثته ، ولا عثر عليها من بعد ــ بذلك تمت الهزيمة هناك على جيش مصر ، وأخذت فلوله تعود منهوكة القوى ، خائرة العزيمة إلى البلاد ، تاركين جسد سلطانهم وسط فيافى حلب مجهولا . وبذلك انتهى ملك الغورى ، بعد أن حكم نحو ست عشرة سنة .

وأهم ما يؤخذ على الغورى : بطؤه وتراخيه في الاستعداد لمقابلة الأخطار ، وتخوفه من الجند والأمراء ، وعدم الحزم فى معاملتهم ، وخصوصاً فى ساعات الشدة العصبية التى تتعرض لها البلاد ، وانخداعه بالظواهر ، وعدم احتياطه منها ، وجمعه الضرائب الظالمة من الناس ، ثم إنفاقها فى إنشاء البساتين ، وجلب أشجار الفاكهة ، وتوسيع الميادين ، وإنشاء السواقى ، والعناية بالعمائر والمبانى . وهذه كلها ضروب من الإصلاح محمودة ، ولكن لكل شىء إبان . وكان أولى به أن ينفق المال على تنظيم الجند وأن يضرب على يد من يضمرون له الغدر والخيانة . وكان محبا لأنواع الرياضة والنزهة والتسلية ، مع أن صوت الحرب من حوله كان صخاباً .

وهذا كله لا يمنعنا أن نذكر بعض منشآته النافعة ، فقد أنشأ بجهة العقبة : مخافر وأرصفة وفنادق وسواقى ، وما إلى ذلك . مما يحتاج إليه الحجاج ، فى ذهابهم إلى الحجاز ، أو إيابهم منه . وأقام المئذنة ذات الرأسين بالجامع الأزهر . وجدد خان الخليلى . وأنشأ ميدان القلعة ، وجمله بالأشجار المجلوبة من الشام وغيرها . وأجرى إليه الماء من النيل بوساطة سواقى متعددة . كما أسس كثيراً من الجسور على خلجان النيل ، وخصوصاً جسر الفيوم . وله منشآت كثيرة غير ذلك . وهو من أعظم سلاطين مصر . وقد ملك من بعده «طومان باى» .

٢٣ — الملك الأشرف «أبو النصر طومان باى» ٩٢٢ هـ — ٩٢٣ هـ

هو من مماليك «قايتباى» . ثم أعتقه «الناصر بن قايتباى» . وما زال يدرج فى مدارج الرقى ، حتى بلغ فى مملكة الغورى منزلة سنية . ثم كان نائب غيبة ، حينما خرج الغورى إلى قتال العثمانيين بحلب . وفى أثناء ذلك ملأ قلوب الناس أمناً ، بسهره على حفظهم ، وحراستهم من اللصوص وقطاع الطريق والعابثين ، فأحبوه . ولما قتل الغورى ، اجتمعت كلمة الأمراء على توليته . فأخذ «طومان باى» يعد العدة للقاء العثمانيين ، ورد زحفهم عن البلاد . وكان شجاعا قويا ، وبطلا صنديداً لا يهاب ، ولكن حوله أمراء خائرين ضعافا متنازعين ، وجنوداً منحلى العزيمة ، قليلى الثقة بالنفس . ومهما يكن من شىء ، فقد بدأ «طومان باى» بإرسال طليعة من الجند ، على رأسها الأمير «جان بردى الغزالى» ، وكان هذا قد أضمر الخيانة للسلطان كصديقه «خاير بك» نائب حلب . فما لبثت طليعته أن انهزمت .

. أحب « طومان باى » أن يبادر بالخروج إلى الشام بجنود كثيفة ، فمنعه الأمراء وأصبروه ، والعثمانيون يزحفون ، حتى دخلوا مصر نفسها . فأحب « طومان باى » أن يبادر بلقائهم فى جهة الصالحية ، قبل أن يصلوا إلى القاهرة ، ولا سيما أنهم فى حينهم منهوكو القوى ، قليلو الغذاء ، لطول سيرهم . فمن السهل الفتك بهم . فمنعه الأمراء أيضا وأصبروه ، ولم يحبوا أن يقاتلوا بعيداً عن القاهرة . كأن القاهرة وحدها هى وطنهم دون سواها ، أو أنها تلهم الشجاعة والإقدام دون غيرها ! لكنه الجبن والخور والجهل والسفه وقصر النظر . ثم خرجوا إلى جانب القاهرة بناحية الريدانية ، وحصنوا ظهورهم ، حتى لا يطعنوا من الخلف . وقيل : كان عدد جنود مصر نحو عشرين ألف مقاتل . ولكن قوتهم المعنوية متداعية ، والاتحاد بينهم ضائع ، والتعاون مفقود . وأصبح كل منهم يفكر فى نفسه فحسب ، ومصيره هو ، لا مصير البلاد . فوقعت بينهم وبين العثمانيين الزاحفين ، معركة شديدة الروع فى ناحية الريدانية فى أواخر عام ٩٢٢ ﻫ ، قتل فيها من الجمعين عدد كبير. ودارت الدائرة على المصريين ففروا من الميدان . وفر كذلك « طومان باى » بعد أن ثبت زمنا مع فئة قليلة من أتباعه . وغنم العثمانيون غنائم لا تعد ولا تحصى . ثم زحفوا على القاهرة . وملكوها ، وعاثوا فى أرجائها فساداً . وأثخنوا فى أهلها قتلا وسلباً وهتكا. وتحصن « طومان باى » بالصعيد ، ثم أخذ فى الزحف نحو القاهرة . فلاقاه العثمانيون فى ناحية الجيزة . وهزموه هزيمة نكراء . ولكن بعد أن أظهر ضروبا من البطولة الخارقة.

ثم فر طومان باى إلى بعض أصدقائه من عربان البحيرة ، فسلموه إلى السلطان «سليم» جزاء وفاقا لصداقته لهم ويده عندهم ... ! ولما قبض عليه ، شنق أشنع شنقة ، على باب زويلة ، فى المحرم عام ٩٢٣ ﻫ . وبموته انتهت دولة الجراكسة ، وبدأ عهد الاحتلال العثمانى الممقوت .

تعقيب

على الرغم مما يجول فى خاطرى — وأنا مصرى — من الحنق على دولتى المماليك وسلاطينهما وأمرائهما وجنودهما جميعا ، وما يفيض بالنفس من شعور الأسف الشديد على ما اجترحوه ، من تجاهل الشعب المصرى ، ومن نبذه نبذ النواة وعدم الاكتراث له ، والإثقال عليه بضروب من الظلم والقسوة والإرهاق ، وعلى ما ألفوه من

التنازع على السلطان تنازعا يمليه الطمع والهوى ، لا الإيمان والعقيدة . وتوحى به المصلحة الذاتية العارضة ، لا المصلحة العامة الباقية ، — وسنبين ذلك فيما بعد — أقول على الرغم من هذا كله ، خنقتنى العبرة وملكتنى الزفرة ، عند ماطالعت أخبار الفتح العثمانى اللعين ، وما اقترفه العثمانيون من مآثم فى القاهرة وفى مصر . فقد كانت مصر فى عصر المماليك ، مستقلة منشورة السلطان فى جميع البقاع الإسلامية ، تدين لها هذه البقاع بالتبعية السياسية أو التبعية الأدبية ، فكانت مركز الإسلام ، ومبعث الحركة العلمية ، ومنزل الخلافة . أما العثمانيون فقد أزالوا استقلالها ، وعبثوا بحرياتها . وزادوها ظلمة على ظلمة ، ومكثت موءودة تحت عبء الاحتلال ، إلى أن قامت بنهضتها الحديثة من ويلاتها ، فعادلها العلم والمال والحياة والحرية والقوة والمعنوية ، والإيمان بالنفس والثقة بالله .

العثمانيون نهبوا أموال البلاد وملئوا جعابهم بذهبها وكتبها وساقوا إلى القسطنطينية خليفتها وقضاتها وأطباءها ومهندسيها ومباشرى الأعمال فيها وتجاريها وحداديها ، وكل ذى علم وفن معروف فيها ، ثم تركوها قاعا صفصفا يجرى الخراب على أديمها . فأى إثم هذا الذى اقترفوه ؟... انتقل بهذا الاحتلال قلب الإسلام من القاهرة إلى القسطنطينية ، ومعه مركز العلم ومنزل الخلافة ، إذ تحيلوا على الخليفة المتوكل فنزل لهم عنها وهو فى قبضة يدهم ، وقد كافئوا خونة الأمراء المصريين الذين عاونوهم فى خطة الفتح مكافأة قيمة فقد عين « خاير بك » نائبا عن السلطان العثمانى فى القاهرة ولقب « ملك الأمراء » ، وعين « جان بردى الغزالى » نائبا عنه فى الشام . — ولو كانت فى الشعب حياة وقوة لمزق أجساد الخونة شذر مذر ، مهما لاقى فى سبيل ذلك من سوء .

السلطنة ونظام الحكم

كتبنا كلمة سابقة عن منشأ المماليك ، وعرفنا أنهم كانوا يجلبون من بلادهم إلى الأسواق المصرية وغير المصرية ، فيشتريهم السلاطين والأمراء . وعرفنا أيضاً كيفية انتقال الحكم المصرى من يد الأيوبيين ، إلى المماليك البحرية ، وهم مماليك الصالح نجم الدين الأيوبى . وسنكتب فيما بعد ، كلمة نشرح فيها ثقافة هؤلاء المماليك ، وأدوارها وطرقها . وسيتضح لنا أن المملوك ، فى أغلب الأحوال ، كان يظل رقيقاً زمنا غير محدود ، يعيشه فى طباق القلعة معيشة جندية خالصة . حتى إذا ماثبت لدى السلطان ، أن مملوكاما ، ذومقدرة وكفاءة ممتازة ، وبدا له مايثبت تلك القدرة والكفاءة ، أعتقه وأنزله من الطباق إلى وظيفة أخرى . وأعانه على حياته الحرة بما يعطيه من مال وقماش وخيل وما شابه ذلك .

وعتق المملوك لايخرجه عن أنه لا يزال من جند الدولة ، ومن سواعدها التى تستند إليها ، بل عتقه أول مراحله فى خدمتها العليا . حينئذ يتسع أفق الرقى أمام المملوك ، وتساوره المطامع ، وتدفعه مقدرته وحظه معاً ، إلى التنقل فى وظائف الدولة شيئاً فشيئاً ، ويخلع عليه السلطان لقب الإمارة ، فتسمو بذلك منزلته ، ويتنقل فى مدارجها صعداً ، آخذاً طريقه نحو المناصب الرئيسية . وقد تدفع به الحوادث إلى أن يكون أستاداراً أودواداراً أوأتابكيا أونائب سلطنة . وهذه المناصب من أسمى وظائف الدولة ، وليس وراءها غير منصب السلطنة الجليلة . فإذا بلغ المملوك هذا الحد ، أصبح دانياً إلى هذا المنصب . وكثيراً ماتتقلب الأيام ، وتتبدل الحوادث ، فإذا بهذا الأتابكى أو النائب يُختار للسلطنة ، وإن هذه المناصب المذكورة وما ماثلها كانت تؤهل شاغلها لتولى الملك . فإذا اختير ملك جديد ، أقام بالقلعة ، وأعنى قلعة الجبل ، فقد استخدمت فى معظم هذا العصر مقراً رسمياً للسلطان .

وإليك بعض الأمثلة التى تبين المراقى التى صعدها بعض السلاطين ، من حالة الرق إلى حالة السلطنة ، وذلك نقلاً عن ابن إياس وغيره :

« السلطان كتبغا المنصورى » : أسره الملك المنصور قلاوون فى موقعة حمص ، التى

كانت بينه وبين التتار ، فأصبح من مماليكه . ثم أعتقه وجعله أمير عشرة ثم صار مقدم ألف ، وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون صار نائب سلطنة. ثم خلع الناصر ، وقفز « كتبغا » إلى العرش .

« السلطان برقوق العثمانى » — جلبه إلى مصر « الخواجا عثمان بن مسافر » تاجر الرقيق ، فاشتراه منه الأتابكى « يلبغا» ثم أعتقه . ولما تغير وجه الدهر لمماليك « يلبغا » ، هرب « برقوق » إلى الشام ، فخدم عند الأمير « منجك » نائب الشام ، ثم ترقى أمير عشرة فى دولة الأشرف شعبان ، ثم أمير أربعين ، ثم مقدم ألف ، ثم أمير أخور كبير ، ثم أصبح أتابك العساكر فى دولة المنصور على بن الأشرف شعبان . ثم صار سلطاناً .

« السلطان جقمق العلائى » — أصله جركسى جلبه « الخواجا كزل » ، فاشتراه منه « العلائى على » بن الأتابكى « إينال اليوسفى » ، وقدمه إلى الملك الظاهر « برقوق » فصار من جملة المماليك السلطانية ، ثم رُقِّىَ خاصكياً ثم ساقيا . ثم قبض عليه وسجن فى عهد الملك الناصر فرج ، ثم أطلق سراحه . وعين أمير طبلخاناه وخازنداراً فى دولة المؤيد شيخ ، ثم صار مقدم ألف فى عهد السلطان ططر ، ثم عين حاجب الحجاب فى عهد الأشرف « برسباى » ، وترقى حتى بلغ الأتابكية ، فلما كان عهد ابنه العزيز ، أصبح « جقمق » نظام الدولة ومشيرها ، ثم خلع العزيز ، وولى « جقمق » السلطنة .

غير أن الزمن الذى يستغرقه مملوك أسعده الطالع ، وبلغه منصب السلطنة ، من عهد رقه إلى عهد سلطنته ، يختلف طولا وقصراً ، حسب اختلاف الأشخاص والظروف . غير أن أقصر زمن — ولاشك — كان زمناً طويلا ، ولا يعتبر قصيراً إلا بالنسبة إلى سواه . فقد يسلخ المملوك أربعين عاما أو خمسين ، فى حياة رق مطرد ، حتى يصل إلى كرسى السلطنة . ولذلك عُدَّ أمراً عجيبا ، أن يصل السلطان الظاهر « قانصوه بن قانصوه » إلى منصب السلطنة ، فى مدة لم تتجاوز ست سنوات ما بين رقه وعتقه وبين سلطنته .

والآن أصبح مفهوما أن كل جندى مملوك ، قد يحول عليه الزمان ، وتدفعه الأقدار ، إلى أن يكون سلطانا يوما ما . والأقدار إذا صنعت ذلك لا تتكلف معجزة خارقة ، أو شذوذاً عجيبا ، أو سنة غير معلومة ، أو التواء وتحويراً فى سياسة متبعة . بل ذلك هو المترقب المنتظر . ولهذا لا يصح أن تعترينا الدهشة ، عندما تحدثنا التاريخ أن فلانا المملوك أو الأمير ، حدثته نفسه يوما ما ، بأن يلى السلطنة ، وبأنه إذا ولى السلطنة يصنع كذا

وكذا . فقد روى (١) أن الأمير حسام الدين لاجين المنصورى ، كان قد اختفى مرة فى مئذنة جامع ابن طولون ، ونذر أنه إن صار سلطانا ليعمرن هذا الجامع ، وقد صار سلطاناً ووفى بنذره .

وروى (٢) : أن المنصور قلاوون لما كان أميرا ، فى عهد الملك الظاهر « بيبرس » خرج فى غزاة ، فأصيب بقولنج (٣) ، فعولج منه فى مدينة دمشق ، بمعرفة أطباء جلبوا له الدواء من مستشفى « نور الدين الشهيد » فبرأ . فتاق إلى زيارة هذا المستشفى فزاره ، ونذر إن آتاه الله الملك ، أن يبنى مستشفى « مارستانا » فلما أوتى الملك بر بنذره ، وأقام « البيمارستان المنصورى » .

وقيل (٤) : إن الملك المؤيد شيخا ، سجن مرة وهو أمير — فى خزانة شمايل — فقاسى بها شدائد عظيمة ، فنذر فى نفسه ، إن خلص من هذه الشدة ، وصار سلطانا ، يهدم هذا السجن ، ويقيم مكانه مسجدا . ولما صار سلطانا على مصر ، بر بوعده وبنى جامعه الشهير بجانب باب زويلة ، مكان السجن المذكور .

وحكى (٥) : أن الأتابكى تمراز — الذى توفى عام ٩٠٢ هـ فى عصر الملك الناصر محمد بن قايتباى — كان إذا سأله أحد فى حاجة ، يقول : اصبر علينا حتى يجىء وقتها . وكان طامعا فى السلطنة فخابت فيه الظنون ...

هذا ، والسلطان وأمراؤه ومماليكهم هم أهل الرأى ورجال الحكم وأرباب المناصب دون سواهم . يعاونهم بعض من يختارونهم من المتعممين ، ليلوا مناصب القضاء والكتابة وما إليهما .

إذن ! اعتبر المماليك أنفسهم « الطبقة الحاكمة » فى هذه البلاد وما يتبعها . وذلك بما لهم من القوة الباطشة ، والأيدى المسلحة ، والكثرة المجندة ، وحق القيام وحدهم بالفتح والغزو . ولم يخرج الملك عن أن يكون لواحد منهم . ولكن من هو هذا الذى يخصونه بهذا الشرف العظيم ؟ ... وكيف يحددونه ؟

لم يوضع نظام ما لوراثة السلطنة ، وإنما كانت مؤهلات الأمير الشخصية ، وما

١ — ابن إياس ج ١ ص ١٣٦ .
٢ — خطط المقريزى ج ٤ ص ٢٦٠ .
٣ — القولنج : مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح .
٤ — ابن إياس ج ٢ ص ٦ ‏ ‏ ٥ — ابن إياس ج ٢ ص ٣٣٠ .

يؤهله من حنكة ودهاء ، وما يبديه من بلاء فى الحروب ، ومن إحسان فى السياسة ، ومن قدرة على الانتفاع من الفرصة السانحة ، وما يستطيع جمعه حول نفسه من مماليكه الأخصاء ، وغيرهم من محبيه ، ومن ذوى المطامع ، ممن يكوّن له منهم عصبية قوية يخشى بأسها . كل هذه الأمور ، كانت هى التى تقرب الأمير تدريجيا ، أوقد تقذف به أحيانا إلى المناصب الكبرى . مثل أتابك العسكر أو نائب السلطنة . فيصبح قاب قوسين أدنى من منصب السلطنة .

بل إن الأمير إذا ما وصل إلى مرتبة النيابة والكفالة أو الأتابكية ، يقع فى نفسه — غالبا — أن الأقدار تهيئه بذلك لتولى السلطنة . فيعمل لبلوغ أمله هذا ، ولتحقيق إحساسه الباطنى ، بكل وسيلة مشروعة أوغير مشروعة . حتى لتجده فى أغلب الأحوال ، يدبر لسلطانه المكائد ، وينصب له الحبائل ، ويخلق حوله المشاكل . ويحيك من أجله سلسلة من المؤامرات ، تنتهى غالبا بخلع السلطان أو قتله قتلة شريرة ، ووثوب النائب أو الأتابكى إلى كرسى المملكة .

فالأتابكى « قطز » خلع الملك المنصور « نورالدين على بن المعز » سنة ٦٥٧ ﻫ وتولى مكانه . والأتابكى « بيبرس » البندقدارى ، قتل بيده سلطانه « قطز » ووثب إلى عرش السلطنة عام ٦٥٨ ﻫ . والأتابكى « شيخ المحمودى » ، خلع سلطانه الخليفة « المستعين بالله » وتولى السلطنة سنة ٨١٤ ﻫ . وهكذا .

وتعتبر هذه الحالة أمراعاديا فى دولتى المماليك . ومعنى ذلك أن نظام الوراثة لم يكن مرعيا لديهم . وهذا لا يمنعنا أن نقول : إن أسرة المنصور « قلاوون » كان لها نصيب كبير من وراثة الملك فى الدولة البحرية . وإن أسرة « برقوق » كان لها نصيب آخر أقل من ذاك فى وراثة الملك فى الدولة الجركسية . وقد ولى السلطنة من أسرة « قلاوون » ، أربعة عشر ملكا . وقد ولى بعضهم بناء على وصية من أبيه بذلك . فإن المنصور « سيف الدين أبابكر » بن الناصر محمد بن قلاوون ، قد بويع بالسلطنة بعد موت أبيه بعهد منه . وقد يكون هذا العهد لولد غير الابن الأكبر ، مثل عهد الناصر محمد إلى ولده المنصور المذكور .

غير أن مبايعة السلطان لا يمكن أن تتم فى الواقع إلا بعد أن يتشاور الأمراء فى الأمر فيما بينهم ، ويقع اختيارهم على من يصلح للملك . ثم إن هذه المشورة قد تستغرق زمنا . وفى خلال هذا الزمن يحكم المماليك البلاد بلا سلطان فبعد مقتل لاجين ، دبر الأمراء

الأمر ، حتى عاد الناصر . وقد بقيت السلطنة شاغرة يومين عقب انكسار السلطان « قانصوه بن قانصوه » واختفائه . ثم تولى السلطنة الأتابكي « جان بلاط » . وبعد قتل الغوري بقيت البلاد نحو خمسين يوما بلا سلطان ثم ولى السلطنة « طومان باى » .

وقد درج أمراء المماليك — بعد وفاة السلطان أو خلعه أو قتله مثلا — حتى أن يعقدوا مجالس للشورى ، يتبادلون فيها الرأى فيمن يصلح للسلطنة . حتى إذا ما انعقد على شخص ما ، أحضروه فى حفلة رائعة ؛ يتقدم فيها الخليفة ثم القضاة بمبايعته . ثم يقبل الأمراء له الأرض ، بعد أن يلبس شعار السلطنة ، ويحمل فى موكب ، وعلى رأسه القبة والطير ، إلى أن يجلس على كرسى السلطنة . فتجرى رسوم الحفلة المذكورة وعلى إثرها يوزع عليهم الخلع والعطايا والوظائف السنية ، فيرقى من يشاء ، ويقر من يشاء ، ويعزل من يشاء .

فإذا وقع اختيارهم ، على معهود إليه بالملك من أبيه المتوفى مثلا أو على ابنه أو أخيه ، — ولو لم يكن معهوداً إلى أحدهما ، ولو كان صغير السن — أقاموا له رسوم التولية وقبلوا له الأرض . غير أنهم لا يستمرون على طاعته ، إلا بمقدار ما فى هذا الاستمرار من نفع شخصى لهم . لا لأنه وارث شرعى للسلطنة ، ولا لأنه أصبح ذا حق قانونى فيها ، ولا لأنه واجب الطاعة ، ولا لأن فى طاعته مصلحة عامة للشعب ، تهون فى سبيلها المصلحة الخاصة ... !

وإذا شعر أحد الأمراء أو فريق منهم ، بأنه لم ينل فى عهد السلطان الجديد مآربه ، أو أنه إذا انتقض عليه وثار فى وجهه ، ينال ممن يخلفه هذه المآرب ، فسرعان ما ينتقض عليه ويثور فى وجهه ، ويدبر له المكائد ، ويضخم عيوبه ، وينشر مثالبه ... ثم قد تمكن الفرصة هذا الثائر — وكثيراً ما تمكنه — من أن يطغى على سلطانه ، فيقتله أو يسجنه أو ينفيه من الأرض ، ويحل غيره محله . وقد يكون هذا الغير ممن لا يمتون إلى بيت الملك السالف بصلة ما . وهكذا .

ومن السلاطين من كان صغير السن . ولذلك طمع فيه الطامع بسرعة ، وثار فى وجهه ، ونزعه من السلطنة وتولى من بعده رجل جديد . كما وقع فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، حينما تولى أول مرة ، وسنه تسع سنوات ، فحكم أحد عشر شهرا ، ثم خلعه « كتبغا » المنصورى ، وتولى بنفسه السلطنة عام ٦٩٤ هـ . وكما وقع فى عهد الملك الصالح « أمير حاج بن شعبان » حفيد قلاوون ، حينما تولى أول مرة وسنه إحدى عشرة سنة . فحكم نحو سنة وسبعة أشهر ، ثم خلعه « برقوق » العثمانى وتولى بنفسه السلطنة عام ٧٨٤ هـ وأسس الدولة الجركسية .

ولم تكن هناك نظم للوصاية على السلاطين الصغار تحفظ حقوقهم فى الملك ، وتنشئهم تنشئة ملكية مناسبة ، تؤهلهم لأعباء السلطنة المقبلة . ويندر أن تجد سلطاناً ترك من خلفه طفلا صغيرا يلى السلطنة من بعده ، ثم أوصى عليه أحد الأمراء الكبار . وإذا ما أوصاه فيغلب أن ينتزع الملك منه ـ مع العلم بأنه روى ما يفهم منه أن مجالس الوصاية كانت معروفة فى تلك العصور . فإن الملك المظفر صاحب حماة والمتوفى عام ٦٤٢ هـ ، قد ترك من خلفه ابنه محمدا المنصور ، وسنه عشر سنوات . فأقيم عليه مجلس وصاية مكوّن من أربعة رجال من أفذاذ مملكته منهم شيخ شيوخ حماة شرف الدين « عبد العزيز الأنصارى » . وكان هذا المجلس يرجع فى رأيه إلى أم الملك(١) . هذا مع أن مملكة حماة كانت إحدى أقسام الدولة المصرية الواسعة فى زمن المماليك . ولم يرو ابن إياس فى بدائعه من أخبار الوصاية إلا لمحات يشعر منها المرء أن نظام الوصاية لم يكن مرعيا . ومما رواه ما ذكره فى ترجمة الناصر حسن قال : « فى سنة ٧٥١ جمع السلطان حسن القضاة الأربعة وسائر الأمراء ورشّد نفسه واستعذر الأوصياء فأعذروا له فى ذلك » .

وحقاً كان يعاون الملك الصغير كبير من الأمراء ، أتابكيا أو نائب سلطنة أوغير ذلك . فيصرّف له شئون الدولة . ولكن مع هذا كله ، كان الملك الصغير يجلس مع الأمراء مجلس السلطان ، وتقدم إليه الأوراق الرسمية ، فيمهرها بتوقيعه الكريم ... ويرقى من يشاء ويعزل من يشاء ، كما يفعل السلطان الكبير تماما ، ولو أن تصرفه هذا كان صوريا . فقد روى (٢) أن الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون تولى الملك عام ٧٤٨ هـ فأهدى خلع الوظائف ، وألقاب الإمارة إلى من شاء وعمره ١٣ سنة . وروى : أن الأشرف كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ولى الملك عام ٧٤٢ هـ وسنه سبع سنوات ، فتصرف فى الأحكام صغيرا ، وعاونه الأتابكى « قوصون » . فكان إذا احتاج إلى توقيع السلطان أخذ « قوصون » بيد « كجك » والقلم فيها ، ويريه كيف يوقع على المراسيم والمناشير ، وهكذا كان الحال فى عهود غيرهما من السلاطين الصغار .

١ — كتاب تاريخ « حماة » للصابونى .

٢ — عن ابن إياس ج ١ — ١٩٠ و ١٧٧ .

هذا ، وإذا اختار الأمراء عليهم سلطانا ، فالمفروض أنه سلطان مدى حياته . ويستمر سلطانا فعلا مدى حياته ، حتى تصادفه وفاته الطبيعية . إلا إذا عاقته ثورة جامحة ، تكون فيها عاقبته ، من خلع أو سجن أو إعدام أو نفى أو اختفاء . ويندر أن يخلع سلطان بغير ثورة ، أو نزاع بين أنصاره وأعدائه . كما يندر أن يولى سلطان تولية مؤقتة ريثما يعين سلطان سواه تعيينا دائما ... ! فقد حدث ذلك مرة واحدة فى تاريخ دولتى المماليك ، حينما خلع الملك المؤيد أحمد بن إينال عام ٨٦٥ هـ وأرسل الثائرون إلى الأمير « جانم » نائب الشام ليتولى السلطنة . ثم ولوا فيها مؤقتا الأتابكى « خشقدم » فتلقب بالظاهر ، وانتظر الجميع عودة « جانم » ، ولكنه أبطأ فى العودة ، فساعدت المقادير الظاهر « خشقدم » على أن يثبت فى سلطنته ، بعد أن كان فيها خارجا عن هيئة عمال الحكومة ... ! ولبث يحكم نحو ست سنوات ونصف .

والأمراء هم أصحاب الأمر فى تولية السلطان . ولكن ذلك لا يتم بناء على قانون موضوع وقواعد مدونة محكمة ، وإنما هو العرف جروا على اتباعه . أما الجند فهم من ورائهم يشدون أزرهم وليس لهم رأى فعلى قاطع وقت الشورى فى أمر السلطنة . وإن كان الأمراء يراعون حينا اتجاه رأى الجنود . ومع ذلك فقد تدخل الجنود فى التولية فى أخريات الدولة الجركسية . ومن ذلك تدخلهم عقب اختفاء الظاهر بن قانصوه عام ٩٠٥هـ فى أمر من يخلفه . فقد كان أمامهم ثلاثة مرشحون ، هم : الأمراء « تانى بك الجمالى » ، والأتابكى « جان بلاط » ، والدوادار « طومان باى » . وكان هناك مرشح رابع أيضا وهو الأمير « قانصوه خمسمائة » الذى قد ملك آنا ولم يثبت ملكه ولم يعترف به فاختفى . ـ فنادى الجند على « قانصوه خمسمائة » إذا أراد أن يظهر من خفائه ، فليظهر ، لتسند إليه السلطنة . فلم يظهر . ثم عرض اسم « تانى بك الجمالى » فرفضه الجند ، ثم انحصر الأمر بين الأميرين الصديقين « جان بلاط » و « طومان باى » . وكان « طومان باى » مقربا من الجند ورغبتهم متجهة إليه ، فعرض اسم « جان بلاط » للسلطنة فلم يرضه الجند . ولكن « طومان باى » تعصب له وأمالهم إليه ـ لحاجة فى نفسه ـ فاستقر الرأى على اختيار « جان بلاط » فى السلطنة . فكانت سلطنته تمهيداً لسلطنة « طومان باى » ، إذ خرج عليه وحاربه وهزمه وتولى مكانه (١) .

والأمراء كذلك هم أصحاب الأمر فى خلع السلطان ، وإزاحته عن السلطنة بأى

١ — راجع ابن إياس جزء ٢ ص ٣٦٩

شكل ، ويندر أن يتم ذلك بدون فتن ومؤامرات فيما بينهم ، ينقسمون فيها فريقين : فريقاً مع السلطان وفريقاً عليه ، يحتربان حتى ينتصر أحدهما . أما الجند فالغالب أنهم ذوو رأى مرعى وذوو أثر فعلى فى مسألة خلع السلطان أو إبعاده عن كرسيه ، لأنهم هم الذين يعززون الفريقين المحتربين من الأمراء ، فتدخلهم فى الخلع أكثر من تدخلهم فى التولية .

وهناك عنصر ثالث فى تولية السلطان ، وهو الخليفة والقضاة الشرعيون الأربعة . فلا بد لتمام التولية من حفلة مبايعة — كما ذكرنا — يتقدم فيها الخليفة أولا إلى السلطان المختار فيبايعه بالسلطنة . ثم يتبعه القضاة فيبايعون . ثم من بعدهم الأمراء . ولا تتم تولية السلطان بغير ذلك .

غير أن الخليفة والقضاة ليسوا ذوى رأى مرعى فى التولية أو الخلع ، وإنما هم مأمورون فيؤدون ما أمروا به ، ولا قدرة لهم على الامتناع عن المبايعة ، ما دامت مشورة الأمراء قد تمت . ومن السهل إذا ما حدثتهم النفس بالامتناع عن المبايعة — وهى لا تحدثهم — أن يصرفوا عن وظائفهم ويقلدها سواهم فيقوم بما يطلب منه من المبايعة على خير وجه مرضى .

وقد اشتد تزاحم الأمراء حول منصب السلطنة ، وكثر تطلعهم إليه وتشوفهم نحوه . وبسببه كانت تثور ثائرتهم وتدبر مؤامراتهم . مع العلم بأن هذا المنصب الشائك كان كثير الأعباء ، وهو حمل ثقيل على عاتق حامله لأنه قل أن يُقلته إلا مخلوعا أو منفيا أو مسجونا أو مقتولا . فوق ما يلاقيه فى حياته من أذى المؤامرات والفتن ، أو مسئوليات الحروب أو غير ذلك . ومن الطريف أن نقصَّ فى هذا المجال ، ما وصف ابن إياس به الشهابى « أحمد بن العينى » إذ روى أنه كان يقلد السلاطين فى معيشته ، حتى أطلق عليه « عزيز مصر » . وعرض اسمه مرة للسلطنة ، ولكن لم تتم سلطنته ، وقد لطف الله تعالى به حيث لم يل السلطنة لئلا يقضى عمره كله فى القيد والسجن إلى أن يموت (١) .

ولذلك كان بعض السلاطين يتأبى على الأمراء ، حين اختياره للسلطنة ، ويمتنع عن قبولها خوفا من أعبائها ، ورهبة من مسئولياتها . ومنهم الغورى الذى قيل إنه

---

١ — ابن إياس جزء ٢ ص ٩٤ فى سياق ترجمة الأشرف قايتباى .

امتنع عن قبولها ، وألبسه الأمراء خلعة السلطنة ، ودمعه يجرى رهبة منها . ـ ولذلك كان بعض السلاطين يلجأ إلى دعوة الأمراء الذين اختاروه للسلطنة إلى أن يقسموا له يمين الطاعة والولاء والإخلاص على المصحف العثمانى ، فيقسمون والله يعلم ما تنطوى عليه قلوبهم من أهواء . . !

وقد يكون ضربا من ضروب التسلية أن نذكر للقارىء كيف تم اختيار الأمراء للأشرف « طومان باى» آخر الملوك الجركسية ، وكيف قبل السلطنة وذلك عام ٩٢٢ هـ .

فإنه حينما رجعت فلول الجيش المصرى بعد هزيمة الغورى فى « مرج دابق » وبعد قتله ، وقع إجماع الأمراء ، على سلطنة « طومان باى » ، وكان نائب غيبة . فامتنع عن قبولها ، وأصر الأمراء على توليته ، وهو يمتنع . ثم ركب هو والأمير « علان » وجماعة من الأمراء ، وتوجهوا إلى كوم الجارح ـ خارج القاهرة ـ عند الشيخ « أبو السعود الجارحى » ! فلما جلسوا بين يديه ، عرض الأمراء عليه الأمر ، وذكروا تمنع « طومان باى » عن السلطنة . فأبدى «طومان باى» عذره ، واحتج بأن خزائن بيت المال خاوية على عروشها ، وأنه لا يقبل السلطنة إلا إذا تعهد الجنود والأمراء بألا يطالبوه بنفقة ، وأن الجميع رهن إشارته ، لا يخونونه ولا يعصونه إذا استعد للحرب ، بمناسبة زحف العثمانيين على البلاد . ولما تراضى الجميع بين يدى الشيخ ، أحضر لهم مصحفا شريفا فأقسموا عليه بما تراضوا عليه وتواصوا به ـ ثم جرت بعد ذلك رسوم التولية كالمعتاد . . ! وهكذا تدخل الأولياء الصالحون فى تنصيب سلطان البلاد !

بعد أن تبين لنا ملابسات السلطنة من تولية وخلع وما إليهما ، نستطيع القول إن عدم وضع نظام ثابت مقرر مرعى لوراثة الملك وطريقة الحكم ؛ كان من أهم أسباب الاضطراب والفتن فى دولتى المماليك . وأعنى نظاما آخر غير ما اتبعوه .

على أن النظام الذى اتبعوه ، يعتبر فذا وعجيبا فى التاريخ ، ووحيد نسجه . وقل أن نجد له ضريبا فى تاريخ الحكم وأدواره ، فى أية أمة من الأمم . فلا هو ملكية وراثية ، مطلقة أو مقيدة . ولا هو جمهورية شورية ، يرأسها فرد أو جماعة من المستبدين أو غير المستبدين .

ولعله أقرب شبها ، إلى حكومات الأشراف ، وهى التى عمادها بضعة نفر من الأفذاذ والرءوس ، فى الطبقات العالية من الشعب . يقومون معا متعاونين على حكم الشعب ،

وخدمة شئونه الاجتماعية والاقتصادية .

غير أن هذا القياس لابد فيه من بيان الفارق . إذ الأشراف فى اليونان القديمة مثلا ، وخاصة فى إسبرطة وأثينا قبل الميلاد بنحو ستة قرون ، كانوا من الشعب نفسه ، ومن صميمه ، وإن كانوا طبقة ممتازة من طبقاته . فهى تغار على الشعب غيرة طبيعية غير مجلوبة ، وتعطف عليه عطفا عميقا لا كلفة فيه . بل وكانت تعتبر نفسها صاحبة الوطن الأولى ، والمكلفة حراسته ، وتوجيه كل طبقة من طبقاته إلى خير المجموع ونفعه .

وبينما كانت هذه الطبقة الممتازة الحاكمة المذكورة من « أشراف » الشعب ، إذ كان بين طبقاته عدد من « الأرقاء » يعملون فى فلح الأرض . هذا كان فى بلاد اليونان .

أما فى مصر فقد كان المماليك طبقة طارئة على الشعب من الخارج ومن أمم شتى . فليست من صميمه ، ولا هى إحدى طبقاته التى قسمته إليها الأحداث الطبيعية والعوامل الاقتصادية . ثم إنها طبقة متجددة ، وتجددها يفد عليها من الخارج عادة ، ومن أسواق الرقيق ! ثم إنها طبقة « أرقاء » ، أما طبقات الشعب الأخرى فهى من « الأحرار » .

لو أن طبقة المماليك كانت من صميم الشعب ، مولودة منه وناتجة عنه . أو لو أنها كانت طبقة طارئة عليه ، ولكن محدودة ، ثم أقامت هى وسلالاتها فى هذا الوطن زمنا طويلا ، بغير أن يكون لها مدد أجنبى من الخارج ، لطبعت بالطابع المصرى الصحيح ، ولجرت فى دمائها الجنسية المصرية الخالصة ، ولأصبحت تغار على مصر ، لأن مصر وطنها المحبوب ، لا ملكها المحمى . ولأنها البلاد العزيزة ، لا الضياع الخاصة .

ولعلنا لانخطىء إذا قلنا : إن حكومة المماليك ، كانت خليطاً متمازجا عجيبا ، من نوعين متنافرين . هما : حكومة الأشراف ، وحكومة الطغاة . فإن الطبقة الحاكمة هنا هى « طبقة المماليك » ، وأمراؤها هم الذين بيدهم الأمر والنهى فى البلاد وهم الذين يختارون سلطانها . فحكومتهم « حكومة أشراف » . ثم إن السلطان الذى يولونه ، يلى بعد ذلك كل الأمور بنفسه ، وقل أن يستشير ، وإذا استشار فبمحض إرادته ، وهو غير مقيد بقانون ما . فيعمل ويعتقد أن المصلحة فيما يعمل ، فحكومته « حكومة طغاة » .

أما الشعب — وقد كان يتكون من عناصر وأجناس شتى ، مما خلفته فى البلاد العصور المنصرمة — فلا وجود له هنا ، ولا صوت له ، ولا مظهر لإرادته فى إدارة بلاده ، وإنما هو آلة صماء يؤمر فيفعل ، وتفرض عليه الضرائب فيدفعها ، لا لأنها تنفق فى المصالح

العامة وفى حاجات البلاد ، بل لأن الذى يفرضها عليه قوى غليظ القلب ، لا يحب إلا الطاعة إذا أمر. ولذلك توقف البعض عن دفع الضرائب خلال الزحف العثمانى لانشغال المماليك به ، حتى يرى لمن ستكون البلاد فيؤدى إليه حينئذ ما عليه من الضرائب ...!

ولعل المظهر الوحيد ، الذى يمكن أن نعتبره مظهرا لإرادة الشعب ، هو اشتراك القضاة فى حفلة مبايعة السلطان — لأن هؤلاء القضاة ، من طبقات الشعب الأخرى غير طبقة المماليك . ومع ذلك قد علمنا أنه لم يكن فى مقدورهم ، الامتناع أو التخلف عن الحضور أو المعارضة ، فليس لهم فى ذلك صوت مسموع . حتى إذا كان بينهم رجل قوى الشكيمة ، حديد الرأى ، صلب العزيمة ، ورع القلب ، ذوغيرة على مصالح المسلمين ، وأراد أن يتوقف عن البيعة ، فإنه يستطيع ، وسرعان ما ينظر فى أمره ويجاب إلى طلبه . والغالب أنه يتوقف فى أمور شكلية ، لا تمس صميم المبايعة ، ولا تعبر عن كرامة الشعب باعتباره شعبا .

ومن أمثلة مايحكى فى هذه المناسبة عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، شيخ الإسلام فى عهد الظاهر بيبرس ، أنه جلس فى صدر المجلس الذى بايع بيبرس بالسلطنة وامتنع عن مبايعته ، وقال له : ياركن الدين ! أنا أعرفك مملوك البندقدار ! فما بايعه حتى جاءه من شهد له ، بخروج بيبرس عن ملك البندقدار ، للملك الصالح نجم الدين الأيوبى ثم أعتقه .

أقول : لقد كان الشيخ عز الدين ذا مهابة وجراءة فى الحق ، وكان يلقب بسلطان العلماء . قيل : إنه لما توفى كان بيبرس ينظر إلى جنازته ، وهو واقف بالقلعة ، ثم قال : ما استقر ملكى إلا الآن ...

ثقافــــة المماليك وتربيتهم

نقصد بكتابة هذا الفصل أن نرسم صورة موجزة ، ولكن واضحة ، نبين فيها طرق التربية التي اتبعت في تثقيف مماليك مصر في هذا العصر الذي نحن بصدده ، ونتائج هذه التربية ، مع بيان طرق استخدامهم بعد الانتهاء من عهد التربية الرسمي .

وقد كانت الرغبة في العصور الوسطى منصرفة في الدول التي كثر استخدام الرقيق فيها ، من سبايا الفرس والترك والروم ، إلى الانتفاع بهم في أعمال الخدمة في القصور ، وماشابه تلك الخدمة خارج القصور ، والتسري بالجواري الجميلات ، أو الانتفاع بمواهبهن في الخدمات المناسبة . ولم يعن بتربية الذكور تربية جندية منظمة استعدادا للانتفاع بهم في الحروب ، إذ كان الجنس العربي مختصا وحده بهذه التنشئة دون سواه ، بدافع العصبية العربية ، وبتوالي الأيام تداعت هذه العصبية ، واحتاج بعض الخلفاء إلى اتخاذ الجنود من الأجناس الأخرى غير العربية ، وبنى لمماليكه منهم المدن الخاصة . فبدأت من ذلك الحين تمتد العناية إلى الأرقاء ويهتم بتربيتهم تربية جندية منظمة .

وأول عناية انصرفت إلى تربية مماليك مصر ، الذين تولوا قيادها بعد انقضاء عصر الأيوبيين ، كانت عناية الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، فقد راعه مماليكه بإخلاصهم له ، حينما قبض عليه أعداؤه من ذوي قرابته ، وسجنوه بالكرك ، فبقي حوله هناك مماليكه ، وكانوا ثمانين رجلا . حتى أطلق وعاد إليه ملكه وجلس على أريكة مصر بمعاونتهم ، فعظمت مكانتهم لديه . وحينما استتب له الأمر في مصر ، أكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته وبطانته (١) . قيل : فلما زاد شغبهم على الناس ، وعيثهم ببضائع التجار ، وارتفعت أصوات القاهريين منهم بالشكاية ، بنى لهم الملك الصالح قلعة خاصة ، وهي قلعة الروضة . فأصبحت لهم بمثابة الثكنات العسكرية ، وأمرهم بألا يزايلوها وألا يخالطوا الناس . وقلعة الروضة المذكورة تسمى قلعة المقياس أيضا ، وقد زودها الملك الصالح ، بكل ما يحتاج إليه مماليكه من زاد وأسلحة ، وبنى حولها البساتين وجملها خير تجميل (٢)

---

١ — عن خطط المقريزي جزء ٣ ص ٣٨٤ « ذكر دولة المماليك البحرية » وكذلك تحت عنوان « الطباق بساحة الايوان » ج ٣ ص ٣٤٦

٢ — اقرأ خطط المقريزي ج ٣ ص ٢٩٧ « ذكر قلعة الروضة » .

وبلغ عدد من كان بها من الجنود أقل من الألف ، ومنهم الأمراء عز الدين بن أيبك ، وبيبرس البندقدارى ، وفارس الدين أقطاى ، وقلاوون الألفى ، وبلباى الرشيدى ، وسنقر الرومى ، وغيرهم . وقد ملك من الأمراء المذكورين فى الدولة البحرية : عز الدين وبيبرس وقلاوون .

واطردت ثقافتهم طيلة عصرى الدولتين ، وكانت ترمى فى جوهرها إلى الاحتفاظ بهم جنودا - هم والأرقاء الجدد الطارئون عليهم باستمرار - وذلك لأن دولتهم لن تقوم إلا إذا وجدت لها سواعد مفتولة ، وقلوبا تملؤها الشجاعة ، وعقولا أمهرتها الدربة والمرانة فى ضروب القتال . فكان لابد لهم إذن من الاحتفاظ بهم جنودا على أهبة الاستعداد لخوض المعامع والحروب ، والدفاع عن الوطن ، والذود عن حياض الإسلام ، والاحتفاظ بالملك . يفزعون إلى حمل السلاح ، إذا ما نفخ فى الأبواق ، وقرعت الكئوس . ولا يمنع هذا أن يتزود منهم من يشاء ، ومن يدفعه ميله الخاص ، من موارد العلم وموائد الأدب . لذلك لا تعجب إذا لقيت منهم رب القلم ، أو ناظم الشعر ، أو الفقيه الدارس لعلوم الدين .

ولما كانت الثقافة العسكرية هى برنامج تعليمهم ، ناسب أن نورد عنها بعض التفصيل . وقد كان للسلطان مماليك ، يقيمون فى طباق قلعة الجبل ، يسمون « المماليك السلطانية » هم أهم من تتجه إليه العناية بالثقافة . وقد كان للأمراء مماليك آخرون ، لكل واحد منهم طائفة . وهؤلاء بلا شك أقل ثقافة ودربة من المماليك السلطانية .

والثقافة العسكرية المذكورة ، مرت فى ثلاثة أدوار : ١ - دور الصرامة ٢ - دور التساهل ٣ — دور الأهمال .

ولنتكلم عن كل دور منها .

١ — دور الصرامة

هو دور الأخذ بالشدة ، وفرض النظم الدقيقة ، والسهر على تنفيذها ، بقسوة لا تعرف سبيلا إلى اللين أو المصانعة . فهو دور الثقافة الكاملة .

وحقا ، إن قلعة الروضة قد تهدمت ، وقوض أركانها الملك المعز بن أيبك ، وشتت شمل مماليكها البحرية . وذلك لأنهم ضايقوه فى أول عهده بالسلطنة ، وأرغموه على قبول أحد الأيوبيين شريكا له فى الملك . فرضى مكرها ، وصابرهم وصابر نفسه ، وعمل على شراء مماليك له خاصة . حتى إذا ما رآهم قد أصبحوا من حوله كثرة ، يسهل التغلب

بهم على أعدائه من المماليك البحرية ، بطش بهم ، وقتل رءوسهم ، وشتت شمل الباقين منهم ، ففروا من وجهه إلى بلاد الشام . وقد ملك من مماليك المعز بن أيبك : الملك المظفر « قطز » . — ولكن المماليك البحرية ، عادوا من بعد ابن أيبك إلى هذه البلاد ، حتى ملك منهم الظاهر « بيبرس » ، فأعاد بناء قلعة الروضة ، وأسكن بها عددا من الأمراء والجنود . ومع ذلك ، قد بقى عدد من البحرية مشتتين هم وأبناؤهم ، حتى جمعهم الملك المنصور قلاوون ، وأسكنهم بأبواب قلعة الجبل ، بعيدا عن « البرجية » . لأنه كان قد ابتنى للمماليك الأخصاء بروجا فى تلك القلعة . جلها بما جلبه إليها من بناء قلعة الروضة ، وأسكنهم بها وسماهم « البرجية » .

كانت بهذه البروج طباق مقسمة ، يسكن فى كل طبقة منها أبناء جنس واحد من المماليك . ويشرف على مماليك كل طبقة « أغوات » أو طواشية » و « زمامون » يهيمنون على تنفيذ الأوامر وتعليم المماليك . ولكل طبقة فقيه أيضا .

وأهم العصور التى سادت فيها الثقافة الكاملة : عصر المنصور « قلاوون » وابنيه الأشرف خليل ، والناصر محمد .

وينقسم التعليم فى هذا الدور إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : تبتدىء من عهد الصغر إلى سن البلوغ . فكانت المماليك تجلب صغار السن ، ثم يوضعون فى الطباق تحت إشراف « الأغوات » ، فيقومون ببعض التمرينات الرياضية الهينة ، ويعلمون الكتابة والقراءة ، ويلقنون آيات من الذكر الحكيم ، وضروبا من الفروض الدينية ، ويعودون الصلاة ، ويحفظون بعض الأدعية لتلاوتها فى مناسباتها . ويحبب إليهم الدين والذود عنه ، والتخلق بكل جميل من الأخلاق .

المرحلة الثانية : وتبتدىء من سن البلوغ . وفيها يؤخذ المملوك بكل شدة ، فلا يتسامح معه إذا غلط أو هفا ، أو بدا منه شذوذ خلق . بل يعاقب على ذلك عقابا قاسيا . ويقسم المماليك إلى طوائف ، وتوكل كل طائفة إلى معلم ماهر ، فيمرنها على السباحة فى الماء ، واللعب بالسيف ، والضرب بالرمح ، والقذف بالأطواق ، وركوب الخيل والعدو على ظهورها ، والمبارزة ، ورمى النشاب . ولعب الكرة — وقد تكون على ظهور الخيل — وليس هناك مانع من أن يجنح المملوك فى وقت فراغه إلى مطالعة علم أو مدارسة أدب . ولذلك قد يتفقه أحدهم فى الدين ، وقد يأخذ نفسه بنظم الشعر أو الكتابة .

ونهاية هذه المرحلة ليست محدودة بسن معينة ، بل هى رهن ظهور مهارة المملوك وبروز مواهبه ، ونضج خواصه .

المرحلة الثالثة : إذا ما برزت مواهب المملوك ، فنبه شأنه ، وذاع فضله ، وعرفت قدرته ، وسعة حيلته ، وشوهدت عليه ضروب الشجاعة ، وحسن البلاء فى الرياضة العسكرية عرض ، واشترك فى سباق أو مبارزة أو حفل أو لعب ، أو سيق فى عداد المحاربين إلى صفوف القتال — وتكون مكافأته فى النهاية أن يعتق ، وترد إليه حريته ، ويوكل إليه أمر وظيفة من الوظائف الصغيرة ، ويكتسب له إقطاعا . — والإقطاع عبارة عن جزء من الأرض يستغله صاحبه كما يشاء . أو يفرض له عليه مال معين — ويمنح خيلا وقماشا ، وما شابه ذلك ، معاونة له على النهوض فى حياته الحرة الجديدة . ويظل جنديا موظفا ، فيترقى فى سلك وظائف الجندية ، حتى يبلغ مبلغ الإمارة ، فيمنحه السلطان لقبها ، ثم يترقى فى سلكها ، حتى يصل إلى كبريات المناصب فى الدولة ، وقد تقذف به الحوادث والحظوظ إلى منصب السلطنة .

ولم يسمح للملوك فى هذا الدور ، أن ينزل إلى المدينة ، ولا أن يختلط بأهلها ، ولا أن يتزوج ، حتى يعتق .

وكانت السلاطين معنية بملابس مماليك الطباق عناية محمودة ، وألبسهم بعضهم فى بعض الأحيان الملابس الفخمة ، والمناطق الذهبية المزركشة . وقدمت إليهم المآكل والمشارب الشهية وكان المنصور « قلاوون » ينزل إلى مواضع الطعام والمطاهى ، ويشهد الأطعمة بنفسه قبل تقديمها إلى المماليك . ولا يتسامح مع المتهاون فى إعدادها ، إذا ما وجد تهاونا .

وسمح لهم الإشرف « خليل » ، بالنزول إلى المدينة بعض النهار ، بلا تخلف إلى الليل . وعنى بتقسيمهم إلى طوائف حسب جنسياتهم . كما أسبغ عليهم الناصر « محمد بن قلاوون » كثيرا من النعمة ، وغالى فى جلبهم . وكان يوصى تجار الرقيق ، بالعناية فى اختيارهم من صغار الغلمان . ورفع أثمانهم حتى وصل ثمن الواحد إلى آلاف الدراهم ، ولذلك كان يسيل لعاب آباء الأطفال لهذا المال الوفير والخير الكثير . فيلقون بأطفالهم بين أيدى التجار ، ويوصونهم ببيعهم فى مصر ، مهد النعمة الغزيرة والتربية العالية والمستقبل الزاهر . وسمح لهم الناصر بالنزول إلى حمامات المدينة مرة فى كل أسبوع تحت عيون الرقباء .

وكانت نتيجة هذه التربية العسكرية الخلقية من خير النتائج . وقد صدق المقريزى إذ قال : « إنهم كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل . »

ويظهر أن هذا النظام الدقيق الذى أخذوا به فى هذا الدور كان طبيعيا ، إذ كانت الدولة فى بدء نشوئها ، ففيها كثير من الحيوية . والمماليك الجدد حديثو العهد بعظمة سلطنتهم ، فكان لابد من التشدد فى تربيتهم ، حتى تبقى دولتهم قائمة ، وسلطتهم منشورة ، ونفوذهم ممدودا .

وعرف من المماليك فى هذه الفترة الأولى ، أناس اشتهروا بحب الألعاب الرياضية وبأعمال الفروسية ، ومنهم سلاطين مصر وكبار أمرائها . روى عن الملك السعيد « محمد بن الظاهر بيبرس » ، أنه توفى عقب عثرة عثرها فرسه أثناء لعبه بالكرة فكسرت أضلاعه ، وذلك عام ٦٧٨ ﻫ (١) . وروى عن « قطليجا بن بلبان الجوكندار » وكان من أمراء الأربعين بدمشق — توفى عام ٧٢٠ ﻫ — أنه كان فارسا بطلا خفيف الحركات . ويقال إنه عدا بفرسه ، فقطع نصف سفرجلة من غصنها ، وبقى نصفها الآخر مكانه ، وكان ماهرا فى لعب الكرة (٢) . وروى أن « محمد بن بكتمر » المتوفى عام ٧١٠ ﻫ انتهت إليه الرياسة فى زمانه فى لعب الكرة ، فلم يكن من يجاريه إلا « علاء الدين قطليجا » . فكانا إذا اجتمعا ، رأى الناس منهما العجائب . وكان الناصر « محمد بن قلاوون » يكرم محمداً هذا ، ويدعوه « أخى » (٣) . وقد كان للعب الكرة مواسم خاصة من السنة ، يزاوله فيها السلطان وخاصة أمرائه ، وقد كان الغورى يزاوله بالرغم من كبر سنه وإن تأخر عصره .

على أننا فى الواقع لسنا فى حاجة إلى الاستشهاد على فروسيتهم بدليل ما ، وأمامنا حروبهم فى الدولة البحرية ، وإيقاعهم بالفرنجة ، وهم خلاصة جنود الأوربيين . وبالتتار ، وهم الذين اكتسحوا أواسط آسيا . فأوقعوا بهؤلاء وهؤلاء ، المرة تلو المرة ، حتى ردوهم عن البلاد صاغرين .

هذا وقد قيل : إن مشتريات المنصور « قلاوون » بلغت ١٢ ألف مملوك . وقيل إنهم كانوا ٦٧٠٠ مملوك فقط . فأكملها ابنه الأشرف « خليل » إلى عشرة آلاف . وقيل اشترى الناصر

---

١ — عن ابن إياس جزء ١ ص ١١٤   ٢ — عن الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٦٥١

٣ — عن الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ١٠٥٢

« محمد بن قلاوون » نحو ١٢ ألف مملوك . وبلغت مماليك جيوشه ، نحو ٢٤ ألف مملوك .

وكان لكل أمير مماليكه فى هذه الآونة أيضا . وروى أن مماليك الأمير «صرغتمش» المتوفى عام ٧٦١ هـ ، فى عهد الناصر « حسن بن محمد بن قلاوون » ، بلغت عدتها ثمانمائة مملوك . وأن مماليك الأمير « يلبغا » العمرى الذى قتل عام ٧٦٨ هـ ، فى عهد الأشرف شعبان ، بلغت عدتها ثلاثة آلاف مملوك .

٢ — دور التساهل

هو دور التراخى وترك التشدد ، وإباحة أنواع من الحرية لمماليك الطباق ، وعدم عصمتهم من التمتع بلذائذ كانت محرمة عليهم فى الدور السابق . وظهر هذا الدور بوضوح ، فى عهد السلطان الظاهر « برقوق » العثمانى ، مؤسس الدولة الجركسية . وقد استمرت فيه التربية العسكرية التى وصفناها ، وأهم ما طرأ عليها التسامح فى نزولهم من طباقهم إلى المدينة ، وإباحة التزوج . فكان من أثر ذلك أن اختلطوا بالعوام وصاحبوا سفلة الناس ، وعاشروا النسوة . فبدأ الترف الجسدى يكون محببا إلى نفوسهم ، وبدأت البطالة تكون عادة ممقوتة لهم ، وبدأت ملكتهم الحربية تتعثر وتخور ، وفنونهم العسكرية تنسى .

والجندى كان ولا يزال آلة صماء ودابة عمياء ، ما دام فى ثكناته وبين رؤسائه . فإذا ما أترف ، وأبيح له النعيم ، انصرف إليه انصراف الملهوف ، وانكب عليه انكباب الظامىء الصادى ، فلا يبقى على شىء ولا يذر .

٣ — دور الاهمال

وابتدأ فى عهد الملك الناصر « فرج بن برقوق » . ومنذ عهده لم توجه إلى تربية المماليك العسكرية عناية كبيرة دقيقة ، كما كانت توجه إليهم من قبل . وترك لهم الحبل على الغارب . وظن الناصر « فرج » أن إطلاق الحرية لهم ، سبيل إلى إنماء مواهبهم ، وإذكاء ملكاتهم . فليس ثم ضرورة إلى دفعهم لفقيه أو مؤدب . بل قيل : « استقر رأى الناصر « فرج » على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم » .

وقد قلت أجورهم ، وغث طعامهم ، وأعطوا جانبا من المال لينفقوا منه على مآكلهم . فاختلفت فى ذلك مشاربهم ، واتجهوا وجهات متباينة فككت وحدتهم ،

وباعدت بينهم . ولم تعد تبذل فى سبيل اختيارهم عناية ولا دقة . فاستقدموا كبار السن ، ومنهم من كان محترفا فى بلده قبل وفوده إلى مصر .

وفى عصر الدولة الجركسية ، كان السلاطين أحيانا يتوالون على العرش بسرعة ، ويزولون بسرعة . ويغلب أن يتخذ كل سلطان لنفسه جماعة من المماليك جددا ، يطلق عليهم اسمه ، ويسكنون فى عداد ساكنى الطباق بقلعة الجبل ، يتعصب لهم السلطان ، ويتعصبون له . ويعنى بهم عناية خاصة لا يظفر بها غيرهم من المماليك الآخرين . فنتج من ذلك أن تعددت أنواع المماليك ، فكان منهم — بمرور الأيام — فى الطباق : مماليك مؤيدية ، وإينالية ، وأشرفية ، وبرسبية ، وخشقدمية ، وغير ذلك .

وكانت الحقود والضغائن تفرق بين هذه الجماعات ، نتيجة للغيرة والتحاسد .

ومن الطريف المناسب ذكره أن مماليك الأشرف قايتباى « الأشرفية » رأوا بعد وفاته أن ابنه الناصر قد كون لنفسه جماعة جديدة من المماليك ، وسماهم « الناصرية » ، وصرف إليهم عناية حُرمتها الأشرفية ، فثاروا ، وأرغموا الأمراء والسلطان على تغيير لقبه وتلقيبه بالأشرف ، كابيه ، ليكون الجميع « أشرفية » ، فلا يفرق بينهم فى المعاملة . وقد تم هذا التغيير فعلا . !

ولما شح عليهم السلاطين ، بالمال والرعاية والتربية الصالحة ، فسدوا وكثرت ثوراتهم . وكان أكثرهم ثورة المماليك « الجلبان » . وقد أمر الناصر « محمد بن قايتباى » بإضافة عدد من هؤلاء الجلبان ، إلى كل أمير ليأكل معه من إقطاعه ... ! فتأذى كل من الفريقين ، وكانت هذه الحالة أدعى إلى فساد الخلق .

وقد حاول بعض السلاطين كالغورى ، المحافظة عليهم ، وإعادة النظام إليهم ، ومنعهم من النزول إلى المدينة ، ووضع القيود لهم فى سبيل الزواج ، وحظر مخالطة النساء عليهم . ولكن كانت الثغرة قد انفتحت ، وكانت النفوس قد جنحت إلى اللذة ، وأشربت حب العصيان ومخالفة الأوامر . ولذلك ذهبت هذه المحاولات عبثا . وخولفت دون اكتراث . بل روى أنه لما ناب الأمير « طومان باى الداوادار » عن السلطان « الغورى » فى السلطنة عند غيابه فى حروب العثمانيين ، بالبلاد الحلبية ، لم يلزم أجناد الحلقة بالمبيت بالقلعة .

وممن اشترى وجدد فى المماليك ، فى الدولة الجركسية : الملك المؤيد شيخ ، فقد قيل بلغت مماليكه « المؤيدية » خمسة آلاف مملوك . والملك الأشرف برسباى ، بلغت مماليكه

« البرسبيهية » خمسة آلاف مملوك ، والملك الظاهر « خشقدم » بلغت مماليكه « الخشقدمية » أربعة آلاف مملوك . وكان الملك الأشرف « قايتباى » مغرما بشراء المماليك ، حتى قيل : إنه لولا الطواعين التى أصيبت بها البلاد فى عهده لأصبح مجموع ما عنده ثمانية آلاف مملوك . وهكذا تعددت طوائف المماليك ، بتعدد الملوك واتجاههم وجهة حزبية خاصة فى اقتنائهم .

ومع ضعف التربية العسكرية والخلقية فى هـذا الدور لم يترك السلاطين وكثير من الأمراء مزاولة ما أغرموا به قبلا من ضروب المرانة الرياضية . فلقد كان الأشرف الغورى — على الرغم من شيخوخته — لايفتأ يلعب الكرة فى مواسمها الخاصة هو وخاصته من الأمراء — كما ذكرنا — وكانوا يلعبونها وهم على ظهور خيولهم فى ميدان القلعة ، وقد تصاحبهم الموسيقا وقت اللعب .

أما الجنود فقــد كانت نتيجة التهاون فى تربيتهم ، والإهمال فى الإشراف الدقيق عليهم منذ نشأتهم ، واختلاط أجناسهم ، والبخل بالإنفاق عليهم وخيمة . فكثرت ثوراتهم وتألبهم على السلطان ، فأصبحوا لايطيعونه أو يعظمونه إلا إذا أشبع بطونهم من الطعام ، وأتخم جيوبهم بالمال . وانصرفوا عن التفكير فى المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة . وضعفت فيهم الروح العسكرية ، حتى كانوا لايخرجون إلى قتال إلا بعد رجاء وإلحاح من السلطان . وكانوا فى أغلب أمرهم يبوءون بالخيبة . وقد كانت هذه الحالة من أهم ما عجل بسقوط الدولة الجركسية ، ووقوع مصر غنيمة باردة فى يد العثمانيين . إذ سقطت هيبة الدولة ، وتطلع إليها الطامعون . وهذا كله نتيجة فساد الجندية فى العصر الأخير . وقد صدق المقريزى ، إذ قال فى وصفهم : « وصارت المماليك السلطانية أرذل النـاس ، وأدناهم وأخسهم قـدرا ، وأشحهم نفسا . وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراضا عن الدين . ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فـأرة ، وأفسد من ذئب . » (١) . — هـذا مـع أن المقريزى توفى قبل انتهاء الدولة الجركسية بنحو سبع وسبعين سنة . لأنه مات سنة ٨٤٥ هـ .

---

١ — مقريزى خطط ج ٣ ص ٣٤٨

الرتب والمناصب الهامة فى الدولة [1]

قال القلقشندى ما ملخصه : « إن الدولة الأيوبية ، لما خلفت الدولة الفاطمية خالفتها فى كثير من ترتيب الدولة ، وغيرت معالمها . وجرت على ما كانت عليه دولة «عماد الدين زنكى » بالموصل ، ودولة ابنه « نور الدين محمود » بالشام . ثم جاءت الدولة التركية ، وقد تنقحت المملكة وترتبت . فأخذت فى الزيادة فى تحسين الترتيب وتنضيد الملك ، وقيام أبهته ونقلت عن كل مملكة أحسن مافيها . فسلكت سبيله ، حتى تهذبت ، وفاقت سائر الممالك . »

ويفهم مما كتبه فى صبح الأعشى (٢) ، وكذلك المقريزى (٣) فى خططه وما نثره ابن إياس (٤) فى ثنايا بدائعه . ما يلى :

أن مناصب الدولة — عدا منصب السلطنة — كانت مقسمة بين نوعين من الرجال هما: المتعممون ، والأمراء . وقد أطلق لفظ «المتعممين» على المثقفين من أبناء الشعب ، المتخرجين فى المساجد ، النابغين فى علم أو أدب . وهؤلاء يختار منهم : قضاة القضاة ونوابهم ومساعدوهم ، وكتاب الدواوين ومعاونوهم ، وكتاب السروشيوخ المدارس والخوانق ، وما إلى ذلك . أى تركت لهم مناصب القضاء والكتابة والتعليم ومايتصل بها . ولهؤلاء أجور ورواتب وضروب من المعونة يمنحونها من أوقاف أونحوها لقاء أعمالهم .

أما الأمراء ، فأصلهم — كما بينا — من معتوقى المماليك ، الذين سمت بهم همتهم وحظهم ، إلى مرتبة الإمارة . ولكل واحد من هؤلاء إقطاع يمنحه فيستغله وفق هواه ، أو يتناول منه مالا معينا . ويتغير إقطاعه ، ويعطى أوسع منه ، كلما ترقى . ويرد الإقطاع إلى السلطان ليمنحه لأمير آخر ، إذا توفى صاحبه أو عطل .

ويعتبر الأمراء جميعا أعضاء عاملين فى الجيش « ضباطا » ، إلا من غضب عليه السلطان منهم ، فنفاه وجعله « طرخانا » : أى عاطلا بلا عمل . ولكل أمير رياسة على طائفة من

---

١ — اعتمدنا فى هذا الباب على ج ٤ من صبح الأعشى ، وج ٣ من خطط المقريزى ، ومتفرقات فى بدائع ابن إياس وسلوك المقريزى .

٢ — ج ٤ من صبح الأعشى تحت عنوان « من أحوال المملكة ما عليه ترتيب المملكة ... الخ »

٣ — ج ٣ من الخطط ص ٣٤٨ تحت عنوان « دار النيابة » وما بعدها .

٤ — حوادث عام ٩٠٨ هـ ، ٩٢٢ هـ بدائع الزهور .

الجنود محدودة ، حسب مرتبته . ومن هؤلاء الأمراء من يشغل — بجانب إمارته — وظيفة من وظائف الدولة ، أو أكثر . ومنهم من يكون بلا وظيفة . والوظائف التي توكل إلى بعضهم ، هي ماعدا وظائف القضاء والكتابة والتعليم وما يتصل بهاما اختص به « المتعممون » . فغيرها ، مقصور على طائفة الأمراء دون سواها وينِدر أن يوظف فى إحداها متعمم ، إلا إذا كانت عملا كتابيا .

ومراتب الإمارة - فى الغالب - أربع . وهى :

١ — أمير مائة ومقدم ألف : ويرأس مائة فارس ، وقد تزيد . ويتقدم ألف أمير ، ممن دونه فى المرتبة . ويبدو لنا أنه تقدم أدبى لاغير . وهذه المرتبة أرفع مراتب الإمارة . ويختار من طبقتها نواب السلطنة ، وأكابر موظفى الدولة مثل الأتابكى وحاجب الحجاب . — وبلغ عدد الأمراء المقدمين فى أيام الناصر بن قلاوون أربعة وعشرين ، ثم نقص هذا العدد أو زاد قليلا . وبلغ فى عهد الغورى نحو ستة وعشرين أميرا .

٢ — أمير طبلخاناه : ويرأس أربعين فارسا ، وقد تزيد . وهذه المرتبة ثانية مراتب الإمارة . ويختار من طبقتها موظفون أقل خطرا من سابقيهم ، وكشاف الأعمال . وعدد أمراء هذه الطبقة لاضابط له . وقد بلغ فى عام ٩٠٨ هـ ، نحو خمسة وأربعين أميراً ، كان منهم عشرة موظفون ، والباقى بغير وظيفة .

٣ — أمير عشرة : ويرأس عشرة فرسان ، وقد تزيد . ويختار من طبقتها أصاغر الولاة والموظفين . وعدد أمراء هذه الطبقة لا ضابط له أيضا . وبلغ فى عام ٩٠٨ هـ نحو مائة وثمانين أميراً .

٤ — أمير خمسة : وهم قلائل ، ويعتبرون كأكابر الجنود .

ورتب الإمارة رتب عسكرية ، وتمنح عادة فى حفل عظيم . وبخاصة عقب حفلة تولية سلطان جديد . وقل أن تمنح ألقاب الإمارة لأحد من أبناء السلاطين ، بل يعرفون بالأسياد . ويقال لأحدهم : سيدى فلان .

والمملوك إذا اكتمل شبابه وأينع ، وأظهر كفاءة ونشاطا ، أعتق ، ومنح لقبا من ألقاب الإمارة - وهو أمير عشرة غالبا - ثم يعطى خيلا وقماشا ومالا ، ويفرد له إقطاع جديدة مناسب للقبه . وبعد زمن يقضيه فى نشاط مستمر ، يرقى إلى أمير طبلخاناة ، وبعد زمن آخر يرقى إلى أمير مائة ومقدم ألف ، وهكذا غالبا .

ويتكون الجيش من هؤلاء الأمراء ، ومعهم الجنود . والجنود أنواع ، وأهمها

وأوسعها عددا « المماليك السلطانية » وهم من تحدثنا فيما سبق عن ثقافتهم . وكثيراً ما يتخذ بعض الأمراء حاشية لنفسه وجندا ، من مماليك أخصاء يشتريهم بماله الخاص . يعينونه إذ اشترك فى حرب أو فتنة .

أما الوظائف التى يليها بعض هؤلاء الأمراء ، فكثيرة . ولانقصد هنا أن نستوعبها ونتتبع الأحوال التى تقلبت فيها . وإنما نذكر بعضها فحسب . فمنها :

١ — النيابة : وهى ثلاثة أنواع (ا) نيابة السلطنة (ب) ونيابة الأقاليم (ح) ونيابة الغيبة .

(ا) نيابة السلطنة : هى أرفع مناصب الدولة . ويدعى شاغلها « نائب السلطنة » ، ويقال له أيضاً « النائب الكافل » ، و « كافل الممالك الإسلامية » . وهو يحكم فى كل مايحكم فيه السلطان ، ويؤشر على ماينبغى أن يؤشر عليه . فهو ـ فى الواقع ـ الحاكم الفعلى وليس للملكة إلا نائب سلطنة واحد . وسنتحدث عن النيابة بتفصيل .

(ب) نيابة الأقاليم : كانت المملكة مقسمة إلى عدة أقسام ، هى وتوابعها ، كالبلاد الشامية والحلبية . ويقال لكل قسم « نيابة » . ويحكم كلا منها « نائب » يختار من كبار الأمراء . فكان مثلا لكل من الشام وقلعة دمشق وحلب ، وصفد ، وطرابلس ، وحماة ، والكرك ، والإسكندرية ، « نائب » . وأعظمهم جميعا « نائب الشام .

ومما يذكر أن نواب « حماة » من بنى أيوب أبناء المظفر ، أطلق عليهم لفظ «ملوك حماة » أيام الناصر محمد بن قلاوون تكريما لهم .

(ح) نيابة الغيبة : وهى نادرة ، ولا تكون إلا إذا خرج السلطان ونائبه فى غزاة خارج البلاد . حينئذ ينصب أحد كبار الأمراء ، « نائب غيبة » يقوم بالمهام حتى يثوب السلطان .

٢ — الأتابكية : ومعناها إمارة الجند . ويقال لشاغلها « أتابك » ، « وأتابكى » « وأتابك العساكر » ، وهى تلى رتبة نيابة السلطنة فى الأهمية . وقد تضارعها ، وقد تبزهـا ، كما سنبينه .

٣ — الحجوبية : ويسمى شاغلها « حاجب الحجاب » . ويختار من أكابر الأمراء المقدمين . وهو حاكم وقاض كبير له أعوان . ويفصل فى المنازعات التى تقع بين الجنود والأمراء ، وفى قضايا الدواوين السلطانية . ولمنصبه أهمية كبرى ، حتى قيل إنه يلى نيابة السلطنة فى الأهمية . وقد اتسع اختصاصه بتوالى الأيام حتى فصل فى المنازعات المدنية ، بل وفى

بعض القضايا الشرعية . والتى تقع بين أفراد الرعية ، لا بين الأمراء والجند فحسب . وذلك من باب استدرار الأموال من المتخاصمين . وقد وسوس له اتساع الاختصاص وحب المال أن يقضى وفق هواه بغير مراعاة لأحكام الشرع وستتحدث عنه فى باب القضاء .

٤ — أمير مجلس : ويوكل إليه أمر الأطباء ومن إليهم .

٥ — أمير سلاح : وهو رئيس السلاح دارية من المماليك السلطانية . يوكل إليه أمر الأسلحة السلطانية ، وحمل السلاح للسلطان فى الأوقات الجامعة .

٦ — أمير أخور : يوكل إليه النظر فى الاصطبلات السلطانية وخيولها .

٧ — رأس نوبة : يوكل إليه الحكم على المماليك السلطانية ، وكبح جماحهم .

٨ — الأستادار : يوكل إليه النظر فى بيوت السلطان جميعها ، والإشراف على مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه ، وينفق على بيوته ومن فيها . ويدبر له ما يحتاج إليه .

٩ — الدوادار : يبلغ رسائل السلطان ، ويقدم إليه المظالم والأخبار ونحوها ، وينظر فى المقابلات السلطانية . ويقدم البريد إلى السلطان مع كاتب السر وأمير جاندار ، ويطلب توقيع السلطان على المناشير والرسائل ونحوها .

١٠ — أمير جاندار : يعاون الدوادار وكاتم السر ، ويستأذن الأمراء فى الدخول إلى السلطان ؛ وينظم مواكب السلطان حين سفره ، ويتسلم بعض المغضوب عليهم فيعتقلهم فى الزردخاناة ، وهى تحت إشرافه .

١١ — الجاشنكير : ينظر فى الموائد السلطانية ، مع الأستادار .

١٢ — الخازندار : ينظر فى خزائن الأموال السلطانية ، تحت إشراف ناظر الخاص .

١٣ — شاد الشرابخاناة . ينظر فى المشارب السلطانية وما فيها من فاكهة وحلوى وأشربة .

١٤ — أستادار الصحبة : ينظر فى المطابخ السلطانية ، ويشرف على الأطعمة وتنظيم الموائد .

١٥ — مقدم المماليك . يشرف على المماليك السلطانية ويحكم فيهم

١٦ — الزمام : يشرف على تربية المماليك السلطانية .

١٧ — نقيب الجيش : ينظم الجند ويزينهم وقت العرض . ويحضر إلى السلطان أو نائبه من يحتاج إليه من الأمراء وغيرهم .

١٨ — المهمندار : يقابل الرسل والوافدين إلى الأبواب السلطانية ، من داخل البلاد أو خارجها .

١٩ ـــ شاد الدواوين : وهو يُعين الوزير فى عمله ، ويستخلص الأموال ونحوها .

٢٠ ـــ شاد العمائر : يوكل إليه أمر العمائر السلطانية ونحوها ، فيبنى أو يجدد .

٢١ ـــ والى القاهرة : يقوم بالمحافظة على الأمن فى هذه المدينة . وهو بمثابة المحافظ الآن . وللنواحى الأخرى ولاة غيره .

٢٢ ـــ الكاشف : وهو ضرب من حكام الأقاليم .

٢٣ ـــ الوزير : ينظر فى الأمور المالية وتحصيل المال وصرف النفقات وتعيين المباشرين . وكانت هذه الوظيفة جليلة الشأن ، وكان صاحبها قريبا من السلطان ، ثم تناقص خطرها وألغيت حينا . ويعاون الوزير أحيانا : شاد الدواوين وناظر الدولة . ويقوم مقام الوزير فى عمله . ومستوفى الصحبة ، ويعد المراسيم ليوقع عليها السلطان .

٢٤ ـــ ناظر الخاص : وظيفة أحدثها الناصر بن قلاوون لما أبطل الوزارة . وموضوعها : النظر فى كل ما يتصل بمال السلطان الخاص . وأصبحت كالوزارة . ولشاغلها أتباع من كتاب ديوان الخاص ، كمستوفى الخاص . وناظر خزانة الخاص .

٢٥ ـــ ناظر الجيش : وعمله النظر فى أمر الإقطاعات بمصر والشام ، والكتابة بالكشف عنها ، ومشاورة السلطان فى أمرها ، ويتصل بالنظر فى شئون المماليك السلطانية ، وله أتباع .

٢٦ ـــ المحتسب : ينظر فى شئون القاهرة ، ويراقب الصناع والعمال والتجار ومن إليهم ، ويراقب استقامتهم ، ويضرب على يد المنحرفين منهم ، وهو شبيه بحكمدار العاصمة .

هذا ، وهناك كثير من الوظائف العامة ، غير ما سلف ، ضربنا الذكر صفحا عنها وعن اختصاصها . وحسبنا ما ذكرناه . ونرى من النافع فى هذا المقام ، أن ننوه بهذا الثبت القيم ، الذى سجله ابن إياس فى بدائعه فى مطلع حوادث عام ٩٠٨ هـ مرة ثم ٩٢٢ هـ مرة أخرى . دون فى كلٍّ أسماء القائمين بالأمر فى الدولة ، والهيئة الحاكمة فيها . مع ذكر وظيفة كل منهم . ونحن هنا ننقل ثبت عام ٩٢٢ هـ ذاكرين الوظائف دون أسماء الشاغلين لها فعلا إذ ذاك . فهى تعين على رسم صورة لأولى الأمر فى البلاد ، ومن يعاونهم . ومنهم من ضم وظيفتين . وهى بإيجاز :

١ ـــ السلطان ٢ ـــ الخليفة ٣ ـ قضاة القضاة الأربعة .

٤ ـــ أمراء مقدمون أرباب وظائف ، وعددهم ستة وعشرون ، منهم من يشغلون

الوظائف الآتية : أميركبير ، أتابك . أمير سلاح . أمير مجلس . أمير أخوركبير . رأس نوبة النوب . حاجب الحجاب . الدوادار الكبير . الأستادار . كاشف الكشاف والباقون بلا وظائف .

٥ — نواب البلاد الشامية والحلبية : نائب حلب . نائب طرابلس . نائب حماة . نائب صفد : نائب غزة . نائب القدس . نائب الكرك . ومن النواب من شغل أكثر من نيابة واحدة

٦ — أمراء طبلخانات موظفون : شاد الشراب خاناة . الزدركاش الكبير . تاجر المماليك . أستادار الصحبة . رأس نوبة ثان . الحاجب الثانى ، والى الشرطة . المهندار . نقيب الجيش . شاد الشون . الترجمان . معلم المعلمين . أمراء رءوس نوب كثيرون . قال ابن إياس : وقد تكامل فى هذه السنة من الأمراء الطبلخانات والعشرات فوق الثلثمائة أمير .

٧ — كبار المباشرين ، وهم من المتعممين : كاتم السر وناظر ديوان الإنشاء . نائبه . ناظر الجيش . مستوفيا ديوان الجيوش . ناظر الخاص . ناظر الأوقاف . الوزير . ناظر الدولة . كاتب المماليك . ناظر الأصطبل . مستوفى ديوان الخاص . ناظر الزردخانة . مستوفى الزردخانة . ناظر الحسبة . ناظر الأحباس . مستوفى ديوان الجيش الشامى : المتحدثان فى الخزائن الشريفة . المتحدث فى وظيفة الزمامية . المتحدث فى الديوان المفرد . البرددار . المتحدث فى الشون السلطانية وغيرهم من المباشرين وأعيان الدولة .

٨ — أعيان الخدام الطواشية والخاصكية : فى هذه السنة تكاملت الخاصكية ، فبلغت نحو ألف ومائتى خاصكى من مشتريات السلطان .

وهذا . ونظراً لما للنيابة السلطنة والأتابكية والوزارة والقضاء والخلافة من أهمية . أفردنا لكل منها فصلا ، يبين أحوالها . وأتبعنا كل فصل ، بترجمة عدد ممن شغل منصبها . أما وكتاب السر ، فنتحدث عنهم فى الجزء الثالث بعون الله .

نيابة السلطنة (١)

درجت السلطنة المملوكية منذ نشوئها تقريبا ، على أن يكون لها « نائب سلطنة » . ومنصب « النيابة » أرقى مناصب الدولة جمعاء . ونائب السلطنة فى المرتبة الثانية بعد السلطان . وهو أوسع الأمراء نفوذا ، وأكثرهم اختصاصا ، وذلك بحكم منصبه . ويقوم بإنجاز كثير من الأعمال التى تعتبر من اختصاص السلطان . فتعرض على سمعه القضايا المرفوعة إلى السلطان ، فيفصل فيها ، وقد ترسل إلى السلطان طلبا لموافقته . وفى هذه الحالة يكفيه النائب مئونة النظر بنفسه فى تلك القضايا .

وينظر النائب فى أحوال الجيش ويفتشه . ويخرج أنواعا من الإقطاع ، ويختار لها من يشاء ، ويرشح لمراتب الإمارة بعد مشاورة السلطان . ويعين من يريده للوظائف المختلفة ماعدا ما كان خطير الشأن منها ، كالقضاء والوزارة وكتابة السر ، فإنه يعرض على السلطان من يصلح لها ، وقل ألا يجاب . (٢)

والنائب يشاوره كثير من أرباب الدولة ورؤسائها فى أمور اختصاصاتهم . ويكتب إليه نواب الأقاليم فيما يكتبون فيه إلى السلطان . ويمتاز عنهم بأنه يلقب « بالنائب الكافل » و « كافل الممالك الإسلامية الشريفة » ، ويمشى الأمراء فى ركابه . إلى غير ذلك من ضروب الميزة والاختصاص . فهو السلطان الثانى ، واليد العاملة المحركة لشؤن الدولة . وهو ــ فى الغالب ــ الحاكم الحقيقى فى البلاد . وقد يشتد نفوذه ، حتى يطغى على نفوذ السلطان نفسه .

ويختار النائب من أوسع الأمراء جاها ، وأشدهم دهاء ، وأفضلهم ذكاء ، وأكثرهم حنكة ودربة . وقد يعين فى وظيفته تلك ، خوفا منه أو ترضية له .

وكثيرا ما ترشح النيابة شاغلها لتولى السلطنة . فقد تنقلب الظروف بالسلطان ، ويختفى

---

١ ــ راجع ما كتبناه بعد عنها فى باب « أتابكية العساكر » .

وراجع كتاب « التعريف » لابن فضل الله تحت عنوان « النواب » . وخطط المقريزى ج ٣ تحت عنوان « دار النيابة » . وصبح الأعشى ج ٤ تحت عنوان « النيابة » . بدائع ابن إياس فى حوادث السنين المذكورة . والسلوك فى ٣٨٤ ، ٣٩٠ وحوادث السنين المذكورة .

٢ ــ هذا مؤدى كلام المقريزى . ويفهم من عبارة القلقشندى أن النائب يعين من يشاء فى الوزارة وكتابة السر . وقل ألا يجاب فيمن يعينه

من مسرحه لسبب ما ، أو يدعو سبب إلى اختفائه ، وهنا يقفز النائب ويتولى السلطنة مكانه ، وقد يوجد من الدواعي ، ما يختفي لأجله نائب السلطنة نفسه . كأن يتراءى للسلطان القبض عليه ، أو الحكم بإعدامه أو نقله من منصبه عقابا له . فإذا اختفى خلا منصبه ، وأقيم فيه نائب جديد . لذلك قد يتعدد نواب السلطنة فى وقت واحد ، مثل عهد الناصر محمد بن قلاوون ، فقد شهد جملة من النواب . ويبقى لكل واحد منهم لقبه ، فيقال له «نائب السلطنة» ، وإن كان شاغل المنصب منهم واحدا فقط ، وهو الرجل العامل من بينهم .

وهناك منصب آخر يسامق «النيابة» ، ويطاولها جاها ونفوذا ، وهو «الأتابكية» — إمارة الجند — . وكثيرا ما طغى شاغله «الأتابك» بجاهه ونفوذه على ما للنائب من جاه ونفوذ . وربما جمع أمير بين منصبى «الأتابكية» ، «والنيابة» معا ، فيبلغ بذلك الغاية من الملك والسلطان . ويرجع سبب ذلك — فى أغلب الأحوال — إلى شخصيته وإلى نصيبه من الحيلة والذكاء والأعوان .

ومهما يكن من شيء ، فقد تقلبت الأحوال بنيابة السلطنة ، طول العصر ، فصادفتها جملة أمور نلخصها فيما يلى :

فى ١٣ شوال عام ٦٤٨ هـ استناب الملك المعز الأمير «علاء الدين البندقدار» بديار مصر ، لترتيب الأمور وكشف المظالم (١) ، فهو أول نواب السلطنة بمصر . وفى خلال عام ٦٥٠ هـ أمّر الملك المعز أيبك عددا من مماليكه ، وجعل مملوكه الأمير «سيف الدين قطز» ، نائبا لسلطنته ، ووكل إليه تدبير شئونه(٢) . وكان واسع النفوذ ، أثيرا عند سلطانه ، عاونه على تثبيت ملكه ودعم أركانه . ومن ثم توالى نواب السلطنة فى كل عهد تقريبا . حتى كان عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، وكان نائب سلطنته «طرنطاى» . فقبض عليه بسعاية وزيره «علم الدين سنجر» الشجاعى . واختار من بعده الأمير «بيدرا» عوضا عنه . غير أنه ما لبث أن عزل الوزير الشجاعى المذكور ، وعين مكانه صديقه وصفيه «شمس الدين بن السعلوس» وزيرا عام ٦٩٠ هـ . وأطلق يده فى شئون المملكة ، حتى صار صاحب الحل والعقد فيها . فطغى نفوذه على نفوذ النائب «بيدرا» ، ومشت الأمراء والقضاة فى ركابه ، وقرئت القصص والمظالم عليه ، وفصل فيها برأيه دون أن

---

١ — سلوك ص ٣٧٣ ، ج ١   ٢ — سلوك ج ١ ص ٣٨٤

يستشير السلطان . وعظم بذلك منصب الوزارة ، وشأى النيابة وغيرها .

ولما ملك الناصر «محمد بن قلاوون» تتابع فى عهوده عدد من نواب السلطنة ، ساءت العلاقات بينهم وبينه ، حتى قرر إلغاء « النيابة » جمـــلة ، كفا لشر النواب . فتم ذلك عام ٧٣٧ ﻫ . غير أن هذا المنصب سرعان ما أعيد فى عهد ابنه «المنصور» ، واختـــير لنيابة سلطنته الأمير « طقزدمر» . وذلك فى عام ٧٤١ ﻫ .

ولما كانت سنة ٧٤٢ . ملك الأشرف « كجك » بن الناصر ، وفى عهده جمع الأمير «قوصون» بين منصبى « النيابة » و « الأتابكية » . وعظم أمره واستبد ، وغلب عليه لقب « الأتابكى » . غير أنه لبث كذلك زمنا وجيزا ، ثمُ قتل ، وخُـلع ملكه فانفصل المنصبان . وعين فى النيابة الأمير «طشتمر» .

ولبثت « النيابة حتى كان عهد الناصر حسن بن قلاوون . فألغاها عام ٧٥٥ ﻫ . كما ألغاها أبوه من قبل . وأنشأ مكانها وظيفة جديدة هى « الإمرة الكبيرة » ، واختار لها الأتابكى « شيخو » العمرى الناصرى ، فهو أول من سمى بأمير كبير . وظل هو والأمير «صرغتمش» صاحبى الحول والطول زمنا .

ولما زالت دولة الناصر حسن عام ٧٦٢ ﻫ ، عادت نيابة السلطنة إلى الظهور مرة أخرى ، فى عهد خلفه المنصور محمد بن حاجى . وعين فيها الأمير «قشتمر المنصورى» . وظلت قائمة حتى عام ٧٧٥ ﻫ . إذ تولاها الأمير « منجك اليوسفى » وجمعها إلى « الأتابكية » ، وأصبح صاحب الحول والطول فى أيام الأشرف شعبان ابن حسين ابن الناصر محمد . كما كان «قوصون» من قبل . فلما ولى ابنه علىّ بعده ، فصل بين المنصبين وعين فى «النيابة» الأمير « أقتمر الصاحبى» الشهير بالحنبلى . وفى « الأتابكية » الأمير «طشتمر المحمدى » الشهير باللفاف . إلا أن الأمير « أينبك » البدرى ، نازع « أقتمر » وأمره بالسفر إلى دمشق « نائبا » بها . فسمع وأطاع . !

وقبض على « طشتمر » فخلا الجو للأمير « أينبك » . فأسندت إليه « الأتابكية » . واستبد بها بعده الأتابكى « برقوق » قبل سلطنته . فاختفت « النيابة » حينا . حتى أسس « برقوق » دولته الجركسية عام ٧٨٤ ﻫ ، فاختار لنيابة سلطنته الأمير «سودون الفخرى» الشيخونى . ويبدو لنا أن النيابة اتضعت عن قبل . فقد وفد إلى مصر المقر السيفى «بيدمر» الخوارزمى نائب الشام زائرًا ، فأكرمه السلطان برقوق ، وقدمه فى المواقف الرسمية على

نائب سلطنته « سودون » .

وآل أمر النيابة فى عهد فرج بن برقوق إلى الأمير «تمراز» . ويبدو لنا أنها عطلت من بعده زمنا طويلا ، واستبد بأمور الدولة الأتابكيون وأخوانهم . حتى كان عهد السلطان «جقمق» عام ٨٤٢ ﻫ . فعين فى أواخر العام المذكور الأتابكى «أقبغا» التمرازى نائبا لسلطنته ، مع الأتابكية ، فعظم أمره .

قال ابن إياس ما ملخصه : « أن أقبغا التمرازى ، صار يحكم بين الناس ، وعلى بابه رأس نوبة ونقباء . وهو آخر من تولى نيابة السلطنة المصرية » .

هذا . وقد كان لنائب السلطنة ، دار خاصة بالقلعة وتسمى «دار النيابة» ، يقيم فيها لسماع القصص والأحكام : أى لمباشرة عمله . وقد بناها المنصور قلاوون عام ٦٨٧ ﻫ ، وأول من سكنها «طرنطاى» . فلما ألغى ابنه الناصر نيابة السلطنة ، هدم تلك الدار . ثم أعاد النائب «قوصون» بناءها ، ولكن لم تكمل ، حتى قبض عليه ، ثم ما زالت حتى أقام بها النائب « آق سنقر » عام ٧٤٣ ﻫ ، بعد تجديدها . وظل النواب يقيمون فيها ، ويشرفون على الجيوش المصرية منها ، حتى عهد النائب «تمراز» أيام « فرج بن برقوق» ، فهجرها ، ولم يقم بها .

نواب السلطنة (١)

ولى نيابة السلطنة ، كثير من أمراء الدولة متتابعين . ومنهم من بلغ السلطنة ، وملك البلاد . مثل : قطز المعزّى ، وكتبغا المنصورى ، ولاجين المنصورى . ومنهم من لم يبلغها ، ووقف به جده عند النيابة . ونحن هنا نترجم لعدد من هؤلاء فى إيجاز مناسب ، مع ذكر ما عثرنا عليه من سنوات وفاتهم فحسب ، إذ كثير منهم جُهل أول سيرته . فمنهم :

١ — علاء الدين إيدكين البندقدار الصالحى ٦٨٤ ﻫ :

أول نواب السلطنة بديار مصر . اختاره الملك المعز أيبك فى ١٣ شوال ٦٤٨ ﻫ . فجلس فى دار العدل مع النواب ، وأخذ فى ترتيب الأمور . وكشف المظالم . وما زال حتى اختار مكانه مملوكه « قطز » عام ٦٥٠ ﻫ .

---

١ — يراجع فهرس سلوك المقريزى فى تراجم هؤلاء النواب جميعا . وكذلك بدائع ابن إياس والمنهل الصافى لأبى المحاسن والضوء اللامع للسخاوى ، وغيرها من كتب التراجم .

وهذا الأمير من جملة مماليك الصالح نجم الدين الأيوبى . كما أن الظاهر بيبرس ، كان من جملة مماليكه هو ، ولذلك نسب إليه فقيل له : « البندقدارى » .

ولما ساءت العلاقة بين المعز والمماليك البحرية ، وبينه وبين زوجته شجرة الدر ، قبض على عدد من البحرية الصالحية ، ومن بينهم ، « إيدكين » ، واعتقلهم بالجب بقلعة الجبل عام ٦٥٥ هـ . ثم لما ولى « بيبرس » السلطنة ، حظى هذا الأمير عنده ، وولى نيابة دمشق زمنا يسيرا ، ثم ولى نيابة حلب ، وشهد عصر الملك السعيد ، واشترك مع الثائرين عليه ، حتى خلعوه . وقد مات « إيدكين » عام ٦٨٤ هـ .

« سلوك المقريزى ج ١ ص ٧٣٠ »

٢ — عز الدين « إيدمر » الحلى ٦٦٧ هـ (١)

ورد ذكره فى سلوك المقريزى ، ويفهم منه أنه كان نائبا للسلطنة فى عهد السلطان « قطز » (٢) . فلما ولى « بيبرس » السلطنة بعد قتل « قطز » ، حفظ « إيدمر » القلعة ، حتى سلمها إلى « بيبرس » . وسرعان ماعين « بيبرس الأمير « بيليك » الخازندار مملوكه ، نائبا للسلطنة ، مكان « إيدمر » ، عام ٦٥٨ هـ .

وقد اختير « إيدمر » ٦٦٢ هـ ، ليكون « أتابكا » خاصا للملك السعيد بن بيبرس ، وهو ولى للعهد . غير أنه يبدو لنا أنه احتفظ له بلقب « نائب السلطنة » ، وأنه كان ذا مكانة رفيعة لدى « بيبرس » . وفى أواخر عام ٦٦٤ هـ ، طعنه أحد الجاندارية بسكين ، فأصابه إصابة بالغة . وآساه من أجلها « بيبرس » أكبر مواساة . وقال : « والله يهون على موت ولدى بركة ، ولا يموت الحلى » .

وفى صفر عام ٦٦٧ هـ اختار « الملك السعيد » — وكان يحكم عوضا عن الده — الأمير بدر الدين « بيليك » الخازندار بدلا من « الحلى » . وعقب ذلك خرج « الحلى » مع السلطان « بيبرس » إلى بلاد الشام ، فمات هناك بدمشق فى أول شعبان عام ٦٦٧ هـ ، عن نيف وستين سنة . ومن آثاره : أنه جدد الجامع الأزهر عام ٦٦٥ هـ ، وأقام به مقصورة ومنبرا جديدين ، وضم إلى أوقافه أوقافا كانت مغصوبة ، وكان سببا فى عودة صلاة الجمعة فيه بعد عطله منها زمنا طويلا . وقد حج « الحلى »

---

١ — فى النهج السديد ، دعاه مرة « الحلبى » ومرة « الحلى » : انظر ج ١ ص ٤٨٢ ، ٤٩٠

٢ — وهذا يوافق رواية ابن أبى الفضائل فى النهج السديد ج ١ ص ٤٠٨

فى هـــذا العام نفسه (١).

« سلوك المقريزى ج ١ ص ٤٣٧ ، ٤٤٥ ، ٤٥٩ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٣٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٧٣ ، ٨٥٠ — «النهج السديد» ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٨٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩» .

٣ — بدر الدين بيليك الخازندار ٦٧٦ هـ

كان مملوكا للظاهر بيبرس ، قبل سلطنته . ، فلما صار سلطانا ، خلع على مملوكه هذا وأقامه فى نيابة سلطنته عام ٦٥٨ هـ . وفوض إليه شئون الدولة ، فصار صاحب الحل والعقد فيها . وخرج مع السلطان مرار[٢] إلى بلاد الشام للقتال . ولعله أبعد عن النيابة زمنا ، وحل محله فيها ، « عز الدين إيدمر الحلى » ، حتى كان عام ٦٦٧ هـ ، إذ اختاره الملك السعيد حينما كان يجلس للحكم عوضا عن والده نائبا له .

ولما مات « بيبرس » فى نواحى دمشق ، كان معه « بيليك » ، فكتم خبر موته لئلا يطمع التتارفى بلاده فى هذه الفترة العصيبة . وسار إلى مصر ، ومعه محفة السلطان كأنه فيها . حتى بلغ مصر ، فأعلن الناس بوفاة سلطانهم . وأتم سلطنة ابنه « الملك السعيد » ، وبذلك حفظ له العرش . فأقره « الملك السعيد » فى نيابته . فلبث قليلا حتى مات عام ٦٧٦ هـ فى ربيع الآخر . ويقال إن « الملك السعيد » دس إليه السم خـــوفا منه . وروى صاحب النهج السديد : أن « بيليك » دخـــل إلى والدة الملك السعيد ، عقب سلطنته مباشرة ، يعزيها بوفاة « بيبرس » ، ويهنئها بسلطنة ابنها ، فسقته سكرا وليمونا ، أصيب عقبه ومرض . فرشوا طبيبه « عماد الدين النابلسى » ، فأهمله فمات . — وقد كان «بيليك» محسنا كثير البر ، عارفا بالتاريخ ، جيد الخط . ومن آثاره : أنه بنى عام ٦٦٥هـ مقصورة جديدة بالجامع الأزهر ، لما جدده « عز الدين الحلى » ، ورتب فيه أيضا دروسا فى فقه الشافعى ، والحديث ، والقراءات ، وأوقف على ذلك أوقافا كافية . ولمـــا مات حزن الناس عليه ، وكانت جنازته حافلة .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٩ ، ١١٠ ، ١١٢ — والسلوك ج ١ ص ٥٥٧ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٦٤٨ — والنهج السديد ج ١ ص ٤٩١ ، ج ٢ ص ٤٥٣ »

---

١ — فى النهج السديد ج ١ ص ٤٩٠ ، ٤٩١ ما يفهم منه أن « إيدمر » كان يطلق عليـــه « نائب » فى حين أن « بيليك » كان نائبا للسلطنة بالفعل .

٤ ـ شمس الدين آق سنقر الفارقانى ٦٧٦ هـ

اختاره الملك السعيد بن بيبرس ، نائبا لسلطنته عقب وفاة « بيليك » عام ٦٧٦ هـ . فلبث قليلا ثم أثار غضب السلطان ، فقبض عليه ، وسجنه بثغر الاسكندرية (١) ثم أمر بخنقه فى العام نفسه ، ودفن فى سجنه . ـ وذكر صاحب النهج السديد : أنه ولى النيابة عام ٦٧٧هـ ، فوقع شقاق بينه وبين الخاصكية ـ حرس السلطان الخاص ـ فقتلوه فى العام المذكور.

« ابن إياس ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٢ . ـ النهج السديد ج ٢ ص ٤٩٣ ، ٤٩٨ ، ٥٤١ ، ٤٦٣ ـ السلوك ج ١ ص ٦٥٠ ، ٧٠٤ » .

٥ ـ شمس الدين سنقر المظفرى الألفى ٦٨٠ هـ

ولى النيابة عقب وفاة « آق سنقر » . فرأى الأمور مختلة ، والنظام فاسدا ، بتحكم الصبيان الجهلة من الخاصكية ، الذين أخذوا يوغرون صدر السلطان عليه . فطلب إلى سلطانه الملك السعيد ، أن يقيله ، فأقاله . وما مكث إلا قليلا فى نيابته . ومات عام ٦٨٠ هـ ، وهو مسجون — كما قيل — بالإسكندرية .

« النهج ج ١ » وسلوك المقريزى (راجع الفهرس .)

٦ — سيف الدين كوندك الساقى ٦٨٠ هـ

ولى النيابة بعد استقالة « سنقر المظفرى » عام ٦٧٦ هـ . وهو من رجال الخاصكية . وكان إذ ذاك شابا ذكيا . ومن قبلُ كان مع سلطانه الملك السعيد فى المكتب صغيرين ، فانعقدت بينهما صلة الود . فلما ولى له نيابة سلطنته ، مكن له تمكينا ، لم يكن لأحد قبله . ورسم بألا يوقع لأحد إلا بقلمه وعلمه ، وقد عاونه فى مهمته الأتابكى قلاوون الألفى . ـ وفى عام ٦٧٨ هـ وقعت بينه وبين الخاصكية منازعة ، وكادوا يقتلونه . لولا أن حماه الأمير « سنقر الأشقر » . وطلبوا إلى السلطان عزله فأمره بالرحيل إلى حلب ، ومنحه إمرة أربعين . ا فحاول أن يوقع بين السلطان وأمرائه ، ـ ومنهم « قلاوون » ـ لينتقم . فاستشرى الفساد بين الفريقين ، حتى خلع الملك نفسه .

وبعد حين ، ولى السلطنة المنصور « قلاوون » ، فتآمر « كوندك » عليه مع آخرين ،

١ — هذه رواية ابن إياس . ويفهم من السلوك أنه لم يخرج للإسكندرية ، وأنه مات عام ٦٧٧هـ .

وهموا بقتله . فقبض عليه ، وسلم للأمير «حسام الدين طرنطاى» عام ٦٨٠ ﻫ ، فضرب عنقه ، وأغرقه فى بحيرة طبرية .

« ابن إياس ج ١ ص ١١٣ — النهج السديد ج ٢ ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ — السلوك ج ١ ص ٦٨٥ ، ٦٨٦ »

٧ — عز الدين أيبك الأفرم الصالحى

عينه السلطان بيبرس فى أول سلطنته ، أمير جاندار (١) . فسافر فى عام ٦٦٠ ﻫ . بعسكر إلى بلاد الصعيد ، وأوقع بعربانها الثائرين بقوص . وسافر إلى أسوان عام ٦٧٣ ﻫ مع آخرين لقتال ملك النوبة العابث بتلك الجهات . — ثم أقيم نائبا للسلطنة فى عهد العادل « سلامش » . ولكن الأمر كان فى يد الأتابكى « قلاوون » . فلما ولى «قلاوون» السلطنة ، اختاره نائبا لسلطنته عام ٦٧٨ ﻫ . فلبث قليلا ، ثم استعفى مدعيا المرض . فأعفاه السلطان ، ورتب له ما يكفيه . واستشاره فيمن يخلفه ، فأشار عليه باختيار الأمير «حسام الدين طرنطاى» ، فوافق ذلك هوى فى نفس السلطان . ولم يلبث أن ندبه مع عدد من الأمراء وجموع من الجنود ، لمحاربة « سنقر الأشقر » الذى ملك بلاد الشام ، وخرج على السلطان . فما زال به حتى أخضعه . واشترك مع السلطان فى حرب التتار .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، والسلوك ج ١ » .

٨ — حسام الدين طرنطاى ٦٨٩ ﻫ

هو طرنطاى بن عبد الله . كان من مماليك المنصور قلاوون . رباه صغيرا ، وترقى هو فى خدمته . حتى تقلد المنصور سلطنة مصر ، فجعله نائب سلطنته ، بعد « الأفرم » الصالحى . وذلك عام ٦٨٧ ﻫ . وهو أول من سكن « دار النيابة » التى أنشأها المنصور عام ٦٨٧ ﻫ . وقد بعثه المنصور عام ٦٨٦ ﻫ . للقبض على الأمير « سنقر الأشقر » ، الذى أعلن بنفسه سلطانا على بلاد الشام . فما زال به حتى استسلم ، فساقه إلى مصر ،

---

١ — أمير جاندار : هو الذى يستأذن على الأمراء ليدخلوا لخدمة السلطان . ويقدم البريد إلى السلطان ، مع الدوادار وكاتب السر — «صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠»

ودفع به بين يدى المنصور .

ولما مات المنصور ، وتولى ابنه الأشرف خليل دس له الأمير « علم الدين سنجر الشجاعى » الوزير دسيسة عنده . وكان الأشرف يكره « طرنطاى » قبل سلطنته ، لأنه يعرقل أعماله وآماله . وقيل للأشرف : إنه يعمـــل على إفساد مملكته . فقبض عليه عام ٦٨٩ هـ ، فسجنه بالقلعة ، ثم أمر بخنقه .

وكانت الأمراء قد حذرته من بطش الأشرف خليل ، وراودوه على ألا يعاونه على إتمام سلطنته بعد أبيه ، وأغروه بالقبض عليه . ولكن « طرنطاى » كان واثقا من نفسه معتمدا على مهابته ، حريصا على أن يكون وفيا لسيده المنصور ، فلا يغدر بابنه ، فراح ضحية ثقته ووفائه . وأحاط الأشرف بماله وتحفه ، ويقال إنه ترك من ذلك الشيء الكثير . وكانت له مدرسة اشتهرت بالمدرسة الحسامية .

« ابن إياس ج ١ ص ١١٥ إلى ١١٩ ، ١٢٢ - وخطط المقريزى ج ٤ ص ٢٢٨ تحت عنوان « المدرسة الحسامية » - سلوك ج ١ ص ٦٥٥ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٧ ، ٧١٥ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ » .

٩ — بدر الدين بيدرا ٦٩٣ هـ

ولى الوزارة حينا فى عهد قلاوون ، بإشراف القاضى تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز ، وشهد له هذا القاضى عند سلطانه ، بالسداد والحزم واللطف فى العمل . ثم عزل منها ، ووليها القاضى المذكور . ثم عزل القاضى وأعيد الأمير « بيدرا » ، فسار فى أعمالها بمفرده . وكان حينئذ أمير مجلس . ثم رقى إلى الأستادارية مع الوزارة . وظل كذلك إلى آخر عهد المنصور قلاوون ولما آل الملك لابنه الأشرف خليل ، خلع على الأمير « بيدرا » وجعله نائب سلطنته ، وذلك عام ٦٨٩ هـ ، بعد « طرنطاى » . وخرج عام ٦٩١ هـ ، فى حملة من عسكر مصر لقتال سكان جبال كسروان ببلاد الشام ، فآب خاسراً ومرض بسبب ذلك . وكان الأشرف اختار لوزارته صديقه الحميم القاضى « شمس الدين بن السلعوس » ، وأطلق يده ، فاستبد بتدبير المملكة ، وأصبح بيده الحل والعقد فيها ، وطغى بنفوذه على نفوذ النائب « بيدرا » ، وتدخل فيما يعتبر من اختصاصه ، فلم يظهر ذلك غضبا لعلمه بميل السلطان إليه . ثم إن « ابن السلعوس » أثر بعض الأخطاء التى

وقع فيها غلمان « بيدرا » ، ودس له عند السلطان ، حتى أحنقه عليه . فأحضره وأغلظ له فى القول ، وأثقل عليه فى الحديث ، حتى جرح كرامته ، وتوعده بكل سوء . فتحيل الأمير « بيدرا » وتلطف به حتى خلص من بين يديه ، وفى نفسه ما فيها من الغيظ والحنق . فأضمر له الشر ، وأخذ يدبر هو وأتباعه مؤامرة لاغتياله . وقد سنحت لهم الفرصة المرجوة فى يوم السبت ٥ المحرم عام ٦٩٣ هـ ، إذ خرج « الأشرف » فى إحدى رياضاته بالجيزة ، ولم يكن فى صحبته غير أمير واحد . وكان أتباع « بيدرا » يراقبون حركاته وسكناته حتى انفرد ، فهجموا عليه هجمة صادقة ، ومزقوا جسده شر ممزق ، وتركوه جثة هامدة رهن الخلاء .

ثم ائتمروا فيما بينهم فيمن يستحق السلطنة ، فاستقر الرأى على سلطنة « بيدرا » . فتلقب بالملك « الأمجد » ، وقيل « الرحيم » . ولكن الخبر شاع وملأ البقاع . فهبت بقية الأمراء ، ومعهم المماليك السلطانية ، ووفدوا إلى الجيزة ، وأحاطوا ببيدرا ، ومن معه ، فقطعوه بسيوفهم إربا إربا . فانتهى أمره بهذه العاقبة ، ولما تمر على سلطنته ليلة كاملة .

وقد ولى النيابة من بعده « كتبغا » ثم « لاجين » ، وقد صار كل منهما ملكا ــ كما بينا ــ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ » .

١٠ ــ شمس الدين قرا سنقر المنصورى ٧٢٨ هـ

هو قرا سنقر بن عبد الله ، الجوكندار المنصورى . اشتراه المنصور قلاوون قبل سلطنته ، ثم ترقى فى خدمته ، إلى أن ولاه نيابة حلب عام ٦٨٢ هـ ، (١) . ويقال إنه من أبناء النصارى .

وفى عهد الأشرف خليل عزل من نيابة حلب عام ٦٩١ هـ ، ووفد فى عصبة الأمير « بيدرا » ، نائب السلطنة حينذاك ، لقتال سكان جبال كسروان ، فلم يظفروا بطائل . ثم دخل القاهرة ، وانضم إلى « بيدرا » ، ودبر معه مقتل الأشرف خليل . ثم اختفى زمنا ، ولما صار الملك إلى « لاجين » أقام « قراسنقر » نائبا لسلطنته عام ٦٩٦ هـ (٢) .

١ ــ فى السلوك ج ١ ص ٨ ٧ أنه ولى نيابة حلب عام ٦٨١ هـ .

٢ ــ هذا كلام ابن إياس . وفى الدرر : أنه ولى نيابة السلطنة فى عهد « كتبغا » . والأول أصح ؛ لأن نائب « كتبغا » كان « لاجين » الذى وثب من بعده من النيابة إلى العرش .

غير أنه لم يلبث غير أشهر ، ثم فسدت علاقاته بالسلطان « لاجين » ، واتهمه بجملة تهم ، منها كثرة جباية الأموال بغير حق . وقبض عليه ، فلبث فى سجنه زمنا ، ثم أطلق سراحه فى عهد الناصر بن قلاوون . وقدم إلى الناصر ضروبا من المعونة ، فحظى عنده . وولى عدة نيابات ، منها نيابة الشام عام ٧٠٩ هـ . ثم فسد ما بينه وبين الناصر ، ففر مع جماعة إلى « خربندا » ملك التتار ، فأعجب به ، وسر بعقله وذكائه ، وحبب إليه الإقامة لديه ، وزوجه تترية حسناء عالية القدر ، وهى ابنة « قطلوشاه » أحد أمراء التتار الكبار . وقد توفى فى ٢٧ شوال عام ٧٢٨ هـ . وقد كان شجاعا صنديدا غير هياب ، يقصده الطامعون فى جدواه . ومدحه بعض الشعراء ، وكان حسن التدبير راجح العقل . وقد بنى عام ٧٠٠ هـ مدرسة بالقاهرة عرفت إذ ذاك بالمدرسة القراسنقرية .

« ابن إياس ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ – والدرر الكامنة ج ٣ رقم ٦٢٥ – والخطط ج ٤ ص ٢٣٢ »

١١ — سيف الدين منكو تمر الحسامى ٦٩٨ هـ

كان مملوكا للسلطان حسام الدين لاجين . فأنعم عليه فى أول سلطنته عام ٦٩٦ هـ بإمارة مائة وتقدمة ألف ، فصار بذلك من عظماء الأمراء لجماءة . ولم ينصرم العام ، حتى أقامه نائبا لسلطنته بعد قبضه على النائب « قراسنقر » . ولم يكن « منكوتمر » أهلا لهذا المنصب الجليل ، إذ كان فى الأمراء من يفوقه دربة وخبرة ، وأحق منه بالنيابة لكفاءته وأقدميته . . . وبلغ من عناية السلطان به أن هم مرة بجعله وليا لعهده . كل ذلك أحقد عليه قلوب الأمراء . وأطلق السلطان يده فى شئون الدولة فعبث بالحقوق و غير
وكان أكبر معوان للسلطان على تنظيم « الروك الحسامى » ، الذى قسم فيه الإقطاعات تقسيما جديدا ، عده الأمراء والجنود مجحفا بهم . فأغرى السلطان ببعض الأمراء ، فقبض على البعض وفر منه البعض . فثارت بذلك ثائرة التآمر عليهما معا . وتزعمها الأميران « كرجى » و « طغجى » . فقتل « كرجى » السلطان غيلة فى إحدى الليالى ، فاستسلم « منكوتمر » على الأثر إلى « طغجى » ، فبعثه إلى جب القلعة سجينا . فكاد يبطش به من فى الجب من السجناء الذين أرسلهم إليه من قبل . وسرعان ما استدعاه « كرجى » بعد ساعة ، وذبحه بيده ، وكان ذلك عام ٦٩٨ هـ .

وكان «منكوتمر» ظالماً غشوماً كثير الدس للأمراء، مستبدا. فكان عمله هذا وبالا عليه. ومن آثاره مدرسته المنكوتمرية، بحارة بهاء الدين بالقاهرة - كانت - التى أكمل بناءها عام ٦٩٨ هـ.

«ابن إياس ج ١ ص ١٣٧، ١٣٨ - خطط المقريزى ج ١ ص ١٤١، ١٤٢ و ج ٤ ص ٢٣٠»

١٢ - سيف الدين «سلار» المنصورى ٧١٠ هـ

أصله من التتار الأويراتية، اشتراه قلاوون قبل سلطنته، ومنحه لابنه على. فخدمه وخدم بعده الأشرف خليلا. وحينما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون عودته الأولى إلى ملكه عام ٦٩٨هـ، عقب قتل الملك «لاجين»، عين الأمير «سلار» نائبا للسلطنة فى ذلك العام. فدبر له أمور دولته. وسار فى رفقته عام ٦٩٩ هـ، إلى بلاد الشام لقتال غازان ملك التتار.

ولما وافت سنة ٧٠٧ هـ، ساءت العلاقات بينه وبين سلطانه الناصر، ودبت عقارب المشاحنات بينهما. وضغط على السلطان فى تصرفاته حتى غص السلطان به وبالأتابكى «بيبرس» الجاشنكير، اللذين كانا يدبران له أمر مملكته، فاستبدا بذلك الأمر من دونه. فعزم الناصر على أن يخلع نفسه من السلطنة، فرارا من هذين الحاجرين. فأعلن عام ٧٠٨ هـ، بعزمه على الخروج إلى الحج. وخرج فعلا، ولكنه تخلف فى الكرك، وخلع نفسه من الملك. فتشاور الأمراء فيمن يولونه. وكانت الرغبة متجهة بجد إلى اختيار النائب «سلار»، ولكنه صمم رأيه وأعلن عزمه على عدم قبول هذا المنصب الرفيع، مع أهليته له. فتمت بذلك المشورة على اختيار الأتابكى «بيبرس» فتلقب «بالمظفر»، وظل «سلار» نائب سلطنة أيضاً فى ذلك العهد الجديد.

ازداد نفوذ «سلار» وعلا جاهه وقويت سطوته وظل كذلك زمنا، حتى تقلبت الأحوال، وائتمر كثير من الأمراء والجند على خلع «بيبرس»، والتف عدد منهم حول الناصر بالكرك، وكاتبه أمراء الشام بالطاعة. فزحف بأنصاره من الكرك إلى الشام، وخطب باسمه على منابرها. ثم أعد العدة للزحف على مصر. فاحتاط الأمير «سلار» لنفسه، وظهر بُعد نظره وقوة حيلته، فى أنه أخذ يزين للمظفر بيبرس أن يخلع نفسه من السلطنة، ويعلن بطاعته للناصر، قبل أن يدهمه بجنوده. فرضى المظفر مرغما، وأطاع، وكاتب الناصر بهذه الطاعة ثم فر.

أما « سلار » فإنه لم يظهر عداء للناصر ، وأعد العدة لحسن استقباله . فأطلق من فى السجون من أمرائه الموالين له ، وأغلق خزائن المال ، واحتفظ بالملك سليما ، ريثما يعود الناصر ، فيتسلمه . ـ هذا إذا استثنينا مانهبه المظفر « بيبرس » وقت هروبه ، من مال وسلاح وتحف ومماليك .

عاد الناصر إلى عرشه عودته الثانية عام ٧٠٩ هـ ، فتقدم إليه النائب « سلار » وقبل الأرض بين يديه ، وطلب إليه أن يعفيه من مهام منصبه ، وأن يسمح له بالإقامة بعيداً عن القاهرة فى إقطاعـــه بجهة « الشوبك » . فأعفاه . وبذلك انتهت نيابة سلطنته عام ٧٠٩ هـ ، بعد أن قام بها نحو إحدى عشرة سنة . وأقام بالشوبك ، وقيل بالكرك .

ورقى إلى علم السلطان الناصر بعد زمن أن أخا « سلار » وأتباع « سلار » يدبرون مؤامرة لاغتياله . فقبض على طائفة منهم . ثم حمل « سلار » على العودة إلى القاهرة . فلما حضر بين يديه ، دسه فى السجن ، فبقى به زمنا قليلا ، ثم مات كمداً وحسرة عام ٧١٠ هـ .

ولما توفى ، حملت تركته إلى الناصر ، فضمها إلى ممتلكاته . وقيل إنها كانت مليئة بأموال كثيرة وأنواع شتى من التحف النادرة والجواهر الثمينة ، مما يعد فذاً فى بابه . وينسب إلى « سلار » أنواع من الملابس « السلارية » ، التى استخدمت طيلة هذا العصر من بعده : وكذلك أنواع أخرى من الأسلحة وأدوات القتال . كما أنه كان كثير البر والتصدق على الفقراء . وقد دفن فى المدرسة الجاولية .

« ابن إياس ج ١ من ص ١٣٩ إلى ١٥٦ - الفوات ج ١ ص ٢٣٢ - الدررج ٢ رقم ١٩١٣ » .

١٣ — بكتمر الجوكندار المنصورى ٧١٦ هـ

كان حسن الصلة بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون . ولاه إمارة الحاج عام ٧٠٠ هـ ، فبذل ضروبا من البر ، وشكرت سيرته . وقد أقامه الناصر نائبا لسلطنته عام ٧٠٩ هـ ، عقب خروج « سلار » منها . ولكن مالبث حتى فسدت علاقاته بالسلطان ، فقبض عليه عام ٧١١ هـ ، وأودعه السجن بالإسكندرية . ثم نقل إلى الكرك ، ويقال إنه قتل بها ، عام ٧١٦ هـ ، وكان رزينا لين الجانب كثير الصدقات .

« ابن إياس ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٧ — الدررج ١ رقم ١٣٠٧ » .

١٤ - بيبرس الدوادار المنصورى ٧٢٥ هـ

أصله من مماليك المنصور . ولاه نيابة الكرك ، ثم عزله الأشرف « خليل » ورقاه دوادارا كبيرا . وقد أرسله الناصر محمد فى عام ٧٠٩ هـ فى إثر الملك المظفر « بيبرس » الجاشنكير ، لما فر من وجهه ، إلى إخميم . فتلطف هو والأمير « بهادر آص » به ؛ حتى استرد منه ما نهبه من المال والتحف .

واختاره الناصر نائبا لسلطنته عام ٧١١ هـ . بعد القبض على « بكتمر » . إلا أنه لم يستمر طويلا ، بل ساءت فيه ظنون الناصر . فقبض عليه ، وقذف به فى السجن عام ٧١٢ هـ . فلبث بسجن الإسكندرية نحو خمس سنين ، ثم شفع فيه النائب « أرغون » فأطلق عام ٧١٧ هـ . ثم حج عام ٧٢٣ هـ . ومات عام ٧٢٥ هـ ، عن نحو ثمانين عاما . وقد اشتغل « بيبرس » بالعلم والتاريخ ، ومن مؤلفاته : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، والتحفة الملوكية فى الدولة التركية .

« ابن إياس ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٧ - تاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٨٦ - حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٠ - الدرر ج رقم ١٣٨٤ » .

١٥ — أرغون الدوادار الناصرى ٧٣١ هـ

اشتراه المنصور « قلاوون » ، ورباه مع ولده الناصر « محمد » . فظل فى خدمته ، ولازمه . فلما قبض الناصر على نائبه « بيبرس » عام ٧١٢ هـ ، اختار « أرغون » نائباً . فحسنت سيرته ، ودفع عن الناس كثيرا من الظلم . وزار مرة منية ابن خصيب ، فخرب بها كنائس للنصارى ، ومنع استخدام النصارى فى ديوانه . وكلفه الناصر عام ٧٢٦ هـ أن يقبض على « مهنا » العربى الثائر . فتباطأ . فأثار بذلك غضب الناصر ، فقبض عليه ثم أخرجه نائبا على حلب . فمات بها عام ٧٣١ هـ . وكان ذا دراية بفقه أبى حنيفة ، وذا عناية كبرى باقتناء الكتب ، مع الحلم وحب الخير .

« ابن إياس ج ١ ص ١٥٧ - الدرر ج ١ رقم ٨٧٣ » .

١٦ - طقزدمر الناصرى ٧٤٦ هـ

أصله من مماليك المؤيد صاحب حماة . اتصل بالناصر « محمد » ، فعلت عنده مكانته .

وزوج ابنتيه لولديه المنصور والصالح . ثم ولى نيابة السلطنة عام ٧٤١ هـ ، فى عهد المنصور أبى بكر بن الناصر . ولكن أمر الدولة كان بيد « قوصون » أتابكى العصر . قبض « قوصون » على المنصور ثم على نائبه ، ونفاه إلى دمياط . وأصبح « قوصون » نائبا وأتابكيا معا . ثم أطلق سراح « طقزدمر » وأرسل نائبا على حلب فى أول عهد الصالح بن الناصر . ثم نقل إلى نيابة الشام . ثم أشخص إلى مصر مريضا ، فمات بها عام ٧٤٦ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ — الدرر ج ٢ رقم ٢٠٤٢ » .

١٧ — سيف الدين « قوصون » . الساقى الناصرى ٧٤٢ هـ

أحد أمراء مصر العظماء ، قدم إلى مصر لأول مرة عام ٧١٩ هـ (١) . حينما حضرت إلى مصر خطيبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهى ابنة القان « أزبك » صاحب الموصل . حضرت فى ذلك العام ومعها طائفة من الأمراء والخدم والمماليك . وكان « قوصون » بين هؤلاء المماليك فأعجب الناصر به إعجابا دفعه إلى شرائه . وقيل دفع ثمنه ثمانية آلاف من الدراهم . وقيل ثمانين ألفاً . وقد أعتق توا . فلم يعش بين الطباق بالقلعة ، كما عاش غيره من الأمراء . وكان « قوصون » يفتخر بذلك — وقد ذكرنا قبلا المفاخرة التى وقعت بينه وبين الأتابكى « بكتمر » الساقى ، وهى من هذا القبيل .

وقد صادف وجوده ، هوى فى نفس الناصر بن قلاوون ، حتى ركن إليه ، وقدمه فى كثير من الأمور والمهام . ورافقه فى سفره إلى الحجاز للحج عام ٧٣٢ هـ . ثم زوجه من بعد ذلك إحدى بناته (٢) . فكان هذا الزواج إحدى مفاخره ، وقد زادت به منزلته رفعة ، وجاهه علوا ، ونفوذه اتساعا . حتى أضحى قرينا للأتابكى « بكتمر » فى المنزلة والجاه والنفوذ ، بل ربما شآه فى ذلك . مع أن « بكتمر » هذا كان مدبر شئون الملك الناصر ، وعليه كل اعتماده فى تصريف شئونه . فلما مات

---

١ — ذكر فى الخطط أنه قدم عام ٧٢٠ هـ .

٢ — يفهم من ابن إياس أن هذا الزواج كان عام ٧٣٣ هـ ، وذكر فى الدرر أنه كان عام ٧٢٧ هـ .

« بكتمر » ، خلا الجو الأمير « قوصون » ، وانفسح أمامه المجال ، واتسع الأفق ، وازداد قربا من الناصر ، وأنعم عليه بأسلحة « بكتمر » . فلما انقضت أيام الناصر وتولى ابنه المنصور أبو بكر عام ٧٤١ هـ ، أقيم « قوصون » أتابكا للعساكر . وكان هناك أمير يحقد عليه هو « طاجار » . اشتد بينهما الجفاء ، حتى انقسم الجند معهما فريقين متعادين . ثم حبب « طاجار » إلى السلطان أبى بكر أن يقبض على « قوصون » ، فأوصى السلطان أحد خواصه من الجنود باغتياله . فما كان من الجندى إلا أن أسر الخبر إلى « قوصون » ، فعجل بتدبير مؤامرة مع فئة من الأمراء ، كانت نتيجتها خلع السلطان ، وإقامة أخيه الأشرف علاء الدين كجك مكانه .

حينما تربع « كجك » ، فى دست الملك كان صغير السن ، فكان « قوصون » بجواره كوصى عليه . وهنا بلغ قمة مجده ونهاية سؤدده ، فأبرم ونقض ، وحل وربط ، وأمر ونهى ، وجمع إلى الأتابكية نيابة السلطنة عام ٧٤٢ هـ . وأخذ فى تجديد دار النيابة ، بعد أن كان قد هدمها الناصر بن قلاوون . قيل : وكان يجلس فى داره ، ويمد للأمراء سماطا أعظم من سماط السلطان .

هذه الغاية التى بلغها « قوصون » ، أثارت الحقود والضغائن فى قلوب منافسيه وأعدائه . ومما أشعل نيران هذه الحقود أيضا ، أن أصدر أمره بالقبض على من توسم فيهم العصيان من المماليك السلطانية ، ومن كبار الأمراء كالأمير « طشتمر » ، نائب حلب فى ذلك الوقت ، وكالأمير « إيدغمش » أمير أخور كبير ، وكالأمير « قطلبغا » الفخرى . فأهاج بذلك على نفسه فتنة لم يقو على درئها . فقد أخذته الأعداء من كل جانب ، واستباحوا داره . وأغروا بها العوام ، فنهبوا من مكنوناتها ما أغناهم دهراً . فقد كانت مليئة بكثير من المال والتحف والسلاح والخيل ، وغير ذلك . — أما « قوصون » فقد احتمى بالقلعة . ورأى بعينيه ما يفعله الرعاع بداره ، فلما اشتد الأمر ، أرسل إلى « إيدغمش » فى طلب الأمان ، فقبض عليه « إيدغمش » وسجنه بالزردخانة ، ثم أرسل فى طى الليل إلى سجن الإسكندرية . وأهين أتباعه ، وقتل منهم كثيرون . ثم أعدم « قوصون » بالإسكندرية عام ٧٤٢ هـ .

هذه هى نهايته ، بعد أن بلغ من المجد مبلغا عظيما ، حتى هابته الأمراء . قيل إنه لما تزوج ابنة الناصر محمد ، أهدى إليه الأمراء نحو خمسين ألف دينار . وكان كريما

كثير البذل والسماح . وله مسجد بناحية بركة الفيل بالقاهرة ، وخانقاه بجهة باب القرافة ـ كانت ـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، إلى ، ١٧٩ ـ الخطط ج ٤ ص ١٠٤ ـ الدرر ج ٣ رقم ٦٢٢ »

١٨ — طشتمر البدرى الساقى ٧٤٣ ﻫ

كان من مماليك الناصر بن قلاوون . وترقى حتى بلغ الإمارة . ولكنه كان غليظ القلب ، شديد البأس . لذلك لم يسترح إليه ضمير الناصر . فقبض عليه عام ٧٢٦ ﻫ ـ وقيل عام ٧٢٧ ﻫ ـ . فشفع فيه بعض الأمراء ، فخلى سبيله . ومع هذا ظل ممقوتاً لدى الناصر . وقد عين نائباً لحلب فى عهد المنصور أبى بكر بن الناصر . وفى عهد خلفه الأشرف « كجك » ، رغب نائب السلطنة الأتابكى « قوصون » فى القبض عليه فلم يفلح . وألب عليه « طشتمر » بلاد حلب والشام . فلمازال عهدهما ، قدم « طشتمر » إلى مصر . وعين نائباً للسلطنة فى عهد الناصر أحمد بن الناصر محمد عام ٧٤٢ ﻫ ، غير أنه لم يهنأ بهذه النيابة إلا شهرا تقريبا ثم ساءت علاقاته بالسلطان ، فقبض عليه وسجنه بالقلعة . ثم سافر السلطان أحمد إلى الكرك ، فساق معه « طشتمر » وزميله « قطلوبغا » فسجنا فى قلعتها مدة ، ثم أعدما عام ٧٤٣ ﻫ . فكان قتلهما مما عجل بخلع السلطان . ويتراءى لنا أن « طشتمر » كان شخصية نادرة مُلْتهية . وقد سماه العوام « حمص أخضر » لأنه كان يحب أكله . ولهم فيه أغان وأشعار طريفة .

« ابن إياس ج ١ ص ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ — الدرر ج ٢ رقم ٢٠١٧ — الخطط ج ٤ ص ٣٤٩ » .

١٩ — شمس الدين آق سنقر السلارى ٧٤٧ ﻫ

كان فى جملة مماليك المنصور قلاوون . ثم ضم إلى الأمير « سلار » فنسب إليه . ثم حسن اتصاله بالناصر بن قلاوون ، فزوجه بابنته . وولى فى عهده نيابة صفد وغيرها ، فأحسن الولاية ، واشترك بعد الناصر فى عدة حوادث ، حتى ملك الناصر أحمد بن محمد ، فولاه نيابة السلطنة بعد « طشتمر » ، وظل بها فى عهد خلفه الصالح إسماعيل عام ٧٤٣ ﻫ فأتم تجديد دار النيابة بالقلعة ، وأعادها إلى سابق مجدها ، وأقام فيها لسماع القصص والشكايات .

غير أنه لم يقم طويلا، حتى تغير قلب السلطان عليه، فسجنه بالإسكندرية أوائل عام ٧٤٤. ثم أطلق سراحه بعد زمن. وكان فى عداد الثائرين على السلطان شعبان بن الناصر. فلما ملك المظفر حاجى، قبض على «آق سنقر» ثم خنقه فى عام ٧٤٧ ﻫ.

« ابن إياس ج ١ ص ١٨١، ١٨٥، ١٨٧ — الدرر ج ١ رقم ١٠١٤ — الخطط ج ٣ ص ٣٤٩، ج ٤ ص ١٠٧ ».

٢٠ — سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار ٧٤٧ ﻫ

أصله من سبى الأبلستين. وآل ملكه إلى قلاوون قبل سلطنته. ثم صار أميراً وترقى فى الإمارة. وأعجب به الناصر محمد لرجاحة عقله. وولى نيابة السلطنة عام ٧٤٤ ﻫ بعد القبض على «آق سنقر». ومن أهم ما قام به أن هدم «خزانة البنود» التى كانت سجنا فى عهد بنى أيوب ثم اتخذها بعض الفرنجة داراً للفساد. وبنى مكانها مسجدا.

لبث «آل ملك» فى نيابته زمنا، يجلس فى دار النيابة للحكم، حتى ملت سلطانه الصالح إسماعيل عام ٧٤٦ ﻫ، وتولى مكانه أخوه الكامل شعبان بن الناصر، فقبض عليه وسجنه بالقلعة زمنا. ثم أفرج عنه، وولاه نيابة دمشق فصفد. ثم أوصى بالقبض عليه ثانيا، فأرسل إلى سجن الإسكندرية عام ٧٤٧ ﻫ فخنق. وكان يجنح نحو الخير، وفيه دين وعبادة.

« ابن إياس ج ١ ص١٨٣، ١٨٤، ٢١٠ — الخطط ج ٤ ص ١٠٨ — الدرر ج ١ رقم ١٠٦٤ ».

٢١ — أرقطاى القفجقى ٧٥٠ ﻫ

كان من مماليك الأشرف، وكان ذكياً خبيراً. ولى نيابة حمص عام ٧١٦ ﻫ، ثم صفد وغيرها. ولما قبض السلطان الكامل شعبان، على النائب «آل ملك»، عينه مكانه فى النيابة عام ٧٤٦ (١). فظل فيها حتى شهد عصر المظفر حاجى. فلما ملك الطيش هذا الملك، تآمر الأمراء عليه بزعامة «أرقطاى». ودارت رحى الحرب بين الفريقين. ثم قبض على «حاجى» ومضوا به حاسر الرأس إلى «أرقطاى» فلقيه لقاء كريما، وأنف أن يقتله. وأمر بسجنه فى القلعة. ولكن أحد الأمراء غدره وخنقه.

---

١ — ذكر فى الدرر أنه ولى نيابة السلطنة لأول مرة فى عهد المظفر حاجى.

وملك من بعده الناصر حسن ، فخلع نيابة حلب على « أرقطاى » عام ٧٤٨ هـ ، ثم نقل إلى دمشق نائبا . ولكنه كان مريضا ، فمات فى طريقه إليها عام ٧٥٠ هـ . وسنه ٧٨ سنة . وكان كيّسا أديبا .

« ابن إياس ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ — الدرر ج ١ رقم ٨٧٧ »

٢٢ — بيبغا أروس الناصرى ٧٥٤ هـ

كان خاصكيا فى أيام الناصر محمد . ثم كان فى عداد الثائرين على المظفر حاجى . وهو الذى غدر به وساقه إلى المقابر فى الباب المحروق ، وخنقه هناك ، بدل أن يمضى به إلى سجن القلعة . لهذا علت مكانته عند السلطان الجديد ، وهو الناصر حسن بن الناصر محمد . فأقامه نائبا لسلطنته ٧٤٨ هـ ، عوضا عن « أرقطاى » الذى عين نائباً لحلب . ثم ما لبث أن تغير قلب سلطانه عليه ، فسجنه بقلعة الكرك عام ٧٥١ هـ . فلما خُلع الناصر حسن ، وملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد عام ٧٥٢ هـ ، أفرج عنه ، وجعله نائبا لحلب ، فى ذلك العام . فلبث زمنا ثم أظهر العصيان ، وزحف بجند كثيف إلى بلاد الشام ، ودخل دمشق . وانضم إليه كثير من الأمراء والعربان . فعاث فى دمشق فساداً . فخرج إليه الصالح فى جيش كبير هزمه هناك هزيمة منكرة ، وقبض على كثير من أعوانه . أما هو فقد فر إلى بلاد التراكمة فأرسل خلفه من قبض عليه فى الأبلستين . وقتل عام ٧٥٤ هـ . وهو أخو « منجك اليوسفى » الآتى ذكره .

« ابن إياس ج ١ ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، الدرر ج ١ رقم ١٣٨٧

٢٣ — أرغون الكاملى ٧٥٨ هـ

أصله من مماليك الصالح إسماعيل ، رباه صغيراً ورقاه . وكان جميل الشكل حسن السياسة . وولاه الناصر حسن نيابة حلب . ثم ولى نيابة دمشق . واختاره الصالح صلاح الدين صالح ، نائبا لسلطنته عوضا عن « بيبغا أروس » عام ٧٥٢ هـ . غير أنه كان قليل الحيلة إزاء الأمير « طاز » الدوادار ، الذى امتد نفوذه ، وأصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد . وانتقل إلى نيابة حلب عام ٧٥٤ هـ (١) . فثبت بها أركان السلطنة .

١ — ذكر ابن إياس ج ١ ص ١٩٥ أن أرغون كان نائبا على الشام عام ٧٥٣ هـ . فلعله عين فيها ثم نقل إلى حلب — وفى الدرر أنه عين نائبا لحلب عام ٧٥٣ هـ للمرة الثانية . ولم يذكر أنه كان نائب سلطنة بمصر .

والبث بها حتى عين مكانه الأمير « طاز » عام ٧٥٥ هـ وقبض على « أرغون » وسجن بالإسكندرية زمنا . ثم أفرج عنه ، وعاش بالقدس عاطلا ، حتى مات عام ٧٥٨ هـ وهو دون الثلاثين .

« ابن إياس ج ١ ص ١٩٥ و١٩٦ و٢٠١ — الدرر ج ١ رقم ٨٧٤ »

٢٤ — سيف الدين قبلاى الناصرى ٧٥٦ هـ

ولى نيابة الكرك ، ثم الحجوبية فى أيام الناصر حسن بالقاهرة . وولى نيابة السلطنة فى أيام الصالح صلاح الدين ، بعد نقل الأمير « أرغون الكاملى » منها عام ٧٥٣ هـ . ومن بعده شغرت نيابة السلطنة مدة فى عهد الناصر حسن ، حتى عين فيها « قشتمر » وقد مات « قبلاى » عام ٧٥٦ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٩٦ — الدرر ج ٣ رقم ٦١٧ — الخطط ج ٣ ص ٣٥٦ »

٢٥ — قشتمر المنصورى ٧٧١ هـ (١)

أقامه السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى ، نائباً لسلطنته عقب توليته عام ٧٦٢ هـ . ولما انتهى عهده لبث « قشتمر » نائبا لخلفه الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد . وكان نفوذه ضئيلا بجوار « يلبغا العمرى » أتابك العسكر إذ ذاك . ثم نقل نائبا لصفد عام ٧٦٤ هـ . ثم عاد إلى مصر . وعين فى عهد الأشرف شعبان أيضا ، حاجب الحجاب سنة ٧٦٨ هـ . وانتقل إلى نيابة حلب عام ٧٧١ هـ . وفى هذا العام وقعت فتنة بينه وبين الأمير « جبار » آل فضل ، وطوائف العربان . فاشتد القتال بين الفريقين ، فقتل خلاله « قشتمر » . وكان عالما بالعربية حسن الخط .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١١ و ٢١٣ و ٢١٩ و ٢٢٥ و ٢٢٦ — الدرر ج ٣ رقم ٦٣٤ »

٢٦ — على المارديني ٧٧٢ هـ .

أصله من مماليك صاحب ماردين . وكان يجيد الضرب على العود . اتصل بالناصر محمد بن قلاوون منذ عام ٧٢٨ هـ ، فحظى عنده ، وترقى فى سلك الإمارة . وولى مراراً

١ — ذكر فى الدرر أنه قتل بضواحى حلب عام ٧٧٥ هـ .

بلاد الشام نائبا . فلما خلت نيابة السلطنة فى عهد الأشرف شعبان عام ٧٧٠ ﻫ (١) جعله نائبا . فلبث قرابة عامين ، ثم توفى عام ٧٧٢ ﻫ . وكان من خيار الأمراء ، كثير البر والصدقات قليل الأذى .

« ابن إياس ج ١ من ص ٢٢٤ إلى ٢٢٧ – الدرر ج ٣ رقم ١٦٠ و ج ٤ رقم ٩٩٨ »

٢٧ — طشتمر العلائى ٧٨٤ ﻫ .

لما توفى الأمير على الماردينى نائب السلطنة عام ٧٧٢ ﻫ ، عين الملك الأشرف شعبان ابن حسين ، الأمير « طشتمر العلائى » نائبا عوضاً عنه . فلبث فى النيابة زمناً ولعله هو الذى تولى الأتابكية بعد فى عهد المنصور على بن الأشرف . « انظره فى الأتابكة » . ومات عام ٧٧٤ ﻫ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٢٧ – الدرر ج ٢ رقم ٢٠١٨ » .

٢٨ — المقر السيفى إيدمر الدوادار ٧٧٥ ﻫ

كان نائبا على حلب ثم طرابلس . فاستدعاه الأشرف شعبان عام ٧٧٥ ﻫ وجعله أتابك عسكره ونائب سلطنته معا . فلبث كذلك مدة يسيرة ، ثم توفى فى العام نفسه ، وقيل عام ٧٧٦ ﻫ . وكان حسن السياسة عادلا متواضعا .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٢٨ – الدرر ج ١ رقم ١١٢٧ »

٢٩ — سيف الدين « منجك اليوسفى » ٧٧٦ ﻫ

يعتبر هذا الأمير ، من أفذاذ رجال عصر المماليك ، لكثرة ما شغله من المناصب وعديد ما قام به من الأعمال ، فوق اتصافه بالشجاعة والإقدام . وكان يندبه السلاطين لمهام الأمور ، فيقوم بها بكفاية ودربة وحزم . وقد أتى عليه حين من الدهر كان صاحب الحل والعقد بالديار المصرية .

وكان « منجك اليوسفى » ، أحد الأمراء الممتازين ، فى عهد الملك الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد . فلما اشتدت الفتنة ، بين أخيه المخلوع المسمى الناصر أحمد ، المنفى فى الكرك ، واستسلم الناصر لجنود أخيه السلطان ، فقيدوه ، أرسل السلطان إليه الأمير « منجك اليوسفى » فقطع رأسه وأحضره إلى القاهرة فى علبة ، وذلك فى صفر عام

---

١ — ذكر فى الدرر ج ٤ رقم ٩٩٨ أنه عين فى نيابة السلطنة عام ٧٦٩ ﻫ ولكنه استعفى من النيابة بعد قليل ، ثم عين فى الأتابكية فى نفس العام . انظر ترجمته فى الأتابكة .

٧٤٥ هـ . وكان إذ ذاك سلا حداراً .

ولما ثار الأمير « يلبغا اليحياوى » نائب الشام ، فى وجه السلطان الكامل شعبان ، وأظهر العصيان عام ٧٤٧ هـ ، اجتمع رأى الأمراء على أن يوفد السلطان الأمير « منجك اليوسفى » إلى الشام ، ليتحسس الأخبار ، فتوجه إليها تواً قبل أن يتوجه إليها السلطان بجنوده .

ثم مازال يعلو به الجد ، حتى عينه السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ، وزيرا وأستادارا بالديار المصرية بإشارة من أخيه « يلبغا أروس » نائب السلطنة إذ ذاك عام ٧٤٨ هـ ، فنفذ أمور الدولة ودبرها واقتصد من نفقات المماليك مبلغ ستين ألف درهم شهريا ، وقطع رواتب أخرى . وفى هذا العام انحرف مجرى النيل ، فتآكلت شواطئه وخيف الغرق . فوكل إلى الأمير « منجك » إصلاح هذه الشواطىء ، ففرض على كل متجر بمصر والقاهرة ، وعلى كل نخلة بجهة الشرقية ، درهمين من الفضة . فاجتمع له من ذلك مال كثير . فاشترى عدة مراكب ، جاب بها الأحجار إلى الشاطىء ، لتقويته ضد المياه ، حتى يكسر من حدتها . وما زال جادا فى عمله ، دون نتيجة حاسمة ، حتى زاد طغيان المياه ، وضج الناس بسببه . فأدى فشله فى مهمته إلى اتهامه ، والقبض عليه ومصادرة أمواله ، ثم عزل من الوزارة . ولكن سرعان ما عاد إليها .

ومما يذكر أنه وهو فى الوزارة ، أباح فى عام ٧٤٩ هـ للجند ، النزول عن الإقطاع ، أو المقايضة عليه . فجد جدهم ، وبذل كل منهم ، إقطاعه لمن يدفع من العامة وسواها فى سبيله المال المناسب ، على شرط أن يدفع مبلغ نظير ذلك للوزير .

ويبدو أن « منجك » كان يسعى إلى المال بطرق عدة ، ويختازه لنفسه . وعنى بضروب من الاقتصاد لتوفير المال للدولة . غير أنه لم يخل من الشبهة . وأخذت الظنون تتجمع حوله ، والنفوس تتوثب حقدا عليه . وحاول أن يوسع فى اختصاصه ، وأن يضيف وظيفة نظر الخاص إلى الوزارة ، فاعترضه الأمير « شيخو العمرى » ومنعه . فكان ذلك من جملة أسباب النزاع بين « شيخو » و « يلبغا أروس » نائب السلطنة حينذاك ـ وأخى « منجك » وكان سببا فى خروج « منجك » من الوزارة . إلا أنه عاد إليها بعد قليل ـ كما ذكرنا ـ :

ولقد زاد موقفه حرجا ، أمام السلطان حسن ، فقبض عليه عام ٧٥١ هـ ، هو وطائفة من الأمراء ، وسجنهم فى الإسكندرية وأحاط بماله ومدخره ، فلبث « منجك » فى السجن ، حتى ولى الملك السلطان الصالح بن الناصر محمد ، فأطلق سراحه عام ٧٥٢ هـ ، وأنعم عليه

بتقدمة ألف ، وأعاد إليه بعض ما أخذ منه . وعرضت له محنة بعد قليل ، اختفى على أثرها . ثم قبض عليه . ثم أطلق عام ٧٥٥ هـ. ثم عاد السلطان حسن إلى العرش ، فأصلحت الظروف بينه وبين «منجك» ، فعينه نائباً على طرابلس ، ثم نقل إلى حلب عام ٧٥٩ هـ ، عوضا عن الأمير «طاز» ، الذى قبض عليه ، ولكن الأمير «منجك» ، لم يلبث أن دب الفساد فيما بينه وبين السلطان ، فعول على الاختفاء . فاختفى عام ٧٦٠ هـ . فعاقب السلطان بعض شيعته ، وأقام الأمير «بيدمر الخوارزمى» نائباً لحلب مكانه . ثم آل أمره إلى القبض عليه ، فأشخص إلى السلطان ، فوبخه . ثم ما لبث أن عفا عنه ، ومنحه إمرة أربعين فى الشام ، على أن يقيم هناك عاطلا . فساءت إساءته إلى تلك البلاد . فلبث زمنا . ثم اشترك مع «بيدمر» نائب الشام ضد «يلبغا» العمرى مدبر الدولة المنصور بن حاجى ، فقبض عليه وسجن زمنا ، حتى نصبه السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد ، نائبا للشام ، خلفا للأمير «أزدمر العمرى» المتوفى ، ذلك عام ٧٧١ هـ (١) . فظل بها حتى توفى المقر السيفى «إيدمر» نائب سلطنة مصر عام ٧٧٥ هـ ، فاستدعاه حينئذ السلطان الأشرف شعبان وأقامه نائبا للسلطنة وأتابك عسكر معا ، فجمع بذلك بين أكبر منصبين فى الدولة . وفوض إليه السلطان ، أمور المملكة فى الديار المصرية والشامية ، وجعل من حقه أن يخرج أنواعا من الإقطاع دون مشورة السلطان . ولاشك أن هذا العهد كان عهد عظمة الأمير «منجك» اليوسفى ، إذ أصبح صاحب الأمر فى البلاد ومعتمد السلطان . فلبث يكفيهما مئونة الرأى والتدبير ، حتى توفى عام ٧٧٦ هـ ، وعمره نحو سبعين سنة . ودفن فى الخانقاه التى أنشأها لنفسه فى رأس الصوة تجاه «الطبلخانات» السلطانية إذ ذاك . وكان معروفا بالبر والإحسان وله آثار عدة . — وعين من بعده «أقتمر بن عبد الغنى» عام ٧٧٨ هـ فلم يلبث إلا قليلا . ومما يذكر أن السلطان «برقوقا» كان من مماليك «منجك اليوسفى» حينما كان نائبا على الشام .

«ابن إياس ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ — وخطط المقريزى ج ٣ ص ٣٥٦ ، ج ٤ ص ١٢٤ — الدرر ج ٤ رقم ٩٨٥» .

---

(١) هـذه رواية ابن إياس ، وذكر المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ١٢٩ ، أنه ولى نيابة دمشق فى عام ٧٦٩ هـ .

٣٠ — آقتمر الصاحبي

وهو الشهير بالحنبلي . عين نائبا للسلطنة عام ٧٧٨هـ ، عقب تولية السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان ، عوضا عن المقر السيفى «آقتمر بن عبد الغنى» الذى عينه الأشرف شعبان نائب سلطنته ، فى ذلك العام نفسه ، فلم يمكث بها إلا قليلا ثم عزل ؛ ثم عاد كما سنبينه فيما بعد .

أما «آقتمر الصاحبي» فإنه وقع نفور ونزاع بينه وبين الأمير «أينبك البدرى»، وكان قد تزعم نزاعا وقع بين الأمراء . فأشار «أقتمر» الصاحبي على السلطان المنصور علىّ بالقبض على «أينبك» . ولكن المشورة لم تتم إلى غايتها . واستطاع الأمير «أينبك» البدرى ، أن يهدد الأمير النائب «أقتمر» الصاحبي ، وأمره بأن يغادر البلاد توآ إلى دمشق . وتوعده بالقتل إن توقف عن تنفيذ الأمر . فصدع هذا به . ورحل إلى بلاد الشام فى العام نفسه . وأصبح «أينبك» سيد الموقف فى مصر ، كما سيتضح فى ترجمته . حتى قبض عليه . وفى هذا دليل على ضعف نيابة السلطنة فى ذلك الحين .

«ابن إياس ج ١ ص ٢٣٩ و ٢٤٠» .

٣١ — آقتمر بن عبد الغنى

كان نائبا على الشام عام ٧٦٨ هـ . ثم عينه الأشرف شعبان حفيد الناصر ، نائبا لسلطنته عام ٧٧٨هـ ، قبل «أقتمر» الصاحبي السابق ذكره ، وذلك وقت خروجه للحج . فلبث فى منصبه قليلا ، ثم عزل فى العام نفسه . وقبض عليه وسجن . ولما نفى «آقتمر» الصاحبي إلى نيابة دمشق فى عهد المنصور على بن الأشرف شعبان بتهديد الأتابكى «أينبك» البدرى ، أفرج عن «آقتمر بن عبد الغنى» وأعيد إلى نيابة السلطنة . فكان ضئيل النفوذ بجوار «أينبك» .

«ابن إياس ج ١ ص ٢١٧ و ٢٣١ و ٢٣٩ و ٢٤٠ — الدرر ج ١ رقم ١٠٠٨» .

٣٢ — سودون الفخرى الشيخونى ٧٩٨ هـ (١)

شغرت نيابة السلطنة ، بعد «آقتمر بن عبد الغنى» إذ استبد بالملك فى أخريات الدولة

---

١ — ذكر المقريزى فى خططه جزء ٣ تحت عنوان «دار النيابة» قال : «ولم يل النيابة أحد فى الأيام الظاهرية» . ولكن ابن إياس صريح فى أن «سودون» ظل زمنا فى عهد الظاهر برقوق ، وهو نائب سلطنة ، حتى مات .

البحرية الأتابكى « برقوق » . فلما صار سلطانا على مصر عام ٧٨٤ هـ ، وأسس الدولة الجركسية ، عين فى نيابة سلطنته الأمير « سودون » الفخرى الشيخونى . وقد وفد على مصر حينذاك الأمير « بيدمر » الخوارزمى نائب الشام ، فأكرمه « برقوق » وقدمه فى بعض المواقف على « سودون » . وفى ذلك مافيه من اتضاع منزله النيابة .

وقد اشترك «سودون» وبعض الأمراء ، مع « برقوق » ، فى الفتنة التى أشعلها ضده « يلبغا » الناصرى ، والتى أدت إلى اختفائه ، وعودة الصالح أمير حاج إلى السلطنة عام ٧٩١ هـ . وقبض على « سودون » وسجن فى دمياط . ثم أفرج عنه بعد قليل . ولما عاد « برقوق » إلى السلطنة عام ٧٩٢ هـ ، أعاد « سودون » إلى نيابة سلطنته . فظل يشغلها فى كنفه حتى توفى عام ٧٩٨ هـ . وقد كانت له يد طولى فى عودة « برقوق » إلى عرشه .

« ابن إياس جـ ١ ص ٢٦٠ و٢٧٣ و٢٧٥ و٢٧٩و٢٨٤ و٢٨٦ و٢٩١ و٢٩١ و٢٩٥و٢٠٦ »

٣٣ — تمراز

ذكره المقريزى ، وقال إن الناصر فرج بن برقوق أقامه فى نيابة السلطنة ، فلم يسكن دار النيابة ، ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب ، وهو غير تمراز الاتابكى فى عهد قايتباى .

« الخطط جـ ٣ ص ٣٤٨ »

٣٤ — أقبغا التمرازى

أحد الأمراء الذين اعتمد عليهم السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق . إذ خلع عليه عام ٨٤٢ هـ إمرة سلاح ، بعد أن كان أمير مجلس . وظل يتقدم فى عليا المناصب لديه ، حتى عين فى العام المذكور أتابكيا ونائبا للسلطنة معا . وهو آخر النواب .

قال عنه ابن إياس : « صار يحكم بين الناس ، وعلى بابه رأس نوبة ونقباء . وهو آخر من تولى نيابة السلطنة بالديار المصرية » .

ولما ثار نائب الشام « إينال الحكمى » وخرج عن طاعة السلطان ، أرسل مكانه الأمير « أقبغا التمرازى » نائبا على الشام . وبنقله من النيابة بمصر ، انتهى عهدها .

« ابن إياس جـ ٢ وص ٢٧ ـ ٢٠٥ »

أنابكية العسكر

روى القلقشندى (١) فى صبح الأعشى ، قال : « الأتابكية ، ويعبر عن صاحبها بأتابك العساكر . قال السلطان عماد الدين فى « تاريخه » : وأصله « أطابك » ، ومعناه الوالد الأمير . وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى ، حين فوض إليه ملكشاه ، تدبير المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة ، ولقبه بألقاب ، منها هذا . وقيل : أطابك ، معناه « أمير أب » والمراد أبو الأمراء ـ وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل . وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهى . وغايته رفعة المحل وعلو المقام » .

ويفهم من حديثه هذا أن « الأتابك » هو أبو الأمراء . أى مقدمهم جميعا . وأن لقبه هذا ـ فى العصر المملوكى ـ لقب شرف فحسب . وأنه ليس لديه عمل جدى ـ بحكم لقبه ـ يشترك به فى إدارة شئون الدولة .

ولكنا نشعر ـ وقد قرأنا تاريخ هذا العصر ـ أن الأتابكية كانت من أهم مناصب الدولة وألقابها . وأن « الأتابك » كان يشترك باستمرار فى شئون الدولة ، ويديرها ، وأنه كان يندب لحل كثير من مشاكلها ، وأنه كان فيصلا فى المعقد من أمورها . وأنه كان ـ فى الغالب ـ كبير قوادها ، والمقدم على رأس جندها ، والمشار إليه المذكور فى حروبها ، بل كثيرا ما بذ « الأتابك » نائب السلطنة ، وغض من شأنه .

ولعل « الأتابكية » كان الملحوظ فيها عند بدء إنشائها ، أن تكون لقب شرف» ولكن الأتابكيين فى العصر المملوكى لم يقفوا عند هــذا الحد . بل برزوا بروزا واضحا ، وكثيرا ما كان « الأتابك » محورا للدولة تدور حوله . والواقع أن الدولة عرفت « الأتابكية » منذ عرفت « النيابة » تقريبا . فقطز المعزى ـ وهو ثانى نواب السلطنة ـ كان أيضا أول الأتابكية ، وذلك فى عهد المنصور على بن المعز أيبك ، جامعا بين الرتبتين ، ولما صار سلطانا اختار للأتابكية الأمير فارس الدين « أقطاى » المستعرب ، ووكل إليه مع الوزير تدبير العساكر واستخدام الأجناد وسائر أمور

---

١ ـــ صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ؛ فى باب « ذكر أرباب السيوف » فى الدولة التركية .

الدولة (١) . ولم يحدث فى أى عهد من عهود سلاطين المماليك ، أن شغل « الأتابكية » أمير لم يكن أهلا لها . أوكان دون نائب السلطنة مهابة ومكانة ، وشجاعة وإقداما وجاها وعصبية ، وتدخلا فى أمور الدولة . بل ربما كان « الأتابك » أقرب مجلسا إلى السلطان . وكثيرا ما رشحت « الأتابكية » شاغلها لولاية السلطنة . وولى السلطنة سلاطين كانوا من قبل أتابكة . ولما خلع الناصر محمد بن قلاوون فى المرة الثانية ، وقع الاختيار على سلطنة « الأتابكى » بيبرس الجاشنكير ، مع وجود « نائب السلطنة » الأمير سلار .

وقد تقلبت ظروف الزمان بنيابة السلطنة — كما بينا — ، فألغيت أكثر من مرة ، وظلت شاغرة حتى تنوسى أمرها ، ثم لما عادت ، عادت أضعف مما كانت عليه . ولما شغلها « أقبغا » التمرازى عام ٨٤٢ هـ ، ثم فارقها ، كان ذلك آخر عهد الدولة بها . فى حين أن « الأتابكية » منذ نشأت فى الدولة ، لازمتها ، حتى انتهت معها . ولم تختف إلا لمحات يسيرة ، كما وقع فى عهد قلاوون وابنه خليل ، وكما وقع فى عهد العادل « طومان باى » عام ٩٠٦ هـ ، بعد أن فتك بأتابكية « قوصروه » فإنه لم يعين بدلا منه ، حتى أخذ الغورى بزمام السلطنة . فأقام فى « الأتابكية » الأمير « قيت الرجبى » .

وفى الوقت الذى كان يخلو من « نيابة السلطنة » كان « الأتابك » مرجع السلطان وسنده ومستشاره . كالأتابكى الأمير الكبير « شيخو » العمرى ، فى عهد الناصر حسن .

وحدث فى ظروف كثيرة ، أن ضخم نفوذ « الأتابك » ، حتى صار المتصرف الوحيد فى شئون الدولة . — روى ابن إياس فى ترجمة المظفر قطز قال : « إنه خلع على الأمير بيبرس ، واستقر به أتابك العساكر ، وفوض إليه جميع أمور الدولة » . — وفى عهد المنصور بن حاجى ، عادت « نيابة السلطنة » بعد إلغائها زمنا ، فعين فيها المقر السيفى « قشتمر » المنصورى ، ولكنه كان ضعيف الكلمة قليل الجاه بإزاء « أتابكى » عصره ، المقر السيفى « يلبغا » العمرى الناصرى ، إذ كان هو مدبر شئون الدولة دون سواه . — وفى عهد الغورى ، كان « أتابكيه » مرجعه فى ضبط الأمور ، ولم تكن هناك « نيابة سلطنة » . والأمثلة وفيرة .

وقد تسمو منزلة أمير ليس « نائبا ولا أتابكيا » ، ويمده السلطان بثقته ، ويطلب

---

١ — النجوم ج ١ ص ٤١٨ .

مشورته ، ويطلق يده ، فيضخم نفوذه ويخمل من عداه من الأمراء ، سواء فى ذلك « النائب و الأتابكى » . ومن الأمثلة على ذلك : القاضى المقرالزينى « عبد الباسط » ابن القرشى : كان ناظر الجيوش فى عهد « برسباى » ، ولكنه ظل صاحب الرأى فى دولته زمنا . ـ والجمالى « يوسف » ، ناظر الخاص فى عهد « إينال » ، كان مدبر مملكته . ـ والأمير « أقبردى » الدوادار ، ضخم نفوذه فى أخريات عصر « قايتباى » ، حتى صار صاحب الحل والعقد . ـ والأمير « كرتباى » الأحمر ، عين فى عهد الناصر ابن قايتباى عام ٩٠١ هـ ، وزيرا وأستادارا وكاشف كشاف ، وصار صاحب الأمر فى الدولة . وقد ظل « كرتباى » هذا زمنا فى أوائل عهد الناصر المذكور ، حتى وقعت فتنة اختفى على أثرها . وظهر شخص آخر مكانه ، وهو خال السلطان ، ويدعى « قانصوه » ، فعينه السلطان فى « شادية الشرابخاناة » . واجتمعت فيه ثقة الملك ، وأصبح بيده الحل والعقد بمصر ، مع وجود « الأتابكى » « تمراز » . ثم اختير « قانصوه » هذا للسلطنة مع وجود الأتابكى « أزبك بن ططخ » .

وممن طغى نفوذه على نفوذ أتابكى عصره : الأمير « طومان باى » الدوادار الذى ملك بعد باسم العادل ، كان دوادارا ، وأستادارا ، ووزيرا ، وكاشف كشاف ، فى عهد « جان بلاط » عام ٩٠٦ هـ ، وكان صاحب الرأى فى الأمور ، مع وجود الأتابكى « تانى بك الجمالى » .

هـــذا . ويبدو أن لقب « الأتابكى » كان يلازم صاحبه ـ ولو بعدت به الأحوال عن شئون السلطان ـ أكثر مما كان لقب « النيابة » يلازم صاحبه . كما يبدو أنه إذا جمع أمير بين لقبى الأتابكى والنائب ، برز لقبه الأول وبقى ، أكثر من الثانى .

وممن جمع بين الرتبتين : « قطز » و « قوصون » و « منجك اليوسفى » :

وممن حظى بالسلطنة من الأتابكية : الظاهر « بيبرس » ، كان أتابكيا فى عهد قطز (١) . والمنصور قلاوون ، وكان أتابكيا فى عهد العادل سلامش . والظاهر « برقوق » ، كان أتابكيا فى عهـــد الصالح أمير حاج . والمؤيد شيخ كان أتابكيا فى عهد السلطان الخليفة العباسى . والظاهر جقمق كان أتابكيا فى عهد العزيز

١ — روى ابن إياس أن بيبرس كان أتابكيا من بدء عهد قطز ج ١ ص ٩٦ ، ٩٨ وفى السلوك أن « فارس الدين أقطاى المستعرب » هو الذى كان أتابكيا منذ أول عهد قطز : ج ١ ص ٤٠٥ .

ابن برسباى . وغيرهم كثيرون .

الأتابكة (١)

ولى الأتابكية عدد كبير من الأمراء متتابعين ، وبلغ منهم السلطنة كثيرون . أما من لم يبلغها ، فنحاول هنا أن نثبت له ترجمة مناسبة أيضا ، ذاكرين ما عثرنا عليه من سنوات الوفاة . فمنهم :

١ — فارس الدين أقطاى المستعرب

ويعرف بالصغير . أحد أمراء الدولة البحرية . اختير أتابكيا فى أول عهد المنصور على بن المعز أيبك عام ٦٥٥ (١) . ولكن الحل والعقد كان إذ ذاك ، بيد نائب السلطنة الأمير « قطز » فلما ولى قطز السلطنة ، أقر « أقطاى » أتابكيا كما هو ، عام ٦٥٧ هـ . وفوض إليه أمر عسكره ، واستخدامهم ، وسائر أمور الدولة ، بمعاونة الصاحب « زين الدين يعقوب » .

وقد اشترك « أقطاى » مع سلطانه « قطز » عام ٦٥٧ هـ ، فى غزو التتار ببلاد الشام ، وهزيمتهم فى موقعتى « عين جالوت » و « بيسان » . — غير أنه يبدو لنا أنه ضلع مع المتآمرين على سلطانه ، بزعامة « بيبرس » . فقتلوه على مقربة من أرض الصالحية . وكان « أقطاى » أول من بايع « بيبرس » بالسلطنة فجعله بيبرس أتابكا لعسكره — كما كان — عام ٦٥٨ هـ . ولكنه كان أقل نفوذا من نائب سلطنته الأمير « بيليك » الخازندار ، مملوك « بيبرس » ومحل ثقته .

وفى عام ٦٦٢ هـ . اتهم النصارى بإضرام الحرائق فى أرجاء القاهرة ، فأمر السلطان « بيبرس » بأن يجمعوا ويحرقوا . فشفع فيهم « أقطاى » ، ففرض عليهم غرم مالى ، بدلا من العقوبة ، مع إلزامهم إصلاح ما أتلفوه من الدور .

وهذا الأمير غير « فارس الدين أقطاى » رأس المماليك البحرية ، الذى قتله الملك المعز أيبك عام ٦٥٢ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٨ ، ١٠٤ — سلوك المقريزى ج ١ ص ٤٠٥ ، ٤١٨ »

---

١ — راجع فهرس السلوك للمقريزى .

٢ — رواية ابن إياس ج ١ ص ٩٦ ، ٩٨ تدل على أن « أقطاى » بلغ الأتابكية لأول مرة فى عهد بيبرس عام ٦٥٨ هـ . رواية السلوك ج ١ ص ٤٠٥ تدل على أنه بلغها منذ عهد المنصور بن المعز عام ٦٥٥ هـ

٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٥٣٢ ، ٥٥٦ ، ٥٧٣ - المنهج السديد ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٩٥ ، ٥٣٤ - ج ٢ ص ٤١٢ ، ٤١٧ .

٢ — بكتمر الساقى ٧٣٣ هـ

ولى الأتابكية بعد « أقطاى » أتابكيون وصلوا إلى منصب السلطنة مثل المنصور قلاوون . وشغرت الأتابكية حينا (١) ، ومازالت حتى وليها « بكتمر الساقى » فى عهد الناصر محمد بن قلاوون .

وقد ذكره ابن إياس فقال ما ملخصه : « لما خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى الحجاز حاجا للمرة الثالثة عام ٧٣٢ هـ . خرج بصحبته عـــدد من الأمراء ، من بينهم الأمير « بكتمر الساقى » الأتابكى ، هو وولده الأمير أحمد . فلما قضوا حجهم ورجعوا ، مرض الأتابكى « بكتمر » فى أثناء الطريق . فلما وصل إلى « عيون القصب » ثقل عليه المرض فمات هناك ، ودفن فى الناحية نفسها يوم ثانى المحرم عام ٧٣٣ هـ . ثم مرض ابنه ، وتوفى على أثره ودفن « بنخل » . وبعد مدة نقلت جثتاهما إلى القاهرة حيث دفنتا فى الخانقاه التى أنشأها « بكتمر » بالقرافة الصغرى بالقرب من جبل المقطم » (٢) .

وكان بكتمر من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير ، ثم انتقل ملكه إلى الناصر محمد ابن قلاوون ، فحظى عنده وجعله ساقيا . ومازال يترقى ، حتى صار أتابك عسكره . وكان مقربا منه كثير الجلوس إليه . وكان الناصر كثيرا ما يقيم بدار بكتمر ، ثم صاهره ، فعلا بذلك جده واتسع جاهه . حتى صار الملك لا يبرم أمرا دون استشارته ، ولا يهدى إليه نفيس دون أن يقسم له منه . فكثر ماله وزاد دخله غير أن هذا الحظ الذى واتاه على يدى الملك نفسه أغراه به ، حتى قيل إنه أمل أن ينتزع سلطانه من كرسيه ، ويستوى بنفسه عليه . فبادر الناصر إلى مناجزته ، فدس له - كما قيل - من سقاه هو وابنه السم ، فماتا - كما تقدم - ترك « بكتمر » من النفائس ما لاحصر له . وقـــد كان وافر العقل زائد الحرمة كيس الحديث وقورا محسنا . وهو الذى تلاحى مع الأمير « قوصون » وتفاخرا ،

---

١ — ذكر فى السلوك أن الأمير « بكتاش » كان أتابكا فى عهد لاجين .

٢ — روى فى الدرر الكامنة أن ابن بكتمر مات قبله بثلاثة أيام ، ويفهم من حديثه أن الناصر محمد بن قلاوون له دخل فى موتهما . وأن موت بكتمر كان فى أوائل عام ٧٣٦ هـ .

فخره « قوصون » ، لأنه لم يكن مثل « بكتمر » ممن عاش فى طباق القلعة . وقد أشرنا إلى هذه المفاخرة آنفا فى باب « أصل المماليك » : وكان موته فوزاً « لقوصون » ، إذ ترق. واستولى على جميع الأسلحة التى خلفها « بكتمر » ، وقد قومت بنحو ستمائة ألف دينار .

« ابن إياس جزء ١ ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ - الدرر ج ١ رقم ١٠٣٨ »

٣ — « سيف الدين شيخو العمرى » ٧٥٨ هـ

من مماليك الناصر محمد بن قلاوون ، ظهر فى أيامه وأيام أبنائه ، وحظى عند المظفر حاجى بن الناصر ، ولما اشتدت الفتنة بين هذا السلطان وبين أمرائه عام ٧٤٨ هـ بسبب طيشه وتهوره فى معاملتهم ، ورأى أنهم عـــلى أهبة الاستعداد للإيقاع به ، رأى أن يوسط بينه وبينهم هذا الأمير « شيخو العمرى » . فاجتمع بهم ليتفهم رأيهم . فطلبوا إليه أن ينزل السلطان عن كرسيه . فبلغ الأمير « شيخو » هذه المقالة إلى السلطان فأبى . وانتهى الأمر بقتله وزوال ملكه . ثم مالبث أمر «شيخو» أن علا . وأخذ نجمه يصعد فى أول سلطنة الناصر حسن ، فولاه نيابة دمشق . غير أنه سرعان ماغضب عليه ، فسيق بسبب ذلك إلى السجن بقلعة دمشق ، ومنها أرسل إلى سجن الإسكندرية عام ٧٥١ هـ ، ثم أفرج عنه فى عهد الملك الصالح صلاح الدين ابن الناصر محمد عام ٧٥٢ هـ . ومن ثم أصبح من خاصة رجاله ، حتى إنه رحل معه فى جملة الأمراء إلى بلاد الشام عام ٧٥٣ هـ ، وقاتلوا بعض الأمراء الخارجين فى فتنة « يلبغا أروس » ، وقبضوا على كثير منهم ثم عادوا . وفى عام ٧٥٤ هـ ، اشترك مع بعض الأمراء بقيادة السلطان المذكور ، وأدبوا عربان الصعيد الذين شقوا عصا الطاعة على السلطان بقيادة شيخهم « ابن الأحدب » ، غير أنه مالبث أن تزعم حركة ائتمار على هذا السلطان ، كانت نتيجتها أن خلع من عرشه ، وأعيد مكانه الملك الناصر حسن بن الناصر محمد عام ٧٥٥ هـ . فلما تمت عودته إلى السلطنة ، كان طبيعيا أن يقرب إليه الأمير « شيخو » ، فصار أتابكى عسكره . وألغيت نيابة السلطنة ، وأقيمت مكانها « إمارة كبيرة » يسمى شاغلها « أميراً كبيراً » . وأول من شغلها هو « شيخو العمرى » . وبذلك اجتمعت فيه الكلمة ، وصارت بيده مقاليد الأمور . وعظمت مكانته وكثر حساده ومنافسوه ، ومنهم الوزير « منجك اليوسفى » . وكثرت أمواله ، حتى قيل له : « قارون عصره وعزيز مصره » . واستطاع فى عام ٧٥٦ هـ ، أن ينشىء مسجده المشهور وخانقاه بحى الصليبة الطولونية . وأنشأ بها حمامين وربوعا.

وحوانيت ، ونظم فيها دروسا تلقى عقب صلاة العصر من كل يوم ، وأقام فيها عدداً من الصوفية . وكان المدرس الذى يلقى بها دروسه شيخ الإسلام أكمل الدين الحنفى من جلة الأحناف فى عصره . وأجرى أرزاقا على هؤلاء الصوفية وأوقف على ذلك كله أوقافا واسعة .

ثم إنه فى عام ٧٥٨ هـ ـ اغتاله « قطلوقجاه » (١) السلحدار أحد المماليك السلطانية والمنفى بعث بصلة إلى « منجك اليوسفى » وهو فى الإيوان يوم موكب ، فضربه بالسيف فى وجهه ثلاث ضربات ، فوقع مغشيا عليه ، وحمل إلى بيته ، ثم توفى بعد أيام ، ودفن فى الخانقاه الشيخونية التى أنشأها . وكانت جنازته حافلة ويومه مشهوداً ، وكثر حزن الناس عليه ، لما له من الفضل الكثير والأيادى البيض ، أما قاتله فقد قبض عليه ، واعترف أنه اندفع إلى فعلته الشنعاء ، لأن الأتابكى لم ينصفه فى مظلمة رفعها إليه . وقد أمر السلطان بتسميره والطواف به ، ثم قتله على مشهد من مماليك الأتابكى « شيخو » .

وبهذه المناسبة نذكر أن الأمير « شيخو » كان أحد الذين عنوا بجلب المماليك وشرائهم وتربيتهم ، حتى بلغت عدة مماليكه سبعمائة مملوك .

« ابن إياس . ج ١ . ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، — خطط ج ٤ ص ١١٣ — درر ج ٢ رقم ١٩٥٠ » .

٤ — يلبغا العمرى الناصرى الكبير ٧٦٨ هـ .

كان هذا الأمير من مماليك السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد . وفى سنة ٧٦٠ هـ أنعم هذا السلطان على مملوكه « يلبغا » بإقطاع واسع ، هو إقطاع الأمير « تنكزبغا الماردينى » أحد الأمراء المقدمين ، والمتوفى فى السنة المذكورة . وصار « يلبغا » أمير مجلس من ذلك الحين . وتعتبر هذه السنة بدءا للجد السعيد الذى صادف الأمير « يلبغا » . فما زال نجمه فى الصعود ، حتى أصبح من خيرة المقربين لدى السلطان حسن ولكن ذلك حز فى نفوس أعدائه . فشوا بالسعاية والدس بين « يلبغا » وسلطانه . وزينوا للسلطان ضرورة مناجزته قبل عدوانه . فما كان من السلطان حسن . إلا أن هم بالفتك بمملوكه ، إثر ليال قضاها السلطان فى لهو ولعب ومرح ، بين خيام أنيقة ، ضربت لذلك فى شط الجيزة .

وكان « يلبغا » إذ ذاك أحد الذين أقاموا فى الخيام مع السلطان هناك ، وسمروا معه . فلما أحس « يلبغا » من السلطان بقرب غدره ، زايل خيمته فى نفس الليلة التى لجأ السلطان فيها ، وهى ليلة الأربعاء ٩ جمادى الأولى عام ٧٦٢ هـ . وبذلك نجا من الفتك به . وفى

---

١ — هذه رواية ابن إياس . وذكر فى الخطط أن اسمه « باى »

الوقت نفسه كان « يلبغا » قد دبر لسلطانه كمينا برز له فى خلال عودته ، فوقعت بينه وبين جند السلطان موقعة قاسية ، انكسر فيها السلطان ، وفر تحت جنح الظلام هاربا إلى القلعة فلما أسفر الصباح كان الأمير « يلبغا » قد جمع جموع جنده ، وحاصر السلطان فى القلعة . ففر منها ثم قبض عليه ، فسجنه « يلبغا » ، وقيل إنه خنقه ورماه فى البحر ، لأنه لم يعثر له على أثر من بعد ، ولم يدفن فى مدرسته داخل القبة التى أنشأها لذلك ، ولما تم ذلك كله أصبح « يلبغا » ، بعد أن هزم سلطانه وسيده ، صاحب الكلمة والأمر والنهى . ولهذا سرعان ما اختاره السلطان الجديد ، وهو الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى أتابكا لعسكره ، فى تلك السنة - ٧٦٢ هـ - . وأصبح القائم بتدبير الأمور فى المملكة . وفى السنة التالية تزوج « يلبغا » « بخوندطولوز » زوجة أستاذه الملك الناصر حسن !... وبلغ من نفوذ « يلبغا » أن خلع الملك المنصور من السلطنة عام ٧٦٤ هـ ، وقبض عليه وسجنه فى دور الحرم بالقلعة ، محتفظا به للطوارىء . وولى مكانه الملك الأشرف شعبان أبا المعالى ابن حسين بن الناصر محمد . وظل « يلبغا » أتابكيا وأميرا كبيرا أيضا . وطغى نفوذه على من عداه من الأمراء ، ولاسيما نائب السلطنة «قشتمر المنصورى» . وساعده على هذا الطغيان ، أن كان السلطان الأشرف شعبان فى سن صغيرة ودون البلوغ .

وفى عام ٧٦٧ هـ واجه الأتابكى « يلبغا » فتنة شديدة تزعمها ضده الأمير « طنبغا الطويل » . وكان هذا الأمير برتبة أمير سلاح . فاستصدر « يلبغا » مرسوما سلطانيا « لطنبغا » بأن يكون نائبا على الشام . فرفض أن يطيع المرسوم ، وجمع جموعه لمقاتلة جنود السلطان وأتابكيه معا . فتلاقى الفريقان فى ناحية « قبة القصر » فانكسرت جنود يلبغا وفر هاربا . وكادت الهزيمة تتم عليه ، لولا أنه كان قد أكمن لأعدائه كمينا فجأهم فى عودتهم وكسرهم شر كسرة ، وقبض عـــلى الأمراء المتزعمين فى هذه الحركة ومنهم « طنبغا » ، وسيقوا فى الإسار بين يدى « يلبغا » . فأرسلوا تحت جناح الليل إلى السجن بثغر الإسكندرية . ثم فرقت رتبهم وإقطاعاتهم على رجال جدد . وعظمت بذلك منزلة « يلبغا » ، حتى كان الأمراء الكبار يسعون إليه بالهدايا النفيسة .

ومن أجل أعمال « يلبغا » ، أن رسم فى عام ٧٦٧ هـ ، بإنشاء عمارة بحرية ترسل إلى الشواطىء لكى تؤدب الفرنجة المغيرين عليها ، وتمنع هجومهم وعبثهم على هذه البلاد . وقد احتفل بإنزالها إلى النيل احتفالا شائقا .

وبينما كان الاحتفال على أتمه إذ كانت المؤامرات تحاك للفتك بالأتابكى « يلبغا » . فبينما كان شط الجيزة مع السلطان ، إذ شعر بوثوب بعض مماليكه عليه ، لأنه ضرب أحدهم وقطع أنفه . ولكنه أن يفر وهو متزى بزى فلاح . ولما بلغ القاهرة جمع حوله عدداً من الأمراء والجند ، ووقفوا فى الصباح تجاه الجيزة ، ووقف إزاءهم فى الشاطىء الآخر المماليك الثائرون عليه ، وقد أغروا السلطان وأرغموه على أن يقف بين صفوفهم . وظل القتال دائرا بين الفريقين . ـ ومن الاحتياطات التى اتخذها « يلبغا » أن أعلن خلع السلطان الأشرف شعبان ، وبايع هو ومن معه أخاه « أنوك » ولقبوه بالملك المنصور ، ونادوا باسمه فى أرجاء القاهرة ! وكذلك أمر الملاحين فى النيل بأن يمتنعوا عن نقل الفريق الآخر إلى شاطىء القاهرة . ـ ولكن أحد النوتية استدرجه سلطان شعبان ، فنقله هو وجموع من جنوده إلى الشاطىء المذكور . ومن ثم صعد إلى مقره بالقلعة . فتسامع الناس بصعوده ، وتراجع عدد من الملتفين حول « يلبغا » عن نصرته . ففت ذلك فى عضده ، ونكص عائدا إلى بيته بناحية الكبش فى أسوأ حال . ولقى من العوام شرورا كثيرة فى أثناء عودته . ثم إن السلطان الأشرف شعبان أرسل إليه من قبض عليه وسجنه . غير أن مماليكه الثائرين أخرجوه من السجن عنوة وأذاقوه ألوانا من العذاب ، وتقدم إليه أحدهم واسمه « قراتمر » وضربه بسيفه ضربة أطاحت برأسه عن جثته . ثم مثلوا بها شر تمثيل ، وبعد لأى دفنوه فى مقبرة عند الباب المحروق . وكان قتله ليلة الأحد ٩ ربيع الثانى عام ٧٦٨ هـ . وهكذا كانت خاتمة « يلبغا العمرى » بعد أن شهد من العز والجاه الشىء الكثير ، واقتنى من المماليك ما يزيد عن ثلاثة آلاف مملوك . غير أنه على ما يظهر كان سىء المعاملة . وقال ابن إياس : إنه كان سفاكا للدماء . ولا أدل على خيانته وعدم وفائه من أنه غدر أستاذه الناصر حسنا وتزوج زوجته من بعده . ـ و « يلبغا » هذا غير يلبغا الناصرى الذى ظهر فى عهد برقوق وثار عليه . أما المترجم هنا فقد كان برقوق أحد مماليكه .

« ابن إياس ج ١ من ص ٢٠٧ إلى ٢١٩ ـ الدرر ج ٤ رقم ١٢١٨ »

٥ — المقر السيفى استدمر الناصرى ٧٦٩ هـ

أحد أفذاذ هذا العصر . وقد عينه السلطان الأشرف شعبان ، أتابك العساكر ، عوضا عن « يلبغا » العمرى ، بعد مقتله عام ٧٦٨ هـ . فسكن هذ الأمير حيث كان

يسكن الأتابكى « يلبغا » والتف حوله عدد كبير من مماليك « يلبغا » وتشبه به فى رواحه وغدوه وعظيم جاهه ، حتى حسده كثير من الأمراء . وما زال الحسد يأكل قلوبهم ويستفزها ، حتى ثاروا ثورة جامحة ، وطلبوا إلى السلطان أن يسلمهم الأتابكى « استدمر » ليفتكوا به . ولكن « استدمر » كان قد استطاع أن يضم إليه عددا كبيرا من أمراء وجنود ، ودهم الثائرين عليه دهمة قاسية ، ففر منهم من فر ، وانكسر فى النهاية منهم من انكسر . ثم استطاع أن يقبض على كثير منهم ، ومن بينهم الأمير « الجاى اليوسفى » والأمير « يلبغا آص » والأمير « أرغون شاه تتر » وغيرهم ، وسيقوا جميعا إلى سجن الإسكندرية . خلال عام ٧٦٨ هـ أيضا . فظهرت حاشية السلطان مؤقتا من بذور الفساد . وكان هؤلاء الأمراء يدعون أن « استدمر » يسعى بالفساد والنم بينهم وبين السلطان . والظاهر أن نفس « استدمر » لم تكن مخلصة للسلطان ، وأنه وقع تحت تأثير مماليك « يلبغا » الذين جربوا لذة الفتن . فقد راود مرة بأن يخلع السلطان ويقوم هو ملكا على البلاد . ولكنه أبى . ولعل الفرصة لم تكن واتته بعد ، وهو فى أول سنى أتابكيته . ولذلك سرعان ما أعد للأمر عدته فى عام ٧٧٠ هـ ، بعد أن قبض على خمسة من كبار الأمراء بضغط من مماليك « يلبغا » وساقهم إلى السجن . ثم هم بالقبض على السلطان . ومن سوء حظه أن كان مماليك « يلبغا » قد عاثوا فى الأرض فسادا ، وأذاقوا كثيرا من الناس سوء العذاب . فكرهوهم وتمنوا زوالهم . وما هى إلا أن نشبت الحرب الأهلية بين جنود (استدمر) اليلبغاويين وبين جنود السلطان شعبان ، حتى انضم إلى جانب السلطان عدد ضخم من العوام ، ومعهم المقاليع والحجارة ، انتقاما من هؤلاء المماليك . فكسروهم شركسرة . وهرب « استدمر » . ثم قبض عليه بعد أن قتل العوام عددا كبيرا من مماليك « يلبغا » . ومن سوء تصرف السلطان شعبان أن سمع لمن تقدم إليه شافعا فى « استدمر » ، فأطلق سراحه وجعله فى حراسة ابن عمته الأمير « خليل بن قوصون » . فما كان من الرجلين إلا أن تعاهدا على الانتقاض على السلطان . وجهدا حتى اجتمع حولهما عدد ضخم من الأمراء ، والجنود . وشعر السلطان بدنو الوثبة عليه وأوجس خيفة . ولكن جنوده ومن انضم إليهم من العوام ، شتتوا شمل المتآمرين فى موقعة مروعة ، قتل فيها عدد كبير من مماليك « يلبغا » ونفى عدد آخر ، وقبض على « استدمر » و « خليل » وغيرهما ، وسيقوا إلى سجن

وأمر السلطان بالإفراج عن كثير ممن سجنهم « استدمر » ومن بينهم الأمير « يلبغا آص » الذى أسندت إليه الأتابكية من بعد .

« ابن إياس ج ١ من ص ١١٩ إلى ص ٢٢٤ ، الدرر ج ١ رقم ٩٧٢ (١) »

٦ — « يلبغا آص المنصورى » : ٧٧٠ هـ

أحد الأمراء الذين ظهروا فى عهد السلطان الأشرف شعبان حفيد قلاوون . ولما أسندت الأتابكية إلى « استدمر » الناصر ، كان الأمير « يلبغا آص » ، فى جملة الأمراء الناقمين عليه ، والذين جرت بينهم وبينه فتن ووقائع عدة ، كان من نتائجها أن قبض عليه مع آخرين وأودعوا فى السجن عام ٧٦٨ هـ ، بثغر الإسكندرية . ولما وقعت فتنة «استدمر» بينه وبين السلطان وقبض فى النهاية عليه ، رسم السلطان بالإفراج عن أعداء « استدمر » فخرجوا من السجن وفى جملتهم « يلبغا آص » المنصورى عام ٧٧٠ هـ . فأسند إليه السلطان منصب الأتابكية. غير أنه لم يحسن سياسته تجاه السلطان ، إذ تحقق أنه يهم بالانقضاض عليه . فناجزه السلطان وقبض عليه ، وأعاده إلى السجن ، هو وبعض المتآمرين معه ، ومنهم الأمير « ملكتمر الشيخونى » . ثم قتله فى ذلك العام — وذكر فى الدرر أنه قتل قبل ذلك .

وذكر فى الدرر أيضا أن الأشرف شعبان عين فى الأتابكية بعده « استدمر » ثم « طقتمر » النظامى ، ثم « ملكتمر »المحمدى و « يلبغا » المنصورى معا . ثم « منكلى بغا » الآتى ذكره .

«ابن إياس ج ١ حوادث عام ٧٦٨-٧٧٠ هـ - الدرر ج ٤ رقم ٩٩٨ ترجمة منكلى بغا الآتى»

٧ - منكلى بغا الشمسى ٧٧٤ هـ

أحد مماليك الناصر حسن . ولى نيابة الشام زمنا فى أول حكم الأشرف شعبان من عام ٧٦٤ هـ . ثم زار مصر عام ٧٦٨ هـ . بأمر السلطان ، وقدم إليه وإلى الأمراء هدايا نفيسة . فنقله إلى نيابة حلب ، وجعلها أرفع من نيابة الشام . ولما قبض على «يلبغا آص» توالى من بعده عدد من الأتابكة ، ثم ولى الأتابكية « منكلى بغا » عام ٧٦٩ هـ . فظل بها حتى توفى عام ٧٧٤ هـ . وذكر فى الدرر أنه ولى نيابة السلطنة بمصر عام ٧٦٩ هـ . ثم

---

١ — ما ورد فى الدرر هو ترجمة «استدمر» بالنون بدل التاء ..وهو الذى ذكر وفاته عام ٧٦٩ هـ

استعفى منها . وبعد قليل ولى الأتابكية .

وقد كان من أماثل الأمراء . وقد تزوج السلطان « برقوق » ابنته عام ٧٧٨ هـ وهى ابنة أخت الأشرف شعبان حفيد الناصر . وهو غير « منكلى بغا» الشمسى ، الذى ظهر فى عهد المؤيد شيخ .

« ابن إياس جـ ١ ص ٢١٣، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧ — الدرر جـ ٤ رقم ٩٩٨ » .

٨ — سيف الدين الجاى اليوسفى ٧٧٥ هـ

هو الجاى بن عبدالله اليوسفى ، أحد البارزين فى عهد الأشرف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون . ويمتاز بأنه تزوج أم هذا السلطان وهى « خوندبركة » وله عليه فضل رعايته صغيرا . غير أنه حينما أسندت الأتابكية إلى « أستدمر » الناصرى عام ٧٦٨ هـ ، كان الأمير « الجاى » فى عداد مناوئيه ، الذين ثاروا فى وجهه . ولكن « أستدمر » استطاع أن يقبض عليه وعليهم ، بعد قتال عنيف استغرق نصف يوم . وأرسلهم مقيدين إلى سجن الإسكندرية . فلبث « الجاى » فى السجن حتى قامت الفتنة والقتال بين « استدمر » ومعه مماليك « يلبغا العمرى » ، وبين أنصار السلطان وانتهى الأمر بالقبض على « استدمر » وسجنه . فرسم السلطان بالإفراج عن كثير ممن سجنهم الأتابكى « أستدمر » ، ومنهم الأمير « الجاى اليوسفى » . وسرعان ما عينه السلطان ، أمير سلاح عوضا عن الأمير « أزدمر » العامرى الناصرى الخازندار ، وذلك عام ٧٧٠ هـ . وفى عام ٧٧٤ هـ ، لما توفى الأتابكى « منكلى بغا » الشمسى استدعى السلطان الأشرف الأمير « الجاى اليوسفى » وأسند إليه منصب الأتابكية . وهذه السنة بالذات ، توفيت زوجة « الجاى » وهى أم السلطان الأشرف . ويظهر أن هذا كان بداية النحس لهذا الأتابكى ، فإنه ما لبث فى أوائل عام ٧٧٥ هـ ، أن سولت له نفسه أن يشق عصا الطاعة على سلطانه . وقيل أن سبب ذلك خلاف وقع بينهما على ميراث الأم المتوفاة . فوقع بين أنصار الاثنين معارك فادحة ، عرض السلطان أثناءها عليه أن يكون نائبا على حماة ، ولكن الأتابكى « الجاى » رفض هذا العرض . فكبا به جده ، وانهزم هزيمة منكرة ، وفر هاربا أمام جنود السلطان نحو شبرا . ثم أيقن أنهم لا شك لاحقوه ، فرمى بنفسه وجواده إلى النيل فغرق . ثم أخرجت جثته ، ودفن بمدرسته التى أنشأها فى سويقة العزى ، وذلك يوم الجمعة ٩ . محرم سنة ٧٧٥ هـ . وقد كان مهيبا كثير الصدقات . وقد أنشأ مدرسة عام ٧٦٨ هـ وزودها

بخزانة كتب ، ورتب فيها دروسا — ومملوكه « جركس » هو الذى قتل بيده السلطان شعبان المذكور عام ٧٧٨ هـ .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ - خطط ج ٤ ص ٢٤٩ » .

٩ — المقر السيفى (إيدمر) ٧٧٥ هـ

كان نائبا على طرابلس عام ٧٧٥ هـ . فاستدعاه السلطان الأشرف شعبان فى هـذا العام ، وأسند إليه الأتابكية ، بعد غرق الأتابكى « الجاى اليوسفى » ويظهر أن السلطان ضم إليه معها نيابة السلطنة . فقد ذكر ابن إياس أن « إيدمر » أقام فى نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ، ثم توفى عام ٧٧٥هـ . ولعل مما يرجح ذلك أن الأتابكى الذى خلفه ، انضمت إليه النيابة أيضا ، وهو الأمير « منجك اليوسفى » . وقد ذكرنا عنه كلمة فى نواب السلطنة لهذا .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٢٨ — الدرر ج ١ رقم ١١٢٧ »

١٠ — المقر السيفى « أرغون شاه » الاشرفى :

صار أتابكيا بعد « إيدمر » و « منجك اليوسفى » فى عهد السلطان الأشرف شعبان . وقد صحبه فى خروجه إلى الحج عام ٧٧٨ هـ ولما عصاهم الجنود ، وانشق عليهم عـدد من الأمراء فى الطريق ، ووقع بين الفريقين معارك دامية ، فر السلطان وفر معه الأتابكى « أرغون شاه » ، ودخلا القاهرة مختفيين . ولـكن أمراء القاهرة كانوا قد أعلنوا بالعصيان أيضا وأقاموا ابن السلطان الأشرف ملـكا عليهم وهو المسمى « عليا » فأنت ترى أن ظروف هذا الأتابكى قد ساءت إلى أبعد مدى .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ »

١١ — الأمير طشتمر المحمدى

وهو الشهير باللفاف كان أمير عشيرة ، فأقامه السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان أتابكيا مباشرة عام ٧٧٨ هـ . عوضا عن « أرغون شاه » ، وأنعم عليه بممتلكاته أيضا ، وذلك إثر ثورة عنيفة خلع فيها السلطان الأشرف نفسه ثم قتل . وتولى مكانه ابنه على المذكور . ولبث « طشتمر » بمنصبه هذا قرابة ثلاثة شهور ونصف ، ثم عزله ونفى إلى القدس عاطلا .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ »

١٢ — الأمير « أينبك » البدرى

ظهر هذا الأمير واشتد جاهه وذاع صيته ، فى عهد الملك الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون ، واستعان فى سبيل ظهوره ، بسلسلة من المؤامرات على سلطانه ، وعلى أنداده من الأمراء. وسنحت له الفرصة ، حينما خرج السلطان الأشرف شعبان ، إلى الحج عام ٧٧٨ هـ فاشترك فى ثورة تزعمها الأمير « طشتمر » المحمدى المعروف باللفاف. وكان مقرها القاهرة . وادعى الثوار أن السلطان شعبان . قد قتل فى العقبة . واستدعوا ابنه الأمير عليا ، وملكوه على البلاد ولقبوه بالمنصور . ولما تم لهم هذا الأمر ، زادت مكانة الأمير « أينبك » . واستطاع أن يعثر على البيت الذى اختبأ فيه السلطان الأشرف شعبان بالقاهرة ، إذ فر من مماليكه الثائرين عليه بالعقبة ، وعاد مختفيا إلى القاهرة ، هو وأتابكيه « أرغون شاه » . ولما قبض عليه الأمير « أينبك » شدد عليه فى السؤال ، حتى اعترف بأموال وذخائر عدة . ثم أسلمه إلى بعض أعدائه ، فقتلوه أشد قتلة . واكتسب « أينبك » بذلك مكانة جديدة ، وصار أمير آخور كبيرا : وبلغ من جرأته أن دس منوما « بنجا » لأحد منافسيه من الأمراء وهو الأمير المقر السيفى « قرطاى » الطازى رأس نوبة النوب فى ذلك الوقت . وأثار فتنة ضد السلطان وكثير من أمرائه ، حتى اضطر نائب السلطنة إذ ذاك وهو الأمير « آقتمر » الحنبلى ، أن يتقدم إلى السلطان المنصور على ويطلب إليه أن يقبض على الأمير « أينبك البدرى » . ولكنه كان قد استشرى شره ، وكثر معاونوه والمتعصبون له والطامعون فى جاهه . فلم يجد مانعا لديه من أن يتهدد نائب السلطنة وأن يتوعده وأرسل إليه — وكان قد سار نحو المطرية — أن يخرج منها توا إلى دمشق ، وأن يكون نائبا على الشام . فلم يستطع نائب السلطنة أن يخالفه ، وسار إلى دمشق من المطرية . فخلا الجو فى الدولة من كثير من منافسى « أينبك » فكان طبيعيا أن يخلع عليه السلطان مرتبة أتابكية عسكره ، وذلك فى أواخر شهر صفر من عام ٧٧٩ هـ . بعد القبض على الأتابكى « طشتمر المحمدى » اللفاف . ويظهر أن من سوء حظ هذا الأمير ، أن تجمع عليه فى بلاد الشام كثير من أعدائه ومن ضحايا اعتداءاته . ومع أنه أصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد المصرية ، يتصرف فى أمورها حسب مشيئته حتى إنه خلع الخليفة المتوكل على الله من الخلافة ، وولى مكانه ابن عمه زكريا ابن ابراهيم ، ولقبه بالمستعصم بالله ، وفرق مماليكه الأخصاء ، فأسكن

بعضهم فى مدرسة السلطان حسن ، والبعض الآخر فى مدرسة الأشرف شعبان . أقول : مع كل ذلك ، لم يستطع القضاء على جميع أعدائه فى داخل القاهرة . وقد ثار عليه نواب البلاد الشامية ، وخرجوا عن الطاعة ، فجهز لهم جيشا خرج به إلى بلاد الشام ومعه السلطان المنصور على محمولا فى محفة — وكان لايزال صغير السن — وذلك فى ١٩ ربيع الأول من عام ٧٧٩ هـ . ولكن الجيش ما عتم بعد خروجه من القاهرة ، ووصوله إلى بلبيس أن وقعت فى صفوفه الفتنة ، وتاق بعض من فيه إلى أن يفتك بالأمير «قطلوجاه» أخى الأتابكى « أينبك » ، وكان فى طليعة الجند . فلما أحس الأمير « أينبك » وأخوه بالغدر ، فرا قافلين إلى القاهرة حاملين معهما السلطان . فانتشر الخبر فى أرجاء القاهرة ، وتشجع الجبناء ، وتحفز الكثير من الأمراء والجند إلى القضاء على الأتابكى «أينبك» ، فجمع كل من الفريقين جموعه ، وتلاقيا فى ناحية الرميلة ، واقتتلا قتالاشديدا . حتى انكسر الأمير « قطلو جاه » أخو « أينبك » . وقبض عليه . ففر الأتابكى « أينبك » ، واختفى زمناً . وذلك كله فى يوم الاثنين ٣ ربيع الثانى من عام ٧٧٩ هـ . وفى الأحد التالى ظهر « أينبك » فى مكان فى كوم الجارح ، فأرسل إليه الأمير « يلبغا الناصرى » — أحد أولى الأمر فى ذلك الوقت — من قبض عليه . وأرسل مقيدا إلى سجن الإسكندرية ومعه عدد من المتعصبين له . فقال فيه الشاعر الشيخ شهاب الدين العطار المصرى :

من بعد عز قد ذل أينبكا	وانحط بعد السمو من فتكا
وراح يبكى الدماء منفردا	والناس لايعرفون أين بكى

ولقى فى سجنه ألوانا شتى من التعذيب . وهو صاحب الدرب الذى فى «السبع سقايات» . « ابن إياس ج ١ من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٤٢ » .

١٣ — المقر السيفى «طشتمر العلائى» ٧٨٤ هـ

كان نائبا على الشام . عينه فى نيابته السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان فى أول ولايته الملك : وكان تعيينه فى يوم الاثنين ٧ ذى القعدة سنة ٧٧٨ هـ . فسافر فى ذلك اليوم من القاهرة إلى مقر وظيفته . ويظهر أنه كان وقورا جليل الشأن . لأن السلطان المذكور أرسل إليه يطلبه إلى القاهرة بعد زوال أتابكية « أينبك » البدرى . فلما حضر خرج السلطان إلى لقائه مع سائر الأمراء ، وأصعده إلى القلعة ومنحه مرتبة الأتابكية . وقد استقدم معه من ديار الشام طائفة من الأمراء من عصابته ، فأنعم عليه السلطان

برتب وألقاب عدة . وكان له عدد من المماليك ، وقعت فتنة بينهم وبين مماليك الأمير «الزيني بركة» الجوباني كان فيها القضاء عليهم وعلى سيدهم . إذ وقع بين الفريقين قتال عنيف في الرميلة . فلما طال أمر هذا القتال ، صعد الأتابكي «طشتمر» إلى باب السلسلة ، ولقي الأمير آخور برقوقا ـ الذي صار سلطانا فيما بعد ـ ويبدو أن غرض «طشتمر» أن يتوسل إلى برقوق ليفض هذا النزاع الدائرة رحاه . ولكن « برقوقا» كان كبير المطامع ، فانتهز هذه الفرصة ، وقبض على «طشتمر» وأرسله إلى السجن بثغر الأسكندرية ، وذلك كله في أخريات العام ٧٧٩هـ ، وبذلك انتهت أتابكية «طشتمر» ، وعين مكانه برقوق ، الذي ظل في الأتابكية ، حتى صار سلطانا على البلاد المصرية . — ولعل « طشتمر » هذا هو الذي كان نائب سلطنة بمصر عام ٧٧٢هـ . في عهد الأشرف شعبان بن حسين . ولعله هو الذي مات عام ٧٨٤ هـ .

«ابن إياس ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، — الدررج ١ رقم ٢٠١٨ »

١٤ — المقر السيفي « إيتمش البجاشي » (١) ، الجركسي ٨٠٢ هـ

ظلت الأتابكية بيد برقوق العثماني ، بعد القبض على « طشتمر » آخر عام ٧٧٩ هـ ، حتى صار برقوق سلطانا على مصر عام ٧٨٤هـ . فأقام في الأتابكية أحد أتباعه وهو الأمير «إيتمش البجاشي » . وكان قد ظهر قبل ذلك في عدة حوادث هامة . فقد حاول الأمير «بركة الجوباني» أن يوقع الشر والفتنة بينه وبين الأتابكي «برقوق» عام ٧٨١ هـ ، في عهد الملك المنصور علي . فقد أرسل الأمير «بركة» إلى «برقوق» في الأربعاء ١٧ صفر من العام المذكور ، يخبره أن الأمير « إيتمش » ألبس مماليكه آلة حرب ، واستعد للوثوب على برقوق . ولكن اتضح أن الخبر عار عن الصحة ، وانتهى أمر هذه الدسيسة ، بأن تدخل بين هؤلاء الأمراء شيخان هما الشيخ «أكمل الدين الحنفي » والشيخ « أمين الدين الخلوتي » وأتما بينهم الصلح ، فهدأت الفتنة حينا .

واشترك الأمير « إيتمش » بمماليكه مع عدد آخر من الأمراء بمماليكهم ، في إطفاء الحريق الهائل الذي شب بظاهر باب زويلة ، عند باب دار التفاح ، واتصل لهيبه بكثير من النواحي المجاورة . وأوصل إليها التلف والدمار . وذلك في ٢٥ من ذي الحجة سنة ٧٧٩هـ . وفي أخريات تلك السنة أنعم السلطان المنصور علي الأمير «إيتمش» بإمارة

١ – البجاشي : ذكر بالشين بالسين ، وذكر بالجيم وبالحاء .

أخورية كبيرة عوضا عن «برقوق» الذى صار حينئذ أتابكيا . وانعقدت المودة بين الاثنين حتى أن «إيتمش» عاون «برقوقا» وهو أتابكى على عصبة «إينال اليوسفى» الحاقدين عليه . إذ انحاز «برقوق» إلى دار «إيتمش» فمنحه السلاح والمماليك وقاتلا معا حتى هرب عدوهما وذلك فى شعبان عام ٧٨٠ ﻫ .

واشترك كذلك فى إطفاء فتنة عربان البحيرة ، التى طمت وعمت عام ٧٨١ ﻫ . فقد تناهت الأخبار إلى القاهرة ، بأنه قد تجمع نحو خمسة آلاف من هؤلاء العربان وأغاروا على مدينة دمنهور ، بزعامة أحدهم «بدر بن سلام» . ونهبوا أسواقها وبيوتها ، وألحقوا التلف ببلاد أخرى غيرها . فأرسل الأتابكى «برقوق» حملة تأديبية عليهم ، بقيادة ثمانية من كبار الأمراء ، كان الأمير «إيتمش» فى عدادهم ، وقد نجحت هذه الحملة فى مهمتها .

ولما آل الملك إلى «برقوق» عام ٧٨٤ ﻫ ، جعل الأمير «إيتمش البجاشى» أتابكيا للعسكر . فكان بذلك أول الأتابكة فى دولة الجراكسة . وأصبح عندئذ قويا يعتمد عليه السلطان «برقوق» . وقد كان فيمن خرج عن طاعته الأمير «يلبغا الناصرى» ، وكان حينئذ نائبا عن السلطان فى حلب . وكان عصيانه فى أوائل ٧٩١ ﻫ ، والتف حوله بعض أمراء البلاد الشامية وما والاها . فلم يجد السلطان بدا من أن يرســـل على هؤلاء حملة عسكرية ، يكل إليها أمر تأديبهم . فكان الأتابكى «إيتمش البجاشى» أحد أمراء هذه الحملة . إلا أنها حينما بلغت مدينة دمشق . رأت «يلبغا» قد ملك الشام وقلعتها . وتلاقى الفريقان المتعاديان فى ظاهر دمشق ، فانكسر عسكر السلطان ، وهرب من أمرائه من هرب وأُسر من أسر . وكان نصيب «إيتمش» من هذا كله أن أسر وسجن بقلعة دمشق ، وذلك فى ٢١ ربيع الثانى عام ٧٩١ﻫ ، فظل فى سجنه زمنا . أما يلبغا فقد استطاع الزحف إلى القاهرة . وكانت النتيجة أن نزل السلطان برقوق عن عرشه . وعاد إلى السلطنة الملك الصالح أمير حاج بن الملك الأشرف شعبان . فانتهت بذلك أتابكية إيتمش ، إذ عُين «يلبغا الناصرى» مكانه فى الأتابكية فى هذه الدولة الجديدة .

ظل «إيتمش» بعد ذلك منكور الاسم غير مذكور . حتى جرت الأيام مجرى جديدا وعاد السلطان برقوق مرة ثانية إلى ملكه . فكان طبيعيا أن يعيد «إيتمش» إلى الأتابكية . غير أن ذلك لم يتم إلا عام ٨٠٠ ﻫ ، إذ كان يشغل الأتابكية آخرون بالتوالى ، قذفت بهم الأيام إليها بعد سجن «إيتمش» . ومع ذلك لم يفتأ «إيتمش» قبل أن يلى الأتابكية للمرة

الثانية ، يعاون السلطان ويشارك فى شئون الدولة . فمن ذلك أنه اشترك مع بعض الأمراء فى دفع عدوان الأتابكى « منطاش » عن مدينة دمشق عام ٧٩٢ ﻫ إذ كان ثائرا ضد السلطان « برقوق » ، ثم عاد « إيتمش » هو وجماعة من الأمراء ، إلى القاهرة بعد مطاردة « منطاش » وذلك عام ٧٩٣ ﻫ . وتوسط بين مماليك الطباق وبين الأمير « جمال الدين محمود » الأستادار ، إذ ثاروا عليه ـ بسبب تصرفاته معهم ـ ثورة كادت تودى به ، لولا أن تدخل الأتابكى « إيتمش » فى الأمر هو ومماليكه ، وكف عنه عدوان المعتدين ، ثم صالح الطرفين . ومازال هذا حاله حتى عادت إليه الأتابكية ـ كما قلنا ـ عام ٨٠٠ ﻫ ، وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان « برقوق » . ولقد حدث فى السبت ١٢ ذى العقدة من عام ٨٠٠ ﻫ أن لعب السلطان بالكرة والصولجان مع الأتابكى « إيتمش » ، فغلبه السلطان فهمّ الأتابكى « إيتمش » بعمل وليمة من ماله ، فمنعه السلطان وقام هو بعمل الوليمة نيابة عنه ، فكانت وليمة فاخرة جمعت ما لذ وطاب ، والتأم فيها شمل كثير من الأمراء وغيرهم .

ما زال « إيتمش » مقربا من « برقوق » حتى مرض « برقوق » مرض الموت . فجعله فى عداد الأوصياء على أولاده وماله وأوقافه . وتوفى ، وورث الملك من بعده ابنه « زين الدين فرج » عام ٨٠١ ﻫ . فثبت « إيتمش » فى منصبه ومنحه أيضاً لقب أمير أخور كبير فظل صاحب حول وطول . وكان السلطان فرج صغير السن إذ ذاك ، فاستمد الأتابكى « إيتمش » من صغره سلطة ونفوذاً ، وتصرف فى كثير من أمور الدولة ، وسكن بباب السلسلة . وأخذ يضرب على يد من يعصيه . فقبض فيمن قبض عليه ، على الأمير « سودون » أمير أخور كبير ، وهو أحد أقرباء « برقوق » وأحد الواجدين على « إيتمش » فقيده وسجنه بثغر الإسكندرية . وقبض كذلك على الأمير « تمراز » الناصرى و « تمربغا » المنجكى وغيرهما فقيدهم وأرسلهم إلى السجن بثغر الإسكندرية . ثم قبض على الأمير « يلبغا » الأحمدى الأستادار ، وألحقه بهم وهكذا . وأصبح بذلك مسيطرا على شئون الدولة . متصرفا فيها ، تغدق عليه الإنعامات من الملك وما أن بلغ سن الرشد ، حتى حدثت « إيتمش » نفسه أمارة ، بالثورة والانقضاض على السلطان . فجمع مماليكه وأعدهم للحرب فى يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول من عام ٨٠٢ ﻫ ، وانضم إليه عدد من الأمراء . واجتمع إلى السلطان كثير من الأمراء والمماليك ، وتقاتل

الفريقان بباب السلسلة قتالا عنيفاً ، حتى انكسر « إيتمش » وهرب نحو قبة النصر ، وخسر فى هذه المعركة خسارة كبرى إذ نهبت ممتلكاته وزايله أنصاره . وكانت ثورته تلك وبالا على مدينة القاهرة ، وكاد يعم بسببها الفساد والنهب . — ثم إن الأتابكى « إيتمش » فر إلى بلاد الشام هو ومن لف لفه من الأمراء ، فبلغوا دمشق يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول من عام ٨٠٢ هـ ، فقوبلوا هناك بحفاوة بالغة ، إذ كان نائب الشام حينئذ من الذين شقوا عصا الطاعة على سلطنة فرج ، وهو الأمير « تنم » . فاجتمع شمل هؤلاء معا وقويت شوكتهم ، وانضم إليهم نائب حلب ونائب حماة ونائب صفد ونائب طرابلس ، وكاد الأمير « تنم » يكون سلطانا على بلاد الشام . إلا أن السلطان فرجا خرج بحملة عسكرية كبيرة ، لتأديب هؤلاء العصاة . فلما بلغ الشام انحاز إلى جانبه عدد من الثوار ، وحل الضعف فى صفوف أعدائه ، ففر الأتابكى « إيتمش » ومعه « تنم » نائب الشام وكثير معهم . فرغب السلطان فى صلحهم فأبوا . فتابعهم بجنوده حيثما حلوا وأوقع بهم فى موقعة كبيرة بمكان يقال له : الحبتين » . وانتهى أمر الأتابكى « إيتمش » بالقبض عليه هو و« تنم » وغيرهما ، فقيدوا وحبسوا بقلعة دمشق ، حتى أمر السلطان بقتلهم فقتلوا . قتل إذن الأتابكى « إيتمش البجاشى » ذبحا ببرج الحمام بقلعة دمشق . وأرسل رأسه مع رءوس غيره ، فطيف به فى أرجاء القاهرة ، ثم علق على باب زويلة . وبهذا انتهت حياة ذلك الرجل فى شعبان سنة ٨٠٢ هـ .

« ابن اياس ج ١ ص ٢٤٣ إلى ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٧ إلى ٣٢٠ ، ٣٢٢ إلى ٣٢٤ . — الضوء ج ٢ رقم ١٠٥٩ »

١٥ — المقر السيفى « يلبغا الناصرى » ٧٩٣ هـ

« يلبغا » الناصرى هذا كان من أتباع « يلبغا » العمرى الناصرى الكبير مملوك الناصر حسن المذكور سابقا . وقد بدأ نجم « يلبغا » الناصرى يتألق فى عهد الملك المنصور على ابن الأشرف ، فكان أمير سلاح . وحياته كحياة أنداده من الأمراء ، عبارة عن سلسلة من الحوادث والمؤامرات والمغامرات التى يخوض عبابها مقامرا ، فلعله يكون فيها من الفائزين . كان « يلبغا » فى عداد الأمراء الذين دافعوا عن الأشرف شعبان ، ضد الثائرين عليه حينما خرج للحج عام ٧٧٨ هـ ثم فر ، ثم اشترك عام ٧٧٩ هـ فى فتنة شعواء ، تزعمها الأمير

«برقوق» العثمانى ـ السلطان برقوق فيما بعد ـ والأمير «بركة» الجوبانى وغيرهما ، وذلك فى عهد السلطان المنصور على بن الأشرف فقاتلوا عددا آخر من الأمراء المعادين لهم فانتصروا عليهم وسجنوهم بثغر الإسكندرية . وأقام الأمير « يلبغا الناصرى » من ذلك الوقت يحكم فى باب السلسلة بين الناس ، نحو سبعة أيام ، منفردا فى ذلك عن صحابته من أهل فتنته ، فحفزهم هذا إلى مناجزته . فهجم عليه الأمير « برقوق » العثمانى والأمير بركة الجوبانى ، فى وقت الظهيرة ، وأنزلوه إلى بيته مرغما . ومن ذلك الوقت دبت عقارب الحسد والحقد بين الأمير « يلبغا » الناصرى وبين الأمير «برقوق» العثمانى . وظل ذلك بينهما مساجلة ، ولا سيما بعد أن بلغ «برقوق» منصب الأتابكية ثم السلطنة ، فلما رقى « برقوق » إلى الأتابكية أخريات عام ٧٧٩ هـ ، قبض على «يلبغا» وقيده وأرسله إلى السجن بثغر الإسكندرية ، ونزع منه لقبه وإقطاعه طبعا ، وأعطى لسواه ، وهو الأمير «إينال» اليوسفى . ويظهر أنه أطلق سراحه بعد قليل ، لأنه مالبث أن ظهر فى ميدان الفتنة التى اندلع لهيبها ، بين الأتابكى «برقوق» والأمير بركة الجوبانى . إذ كون الأمير «بركة» فرقتين لحرب «برقوق» ، إحداهما كان فيها الأمير « يلبغا الناصرى » وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٧٨١ هـ . فتصدى لهذه الفرقة المذكورة الأمير «إيتمش» البجاسى ، فاندحرت أمامه وغلبت على أمرها ، وكذلك كان نصيب الفرقة الأخرى .

ويظهر أن فتن هذا الأمير ، هدأت حينا ، لأنه استطاع أن يعين نائبا لحلب . غير أنه ما لبث أن عاد إلى فتنته ، بعدما اعتلى « برقوق » كرسى المملكة المصرية . فقد بلغه فى سنة ٧٨٧ هـ ، أن « يلبغا الناصرى » نائب حلب ، متواطىء مع الأمير « سولى » ابن ذى الغادر أمير التركمان ، وأنهما قد اتفقا على العصيان . فلما تحقق السلطان «برقوق» صدق هذا الخبر ، أرسل إلى «يلبغا» الأمير «بهادر» المنجكى الأستادار ، يستقدمه إلى السلطان ، فقدم معه . فلما بلغا غزة قبض عليه وقيده ، وأرسله إلى سجن ثغر الإسكندرية. وعين الأمير « سودون » المظفرى نائبا على حلب مكانه . وأرسل الأمير « جمال الدين محمود » شاد الدواوين ، إلى حلب لمصادرة ممتلكات «يلبغا» . ولبث «يلبغا» فى السجن زمنا مغضوبا عليه . ثم أطلق سراحه ، وأعيد إلى نيابة حلب . وكان قد انتقل إلى سجن دمياط عام ٧٨٨هـ . بأمر السلطان وظل فيه بغير قيد . فاستقدمه السلطان برقوق فى شهر شعبان من سنة ٧٨٩ هـ وأكرمه وخلع عليه وأعاده إلى نيابته . فنشطت دسائسه واتصالاته

من جديد ، وأساء إلى الأمير « سودون » المظفرى نائب حلب من قبله عام ٧٩١ هـ ، وخرج عن طاعة السلطان ، وقتل عددا من المماليك ، وقبض على عدد من الأمراء . فهب السلطان « برقوق » للقضاء على هذه الفتنة . وكان يريد فى الظاهر الإصلاح بين « يلبغا » وبين « سودون » المظفرى ، وأوصى فى الباطن بالقبض على « يلبغا » . وكان رسوله فى ذلك الأمير « تلكتمر » . وكانت هناك صحبة وصداقة أكيدة بين « تلكتمر » و « يلبغا » . فهيأ « يلبغا » كمينا « لسودون » ، فقتله وهو قادم بدعوة منه للصلح . ثم أظهر « يلبغا » عصيانه للسلطان ، والتف حوله بعض الجند والأمراء ، ومن بينهم « تمربغا » الأفضلى المسمى « منطاش » الذى كان مملوكا « لبرقوق » ثم نقم عليه . ثم صار من بعد أتابكيا — كما سيأتى — . فعزله السلطان من وظيفته ، وجهز جيشا لمكافحته ولكن « يلبغا » كان قد زاد شره ، وامتدت فتنته حتى عمت بلاد الشام . فلما وصلت حملة السلطان إلى الشام ، احتربت مع عدوها فانكسرت وأسر بعض أمرائها ، ومن بينهم الأتابكى « إيتمش » البجاسى . وفر الباقون . اشتد بذلك أزر « يلبغا » وزحف بجنود من التراكمة والعربان على البلاد الشامية ومنها إلى البلاد المصرية ، حتى قارب الصالحية فبلغها . فاضطرب السلطان « برقوق » لذلك ، وأخذ يستعد لملاقاة عدوه . غير أن عددا من الأمراء غدر بالسلطان وهجره وانحاز إلى « يلبغا » ، ففت ذلك فى عضده ورأى ضعفه إزاء خصمه ، فأرسل إليه يعرض التنازل عن العرش ، لقاء أن يؤمنه على نفسه . فأمنه « يلبغا » ، واختفى « برقوق » وزالت سلطنته ، وتولاها من بعده الملك الصالح أمير حاج بن الملك الأشرف شعبان ، للمرة الثانية عام ٧٩١ هـ . وكان طبيعيا أن يكون « يلبغا الناصرى » أتابكى العسكر فى هذه الدولة بدل إيتمش . ابتسم الزمان لهذا الأمير ، وأصبح صاحب الحول والطول فى البلاد . فاتجهت عنايته أولا إلى القبض على عدوه السلطان برقوق ، فأطلق المناداة عليه فى القاهرة ، وهدد من يكون مختبئا فى داره بأشنع العقوبات ، حتى دل على مكانه ذليل . فقبض عليه وأرسله مسجونا مقيدا بقلعة الكرك فأكرمه نائبها يومئذ الأمير حسام الدين الكجكنى .

ظن « يلبغا » الناصرى ، أن الدهر قد صفا له ، وأن وجه الأيام قد راق . وأن ميدان المنافسة قد خلا من المنافسين . غير أن الظروف خطأت هذا الظن . فإنه سرعان ما وقع

بينه وبين صديقه « منطاش » خلف شديد ، ودبت بينهما عقارب الفتن والحسد . فتهيأ « منطاش » للبطش بصديقه يوم الاثنين ١٦ شعبان سنة ٧٩١ هـ ، وكما يدين الفتى يدان .

جمع منطاش مماليكه ، ولبسوا ثوب الحرب وأعدوا عدتها فى ذلك اليوم واقتحموا باب السلسلة والتف حولهم عدد عظيم من العوام والعبدان ، واجتمع إليهم مماليك « برقوق » وغيرهم من الموتورين . وكان « يلبغا » قد استعد للقاء هؤلاء الثائرين . وتلاقى الجمعان فى الرميلة . فاستحر القتال بينهما ، واستخدمت فيه شتى وسائله . وظل يومين حتى غلب الأتابكى « يلبغا » على أمره ، وفر تحت جنح الليل هو وبعض عصابته . ويمموا شطر بلاد الشام . غير أنه ما وصل إلى بلبيس ، حتى قبض عليه هو وصحابته . وسيقوا إلى القاهرة . ومن ثم قيد وسجن بثغر الإسكندرية . وبذلك انتهت أتابكيته ، وتولاها من بعده « منطاش » .

ظل « يلبغا » مقيما فى سجنه حتى وقعت الواقعة بين الأتابكى « منطاش » وبين السلطان « برقوق » المخلوع ، وكان من نتائجها أن زال شبح « منطاش » من مسرح السياسة المصرية ، وعادت سلطنة « برقوق » مرة أخرى عام ٧٩٢ هـ . فرأى « برقوق » أن يستصفى « يلبغا » ، ويذهب ما فى قلبه من وجد عليه . فرسم بالإفراج عنه ، ومنحه لقب أمير سلاح . ولعل الذى دفع « برقوقا » إلى ذلك ، أن لهما عدوا مشتركا هو « منطاش » . ولذلك ما لبث السلطان « برقوق » حتى استخدم « يلبغا » فى مطاردة « منطاش » . الذى فر وأخذ يعيث فسادا فى بلاد الشام . فرحل « يلبغا » إلى دمشق وأوقع هو غيره من الأمراء بجنود « منطاش » والمنحازين إلى صفوفه . وصدف أن قتل نائب الشام حينئذ ، فأرسل السلطان « برقوق » تقليدا إلى « يلبغا » وعينه نائبا على الشام ليمكن له من مكافحة منطاش ودفع شره . وقد أبلى « يلبغا » فى هذه السبيل بعض البلاء . غير أنه كان لا يزال يضمر الشر ، ويترقب الفرص للعودة إلى الكيد لبرقوق . ولم يكن يمنعه من ذلك إلا وجود منطاش فى أطراف بلاد الشام ، ومعاودته مناوشتهم الفينة بعد الفينة ، فأحب « يلبغا » أن يعمل على إبعاد « منطاش » حتى يخلو له جو المكيدة . فأوعز إلى الأمير سالم الدوكارى أمير التركمان ، أن يغرى منطاش على الهرب إلى بلاد الروم . وكان برقوق فى ذلك الوقت ، قد زحف بجند كثيف إلى البلاد الشامية ، ليطهرها من « منطاش » وعبثه . فأطلعه أمير التركمان المذكور ، على مراسلة « يلبغا » واتخاذه ووجهة

نظره . فلم يجــد السلطان « برقوق » بدا من القبض على « يلبغا » ومن لف لفه من الأمراء ، وسجنهم بقلعة حلب ثم أمر بقتلهم جميعا فقتلوا . وانتهت بهذا حياة « يلبغا الناصرى » وذلك فى عام ٧٩٣ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٣٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ إلى ، ٢٧٩ ، ٢٩١ ، إلى ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ — الدرر ج ٤ رقم ١٢١٩ » .

١٦ - « تمربغا الأفضلى » المعروف بمنطاش الأشرفى ٧٩٥ هـ

كان أولا من مماليك الأشرف شعبان فنسب إليه . ثم فى سنة ٧٨٧ هـ اشتراه السلطان « برقوق » ، وهو أخو الأمير تمرباى الدمرداشى ولبث فى رق برقوق مدة حتى رباه ثم أعتق ، ونفحه بخيل وقماش وعينه جمدارا . هذا هو «منطاش» الذى ابتلى به السلطان برقوق فى عداد من ابتلى بهم من الثائرين عليه والخارجين على طاعته ، والذى أقلق باله زمنا ليس بالقليل . وما ذلك إلا لأنه كان يضمر بين جنبيه كمية من الشرور والطمع كافية لأن تجعل حياته سلسلة من الكفاح .

كان « منطاش » شجاعا باسلا ، إلا أنه جنوح إلى الفساد ، فضربه سيده برقوق ثم نفاه إلى بلاد الشام ، فظل يعيث فسادا فى أرجائها ملتمسا ساعة الانتقام من سيده . فحانت له ساعة الانتقام المرجوة حينما ثار فى وجهه الأمير يلبغا الناصرى ، وقت أن كان نائبا على حلب وحدثته نفسه بالعصيان ومزاحمة السلطان والغدر به . وتهيأت أسباب النصرة ليلبغا ومن معه وفى جملتهم « منطاش » فقد زحف على مصر زحفا لم يجد معه السلطان برقوق بدا من النزول عن عرشه والاختفاء عن العيون . وبذا عادت السلطنة إلى الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان عام ٧٩١ هـ . وصار يلبغا أتابك عسكره .

أما « منطاش » فقد أصبح قسيما ليلبغا فى هذا الجاه العريض الذى بلغه ، بل وأصبح أحد الحاقدين عليه ؛ بل أصبح أول هؤلاء الحاقدين . فلماذا تكون الأتابكية وجاهها ليلبغا وحده ؟

ظهرت هذه الروح لدى « منطاش » ، ومتى خبثت نفسا الصديقين تحفزا للشر واستمر الخلاف . ولهذا سرعان ما وقع الخلف بين «منطاش» ويلبغا ، وملأت صدريهما الحقود والأطماع . فلم يجد « منطاش » بدا من مناجزة نده فجمع مماليكه وزودهم بضروب من

السلاح ، وعاونهم عديد كبير من العوام والعبيد وكثير من مماليك الأشرف شعبان والظاهر برقوق ومن لف لفهم من الموتورين من يلبغا . وذلك فى يوم الاثنين ١٦ شعبان عام ٧٩١ هـ . وترامى الفريقان واحتالا فى القتال وأسباب النصر ، حتى انهزم جمع يلبغا وولى الأدبار . ففر تحت ستر الليل هو وعدد كبير من الأمراء إلى بلاد الشام ، ولكنه قبض عليه فى بلبيس وأعيد إلى يد « منطاش » فسجنه بثغر الإسكندرية وأمر « منطاش » بالإفراج عن كثير من الأمراء الذين سجنهم يلبغا ومن بينهم المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ، كان .

بهذا الانتصار وثب « منطاش » إلى مرتبة الأتابكية ، وصار مصدر الأمر فى هذه البلاد بجوار سلطانها أمير حاج .

أحب « منطاش » بعد ذلك أن يخلى الميدان من كل منافسيه . فأراد البدء بالسلطان برقوق سيده القديم وعدوه الحالى ، والمسجون بقلعة الكرك . فاستصدر « منطاش » من السلطان أمير حاج مرسوماً شريفاً أرسله إلى نائب الكرك يأمره بقتل الملك الظاهر برقوق.وكان برقوق قداستصفى جماعة من رجال الكرك وحراس قلعتها. فقتلوا الرسول الذى يحمل المرسوم ، وهموا بقتل نائب الكرك نفسه فاستجار ببرقوق فحماه . وأخذ نفوذ برقوق يتسع ويزداد فى الكرك حتى ملك قلعتها وأخذ يعد العدة للإغارة على الشام ثم مصر فاضطرب « منطاش » أيما اضطراب ، وملأت نفسه الحيرة ، وأخذ يستعد للظروف . غير أن برقوقا كان قد انضم إلى جيشه أناس كثيرون أغار بهم على بلاد الشام وملكها. وانساق كثير من أمرائها إلى الانضواء تحت رايته . ففت ذلك فى عضد « منطاش » ، وحاول أن يستعين على برقوق بفتوى دينية . فعرض على الخليفة والقضاة الأربعة سؤالا نصه : « ما تقول السادة العلماء فى رجل خلع الخليفة وسجنه وقيده من غير موجب لذلك . وقتل رجلا شريفا فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ، واستحل أخذ أموال الناس بغير حق ، واستعان بالكفار على قتال المسلمين . » ، — فامتنعوا من الإجابة حتى يجيب شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى . فأجاب بقوله : « إذا قامت عليه البينة بذلك وجب قتاله ومحاربته فهو خارجى » . وتوالى العلماء والقضاة يكتبون من بعده ... والمتبادر إلى الذهن أن « منطاش » أراد أن يكتسب الرأى العام ضد برقوق ، ويذكر الناس ببعض أعماله السيئة التى وقعت منه فى أول دولته . — غير أن ذلك كله لم يجد

نفعا ، فإن برقوقا تغلب على كل الصعاب التى اعترضته فى سبيل امتلاك الشام ، وإن كان قد لقى بها ضروبا من الإرهاق والعنت . فلم يسع « منطاش » إلا أن يجهز حملة كثيفة الجند يسير فى طلعتها هو وسلطانه أمير حاج . وأخذت هذه الحملة فى المسير نحو الشام منذ الإثنين ١٧ من ذى الحجة سنة ٧٩١ هـ ، وكادت جنودها ترفض الخروج لما نال بعضهم من أذى « منطاش » وسوء تصرفه . — تلاقى الفريقان فى البلاد الشامية وظل النصر والهزيمة يتناوبان كل فريق ، والوقائع تترى بينهما ، حتى انكسر عسكر « منطاش » وولوا الأدبار . وبينما أخذ السلطان برقوق يزحف بجنوده للاستحواذ على مصر ، إذ ظل « منطاش » شريدا فى الديار الشامية . وبلغ برقوق مصر وصعد إلى مقر الحكم بالقلعة يوم الأربعاء ١٥ صفر سنة ٧٩٢ هـ وخلع السلطان أمير حاج . ودالت دولة « منطاش » حتى قال فيه بعض الزجالة :

من الكرك جانا الظاهر وجب معو أسد الغابة
ودولتك يا أمير منطاش ما كانت إلا كذابة

كانت هذه الخاتمة التى انتهى بها أمر « منطاش » حافزا له إلى أن يهب نفسه للشر والعبث والفساد ، وأن يعيش عيشة الفتاك المشردين ليكون شوكة حادة تؤلم جنب دولة السلطان برقوق . لذلك ما عتمت الأخبار أن جاءت بوثوب « منطاش » على مدينة دمشق ، وبموافقة عوامها له على تسليمها إليه فهبت لصده عنها عدة من الأمراء من بينهم إيتمش البجاسى ويلبغا الناصرى الأتابكيان من قبله ، فأوقعوا به واقعة هائلة ثم تراجع الفريقان . وبعد قليل كر « منطاش » بعصابته على مدينة عينتاب ، واستطاع نائبها بعد جهد أن يشتت شمله ، فهرب إلى ضفاف الفرات . . . وفى سنة ٧٩٣ هـ التف حوله عدد كبير من التركمان والعربان وبعض الأمراء ، حتى توالت الأخبار بأنه قد ملك حماة وحمص وبعلبك ، وسالمه أهلها . وأخذ فى حصار الشام وفجأ دمشق ونهب أسواقها ومتاجرها ، واصطبلاتها . فلم يجد السلطان برقوق مندوحة عن السفر لملاقاته والقضاء عليه وعلى شروره . فخرج سنة ٧٩٣ هـ إلى الشام فى جند كثيف ومعه الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة وسائر الأمراء إلا قليلا منهم . فبلغ دمشق وأقام بها زمنا ثم يمم شطر حلب ، وقبض على عدد من الأمراء الذين يضمرون له السوء ومن بينهم يلبغا الناصرى الذى لم يخلص فى مكافحة « منطاش » ، ثم قتلهم . وأخذ فى تطهير البلاد الشامية والحلبية من

فساد « منطاش » . وكان هذا لا يفتأ يختلس الفرص للكر على مدن الشام وحلب ثم يرتد إلى ضفاف الفرات . فكاتب السلطان برقوق الأمير نعـير بن جبار يطمعه فى جائزة فريدة إن هو قبض على « منطاش » . وكان السلطان قد عاد إلى الديار المصرية قبيل سنة ٧٩٤ ﻫ ولم يظفر بالقبض على « منطاش » . ثم إن نعيرا المذكور كان قد صاهر « منطاش » ا فلما اتفق مع أبى يزيد الدوادار نيابة عن برقوق على أن يقبض على « منطاش » احتال عليه حتى أوقعه فى أسره وأرسله مخفورا إلى نائب حلب ، فأرسل السلطان إليه الأمير طولو بن على شاه ليحضره إليه . فأخذ هذا الأمير فى التحقيق معه ليظفر منه بما غصبه من البلاد . إلا أن « منطاش » كان قد أصاب نفسه بخنجر كان فى حجزته فدخل فى دور النزع . فقطع الأمير طولو رأسه وطيف به فى كل مدينة ، حتى بلغ القاهرة فعلق على باب زويله ... وفرح السلطان بذلك فرحا لا مزيد عليه . وبهذا ختمت حياة هذا الأمير وكان ذلك ٧٩٥ ﻫ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٦٢ إلى ٢٩٩ — تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٨٧ ، ٤٩٧ ، ٥٠٤ — الدرر ج ٤ رقم ٩٩٥ » .

١٧ — إينال اليوسفى ٧٩٤ ﻫ

كان المقر السيفى « إينال اليوسفى » هو الذى وقع عليه اختيار السلطان برقوق ليسند إليه منصب أتابكية عسكره عقب عودته إلى سلطنته واندحار الأتابك السابق تمربغا الأفضلى المعروف بمنطاش وتم ذلك فى أوائل سنة ٧٩٢ ﻫ .

ولقد تقلب « إينال » فى مناصب شتى قبل بلوغه هذه الرتبة الجليلة . فقد كان إلى سنة ٧٩١ ﻫ ، أتابك العساكر بدمشق فى عهد سلطنة برقوق الأولى . وكان الأمير يلبغا الناصرى حينئذ نائبا على حلب فبدرت منه بادرة عصيان تحققها السلطان برقوق . فخلعه من نيابته وأسندها إلى « إينال » : غير أن يلبغا كانت قد اشتدت فتنته وزحف بجنود جمعها إلى مصر ، واستطاع أن يزيل ملك برقوق ويعيد الملك الصالح أمير حاج إلى عرشه . فحرم إينال نيابة حلب ، وأسندت فى العهد الجديد إلى المقر السيفى كشبغا الحموى وسجن إينال فى قلعة صفد . — فلما عاد برقوق إلى نشـــاطه وزحف من الكرك إلى الشام ، اضطربت أمورها وتآمر المتآمرون ، وانضم المنضمون إلى صفوف برقوق . وكان من

أثر ذلك أن أطلق سراح الأمير إينال اليوسفى بوساطة دوادار نائب صفد المدعو يلبغا السالمى . وقد كان هذا من مماليك برقوق ، فاتفق مع حاجب صفد ونائب قلعتها على الإفراج عن « إينال » . وبمجرد خروجه تزعم حركة العصيان ضد الأتابكى « منطاش » وسلطانه أمير حاج . فكان ذلك نصرا جديدا لبرقوق . واستطاع « إينال » أن يمتلك صفد وقلعتها ومخازنها ، وأن يكون قوة فعالة فى الوصول إلى النصر الذى يرجوه برقوق . وسار « إينال » بجانب برقوق حتى كتب له النصر على عدوه « منطاش » ، وعاد إلى سلطنته ، فأسند الأتابكية إليه .

ومن عجيب الأمور أن « إينال » هذا كان فى يوم ماءدوا ثائرا على برقوق . وذلك فى عام ٧٨٠ هـ فى عهد سلطنة المنصور على . فقد اتفق فى يوم الاثنين ٢٤ شعبان من ذلك العام أن سار برقوق — وهو أتابكى لمَّا يُرَقَّ إلى السلطنة — نحو المطرية ، فاغتنم الأمير « إينال اليوسفى » - وكان إذ ذاك أمير سلاح - هذه الفرصة ، وجمع مماليكه ولبسوا لباس الحرب ويمموا جهة الرميلة . وانضم إليه عدد من الأمراء والمماليك السلطانية وأحدثوا فتنة هائلة ، فحطموا باب السلسلة وأغاروا على مستودعات الأسلحة الخاصة بالأتابكى برقوق . وذلك كله حسدا لبرقوق ، ورغبة فى التخضيد من شوكته والتقليل من جاهه . ولولا أن أسرع برقوق بالعودة ، ولولا أن عاونه فى محنته الأمير إيتمش البجاشى ، فمنحه مماليكه وكمية هائلة من الأسلحة ، ولولا أن كان الأمير بركة الجوبانى غائبًا فى مزارعه بالبحيرة ، وهو صديق حميم للأمير « إينال اليوسفى » ، أقول لولا ذلك ، لوقع لبرقوق مالا تحمد عقباه . ولكنه استطاع مع هذه الظروف أن يقضى على خصمه ، وأن يقبض عليه هو وأعوانه وأن يبعث بهم مصفدين فى الأغلال إلى سجن الإسكندرية . وقد قال الشاعر المصرى ابن العطار فى ذلك :

قد ألبس الله برقوقا مهابته نهار الاثنين فى عز وتمكين
وراح إينال مع سودون وانكسرا وكان يوما عسيرا يوم الاثنين

ومن عجيب الأمور أيضا أن برقوقا — وهو أتابكى — كان السبب فى ترقية الأمير « إينال اليوسفى » إلى أمير سلاح بدل يلبغا الناصرى الذى قبض عليه ، وذلك فى أخريات عام ٧٧٩ هـ . فكان جزؤه منه الثورة والفتنة .

ومهما يكن من أمر ، فقد لاءمت الظروف بينهما وأصبح برقوق سلطانا ، وأصبح

« إينال » أتابك عسكره . غير أنه — على ما يبدو — وقع منه ما كان سببا فى غضب السلطان عليه ، ولذلك أبعده عن منصبه ، وأقام مكانه الأمير كمشبغا الحموى . وقد توفى حوالى عام ٧٩٤ هـ ، أو فى هذا العام .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ — خطط ج ٤ ص ٢٥٢ — دررج ١ رقم ١١٣٥ »

١٨ — كمشبغا الحموى ٨٠١ هـ

من مماليك ابن صاحب حماة ، قدمه للناصر حسن . ترقى حتى كان نائبا على حلب فى عهد الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان . وذلك فى أول عودته إلى الملك عام ٧٩١ هـ . وكان الأتابكى حينئذ « منطاش » . وكان برقوق مسجونا بقلعة الكرك ، ثم بدأ « برقوق » يستعيد سلطانه ويزحف بعصابته من الكرك إلى الشام ، بعد أن استولى على الكرك . فضلع الأمير « كمشبغا » مع « برقوق » ، وأعلن العصيان بحلب ، شأنه فى ذلك شأن كثير غيره ، من أمراء البلاد الشامية والحلبية . وقد قدم « كمشبغا » إلى « برقوق » فى ذلك الوقت عدة مساعدات متنوعة إبان دخوله دمشق ، وأصاب « برقوق » فى ذلك الوقت هزيمة مؤقتة ، فهرب هو والأمير « كمشبغا » ، ورحل هذا إلى حلب وأقام فيها حصونا ، استعدادا للظروف . إلا أن أهالى حلب كانوا قد أصابهم ضيق بسبب تصرفات نائبهم « كمشبغا » فانتهزوا فيه فرصة ، حينما أرسل « منطاش » بعض عصابته ، بزعامة شخص يدعى « تمان تمر » الأشرفى لامتلاك حلب باسم « منطاش » ، فانضم أهل حلب إلى هؤلاء المغيرين ، أما الأمير « كمشبغا » ، فقد أقام مع جنوده فى بعض الأبراج الحصينة ، وظل الفريقان يتراميان ثلاثة أشهر ، حتى كتب النصر للأمير « كمشبغا » . وانكسرت أمامه عصابة « منطاش » وولوا الأدبار . فأخذ « كمشبغا » يستعيد نفوذه فى المدينة ، وعكف على إصلاح ما تهدم منها ، وزاد على مبانيها ومرافقها ما سمحت له الظروف .

وكان « برقوق » قد استعاد سلطانه فى البلاد الشامية والحلبية فى تلك الأثناء ، وزحف بجنوده على مصر ، واسترد عرشه فيها . وبذلك وحده استطاع « كمشبغا » أن يسترد نفوذه فى حلب ، ويقوم بهذه الضروب من الإصلاح . — وفى عام ٧٩٣ هـ وفد الأمير « كمشبغا » إلى مصر ، وحظى بمقابلة « برقوق » ، وأطلعه على ما يضمره ويظهره التركمان والعربان من العصيان والخروج عن الطاعة ، معاونة منهم « لمنطاش » الثائر ضد السلطان .

فأعد السلطان الأمر عدته . وأقام «كشبغا» من ذلك الحين فى القاهرة بجوار السلطان ، إذ كان يرتاح إلى مشورته . — ولما خرج «برقوق» بجنوده فى الاثنين ٢٢ شعبان من عام ٧٩٣ هـ ، إلى بلاد الشام للقضاء على «منطاش» وعبثه ، أقام الأمير «كشبغا الحموى» نائب غيبة عنه بمصر حتى يعود ، مفضلا إياه بذلك على نائب سلطنته ، المقر السيفى «سودون» الفخرى . فكان ذلك مرشحا له للوصول إلى مرتبة الأتابكية . فما إن انتهت أتابكية «إينال اليوسفى» حتى أسند السلطان هذه المرتبة الجليلة إلى الأمير «كشبغا الحموى» .

ظلت أمور هذا الأمير تجرى له بالسعد ، حتى كانت سنة ٨٠٠ هـ ، فحدث منه ما استاء له قلب السلطان «برقوق» فخلعه من منصبه ، وقبض عليه وقيده ، وأرسله مسجونا إلى ثغر الإسكندرية . فظل فى سجنه سنتين إلا قليلا . ثم توفاه الله فى أخريات عام ٨٠١ هـ ، وهو فى السجن المذكور . وأعيدت الأتابكية من بعده إلى الأمير «إيتمش» البجاسى .

«ابن إياس ج ١ ص ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، — الضوء ج ٦ رقم ٧٩٣» .

١٩ — «بيبرس» الركنى ٨١١ هـ

كان «بيبرس» هذا دوادارا كبيرا فى عام ٨٠٠ هـ فى عهد السلطان «برقوق» ، وهو قريبه . وأبلى بلاء محمودا إلى جانبه فى الثورة التى شبها ضده الأمير «على باى» والأمير «يلبغا» الأحمدى الأستادار . وهو الذى قبض على «على باى» ، وهو مختبىء ، وصعد به إلى القلعة وألقى به بين يدى «برقوق» ، فأمر بسجنه .

ظل «بيبرس» دوادارا كبيرا ، إلى أن توفى «برقوق» . وقبل وفاته جعله فى عداد أوصيائه على أملاكه وأوقافه . وفى دولة السلطان «فرج بن برقوق» ثبت «بيبرس» فى دواداريته الكبرى كما كان . — ولما وقعت الفتنة بين الناصر «فرج» والأتابكى «إيتمش» البجاسى ، انحاز «بيبرس» إلى جانب السلطان . فكان أحد الأمراء الذين دفعوا عنه وكسروا جنود «إيتمش» ، وأبلى فى ذلك البلاء الحسن . لما فر الأتابكى «إيتمش» إلى دمشق ، اختار السلطان الأمير «بيبرس» الدوادار مكانه فى الأتابكية ، وذلك فى شهر ربيع الأول من سنة ٨٠٢ هـ .

من ذلك الحين أصبح الأمير «بيبرس» مقربا لدى السلطان ، مرعى الكلمة لديه . وتصادف أن قبض السلطان على بعض كبار الموظفين ، للتحقيق معهم فى أموال

بدوها ، وكاد يبطش بهم لولا أن شفع فيهم لديه الأتابكى « بيبرس » فأطلق السلطان سراحهم .

ولما وقعت فتنة الأمير « تنم » نائب الشام ، وخرج السلطان « فرج » لمحاربته ، أناب عنه فى غيبته الأتابكى « بيبرس » ، وذلك فى شهر رجب من عام ٨٠٢ ﻫ .

ولما زاد خطر التتار وزعيمهم « تيمورلنك » ببلاد الشام ، واضطر السلطان « فرج » أن يسير لقتاله وأعد للأمر عدته ، كان الأتابكى « بيبرس » الركنى فى مقدمة من سار بجانبه إلى هذا القتال ، وقد بدأ خروج هذه الحملة فى ٣ ربيع الثانى سنة ٨٠٣ ﻫ. لكنها لم تحقق ما أعدت له تماما ، إذ استشرى من بعد عودتها خطر « تيمورلنك » على بلاد الشام وما والاها .

ويظهر أن الأيام وغيرها ، لم تدع « بيبرس » ينعم باستمرار بمنزلته السامية لدى السلطان « فرج » . إذ أنه قرب إليه الأمير « نوروز » الحافظى فى ذلك العام ، وجعله مشير الدولة ومدبر المملكة ، فعظم جاهه ونفذت كلمته . ثم تزوج « نوروز » أخت الملك الناصر فرج عام ٨٠٤ ﻫ ، فكان ذلك بمثابة تثبيت لمنزلته . فأنى للأتابكى « بيبرس » أن ينافسه ؟ . . . لذلك رأى السلامة فى أن يصافيه ويصادقه . فبقى مرعى الكلمة لدى « نوروز » .

ولما هبت على السلطان فتنة الأمير « جكم » العوضى و « نوروز » الحافظى ، اشترك الأتابكى « بيبرس » فى إطفائها بنحو ألف مملوك ، وذلك فى شوال عام ٨٠٤ ﻫ . وخسر الأمير « نوروز » بهذه الفتنة مركزه السامى لدى السلطان فحاول الأتابكى « بيبرس » أن يصلح ذات بينهما ، فوعده السلطان خيرا ، وأسرفى نفسه غدرا . فقد وعده أنه إذا أتاه بالأمير « نوروز » ، يصفح عنه ويمنحه نيابة ما . فلما طلع به إليه منحه نيابة الشام ، ولكن « نوروز » مالبث حين سار أن قبض عليه ، وقيد وأرسل إلى سجن الإسكندرية . فكان ذلك مثارا لجزع الأتابكى « بيبرس » ، وحنقه على السلطان ، لأنه لم يبر له بوعده وبدت النفرة بينهما . ولهذا أمره فى سنه ٨٠٥ ﻫ أن يرحل منفيا إلى دمياط ، هو وأسرته ويقيم بها . وكاد يتم رحيله ، لولا أن تدخل كل الأمراء المقدمين فى الأمر ، وشفعوا له لدى السلطان . فأبطل أمره إليه بالرحيل ، ومنحه رضاه . غير أن ذلك لم يستصف قلب « بيبرس » على السلطان ، فقد أخذ يكيد له كيدا ، ويوغر صدور الأمراء

عليه ، حتى أصبح فى كل مكان عليه نقمة بادية فلم يجد بدا من أعتزال السلطنة ، والاختفاء عنها عام ٨٠٨ هـ .

تولى السلطنة بعد « فرج » أخوه المنصور « عبد العزيز » ، فملت منزلة الأتابكى « بيبرس » عنده ، وأقره فى منصبه . فأصبح صاحب الحل والعقد بالديار المصرية . إلا أن ذلك كان مثاراً لغضب بعض الأمراء وحقدهم عليه ، ولا سيما الأمير « يشبك » الشعبانى . فانقسمت القوى فرقتين ، وأخذت كل فرقة تكيد للأخرى ، حتى وقعت الحرب بينهما ، فكانت عقبى « بيبرس » الانكسار . وزالت دولة مملكة المنصور « عبد العزيز » ، وعاد « فرج » إلى عرشه مره أخرى . وكل ذلك قد استغرق شهرين وعشرة أيام من العام نفسه . فلما عاد السلطان « فرج » إلى عرشه ، قبض على الأتابكى « بيبرس » ، وساقه مقيدا إلى سجن الإسكندرية ، وانتهى بذلك عهد أتابكيته. وقد قتل عام ٨١١ هـ . وولى الأتابكية من بعده الأمير « تغرى بردى » .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ إلى ٣٥٠ — الضوء ج ٣ رقم ١٠١ »

٢٠ — تغرى بردى بن يشبغا ٨١٥ هـ

كان نائبا لحلب عام ٧٩٦ هـ ، عينه فى هذه النيابة السلطان برقوق . فظل فيها قرابة أربع سنوات . وفى سنة ٨٠٠ هـ استقدمه ، وأنزله فى منزلة الأمير « طاز » وخلع عليه ، وجعله أمير سلاح . وظل فى مرتبته هذه ، حتى انتهى عهد « برقوق » وبدأ عهد ابنه « فرج » ، فأقره فيها : — ولما ثار الأتابكى « إيتمش » فى وجه السلطان « فرج » سنة ٨٠٢ هـ انحاز « تغرى بردى » إلى جانب الأتابكى وأبلى فى ذلك بلاء حسنا . غير أنهما دحرا وفراهما ومن معهما إلى الشام ، فخلع « تغرى بردى » من إمرته . على أنه لم ينجه هربه من وجه السلطان . فقد اقتفى أثر الهاربين الأمير « جكم » العوضى ، وقبض على « إيتمش » و « تغرى » ، وغيرهما ، وسجن « تغرى » فى قلعة دمشق ، فمكث مسجونا ردحا من الزمن ، حتى ثارت ثائرة « تيمورلنك » على أملاك السلطان ، واضطر إلى الخروج إلى الشام لحربه فى ربيع الثانى عام ٨٠٣ هـ . فخلع على الأمير « تغرى بردى » عند ما وصل إلى غزة ، وجعله نائبا على الشام . غير أنه مالبث غير قليل ، ثم عاد مع السلطان « فرج » إلى مصر ، فى جمادى الآخرة من العام المذكور ، دون أن يقوما هما

ومن معهما بعمل حاسم ضد تيمور لنك ، وبقى « تغرى بردى » فى مصر ، فعين السلطان الأمير « سودون » قريبه نائبا على الشام مكان « تغرى بردى » . غير أن « سودون » هذا ما لبث أن وقع فى أسر « تيمور لنك » . ولذلك أعاد السلطان « تغرى بردى » إلى نيابة الشام عوضا عن « سودون » . وذلك بعد زمن يسير وفى العام نفسه . وفى أوائل عام ٨٠٤ ﻫ ثقلت تصرفات الأمير « تغرى » على أهـــل دمشق ، فتربصوا به الدوائر ، ورجموه ، ونجى نفسه بالفرار من وجههم إلى نائب حلب . فلما علم السلطان « فرج » هذا الخبر خلع على المقر السيفى « أقبغا الجمالى » وقلده نيابة الشام عوضا عن « تغرى » . فعاد هذا بعد زمن إلى القاهرة ـ ولما فسد ما بين الأتابكى « بيبرس » والسلطان « فرج » واختفى السلطان « فرج » وملك أخوه « عبد العزيز » ، ثم عاد « فرج » إلى العرش عام ٨٠٨ ﻫ ، قبض على الأتابكى « بيبرس » وعين مكانه فى الأتابكية الأمير « تغرى بردى » . فأخذ من ذلك الوقت يبذل النصيحة والإرشاد للسلطان « فرج » . ولـكن هذا كان مستبدا إلى حد أن نصائح أتابـكيه ذهبت هباء . فقد نهاه كثيرا عن بطشه بمماليك أبيه برقوق ، ولـكنه لم يستمع إلى نهيه . وتخلص من ناصحه بأن أمر بأن يـكون نائبا على الشام مرة جديدة . وذلك فى أوائل عام ٨١٢ ﻫ . وهكذا انتهت مهمته فى هذا المنصب بعد أن سلخ فيه نحو أربع سنوات ، لم يستطع فيها أن يبسط نفوذه كما بسط سواه من أنداده . ـ

وبعد « فرج » ملك الخليفة المستعين ، وكان أتابـكه المؤيد شيخا . وسرعان ما نفز المؤيد شيخ إلى السلطنة . فظهر فى عـهده الأتابكى « قرقماس الشعبانى » . ثم « الطنبغا القرشى » .

ذكر السخاوى أنه توفى سنة ٨١٥ ﻫ ، وهو نائب على دمشق . ـ وهو والد المؤرخ أبى المحاسن صاحب النجوم الزاهرة .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٤٣١ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ـ الضوء ج ٣ رقم ٢١٣٨ » .

٣١ — الطنبغا القرشى ٨٢٤ ﻫ

من مماليك الظاهر برقوق . ضلع مع يشبك ثم شيخ . حتى كان أتابـكيا فى عهد الملك المؤيد شيخ المتوفى عام ٨٢٤ ﻫ . فلما توفى ، ملك من بعده ابنه المظفر « أحمد » . وكان « الطنبغا القرشى » غائبا حينئذ فى البلاد الشامية ، على رأس حملة لتأديب العصاة

من النواب . فاستبد بالأمر دونه الأمير « ططر » وكان أمير مجلس . وانتهز الفرصة لصغر سن الملك ، وأصبح مدبر المملكة ، واعدا بأنه سيستمر كذلك حتى يعود « الطنبغا القرشى» من الشام . غير أن « الطنبغا » لسوء حظه ، علم بتغير هذه الأحوال ، فحدثته نفسه بالعصيان . فأعلنه وهو فى البلاد الشامية ، وملك دمشق وقلعتها وحصنها ، وجمع ما استطاع من العربان وغيرهم ، وانتظر اللقاء إذا أحد حدثته نفسه بالقتال . فكانت هذه فرصة صالحة للأمير « ططر » ، إذ وثب إلى منصب الأتابكية ، ومنها وثب بعد قليل إلى رتبة السلطنة . —

استعد «ططر» لقتال «الطنبغا» وخرج من مصر ومعه جنده وأمراؤه وملكه الصغير محمولا فى محفة . فما بلغوا الشام حتى ارتعبت مفاصل «الطنبغا» ، وأعلن بالطاعة للسلطان . غير أن «ططر» قبض عليه ثم أمر بخنقه ، وهذا كله فى عام ٨٢٤ هـ . ولم يعين أتابك غيره فى عهد السلطان « ططر » حتى مات ، ثم عين فى الأتابكية «جانى بك الصوفى» فى عصر ابنه .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٠ ، ١١ — "الضوء جزء ٢ رقم ١٠٢٥ » .

٢٢ - جانى بك الصوفى ٨٣٤ هـ (١)

بعد زوال الأتابكى « الطنبغا القرشى » ، لم يعين فى الأتابكية أحد فى عهد الملك « ططر » ، إذ كان عهدا قصير الأمد . فلما تولى ابن ططر ، وهو الملك الصالح « محمد » ، أقام فى أتابكية عسكره الأمير « جانى بك الصوفى » وجعله مدبر مملكته ، إذ كان هو صغير السن . وذلك فى أواخر عام ٨٢٤ هـ . فصار الأمير « جانى » من ذلك الوقت ، صاحب الحل والعقد فى البلاد . فأثار ذلك حفيظة غيره من الأمراء . فوقعت بينهم الفتن : وكان على رأس الحاقدين الأمير « برسباى » الدقماقى - الذى صار سلطانا بعد - فاستطاع « برسباى » ان يقبض على عدوه « جانى » وأرسله إلى السجن بالإسكندرية . وانتهت بذلك أتابكيته وكأنها لم تكن . بل انتهت أيضا سلطنة الملك الصالح « محمد ابن ططر » . ووثب إلى السلطنة الأمير «برسباى » نفسه فى ربيع الثانى من عام ٨٢٥ هـ . وظل الأمير « جانى بك » مسجونا حتى عام ٨٣٠ هـ ، فأدخل إليه مبرد ، تغلب به على قيده ، فكسره وهرب . فاضطرب الملك « برسباى » لهذا الحادث ، وعذب كثيرا

---

١ — ذكر السخاوى فى الضوء أنه مات فى منتصف ربيع سنة الآخر ٨٤١ هـ .

من الناس بسببه ، دون أن يذنبوا ، اعتقادا منه أنهم قــد أخفوه لديهم . وما زال الأمر كذلك ، حتى نمى إلى السلطان أن « جانى بك الصوفى » قد فر إلى بلاد التركمان فهدأت نفسه . — وفى سنة ٨٣٥ هـ وفد إلى القاهرة بعض التراكمة ومعهم رأس الأتابكى « جانى بك » ليحظوا لدى السلطان بهذه الفعلة الشنيعة . فأمر بأن يطاف بالرأس فى القاهرة ، ثم علق باب زويلة ثلاثة أيام ، ثم فى ميضأة جامع الحاكم . . .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٤ ، ١٨ ، ١٩ — الضوء ج ٣ رقم ٢٣٠ » .

٢٣ — قجق الشعبانى ٨٢٩ هـ .

أصله من مماليك الظاهر « برقوق » . ترقى فى عهد الناصر « فرج » ، حتى صار من الأمراء المقدمين . وانضم « لنوروز » و « شيخ » فى ثورتهما بالشام . فلما ملك المؤيد شيخ مصر ، جعله حاجب الحجاب . ثم غضب عليه وحبسه بالإسكندرية ، ثم أطلقه السلطان « ططر » ، وحظى عنده ، فرقاه . وما زال حتى كانت سنة ٨٢٧ هـ ، فى عهـــد « برسباى » ، فاختير أتابكا ، واستمر فى الأتابكية حتى مات ٨٢٩ هـ . فنزل السلطان وصلى عليه مع المصلين . وكان « قُجُق » أميرا جليلا معظما ، ماهراً فى ركوب الخيل وفنون الفروسية . وولى الأتابكية بعده « يشبك الأعرج » .

« الضوء ج ٦ رقم ٧٠٢ »

٢٤ — يشبك الساقى المعروف بالأعرج ٨٣١ هـ

أصله من مماليك الظاهر « برقوق » . كان خاصّكيا فى أيامه . واشترك مع « يشبك » الشعبانى فى حروبه ووقائعه . فجرح جراحا بليغة أصيب على أثرها بالعرج . وبلغ مرتبة الإمارة فى عهد الناصر « فرج » ، وانضم بعد مدة مع « نوروز » الحافظى ، فأرسله إلى حلب ليحفظ قلعتها . ولما استتب الملك للمؤيد شيخ ، غضب عليه ونفاه إلى مكة ، بعد أن ظل من أتباعه زمنا . ثم اتصل بالسلطان « ططر » قبل سلطنته ، ولبث فى خدمته مدة ، ثم ترقى على يديه بعد أن أصبح سلطانا . وقد عظم أمر « يشبك » فى عهد الأشرف « برسباى » ، فاختاره أتابكا لعسكر بعد « قجق » الشعبانى . فلبث حتى مات عام ٨٣١ هـ . ومـــا يذكر أن الملك الصالح « محمد بن ططر » ، تزوج ابنته . فلما مات عنها تزوجها

الأشرف « برسباى » . وكان « يشبك » يحب الخير ويكثر من العبادة .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٤ ، ٢٢ — الضوء ج ١ رقم ١٠٨٨ » .

٢٥ — « بيبغا المظفرى » ٨٣٣ هـ

لعله هو أيضاً أحد الأتابكة الذين ظهروا فى عهد الملك المؤيد « شيخ » المحمودى . لأنه وقت أن تغلب الأمير برسباى الدقاقى على سلطنة الملك الصالح محمد بن ططر وأتابكه جانى بك الصوفى ، كان هناك أتابك آخر على قيد الحياة وهو « بيبغا المظفرى » . لذلك اشتور الأمراء عام ٨٢٥ هـ فى ربيع الآخر فيمن يولونه السلطنة : أيولون الأتابك « بيبغا » أم يولون برسباى ؟ . . . وقد كان برسباى إلى ذلك الوقت دوادارا كبيرا . فتقدم « بيبغا المظفرى » وآثر بالسلطنة زميله « برسباى » . والحق أنه ما فعل إلا ما تقضى به الحكمة . لأن « برسباى » كان ذا قوة وشكيمة حادة حينئذاك فلا يبعد — إن قبل « بيبغا » السلطنة — أن يقفز عليه فى الغد وينتزعها منه . فقدمها إليه من أهون سبيل وآمن طريق ، وضمن لنفسه أن يبقى أتابك عسكر فى هذه الدولة . وقد تم له ما أراد . فقد منحه برسباى بعد سلطنته هذه المرتبة . أو بالأحرى استبقاه فيها . ويوصف « بيبغا » هذا بأنه طلق اللسان شديد العارضة لا يعرف من العربية إلا قليلها ، حاد الطبع سيء الخلق . فحالت هذه المؤهلات دون بلوغه منصب السلطنة . ولم يرشحه لها الجند . ومما يذكر هنا أن « بيبغا » ظل قليل الحيلة ضيق السطوة أمام السلطان « برسباى ومن يثق فيهم من الأمراء . إذ صار فى أول عهده صاحب الحل والعقد فى مصر المقر « الزينى عبد الباسط بن القرشى خليل » ناظر الجيوش المنصورة . ثم صار بعده مملوك برسباى الأمير « جانى بك » وهو الذى اجترأ على أتابك العصر « بيبغا » المظفرى فنفاه إلى الإسكندرية دون علم السلطان . — وذكر السخاوى فى الضوء أن « بيبغا » توفى عام ٨٣٣ هـ .

« ابن إياس ج ٣ ص ١٥ إلى ١٧ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ — الضوء ج ٣ رقم ١٠٦ »

٢٦ — سودون الظاهرى ٨٤١ هـ

يبدو لنا أنه كان أتابكيا فى عهد « برسباى » بعد « بيبغا » المظفرى . واسمه سودون ابن عبد الرحمن ، وأصله من مماليك الظاهر برقوق . وكان من خاصكيته . ثم ترقى فى عهد الناصر فرج فصار من الأمراء المقدمين . ثم ولى نيابة غزة ، ثم ولى نيابة طرابلس

فى عهد المؤيد شيخ . وما زال حتى اختاره الأشرف «برسباى» للدوادارية الكبرى ، ثم لنيابة الشام عام ٨٢٧ هـ عوضا عن تنبك البجاسى . ثم نقل إلى مصر أتابكيا . ثم تقاعد بعد مدة وأرسل إلى دمياط . فمات بها عام ٨٤١ هـ . وكان جليلا شجاعا حسن السياسة . وله مدرسة بخانقاه سرياقوس ، أوقف عليها أوقافا .

« الضوء جـ ٣ رقم ١٠٤٨ »

قرقماس الشعبانى ٨٤٣ (١) هـ

أصله من مماليك الظاهر «برقوق» . ثم ملكه ابنه الناصر « فرج » ، فأعتقه وجعله خاصكيا . ورقى دوادارا صغيرا فى عهد المؤيد شيخ . وما زال يرقى ، حتى صار حاجب الحجاب . ثم نقل إلى نيابة حلب بعد قصروه . ثم اختاره السلطان الظاهر « جقمق » أتابكا لعسكره فى عام ٨٤٢ هـ ، ومنحه الإمرة الكبيرة . وكان « قرقماس » يطمع فى السلطنة ، فأحب أن يحتال على سلطانه « جقمق » ، ويقبض عليه وهما يلعبان الكرة ، ثم يعلن بنفسه سلطانا ، غير أنه لم يستطع ولم تجز حيلته . ووقعت النفرة بين الرجلين ، ودارت رحى الحرب بين فريقيهما جهة الرميلة . فانهزم « قرقماس » وهرب . ثم أرسل إلى السلطان يطلب الأمان ، فأمنه . فصعد عنده ، فقبض عليه وقيده وأرسله إلى سجن الإسكندرية . وذلك عام ٨٤٢ هـ . ثم استطاع «جقمق» أن يثبت عليه كفرا ، وحكم عليه به قاضى قضاة المالكية «شمس الدين البساطى» ، فضربت عنقه فى السجن عام ٨٤٣ هـ .

وقد عين فى الأتابكية من بعده الأمير « أقبغا » التمرازى ، وهو الذى جمع بين الأتابكية ونيابة السلطنة . وكان آخر نوابها وقد ذكرناه فى النواب : ثم ظهر بعد « أقبغا » الأمير يشبك السودونى .

« ابن إياس جـ ٢ ص ٨ ، ٢٤ إلى ٢٧ — الضوء جـ ٦ رقم ٧٢٩ »

٢٨ — يشبك السودونى ٨٤٩ هـ

ظهر هذا الأمير فى عهد السلطان « فرج بن برقوق » . وانحاز إلى جانب سلطانه فى الفتنة التى شنها ضده الأمير « جكم » العوضى عام ٨٠٤ هـ . وكانت له يد فى نصرة السلطان عليه وقت قتاله . ثم حسن اتصاله بالسلطان « ططر » . وما زال نجمه فى صعود حتى

(١) يفهم من رواية السخاوى فى الضوء أنه قتل عام ٨٤٢هـ

صار فى عهد الملك الظاهر « جقمق » العلائى أمير مجلس ، بعد أن لبث حاجب الحجاب زمنا . وفى سنة ٨٤٣ هـ نقل « أقبغا » التمرازى الأتابكى فى عهد « جقمق » إلى نيابة الشام ، ووقع اختيار هذا السلطان على الأمير « يشبك السودونى » ، فرقاه إلى الأتابكية عوضا عن « أقبغا » التمرازى . وكان « يشبك » قبيل العام المذكور قد عاون السلطان جقمق ضد الأتابكى « قرقماس » الشعبانى الثائر فى وجهه . وما زال « يشبك » أتابكيا حتى توفى فى عهد جقمق أيضا عام ٨٤٩ هـ . فتولى الأتابكية بعده إينال العلائى ، الذى ملك البلاد بعد ذلك عام ٨٥٧ هـ ، وتلقب بالملك الأشرف . وذلك بعد خلع المنصور بن جقمق .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٤٥ ، ج ٢ ص ٢٥ إلى ٢٩ — الضوء ج ١٠ رقم ١٠٨٩ » .

٢٩ — تانى بك البردبكى الظاهرى ٨٦٢ هـ

أصله من مماليك الظاهر برقوق . وكان من الخاصكية فى عهد المؤيد شيخ ، وظل يترقى حتى بلغ الأتابكية فى عهد إينال . وكان إينال العلائى الأتابكى ، لما بلغ مرتبة السلطنة عام ٨٥٧ هـ ، أقام فى الأتابكية بدلا من نفسه ابنه المقر الشهابى أحمد — وهو الذى صار سلطانا بعد أبيه — فتذمر الأمراء من ذلك . فأسرع السلطان إينال بخلع ابنه من الأتابكية ومنحها للأمير « تانى بك البردبكى » الظاهرى . فلبث فى الأتابكية خلال سلطنة إينال . ولما تولى السلطنة ابنه الشهابى أحمد عام ٨٦٥ هـ ، أقام فى الأتابكية الأمير خشقدم . وهو الذى صار سلطانا على مصر ، على أثر انكسار الملك المؤيد أحمد أمام الثوار من المماليك فى العام المذكور . فلما بلغ خشقدم منصب السلطنة منح الأتابكية للمقر السيفى جرباش المحمدى المعروف بكرت .

هذا وكان « تانى بك » أو « تنبك » رجلا وقورا متدينا لينا . ومات فى عام ٨٦٢ هـ مقاربا التسعين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٠ — الضوء ج ٣ رقم ١٧٣ فى « تنبك » » .

٣٠ — جرباش الجركسى المحمدى المعروف بكرت ٨٧٧ هـ

تنقل هذا الأمير فى ثلاثة أنواع من الإمارة : اثنين فى عهد سلطان واحد وهو السلطان « إينال » العلائى . وهذه الإمارات هى : إمارة الآخورية الكبرى ، رقى إليها فى أول عهد إينال عام ٨٥٧ هـ . وفى أواخر عام ٨٦١ هـ . رقى إلى أمير مجلس . ثم ارتقى

فى عهد الملك المؤيد أحمد بن إينال إلى أمير سلاح ، عوضا عن الأمير « خشقدم » الذى ارتقى إلى الأتابكية . وذلك عام ٨٦٥ هـ . ولما آلت السلطنة إلى الأتابكى خشقدم ، خلع على الأمير « جرباش المحمدى » ، ورقاه إلى الأتابكية عوضا عنه ، عام ٨٦٥ هـ أيضا . غير أنه لسوء حظه انساق فى أوائل عام ٨٦٦ هـ (١) إلى الإندماج فى الثورة التى شنها المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف برسباى - ضد السلطان خشقدم فإن هذا السلطان قبض فى مستهل العام المذكور على كثير من أمراء هؤلاء المماليك . فثاروا فى وجهه وبحثوا عن متزعم يرأس حركتهم ، فوقع اختيارهم على الأتابكى « جرباش المحمدى » فقصدوا إليه ، وكان قد اختفى عن عيونهم فى تربة الظاهر برقوق ، فما إن التقوا به حتى سلوا سيوفهم وأرغموه على الركوب معهم ، ونشروا فوق رأسه أعلاما سلطانية ودخلوا به مدينة القاهرة من باب النصر . وكانوا يرمون إلى سلطنته وخلع الملك خشقدم ، ولذلك لقبوه بالملك الناصر . فما كان من مماليك خشقدم إلا أن أوقعوا بهم . ثم تلطف خشقدم واستقدم إليه الأتابكى « جرباش » بوساطة الأمير « جانى بك » المعروف بنائب جدة ، وهو الذى تحيل عليه حتى أصعده إلى السلطان بالقلعة . ثم أوقعوا بالمماليك الأشرفية حتى شتتوا شملهم وقبضوا على بعض متزعميهم . أما هذا الأتابكى فقد كانت الحادثة آخر عهده بالأتابكية إذ خلع منها . ثم قبض عليه وسجن بدمياط فلبث بها زمنا حتى آلت السلطنة إلى الأشرف قايتباى ، فسعى بعض الأمراء لديه الإفراج عن هذا الأتابكى ، فأفرج عنه فى رمضان عام ٨٧٦ هـ (٢) وسمح له بالإقامة فى القاهرة عاطلا ، فبلغ القاهرة فى أخريات العام المذكور . فما إن حضر حتى صعد إلى السلطان للتشرف بمقابلته فلقيه لقاء حسنا وأكرمه . ثم عاش بعد ذلك زمنا متبطلا بالقاهرة ، حتى وافته منيته فى رمضان ٨٧٧ هـ مناهزا سن التسعين . وأصله من مماليك الناصر فرج بن برقوق . وقد تزوج بخوند شقراء بنت هذا السلطان ، وقد ولدت له ابنه الناصرى محمدا . وقد توفى هذا الولد وأمه بعد قليل . وقد اشتهر بكزت لكونه كثير الشعر . وولى الأتابكية بعده الأمير قانم التاجر .

---

١ — روى فى الضوء اللامع ج ٣ رقم ١٥٢ فى ترجمة « تمراز » الشمسى أن هذه الثورة كانت عام ٨٦٩ هـ .

٢ — هذه رواية ابن إياس . ويفهم من السخاوى أن السلطان « خشقدم » هو الذى عفا عنه واستقدمه إلى القاهرة .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٠ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ — الضوء ج ٣ رقم ٢٧٠ » .

٣١ — قانم التاجر المؤيدى ٨٧١ ه

وهو ابن صفر خجا الجركسى المعروف بالتاجر . اشتراه المؤيد شيخ ثم أعتقه وجعله من المماليك السلطانية ثم من الخاصكية . وظل يترقى ، حتى كان أمير مجلس فى أول عهد السلطان الظاهر خشقدم . ولما انساق الأتابكى جرباش المحمدى فى ثورة المماليك الأشرفية ضد السلطان خشقدم ، كما تقدم فى ترجمته عام ٨٦٥ ه ، ظهر نجم الأمير «قانم» ، وولى الأتابكية بعده . ثم ساد علاقته بالسلطان بعض الجفاء ، ولكن ذلك لم يدم . لأنه فى عام ٨٧٠ ه ، أقام حفلا عظيما للسلطان خشقدم ، شهده جمع من الأمراء والمماليك الجند ، وقام فيه اللاعبون بألعابهم حتى عم السرور جميع المشاهدين . ومازال الأتابكى « قانم » فى منصبه ، حتى وافته المنية فى أوائل سنة ٨٧١ ه ، إذ مات فجأة . وقيل إنه مات مسموما . وكان كثير المال ساعيا فى الخير معينا على قضاء الحوائج ،

وقد ولى الأتابكية من بعده على التوالى « بلباى » المؤيدى ، ثم تمربغا الرومى ، ثم قايتباى المحمودى . وقد صار كل منهم سلطانا على التعاقب . فلما ولى قايتباى السلطنة ، اختار لنيابته الأمير جانى بك قلقسير .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ٧٩ ، ٨٠ — الضوء ج ٦ رقم ٦٩٥ »

٣٢ — جانى بك قلقسير الأشرفى ٨٨٣ ه

أصله من مماليك الأشرف برسباى . وأخذ فى الترقى حتى صار حاجب الحجاب فى عهد خشقدم وأرسله هو وخمسة أمراء فى تجريدة إلى البحيرة . ثم هو وأزبك ابن ططخ إلى العقبة لتأديب عربانها أوائل سنة ٨٧٢ ه . وقد وصل إلى مرتبة الأتابكية فى أول عهد السلطان الأشرف قايتباى المحمودى عام ٨٧٢ ه . فلما خلعها السلطان عليه ، نزل من القلعة إلى منزله فى موكب حافل . ولما أخذ السلطان «قايتباى» فى إعداد حملة عسكرية ، يؤدب بها الشاه « سوار » بن دلغادر ملك الأبلستين ، الثائر فى وجهه ، والزاحف على بلاد السلطان ، كان الأتابكى «جانى بك قلقسير» فى متقدمة أمراء هذه الحملة ، فى يوم الاثنين ١٢ شعبان سنة ٨٧٢ ه . ثم جاءت أخبار فى شهر ذى القعدة من هذه السنة ،

بأن عسكرها كسر كسرة شديدة ، وأسر الأتابكي «جاني بك قلقسير» ، وقتل جماعة من الأمراء والجند كثيرة . وعادت البقية الباقية منها في حالة يرثى لها . وكانت هذه الكسرة في يوم الاثنين ٧ من ذي القعدة . ثم إن «سوارا» سجن الأتابكي «جاني بك قلقسير» في جب ، فلبث فيه أياما ثم أطلق سراحه . ولكن هذا الأسر كان سببا في زوال منصب الأتابكية منه ، إذ وهبه السلطان الأمير «أزبك بن ططخ» . فكأن الأتابكي «جاني بك قلقسير» لم يمكث في منصبه هذا سوى شهرين تقريبا .

ولما اطلق سراحه رحل إلى حلب مكرما . وكان إطلاق سراحه ضربا من السياسة ، اتبعه «سوار» ، وأراد من ذلك ، أن يكون سفيرا بينه وبين السلطان للصلح . فلبث «جاني بك» زمنا في حلب ، إلى أن تهيأ للرحيل إلى مصر . ويظهر أن السلطان كان قد شك في نواياه . ولذلك أرسل إليه يستبقيه في حلب . غير أن أمر الاستبقاء لم يصل إلى حلب ، إلا بعد أن فارقها «جاني بك» في طريقه إلى مصر . وحضر في جمادي الأولى من سنة ٨٧٤ﻫ . فصعد إلى القلعة ، وتشرف بلقاء السلطان الأشرف ، فقام له وعانقه وأكرمه ، وخلع عليه وأهدى إليه . ثم بعد أيام منحه لقب أمير سلاح ؛ لأنه كان اللقب الشاغر في ذلك الحين . ولكنه أقل من مرتبته التي يستحقها . ومع ذلك فقد بقيت له حرمته . فناب عن الأتابكي «أزبك بن ططخ» في فتح السد في العام المذكور ، لغيابه عن القاهرة في ذلك الحين . وتدخل — عام ٨٧٧ ﻫ وفي شهر المحرم منه — بين الأتابكي «أزبك» والأمير «تغري بردي ططر» بسبب نزاع شب بينهما . ولبث بمصر مرعى الجانب موفور الكرامة ، حتى رأى السلطان الأشرف قايتباي أن يجرد حملة تأديبية إلى «حسن الطويل» ملك العراقين ، بسبب إغاراته على بلاد السلطان . فجهز هذه الحملة في جمادى الآخرة عام ٨٧٧ ﻫ . وكان الأمير «جاني بك قلقسير» على رأس الأمراء بها . فسارت إلى حلب مسرعة . ثم ألحقها بحملة أخرى . وفي خلال إقامة «جاني بك» بالشام أرسل السلطان إليه خلعة ، وأمره بأن يبقى نائبا في الشام عوضا عن نائبها المتوفى ، وهو برقوق الناصري الظاهري . وذلك في شوال من العام المذكور . فظل «جاني بك» في هذه النيابة زمنا طويلا ، وتولاها بجدارة وكفاءة . وفي ربيع الأول من سنة ٨٨١ ﻫ أرسل هدية إلى السلطان الأشرف ، كان في جملتها عشرة آلاف دينار من الذهب وأنواع شتى من المنسوجات الثمينة . وما زال «جاني بك قلقسير» في هذه النيابة ، حتى وافته منيته

في شهر ذي الحجة عام ٨٨٣ هـ . بعد أن تولى مناصب عنيا شتى . وكان معروفا بالشجاعة والفروسية والكفاية التامة لما يعهد إليه من الأعمال .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٠ إلى ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٦ ، ١٨٥ — الضوء ج ٣ رقم ٢١٩ » .

٢٣ — أزبك بن ططخ ٩٠٤ هـ

أحد أجلاء الأمراء ، وذوى الأثر والاسم الباقى منهم . وكان ميدان ظهوره عصر السلطان الأشرف قايتباى . ولبث فى الأتابكية بمصر ثلاثين عاما . قام بمهامها بمهارة وقدرة . وهو منشىء الأزبكية ، وتتلخص سيرته فيما يلى :

يقال إن أصله من المماليك الكتابية ، الذين اشتراهم السلطان الأشرف « برسباى » ، وقد جلبه إليه الخواجا « ططخ » من بلاد جركس وكان مراهقا ، فاشتراه « برسباى » عام ٨٤١ هـ . قيل : ثم تحول ملكه إلى بيت المال . فاشتراه منه الملك الظاهر « جقمق » وأعتقه ثم رقاه ساقيا فأمير عشرة فى عام ٨٥٢ هـ بدلا من تمراز البكتمرى المصارع ، ثم جعله من رءوس النواب . وزوجه ابنته من مطلقته « خوندمغلى » ابنة ناصر الدين ابن البارزى . — وتزوج أختها عام ٨٧٠ هـ بعد وفاة زوجها . وفى أوائل عهد الأشرف إينال كان خازندارا كبيرا . ثم إنه كان فى عداد الأمراء الذين سخط عليهم هذا السلطان ، لأنه انتزع السلطنة من الملك عثمان بن جقمق . وكان الأمير « أزبك » منحازا - ولاشك - إليه مع المنحازين . لذلك لما تم أمر « إينال » العلائى فى السلطنة قبض على عدد من الأمراء كان من بينهم الأمير « أزبك بن ططخ » ، وذلك عام ٨٥٧ هـ . وسجن الجميع مقيدين بسجن الاسكندرية ثم نقل إلى صفد ، ثم أطلق سراحه بعد حين عام ٨٥٨ هـ . وأرسل إلى القدس عاطلا . ثم عاد بوساطة زوجته والجمالى ناظر الخاص عام ٨٦١ هـ وتقلبت به الأحوال حتى صار رأس نوبة النوب فى عهد الظاهر « خشقدم » . ثم غضب عليه « خشقدم » فنفى مع تمربغا الظاهرى — الذى ملك بعد — بسجن الإسكندرية ، حتى شفع فيهما الأتابكى قانم التاجر ، فأفرج عنهم بعد ٣ أيام . ثم اختير فى عام ٨٧٢ هـ ، لكى يخرج إلى العقبة هو والأمير جانى بك قلقسيز بسبب فساد عربانها . فقام بهذه المهمة . ثم عاد بعد

وفاة الملك « خشقدم » ، وقيام سلطنة الظاهر « بلباى » . فكان فى صحبته نحو ستين من العربان أسرى فى الأغلال فأمر «بلباى » بقتلهم فقتلوا . واتضح أن « أزبك » قد بلغ فى رحلته هذه إلى الأزلم .

وما حان عصر الأشرف « قايتباى » حتى أخذ نجم الأمير « أزبك بن ططخ » فى الصعود . فعين نائبا على الشام — وقيل عين على الشام قبل ذلك — . وفى ذلك الحين — أعنى فى عام ٨٧٢ هـ — قامت فتنة الشاه « سوار » ملك الأبلستين ضد السلطان . فجرد له حملة عسكرية قادها أتابكيه «جانى بك قلسقير » ، وكان نصيبها الفشل وأسر قائدها . فخلا بذلك منصب الأتابكية بمصر ، فمنحه السلطان قايتباى الأمير « أزبك بن ططخ » واستقدمه من الشام على وجه السرعة ليتولاه .

ومما يذكر هنا أن « أزبك » كان قد اشترك فى الحملة ضد « سوار » وانهزم مع المنهزمين ، وعاد إلى حلب جريحا لا مال معه ولا سلاح ولا جند . فلما أسند إليه السلطان منصب الأتابكية ووافته الرسل بذلك فى المحرم عام ٨٧٣هـ ، زم رحله ويمم شطر مصر ، فبلغها فى صفر من هذا العام . فظل فى هذا المنصب نحو ثلاثين سنة من عام ٨٧٣ هـ إلى عام ٩٠٤ هـ ، وهو مثال العمل الدائب والجهد المستمر . ماعدا نحو عامين قضاهما فى مكة .

خرج فى سنة ٨٧٣ هـ إلى البحيرة ، ليطفئ فتنة عربانها ، فأقام بها ردحا من الزمن ثم عاد فى رجب . وفى خلال غيبته — وكان السلطان قد أرسل حملة أولى لتأديب « سوار » — هم بتجهيز الحملة الثانية ، فاختار أتابكيه « أزبك » ليكون قائد جندها . فلما عاد « أزبك » ، أظهر إباءه عن قيادتها . بسبب قلة ما أعطى من المال خاصا به ، وبسبب نفوره من مماليك السلطان . فما زال « قايتباى » يتلطف به حتى أجابه إلى السفر ، وقبل ما أعطى من المال . فخرج بجنده فى شعبان من العام نفسه ، وودعه السلطان قبيل رحيله . وقد ذكرنا أن « أزبك » كان قد تزوج بأخت الملك المنصور « عثمان » وهى بنت الظاهر « جقمق » . لذلك كانت له مكانة ممتازة بين الأمراء .

أما الحملة التأديبية التى قادها ضد « سوار » فقد كان نصيبها الفشل والانكسار ، فأقام بعدها بحلب مدة ، ثم عاد بمن بقى من الأمراء والعسكر ، وفى صحبته شاه «بضاع » أخو سوار ، الذى انتزع منه سوار بلاده فقابلهم السلطان لقاء حسنا . وكانت عودة «أزبك» فى رمضان عام ٨٧٤ هـ . وفى أخريات عام ٨٧٦ هـ ، دعاه السلطان مع عدد من الأمراء

على رأس تجريدة لتأديب عرب الشرقية ، من بنى حرام وبنى وائل ، الذين زاد عبثهم ، وفجروا فى اعتدائهم على الناس ، حتى وصلوا إلى أحياء من القاهرة نفسها ، ونهبوا كثيرا من المتاجر والأقمشة . فرحل إليهم « أزبك » ومن معه من الأمراء . ثم إنه عاد إلى القاهرة بعد عدة أيام ، ومعه بعض الأسرى فسجنوا بسجن المقشرة . أما الأمراء الآخرون فقد بقوا زمنا آخر فى الشرقية ، للقضاء على فتنة هؤلاء العربان . وقد عاود الأتابكى «أزبك» الذهاب إلى الشرقية ، ثم عاد ومعه عدد آخر من الأسرى مصفدين فى الأغلال . وذلك فى صفر سنة ٨٧٧ هـ .

وظل الأتابكى « أزبك » يقوم بمهام كثيرة مما تحتاج إليه الدولة : سياسة أو إدارة أو بناء أو غير ذلك . فكان هو المقدم عند كسر السد نيابة عن السلطان وكان يصحبه كثيرا فى حفلاته الرياضية . ويعمل على الصلح بينه وبين مماليكه السلطانية ، إن بدا منهم له عصيان . أو بين بعض الأمراء والبعض الآخر أو يتوسط لدى السلطان شفيعا لبعض المذنبين . أو يقوم بتهدئة فتنة يثيرها بعض الأمراء أو الجند . أو يستشيره السلطان فى الأمور الهامة . وهكذا . وفى هذا كله دليل على ما كان له من علو الجاه ، نافذ الكلمة ومسموع الرأى .

وفى شهر رجب من عام ٨٨٠ هـ ، رحل السلطان الأشرف قايتباى إلى القدس فصحبه الأتابكى « أزبك » ، فدبرا هناك ما اقتضى التدبير ، وعادا فى شعبان هما ومن معهما . وفى ذى القعدة من نفس العام ، رحل رحلة أخرى بصحبة السلطان أيضا لزيارة الفيوم ، فزارا هناك طاحونا تدور بالماء أنشأها خاير بك بن حديد أحد أمراء العصر .

إنشاء الأزبكية

وفى العام المذكور « ٨٨٠ هـ » ، بدأ الأتابكى » أزبك » إنشاء الأزبكية ، وقد أورد ابن إياس وصفا شائقا لها ، نجمله فيما يأتى . قال : « كانت أرض الأزبكية خربة ممتلئة بكثب من الرماد ، ينبت بها بعض أشجار السنط والأثل ، وبها أضرحة بعض الأولياء . وتناولها بعض المصلحين بضروب من الإصلاح ، فأجرى إليها الماء ، بوساطة خلجان تمتد من النيل ، وأنشأ بها المناظر والبساتين ، وما شابه ذلك . ثم عفى الزمان أثرها وعادت إلى خرابها ، وتناقص عمرانها . وما زال هذا أمرها ، حتى سكن الأتابكى « أزبك » ،

على مقربة ولم تكن أرضها ملكا له ، وإنما كانت من أملاك الدولة مايخرج منها من ثمار يعود على الناس ولكن ، الأتابكى « أزبك » رأى أن يجرى إليها أسباب الحياة ، ويمد لها ضروب العمران ، فاستخار الله وأنفق عليها نحوا من مائتى ألف دينار . فمهد أرضها بوساطة المحاريث ، وأنشأ مناخا لجماله ، ثم حفر بركة وجعل شواطئها ، وأجرى إليها الماء بوساطة خلجان . وبنى فوقها القناطر ، ونشر حولها المقاعد ، وأحاطها بالبساتين وشاد العمائر والربوع ، والحمامات والقاعات والطواحين والأفران ، وضروبا كثيرة من مرافق الحياة . حتى غدت الأزبكية أحد منازه القاهرة . وتكسر سدود خلجانها كل عام فى حفل ، يحضره الأمراء والأعيان ، ويجتمع فيه الناس لمشاهدة واللهو والسمر . ومما أنشأه فيها مسجد كبير . وقد وهب السلطان أرض هذه الأزبكية ، الأتابكى « أزبك » بعد تمام هذه الجهود فى إنشائها .

وقال السخاوى فى الضوء : إنه ابتنى بها جامعا عظيما ، قرر به صوفية ومدرسين وقراء ، وزوده بخزانة كتب .

وفى أخريات عام ٨٨٣ هـ ، عهد إليه السلطان ببناء قناطر فى ناحية الجيزة . وقد تم بناؤها فى شعبان عام ٨٨٥ هـ فمنحه السلطان هدايا قيمة . وفى جمادى الأولى من عام ٨٨٤ هـ سافر فى صحبة السلطان الأشرف إلى الإسكندرية لتفقد شئونها . وكان سفرهما بطريق النيل ومعهما عدة من الأمراء والجند . وشاهدا البرج الذى أنشأه السلطان بها . وعاد الجميع فى أخريات الشهر المذكور . ولما سافر السلطان الأشرف إلى الحج عام ٨٨٤ هـ ، كان الأتابكى « أزبك » هو صاحب الحل والعقد بالديار المصرية مدة غيبته ويعاونه الأمير « يشبك » الدوادار . ولما عاد السلطان من حجه فرق أنواعاً من الهدايا على الأمراء ، وابتدأ فى ذلك بالأتابكى « أزبك » .

وفى عام ٨٨٥ هـ قتل الأمير « يشبك » الدوادار فى معركة حامية وقعت بينه وبين « بايندر » أحد نواب يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقين . وكان يشبك قد خرج فى جند كثيف من مصر بأمر السلطان ، فى طلب الثائرين على ممتلكاته ، لاسيما « سيف » أمير آل فضل قتل نائب حماة . فكان حينه فى ذلك الخروج . وبانهزامه انتشرت الفوضى فى البلاد الشامية والحلبية ، حتى خاف السلطان عاقبتها . فأرسل إليها تواً ، الأتابكى « أزبك » لإعادة الأمن إليها فى عدد كثيف من الأمراء والجند . وفوض إليه أمر البلاد الشامية والحلبية ، ووكل إليه حق العزل والولاية فى كل مناصبها كما يشاء . فبلغ

« أزبك » فى ذلك الوقت ماشاء ، من عظمة وعلو جاه . ولما وصل إلى حلب ، وجد أن الفتنة قد ركدت . فأرسل رسولا إلى «يعقوب» بن حسن الطويل ملك العراقين ، تلطف منه ليطلق من عنده من أسرى المصريين ، فأطلقهم وعادوا مع رسوله إلى حلب . فكان ذلك نصرا مبينا للأتابكى « أزبك » وظل هناك يدبر أمر الملك ويثبت قاعدته . ثم عزم على العودة إلى مصر ، فبلغها فى شـــوال سنة ٨٨٦ هـ ، ودخل القاهرة فى موكب حافل .

وفى شوال عام ٨٩٠ هـ خرج الأتابكى « أزبك » على رأس حملة عسكرية كبرى لتأديب جنود ملك الترك العثمانيين ، العابثين بأطراف بلاد السلطان ، ولتأديب « على دولات » الثائر ضد السلطان أيضاً . فأوقع « أزبك» بأعداء السلطان ، وعاد ومعه منهم جم غفير ، مصفدين فى الأغلال . ولولا عصيان جنده له مرات عدة بسبب الإنفاق عليهم ، لـكان له شأن أعظم مما وقع وكانت عودته حافلة فى ذى القعـــدة عام ٨٩١ هـ فوهب له السلطان خلعا سنية .

وفى شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٩٢ هـ ، تم عقد زواج الأمير « قانصوه خمسمائة» — وهو الذى كاد يكون سلطانا على مصر عام ٩٠٢ هـ — على ابنة الأتابكى « أزبك » من ابنة الظاهر جقمق ، وذلك بجامع القلعة وبحضور القضاة الأربعة وأعيان الناس . وقد أهدى السـلطان إليهم . وفى شهر رجب التالى تمت ليلة زفافهما فى الأزبكية . وكان لقانصوه » ركب حافل ، تقدمته الأمراء بالملابس الفاخرة والخاصكية بالشموع . وحمل الأثاث من الأزبـكية إلى قناطر السباع حيث بيت « قانصوه » نحو أربعمائة حمال . ويقال إن ثمنه نحو مائتى ألف دينار . — وهـذا كله دليل على ما بلغه الأتابـكى « أزبك » ، من علوجاه واتساع ثروة . — هذا وقد توفيت هذه العروس فى جمادى الآخرة عام ٨٩٧ هـ وبعدها بأيام توفيت أختها بـكرا . —

وفى هذه الأثناء ازداد عبث الأتراك العثمانيين بأطراف الدولة ، فجرد عليهم الأشرف قايتباى حملة عسكرية كبرى ، فاقت الحملة الأولى ، بل فاقت ما سبقها من الحملات : وكان على رأسها الأتابكى « أزبك » ، ومعه طائفة كبيرة من عظماء الأمراء من بينهم صهره « قانصوة خمسمائة » . وأنفقت عليها نفقات طائلة وخرجت هذه الحملة من القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٣ هـ . وقد أبلت بلاء حسنا فى مكافحة العثمانيين ، وغنمت

منهم الغنائم وأسرت الأسرى ، وساقتهم إلى مصر . وقد عاد الأتابكى « أزبك » من حربه تلك ، فى صفر سنة ٨٩٤ هـ . فكان لعودته وقع عظيم فى نفوس الناس . وقد خرج إلى حلب مرة أخرى لمثل الغرض السابق ، فكان خروجه بحملته الجديدة فى ١٥ ربيع الثانى عام ٨٩٥ هـ . وأبلوا بعض البلاء فى محاربة العثمانيين ، ثم دبت فيهم الفتن فعادوا إلى القاهرة . وكان رجوع الأتابكى « أزبك » من حربه تلك فى مستهل المحرم سنة ٨٩٦ هـ . وهذه آخر تجاريده إلى البلاد الحلبية .

وقد تفرغ الأتابكى « أزبك » بعد ذلك لأعمال البناء والتعمير سواء ما اتجهت إليه رغبة السلطان أو ما اتجهت إليه رغبته . من ذلك ما أمر به فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٩ هـ من تجديد عمارة المدرسة المنصورية التى بدهليز البيمارستان ، وضرب على الفسقية التى بها قبة ، وجدد بها منبرا ، وأقام خطبة . وهذه أعمال حاولها من قبله الأتابكى « إيتمش » البجاسى فى دولة الناصر فرج ، فتعذرت عليه بسبب فتوى بعض العلماء ، بدعوى مخالفتها لشروط الواقف . ولكن « أزبك » تغلب على مثل هذه الفتاوى . ومما يذكر هنا أن الأتابكى « تمراز » قد أبطل الخطبة منها بعد خلع « أزبك » من الأتابكية . فلما قتل « تمراز » وأعيد « أزبك » إلى الأتابكية أعاد الخطبة إليها مرة ثانية ، فاستمرت بها زمنا طويلا .

ومما يذكر أنه منذ توليه منصب الأتابكية ، كان المقدم فى فتح السد كل عام . ولم يفتتحه سواه إلا إذا كان غائبا فى تجريدة خارج مصر . ثم إنه فتح السد فى ذى القعدة سنة ٩٠٠ هـ ، وكانت هذه آخرة مرة له فى فتحه .

وفى يوم الخميس مستهل ذى الحجة من عام ٩٠٠ هـ ، بدأت حادثة فتنة تزعمها « قانصوه خمسمائة » ، وانحاز إليه الأتابكى « أزبك » لأنه صهره . وسببها أن بعض المماليك نهب دار الأمير « قانصوه خمسمائة » فى أثناء تغيبه ليلة عيد الفطر بإقطاعه . ففهم أن الذى ساقهم عليه هو الأمير « أقبردى » الدوادار ، لعداوة قديمة بينهما . فجمع حوله عددا ضخما من الأمراء والجنود ، ولبسوا آلة الحرب ، واجتمعوا بالأزبكية عند الأتابكى « أزبك » ، فما كان من السلطان الأشرف إلا أن نادى الجنود إلى الاستعداد للقتال ، ففت فى ساعد أنصار « قانصوه » و « أزبك » ، وتفرقوا واختفى منهم من اختفى . ففر « قانصوه » واختفى . وكان ذلك انتصاراً كبيراً لعدوه « أقبردى » الدوادار

وعصابته . أما « أزبك » فقد استقدمه السلطان إليه بالقلعة ، وأمره بالإقامة بها فى قاعة البحر ، خوفا عليه من المماليك الجلبان أن يقتلوه . فلبث أسبوعا ، ثم خرج مع السلطان فى صلاة الجمعة فتحفز له كثير من المماليك وهموا بالبطش به ، ولكن السلطان حماه . فرأى « أزبك » أنه لم تعد تطيب له الإقامة بمصر ، وسط هذه العاصفة الهوجاء ، التى هبت ضده على حين غفلة . واستأذن السلطان فى أن يقيم بمكة المكرمة ، فأذن له . فزايل القاهرة فى ركب غير حافل فى ٨ ذى الحجة من العام المذكور . وانتهت بذلك أتابكيته الأولى ، بعد أن مضى فيها نحوا من سبع عشرة سنة ، بلغ فيها من العز والجاه ، ما رنت إليه عيون الكثيرين من العظماء ولم يبلغوه . ثم زايله كل شىء مزايلة فجائية لأسباب تافهة .

تقلبت الأحوال ، بعد أن غادر الأتابكى « أزبك » مسرح السياسة المصرية وترك الأتابكية . فتوفى الأشرف قايتباى وملك ابنه الناصر محمد . وبلغ « قانصوه خمسمائة » منصب الأتابكية ، ثم زايلها فعادت إلى « تمراز » ، واشتدت الفتنة بين « قانصوه » و « أقبردى » . وأعلن « قانصوه » بنفسه ملكا على مصر ، ثم فشل فى حركته وأدت ثورته هذه إلى اختفائه . ثم ظل « تمراز » فى الأتابكية حتى قتله بعض المماليك فى أخريات سنة ٩٠٢ هـ . وفى عام ٩٠٣ هـ ، شعر جميع الأمراء بحاجتهم إلى أتابكى قدير ، واتفق رأيهم على استدعاء الأتابكى « أزبك » من مكة ، ليلى منصب الأتابكية بمصر للمرة الثانية . فكتب السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، مرسوما بذلك فى أوائل العام المذكور . فعاد « أزبك » إلى القاهرة فى يوم الخميس ٢٢ ربيع الأول من العام نفسه ، فمنحه السلطان الناصر منصب الأتابكية ثانية . وكانت مدة غيابه بمكة نحو سنتين وثلاثة أشهر . غير أنه فى هذه المرة لم يعد له من الجاه أو الكلمة المسموعة أو الشفاعة المقبولة ما كان له فى المرة الأولى . ومع ذلك كان له أثر لا بأس به فى تهدئة الفتن وفض المؤامرات ، التى كان يقوم بها المماليك ضد السلطان الناصر محمد بن قايتباى .

ولما قتل هذا السلطان فى ١٥ ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، اضطرب الأمر على الأمراء وحاروا فيمن يولونه السلطنة ، واتجهت رغبة بعضهم إلى سلطنة الأتابكى « أزبك » ، وفاوضوه فعلا فى ذلك ، فأبى إباء شديدا ، وأقسم ألا يكون سلطانا ، وإلا يذهب إلى مكة ويجاور فيها كما كان . — ولعله خاف عاقبة السلطنة ، إذ رأى حولها كثيراً من الذئاب الراغبة فيها والطامعة فى نوالها . فربأ بنفسه عن مهاويها ومؤامراتها . فآلت

السلطنة إلى الأمير « قانصوه بن قانصوه » خال الناصر ، وظل « أزبك » مستمرا فى أتابكيته ، إلى أن توفى فى عهد السلطان قانصوه المذكور . وكانت وفاته فى يوم الأربعاء ٢٠ رمضان سنة ٩٠٤ هـ .

وبذلك انتهت حياة أحد أبطال هذا العصر . ويقال إنه كان إلى جانب نفوذه وجاهه يشوبه كبر وبطش . ومع ذلك فهو يعتبر أحد المصلحين المنشئين . والقازين الناشرين لواء مصر فى الربوع الأخرى . وقيل إنه ترك من ورائه مالا طائلا . وقد دفن بتربة أستاذه الملك الظاهر جقمق ، وله ابن يدعى شرف الدين يحى أقام فى حماة زمنا طويلا ثم عاد لمصر . وتولى الأتابكية من بعده الأمير جان بلاط وهو الذى بلغ رتبة السلطنة فيما بعد .

وفى الفترة التى هاجر فيها « أزبك » إلى مكة أسندت الأتابكية إلى « تمراز » ثم « قانصوه خمسمائة كما ذكرنا » .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٥ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ إلى ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، إلى ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٥ إلى ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ إلى ٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ج ٣ ص ٧٧ — الضوء اللامع ج ٢ رقم ٨٤٤ » .

٣٤ — الأمير « تمراز الشمسى » ٩٠٢ هـ

قدم إلى مصر مع جالبه عام ٨٣٦ هـ ، ثم صار من مماليك الأشرف برسباى ، لذا يقال له الأشرفى نسبة إليه ، ويقال له أيضا العزيزى نسبة للعزيز بن الأشرف برسباى فهو معتقه ثم أعانه على حياته الحرة . وعين جمدارا . وفى عهد الأشرف إينال صار خاصكيا فساقيا ثم أمير عشرة . وفى عهد الظاهر خشقدم انضم مع الأتابكى « جرباش كرت » المحمدى ضد سلطانه ، وذلك عام ٨٦٩ هـ . فاستحق النفى إلى دمياط . وفى عهد الظاهر تمربغا عاد إلى القاهرة سنة ٨٧٢ هـ . وفى عهد الأشرف قايتباى علا نجمه واتصل بالسلطان ، إذ اتضح أنه أحد أقاربه — قيل إنه ابن أخته — لهذا رقاه إلى مقدم ألف . وسافر

مع الحملة ضد « سوار » ثم صار رأس نوبة كبيرا ، ثم أمير سلاح ، وولى أمر البحيرة فحمدت سيرته ، ورأس حملة ضد « على دولات » فأبلى بلاء حسنا . ولما انحاز الأتابكى « أزبك » إلى زوج ابنته الأمير « قانصوه خمسمائة » ، فى فتنته ضد السلطان الأشرف والأمير « أقبردى » ، انحاز « تمراز » إلى السلطان . وكان من نتيجة ذلك ما ذكرنا من نفى الأتابكى « أزبك » إلى مكة ، فخلا منصب الأتابكية فوهبه السلطان للأمير « تمراز » وكان ذلك فى يوم الاثنين مستهل صفر عام ٩٠١ هـ . وبعد ذلك بأيام عينه السلطان أيضا ناظرا على البيمارستان المنصورى .

وفى شهر ذى القعدة عام ٩٠١ هـ . أيضا ، اعترى المرض السلطان الأشرف . فانتهز الفرصة الاتابكى « تمراز » ، وخاطبه فى أن يخلع نفسه من الملك ليتولاه ابنه محمد ، فلم يطاوعه السلطان ولم يرد عليه جوابا . فاستصحب معه ابن السلطان وهم بتوليته . وأشيع حينذاك أن الأتابكى « تمراز » يرشح نفسه للسلطنة . فغضب جماعة من الأمراء من بينهم « قانصوه خمسمائة » و « كرتباى الأحمر » ، وحمى غضبهم ودفعهم إلى قتاله . ثم قبضوا عليه ، وقيدوه بقسوة ، وبعثوا به إلى سجن الإسكندرية .

توفى الملك الأشرف قايتباى ، عقب ذلك بأيام قليلة ، وتولى أريكة الملك ابنه الناصر محمد ، فمنح الأتابكية « لقانصوه خمسمائة » . وهو الذى دبر ثورة ضد الأشرف قايتباى من قبل . فما لبث هذه المرة حتى دبر مؤامرة وثورة جديدتين ، ضد سلطانه الناصر محمد ابن قايتباى ، وأعلن بنفسه سلطانا على البلاد . ولكن هذه الحركات كانت عاقبتها الفشل التام ، فاختفى «قانصوه خمسمائة » ، وخلا منه منصب الأتابكية ، وذلك فى جمادى الأولى عام ٩٠٢ هـ ، فرأى السلطان الناصر بن قايتباى ، أن يفرج عن الأتابكى « تمراز » ، ويعيده إلى منصبه . فأصدر مرسومه إليه بذلك فى مستهل جمادى الآخرة من العام المذكور . ومن الغريب أن «قانصوه » لما اختفى قيل إن الأمير « قانصوه » الشامى ، وهو من عصبته ، توجه مع آخرين إلى الإسكندرية ليقتل «تمراز » فى سجنه ، مستعينا فى ذلك بنائب الإسكندرية ، لأنه أخو «قانصوه خمسمائة» . ولكن خاب مسعاه ، إذ فجأه فى الطريق هو ومن معه جماعة من العربان أثخنوا فيهم ، وقبضوا على «قانصوه » الشامى . وأودعوه بسجن الإسكندرية حيث كان «تمراز» ..!

وفى الشهر المذكور عاد « تمراز » إلى القاهرة ، فلقيه السلطان لقاء كريما ، وأعاده

إلى الأتابكية . غير أنه مالبث غير قليل ، حتى شعر بحركة ضـــده ، يقوم بها مماليك « قانصوه خمسمائة » وغايتها قتله . فأمره السلطان بأن يقيم بالقلعة ، محافظة على حياته . فأقام فى الجامع الصغير ، داخل «الحوش» السلطانى عدة أيام ، ثم ظهر « قانصوه خمسمائة» وحاول إضرام فتنة جديدة ، فاستطاع «تمراز» حينئذ أن يترك مكانه ، ويسير وفى ركبه جماعات عدة من المماليك الجلبان الحانقين على « قانصوه » ليقضوا عليه ، وكان متحصنا بالأزبكيه فى منازل صهره أزبك ، فلما شعر «قانصوه» بدنوهم ، لاذهو ومن معه بالفرار . وبعد ذلك سمح السلطان لأتابكية «تمراز» بأن يعود إلى داره .

ويبدو لنا من تتبع سيرة حياته هنا ، أن نفوذه صار متقلصا ، وأن هناك من أمراء عصره من أصبح له نفوذ فوق نفوذه ، وجاه فوق جاهه ، وعصبية فوق عصبيته . لذلك لم يكن غريبا منه أن ينضم إلى الأمير «أقبردى» الدوادار ، حينما قام يثور ضد «قانصوه» خال الملك الناصر محمد بن قايتباى فى عام ٩٠٢ هـ فى شهر ذى القعدة ، وقاتله قتالا عنيفا استمر إلى أواخر ذى الحجة . فلما انكسر وهزم ، فر إلى بلاد الشام هو وعصابته . أما الأتابكى « تمراز» فقد كان قبيل ذلك مريضا ، فلم يشعر بانكسار « أقبردى » حليفه فى حينه . فأرسل « أقبردى » إليه يستدعيه للهرب معه ؛ فأبطأ عليه ، فتركه ويمم إلى بلاد الشام . وبقى « تمراز » بمصر ، فقبض عليه واقتيد إلى القلعة . وبينما هو فى طريقه لقيه عدد من مماليك أعدائه فحزوا رأسه ومثلوا به ، والذى تقـــدم لقتله منهم مملوك يدعى «زردبك» الأشقر من أراذلهم . ثم دفن فى تربة الأشرف قايتباى . وكانت قتلته فى ذى الحجة عام ٩٠٢هـ . وكان أميرا دينا مهيبا كثير البر . توفى فى العقد الثامن فى عمره . وكان له طمع فى السلطنة حتى كان إذا سأله أحد إنجاز وعد ، أو تعلق به بأمل ، صابره ويقول « اصبر علينا حتى يجىء وقتها » ، وكان متوددا للعلماء برا بالفقراء . وقد تزوج عدة مرات : تزوج «ملكباى» ابنة قرقماس فماتت عام ٨٧٩هـ. فتزوج ابنة الملك المنصور ابن الظاهر جقمق بكرا ، فولدت له بنتالم تعش طويلا ، ثم ماتت زوجه هذه ، فتزوج عام ٨٨٧ هـ ابنة الأمير «جانم» الأشرفى نائب الشام بكرا ، فولدت له .

« ابن إياس جـ ٢ ص ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، إلى ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ . — الضوء جـ ٣ رقم ١٥٢ » .

٣٥ — قانصوه خمسمائة الأشرفى بن طراباى ٩٠٢ هـ

أمير من عظماء الأمراء ، ومن ذوى الأطماع الكبرى . حدثته نفسه بانتزاع السلطنة من صاحبها ، فانتزعها ثلاثة أيام ، وتلقب بالملك الأشرف . ولكن سلطنته لم تكن إلا كرؤيا الحالم . ويقال إن أصله من المماليك الكتابية ، الذين ابتاعهم الملك الظاهر خشقدم ، ثم آل ملكه إلى الأشرف قايتباى فأعتقه فيمن أعتق . ومن ثم ظل يتقلب فى مناصب الدولة حتى بلغ أرقاها . وقد اختير أميراً للركب الأول للحاج عام ٧٨٧ هـ .

وهو أحد المولعين بإشعال نار الفتنة والائتمار ، وأحد الذين رموا بأنفسهم فى محيط الحروب الأهلية ، التى جرت بين المماليك فى خلال دولتهم الثانية ، ليصل من وراء ذلك إلى ما تصبو إليه نفسه من أمل .

ويبدو أنه كان محبا للنزاع والشغاب منذ نشأته ، حتى مع جيرانه الأدنين . فقد حدث فى عام ٨٨٣ هـ ، وفى شهر ربيع الأول منه ، أنه أنشأ بعض الأبنية فى جهة قناطر السباع بالقاهرة ، فاقتطع فى سبيل ذلك بعض أشجار جاره ، وفتح فى ناحيته بابا بغير حق ، مما اضطر هذا الجار ، وهو المدعو الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيار ، إلى شكايته إلى السلطان الأشرف قايتباى ، فانتصف له منه ، مع أن « قانصوه » كان فى ذلك الحين من أخصاء السلطان .

وفى ربيع الأول من عام ٨٨٤ هـ ، منحه السلطان الأشرف قايتباى الدوادارية الثانية . وفى الشهر نفسه أصلح الأمير « يشبك » الدوادار الكبير بين « قانصوه خمسمائة » والأمير « جانم » الشربفى ، إذ كانت بين الاثنين وحشة وجفاء ، وقد جمع بينهما فى وليمة حافلة .

وفى شهر المحرم عام ٨٨٦ هـ قفز الأمير « قانصوه » من الدوادارية الثانية إلى الأمير آخورية الكبرى . وبين الوظيفتين مراحل شتى . وهكذا علا نجمه وسعد جده وبدأ يكون من عظماء الأمراء .

ولما خرج الأتابكى « أزبك بن ططخ » عام ٨٩٠ هـ فى شهر شوال ، لقتال « على دولات » ، وتحت قيادته حملة عسكرية كبرى ، كان « قانصوه خمسمائة » أحد كبار أمرائها . وقد نجحت هذه الحملة نجاحا نسبياً ، كما بينا فيما سبق . ويقال إن كتيبة « قانصوه » كانت رائعة الملبس والسلاح والمظهر ، ويقال إنه أنفق فى إعدادها نحوا من ثمانين ألف دينار .

وبدأت سنة ٨٩٢ ﻫ ، بالغلاء والاضطراب ، وثوران المماليك ، ولا سيما الجلبان ، فانقسموا فرقتين :إحداهما مع قانصوه، والثانية مع الأمير «أقبردى» الدوادار. وهو الذى ابتلى « قانصوه » بعداوته ومنافسته له . وقد حظى « قانصوه » فوق اختصاص الأشرف به ، بزواجه من بنت أتابكى العصر الأمير « أزبك »وحفيدة الملك الظاهر « جقمق » . وتم العقد فى جمادى الآخرة عام ٨٩٢ ﻫ ، بجامع القلعة وبحضور القضاة الأربعة وعظماء الناس ، وأهدى إليهم السلطان بعض الهدايا المناسبة . وبعد أيام تمت ليلة زفاف العروسين ، على أروع ما يكون زفاف فى ذلك الحين . وركب « قانصوه » فى جمهرة من الأمراء والخاصكية ، والشموع فى أيديهم . إلى آخر ما ذكرنا فى ترجمة « أزبك » .

وهذه العروس قد توفيت بعد زواجها بنحو خمس سنوات ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٧ ﻫ .

ولما زاد عبث العثمانيين بأطراف البلاد ، رأى السلطان الأشرف أن يجرد عليهم حملة أخرى . فكانت بقيادة الأتابكى « أزبك » ، وصحبه فيها أيضا الأمير « قانصوه » صهره . وخرجت الحملة تقصد البلاد الشامية والحلبية فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٣ ﻫ . وخرج « قانصوه » فى ركب حافل كالركب السابق فى الحملة الأولى ، وأبلت الحملة بلاء حسنا فى مكافحة الأعداء ، وعادت فى صفر عام ٨٩٤ ﻫ .

وفى شهر ذى الحجة سنة ٨٩٦ ﻫ ، اختلف الأمير « قانصوه » والأمير « أقبردى » الدوادار بسبب نوتى . فكان ذلك بدءاً للنزاع المستحكم والمنافسة الدموية بين هذين الأميرين ، مما كان ذا أثر بارز فى حياتهما .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٩٨ ﻫ ، عين « قانصوه » أمير حج فى ركب المحمل . فخرج بركبه فى شوال من العام نفسه باحتفال مهيب . وعاد من مكة فى المحرم عام ٨٩٩ ﻫ ، ولم يلهج أحد بالثناء عليه ، فقد بدرت منه — على ما قيل — بوادر آذت الناس ، وأخذ من بعضهم جمالهم ، وترك بعضهم فى « ينبع » حين عودته ، فتألموا لذلك . ولعل هذا كان بدء نحس هذا الأمير . فإنه ما لبث حين مرض السلطان الأشرف عام ٩٠٠ ﻫ ، أن قيل له مايؤخذ منه إن« قانصوه » اجترأ على مقام السلطنة ، ولذلك منعه السلطان من الدخول عليه أثناء مرضه . وهذا دليل على كثرة أعدائه ، وفى ليلة عيد الفطر من العام المذكور ، رحل « قانصوه » إلى إقطاعه ، فانتهزت طائفة

بين المماليك المعادية له ، هذه الفرصة ، واقتحموا داره ونهبوا ما فيها ، وأحرقوا أغلب نواحيها . فلما عاد « قانصوه » وعلم ما حل بداره إبان غيابه ، ملأ قلبه الشر على عداته ، وعزم على تأديبهم ، وأخذ في تدبير الأمر لذلك . فلما كان يوم الخميس مستهل ذى الحجة ، جمع « قانصوه » عصابته من أمراء ومماليك سلطانية ، وشرعوا أسلحتهم ، وتجمهروا بالأزبكية حول بيت الأتابكى « أزبك » صهر « قانصوه » ، حيث انضم إليهم الأتابكى نفسه . فاضطر السلطان الأشرف قايتباى إلى مقابلتهم بالشدة ، خوف استطارة هذه الفتنة . فكانت عاقبتهم الانكسار والهزيمة . — ومما يذكر أن الأمير « أقبردى » الدوادار كان أحد قائدى عسكر السلطان . ولذلك تعد هزيمة « قانصوه » هذا نصرة له . وكانت هذه أولى الهزائم التى منى بها « قانصوه » على الرغم من تدبيره وسياسته وشجاعته . وبعد هذه الهزيمة اختفى ، وقبض على كثير من عصابته .

ظل الأمير « قانصوه » مختفيا نحو تسعة أشهر . ثم ظهر وصعد إلى القلعة ، فلقيه السلطان لقاء حسنا . ولكنه خشى عليه أن يفتك به الجند إذا رأوه . فاحتال السلطان على الجند ، بأن ألبس « قانصوه » ثوبا بعلبكيا — مما يكفن فيه الموتى عادة — دلالة على استسلامه . ومن العجب أنه نزل إلى داره ، يصحبه الأتابكى الجديد « تمراز » الشمسى والأمير « أقبردى » الدوادار عدوه اللدود ! . . .

غير أن فئة كبيرة من المماليك الجلبان من عصبة « قانصوه » ، سرعان ما أثارت فتنة فى ذى القعدة عام ٩٠١ ﻫ وشرعت سلاحها وذهبت إلى جهة الرميلة ، وحاصرت « أقبردى » الدوادار ، وأحرقوا بعض الدور . فاختفى « أقبردى » ومرض السلطان « قايتباى » بسبب هـذه الفتنة ، وهم الأتابكى « تمراز » بأن يعلن بنفسه سلطانا ، أو يملك ابن قايتباى . وهكذا كانت فتنة مماليك « قانصوه » ، سببا فى اضطراب الأمور وانشعاب الأهوء . فلما علم « قانصوه » بما عول عليه الأتابكى « تمراز » دهمه بجنوده ومعه الأمير « كرتباى » الأحمر ، وقبضا عليه وقيداه وأرسلاه إلى سجن الإسكندرية — ونهبت دور الأمير « أقبردى » ومن لف لفه من عصابته . وكانت النتيجة بعد ذلك أن اشتور الأمراء فيمن يولونه السلطنة ، وذلك لأن السلطان اشتد عليه المرض ، ودخل فى دور النزع . فاتفقوا على تولية ابنه الملك الناصر محمد . وقد تمت توليته ، وتوفى

أبوه بعد قليل . وكان هذا فى الشهر المذكور .

كان طبيعيا أن يكون الأمير « قانصوه » صاحب الحل والعقد فى هذه الدولة الناصرية الجديدة ، فمنحه السلطان الناصر بن قايتباى منصب الأتابكية والإمارة الكبرى ، عقب توليه مهام السلطنة .

وكم كان يكون سعيدا مجدودا لو قنع بما بلغه من المناصب الممتازة ، ولم يتطلع إلى ما فوقها من مرتبة السلطنة !... ولكن لعله قد خدعه صغر سن سلطانه الجديد ، فقد ولى الملك فى الرابعة عشرة من عمره . وسرعان ما دبت الأهواء والغطرسة فى نفس « قانصوه » ، وسولت له أن يمتنع عن أن يصلى مع السلطان صلاة عيد النحر فى العام المذكور ، أو صلاة الجمعة ، ثم أخـــذ فى تطهير القاهرة من مماليك الأمير « أقبردى » الدوادار ، فشتتهم فى أماكن عدة . وعاون صديقه « كرتباى » الأحمر ، فأسندت إليه وظائف عدة ، منها الوزارة والأستادارية ، وكاشف الكشاف وغير ذلك . وطفق يبحث عن مكان عدوه «أقبردى» فهاجمت جنده عدة دور وجوامع وزوايا بسبب ذلك . ثم اتضح أن « أقبردى » ، قد فر إلى غزة . وأخذ فى تتبع أنصار « أقبردى » حتى اضطروا إلى الاختفاء خوفا من سطوته ... فما يصنع السلطان إزاء هذه الحالة الشاذة ، واستفحال شأن أتابكيه «قانصوه» ؟ ... حاول أن يصلح ذات البين ، فأمن من استخفى من عصبة « أقبردى » وصالحهم على «قانصوه» . غير أن هذا كان قد أصر فى نفسه على المكيدة ، ودبر من وراء الستار أمرا خطيرا ، فإنه استضاف بعض أتباع « أقبردى » ، وبينما هم فى مأدبته وفى داره ، إذ دهمهم الجند وقبضوا عليهم ، وساقوهم إلى النيل ، وأغرقوهم — كما قيل — .

وفى ليلة الأربعاء ٢٨ جمادى الأولى سنة ٩٠٢ ه اجتمع « قانصوه » بأتباعه من أمراء وجنود ، وتهيئوا لسلطنته فى الغد . وفى صباح الأربعاء المذكور ، استقدموا الخليفة والقضاة ، واجتمع عدد كبير من أمراء وعسكر ، واحتال الجميع على الخليفة ، حتى خلع السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، وأعلن « بقانصوه » سلطانا على البلاد . وتلقب بالملك الأشرف !! . . . وكادت سلطنته تقع عند جميع الناس موقع القبول ، ويضمن لها البقاء . لولا أن الملك الأشرف « قانصوه » ! لم يحتط للمستقبل ، واشتط فى معاملة أعدائه ، وأمر بالقبض على الملك الناصر ، فهتاج لذلك عدد كبير من مماليك

أبيه ، يتزعمهم الأمير « قانصوه » خال الملك الناصر ، وقاوموا « قانصوه خمسمائة » مقاومة كبيرة . فتبادل الفريقان القتال حتى أريقت دماء كثيرة . وآلت العاقبة بالهزيمة على « قانصوه خمسمائة » . فآثر الهرب والاختفاء فى مستهل جمادى الآخرة ، ولم يمض على سلطنته سوى ثلاثة أيام ! وعادت السلطنة بذلك إلى صاحبها الملك الناصر بن قايتباى .

كانت القاهرة فى خلال هذه الفتنة التى قام بها « قانصوه » ، مسرحا للفوضى والنهب والسلب ، نحو أسبوعين . وباختفائه انتهت أتابكيته . فأسندها السلطان الناصر إلى الأمير « تمراز » الشمسى للمرة الثانية ، واستقدمه من سجنه بالإسكندرية .

وفى ١٨ جمادى الآخرة من العام نفسه أى ٩٠٢ هـ ، ظهر « قانصوه » بعد اختفائه ، فتسامعت به عصابته ، فيممت شطره ، والتفت حوله فى درب المرسينة عند قناطر السباع . فسار بهم إلى الأزبكية ، ليبيت ليلة ثم يستأنف هجومه فى الصباح . ولكن هذه الليلة بددت أحلامه ، فقد انفض من حوله جمعه شيئا فشيئا فى الصباح ولم يقيموا معه . فلما وقع ذلك رأى « قانصوه » شبح الهزيمة ماثلا أمام عينيه هو ومن معه ، وتسامعوا بقدوم المماليك الجلبان لقتالهم ، فآثروا الفرار من وجههم وتوجهوا نحو غزة ، فلقوا فى طريقهم الأمير « أقبردى » — وكان مختفيا فارا من وجه « قانصوه » فأوقعوا به وبمن معه ، وكادوا يفتكون بهم ، لولا أن جاءتهم نجدة من غزة على حين غفلة ، فانكسروا أمامها شر كسرة . وهذه رابع هزيمة تصيب أميرنا « قانصوه خمسمائة » . ويقال إن « قانصوه » قبض عليه إذ ذاك وقتل وأرسل رأسه إلى القاهرة مع غيره من الرءوس . ولبث الناس فى شك من أمر قتله . ومع ذلك كله فقد كانت واقعته مع « أقبردى » آخر العهد به .

وكان « قانصوه » أميرا جليل الشأن كبير الأطماع ، شجاعا وافر العقل محبا للبناء ، شيد بعض الدور والأبراج بالأزبكية وبقناطر السباع .

وقد تولى الأتابكية من بعده « تمراز » الشمسى . ثم عاد إليها « أزبك » بن ططخ صهر « قانصوه » . ثم « جان بلاط » الذى ولى السلطنة بعد زمن . وكان أتابكيا فى عهد الظاهر « قانصوه » . ثم اعتلى السلطنة بعده ، فأسند الأتابكية إلى الأمير « قوصروه » نائب الشام حينذاك . ولكن « قصروه » أعلن بالعصيان ولم يلب الأمر . فظلت

«الأتابكية شاغرة مدة يسيرة . ثم أسندها السلطان «جان بلاط» إلى الأمير «تانى بك الجمالى» .

«ابن إياس ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٣٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ إلى ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، إلى ٢٩٠ ، ٢٩٣ إلى ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ إلى ٣١٧ - الضوء ج ٦ رقم ٦٨٣ .

٣٦ — تانى بك الجمالى الظاهرى ٩٠٨ هـ

أصل هذا الأمير من مماليك الظاهر «جقمق» وقد برز فى عهد الناصر «محمد بن قايتباى» ، فكان نظام الملك وأمير سلاح . وكان فى جملة من انضم إلى الأمير «قانصوه خمسمائة» فى ثوراته المتعددة ، وقاتل معه ضد الأمير «أقبردى الدوادار» . واختفى أكثر من مرة ، على أثر الهزائم المتوالية التى منوا بها . وظهر أخيرا فى عهد الناصر ابن قايتباى ، أيضا ، واختير أميراً لركب المحمل عام ٩٠٣ هـ . ولما ولى سلطنة مصر الأشرف «جان بلاط» عام ٩٠٥ ، حفظ منصب الأتابكية لنائب الشام «قصروه» . غير أن «قصروه» امتنع بالشام وأعلن السلطان بالعصيان - كما نوهنا - فأسند أتابكية عسكره إلى الأمير «تانى بك الجمالى» ، وذلك فى المحرم عام ٩٠٦ هـ .

ومما يجدر ذكره هنا ، أن الأمير «طومان باى» بن قانصوه ، كان فى ذلك الحين أمير سلاح ودوادارا كبيرا ووزيرا وأستادارا وكاشف كشاف ، جمع بذلك بين وظائف عدة من أهم وظائف الدولة . فقوى أمره ، واشتد ناصره ، وأصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد . وغض من شأن الأتابكى «تانى بك الجمالى» . و «طومان باى» هذا ، هو الذى ملك البلاد فيما بعد ، وتلقب بالعادل بعد قتال طاحن مع السلطان «جان بلاط» ، فإن «جان بلاط» أرسله على رأس حملة إلى بلاد الشام ، لإخضاع نائبها العاصى «قصروه» . فاتحد مع «قصروه» ، وأعلن نفسه سلطانا ، وزحف بجنوده من الشام على مصر ، فحاربه سلطانها «جان بلاط» . وكان فى جملة الأمراء الذى انحازوا إلى السلطان الأتابكى «تانى بك الجمالى» . غير أنهم انهزموا وفر منهم كثيرون ، وفى عدادهم «تانى بك» ، واختفى ولم يعثر له على أثر . وكان ذلك فى عام ٩٠٦ هـ فى جمادى الآخرة .

ولما ثارت ثائرة الجند والأمراء ضد العادل «طومان باى» ، وانتهت بهزيمته واختفائه ، ظهر «تانى بك» ، وانضم إلى الأمراء الثائرين ، ومنهم «قيت الرجبى» ، و «مصر باى» و «طراباى» وغيرهم ، فى منزل «قانصوه خمسمائة» بقناطر السباع .

وكان « قانصـوه » ما زال مختفيا — فتم الاتفاق على سلطنة الأتابكى « تانى بك » . وكادت تتم سلطنته ويبايع ، لولا أن الجند لم يرتضوه . فعدل عنه إلى الأمير «قانصوه الغورى » ، فولى السلطنة . فقبض على « تانى بك » ونفاه إلى مكة . فسافر صحبة الحاج فى شوال عام ٩٠٦ هـ . وظل هناك زمنا . وقيـل إن « الجازانى » العربى الثائر بمكة ، عبث « بتانى بك » عام ٩٠٨ هـ ، وطلب منه مالا ، فاعتذر . فعاقبه عذابا فاحشا حتى مات وأخذ ماله .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ — ج ٤ ص ٦ ، ٧ ، ٤٨ — والضوء ج ٣ رقم ١٧٥ » .

٣٧ — قصروه نائب الشام ٩٠٦ هـ

اشتراه الملك الأشرف «قايتباى» وظل حتى أعتق . وأخذ طريقه إلى عليا المناصب ، حتى تولى نيابة حلب فى عهد الملك الظاهر « قانصوه بن قانصوه » سنة ٩٠٤ هـ . ويظهر أنه كان أحد المغرمين بالعصيان ، فإنه ما لبث حين دخل الشام فى طريقه إلى حلب ، أن استولى قوة واقتدارا على أموال الأمير « كرتباى » الأحمر ، وكانت نحوا من ٦٧ ألف دينار ، بدون أن يستأذن السلطان — جاء هذا الخبر إلى القاهرة فى شهر جمادى الأولى من العام المذكور ، وعلم به السلطان «قانصوه» فغضب ، وأوفد إلى قصروه من يأمره برد المال ، فلم يأبه لهذا الأمر ، واعتذر بأعذار واهية . — وظل « قاصروه » فى نيابة حلب ، حتى انتقل الأمير « جان بلاط » — السلطان فيما بعد — من نيابة الشام إلى الأتابكية بمصر — فانتقل الأمير « قاصروه » إلى نيابة الشام عوضا عنه ، فى ذى الحجة عام ٩٠٤ هـ . غير أنه مالبث أن عاد إلى عصيانه ، فأعلنه فى رمضان عام ٩٠٥ هـ . وقد كان هذا العمل من جانب «قاصروه» من أهم الأسباب التى أودت بملك السلطان «قانصوه» . فإنه أخذ فى إخضاعه ، فبعث إليه رسولا وهو « أقباى الطويل » يطلب إليه أن يكف عصيانه ، وأن يترك قلعة الشام لنائبها — وكان قد استولى عليها — وفى نظـير ذلك لايؤاخذه السلطان بما قدمت يداه . ولكنه أصر وتمادى فى العصيان . فأعد السلطان له حملة تؤدبه ، وهم بالمسير بنفسه إليه . ولكن كانت القلوب قد تغيرت عليه ، والنفوس تحفزت للوثوب ضده — وكان هناك الأمير « طومان باى » — الذى ملك فيما بعد — وبينه وبين «قصروه» علاقة وطيدة . فقاد طومان باى الثورة ضد السلطان «قانصوه» ، ومازال

به حتى أزال دولته ، ومَلك من بعده الأتابكى « جان بلاط » . فلما استولى هذا على عرشه ، طلب إلى الأمير « قصروه » نائب الشام أن يتولى منصب الأتابكية بمصر ، وذلك فى ذى الحجة عام ٩٠٥ هـ . ولكن « قصروه » ظل على عصيانه القديم وامتنع عن قبول هذا المنصب السامى — ولعله كان متواطئا فى الخفاء مع الأمير « طومان باى » نفسه ! ... فما عتم « طومان باى » حين بلغ الشام أن أعلن نفسه سلطانا ، ودخل فى طاعته الأمير « قصروه » ، وعاونه أكبر معاونة . وزحفا معاً بجنودهما من الشام على البلاد المصرية ، فأدخلا الرعب والهلع فى قلب سلطانها « جان بلاط » ، ووقعت بين الفريقين مواقع يطول شرحها ، كان « قصروه » من أكبر الأيدى العاملة فيها ، الساعين إلى إنجاحها . قيل إنه كان هو ومماليكه يشتغلون فى حفر الخنادق ، التى استدعتها خطتهم الحربية ، ويعملون ويعمل معهم بيده ، ويحمل الأتربة بنفسه .

فلما تم النصر « لطومان باى » وأصبح ملكا على الديار المصرية ، وقبض على « جان بلاط » ، واختفى أتابكيه « تانى بك الجمالى » وذلك فى جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ ، أسند منصب الأتابكية بمصر ، إلى عضده الأكبر ومعينه الأمين الأمير « قصروه » . ومنحه جملة من الثياب الفخمة النفيسة ، وقدم إليه ألوانا من الشكر والاحتفال ، جزاء له على ماقام به من معونة ، فى سبيل الوصول إلى السلطنة .

ويظهر أن الزمن أراد أن ينتقم من الأمير « قصروه » لدسائسه السابقة ، ومؤامراته على سلاطينه ، وعصيانه لهم عصيانا متكرراً ، كان له أثر كبير فى انتقال السلطنة من رجل إلى آخر . وكان هذا الانتقام — وما أشده وأقساه — على يد صديقه وصفيه وسلطانه الجديد « طومان باى » ! . فإنه لم يمض على تنصيبه فى الأتابكية ، وسكناه فى دار « أزبك » بالأزبكية ، وإفاضة أسباب الجاه عليه ، غير أيام ، حتى بطش به « طومان باى » بطشة قاسية . وكان « قصروه » قد اعتاد أن يبيت بالقلعة ، ليلة الاثنين والخميس . وفى ليلة الخميس مستهل رجب من العام نفسه — ٩٠٦ هـ — تناول طعام العشاء مع السلطان بالقلعة ، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث . وبنما كان « قصروه » آمنا مطمئنا إلى محدثه إذ كان هذا المحدث قد أعد للأمر عدته ، ودبر مكيدته ، ثم فاجأه بقوله : « إن قلبه خائف منه » . ثم أمر بعض جنوده بالقبض عليه ، فنزع من مجلسه نزعا ، وألقى به فى غيابة السجون بجوار الدهيشة ، ثم خنق بعد عدة أيام ثم دفن فى تربة الصاحب « خشقدم » الزمام قريبا من حوش العرب . وهكذا انتهت حياة

أحد أبطال الأمراء المناضلين المغامرين فى سبيل النفوذ والجاه والسلطان . وكانت قتلة «قصروه» وغدر «طومان باى» به ، من أهم الأسباب التى نفرت قلوب الناس من هذا السلطان ، فتداعى ملكه بعد قليل وانهار صرحه .

ويوصف «قصروه» بالكرم والشجاعة والعفة ، ومات فى نحو الخمسين من عمره ، وقد لاحت فيه علامات المشيب .

ولما توفى «قصروه» لم يعين مكانه فى الأتابكية أمير آخر . وأشيع أن السلطان طومان باى يرغب فى إسنادها إلى أحد خواصه المسمى الأمير قان بردى الدوادار الثانى . غير أنه اختار الأمير طراباى الشربفى رأس نوبة النوب لموالاة الأتابكية مؤقتا ريثما يعين فيها أمير بصفة نهائية . ولكن زالت دولة «طومان باى» ، وبدأت دولة الغورى فأسندت الأتابكية إلى الأمير قيت ارحبى .

«ابن إياس ج ٢ ص ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ إلى ٢٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ إلى ٣٩٠» .

٣٨ — قيت الرحبى (١)

ظلت الأتابكية شاغرة منذ وفاة الأمير «قصروه» ووكل أمرها مؤقتا إلى الأمير «طراباى» الشربفى رأس نوبة النوب . ثم انتهت على ذلك دولة السلطان «طومان باى» ابن قانصوه . وتربع السلطان «الغورى» على عرش هذه البلاد ، فاختار لأتابكيته الأمير «قيت الرحبى» ، وذلك فى عام ٩٠٦ هـ .

وقد كان الأمير «قيت» أحد الخاصكية فى عهد السلطان الأشرف «قايتباى» فمنحه هذا السلطان إمارة عشرة فى المحرم سنة ٨٩٦ هـ ، ومن ذلك الحين أخذ يدرج فى مدارج الرقى ، حتى صار واليا على القاهرة فى شهر رجب عام ٨٩٧ هـ ، فى عهد قايتباى ، وذلك عقب وفاة واليها «قيت الساقى» .

ولما ثار الأمير قانصوه خمسمائة ثورته الجامحة ضد السلطان قايتباى والأمير أقبردى الدوادار سنة ٩٠٠ هـ ، انحاز إليه الأمير «قيت» فيمن انحاز من الأمراء . فلما انهزم قانصوه قبض على كثير من عصابته ، ومن بينهم الأمير «قيت» . وولى الحكم ابنه

---

١ — فى الجزء الرابع من ابن إياس ضبط «الرجبى» بالجيم

الناصر عام ٩٠١ هـ. فأطلق سراح « قيت » هو وغيره من عصابة « قانصوه خمسمائة » ، وأنعم عليه ورقاه أميرا مقدما — وكان « قانصوه خمسمائة » فى ذلك الوقت قد صار أتابكى عصره فلا غرابة أن كان « قيت » أحد رجاله المقربين ، حتى وصل إلى هذه المرتبة . وقد انضم إليه فى ثورته ضد السلطان الناصر « محمد بن قايتباى » ، غير أن عاقبتهم فى هذه المرة أيضاً كانت الهزيمة . فاختفى « قيت » بين من اختفى ، وظل حتى عاد إلى الظهور بعد عيد النحر بقليل عام ٩٠٢ هـ ، وذلك على أثر انهزام الأمير أقبردى الدوادار فى ثورته ضد السلطان محمد بن قايتباى وخاله الأمير قانصوه . وقد عاون « قيت » فى إتمام هزيمة أقبردى ونصرة السلطان ، لذلك منحه منصب حاجب الحجاب فى المحرم سنة ٩٠٣ هـ . وفى ربيع الأول من تلك السنة بعثه السلطان مع قانصوه البرجى وقانصوه الغورى من الأمراء على رأس تجريدة إلى بلاد الشام ، لتأديب أقبردى والقبض عليه . وذلك لأنه على أثر هزيمته فر إلى الشام ، وطفق يعيث هناك فساداً . فما زالوا بأقبردى حتى أجلوه إلى حلب ، فطارده أهلها حتى فر إلى بلاد التركمان ، وعاد « قيت الرحبى » إلى مصر وقد انعقدت بينه وبين قانصوه الغورى أواصر الصداقة والمودة .

ولما تواترت الأخبار بما يقوم به عرب غزالة بالبحيرة ، من ضروب العبث والفساد ، جردت عليهم حملة كان « قيت » أحد أمرائها . وقد خفت إليهم يوم عيد الفطر عام ٩٠٤ هـ ، فى عهد السلطان قانصوه بن قانصوه ، ولكن هذه الحملة كان نصيبها الفشل والخذلان .

وفى ذى القعدة سنة ٩٠٥ هـ ، خلع السلطان الظاهر قانصوه على الأمير « قيت » نيابة طرابلس عوضا عن « بلباى » المؤيدى . غير أن نيابته هذه لم تتم ، وذلك لأن دولة الظاهر قانصوه كانت قد آلت إلى الزوال ، وثارت عليه ثائرة « طومان باى » و « جان بلاط » فاختفى . وآلت السلطنة إلى الأتابكى جان بلاط فأعيد « قيت » ، إلى منصب حاجب الحجاب بالقاهرة ، ولم يسافر إلى طرابلس .

وفى ربيع الأول عام ٩٠٦ هـ . رأى السلطان جان بلاط أن يبعث إلى بلاد الشام حملة عسكرية لتأديب الأمير قصروه نائبها الخارج عن الطاعة . وكانت الحملة بقيادة طومان باى الدوادار ، وكان « قيت » من أمرائها . وقد خرجت الحملة من مصر فى ربيع الثانى من العام نفسه ، وهى التى آل أمرها إلى أن أعلن طومان باى بنفسه ملكا ،

وزحف بجنوده أولئك على مصر ، وانتزع سلطنتها من ملكها جان بلاط . فلما تم أمر طومان باى بالشام فرق المناصب والألقاب مقدما على من عاونه من الأمراء ، ووعد كلا منهم بمنصب أولقب ، فكان نصيب «قيت» أن عين أمير سلاح عوضاً عن طومان باى نفسه . وزحف بالجميع على مصر ، فما زال «قيت» يعاونه هو وغيره ، حتى تمت السلطنة بمصر لطومان باى . فبر حينئذ بوعده ونال الأمير «قيت الرحبى» إمارة سلاح .

ثم إن السلطان طومان باى أخــذ فى معاملة أمرائه بقسوة وشدة وظلم . فقتل أتابكيه قصروه ، ثم عول على القبض على قانصوه الغورى وزميله «قيت الرحبى» . فأرسل فى طلبهما فى إحدى ليالى شهر رمضان عام ٩٠٦ هـ ، لحضور حفلة اختتام البخارى بالقلعة ، وكانا قد أحساتريب غدر السلطان بهما ؛ فلم يحضرا . فكان ذلك مثاراً لنزاع شديد بين السلطان المذكور وأمرائه ، أدى فى النهاية إلى اختفائه وأيلولة السلطنة إلى «قانصوه الغورى» . وعلى إثر سلطنته أسند منصب الأتابكية إلى زميله وصديقه «قيت الرحبى» . وكان هذا أمراً طبيعيا . فلقد كان الأمير «قيت» فى مقدمة الأمراء الذى تعصبوا لقانصوه الغورى ودعوه إلى أن يلى منصب السلطنة الرفيع هذه البلاد .

ولما تم أمر «قيت» فى الأتابكية ، أصبح صاحب الحل والعقد فى مصر وصاحب الكلمة والمشورة . وكان هناك الأمير «مصر باى» الدوادار الكبير ، وكان ذا مكانة ممتازة لدى الأشرف الغورى . فكان بذلك منافساً خطرا للأمير «قيت» . غير أن الأيام سرعان ما أفسدت علاقة الأمير «مصر باى» بالسلطان الغورى . فأدى ذلك إلى القبض عليه ثم سجنه ، ثم هربه ثم قتله بعد ذلك . وبموته خلا الميدان للأمير «قيت» . وواتته الظروف واستبد بكلمته ورأيه ، وطفق يبدو بين الناس بمظهر الأبهة والعظمة ، ولاسيما فى حفــلات فتح السد . فبدأ الناس ينفرون منه ، وخاصة حينما فرض عليهم بعض الغرائب الفادحة ، وجباها منهم بلا رحمة ولا إشفاق . حتى أقدم بعضهم على الوقوف له فى الطرقات ورجمه . ومع ذلك لم يتزعزع مركزه لدى السلطان .

وفى عام ٩٠٨ هـ أسند إليه «الغورى» إمارة ركب المحمل وجهزه بعدد من الجنود ، وأوصاه بالقضاء على فتنة «الجازانى» وأخيه الشريف «بركات» أمير مكة إذ عبثا فى العام المنصرم بركب الحجاج . وقد أبلى «قيت» بلاء حسنا فى هــذه الناحية ، ففر «الجازانى» من وجهه بعد أن غلب على أمره . ووقع أخوه «بركات» أسيرا فى يديه ،

فساقه أمامه إلى القاهرة ، ودفعه بين يدى السلطان ، ففرح بذلك ، وفرض عليه أتاوة باهظة . واستبقاه سجينا فى بيت «قيت» نفسه .

ثم إن هذا السجين مالبث أن فر من سجنه ، فكان فراره مثار شحناء طويلة بين الأمير «قيت الرحبى» وبين أحد الأمراء الكبار وهو «قرقماس بن ولى الدين» وكان حينذاك أمير سلاح . وقد اتهمه «قرقماس» بأنه هو الذى تواطأ على هربه وتسبب فيه . وقد تداخل السلطان بينهما وأصلح ما فسد من أمرهما ، ولكن من ذلك الحين تغير قلب السلطان على الأتابكى «قيت» ، وساورته نفسه بالبطش به ، حتى كان شهر رجب سنة ٩١٠ هـ ، فأمر بالقبض عليه . وكان قد اتضح له أن «قيت» تحدثه نفسه بالسلطنة ، ويهيء الظروف لبلوغها والوثوب على سلطانه ، وأنه كاتب فى هذا الشأن بعض الأمراء فعلا . — فلما سيق إلى السلطان أعلنه بما قدمت يداه ، ووبخه توبيخا جارحا ثم دفعه فى السجن وصادر أمواله وجميع مايملك . ووجد أنه يمتلك كثيرا من المال وضروبا عدة من الأسلحة ، ثم أخرج إلى الإسكندرية ليوضع فى سجنها . فأرسل مخفورا فى مركب وفى معيته أميران وخمسون مملوكا سلطانيا — ويظهر أنه لقى جزاءه عادلا . فقد كان — كما قال ابن إياس — ظالما غشوما كثير الصلف والأذى قليل الخير . فلبث فى السجن زمنا بالإسكندرية . ثم قيل إنه نقل بأمر من السلطان «الغورى» إلى سجن دمياط فى ذى القعدة عام ٩١٢ هـ — وتولى الأتابكية بعده الأمير قرقماس بن ولى الدين .

«ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٧٩ ، ٢٩٠، ٣٠٧، ٣٢٦، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٥٦، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٧٤، ٣٧٧، ٣٧٩ ، ٣٨٢، ٣٩٥ — وج ٤ حوادث السنين المذكورة — وج ٣ ص ٨٥» .

٣٩ — قرقماس بن ولى الدين ٩١٦ هـ

أصل هذا الأمير من مماليك الأشرف قايتباى ، وأعتقه وتولى مناصب هامة فى الدولة ونيابات عدة ، بعضها فى زمن قايتباى نفسه . من ذلك أنه فى شهر ربيع الآخر عام ٨٩٦ هـ أرسله السلطان المذكور إلى دمشق ووكل إليه جباية بعض الأموال وهى ضرائب الأملاك عن خمسة أشهر ، وذلك بعد أن كان قد بلغ مرتبة أمير آخور ثان . وقد بدت من «قرقماس» فى دمشق مساوئ عدة وألحق بالناس ضروبا من الظلم والأذى والقسوة حتى جبى منهم هذه الأموال .

وفى ذى الحجة سنة ٩٠١ هـ ، أنعم السلطان الناصر محمد بن قايتباى عليه بتقدمة ألف . وفى سنة ٩٠٢ هـ عين أميرا للحج . ولما قامت فتنة الأمير أقبردى الدوادار ضد السلطان الناصر وخاله الأمير قانصوه وزحف بجموعه على القاهرة وامتد القتال بين الطرفين ، انحاز «قرقماس» إلى جانب أمراء السلطان وظهر بعد اختفائه ، إذ كان من قبل قد انحاز إلى جانب الأمير قانصوه خمسمائة الذى وقعت العداوة بينه وبين أقبردى وتصدى كل منهما للآخر . وكان «قرقماس» فى نفسه حقد منذ زمن بعيد على الأمير أقبردى ، لذلك انضم إلى جانب عدوه قانصوه خمسمائة . ولكن أقبردى تغلب على قانصوه خمسمائة وهزم جموعه فانكسر واختفى . فاختفى على أثر ذلك الأمير «قرقماس» أيضا . فلما تقلبت الأحوال وظهرت عداوة أقبردى لخال السلطان الناصر وهو الأمير قانصوه ، وكان صاحب الحل والربط فى البلاد فى ذلك الحين ، ظهر «قرقماس» هو وكثير ممن اختفى من عصبة قانصوه خمسمائة وانحازوا إلى جانب قانصوه ، ومنهم تانى بك الجمالى وقيت الرحبى وقانصوه المحمودى وجان بلاط بن يشبك — الذى ملك فيما بعد — . وكان ظهور هذه الطائفة وانضمامها إلى قانصوه خال الناصر سببا فى غلبته لأقبردى وانتصارهم جميعا عليه .

وفى شوال من سنة ٩٠٣ هـ خلع السلطان الناصر على الأمير «قرقماس» ومنحه لقب رأس نوبة كبير عوضا عن جان بلاط الغورى لوفاته . وظل فى هذه المرتبة حتى انقضت دولة الناصر وملك خاله الظاهر قانصوه أبو سعيد .

وفى شوال فى يوم عيد الفطر من عام ٩٠٤ هـ ، تواترت الأخبار بثوران عرب حزالة على كاشف البحيرة ، فرأى السلطان الظاهر قانصوه أن يعززه بتجريدة من أمرائه وجنوده . فبعث على رأسها «قرقماس» وقيت الرحبى وغيرهما . وكان العرب المذكورون قد نزلوا بجهة المعيصرة بناحية طرا ، فارين من البحيرة . فلاقاهم الأمراء والجنود هناك ، ولكن العرب تغلبوا عليهم وأوقعوا بهم إيقاعا قاسيا وقتلوا عددا كبيرا من جنودهم وغلمانهم . وكان نصيب الأمير «قرقماس» أن أصيب بجرح فى وجهه . وقد حفزت السلطان هذه الكسرة على أن يرسل إليهم عددا ضخما من الجنود أوقعت بهم وشتتت شملهم وردتهم على أعقابهم .

وفى العام السالف الذكر عين «قرقماس» أميرا لركب المحمل . فخرج على رأس ركبه فى شوال وعاد فى المحرم عام ٩٠٥ هـ . وقد كان للأمير «قرقماس» يد محمودة فى

معاونة الركب الغزاوى فى التخلص من العربان الذين اعتدوا عليه بالقرب من الشرفة . ولولاه لفتكوا بهذا الركب فتكا ذريعا ، وبالركب الأول المصرى أيضاً ، وكان أميره الناصرى محمد بن خاص بك .

وبعد قليل فى خلال هذا العام عين الظاهر قانصوه الأمير « قرقماس » نائباً على حلب ، فظل فى هذا المنصب حتى دالت دولة الظاهر وتملك الأشرف جان بلاط ، - وكان إلى هذا الحين لم يسافر إلى حلب لتسلم مهام وظيفته - . حتى كان مستهل ربيع الآخرة من عام ٩٠٦ هـ ، فخرج من القاهرة إلى حلب لولاية أمرها . فلبث بها مدة حتى تمت مؤامرة الدوادار طومان باى مع نائب الشام حينئذ ، وهو الأمير قصروه ، على انتزاع السلطنة من جان بلاط . وكان طومان باى قد أرسله جان بلاط سلطان مصر إلى الشام على رأس تجريدة كبرى لقمع عصيان قصروه . فتم تواطؤهما هناك وأعلن طومان باى بنفسه سلطانا على الشام ، وزحف على مصر . هنا كان « قرقماس » نائب حلب فى جانب السلطان جان بلاط ومن عصابته ، فقبض عليه طومان باى وسجنه مع كثير من الأمراء فى قلعة دمشق . هنا افترق الصديقان وأعنى بهما « قرقماس » وقيت الرجبى ، فقد أصبح قيت من عصابة طومان باى . وربما كان لهذا التفرق أثر فيما حدث بينهما فيما بعد .

ظل « قرقماس » فى السجن حتى دالت دولة طومان بلى . ورقى إلى عرش البلاد الأشرف الغورى . فأطلق سراحه وعاد إلى مصر ، وحظى عند هذا السلطان . وصار أمير سلاح يركن إليه السلطان فى مهام كثيرة . حتى تغير قلب الغورى على أتابكية قيت الرجبى وقبض عليه عام ٩١٠ هـ وكان قد وقعت شحناء بين قيت و « قرقماس » بسبب فرار السجين بركات أخى الجازانى من أمراء مكة ، وكان مسجونا فى دار قيت . فلما تم كل ذلك خلا الجو للأمير « قرقماس » ، وأسند إليه السلطان منصب الأتابكية بعد سجن قيت . فأصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد المصرية ، وشارك السلطان فى تدبير أمور الدولة ، وناب عنه فى فتح الخليج .

وقيل إنه فى ربيع الأول سنة ٩٢٢ هـ ، طلع من الحراقة التى عند المقياس بعد حفلة وفاء النيل فنثر خازنداره على رأسه خفائف الذهب والفضة ، فتكاثر الناس عليه ليلتقطوها فخاف به الفرس ، فقلبه فى البحر فأغاثه النوتية وأنقذوه من الغرق ، وخرج

إلى الشاطىء مبلل الثياب . وقيل إن فرسه قد غرق . أما هو فأصيب فى رجله .

وكان يتفقد شئون الدولة ، فسافر مراراً إلى نواحى الشرقية والغربية والصعيد ، ومرة إلى الإسكندرية نيابة عن السلطان الغورى لمشاهدة التحصينات الجديدة بها. وظل هذا شأن « قرقماس » ، حتى وافاه أجله المحتوم فى يوم ٢٣ رمضان سنة ٩١٦ هـ . فرجت القاهرة لموته . وكانت جنازته حافلة ، سار فيها القضاة الأربعة وسائر الأمراء والمباشرون والأعيان . وبين يديه الكفارة من الخبز والتمر والغنم . وصُلى عليه فى جامع السلطان حسن . وقبّل السلطان نعشه وهو فى المصلى وبكاه بكاء كثيرا ، وحمل بنفسه نعشه ومشى به خطوات تكريماً له ، ثم تلقفه منه الأمراء ، ودفن فى تربته بالصحراء بجوار تربة الأشرف إينال . قيل : وكان لين الجانب كثير التواضع . أمضى فى الأتابكية ست سنين وشهرين إلا سبعة أيام . وترك أربعة أبناء ، ونحوا من سبعين ألف دينار سوى الحلى والعبيد . وظلت الأتابكية شاغرة من بعده نحوا من أربعة شهور ، ثم عين فيها الأمير دولات باى .

« ابن إياس جـ ٢ ص ٢٦٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٤، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ — و ج ٤ فى التواريخ المذكورة بالترجمة »

٤٠ — دولات باى بن أركماس الساقى ٩١٧ هـ

هو ثالث الأتابكية فى عهد الغورى ، وقد عين فى هذا المنصب بعد وفاة الأتابكى قرقماس بن ولى الدين بنحو أربعة شهور ، ظلت فيها الأتابكية خالية من شاغلها . وكان تعيينه فى أوائل عام ٩١٧ هـ لكنه لم يعش بعد ذلك سوى خمسة عشر يوما ، ثم توفى فى ٢٥ صفر من العام المذكور .

ويتلخص تاريخ حياته فى أنه كان من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق وطفق يتقلب فى الوظائف حتى كانت ٩٠٢ هـ فى أوائل عهد الناصر محمد بن قايتباى . فعين فى شهر المحرم نائبا على ألبيرة ، فخرج إليها بعد زمن يسير . ثم نقل منها إلى نيابة حلب . وفى عهد الأشرف جان بلاط ، أظهر قصروه نائب الشام عصيانه ، فرشح السلطان المذكور الأمير « دولات باى » نائب حلب ليتولى نيابة الشام بدلا من قصروه .

ولكن قصروه كان قد انضم إليه أو أنه انضم إلى طومان باى الدوادار الذى أرسله السلطان جان بلاط لتأديبه بالشام ، فأعلن بنفسه سلطانا على البلاد الشامية وانحاز إليه

قاصروه وكذلك الأمير «دولات باى» نائب ، حلب ، وزحف معهم إلى مصر ، ونزل فى جامـــع شيخو . ولما اعتلى طومان باى عرش البلاد واستتب له الأمر أسند إلى «دولات باى» نيابة الشام وذلك سنة ٩٠٥ هـ فى شهر رجب .

ولما صارت السلطنة إلى الأشرف الغورى عاد «دولات باى» إلى مصر ومنح لقب أمير سلاح . وثار المماليك الجلبان مرة وهموا بأن يعلنوا به سلطانا على البلاد بدلا من الغورى ، ولـكنه تحيل فى التخلص منهم وفر بنفسه إلى السلطان . ثم عين فى الأتابكية بعد وفاة قرقماس كما ذكرنا ، فى ١٠ صفر سنة ٩١٧ هـ ، فلبث فيهما خمسة عشر يوم ، ثم توفى ، فكانت جنازته حافلة وصلى السلطان عليه ، ودفن فى تربة العادل طومان باى . قيل: وكان أميراً جليلا جميل الصورة أبيض اللون مستدير اللحية أسود الشعر . مات وله من العمر أربعون عاماً ، فـكثر حزن الناس عليه ، وكان لين الجانب قليل الأذى . — وتولى الأتابكية من بعده الأمير سودون العجمى .

« ابن إياس جـ ٢ ص ٣٠٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، إلى ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢ — وجـ ٤ فى ترجمة الغورى وفى التواريخ المبينة فى الترجمة » .

٤١ — سودون العجمى ٩٢٢ هـ

من الأجلاء الذين ولوا هذا المنصب الجليل فى الديار المصرية ، ولاقى خاتمته وزالت حياته بزوال الدولة : أعنى دولة المماليك .

ويعرف هـذا الأمير بسودون بن جانى بك ويشتهر بالعجمى . وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق وتقلب فى مناصب عدة حتى بلغ من مناصب الدولة أعلاها ، واشترك فى أهم الحوادث العامة المصرية التى تتعلق بسياسة الدولة . ونشير هنـــا إلى بعض ما ذكرنا ، فنقول :

إن قايتباى عينه فى استدارية الصحبة فى ربيع الثانى سنة ٩٠١ هـ .

ولمـا ثارت ثائرة الأمير أقبردى الدوادار فى عهد السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، عام ٩٠٢ هـ ضد خاله قانصوه . انضم الأمير «سودون العجمى» إلى فريق السلطان وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن القلعة هو وجماعة من الأمراء ، حتى ارتد عنها أقبردى وأصابته الهزيمة . وفى عام ٩٠٤ هـ أرسل فى عداد حملة تأديبية للقضاء على أقبردى أيضا ، الذى ثار ببلاد الشام وعبث بها ، وكان على رأس الحملة تانى بك الجمالى .

ولما كان ٩٠٥ هـ وكان شهر ربيع الأول ، عينه السلطان جان بلاط أميراً للحج بركب المحمل فى ذلك العام . ولما عاد كان من حزب جان بلاط ضد طومان باى الذى ملك بلاد الشام . لذلك منحه السلطان جان بلاط منصب رأس نوبة كبرى عوضا عن قانصوه الغورى الذى أعلن عصيانه وانضم إلى طومان باى . غير أن دولة جان بلاط سرعان ماولت ، وأعقبتها دولة طومان باى ، فلم يكن للأمير « سودون » فيها من الأمر شيء . وأغلب الظن أنه سجن فى ذلك العهد . وقد أعطيت إمارته ، وهى رأس نوبة كبرى للأمير طراباى الشريفى الذى وكل إليه التكلم فى أمور الأتابكية ، وقتا حينما قتل السلطان طومان باى أتابكيه قصروه عام ٩٠٥ هـ . وفى دولة الغورى كان الأمير « سودون » أحد الأمراء العظماء الذين يستند إليهم السلطان فى تدبير شئون الدولة . وظل كذلك حتى توفى الأتابكى فى صفر عام ٩١٧ هـ . فرأى السلطان الغورى أن يسند هذا المنصب إلى الأمير « سودون العجمى » فتم ذلك فى ٢٧ ربيع الأول عام ٩١٧ هـ . وصار يد السلطان فى كل شيء ونائباً عنه فى أمور كثيرة ، ومصاحبا له فى تنقلاته وأعماله . ومن ذلك توجهه معه إلى الجيزة ومنها إلى الفيوم فى شهر صفر عام ٩٢٢ هـ لتفقد أحوالها . وسافر فى صحبته أيضا إلى البلاد الشامية والحلبية فى يوم السبت منتصف ربيع الثانى من نفس العام . وقد خرجا معا وعسكرا فى الريدانية فى جيش كثيف جدا للقاء العثمانيين الزاحفين على بلاد السلطان وممتلكات مصر . وهو اللقاء الذى كان فيه الطامة عليهما معا ، وعلى البلاد جميعا وانتهى بدخول العثمانيين هذه البلاد . وكان خروج الأمير « سودون » هو وأتباعه من الريدانية فى يوم الجمعة ٢١ من ربيع الثانى المذكور .

ولما التقى الجمعان فى « مرج دابق » فى شهر رجب من العام نفسه ، قيل إن الأمير « سودون العجمى » الأتابكى كان أول من برز للقتال ، وعاونه نائب الشام الأمير سيباى ومعهم المماليك القرانصة ، فهزموا جنود العثمانيين هزيمة منكرة ، وأسروا منهم كثيرا من الأسرى وغنموا منهم غنائم لا تحصى . ولولا دبيب الخلاف بين فرق هذا الجيش العظيم وظهور الخيانة فى بعض أمرائه ، لانتصر الغورى وجنوده وأمراؤه ، ولكان لمصر شأن غير هذا الشأن . وقد كانت النتيجة الأولى لهذا التخاذل الشنيع والفرقة التى وقعت بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان أن قتل الأتابكى الشجاع الأمير « سودون العجمى » عند أول كرة جديدة للعثمانيين على عسكر مصر . وكذلك قتل سيباى ، فكان

قتلهما نذير سوء للجيش المصرى ، إذ توالت عليه الهزائم حتى سحق وقتل سلطانه .

فى ميدان الدفاع عن مصر وعن حريتها وممتلكاتها قتل الأمير « سودون » بجانب سلطانه . ولما بلغ خبره مصر ، حزن عليه الناس واشتد عليه عويل ذويه . وهكذا قضى عليه بعد أن شغل مناصب عدة ومنح ألقاباً مختلفة . منها : أمير مجلس وأمير سلاح . وقام بالأتابكية نحو خمس سنوات ، وأظهر ضروبا من القدرة والسياسة والشجاعة . قيل : وكان أميرا دينا خيرا ابن الجانب .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٩٣ ، ٣٢٥ ، ٣٥٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٩٠ — وفى ج ٤ فى سياق ترجمة الغورى وفى التواريخ التى أوردناها — وفى ج ٣ ص ٢ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ » .

٤٢ — سودون الشهابى الدوادار ٩٢٣ ﻫ

عينه السلطان طومان باى الأشرف أتابكياً على الديار المصرية بعد مقتل سودون العجمى فى مرج دابق . وذلك عام ٩٢٢ ﻫ فى يوم الخميس ٢٠ رمضان بعد سلطنته مباشرة . وكان « سودون » هذا أمير ومقدما ، ورأس نوبة النوب فى عهد الغورى . وقد خرج معه فى عداد أمرائه إلى قتال العثمانيين بحلب ، فلما تمت الهزيمـــة فى مرج دابق ، عاد « سودون » فى جملة العائدين من الأمراء ، وكان قد طمع فى أن يكون سلطانا . ولكنه لما وصل إلى القاهرة وجد أن طومان باى قد اعتلى السلطنة ، فتألم لذلك ، ولكنه ما عتم أن وَلى له الأتابكية . وقاتل معه العثمانيين وسلطانهم « سليما » بالريدانية ، وجرح إذ ذاك جرحا بالغا ، وقيل انكسر فخذه ، فاختفى فى بعض الحقول . وقد قبض عليه بعض العربان — إثر الهزيمة — وأتى به بين يدى السلطان سليم فوجده قد جرح وكسر فخذه وكاد يموت ، فوبخه ، وأمر فطيف به على ظهر حمار فمات على ظهره ، وذلك فى أول المحرم عام ٩٢٣ ﻫ . وهو آخر أتابكية مصر .

« ابن إياس ج ٥ ص ٣٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٥ » .

أفذاذ من رجال العصر[1]

تحدثنا فيما سلف عن النيابة والأتابكية ، وهما أهم مناصب الدولة التى يليها رجال السيف — عدا السلطنة — وترجمنا لعدد من رجالها . وكنا نود أن نتتبع كل منصب سواهما ونذكر تقلبات الحوادث به ، ونترجم لعدد من رجاله — عن لم يبلغوا النيابة ولا الأتابكية — ولكن هذا ضرب من البحث عسير ، وبخاصة لتقلب الرجال فى شتى المناصب ، وعدم قصر الرجل على منصب وحده . لذلك آثرنا أن نترجم لعدد من هؤلاء الرجال ، تحت العنوان المتقدم ، مرتبين حسب عصور ظهورهم ووفياتهم ، جهد الطاقة . ونتبعهم بحديث عن الوزارة وتراجم للوزراء .

١ — سيف الدين طغجى الأشرفى ٦٩٨ ﻫ

كان من مماليك الأشرف خليل ، وارتقى فى سلم الإمارة ، حتى أصبح فى عداد البارزين . فلما قتل أستاذه الأشرف ، قاد «طغجى» مماليكه الأشرفية وانتقم له ، وقتل قاتله بيدرا وظل «طغجى» حتى كان عهد السلطان لاجين : فحج عام ٦٩٧ ﻫ ، وكان نائب السلطنة حينذاك الأمير منكوتمر ، لا يستريح إلى تصرفاته ، فأخرجه إلى طرابلس نائبا ، فسخط «طغجى» واستعفى من هذا المنصب ، ولم يسافر ، فأبى منكوتمر . وكان يضمر فى نفسه القبض على «كرجى» أخى «طغجى» فدب الشر بين الفريقين . ودبر «طغجى» وأخوه مؤامرة لاغتيال السلطان لاجين . فقُتل . وقُتل بعده منكوتمر . وأمل «طغجى» فى أن يقفز إلى السلطنة ، ويقر أخاه فى نيابتها . وكاد يتم ذلك ، لولا أن الأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح ، كان قد خرج فى غزاة ، فتريثوا حتى يحضر ، فلما حضر لقيه «طغجى» بعد لأى . وأسفر اللقاء عن قتل «طغجى» وذلك عام ٦٩٨ ﻫ ، بعد أيام من مقتل لاجين .

« خطط ج ٤ ص ٢٤٦ — سلوك ج ١ »

---

١ — فى الدرر لابن حجر ، والضوء للسخاوى ، وغيرها من كتب التراجم ، وفى ثنايا بدائع ابن إياس ، وسلوك المقريزى وخططه ، كثيرون من هؤلاء الأفذاذ ، فليرجع إليها من شاء التوسع . ويلاحظ أن بعضهم لم يكن فى أصل منشئه من المماليك .

٢ — علاء الدين طيبرس الخازندارى ٧١٩ هـ

هو ابن عبد الله الوزيرى. كان مملوكا للأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة. ثم ملكه بيدرا . ثم أعتق بعد مدة ، وترقى . وحظى عند السلطان لاجين قبل سلطنته. فلما تقلدها . ولى « طيبرس » نقابة الجيوش بمصر عام ٦٩٧ هـ ، فحسنت سيرته فيها ، وحمدت إدارته . وبنى جامعا وخانقاه ومدرسة بجوار الأزهر ، ورتب فيها درسا للشافعية . وتمت عمارتها فى سنة ٧٠٩ هـ . وأوقف عليها . ومات فى عام ٧١٩ هـ ، ودفن بمدرسته بجوار الأزهر .

« خطط ج ٤ ص ٢٢٤ — الدرر ج ٢ رقم ٢٠٥٤ » .

٣ — آقوش الأفرم الجركسى ٧٢٠ هـ

أصله من مماليك قلاوون ، ثم كان نائبا للشام فى عصر محمد بن قلاوون . وثبت فى منصبه فى عهد المظفر بيبرس عام ٧٠٩ هـ ثم خلع لما عاد الناصر ، وأناب مكانه الأمير كراى المنصورى . فلما استبد كراى ، عزله وأعاد « آقوش » . ولم يلبث أن خلعه ثانيا عام ٧١٢ هـ ، وأحل محله الأمير تنكز الحسامى ، وحاول الناصر محمد أن يقبض عليه ، ففر إلى خربندا ملك التتار وأقام بهمدان حتى مات عام ٧٢٠هـ ، وكان فارسا بطلا عاقلا جوادا خيرا محبا للعلماء .

« ابن إياس ج ١ ص ١٥٢ ، ١٥٧ — الدرر ج ١ رقم ١٠٢٤ » .

٤ — عز الدين إيدمر الخطيرى (١) ٧٣٧ هـ

كان مملوكا للأمير شرف الدين أوحد بن الخطيرى . ثم انتقل ملكه إلى الناصر ابن قلاوون . فرقاه حتى أصبح من أمراء الألوف — مقدم ألف — وعظم أمره ، وقربه الناصر إليه ، حتى كان يبيت معه بالقلعة . وكان كثير الفخر مزواجا كريما . مات فى مستهل رجب عام ٧٣٧هـ ، ودفن بتربته خارج باب النصر . ومن آثاره جامعه ببولاق ، الذى بناه عام ٧٣٧ هـ كذلك ، وجمله ورتب به درسا للشافعية ، وزوده بخزانة كتب جليلة . ووقف عليه أوقافا .

« خطط ج ٤ ص ١١١ — الدرر ج ١ رقم ١١٢٦ » .

---

(١) ذكر الخطيرى ، فى الخطط بالخاء والطاء . وفى الدرر بالحاء والظاء .

٥ — بدر الدين التركمانى ٧٣٨ هـ

وهو الأمير محمد بن فخر الدين عيسى التركمانى . ولاه الناصر بن قلاوون شادا للدواوين . وكانت الدولة حينذاك بغير وزير ، فاستقل بتدبيرها أعواما . ثم نفر منه ناظر الدولة كريم الدين الصغير ، فدبر الأمر لدى الناصر ، حتى أخرجه إلى طرابلس شادا للدواوين أيضا . ثم عاد إلى القاهرة بعد سنتين . فولى كشف الوجه البحرى ، ثم منح أمير طبلخاناه . ومازال حتى مات عام ٧٣٨ هـ . وله جامع فى المقس .

« خطط ج ٤ ص ١١٣ – الدرر ج ٤ رقم ٣٤٦ » .

٦ — سيف الدين تنكز الحسامى ٧٤٠ هـ

جلبه إلى مصر الخواجا علاء الدين السيواسى ، فاشتراه الأمير حسام الدين لاجين . ثم صار من خاصكية الناصر بن قلاوون . وظهر نجمه فى سلطنته الثالثة . وقد أسند إليه هذا السلطان نيابة الشام عام ٧١٢ هـ عوضا عن الأمير آقوش الأفرم . وقيل إن السلطان حينئذ جعل نيابة الشام أرقى وأسمى من نيابة حلب . وقد كان العكس قبل ذلك . وظل « تنكز » زمنا طويلا فى هذه النيابة .

وفى سنة ٧١٥ هـ وردت إلى مصر أخبار حملة أعدها « تنكز » وسار بها إلى ملطية فحاصر أهلها ومن بها من الأرمن حتى طلبوا منه الأمان ، وسلمت إليه فى ٢٢ محرم من تلك السنة .

وفى سنة ٧٣٤ هـ وفد الأمير « تنكز » من بلاد الشام على مصر ، وزار السلطان كعادته فى كل عام ، إذ كان يزوره فى كل عام مرة ومعه نفائس الهدايا ، فلما جاء فى العام المذكور ، أنزله السلطان فى الميدان الكبير عند البركة الناصرية إذ ذاك ، وبالغ فى إكرامه وتعظيمه . وكان هذا آخر لقاء بينهما . وبعد أن أقام مكرما عدة أيام بارح القاهرة إلى الشام مزودا بالخلع القيمة من السلطان الناصر محمد ، ونزل من القلعة فى موكب حافل . وبلغ بذلك أوج عزه .

وكان سبب عزه هذا رضا السلطان الناصر محمد عنه ، إذ كان تنكز من مماليكه – كما ذكرنا – فجعله خاصكيا ثم أمير عشرة ثم أمير طبلخاناه ثم مقدم ألف ، وهكذا رقاه حتى عينه فى نيابة الشام ، فظل فيها نحو ٢٨ سنة ، حتى عظمت مهابته وزاد ثراؤه

وزاول منصبه بحنكة وقدرة وعدالة . وربما كان هذا هو السبب الذى أثار حقد الأمراء عليه . فسعى بعضهم بالنميمة بينه وبين السلطان الناصر ، فتغير عليه قلبه ، فأمر باستقدامه سنة ٧٤٠ هـ . وبعث إليه الرسل تلو الرسل ، فكان من سوء حظه أن عصا الأوامر ورفض المجىء توا ، وأبطأ ، حتى اضطر السلطان إلى أن يسوق عليه تجريدة ، ويسيرها إلى بلاد الشام . فقبضت عليه ، وقيد . وذلك فى ذى الحجة من السنة المذكورة . وحملت نفائسه وأمواله ، وكانت كثيرة بينها الذهب والفضة والياقوت واللؤلؤ والحلى الثمينة ، حملت هذه كلها إلى خزائن السلطان . وصادر السلطان ممتلكاته ، وقيل : إنه كان يمتلك من الضياع بمصر والشام ما دخله مائة ألف دينار كل عام . ثم سجن بثغر الإسكندرية ، فظل به مقيداً أربعين يوما . ثم أمر السلطان بخنقه . ثم نقل إلى دمشق ودفن فى مدرسته التى أنشأها بها ، وتم نقله فى أواخر سنة ٧٤٠ هـ . — وقيل فى فوات الوفيات إنه نقل عام ٧٤٤ هـ — وفى ذلك يقول صلاح الدين الصفدى :

فى نقل تنكز سر أراده الله ربه
أتى به نحو أرض يحبها وتحبه

مما يذكر أنه جد الملك الصالح صلاح الدين حفيد قلاوون — لأمه خوند قطلوملك .
« ابن إياس ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، إلى ١٧٣ ، ١٩٤ — الدرر ج ١ رقم ١٤٢٤ — فوات الوفيات ج ١ ص ١١٧ » .

٧ — علاء الدين أقبغا الناصرى ٧٤٤ هـ

يعرف « بأقبغا (١) عبد الواحد » ، كان استادار للناصر محمد بن قلاوون . وهو من مشترياته ، رقاه شادا للعمائر ، ثم استدارا فى عام ٧٣٢ هـ ، فعظم جاهه واتسعت دائرة نفوذه ، وكان مثالا للنشاط . فلما مات الناصر ، قبض عليه ابنه المنصور عام ٧٤٢ هـ وصادر أمواله وممتلكاته . وكانت له ثروة ضخمة . وادعى بعضهم عليه بمال لدى السلطان ، فهدد إن لم يفهم حقهم ، فوفى لهم . وكان الملك المنصور يحقد على « أقبغا » قبل سلطنته لأنه رد شفاعته مرة ، إلا أن مدبر دولته الأمير قوصون كانت له عناية « بأقبغا » . فخفف عنه بعض ما أراده له السلطان من تعذيب . فلما زالت دولة المنصور وقام فى الملك

---

١ — قال فى الدرر: اسمه أقبغا بن عبد الواحد .

أخوه الأشرف كجك ، وكان قوصون صاحب الأمر فى دولته . أطلق سراح «أقبعا» ، وجعله فى عداد أمراء الشام . فاتهم بعد حين بانضمامه إلى الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد ، لما قام بفتنته بالكرك — وهو منفى بها — ضد أخيه السلطان علاء الدين إسماعيل بن الناصر محمد . فقبض على «أقبعا» وحمل من دمشق إلى الإسكندرية وقتل بها عام ٧٤٤هـ. وكان به ظلم وطمع وكبر . وأنشأ مدرسته الأقبعاوية بجوار الأزهر .

« خطط ج ٤ ص ٢٢٥ الدرر ج ١ رقم ١٠٠١ » .

٨ — علم الدين سنجر الجاولى ٧٤٥ هـ

هو سنجر بن عبد الله ، كان مملوكا للأمير جاولى (١) ، أيام الظاهر بيبرس . وانتقل ملكه إلى بيت قلاوون ، وأخذ طريقه إلى التقدم ، حتى حسن اتصاله بالناصر بن قلاوون ، فجعله نائبا لغزة عام ٧١١ هـ ، ووسع اختصاصه . ثم وقع بينه وبين الأمير تنكز نائب الشام نزاع بسبب دار ، فشكاه إلى الناصر ، فقبض عليه عام ٧٢٠ هـ . وظل معتقلا نحو ثمانى سنوات ، ثم أفرج عنه . ثم أرسله السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد ، نائبا على حماة ، ثم نقل إلى غزة بعد قليل ، ثم عاد القاهرة وولى نظر المارستان ، ثم خرج نائباً على طرابلس ، وكان فى جملة المبعوثين لإطفاء فتنة السلطان أحمد بن الناصر المنفى بالكرك . ومات بمصر فى ٩ رمضان سنة ٧٤٥ هـ ، ودفن بمدرسته التى أنشأها بجوار الكبش عام ٧٢٣ هـ . وكان على معرفة بمذهب الشافعى ، وروى وصنف وأفتى أخيراً وشرح مسند الشافعى . وكان ذا خبرة بأمور السياسة والملك .

« خطط ٤ ص ٢٤٧ — الدرر ج ٢ رقم ١٨٧٧ »

٩ — علاء الدين بن زنبور (٢) ٧٥٤ هـ

هو الصاحب علاء الدين ، واسمه عبد الله بن تاج الدين أحمد بن إبراهيم . ويشتهر بابن زنبور . وهو ممن تقلبوا فى مناصب الدولة . وكان قد عظم أمره ، ونمت أمواله نموا عظيما ، وزادت مقتنياته زيادة واسعة ، واجتمع له من الوظائف مالم يجتمع لغيره ، فكان وزيراً وناظر الجيوش . وناظر الخواص . فقوى بأسه ، وزها بنفسه على الناس . وقد غضب عليه السلطان الصالح صلاح الدين عام ٧٥٣ هـ ، بعد ما بلغ منزلة وجاها

١ — قال فى الدرر : اسم جاول — بلاء ياء

٢ — ذكر فى الخطط وفى الدرر أنه : علم الدين

ءاليين . وبطش به بطشـــة كبرى . وصادر ممتلكاته ، ونفاه إلى قوص . فلبث بها حتى مات ، وبها دفن ، فى ١٧ من ذى القعدة عام ٧٥٤ هـ . وقيل فى الدرر عام ٧٥٥ هـ .

وقد أحصيت أمواله ومقتنياته ، ففاقت العد والحصر . وكان لديه من كل غال ونفيس ، حتى قيل : إنة أربى على ماكان عند الخلفاء من ذلك . نذكر على سبيل المثال : آلافا من قطع الأقمشة الصوفية والحريرية ، وستين قنطارا من الأوانى الذهبية والفضية ، وقنطارين من صناديق الياقوت والماس وحبات اللؤلؤ ، وستمائة ألف دينار من الذهب ، وثلاثين أردبا من الفضة ، وآلافا من الخيول والبغال والجمال ، ومئات من العبيد والمماليك جوارى وغلمانا . وبضائع مخزونة تقدر بأربعمائة ألف دينار . وستمائة مركب ، ومائتى بستان وحقل ، وألفا وأربعمائة ساقية ، وآلافا من رءوس الضأن والأبقار . وأربع نسوة ، ومائتى سرية . وكان له لدى الناس شيء كثير .

نقول : إن كان يبدو شيء من المبالغة فيما ذكر ، فهو يدل — على كل حال — على ماكان لدى هذا الرجل من ضروب المال . ويشعرنا بأن طرق جمعها والاستحواذ عليها لم تكن طرقا طبيعية .

«ابن إياس ج ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ - فوات الوفيات ج ٢ خطط ج ٣ - الدرر ج ٢ رقم ٢١٠٢» .

١٠ — سيف الدين صرغتمش الناصرى ٧٦١ هـ

جلب هذا الأمير رقيقا إلى مصر سنة ٧٣٧هـ ، فاشتراه الناصر بن قلاوون . وقد برز فى عهد الصالح صلاح الدين ، ثم فى عهد أخيه الناصر حسن . وقد سافر فى عداد الأمراء الذين صحبوا الصالح المذكور إلى البلاد الشامية لقتال الأمير بيبغا أروس ، سنة ٧٥٣ هـ . فتغلبوا عليه وعادوا لمصر .

وفى عام ٧٥٤ هـ ثارت قبائل عربية كثيرة ببلاد الصعيد ، والتفوا حول شيخ قبيلة عرك ، واسمه الأحدب ، وألحقوا بتلك البلاد خسائر كثيرة . فخرج الصالح ليقاتلهم بنفسه ومعه جمع من أمرائه وجنده ، كان فى مقدمتهم الأمير «صرغتمش» فأوقعوا بهم ، وأثخنوا فيهم .

ولما دالت دولة الصالح ، وعاد الناصر حسن إلى عرشه سنة ٧٥٥هـ ، ظل «صرغتمش»-

صاحب الحل والعقد فى البلاد ، مع الأتابكى شيخو ، وإن كانت رتبته رأس نوبة النوب. غير أن ذلك لم يطل ، فقد قتل شيخو سنة ٧٥٨ ﻫ ، وانفرد «صرغتمش» بالأمر ، وأصبح مرجع السلطان فى كل شىء ، وكانت بينه وبين الأمير « طاز » — نائب حلب إذ ذاك — عداوة . فانتهز الفرصة وأمر بالقبض عليه دون علم السلطان ، وسجنه بالإسكندرية . وأخذ يستبد بشئون الدولة ، ويولى ويعزل من يشاء ، فثقل أمره على على السلطان سنة ٧٦١ ﻫ وخشى منه . وأشار عليه بعض الأمراء بأن يبادر بالقبض عليه قبل أن يدبر للسلطان أمراً . فقبض عليه فى رمضان من العام المذكور ، وهو فى موكبه بالإيوان . فاهتاج مماليكه — وكانوا نحو ثمانمائة — فتقلدوا أسلحتهم واستعدوا للقتال فى الرميلة . فوثبت عليهم الجنود السلطانية ، فكسروا شوكتهم ، فتفرقوا ولم تقم قائمة . وانتهز كثير من العامة هذه الفرصة ، وهجموا على بيوت « صرغتمش » ومنازل أتباعه ، فنهبوا ما فيها.

وقيد «صرغتمش» وأرسل إلى سجن الإسكندرية ، فأقام نحوا من ثلاثة شهور ثم خنق . وقد كان مليح الصورة يقرأ القرآن ، ويشارك فى الفقه . غير أنه كانت به شراسة، وقد اقتنى مالا كثيرا . وقيل كان موته سنة ٧٥٩ ﻫ .

ومما يذكر أنه جد المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ، لأمه خوند سعادات .

« ابن إياس ج ١ من ص ١٩٦ إلى ٢٠٨ — وج ٢ ص ١٠ — خطط ج ٤ ص ٢٥٧ — الدرر ج ٢ رقم ١٩٧٨ »

١١ — طاز الدوادار ٧٦٣ ﻫ

أحد الأمراء البارزين . وكان أحد الستة الذين كان بيدهم أمر الدولة فى عهد المظفر حاجى . ثم اتسع جاهه وعلا نجمه فى عهد السلطنة الأولى للناصر حسن . وممن أثاروا الفتنة عليه سنة ٧٥٢ ﻫ ، وتزعم المؤامرة ضده لخلعه . فجمع عدداً من الأمراء والجنود فى ١٧ جمادى الآخرة فى السنة المذكورة ، وقبضوا على السلطان حسن وسجنوه بالقلعة ، وأقاموا أخاه الملك الصالح سلطانا على البلاد . بذلك أصبح الأمير « طاز » صاحب الحل والعقد ، يدبر شئون البلاد كما يشاء ، يأمر الملك فيطيع . فكان ذلك من العوامل التى أحقدت نفوس الأمراء عليه ، وغيرت قلوبهم . فوقعت المشاحنات واحتدم القتال بين الفريقين . فاستطاع الأمير « طاز » والسلطان الصالح أن يشتتا شمل أعدائهما

وأن يقبضا على زعمائهم ويدعاهم السجن . غير أن الأمير «طاز» لم يبلغ مرتبة الأتابكية ولا نيابة السلطنة على الرغم من تضخم نفوذه . ثم جدله أمر جديد ، وهو تضخم نفوذ أميرين من كبار الأمراء هما : شيخوا العمرى وصرغتمش الناصرى . فكان ذلك مشارا لخوفه ؛ بل لمحنته فيما بعد ، على يد صرغتمش . وكان الأمير شيخو يعرف ما فى نفس صرغتمش ضد الأمير «طاز» ، ويعرف أنه يحاول البطش به ، فكان يقعده ويرجعه عن بلوغ غايته . — وقد انتهز هذان الأميران الفرصة حينما توجه الأمير «طاز» إلى بلاد البحيرة للصيد ، وقبضا هما وأتباعهما على السلطان الصالح ، وأودعاه السجن وخلعاه ، وقررا عودة السلطان الناصر حسن المخلوع ، وذلك عام ٧٥٥ هـ . ولما تم لهم ما أرادوا ، وعاد الأمير «طاز» من رياضته ، قبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه إلى السجن . فأقام فيه أياما حتى شفع فيه بعض الأمراء ، فأطلق سبيله . وعينه السلطان حسن نائبا لحلب . فظل فى هذا المنصب حتى توفى الأتابكى شيخو . وخلا جو البلاد للأمير صرغتمش . فانتهز الفرصة وأمر بالقبض على الأمير «طاز» نائب حلب من غير علم السلطان ، وذلك عام ٧٥٩ هـ . فأرسل إلى مصر وسجن بثغر الإسكندرية . فلبث زمنا ثم أطلق سراحه . ومات بدمشق عام ٧٦٣ هـ ، وهو منفى . وكان شجاعا محبا للعلماء .

«ابن إياس جـ١ ص١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠١ إلى ٢٠٣ ، ٢٠٥ - الدرر جـ٢ رقم١٩٩٨ - خطط جـ٣»

١٢ — أزدمر العمرى ٧٧١ هـ

هو الأمير أزدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار وأبى ذقن ، جد والد المؤرخ ابن إياس المصرى صاحب بدائع الزهور . كان أمير سلاح فى بدء عهد سلطنة الأشرف زين الدين شعبان حفيد الناصر محمد . ثم إن هذا السلطان نقله نائبا لطرابلس فى أول حكمه سنة ٧٦٤ هـ . وفى عام ٧٧٠ هـ كان مقيما بمصر . وكان بينه وبين مماليك يلبغا عداء ، فأرغموا الأتابكى استدمر على القبض عليه ، فسجنه حتى رسم بالإفراج عنه فى أوائل عام ٧٧١ هـ . وولاه السلطان نيابة الشام عوضا عن الأمير على الماردينى ، فلما وصل فى سفره نحو الشام إلى العريش ، مرض هناك وعاد إلى القاهرة . فلبث مدة مريضا ثم توفى . ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من زاوية الشيخ أبى العباس البصير رضى الله عنه . وكان الأمير أزدمر جليلا دينا خيرا له بر معروف وآثار . أنشأ سبيلا بطرابلس

وخانا بحلب وأوقف على الحرمين . وتولى أربع نيابات هى : حلب وطرابلس والشام وصفد .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ »

١٣ — بيدمر الخوارزمى

وهو نائب الشام فى عهد السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان وأتابكيه برقوق . وفى سنة ٧٨١ هـ شق عصا الطاعة بدمشق ، وخرج على السلطان فقبض عليه جندها ، وسير إلى القاهرة . فسجن فى دمياط . فظل بها ، حتى ملك السلطان الصالح أمير حاج ، فرسم بالإفراج عنه عام ٧٨٣ هـ ، وأعاده إلى نيابة الشام . فظل بها مرعى الجانب حتى كانت سنة ٧٨٦ هـ ، وكانت السلطنة قد آلت إلى برقوق . فحضر الأمير والمقر السيفى « بيدمر » الخوارزمى ليزور السلطان برقوق وقدم إليه هدايا نفيسه ، فأكرمه السلطان وأعلى مكانته وقدمه على نائب سلطنته سودون الفخرى . وأقام زمنا فى القاهرة ثم عاد إلى الشام .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ — الدرر ج ١ رقم ١٣٩٣ »

١٤ — جمال الدين محمود الأستادار ٧٩٩ هـ

أحد عظماء الأمراء المصريين الذين شهدوا ضروبا من نعيم الحياة وترفها . واقتنوا النفيس من متاعها ، وأحاطوا أنفسهم بصنوف من الملاذ ، قيل : كانت عادة رؤساء مصر اقتناء الجوارى المغنيات ، يغنين لهم ليلا فى وقت مرح وسرور . وآخر من فعل ذلك منهم الأمير جمال الدين محمود الأستادار .

ويعرف هذا الأمير بابن على الظاهرى . وقد عينه فى الأستادارية السلطان برقوق العثمانى فى يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول عام ٧٩٢ هـ . وقد جعله أستادار العالية ، وناظر الخواص الشريفة ومشيرا للدولة ، فزادت عظمته ونفذت كلمته ، وهيبت سطوته . وكان له ولد هو الناصرى محمد ، وقد عينه السلطان برقوق نائبا لثغر الإسكندرية فى عام ٧٩٤ هـ .

ويظهر أن هذه المكانة التى نالها الأمير جمال الدين أحقدت بعض المماليك عليه . ولعله أيضا كان يسير فى عمله على غير رغبتهم ، ولاسيما مماليك الطباق بالقلعة . ولهذا

انتهزوا فرصة نزوله من القلعة فى يوم الاثنين ١١ جمادى الأولى عام ٧٩٤ هـ بعد تأدية خدمته للسلطان ، ورجموه ، فهرب منهم فسحبوه إلى الرميلة ، وآذوه هناك إيذاء شديدا هو وبعض الموظفين ، فتدخل فى الأمر الأمير إيتمش البجاسى بمماليكه واستنقذهم منهم. وبعد مدة اصطلح الطرفان .

وما زال الأمير محمود فى عز وترف وثراء ، حتى غضب عليه السلطان برقوق لبعض هفواته - ولعله رغب من وراء ذلك أن يستولى على مقتنياته من مال وجوهر وجوار . وكان هذا الغضب سنة ٧٩٨ هـ . وفى يوم السبت ٦ صفر من هـذا العام أرسل إليه طواشيا يدعى شاهين الحسنى الجدار ، فجمع ابنه محمدا ونساءه وسراريه وسجنهم . وهم بالقبض على الأمير جمال الدين محمود نفسه ، ولكنه اختفى . فكان ذلك آخر عهده بالأستادارية ، إذ عين السلطان فيها الأمير قطلوبك العلائى . - وبعد زمن وجيز أخذ السلطان فى تفتيش ما يملك الأمير جمال الدين ، والبحث عما يقتنى ، ويجمع كل ما يعثر عليه من نفائسه . فجمع من ذلك كله صنوفا تجل عن الحصر . منها على ما روى : سبعة أزيار كبار وزلعتان مملوءة فضة ودراهم . وجرتان من الذهب و٣٦ ألف من دينار فى مكان ، ٢٠٠ ألف دينار فى مكان آخر ، و٣٠ ألف دينار فى غيرهما . ووجد له عند آخرين من الناس وبعض مماليكه ما مجموعه نحو خمسمائة ألف دينار . هـذا عدا الجواهر والحلى والأقمشة والخيول والمماليك والجوارى والضياع والمراكب والطواشية والغلال . قال ابن إياس : « وهذا الموجود يقارب موجود الصاحب « علاء الدين بن زنبور » . وقد ذكرناه فى هذا الباب فى رقم ٩ .

وقد صادر السلطان برقوق كل هذه الممتلكات واحتازها لنفسه - ثم قبض على الأمير جمال الدين محمود فى كوم الجارح ، فسجن هو وابنه فى خزانة شمايل - مكان جامع المؤيد الآن - فلبثا زمنا فى سجنهما حتى كانت سنة ٧٩٩ هـ ، فتوفى هذا الأمير وهو فى سجنه . ثم دفن فى مدرسته التى أنشأها خارج باب زويلة .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ إلى ٣٠٧ - تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٩٧ - خطط ج ٤ ص ٢٤٢ ، ٢٥٢ » .

١٥ — تنم الحسنى ٨٠٢ هـ

هو نائب الشام فى العهد الثانى لسلطنة الملك برقوق . وقد حضر إلى مصر سنة ٧٩٩ هـ ،

لزيارة السلطان برقوق . فلما بلغ السلطان قدومه إلى الريدانية نزل من القلعة ولاقاه ، وخلع عليه وأنزله بالميدان الكبير عند الناصرية . فقدم « تنم » إلى السلطان هدايا ضخمة نفيسة جدا ، ما بين مماليك وجوار ودنانير وأسلحة ، ومصحف ذهبي ، وجواهر عينة ، وأقمشة فاخرة ، وفاكهة متنوعة ، وسكر وحلوى شامية . وقد أقام له السلطان وليمة حافلة فى بر الجيزة ، وأقام أياما ثم عاد إلى الشام . ـ ظل تنم الحسنى فى منصبه حتى آلت السلطنة إلى الملك فرج بن برقوق ، فشق عليه عصا الطاعة فى سنة ٨٠٢ هـ . وأطلق من فى سجون قلعة دمشق من الأمراء . وفى الوقت نفسه كان الأتابكى إيتمش البجاسى قد ثار فى القاهرة ضد سلطانه فرج ، وكانت بين الفريقين وقائع ودماء ، فر على إثرها إيتمش إلى الشام هو وعصبته من الأمراء . فلقيهم « تنم » الحسنى نائبها خير لقاء ، وقدم إليهم كل معونة من مال وسلاح وخيل وزاد . وانضم إليهم فى عصيانهم نائب حلب وحماة وصفد وطرابلس ، وعدد ضخم من الجند والعربان . وأصبح الأمير « تنم » شبيها بالملوك فى بلاد الشام ، يركب كركوبهم وينزل كنزولهم . وتحرك « تنم » لقتال السلطان فرج ؛ فخف إليه فرج فى جند عظيم وتلاقوا على مقربة من غزة . ولكن بعض أنصار « تنم » انضم إلى جانب السلطان فرج . ففت بذلك فى عضده وعول على الفرار . ففر هو والأتابكى إيتمش البجاسى وعدد من عصبتهم إلى الرملة بعصر ، وتركوا السلطان بغزة . ثم إن السلطان فرجا أرسل إليهم قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى والأمير ناصر الدين بن الرماح ليصالحهم ، فأبوا وعولوا على القتال . فعاد إليهم السلطان ووقعت بين الفريقين معركة حامية فى مكان يقال له « الحبتين » فى يوم السبت ١٢ رجب عام ٨٠٢ هـ ، فانكسر « تنم » وهرب إيتمش إلى الشام ، ولكن السلطان تمكن من القبض عليهما وسجنهما . وقد قبض على « تنم » وصودرت أملاكه . وعاد السلطان إلى دمشق وأمامه « تنم » نائبها وهو مقيد راكب على كديش . وظل « تنم » فى سجنه حتى خنق بأمر السلطان فرج بعد أيام فى نفس السنة .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٠٦ ، ٣١٩ ، إلى ٣٢٤ – الضوء ج ٣ رقم ١٨٣ »

١٦ — نوروز الحافظى ٨١٧ هـ

أحد الأمراء العظام ، وقد أخذ يترقى حتى كان رأس نوبة النوب فى عهد السلطان فرج بن برقوق . وكان من قبل مسجونا بثغر الإسكندرية لاشتراكه فى عدة مؤامرات

فأطلق السلطان فرج سراحه وخلع عليه هذا اللقب فى سنة ٨٠٢ هـ . وقد أقام نوروز قبة على فسقية الخانقاه الشيخونية حينئذ ولم يكن لها قبة . وقد صحب سلطانه فرجا فى قتاله ملك التتار تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ . فكان أحد الأمراء الستة المقدمين فى الطليعة ، وهم الأتابكى بيبرس الركنى وبكتمر ونوروز وأقباى الطرنطاى الحاجب وإينال باى بن قجماس ويلبغا الناصرى . وقد كانت عاقبتهم الانكسار . ـ ثم إن نوروز علت مكانته لدى السلطان فرج ، حتى أصبح فى عداد من يثق بهم ويكل إليهم مهام دولته . وقد عينه مشيرا للدولة ومدبرا للمملكة . وقد دعت مكانته لديه بأن تزوج من أخته وذلك سنة ٨٠٤ هـ . وهى بنت السلطان برقوق ، ودخل بها « نوروز » فى ٢٠ محرم من تلك السنة وكان لها حفل عظيم . وفى تلك السنة ثارت فتنة « نوروز » الحافظى والأمير جكم العوضى وغيرهما من الأمراء ضد السلطان ومن التف حوله من الأمراء . وأدى ذلك إلى شبوب ثورة أهلية بين جنود الفريقين . ثم عمل السلطان والقضاة على إطفاء الفتنة ومصالحة الأمراء . فوفد الأمراء المتعادون إلى حضرة السلطان ، وقبلوا له الأرض وتصالحوا أمامه . ولكن هذا التراضى كان على حقد ودخل . فإنهم ماعتموا أن أثاروها فتنة جديدة وحربا شعواء . فاضطر السلطان ومن معه من الأمراء إلى تتبع الثائرين وقتالهم ، فانتصر عليهم فى جهة بركة الحبش وأسر جماعة منهم وفر الباقون . ومن بين الفارين الأميران جكم العوضى و « نوروز » الحافظى . وفروا إلى بر الجيزة حيث مكثوا ثلاثة أيام . ثم فارقهم « نوروز » إلى القاهرة وطرق باب الأتابكى بيبرس الركنى ، ورجاه أن يشفع له عند السلطان فشفع وقدم إليه فرضى عنه السلطان فرج لأنه صهره ، وخلع عليه نيابة الشام . فأخذ فى الرحيل إليها ، فلما بلغ مخيمة الريدانية ، بعث السلطان فى إثره من قيده وبعث به إلى سجن الإسكندرية . فظل « نوروز » فى سجنه حتى عام ٨١٠ هـ . فأفرج عنه السلطان فرج ـ وكان قد خلع ثم عاد إلى سلطنته ـ ولما أطلق سراح « نوروز » عينه نائبا للشام فى ذلك العام . وكذلك أفرج عن الأمير جكم العوضى ، وكان مسجونا . وعينه نائبا لحلب . وبمجرد وصول كل منهما إلى مقر عمله أعلن بالعصيان وأعلن جكم بنفسه سلطانا على حلب ، وتلقب بالملك العادل . ولكنه سرعان ما اعتدى عليه معتد فقتله فكفى السلطان شره . وبقى أمامه « نوروز » . وكان « نوروز » قد جمع حوله عددا من الأمراء والجند منهم الأمير شيخ المحمودى ـ وهو الذى صار سلطانا على مصر فيما بعد وتلقب بالمؤيد ـ وكان إذ ذاك

نائب طرابلس . ولماقوى أمرهما فى الشام سار الملك فرج لقتالهما فى عام ٨١١ هـ فتلاقوا بجهة تعرف بالسعيدية . فانكسر السلطان وتبعه الأمير « نوروز » وشيخ فى فراره إلى القاهرة ، ولكن السلطان استطاع بها لقاءهما فكسرهما فهربا إلى الشام ثانية مهزومين . ثم راسلهما الملك ومنح نيابة الشام الأمير شيخ . وأمر « نوروز » بالإقامة فى القدس عاطلا . ولكن على الرغم من هذا كله فقد بقى لهذين الأميرين نفوذ عظيم فى بلاد الشام حتى استطاعا قطع اسم الملك الناصر فرج من الخطبة بدمشق وتوابعها ، واجتمع حولهما عدد ضخم من الأمراء والجنود . وذلك عام ٨١٣ هـ ، ٨١٤ هـ . فعول السلطان على قتالهما ثانية . فدخل بلاد الشام بعسكر كثيف عام ٨١٥ هـ ، ولكنه انكسر كسرة شنيعة بجهة تعرف باللجون ، وقبض عليه وقتل . وكان هذا النصر سببا لرفعة الأمير « نوروز » الحافظى وشيخ المحمودى . واتفقا معا على تولية السلطان أبى الفضل العباس محمد المتوكل العباسى ، وهو الخليفة القائم فى ذلك الحين والملقب بالمستعين بالله . اتفقا على ذلك تفاديا للخلاف بينهما . وكذلك اتفقا على أن يكون شيخ المحمودى هو الأتابك . وأن يكون « نوروز » نائبا على بلاد الشام . فظل هذا الوضع أشهرا ثم تغلب الطمع على شيخ المحمودى ونزع السلطنة من المستعين بالله ، وتسنم ذروتها عام ٨١٥ هـ . فكان ذلك سببا لغضب نوروز فامتنع عن طاعته ببلاد الشام . ولكن السلطان المؤيد شيخا أعد لإخضاعه عدته . فلما استتب له الملك خرج إلى الشام فى عام ٨١٧ هـ . فحاصر « نوروز » بدمشق حصارا قويا حتى سلم له « نوروز » فقطع رأسه بقلعة دمشق وأرسله إلى القاهرة فعلق على باب زويله ثلاثة أيام . ثم دفن وانتهت بذلك حياته وجهاده الطويل .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، — ج ٢ ص ٣ ، ٤ ، الضوء ج ١٠ رقم ٨٧١ » .

١٧ — جكم العوضى ٨١٠ هـ

أصله من مماليك برقوق ، ومن الأمراء الذين برزوا أيضا فى عصر السلطان فرج ابنه . وكان وجودهم من أسباب توجيه الحوادث إلى نواح معينة . وقد اشترك « جكم » فى الثورة الأهلية التى وقعت عام ٨٠٤ هـ . فتزعم هو وعدد من الأمراء المماليك السلطانية ضد الأمير « يشبك » الشعبانى الدوادار . وما زالوا به حتى هزموه وفر من وجههم كما سنبين فى ترجمته الآتية . فلما هدأت الفتنة خلع السلطان على الأمير « جكم »

العوضى ، وجعله دوادارا كبيراً عوضا عن يشبك الشعبانى . فعظمت مكانته وهيبت منزلته وأصبح مصدر خوف يخشاه بعض الأمراء ، حتى السلطان نفسه . ويظهر أنه كان يبدى الغطرسة والكبر ويضمر الشر ، وعرفوا هم عنه هــذا ، فخافوه وتربصوا به الدوائر . — وما لبث « جكم » العوضى أن انضم إلى نوروز الحافظى وغيره فى فتنة ضد السلطان فرج عام ٨٠٤ ﻫ . ثم صالحهم السلطان . وعقيب ذلك أرسل خلعة إلى أخى « جكم » وهو المسمى قانباى العلائى ، ورسم له بالتوجه إلى حلب نائبا عن السلطان فيها . وكان ذلك على غير رغبة من « جكم » ، فعظم عليه الأمر وعاود الفتنة مرة أخرى ، وانحاز إلى جانبه عدد ضخم من الأمراء والمماليك . ولكن السلطان فرجا استطاع أن يقضى على مجموعهم ، فهرب زعماؤهم ومن بينهم الأمير « جكم » العوضى والأمير نوروز الحافظى . فساروا نحو الميمون ثم الجيزة . أما نوروز فبعد ثلاثة أيام وفد على السلطان كما بينا ثم كان نصيبه السجن . وأما « جكم » العوضى فإنه أرسل إلى السلطان يطلب إليه الإذن له بالمسير إلى دمياط ، والإقامة بها دون سجن ، فسمح له بذلك ، واستقدمه أولا إلى القاهرة . فلما قدم قيد هو ومن معه وأرسلوا إلى سجن الإسكندرية . فظل « جكم » مسجونا . ودالت السلطنة الأولى لفرج وأعقبه أخوه ، ثم عاد فرج إلى عرشه فى عام ٨٠٨ ﻫـ . ولما كانت سنة ٨١٠ ﻫـ صدر أمره بالإفراج عن « جكم » ونوروز . وأناب نوروزاً فى الشام وأناب « جكم » فى حلب . فما لبثا بعد توجههما أن ثارا وأظهرا العصيان . أما « جكم » فإنه أعلن بنفسه سلطانا على حلب وتلقب بالملك العادل. وأصبح صاحب الحل والربط فى البلاد الحلبية ، وجزء كبير من البلاد الشامية . فضاقت الأرض على رحبها أمام الملك الناصر فرج ، وعول على الانتقام من هذا الخارج عليه . ولكنه ما عتم أن كفى مئونته ، فقد خرج على حكم « جكم » أحد أولاد قرا يوسف التركمانى ، فهب « جكم » للقائه ، والتقى عسكرهما ، فقتل « جكم » وقت المعمعة ولم يعثر له على أثر وذلك سنة ٨١٠ ﻫـ . وقيل سنة ٨٠٩ ﻫـ . وكان مهيبا يحب العلماء ويسمع الشعر .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، الضوء ج ٣ رقم ٢٩٢ » .

١٨ — يشبك الشعبانى الدوادار (١) ٨١٦ هـ

ممن علا نجمهم فى عهد السلطان فرج بن برقوق ، وممن اعتمد عليهم هذا السلطان فى تدبير أمور دولته . وقد منحه فى سنة ٨٠٣ هـ لقب دوادار كبير ومشير المملكة ، وشارك نوروز الحافظى فى القيام بالأعمال . غير أنه ما لبث إلا ريثما انغمس فى فتنة ضد بعض المماليك السلطانية وكبار الأمراء واشترك معه فيها الأميران قطلو بغا الكركى ، وأقباى الخازندار . ووقعت بين الفريقين معارك عدة وتدخل بينهما السلطان . غير أن العاقبة كانت انهزام « يشبك » وطائفته ، وفراره واختفاؤه فى تربة خوند سمرا تجاه باب جامع قوصون خارج باب القرافة إذ ذاك . وقد نهب العوام بيته وبيوت تابعيه . ثم عرف مكانه فقبض عليه . وأرسل إلى سجن الإسكندرية ، فظل حتى عام ٨٠٤ هـ ، ثم أمر السلطان فرج بالإفراج عنه ثم خلع عليه وأعاده دوادارا كبيرا كما كان . ومع ذلك هم بعض المماليك بالبطش به فاستطاع الهرب منهم ، وقد عاقبهم السلطان بضربهم بالمقارع ، وأشهرهم فى القاهرة ، فخمدت فتنتهم بعض الخمود . وهكذا ظل الأمير « يشبك » يعيش تحت حماية السلطان فرج ، حتى دالت سلطنته الأولى وخلفه فى السلطنة أخوه المنصور عبد العزيز بن برقوق . وكان متزعم حركة هذا الانقلاب الأتابكى بيبرس الركنى ، فأصبح صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ... فغض هذا من منزلة الأمير « يشبك » الشعبانى الدوادار . وود لو عاد فرج إلى سلطنته ، وكان قد اختبأ لدى المقر السعدى إبراهيم بن غراب . فلما شعر ابن غراب بهذه الرغبة تجيش فى نفس « يشبك » ، أخبره بمكان فرج ، ودبرا حركة لظهوره . ثم أعلنوا به ، فانحاز إلى جانبهم عدد من الجند والأمراء ، فوقع القتال بين هؤلاء وبين من التف حول السلطان المنصور ، فانتصر فريق « يشبك » وعادت السلطنة إلى فرج سنة ٨٠٨ هـ ، وعادت سطوة الأمير « يشبك » إلى سابق عهدها . وبعد حين نفر منه السلطان ، فقبض عليه هو والأمير شيخ وسجنهما فى قلعة دمشق ، ففرا ، فتعقبهما نوروز وقتل « يشبك » سنة ٨١٦ هـ ، وأرسل رأسه إلى الناصر . فطيف به ، وعلق أياما . وكان « يشبك » أميراً جليلا كريما وقورا .

« ابن إياس ج١ ص٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٠ — الضوء ج١٠ رقم ١٠٩٠ » .

---

١ — قال فى الضوء : إنه كان أتابكيا فى عهد فرج .

١٩ — جانى بك مملوك الأشرف برسباى ٨٣١ هـ .

قال عنه ابن إياس ما ملخصه : لما دخلت سنة ٨٢٧ هـ . فيها تزايدت عظمة الأمير « جانى بك » مملوك الملك الأشرف برسباى وصار أمير طبلخاناه ودوادارا ثانيـــا . واجتمعت فيه الـكلمة وصار صاحب الحل والعقد فى دولة أستاذه . وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من المنجكية . ومما يحكى عنه أنه نفى الأتابكى بيبغا المظفرى إلى ثغر الإسكندرية من غير علم السلطان . فلما علم السلطان بذلك لم يقل له : لأى شىء فعلت ذلك . وتناهت عظمته حتى التف عليه جميع العسكر . وكان الأمراء المقدمون يزلون معه من القلعة إلى بيته الذى بالقرب من سوق الجوارى . ولم يزل جانى بك على ذلك حتى خشى منه الملك الأشرف أن يثب عليه ، فأشيع أنه دس له السم ، فاستمر عليلا ملازما الفراش حتى مات فى أثناء دولة أستاذه . ولو عاش لوثب على أســتاذه وتسلطن . — ومات فى نحو الخامسة والعشرين .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٧ — الضوء ج ٣ رقم ٢١٦ » .

٢٠ — عبد الباسط بن القرشى خليل ٨٥٣ هـ

هو زين الدين . اشتهر هذا القاضى فى عصر السلطان الأشرف برسباى . وقد كان من أتباع الملك المؤيد شيخ المحمودى ؛ فقربه برسباى فيمن قرب من أتباع شيخ . وجعله فى عام ٨٢٥ هـ ناظر الجيوش المنصورة . واتسع جاهه وبسط نفوذه ، حتى قيل إنه أصبح صاحب الحل والعقد فى عصر برسباى ، لا يبرم أمرا ولا ينقضه إلا بعد مشورته . وقد أطلق عليه لقب « عظيم الدولة » . — ويظهر أنه لم يزاحمه فى نفوذه هذا سوى مملوك برسباى ، وهو الأمير جانى بك ، إذ فاق نفوذه نفوذ كل امير سواه . — ومازال الزينى عبد الباسط فى نعمة من الجاه وبسطة من النفوذ ، حتى تقلبت الأيام وآلت السلطنة إلى ابن برسباى ثم إلى الظاهر جقمق العلائى ، فغضب على الزينى عبد الباسط عام ٨٤٤ هـ ، وصادر أملاكه وصفى موارده وأمواله وأخذ منه نحو مائتى ألف دينار ونفاه إلى مكة ثم نقله إلى الشام . ولما كانت سنة ٨٤٨ هـ أعاده إلى مصر وأكرمه وأقام بلا عمل ، حسن الصلة بالناس وبالسلطان حتى توفى فى ٦ شوال من تلك السنة . وكان كثير الخير والبر ، أنشأ عدة مدارس فى مصر ، وبيت ، المقدس والمدينة ، ومكة ، وكان يرسل الأعطيات لفقراء

الحجاج فى كل موسم . وقد تزوج الملك الظاهر جقمق ابنة هـذا القاضى بعد وفاته .
وذكر فى الضوء وفاته سنة ٨٥٤ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ — الضوء ج ٤ رقم ٨٠١ » .

٢١ — جانى بك الظاهرى الجركسى الدوادار ٨٦٧ هـ

أصله مملوك لجوباش المحمدى الناصرى الأتابك . وانتقل ملكه إلى الظاهر جقمق قبل سلطنته ، فأعتقه . فلما ولى السلطنة جعله خاصكيا . وولاه نظر الكنائس وشادية جدة فى عام ٨٤٩ هـ . فنهض بما وكل إليه نهوضا محمودا . وظهرت كفاءته للسلطانه ، فعظم عنده ، ومن ثم عظم جاهه ، وقوى نفوذه — وصار يقال له « نائب جده » . ورقى أستادارا فى عهد جقمق ، وأعفى من الأستادارية فى عهد إينال ، ليتفرغ لأعمال جدة . وزيد فى إقطاعه ، فأثرى ، وابتنى تربته الجميلة خارج باب القرافة ، وبها مدرسة وكتاب للأيتام ، وحوض وبستان عظيم وبركة ، وغير ذلك . وأصبح مهيبا ، وكاتبه الملوك ، وأهدى إليه . وأسندت إليه الدوادارية فى عهد خشقدم ، فصار مدبر الدولة وبلغ أوجه — وكان حسن السياسة كيسا محسنا — ثم قتله المماليك الجلبان فى بعض أسفاره عام ٨٦٧ هـ ، ودفن بتربته .

« الضوء ج ٣ رقم ٢٣٥ »

٢٢ — برد بك الأشرفى ٨٦٨ هـ

كان مملوكا للأشرف إينال . فرباه وأعتقه وزوجه ابنته الكبرى . رقاه دوادارا ثالثا . وما زال به يرقيه حتى صار دوادارا كبيرا ، فزادت عظمته ونفذت كلمته ، وأطيع أمره . فلما ملك خشقدم صادره وأحاط بماله ، ونفاه إلى مكة . ثم أمر له بالعودة بعد حين فعاد ، ولكنه قتل فى الطريق بيد بعض القطاع من الأعراب ، عام ٨٦٨ هـ . فدفن بخليص . ثم نقل إلى مكة

« الضوء جزء ٣ رقم ٢٠ »

٢٣ — العلائى على بن محمد الأهناسى الأستادار ٨٧٠ هـ

كان فى أول أمره يشتغل « برددارا » لدى الأستادار زين الدين الحلبى . ثم انتقل إلى الأستادارية عند المقر الشهابى أحمد بن الملك الأشرف إينال . فلما اختفى زين الدين

الحلبي عام ٨٥٧ هـ « سعى ابن الأهناسى » لدى إينال فى تولى الأستادارية الكبرى ؛ فتم له ذلك فى العام المذكور. فأخذ جاهه فى الازدياد . ثم ظهر زين الدين الحلبي فى أوائل المحرم عام ٨٥٨ هـ . وشفع فيه لدى السلطان ، فرضى عنه ، وأعاده إلى منصبه وخلع منه « ابن الأهناسى » . وفى عام ٨٦٠ هـ عين فى الوزارة عوضا عن سعد الدين فرج بن النحال . فعظم أمره ثانية . ثم خلع منها فى عهد خشقدم عام ٨٦٦ هـ ، ثم أعيد فى عام ٨٦٨ هـ إليها ومعها نظارة الخاص . ثم جد له من العوامل ما دفعه على الاختفاء . ولكن قبض عليه وسجن وصودر ، ونفى إلى مكة ، فمات بها سنة ٨٧٠ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٩ »

٢٤ — الأستادار زين الدين الحلبي ٨٧٤ هـ

أصله من الأرمن . واسمه يحيى بن عبد الرزاق الأرمني . وكان يعرف بالأشقر ابن كاتب علوان . وقد ارتقى إلى الأستادارية فى عهد السلطان الظاهر جقمق العلائى . وكان هذا السلطان يعتمد عليه فى كثير من مهامه ، فنفذت كلمته وعلت سطوته . قيل : ولم يجيء من بعده من يضاهيه فى منصبه نفوذاً وسطوة وعلو جاه . وذلك منذ عام ٨٤٩ هـ . فلما زالت دولة جقمق وابنه ابتدأ عهد نحسه وأفول نجمه . وكان قد فارق هذا المنصب فأعاده إليه الأشرف إينال على كره منـــه . غير أنه ضاق بأعبائه فاختفى عام ٨٥٧ هـ . فعين السلطان مكانه فى الاستادارية العلائى بن الأهناسى . ثم رسم السلطان بنفيه إلى القدس. وذلك فى صفر عام ٨٥٨ هـ . فبمجرد أن خرج متوجها إلى القدس بعث إليه السلطان من قبض عليه عند سبيل ابن قايماز ، وفتشه رجاء أن يجد معه مالا ، فلم يجد إلا ثلثمائة دينار ونثارا من الفضة . وكان قد وشى به إلى السلطـان أن معه مالا جمعه . ثم أمر السلطان بإعادته إلى القاهرة . ثم أدخلوه إلى القلعة ومنها إلى البحرة وسجن . وفى يومه هذا أحضر إليه السلطان المعاصير وعصره وآذاه لكى يعترف بما يدخره من المال ، فلم يعترف وطلب إلى السلطان أن يبيع أوقافه ويأخذ منها ما يريد من المال . فحمل هذا الطلب عنه ناظر الخاص، فأمر بإحضاره بين يدى السلطان ، فضربه نحوا من خمسمائة عصا . ثم شفع فيه الأمير تمراز الدوادار الثانى ، فقبل السلطان شفاعته وخلع عليه وأعاده إلى الأستادارية وصرف عنها العلائى على بن الأهناسى . ثم ضم إليه منصب كاشف الكشاف بالوجهـــين القبلى

والبحرى . فانتعش حاله بعض الانتعاش . حدث هذا كله فى شهر صفر من عام ٨٥٨ هـ وفى ذى العقدة من السنة نفسها غضب عليه السلطان مرة أخرى وضربه ضربا مبرحا ، وتسلمه منه الجمالى يوسف ناظر الخاص ، فسجنه لديه حتى يورد ما فرض عليه السلطان من غُرم مالى . ويتبادر للذهن أن سبب كل ذلك كره السلطان له من زمان بعيد ، كرها أوجد السبيل إلى الوشاة ، فزينوا للسلطان أن هذا الرجل يربح من وظيفته الكثير من المال فعليه أن يؤدى جانبا منه للسلطان ! . فلما سجن ظل زمنا ، ثم نفاه السلطان إلى القدس فلبث هناك حتى رجب عام ٨٥٩ هـ . فعاد بصحبة الأمير بردبك صهر السلطان ، فرضى عنه ورد إليه منصبه . فلبث فيه حتى شهر جمادى الآخرة عام ٨٦٠ هـ ، فغضب عليه مرة أخرى بحجة أنه تأخر فى تهيئة الطعام اللازم للقصر وجنوده . وضرب ضربا مبرحا وكبل بالحديد وسجن . وولى مكانه الوزير سعد الدين فرج بن النحال . وبعد زمن استخلص منه عشرة آلاف دينار ، ونفاه فى شهر شعبان من السنة نفسها إلى المدينة المشرفة . فسار إليها بطريق البحر . فلبث زمنا بها . ثم أمر فعاد إلى القاهرة بلا عمل . وظل أمره لدى السلطان ما بين غضب ورضا ، حتى كان عام ٨٧٤ هـ وكان شهر ربيع الأول فثارت ثائرة السلطان ضده مرة أخيرة وقبض عليه وأحضر بين يديه ، فأسمعه من الكلام قارصه ، وأذاقه من الضرب أقساه وأمره . ولبث يعذبه هكذا يوما بعد يوم ، مسجونا بالبرج بالقلعة حتى مات فى يوم وهو بالبرج . فأخبر السلطان بذلك ، فلم يصدق الخبر حتى جىء به إليه ميتاً ، فكشف عن وجهه ورفسه برجله ! ثم أمر بحمله . فغسل وكفن ودفن . وهكذا انتهت حياته المريرة . وقد أنشأ بالقاهرة وغيرها عدة جوامع ومدارس ، وكان مولده قبيل عام ٨٠٠ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٩ ، ٤٤ إلى ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ١١٣ ، ١١٤ - الضوء ج ١٠ رقم ٩٨٣ » .

٢٥ — برد بك البجمقدار ٨٧٥ هـ

كان نائبا للشام . وكان يعرف ببردبك الفارسى الظاهرى . ويعرف أيضاً بالأقرع ، وكان من أعيان الناس وجماعة الظاهرية . وكان أمير عشرة فى دولة أستاذه الظاهر جقمق ، ثم رقى أمير طبلخاناه ، ثم رأس نوبة ثانياً فى دولة الأشرف إينال . ثم صار مقدم ألف . وحج أمير محمل غير مامرة . ثم ولى حاجب الحجاب . ثم صار نائب حلب

فى دولة الظاهر خشقدم . ثم قبض عليه وحمل إلى القدس عاطلا . ثم أعيد إلى نيابة حلب . ثم نقل نائباً للشام فوليها مرتين ومات بها . وكان أسيراً عند سوار ، وهو نائب حلب وأطلق بعد موت الظاهر خشقدم . وقاسى شدائد ومحنا . ومات فى عام ٨٧٥ هـ هذا ؛ وقد قيل إن أبا بكر بن على دوادار هو الذى دس السم لأستاذه برد بك . ومع ذلك فقد توفى قبله بأيام ا.

« ابن إياس ج ٢ ص ١٢٢ - الضوء ج ٣ رقم ٢٤ » .

٢٦ — برقوق الناصرى ٨٧٧ هـ

قال عنه ابن إياس ما يلى : « وفى شوال - أى عام ٨٧٧ هـ - جاءت الأخبار بوفاة برقوق الناصرى الظاهرى نائب الشام . وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، عارفا بأنواع الفروسية فى فنون لعب الرمح والرماية بالنشاب . وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشرابخانا ، ثم تقدمة ألف ، ثم نيابة الشام . ومات بها . وكان قد جاوز الستين سنة من العمر . فلما حضر سيفه ، أظهر السلطان الحزن والبكاء وتأسف عليه . وكان عنده بمنزلة الأخ ، ثم أمر بإحضار أولاده وعياله إلى القاهرة . ثم رسم بنقل جثته إلى القاهرة ليدفن فى تربته التى بباب القرافة . وكان لبرقوق بر ومعروف . وهو الذى أنشأ القبة على ضريح العارف بالله الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى ورضى عنه » . هذا وقد عينه قايتباى فى نيابة الشام بعد وفاة نائبها برد بك البجمقدار فى صفر عام ٨٧٥ هـ ، وارتقى إليها فى مدة وجيزة . هذا . ومما يذكر أن الأمير برقوقا حينما كان نائبا ببلاد الشام انضم سنة ٨٧٥ هـ هو وعسكره إلى الحملة المصرية المرسلة لتأديب الشاه سوار بقيادة الأمير يشبك الدوادار : فلما قبض يشبك على سوار . كان قد وعده بالأمان . فلما دخل عليه سوار رحب به . ثم لما هم بالانصراف أمره بالمرور على نائب الشام « برقوق » ، وكانا قد اتفقا على القبض عليه . فلما دخل على « برقوق » سأله مرارا بتهكم : من أنت ؟ . . . وهو يجيبه : أنا سوار . ثم أمر جنوده فوضعوا فى يديه الحديد وفى عنقه .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٤٢ الضوء ج ٢ رقم ٤٩ » .

٢٧ — إينال الأشقر البجاوى ٨٧٩ هـ

قال فيه ابن إياس ما يلى : « وفيه - أى فى شعبان عام ٨٧٩ هـ - توفى إينال الأشقر

البجاوى الظاهرى أمير سلاح ، وكان أميرا جليلا شجاعا بطلا . وكان ظالما غشوما عسوفا كثير الإسراف على نفسه . وكان عنده كرم زائد مع اتضاع . وأصله من مماليك الظاهر جقمق . وولى عدة وظائف سنية ، منها ولاية القاهرة ونيابة ملطية ونيابة حلب ، ورأس نوبة كبير ، وإمرية سلاح . وغير ذلك من الوظائف . وكان فى آخر عمره ظهر به جذام وبرص فاحش جدا » ـ وقد توفى فى عهد الأشرف قايتباى » .

ابن إياس جزء ٢ ص ١٥٥ » .

٢٨ جانى بك الأشقر الدوادار ٨٨٠ هـ

قال عنه ابن إياس « وفيه ـ أى فى شعبان سنة ٨٨٠ ـ توفى جانى بك الأشقر الدوادار أحد خواص السلطان ـ أى قايتباى ـ وكان رئيسا حشما عارفا سيوسا ـ أى حسن السياسة ـ توجه إلى الحجاز أمير حاج غير مامرة . وكان مقربا عند السلطان وكان أصله من مماليك قانى باى قرقور . واتصل بخدمة جماعة من الأمراء ثم خدم الأشرف قايتباى من حين كان أمير طبلخاناة إلى أن بقى سلطانا . فأنعم عليه السلطان بأمرية عشرة . وكان فى سعة من المال » .

« ابن إياس جزء ٢ ص ١٦٢ ـ الضوء ج ٣ رقم ٢١٧ » .

٣٩ — القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان ٨٨٢ هـ

قال فيه ابن إياس ما ملخصه : « وفيه ـ أى فى ربيع الآخر عام ٨٨٢ هـ ـ كانت وفاة القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان بن عبد الغنى بن شاكر بن ماجد بن عبدالوهاب بن يعقوب الدمياطى الأصل القبطى المصرى متولى ديوان الجيش . وكان رئيسا حشما وجيها عند الملوك والسلاطين . وكان ذا تواضع للناس قاطبة . مشتغلا بالعلم . ومولده فى سنة سبعين وسبعمائة . وهو الذى أنشأ الجامع الذى بالقرب من بركة الرطلى . وكان وكان نادرة فى بنى الجيعان » . ـ وقال فيه السخاوى إنه أكبر أشقائه الخمسة . ولد بالقاهرة ونشأ بها وتدرب بأبيه وجده وغيرهما فى الخدمة بالمباشرة وغيرها إلى أن مهر . ثم استقر بعد أبيه فى كتابة الجيش ثم فى الخزانة . وكان برا بالفقراء والصلاح ـ وكان هو وإخوته أصحاب الحل والعقد فى الدولة فى حقيقة الأمر ـ توفى بمنزله ببركة الرطلى .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٧٤ ـ الضوء ج ٣ رقم ١١١٧ » .

٣٠ ـ الأمير جانم الشريفي ٨٨٤ هـ

من أقرباء السلطان الأشرف قايتباى، وقد رقى إلى رتبة الإمارة بسرعة حتى بلغها وهو دون العشرين. وقد كان من قبل مملوكا فى الطباق بالقلعة ثم خاصكيا، فأمير عشرة ثم ناظر الجوالى ثم شاد الشرابخاناه. ثم عين مقدم ألف. وتزوج بأخت زوجة سلطانه قايتباى فعظمت حرمته! وكان زفافه من الحفلات الممتازة التى شهدتها القاهرة، زينت له الشوارع وعلقت له القناديل وأوقدت له الشموع ومشى فى ركابه الأمراء الكبار، وأمسك الأمير يشبك الدوادار والأمير أزدمر الطويل حاجب الحجاب بعنان فرسه على عظمتهما.

ولكنه سرعان ما توفى فى ربيع الثانى عام ٨٨٤ هـ، ومرض قبيل وفاته وتورمت قدماه. ولما مات دفن فى جنازة رائعة بسبيل المؤمنين. وحزن عليه قايتباى حزنا شديدا حتى أقام عزاءه ثلاثة أيام بالقلعة. وقيل إنه أمر النوادب بالدق واللطم عليه وهو ينظر إليهن ـ هذا وقد سرت إذ ذاك إشاعة مؤداها أن الأمير يشبك الدوادار هو الذى دس له السم فى الطعام فقتله. وقد تفاقمت هذه الإشاعة حتى خاف مغبتها ونبا به المقام فى القاهرة فرضى أخيراً أن يسافر على رأس الحملة المصرية لقتال سيف أمير آل فضل فكان فيها حتفه.

هذا وقد كان الأمير جانم الشريفي جليل القدر وافر العقل جميل الصورة محبوبا من الناس. ـ وقد تزوجت زوجته من بعده بالأمير أقبردى الدوادار سنة ٨٨٧ هـ.

« ابن إياس جزء ٢ ص ١٨٧، ٢١٢ الضوء اللامع حـ ٣ رقم ٢٥٦ ».

٣١ ـ يشبك بن مهدى الدوادار ٨٨٥ هـ

يعرف بالصغير. أصله مملوك للسلطان الظاهر جقمق ومن مشترياته. وقد رقى حتى صار دوادارا فى عهد السلطان قايتباى. وكان أبيض اللون مستدير الوجه أشهل العينين أشقر اللحية طويل القامة ملء الجسم. شجاعاً هماماً مكافحاً كثير الأطماع. ولما بلغ الدوادارية الكبرى زاد جاهه وعظمت مهابته، وأصبح نافذ الكلمة فى البلاد ومكان ثقة السلطان، يستخدمه فى مهام أموره. وفى ربيع الأول من سنة ٨٧٣ هـ خلع عليه السلطان خلعة كخلعة الأتابكى، وأسند إليه منصب الوزارة مضافا للدوادارية. فقسا يشبك على طائفة من الفقهاء والمعممين بإذن السلطان وقطع عنهم مرتباتهم من الأطعمة، وحاول

استرداد بعض ما أخذوه فيما مضى . ولقى عدد من هؤلاء عنتا شديداً وجورا وقسوة .
ثم إنه سافر إلى الوجه القبلى ليطفىء ثورة للعربان هناك ، فنهب بلادهم وأسر عددا من نسائهم . فكان ذلك سبباً فى ثورتهم مرة أخرى بعد عودته . وكان يشبك إذا ما تولى أمر إنسان عليه غرم ألح فى عذابه حتى يستخلص منه المال . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله أعجب به السلطان ، إذ ملأ خزائنه بالأموال . ولهذا ما جاء شهر شعبان سنة ٨٧٣ ﻫ حتى ضم إليـــه السلطان منصب الأستادارية فضلا عن الدوادارية والوزارة وكشوفية الكشاف . وكان قد ضمها إليه منذ قليل . وبهذا كله أصبح ذا جاه عريض ، وعظم اسمه وعلا صيته وهيبت كلمته . وهو من القلائل الذين اجتمعت لهم أمثال هذه المناصب الرئيسية الكبرى . وهو مع ما اشتهر به من الظلم والضغط على ذوى الغرامات المالية ، كان يقدم بعض ضروب الإحسان . فمن ذلك المغسل الذى أنشأه بالقرب من مدرسة السلطان حسن فى العام المذكور بمناسبة ما نفشى فى القاهرة من الطواعين ، فصارت الموتى تحمل إليه ، وهناك يكفنون ويخرجون ، ويدفنون على نفقته

وفى سنة ٨٧٤ ﻫ خرج الأمير يشبك فى شهر المحرم إلى الوجه القبلى ليجمع غلة العام ، ثم عاد بعد قليل . ثم توجه إلى البحيرة لإخضاع بعض عربانها الثائرين ، وهم عربان لبيد ، وبعد قليل بعث إلى السلطان يطلب نجدة ، فبعث إليه بعدد من الأمراء والجند وعلى رأسهم الأتابكى أزبك . ثم عادوا بعد قليل .

وفى هذا العام ، عام ٥٨٧ عاد الحجاج مجهودين مكدودين لقلة الماء وموت الإبل ، فبعث إليهم الأمير يشبك بزاد وماء معونة لهم .

وفى شهر ربيع الآخر من سنة ٨٧٥ ﻫ ، أعد السلطان تجريدة كثيفة الجند ليرسلها إلى سوار الخارج على الدولة ، والذى أغار على أملاكها الشامية والحلبية ، وهو التركمانى ملك الأبلستين . وقد أسند قيادتها إلى الأمير يشبك الدوادار ويعاونه عـــدد من كبار الأمراء . وقد خرجت هذه التجريدة فى شوال من العام المذكور ، وقد فوض السلطان إلى يشبك أمر البلاد الحلبية والشامية . وجعل له حق التولية والعزل فى مناصبها كما يرى . وزوده بخمسمائة علامة بيضاء موقعة بإمضاء السلطان ليكتب فيها ما يشاء من الأوامر والتعيينات . فخرج ركبه حينذاك عـلى خير ما يخرج عليه ركب أمير وقائد . وتجمل جنده وزودوا بالخيل والسلاح والثياب . وقد زاره السلطان فى وطاقه مرتين

حتى عيب عليه ذلك ! ..

وكان الأمير « يشبك » متزوجا من خوند ابنة الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ، فولدت له فى ذى القعدة - بعد خروجه بقليل فى حملته هذه - ولدا سموه منصورا . وقد توفيت هذه الزوجة فى أخريات سنة ٨٨٣ هـ ثم تزوج بعد زواجه منها بزمن ، بأخت الأمير قانصوه خمسمائة .

وقد التقى الأمير « يشبك » بعدئذ بعدوه سوار على نهر جيحون وكسره شر كسرة . ففر سوار من أمامه إلى قلعة زمنوطو وتحصن بها . فتبعه « يشبك » وحاصره أشد المحاصرة ، واستخدم المدافع فى رمى هذه القلعة . — وظل السلطان يمده بالأموال والنفقة ليتم له النصر . فلما رأى سوار عين الغلب أرسل إلى « يشبك » يفاوضه فى الصلح وعرض عليه أن يكون نائبا عن السلطان فى قلعة درندة ، وأن يبعث بولده إلى السلطان وبيده مفاتيح القلعة دلالة على خضوعه . فأرسل « يشبك » إلى السلطان يستشيره فى الأمر . فأبى السلطان إلا أن يحضر سوار بنفسه إلى القاهرة . فلما بلغ هذا الخبر سمع سوار ، خاف وعرض على الأمير « يشبك » أن يؤمنه على نفسه وأولاده ، وأن يقيم بهم بقلعة زمنوطو . فبعث الأمير « يشبك » يستشير السلطان فى ذلك ثانيا . ويظهر أن السلطان أبى أيضا فى هذه المرة . بدليل أن الأمير « يشبك » ضيق الخناق على سوار حتى استسلم فقبض عليه . ووافى خبر ذلك إلى القاهرة فى المحرم سنة ٨٧٧ هـ . - وقد أمّر الأمير « يشبك » أخا سوار المسمى « شاه بضاع » مكان أخيه على إمارة الإبلستين مع خضوعه للسلطان . ثم لما استتب له الأمر وطهر البلاد من الخارجين على السلطان ، عاد إلى مصر مارا بالشام وغزة ومعه الشاه سوار مأسورا مقيدا فى الحديد . وبلغ القاهرة بجنده وأسراه فى الاثنين ١٨ ربيع الأول سنة ٨٧٧ هـ وقد لقيه السلطان والأمراء والناس خير لقاء ، وزينت نواحى عدة من القاهرة . أما سوار فقد أعدم . — وهذه أول حملة خرج فيها الأمير « يشبك » .

لم يلبث الأمير « يشبك » الدوادار فى القاهرة إلا نحو شهرين . فلما كان شهر جمادى الآخرة من نفس السنة . بلغ السلطان أخبار عن حسن الطويل المغير على أملاك الدولة وتهديده لشاه بضاع أمير الأبلستين الخاضع للسلطان . فلم يجد بدا من أن يجرد عليه حملة قوية تقدمتها طليعة سبقتها بالسفر . أما الحملة نفسها فكان قد قائدها الأمير « يشبك » .

خرج بحملته فى الشهر نفسه وكانت أكثر من ألفى جندى . فبلغ بهم حلب . وكاتبه بها الشاه حسن الطويل صاحب العراقين ليطلق من بها من الأسرى نظير أن يطلق هو ما لديه من الأسرى . فأبى الأمير «يشبك» وعول على منازلته . وبدأ مناوشته فاستعان حسن الطويل بأمراء المرتجة وكاتبهم لذلك . فلم يأبه لهذا الأمير « يشبك » وزحف على ألبيرة ، وأجلى عنها جنود حسن الطويل بعد معركة عنيفة . فسلمت البلاد الحلبية من شرهم . ثم عاد الأمير « يشبك » بتجريدته إلى مصر . وكان وصوله إلى القاهرة فى يوم من أيام رمضان سنة ٨٧٨ هـ . — وهذه ثانى حملة خرج فيها الأمير « يشبك » .

بلغ الأمير «يشبك» بعد ذلك منزلة عالية ، كان من أثرها ومن أثر تصرفاته السيئة مع بعض الناس ، أن أوغرت صدور كثيرين عليه . فلما وجد أن الظروف قد نبت به عول على الاستقالة من عمله . فعرض الأمر على السلطان فى شوال من السنة نفسها ، فقبل منه السلطان استعفاءه من الأستادارية والوزارة . لكنه استمهله زمنا ثم قبله بعد — وبقيت فى يده الدوادارية . وقد طمع فيه بعض المماليك الجلبان فنهبوا بيته ومخازنه ، وطمعوا فى قتله ففر منهم إلى الجيزة . أما السلطان فإنه غضب على هؤلاء المماليك وعاقب بعضهم عقابا قاسيا . ثم هدأت هذه الفتنة بعد زمن يسير فعاد « يشبك » من مخبئه إلى القاهرة . — غير أن هؤلاء المماليك أضمروا الشر « ليشبك » . فما دخلت سنة ٨٧٩ هـ ، وما حان شهر ربيع الأول ، وما حانت ليلة الخميس ١٠ منه حتى ثارت ثائرة المماليك الجلبان المذكورين . وقصدوا قتل هذا الأمير وهو فى داره . فعلم السلطان هذا النبأ فحاول قمعهم بالقوة ، ثم لاينهم ، وبعث بعضهم إلى الأمير « يشبك » لمصالحته فقبلوا يده واعتذروا له ، فرضى عنهم وزال ما فى نفسه . — غير أنهم لم يكونوا مخلصين فى اعتذارهم ، وحاولوا الكيد له مرة أخرى . ثم إنه كثر منافسوه والحاقدون عليه ، حتى إنه اشتد الجفاء بينه وبين خشقدم الأحمدى الطواشى الوزير . فأعلن «يشبك» عزل نفسه من الدوادارية أيضا وأغلق بابه . وذلك فى شهر رجب عام ٨٧٩ هـ . فتلطف به عدد من الأمراء من بينهم الأمير الكبير أزبك بن ططخ الأتابكى ، حتى صعد معهم إلى القلعة لملاقاة السلطان ، فطمأن خاطره وأصلح ما بينه وبين الوزير ، وقبّل خشقدم يده . ثم وقع فى شعبان من العام المذكور عداء وجفاء بين الأمير «يشبك» وكاتب سر السلطان ، فشكا « يشبك » إليه فانتصف له منه بعض الانتصاف .

وفى شوال عام ٨٧٩ ﻫ أيضا اضطربت أحوال الشرقية بسبب عبث العربان من بنى حرام وبنى وائل بها . فأرسل لهم السلطان الأمير « يشبك » الدوادار ، فخرج لتأديبهم توا . وعاد من مهمته بعد قليل . — وكاد يخرج فى حملة أعدها السلطان قايتباى لتأديب حسن الطويل ملك العراقيين لبغيه على جند حلب ، وذلك فى ربيع الآخر عام ٨٨٠ ﻫ لولا أنها أوقفت ، بسبب عودة هذا المعتدى إلى بلاده . — وفى جمادى الآخرة من العام نفسه ، سافر السلطان سفرته الثانية إلى دمياط فكان فى مقدمة من صحبه الأمير « يشبك » الدوادار . — وفى رجب من العام نفسه خرج السلطان على غرة إلى زيارة بيت المقدس فكان «يشبك» من مصاحبيه أيضا فى خروجه ، ثم عاد معه فى شعبان . — وفى ذى القعدة من العام نفسه سافر السلطان إلى الفيوم سفره الثانى فصحبه «يشبك» مع عدد من الأمراء والجنود ، لمشاهدة الطاحون المائية والبستان اللذين أنشأهما هناك خاير بك بن حديد . وفى صفر عام ٨٨١ ﻫ خرج الأمير «يشبك» إلى الوجه القبلى لتأديب بعض الثائرين .

وفى شهر رجب من العام نفسه وقع شجار بينه وبين الأمير خاير بك ابن حديد خرجت عن طور الكلام إلى الملاكمة ! وقد لكمه «يشبك» فأطار غطاء رأسه . وكاد يقع مالا تحمد عقباه ، لولا تدخل بعض الأمراء لفض شجارهما . ومع ذلك فقد عمرت قلوبهما هما وأتباعهما بالعداوة والبغضاء وكان لذلك أسوأ الأثر من بعد .

وفى صفر عام ٨٨٢ ﻫ أخذ الأمير « يشبك » فى توسيع وتجميل بعض الطرقات والأسواق ، فوضع مشروعا استغرق تنفيذه زمنا طويلا . ونزعت بسببه ملكية بعض المنازل والربوع ، فتألم أهلها لما لحقهم من ظلم بسبب ذلك . ومع هذا فإن الأمير «يشبك» يشكر لقيامه بهذا العمل الجليل ، إذ فيه ما فيه من نظام وراحة وصحة .

وفى الشهر نفسه وُكل إلى « يشبك » تعذيب برهان الدين النابلسى وكيل بيت المال لكثرة جوره وما سلبه من المال . وقد عذبه تعذيبا شديدا ، قيل ضربه نحو ألفين وستمائة عصا ، وخلع أضراسه ودقها فى رأسه . وكانت النتيجة أنه مات بسبب هذه العقوبة .

وفى ربيع الأول من هذا العام ، سافر السلطان مرة أخرى إلى الإسكندرية ، واستصحب معه عددا من الأمراء كان منهم الأمير «يشبك» .

وفى رمضان أشيع أن السلطان — وكان إذ ذاك فى حلب زائرا — مات هناك فاضطربت

القاهرة . وعلم الأمير « يشبك » أن بردبك جيش ـ أحد الأمراء ـ يدبر ثورة لمصلحة جانبك الفقيه أمير سلاح ليجعله سلطانا . فاستقدمه « يشبك » وحقق معه فأنكر، ثم قامت عليه البينة فعذبه الأمير « يشبك » تعذيبا شديدا حتى أشرف على الهلاك ، ثم نفاه إلى الواح ، ثم نفاه السلطان بعد زمن إلى القدس ، فتوفى بعد قليل سنة ٨٨٣ هـ .

وفى أخريات عام ٨٨٢ هـ خرج الأمير « يشبك » لتأديب بعض العربان الثائرين فى بلاد الصعيد ، ولإزالة الفتن الواقعة بينهم . ثم عاد فى جمادى الأولى سنة ٨٨٣ هـ ، ومعه رءوس الفتنة مصفدين فى الأغلال . فأنعم عليه السلطان بهدايا قيمة ، وحكم على أسراه بالإعدام ، ومن بينهم أحمد بن عمر الهوارى أحد رؤساء العربان .

وفى رجب سنة ٨٨٣ هـ أعيد الأمير « يشبك » إلى منصب الأستادارية وعزل منه تاج الدين بن المقسى . ـ وكان الأمير « يشبك » كما رأينا ، قد عادت له منزلته وسطوته وأصبح مهيب الجانب نافذ الكلمة . وفى شوال سنة ٨٨٣ هـ فى أول يوم منه خلع السلطان عليه مناصب مختلفة فصار أستادارا ودوادارا وكاشفا ومدبرا للمملكة وغير ذلك مما لم يجتمع لغيره . وصار أيضاً متحدثا على ثغر دمياط . ولذلك رحل فى أوائل سنة ٨٨٤ هـ إليها وقام بضروب من الإصلاح فى ميناءها . ومد سلسلة من حديد زنتها ٢٥٠ قنطاراً ، كانت موجودة فى الزمن الماضى ، فجددها « يشبك » فأفادت فى تحصين الثغر ممن يعبثون به من الفرنجة .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٨٤ هـ توفى الأمير جانم الشريفى صهر السلطان ، زوج أخته . فاتهم الناس الأمير « يشبك » بأنه دس له السم فى الطعام . وتحفزت المماليك الجلبان للوثوب عليه وإيذائه وقتله ، فأسكتهم عنه السلطان ، فسكنوا إلى حين . أما « يشبك » نفسه فقد أوجس خيفة ، وامتنع زمنا عن الطلوع إلى القلعة ، وقد زادت حملة الناس عليه .

ما زال الأمير « يشبك » مرموق المكانة يصحب السلطان فى سفره آنا ، ويلقاه من سفره آنا آخر ، ويمد له الموائد الحافلة احتفاء به مرة ، ويعاونه مرة أخرى . ويصلح بين هذا الأمير وذاك ، ويشتد ويقسو فى تعذيب بعض المتهمين الموكول أمرهم إليه . ويقيم بعض العمائر ، ويقوم بضروب من الإصلاح ، ويتعرض مرة لغضب الجلبان وسوء فعلهم .

ما زال كذلك حتى كان شهر ربيع الأول عام ٨٨٥ هـ فعينه السلطان للخروج على رأس تجريدة عظيمة إلى حماة بسبب إعتداء سيف أمير آل فضل على الأمير أزدمر

نائب السلطان فى حماة وقتله . فكانت خرجته تلك آخر عهد القاهرة به : — وقد رغب الأمير «يشبك» إلى السلطان أن يكون على رأس هذه الحملة ليفر من الألسنة الحادة التى كانت تلوك سيرته ، وتنسب إليه قتل جانم الشريفى ، وليفر من بطش الجلبان المتحفزين إليه والمهددين له . وقد خرج ورحل من القاهرة فى ربيع الثانى ، فبلغ حلب بعد الشام ، وجمع منهما جنودا عدة ، وما زال حتى اجتمع له نحو عشرة آلاف مقاتل . فعبر بهم نهر الفرات حتى بلغ مدينة الرها ، متعقبا أثر سيف أمير آل فضل . وكان حاكمها بابندر نائبا عن يعقوب بك بن حسن الطويل . فشدد الأمير «يشبك» عليها الحصار . وحاول حاكمها بابندر أن يهدىء من هذا الحصار وتعهد بإمساك الأمير سيف وتسليمه ، فرفض «يشبك» . ويظهر أنه كانت له نية فى احتلال العراق . فما كان من بابندر إلا أن برز له بعسكره ، فدارت الدائرة على الأمير «يشبك» ومن معه من الجنود ، وأسرهو وعدد من الأمراء المصاحبين له ، وقتل عدد كثيف من جنوده . فأقام فى الأسر نحو ثلاثة أيام ثم جز رأسه فى اليوم الرابع ، وبعث به إلى الملك يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقين . وكان قتله فى أواخر رمضان عام ٨٨٥ هـ بمدينة الرها ، وفى سن السادسة والخمسين . وقد وصلت جثته إلى القاهرة فى ذى القعـــدة عام ٨٨٥ هـ ، ودفنت فى تربته عند زاوية كهنبوش.

هكذا انتهت حياة أحد أبطال هذا العصر وأصحاب المطامع الجامحة فيه ، وذوى النفوذ والأثر فى سيره . وقد رأينا فى سيرته بعض سيئاته وحسناته . وهو من الأمراء الذين أغرموا بالبناء والتشييد فكانت له عدة قصور وقباب منها قبة بالمطرية ، وأخرى بالحسينية . وله مبرات عدة ، ومعاونات جمة للحجاج وغير الحجاج . ومما يروى عنه حكاية ملخصها : «أنه وجد يوما شيخا يتزيا بزى فلاح ، ومعه قفة على كتفه يسير فى الصباح الباكر . فتفكه معه الأمير «يشبك» وسأله عما يحمل . فقال له : بيض ، جئت لأبيعه وأشترى بثمنه خبزا لأولادى لأن معى ثلاث بنات . فرق له قلب «يشبك» . وسأله كم بيضة معه ؟ . فقال : عشرون . فأخذها منه وأعطاه عشرين دينارا» .

هذا وقد كان السلطان الأشرف جان بلاط الذى ملك فى عام ٩٠٥ هـ البلاد المصرية ، أحد مماليك الأمير «يشبك» اشتراه بماله ، وعلمه وأهداه إلى السلطان قايتباى.

(١) ابن إياس ج ٢ من ص ٩٤ إلى ٢٠٢ — وص ٣٧٠ . الضوء ج ١٠ رقم ١٠٧٧ .

ملحوظة :

يوجد بدار الكتب المصرية مؤلف فى تاريخ هذا الأمير وأخبار رحلته إلى آسيا الصغرى ، وهو مصور تصويراً شمسيا عن نسخة خطية بالقسطنطينية ، وتحت رقم ٢٥٩٢ تاريخ .

٣٢ — قانصوه اليحياوى ٩٠٢ هـ

قال عنه ابن إياس : أصله من مماليك السيفى جقمق . وكان لا بأس به . تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة الإسكندرية ونيابة صفد ونيابة طرابلس ونيابة حلب ونيابة الشام . وجرت عليه شدائد ومحن . وأسر عند يعقوب بك بن حسن الطويل — ملك العراقين — فى كائنه يشبك الدوادار مع بايندر . ونفى إلى القدس . ثم تولى بعد ذلك نيابة الشام ، ومات بها وهو على نيابته . وكان من أجل الأمراء وأعظمهم قدرا .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٢٢ »

٣٣ — أبو البقاء بن الجيعان ٩٠٢ هـ

هو أبو البقاء القاضى محمد بن يحيى بن شاكر بن الجيعان ، وهو من نوابغ هذه الأسرة ، وممن ظهروا فى عصر قايتباى . وعرف بالأدب وحب العلم وحلاوة اللسان وحسن السياسة وطيب المعشر . وتقلب فى مناصب عدة كاستيفاء الجيش . وقد قتله بعض أشرار المماليك غيلة ، وهو يسير إلى عمله بعد أن أدى صلاة الفجر . ويعتبر أحد رؤساء عصره . وله منشآت عدة ، منها الزاوية الحمراء وقرر بها خطبة . ومنها حوض ورباط ، وقصور ومناظر ، وحولها أرض مزروعة مخصبة كانت ملهى للناس زمنا فى أيام فيضان النيل . وقد مات مناهزا الستين . — وله مؤلفات .

« راجع باب الحركة العلمية جزء ٢ من كتابنا هذا » .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٢٣ » .

٣٤ — أقبردى الدوادار بن على باى ٩٠٤ هـ

أحد عظماء الأمراء ذوى الهمة الوثابة والعزم الماضى ، والأطماع الحافزة . كان من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق ، وظهر أنه قريب السلطان المذكور . ومن ثم أخذ طريقه إلى عليا المناصب ورفيعات الرتب فى زمن هذا السلطان بكفاءة وجدارة . فكان

أحد أقطاب ساسة عصره ومن لهم فى شئون الدولة يد فعالة مدبرة موجهة . ونافس بعض ذوى الرياسة من الأمراء ، فكان الصراع بينه و بينهم عنيفا وسجالا .

ومن المناصب التى تولاها : إمرة سلاح ، والدوادارية الكبيرة ، والأستادارية والوزارة ، وكاشف الكشاف ، ومدبر المملكة . وقد تزوج بأخت زوجة السلطان قايتباى ، وهى التى كانت زوجة من قبل الأمير جانم الشربقى المتوفى عنها عام ٨٨٤ هـ . فتزوجها أقبردى عام ٨٨٧ هـ .

وقد رقى إلى الدوادارية الكبرى فى عهد السلطان الأشرف قايتباى عقب وفاة يشبك ابن مهدى الدوادار عام ٨٨٥ هـ . ومنذ ذلك الحين والمنافسة بينه وبين قرنائه لا تنقضى ، والفتن لا تنتهى . وقبل ذلك وقعت فتنة فى ربيع الآخر سنة ٨٨٢ هـ بين مماليكه ومماليك أزدمر نائب حلب وتقاتلوا بالرميلة زمنا ، وانضم إلى مماليك أقبردى بعض المماليك السلطانية . ثم سكنت الفتنة وهدأ القتال .

وفى شهر ذى القعدة من العام المذكور أضاف إليه السلطان منصب الوزارة وثبته فيه ، وكان من قبل منتدبا للعمل فيه فقط — وبعد قليل كاد المماليك الجلبان يسيئون إليه بسبب تأخر نفقتهم ، فاضطر إلى الامتناع عن الذهاب إلى مقر عمله بالقلعة عدة أيام . ثم قصدت جماعة منهم إلى منزله وتلطفوا معه وسألوه الوساطة لدى السلطان ليقدم إليهم نفقتهم المقررة — وكان قد امتنع عن تقديمها لقلة ما لديه من المال — فقبل « أقبردى » هذه الوساطة ، واكتسب بذلك جانبا منهم ، ولكن السلطان لم يستجب له ، فكان ذلك سببا لا تساع فتنة المماليك الجلبان . ثم خفت وطأتها قليلا ، إذ قدم السلطان لهم بعض النفقة . ولكنها سرعان ما نشطت ودخلتها عوامل جديدة فى أوائل عام ٨٩٢ هـ وانقسم الجلبان فرقتين فرقة مع الأمير قانصوه خمسمائة ، وأخرى مع الأمير « أقبردى » الدوادار . وكان قانصوه خمسمائة من منافسى « أقبردى » ومن الحاقدين عليه — وقد أوردنا فى ترجمة قانصوه خمسمائة ضروبا من النزاع بينهما — .

وفى نفس العام ٨٩٢ هـ سار أقبردى إلى الوجه القبلى مرة أخرى بسبب ثورة العرب الأحامدة ، فقتل منهم مالا يحصى ، وأسر عددا من النساء والأولاد وساقهم إلى مصر حيث باعهم أرقاء ، وعذب جماعة منهم . وقد عاد بعد أن طهر منهم بلاد الصعيد ، وكانت عودته فى شهر رمضان من العام المذكور . وكان قد سافر قبل جمادى الأولى .

ولما وفى النيل فى عام ٨٩٣ هـ أنيب الأمير « أقبردى » لفتح السد عن السلطان ، وقد كان أتابكيه « أزبك » غائبا عن البلاد فى الحرب بالبلاد الحلبية — وهذه هى السنة الوحيدة التى ناب فيها « أقبردى » فى فتح السد .

وفى عام ٨٩٥ هـ ندب لتأديب عرب البحيرة ، فأدى مهمته وعاد فى شهر جمادى الآخرة من العام المذكور . ثم عاد إليهم بعد قليـــل لنفس الغرض ، وما لبث حتى سار فى شهر ذى القعدة إلى جهة نابلس لأداء بعض المهام ، ثم عاد بعد قليل . وكان قد ذهب إليها مرة أخرى قبل هذه ومعه كاتب السر لجمع بعض الغرائب المقررة . ثم ذهب مرة ثالثة فى أوائل عام ٨٩٨ هـ .

وفى ذى الحجة عام ٨٩٦ هـ ابتدأت الفتنة بين « أقبردى » وقانصوه خمسمائة بسبب نوتى ، واستمرت بينهما زمنا طويلا . وفى تلك السنة حجت زوجته وهى أخت زوجة قايتباى .

وفى ذى القعدة عام ٨٩٧ هـ ، خلع عليه السلطان وعينه فى منصب الأستادارية فضلا عن الدوادارية والوزارة .

وفى يوم العيد الأصغر عام ٩٠٠ هـ ثارت عصابة « أقبردى » من المماليك الجلبان ، وهجموا على دار قانصوه خمسمائة ونهبوا ما فيها وخربوها وأحرقوا جوانبها . فكان ذلك سببا مباشرا لاشتباك الطرفين فى قتال مستمر ، وكان قانصوه إذ ذاك غائبا فى إقطاعه عن القاهرة . ولما عاد علم بما وقع ، فزاد حنقه وسخطه وحقده ، وأضمر هو وشيعته فى نفوسهم الكيد لأقبردى وشيعته ، فلما كان يوم الخميس أول ذى الحجة عام ٩٠٠ هـ ، ركب قانصوه هو وجماعته أفراسهم وتقلدوا سلاحهم واجتمعت جموعهم فى الأزبكية ، وخيف أن تكون ثورتهم ضد السلطان . وحينئذ نشط السلطان ومعه الأمير « أقبردى » وجمعا جموعا من الأمراء والمماليك السلطانية ، فانفض كثير من المماليك السلطانية الملتفة حول قانصوه فتخاذل واختفى . وكانت هذه نصرة باهرة لأقبردى .

وما حان شهر ربيع الأول عام ٩٠١ هـ حتى ظهر « لأقبردى » عدو جديد ، وهو الأمير قرقماس بن ولى الدين أمير أخور ثالث ، وأخذت عداوتهما فى الزيادة من ذلك الحين . وفى شوال من نفس العام وقعت الوحشة بين أقبردى وبين صديقه جان بلاط بسبب منصب الأخورية الكبرى ، إذ رشح جان بلاط نفسه له ، فوقف فى سبيله « أقبردى » ، وانتزعه من السلطان لصديقه شاذبك الخوخ . ثم ظهر قانصوه خمسمائة بعد

اختفائه . وكان السلطان يرغب فى ظهوره ، فاسترضى مقدما كثيرا من المماليك بالمال حتى لا يقابلوا قانصوه بالسوء إذا ظهر . فكان عمله هذا نذيرا للأمير « أقبردى » فأخذ حذره من الحوادث منذ ذلك الحين . ولما ظهر قانصوه ألفيه السلطان خير لقياه . فرجحت بذلك كفته على كفة « أقبردى » . واجتمع عديد من المماليك الجلبان ومن أتباع قانصوه وحاصروا « أقبردى » وعاثوا فى الأرض فسادا . ولكن « أقبردى » كان قد أعد العدة للاختفاء من داره فاقتحمها أعداؤه ونهبوا ما فيها . وقد قوى أمر قانصوه وأتباعه ، وحُمّ السلطان ومرض فلم يستطع كبح جماح الثائرين . ودخل فى دور النزع . فخلعه قانصوه وولى ابنه الناصر فى ذى القعدة عام ٩٠١ هـ بعد أن حمل الأمراء والقضاة والخليفة على ذلك . فأصبح فى الدولة الجديدة صاحب الحول والطول كما بينا فيما سبق .

لم يجد « أقبردى » بدا من الرحيل عن مصر ، وقد نبا به المقام فيها . وآلت الدولة فيها إلى عدوه قانصوه . فخرج إلى غزة مختفيا . ومن غزة إلى البلاد الشامية . وبلغت أخباره أسماع الأمراء فى مصر ، وكان قد أهمهم أمره . فكتبوا إليه أمانا يخدعونه به حتى يتسرب إلى البلاد فيقبضوا عليه - فأرسلوا إليه أمانهم هذا بإمضاء السلطان الجديد فى ربيع الثانى عام ٩٠٢ هـ . وصنعوا خدعة أخرى فى القاهرة للقبض على أتباعه المختفين ، ومنهم شادبك الجوخ أمير أخور كبير . فآمنوهم حتى ظهروا فخادعهم قانصوه - وكان قد صار أتابكيا - وأضافهم فى منزله فانخدعوا وذهبوا إليه وهناك قبض عليهم وسيقوا إلى النيل وأغرقوا فيه .

كادت تكون سلطة قانصوه قد استتبت بعد أن استراح من عدوه « أقبردى » وأتباعه . ولكنه طمع فى الملك فحرك لنفسه أعداء جددا كالحوه مكالحة شديدة حتى هزموه . فقد حمل القضاة والخليفة على خلع الناصر والمناداة به هو سلطانا . فظل فى ملكه ثلاثة أيام . ثم هب له خال الناصر وهو قانصوه بن قانصوه وهزمه هزيمة منكرة ، اختفى على أثرها ، وتفرق عنه أتباعه .

أما « أقبردى » ، فإن السلطان الناصر كتب إليه يطلب منه الحضور إلى القاهرة . وتم ذلك فى جمادى الآخرة عام ٩٠٢ هـ ، وتوجه إليه بمرسوم السلطان رسول خاص هو جانى باى . وكان « أقبردى » مقيما لدى أقباى نائب غزه . وقيل إن قانصوه خمسمائة لما «

اختفى فى غزة ليقتال هناك « أقبردى » بجهة خان يونس قربها ، وكان « أقبردى » قد خرج من غزة متجها نحو الديار المصرية ، دهمه قانصوه خمسمائة بعصابته فى الطريق ، وكاد يفتك به ، لولا أن أقباى نائب غزة سمع الخبر وعجل بنجدته وهو مزمع اللحاق به للسفر إلى مصر معه ، ومعهما عديد من الأمراء والجنود . فوقع بين الطرفين معركة حامية انهزم على أثرها قانصوه ، ولم يعلم له خبر من بعدها ، وقيل إنه فر ، وقيل إنه قتل أثناءها . أما « أقبردى » فقد فرح بهذا النصر والقضاء المبرم على عدوه ، وقبض على كثير من أتباعه ونكل بهم . وقد فرح أيضا السلطان الناصر بن قايتباى لهذا النصر المفاجىء .

بلغ « أقبردى » القاهرة فى يوم الأحد ١٤ رجب ٩٠٢ هـ بعد فراره منها فى أخريات العام السالف ٩٠١ هـ . فلقيته القاهرة خير لقاء . ومعه عديد من الأسرى ورءوس القتلى . ولم ينقض شهر رجب المذكور حتى خلع السلطان الناصر عليه لقبين كبيرين هما أمير سلاح ودوادار كبير . وأصبح فى يده الدوادارية الكبرى والأستادارية والوزارة وكشف الكشاف وإمرة سلاح . فبلغ بذلك كله حد التخمة فى المناصب والرتب فلم يعد لجديد منها مكان لديه ! ... وأصبح شبيها بالأمير يشبك المهدى الدوادار — انظر رقم ٣١ — ووصل بذلك إلى أوج عزه ومجده .

كاد يكون « أقبردى » هادىء البال ناعم القلب بما جاده الزمان . غير أن بقايا عصابة قانصوه خمسمائة من مماليك وأمراء ، ادخرت له فى نفسها البغض والحقد ، وعولت على الانتقام منه فى أية صورة . فلم تر بأسا من أن تنضم إلى قانصوه بن قانصوه خال الملك الناصر ، وتكون حوله عصابة قوية ، ثم توغر صدره على الأمير « أقبردى » وتظهره فى ثوب المنافس الذى يجب القضاء عليه . وقد نجحت فى مكرتهم وحيلتهم ، وشعر بذلك الأمير « أقبردى » فانكمش فى نفسه وضاق صدره ، ورأى كلمته وهى تزول رويدا رويدا ، بل أصبح يتوجس خيفة فى كل آن حذر الغدر والبطش به . وهكذا انقلبت الحال ، وأصبح « أقبردى » بموقفه هذا قريب الشبه بموقف قانصوه خمسمائة من الملك الناصر وخاله قانصوه بن قانصوه — فأخذ يعد العدة ويجمع إليه الأنصار . ثم وقعت بين الطرفين موقعة قاسية فى يوم السبت ٤ رمضان عام ٩٠٢ هـ انهزم فيها « أقبردى » وعصابته ، فهرب فى جنح الليل إلى بلاد الصعيد وهرب معه الأمير « أقباى » نائب غزة

صديقه - وبعد قليل بعث إليه السلطان الناصر يسترضيه ، فعاد إلى القاهرة فى أخريات شهر ذى القعدة سنة ٩٠٢ هـ . وقد قابله عديد الأمراء والجند بالجيزة مقابلة حافلة ، وكأنما تناسوا ما كان من الجميع ، وصفا له الزمان لمحة من لحاته . ثم هم قانصوه خال السلطان بالذهاب للقائه أثناء قدومه ، فزين له قرناء السوء عاقبة هذا اللقاء وأن « أقبردى » ربما قبض عليه بالجيزة . لذلك امتنع من الذهاب . فانقسم حينئذ الجنود والأمراء فرقا ثلاثا : واحدة مع أقبردى . وواحدة مع قانصوه بن قانصوه ، وهم عصابة قانصوه خمسمائة وأعداء « أقبردى » . وفرقة مع السلطان الناصر . وكان ممن انضم إلى أعداء « أقبردى » الأمير كرتباى الأحمر ، وقبل دخوله القاهرة اعتدت طائفة من المماليك على منزله ونهبوا بعض نفائسه . ثم دخل القاهرة فى جمع كثيف من الأمراء والجند ، وكأنه يزحف عليها لافتتاحها . - قال ابن إياس هنا ماملخصه :

« إن « أقبردى » لو أراد امتلاك القلعة فى ذلك اليوم منتهزا هذه الفرصة لامتلكها ولتغير له وجه الزمن العبوس » .

ولكن بعض أصدقائه أشار عليه بالنزول إلى داره أولا ، ليرى ما حدث بها ثم يعد العدة لما يبدو له عمله . فكانت فترة نزوله بمثابة ركود فى حركته فرقت عنه بعض الأتباع ، وفترت من حماسة آخرين .

أصبحت القاهرة منذ دخول « أقبردى» إليها مسرحا للقيل والقال والمناوشـــة بين أتباع الطرفين ، ووقع بسبب ذلك ضروب من الفوضى . غير أن كل طرف أخذ يعد عدته لموقعة فاصلة يقضى فيها على خصمه . وأنفق الأمير « أقبردى » على أتباعه نحو مائة ألف دينار من ماله . وجمع السلاح وأجدّ منه الكثير . ثم وقعت الواقعة فى يوم عيد النحر ، واستمر القتال واستحر أياما . ثم إن فريقا من جند « أقبردى » خانه وانفصل عنه ، ففت ذلك فى عضده ، وانكسر فى أخريات ذى الحجة من هذا العام « ٩٠٢ هـ » ، فترك القاهرة هو وجماعة من أتباعه ويمم شطر بلاد الشام ، عابثا بما يمر به من البلدان . وكانت هذه آخر مرة يغادر فيها القاهرة ، فلم يعد إليها بعـــد . - ولما بلغ مدينة غزة استولى عليها ، فرأى الأمراء فى مصر أن يبعثوا فى إثره تجريدة تكف أذاه عن ممتلكات الدولة . إذ أنه حاول انتزاع بلاد الشام وحاصرها نحو شهرين ، فدافع عنها أمراؤها وجندها ، ففر إلى حلب فلم يستطع الاستيلاء عليها ، على الرغم من انضمام نائبها إليه ،

فنر وإياه وجماعتهما إلى «على دولات» ببلاد التركمان . وقد أرسلت التجريدة إثر ذلك ، وتقدمها الأمير كرتباى الأحمر نائبا على بلاد الشام . وقد تتبعت هـــذه التجريدة أثر « أقبردى » حتى قابلته هو وعصابته فى جهة « عينتاب » وهزمته هزيمة منكرة ، ففر «أقبردى» مغلوبا . ومن ثم عادت التجريدة إلى مصر فعاد هو إلى عبثه بالبلاد الحلبية .
كل هذا وقع من « أقبردى » ، وظل الملك الناصر يُعنى بأمره ويود لو أنه عاد ليضرب به المستبدين المتغلبين عليه مثل قانصوه خاله وكرتباى الأحمر نائب الشام وغيرهما ، لذلك هم بالسفر إلى الشام وحلب فى تجريدة بدعوى قتال « أقبردى » ، ومن ثم يضمه إلى جانبه ويعود به إلى مصر . فكانت هذه الفكرة سببا فى فتنة سرت بليهيها بين الأمراء ثم سكنت قليلا . ودُبرت مؤامرة لاغتيال السلطان فنجحت ، ونتج عنها أن آلت السلطنة إلى خاله قانصوه بن قانصوه . وبذلك فقد « أقبردى » كل أمل فى الرجوع إلى مصر .

غير أن «أقبردى» لم تخف وطأته على بلاد حلب والشام . فرأى الأمراء أن يعيَّن نائبا للسلطان فى طرابلس ، ورسم السلطان بهذا فى رمضان عام ٩٠٤ هـ . وقد بلغ هذا التقليد إلى «أقبردى» وصولح فى حلب . وأخذ يعد العدة للسير إلى مقر نيابته طرابلس فى شوال من العام المذكور . غير أنه مالبث غير قليل . ثم توفى فى ذى القعدة من العام نفسه وهو فى حلب ، بعد هذه الحياة الطويلة المليئة بضروب الكفاح والنزاع وقيل اعترته وهو فى حلب آفة جلدية قضت عليه . فدفن فى ضريح سعد الأنصارى ، ثم نقلت جثته إلى القاهرة فى أواخر صفر سنة ٩٠٥ هـ ، ودفن بتربته التى أنشأها بالصحراء . وله من العمر أقل من ٥٠ سنة . ومما يذكر أن ابنة الأمير « أقبردى » ، تزوجها الأمير طومان باى الدوادار الذى ملك البلاد بعد الغورى .

« ابن إياس ج ٢ من ص ٢١٢ إلى ٣٦٢ — ج ٣ ص ١٠٥ — الضوء ج ٢ رقم ١٠٠٢ » .

٣٥ — كرتباى الأحمر بن مصطفى ٩٠٤ هـ

من أمراء عهد قايتباى ، وكان أول بروزه فى المسرح السياسى والميدان العملى فى عام ٨٩٠ هـ . إذ أسند إليه السلطان المذكور عدة من الوظائف منها حجوبية الحجاب بطرابلس ، ونظر جيشها . ثم انتقل إلى نيابة صفد . ثم تنقلت به الأيام حتى سنة ٩٠١ هـ فاندس فى الفتنة المشتعلة بين قانصوه خمسمائة وأقبردى الدوادار . وكان من أنصار

قانصوه فى حوادث السنة المذكورة . وعاونه على خلع السلطان الأشرف قايتباى وتولية ابنه الناصر محمد . ومن هنا أصبح كل منهما ذا حظ كبير وسطوة هائلة . وصار بيدهما جميع أمور السلطنة . أما قانصوه فأصبح أتابكيا . وأما «كرتباى» فقد صار وزيراً وأستاداراً وكاشف كشافة ومقدم ألف . وقد أجرى فى هذه الآونة ضروبا من العدل بين الناس والرأفة بهم . فأبطل نظارة الأوقاف لأنها كانت مصدر إرهاق وجور . وأبطل ضروبا من المكوس . وحجر على الرسل والنقباء فى القضاء ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصف فضة . وهكذا . وكان تعيينه فى الوزارة فى شهر ذى الحجة سنة ٩٠١ هـ .

وقد اشتط «كرتباى» فى تتبع أنصار أقبردى والتنكيل بهم ، فشتت شملهم فى أرجاء البلاد وفرق جموعهم . وفتش رحل أقباى الطويل نائب غزة إذ ذاك وهو متوجه إلى مقر عمله خشاة أن يكون قد أخفى أقبردى معه . وقد قام بالتفتيش بأمره وأمر قانصوه ، والى الشرطة . فلم يجداه ، مع أنه كان مختفيا عنده . وعذب شمس الدين الفرقوى إمام أقبردى . وهكذا .

ثم إنه اشتط أيضا فى معاملة الملك الناصر بن قايتباى لصغر سنه وكثرة لهوه وجنوحه إلى اللعب . فحجر عليه ووكل به أربعة من الخاصكية يمنعونه الاختلاط بسواه من الصبية ، ومن التصرف فى الأمور . فكان ذلك سببا فى حنق الملك عليه وكرهه إياه . وأدى ذلك إلى اضطراب الأمور . فحدث قانصوه خمسمائة بالسلطنة . وعاونه وتمت بيعته وخلع الملك الناصر . غير أن ذلك لم يدم إلا نحو ثلاثة أيام ، ثم قاومهم الناصر بهمة خاله قانصوه بن قانصوه ، فتخاذلوا واختفى قانصوه خمسمائة بعد عراك كبير . أما «كرتباى» فإنه رحل إلى المطرية للاستيلاء على ما فيها من الخيول ، ثم فر قانصوه إلى الشام ، ووقعت بينه وبين أقبردى مناوشات أدت إلى هزيمة قانصوه وعدم العثور عليه ، فكان هذا آخر العهد به كما بينا . أما «كرتباى» فإنه اختفى منذ ذلك الحين وخلع من مناصبه وأسندت إلى سواه . ومما زاد الطين بلة أن الأمير أقبردى كان قد عاد إلى القاهرة وعادت إليه مناصبه ، فلم يعد ثمت عيش ولا مقام فى مصر للأمير «كرتباى» . غير أن الظروف دارت دورتها والتأمت عصابة قانصوه خمسمائة حول خال الناصر قانصوه ابن قانصوه المناوئ لأقبردى ، وعصابته ، ولما بدأ القتال بين الفريقين ظهر «كرتباى»

الأحمر وانضم إلى شيعة قانصوه بن قانصوه، فزادوا به قوة وتماسكا، وهزموا أقبردى، ففر إلى بلاد الشام. وبذلك صفا الجو مرة أخرى «لكرتباى». فأخذ فى تتبع أنصار أقبردى مرة أخرى قتلا وتشتيتا. تم كل هذا فى عام ٩٠٢ هـ.

وفى المحرم عام ٩٠٣ هـ رقى «كرتباى» إلى أمير سلاح. ولكن يظهر أنه أحس بكراهة الملك الناصر له. ولم يعد هو يستطيع ردا لهذه الكراهية. ولا بدله من الأغضاء المرير عليها. فاستقال من مناصبه. فرأى الملك أن يعينه فى منصب بعيد عن مصر، فاختار له نيابة الشام، لكى يعد هناك العدة ويمهد للتجريدة المرسلة للقضاء على أقبردى. فسافر بعد قليل إلى بلاد الشام. فأبلى هناك فى حرب أقبردى بلاء حسنا، وطارده هو ومن معه. ثم عاد إلى الشام فاستولى على قلعتها وطرد نائبها ونصب نفسه نائبا لها أيضا دون إذن من السلطان. فبعث إليه السلطان عتابا رسميا مع أحد رسله، فعاد من لدنه دون طائل. فكان هذا بمثابة الخروج عن طاعة السلطان. ثم دبرت لهذا السلطان مؤامرة عاجله الموت فيها. فلم يستطع القصاص من هذا الخارج. وآلت السلطنة إلى خاله قانصوه بن قانصوه. وبينما الأمور آخذة فى الاستتباب لهذا السلطان الجديد إذ وافت الأخبار بموت «كرتباى» الأحمر، وقيل حينئذ إن الملك الناصر كان قد دس عليه من وضع له السم فقضى عليه. وكان موته فى ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ.

«ابن إياس ج ٢ ص ٢٧١، ٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٧، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٤ إلى ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٢، ٣٣٤ إلى ٣٣٦، ٣٤٠ إلى ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٥١».

٣٦ — أزبك اليوسفى ٩٠٤ هـ

أحد رجال عصر قايتباى. وكان أولا من مماليك الظاهر جقمق ثم أعتق. وعرف بأزبك الخازندار، لأنه تولى منصب الخازندارية الكبرى أول حياته العملية الرسمية. ثم أخذ يترقى صعدا فى سلم الرقى حتى صار أميرا مقدما، واختير لإمارة ركب المحمل عام ٨٨٧ هـ ولم تحمد سيرته. ثم عينه قايتباى رأس نوبة كبير عوضا عن تغرى بردى ططر المتوفى. وكان تعيينه فى شهر ربيع الثانى عام ٨٩٤ هـ. وفى شهر صفر عام ٨٩٨ هـ ندب لتأديب الثائرين فى بلاد البحيرة، فكان على رأس تجريدة تضم عددا من أمراء العشرات والجنود، فأدى مهمته وعاد بعد قليل.

وفى ربيع الأول عام ٨٩٩ هـ توفيت زوجته . وهى إحدى قريبات الملك الظاهر جقمق ، وكانت من قبله متزوجة بالأمير تنم المؤيدى نائب الشام .

وفى شهر صفر فى يوم الاثنين أول عام ٩٠١ هـ ، رقى الأمير أزبك اليوسفى إلى أمير سلاح عوضا عن تانى بك الجمالى . وفى ذى الحجة من العام نفسه ، بعد أن آلت السلطنة إلى الناصر محمد بن قايتباى ، ظفر الأمير « أزبك » منه بتقدمة ألف . غير أنه فى رجب عام ٩٠٢ هـ ، ساءت علاقته بالسلطان المذكور فرسم بنفيه . ويظهر أنه انضم حينئذ إلى حزب قانصوه خمسمائة ، فلما انهزم واختفى اختفى أنصاره ومنهم أزبك اليوسفى . ثم ظهر من اختفائه فى ذى الحجة عام ٩٠٢ هـ ، حينما اشتد النزاع بين أقبردى وقانصوه ابن قانصوه ، فانضم إلى هذا الأخير فى جملة من انضم من عصابة قانصوه خمسمائة . فلما تغلبوا على أقبردى واستتب لهم الأمر ، كان من نصيب الأمير « أزبك » أن رقى إلى مقدم ألف وأعطى لقب مشير المملكة فى المحرم عام ٩٠٣ هـ . غير أنه كان قد شاخ وهرم وكبرت سنه حتى أصبح لا يقوى على العمل . حتى إن السلطان الظاهر قانصوه ابن قانصوه لم يجد بدامن أن ينزع منه تقدمته ويهبها لغيره ، فأنعم بها على الأمير أزدمر ابن على باى فى جمادى الأولى عام ٩٠٤ هـ ، فأصبح عاطلا دون عمل ، فما لبث بعد هذا إلا رمضان من نفس العام ثم توفى . فصلى عليه السلطان قانصوه ودفن بمدرسته التى أنشأها . وكان لين الجانب دمث الأخلاق ومات وقد نيف على الثمانين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ - الضوء ج ٢ رقم ٨٤٧ » .

٣٧ — أقباى الطويل ٩٠٥ هـ

قال عنه ابن إياس : « وفيه - أى فى جمادى الآخرة سنة ٩٠٥ هـ - جاءت الأخبار من القدس بوفاة « أقباى الطويل » الذى كان نائب غزة . ثم بقى رأس نوبة كبير ، وفر مع أقبردى الدوادار لما انكسر وخرج من مصر وآل أمره إلى أن أقام بالقدس بطالا حتى مات . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى . وقيل إنه مات مسموما . وكان شجاعا بطلا ، وجرت عليه شدائد ومحن وقاسى مالا خير فيه بسبب صحبته لأقبردى الدوادار . وهو الذى كان سبباً فى نصرته على قانصوه خمسمائة فى الواقعة بخان يونس

الذى بقرب غزة » . وهو غير أقباى الطويل الذى ظهر فى عهد الأشرف الغورى .
ملحوظة : اقرأ ترجمة أقبردى الدوادار ففيها ذكر لأقباى الطويل .
« ابن إياس ج ٢ ص ٣٦٣ – الضوء ج ٢ رقم ٩٩٤ » .

٣٨ – الأمير تانى بك قرا ٩٠٥ هـ

قال عنه ابن إياس : وفى شعبان فى يوم السبت سادسه – عام ٩٠٥ هـ – جاءت الأخبار من القدس بقتل « الأمير تانى بك قرا » . وكان مقيما بالقدس . وكان من عصبة أقبردى وفر معه . فلما استقر بالقدس توجهت المراسيم بخنقه ، فخنق وهو بين أولاده وعياله وكانوا توجهوا إليه . وكان قتله فى يوم الأحد ثانى عشر من رجب ، ودفن بالقدس . فلما جاءت الأخبار بوفاته أسف عليه الكثير من الناس ، وكان أميراً جليلا رئيساً حشما لين الجانب قليل الأذى كثير الخير . ومن آثاره السبيل والصهريج الذى أنشأهما برأس سويقة ابن عبد المنعم تجاه الرميلة ، وصرف على ذلك من ماله مالا له صورة ، فلما كمل بناء ذلك قدم هذا السبيل والصهريج للسلطان قايتباى ، فصار ذلك يعرف بسبيل السلطان . ومن آثاره المسجد اللطيف الذى أنشأه بجوار بيته عند خوخة القردى . وكان أصله من مماليك الأشرف إينال ورقى فى دولة الأشرف قايتباى . وتولى عدة وظائف منها : تاجر المماليك والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ثم بقى حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس . ووقع له من الشدائد والمحن ما يطول شرحه . وفاته القتل عدة مرار . وفر مع أقبردى إلى ألبيرة وعدى الفرات . وكان موصوفا بالفروسية والشجاعة . ومات وله من العمر زيادة عن ستين سنة » . –

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ » .

٣٩ — مصر باى الدوادار ٩٠٧ هـ

أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتقه . ودفعت به الأقدار حتى عين فى عهد السلطان جان بلاط دوادارا كبيرا فى جمادى الأولى سنة ٩٠٦ هـ . ولما ثار طومان باى ضد الأشرف جان بلاط وأعلن بنفسه سلطاناً على الشام وأخذ فى الزحف على مصر ، كان « مصر باى » الدوادار من حزب جان بلاط ، وانضم إليه وحارب فى صفوفه .

وكان نصيبه أن أزيل من فوق فرسه ، ففر ونجا بنفسه واختفى . وتم الملك للعادل طومان باى . ثم دبر « مصر باى » مؤامرة لاغتيال العادل وإزالته من كرسيه ، وانضم إليه الأمير قيت الرجبي والأمراء خشكلدى البيسق وجان بردى الغزالى وغيرهم من أعداء العادل . وكانت النتيجة خلعه من عرشه واختيار الغورى للجلوس عليه ، فعاد بذلك « مصر باى » إلى دواداريته الكبرى . غير أنه ما لبث أن غضب عليه السلطان الغورى فقبض عليه فى يوم الثلاثاء ١٢ محرم عام ٩٠٧ هـ . بعد مشورة الأمراء ، وقيل كان هذا القبض بدون سبب ! . . . وبذلك خلع من منصبه وعين فيه سواه . ثم سجن بثغر الإسكندرية . ولكنه سرعان ما احتال حتى فر من سجنه . وقيل دس له بعض أتباعه مبردا كسر به قيده وفر ودخل القاهرة . ولعل الأمراء اشتموا منه رائحة أطماع وأهواء ، خافوا على أنفسهم مغبتها . فنصحوا السلطان بالقبض عليه فأطاعهم . وكان ما كان من سجنه ثم فراره . فلما بلغت أخبار هـذا الفرار أسماع الأمراء اضطربوا ، وأخذ والى القاهرة يفجأ المنازل والمحال باحثاً عنه فلم يعثر عليه . أما « مصر باى » فإنه جمع بعض أتباعه من المماليك ، وأراد أن يفجأ بهم عددا من أعدائه من الأمراء ليقتلهم ، والتمس لذلك فرصة نزولهم بعد تناول الفطور مع السلطان بالقلعة ليلة الإثنين ١٢ رمضان سنة ٩٠٧ هـ . وقد انجلت حركته هذه عن تشتت أتباعه ، وعن قتله هو فى صباح الليلة المذكورة : أعنى يوم الاثنين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٩٥ — و ج ٤ ص ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٦ ، إلى ، ٢٨ » .

٤٠ — المقر الشهابى أحمد بن العينى ٩٠٩ هـ

ظهر فى عهد السلطان الظاهر خشقدم . وهو من كبار الأعيان ورؤساء الأمراء . وهو حفيد السلطان خشقدم . أمه ربيبة هـذا السلطان ، وأبوه عبد الرحيم بن قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى . توفيت أمه فى أوائل سنة ٨٦٧ هـ . وكانت لها جنازة حافلة . وفى عام ٨٦٩ هـ . عينه السلطان أميراً للحج ، وأنعم عليه بتقدمة ألف . فسافر فى أخريات العام أميراً للمحمل ، ومعه الأمير يشبك الفقيه أميرا للركب الأول . وحجت معه خوند الأحمدية زوجة السلطان خشقدم . وقد كان « المقر الشهابى أحمد بن

العيني » في هذه الحجة مثالا لأبناء الملوك وعظماء الرجال . فقد كانت له مهابة وجلال ، وخرج بركبه في أجمل زينة . وكان رحله محلى بأنواع الجواهر واليواقيت والذهب ، وحوله عدد من الأمراء والمباشرين . ثم عاد من مكة في أوائل عام ٨٧٠ هـ . وفي عام ٨٧١ هـ ، خلع عليه السلطان وجعله أمير آخور كبيرا عوضا عن بلباي المؤيدي . ووثق به ووكل إليه كثيرا من شئونه ، حتى صار صاحب الحل والعقد في الديار المصرية. وأنشأ حينذاك قصره العظيم المطل على البحر بمنشية المهراني — جهة الفسطاط — فلما كملت عمارته شرفه السلطان بالزيارة في حفل عظيم — ولما دالت دولة خشقدم وخلفه في الملك السلطان الظاهر بلباي المؤيدي خلع على الأمير « أحمد بن العيني » لقب أمير مجلس عوضا عن تمربغا الذي صار أتابكيا ، وذلك في أول مواكبه عام ٨٧٢ هـ في شهر ربيع الأول . فلما ارتقى « ابن العيني » إلى هذه المرتبة تحول من منزله إلى بيت جاني بك — نائب جده — المطل على الخليج وسكن به . وسرعان ما آلت السلطنة إلى تمربغا نفسه ، وهو الملك الظاهر أبو سعيد الظاهري عام ٨٧٢ هـ . في شهر جمادى الأولى. وهنا وقعت فتن كثيرة وتولى السلطنة في الواقع ثلاثة من السلاطين هم : تمربغا وخير بك والأتابكي قايتباي . ثم كانت الغلبة والنصرة لقايتباي . فكان لابد له من أن يفجأ أعداءه بالقبض عليهم . وكان من بينهم « المقر الشهابي أحمد بن العيني » ، فسجن بالقلعة مقيدا ومعه خير بك الذي سلطن نفسه . ثم نقلا بعد قليل إلى مكان بالقرب من القصر الكبير بالقلعة . ثم فرض على كل منهما غرم مالي كبير . وكان نصيب « ابن العيني » أن فرض عليه نحو مائتي ألف دينار ، خلا ما يدخره من النفائس والسلاح . — وقد بدأ بذلك نجم « ابن العيني » في الأفول . فإنه لم يستطع أن يفي بما فرض عليه فاستحضره السلطان قايتباي في أحد أيام شعبان عام ٨٧٢ هـ . بين يديه في الدهشية وأسمعه من الكلام قارصه وبطحه على الأرض وضربه بيده عشرين عصا تقريباً حتى أدماه وأغمي عليه . وشفع فيه بعض الأمراء فتركه . وأعيد إلى طبقة الزمام ، فأقام بها أياما ، ثم تسلمه الدوادار الكبير يشبك بن مهدي فاعتقله في داره ، حتى يؤدي ما فرض عليه من الغرم المالي . وقد انهز بعض الرعاع فرصة بؤسه ونحسه ونهبوا داره وما فيهـا من نفائس تقدر بنحو خمسين ألف دينار ، مع أنه رشح مرة للسلطنة . وكان في جاه عريض وكلمة نافذة ، حتى كان يطلق عليه « عزيز مصر » . — ثم إنه أدى بعض ما فرض عليه من

المال وأطلق سراحه ، وقد توسط له الأمير يشبك الدوادار والتزم «ابن العيني» أن يورد كل شهر عشرين ألف دينار . ولكن سرعان ماقبض عليه ثانياً حتى يؤدى ماتبقى فأداه . وحينئذ رضى عنه السلطان ! . . . فخلع عليه وأطلق سراحه ، فلبث من ذلك الحين بلا عمل . ولكنه حسن الصلة بالسلطان مختارا للسلامة والعافية عن الكفاح والجلاد . فلان له السلطان وتعصب له فى بعض قضاياه التى لم ينفذ الحكم فيها بعض قضاة الشرع فوبخهم وعزلهم .

وانتهز «ابن العيني» فرصة ختان ابن السلطان فى شهر رجب سنة ٨٩٥ هـ ، وأهدى إليه تحفة ثمينة وهى طست وإبريق من الذهب زنتهما ستمائة مثقال ومعهما هدايا أخرى ، فكانت هدية من خير ما أهدى إلى السلطان . ثم تقدم «ابن العيني» فى طليعة الأمراء الذين احتفلوا بركب ابن السلطان فكان ممسكا بزمام جواده . وله ابن يقال «محمد بن العيني» كان ذا عظمة وجاه كأبيه ، ولكنه توفى فى حياة أبيه ، فأدركه القنوط واختار مكة للإقامة فيها ، فسلخ فيها نحو ست سنين حتى نت سلطنة الغورى ، وحدثت ببلاد الحجاز فتنة الجازانى وذهب الأتابكى قيت الرجبى لإطفائها ، فأمره الغورى أن يستصحب فى عودته «الشهاب بن أحمد العيني» مكبلا فى الحديد ، فوجده قد مات بالمدينة بعد أن فرمن وجه الجازانى . وقد دفن بالبقيع وذلك عام ٩٠٩ هـ .

«ابن إياس ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ إلى ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ إلى ٩٤ ، ١٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٧٢ ، ٣٥٢ - ، ج ٤ ص ٥٧ حوادث ربيع الأول سنة ٩٠٩ هـ .

٤١ — علاء الدين على بن أبى الجود ٩٠٩ هـ

من رجال عصر الغورى . قيل إن أصله سوقى من الصليبة . وإن أباه كان نجارا يقال له «المعلم حسن» . ثم تعشق صناعة الحلويات وسمى نفسه «أبا الجود» . وأقام زمنا طويلا يبيع الحلوى بباب حمام شيخو . فلما مات خلفه ابنه على فى صناعته . قيل «وكان يقلى المشبك بيده فى رمضان» . ثم اتصل بالأستادار تغرى بردى . فاتخذه برددارا — حافظ الثياب — ثم اتصل بالعادل طومان باى قبل سلطنته فاتخذه أيضا بردداراً . ثم اتصل بالأشرف الغورى قبل سلطنته فاتخذه بردداراً أيضا . فلما آلت إليه السلطنة استبقاه برددارا له كذلك ، وحظى عنده فزاد جاهه ونفذت كلمته . ثم وكل إليه هذا السلطان النظر فى الأوقاف مندوبا ثم ثبته

نهائيا فيه فى جمادى الأولى سنة ٩٠٨ هـ ، فزادت عظمته وتشبه بالأمراء ولبس الطوق وركب الخيل واحتذى بالأخفاف والمهاميز ، حتى عد من بين رؤساء مصر . وضمت إليه وظائف أخرى منها وكالة بيت المال ثم الوزارة ، والأستادارية ، وديوان الخاص وغير ذلك . قال ابن إياس : « فاجتمعت فيه الكلمة وتصرف فى أمر المملكة بما يختار » .

وقد قرر عليه السلطان الغورى مبلغ اثنى عشر ألف دينار ينفقها شهريا على الجوامك ، ويجمعها من أبواب المظالم التى ينظر فيها . فاضطر إلى أن يعتسف الناس ويجور عليهم ويصادر منهم ليجمع ما طلب منه من المال ، واشتط فى عسفه وجوره وسوء حكمه بين المتخاصمين ، حتى ساءت سمعته وكرهه الناس بعد أن كانوا يعظمونه ، ولا أدل على تعظيمهم إياه من أن القاهرة ازدانت له فى ليلة ختان ابنه فى ذى القعدة سنة ٩٠٧ هـ .

فلما زاد ظلمه وكثرت الشكاية منه غضب عليه السلطان وقبض عليه وصادر ماله واحتجز نساءه وحاشيته . وسلمه إلى برداره بركات بن موسى ، ليعاقبه ويستخلص منه مالا قرر عليه ، فضرب ضرباً مبرحا وعذب . ثم نقل إلى بيت الوالى ، فقيده حتى أدى ما عليه من المال المقرر . غير أن السلطان رسم بشنقه يوم الاثنين ٢٣ المحرم سنة ٩٠٩ هـ ، فشنق على باب زويلة ، واستمر معلقاً هناك ثلاثة أيام ثم دفن . واحتاز السلطان ما وجد له من المال .

« ترجمته فى ابن إياس جـ ٢ ص ٣٨٧ — وجـ ٤ ص ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٤ إلى ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٥ » .

٤٢ — الأمير طراباى الشريفى ٩١٧ هـ

ترجم له ابن إياس فقال ما ملخصه : فى يوم الجمعة ٦ المحرم سنة ٩١٧ هـ كانت وفاة الأمير « طراباى الشريفى » رأس نوبة النوب ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، فهو من معاتيقه ، وولى من الوظائف السنية الدوادارية الثانية . ثم بقى رأس نوبة النوب فى دولة الأشرف جان بلاط عوضا عن قرقماس بن ولى الدين الذى ولى الأتابكية فيما بعد . وكانت وفاة الأمير « طراباى » فى ليلة الجمعة ودفن صبيحة يوم الجمعة . وكانت جنازته مشهودة . ونزل السلطان وصلى عليه فى سبيل المؤمنين . وأخرجت قدامه كفارة ونهبت على بابه . ودقت عليه زوجته بالطارات فى العزاء . وكانت مدة انقطاعه بهـذا العارض نحو شهر . وكان له بمصر حرمة وافرة وكلمة نافذة وسطوة زائدة ، لم تقع لأحد

من الأمراء فى عصرنا غيره . وقد اعتراه ورم فى رجله وركبته . فرجت لموته القاهرة ، وفرح بذلك غالب الناس . فإنه كان صارما عسوفا شديد البأس زائد القسوة ، وقع منه أشياء كثيرة من أنواع المظالم بالديار المصرية ، لم تقع من غيره من الأمراء فيما تقدم، وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس من مصادرات وأخذ بيوت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده .

وكان من أول أمره فى عز وذا شهامة لم ينكب مرة ولم ينف مرة . ومات فى نحو السبعين . واتضح أن له أموالا طائلة وخيلا وجمالا وسلاحا ، فاستولى السلطان الغورى على ذلك كله . وكان بينه وبين الأتابكى قرقماس بن ولى الدين فى الموت ثلاثة أشهر واثناعشر يوما » . أهـ

وقد نال الأمير « طراباى الشريفى » لقب أمير أخور رابع ، فى شهر ذى الحجة سنة ٩٠١ هـ ، فى عهد الناصر محمد بن قايتباى . ثم ارتقى إلى الأمير أخورية الثانية وذلك فى أوائل سنه ٩٠٣ هـ . ثم إلى الدوادارية الثانية فى ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ ، وفى شوال من العام المذكور ثار العرب فى البحيرة وزاد عبثهم وفروا إلى المعيصرة ؛ فأرسل إليهم السلطان قانصوه تجريدة لتأديبهم كان من بين أمرائها الأمير « طراباى الشريفى » فأصيب بجرح خطير شفى منه بعد حين . ثم كان رسولا لهذا السلطان بعثه إلى الأمير طومان باى الدوادار ، وكان قد أعلن عصيانه بالجيزة فى ذى القعدة من نفس العام ، فلم يلح فى وفادته . وكان عصيان طومان باى سببا فى ضياع ملك قانصوه وأيلولة الملك إلى الأشرف « جان بلاط » . فعاود طومان باى عصيانه وأعلن بنفسه ملكا على بلاد الشام وتلقب بالعادل . ويظهر أن « طراباى » انضم إلى شيعته فى الخفاء بدليل أن جان بلاط همّ بالقبض على طراباى مرة ومنعه نحو ساعة من الخروج من القلعة ثم أطلقه .

ومع ذلك ثبت معه « الأمير طراباى » الشريفى أثناء زحف العادل طومان باى على القاهرة ، إلا أنه لم يلبث إلا ريثما شعر « جان بلاط » بالهزيمة ودخل إلى دور الحريم بالقامة فأبطأ زمنا انتهزه الأمير « طراباى » وحمل النمجـــاة والترس السلطانيين وهما علامة السلطنة وفر بهما إلى العادل « طومان باى » وأشاع أن الأشرف « جان بلاط » فر من القلعة . فـــكان هذا العمل من أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمة « جان بلاط » ونصرة « طومان باى » فآلت إليه السلطنة فلما استتب له الملك خلع على الأمير « طراباى »

وعينه رأس نوبة كبير فى رجب عام ٩٠٦ هـ وبعد أيام رسم هذا السلطان الأمير « طراباى » بأن يحمل أعباء الأتابكية مندوبا ريثما يعين فيها أميرا آخر . فقام بهذه المهمة . ثم عاونه بعض المعاونة فى الثورة التى شبت ضده وأفلحت فى خلعه فآلت السلطنة حينئذ إلى الأشرف الغورى .

وفى ذى القعدة عام ٩٠٨ هـ سار على رأس جماعة من المماليك السلطانية لإطفاء ثوران عرب الشرقية والغربية . وظل يقوم بمثل هذه الأعمال حتى وافاه أجله ، وينسب إليه بعض الظلم والجور كما بينا .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٠٥ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، إلى ، ٣٥٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ - ج ٤ ص ١٧ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٥١ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٥٩ ، ٢٠٨ » .

٤٣ — خاير بك الخازندار ٩٢٠ هـ

قال عنه ابن إياس ما مؤداه : « فى يوم الجمعة تاسع شهر رمضان كانت وفاة الأمير « خاير بيك الخازندار » الكبير أحد الأمراء المقدمين وصهر السلطان ، زوج أخته قديما . فأخرجت جنازته من بيته الذى عند الجامع الأزهر ، وتوجهوا بنعشه إلى سبيل المؤمنين ، فنزل السلطان له وحضر الخليفة وصلى عليه . وكانت جنازته حافلة ومشت فيها القضاة والأمراء المقدمون وأعيان المباشرين وغير ذلك من الأعيان . ودفن فى تربته التى أنشأها بالصحراء . وكان أصله من مماليك الظاهر خشقدم . وكان متزوجا بأخت السلطان قانصوه الغورى من حين كان جمدارا . فلما ملك الغورى أنعم عليه بإمرة عشرة . ثم عين خازندارا كبيرا ثم أمينا للسلطان على خزائن الأموال وغيرها ، وأصبح ذا مشورة مرعية لدى السلطان ، وذا أثر فى تدبير أمور المملكة . ثم أنعم عليه بتقدمة ألف فاتسع جاهه . وأصبح من أقرب المقربين لدى السلطان . ومات وله من العمر نحو ثمانين سنة ، وله من المال والجمال والخيل والبغال والقماش والسلاح شىء كثير » .

« ابن إياس ج ٤ ص ٣٦٤ ، ٣٩٧ ، إلى ، ٣٩٩ » .

٤٤ — قانى باى قرا ٩٢١ هـ

قال عنه ابن إياس ما مؤداه : فى يوم الجمعة سادس وعشرين من هذا الشهر — ربيع الأول عام ٩٢١ هـ — كانت وفاة الأمير قانى باى قرا ، أمير آخور كبير الذى كان

باش العسكر المتوجه إلى حلب . وكان موته بغتة ، ومرض خمسة أيام فقط ؛ حتى قيل إنه مات مسموما من بعض أخصائه . وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ثم أعتقه وأعطاه خيلا وقماشا . ثم صار جامدارا فسلحدارا . ثم أمير عشرة فى سنة ٨٩٨ هـ . ثم عينه نائبا فى صهيون وقيل إنه سعى لهذه النيابة بمال ، وتوسط له فيهـــا الأمير « أزبك الخازندار » . ثم نقل إلى حلب فظل بها زمنا يسيرا ثم نقل إلى مصر وأنعم عليه بمقدم ألف فى دولة الناصر « محمد بن قايتباى » . ثم ارتقى إلى الأمير أخورية الكبرى فى عهد الناصر فى المحرم عام ٩٠٣ هـ بعد قتل كرتباى الأحمر ، فظل فى منصبه هذا حتى توفى . أى مكث به نحوا من ثمانى عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وكان أميرا جليلا فى سعة من المال . ووجد له بعد موته شىء من المال كثير . ومن آثاره : جامع تجاه سوق الخيل . وجامع قريب من المهارة بجوار البركة الناصرية .

وكان أسمر اللون طويل القامة وكزه المشيب . ومات وله نحو لستين سنة . واشتهر بالفروسية والشجاعة ولعب الرمح حتى كان يلقب بقانى باى الرماح . ولكنه كثيرا ما أساء إلى الناس فى معاملتهم ، ولقى منه أهل الشام وحلب ظلما كثيرا حينما كان قائدا للتجريدة المرسلة إليهما . وكذلك كثيرا ما بطش بالفلاحين والعربان حينما كان يوجه إلى تأديبهم .

وأقامت له زوجته جنازة حافلة ومعزى حارا دام ثلاثة أيام بالندب والدف . وزوجته تلك بنت الأمير « يشبك بن مهدى الدوادار . ومما يذكر أيضا أن ابنة قانى باى تزوجت عام ٩٢٢ هـ الأمير ألماس وكان أميرعشرة يوم دخوله بها . واحتفل بعرسه أمراء المملكة .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٨٣ — ، ج ٤ من ص ٤٥٠ إلى ٤٥٣ — ، ج ٣ ص ١٠ » ...

٤٥ - جان بردى الغزالى ٩٢٧ هـ

أحد كبار الأمراء الذين أثروا بسياستهم وأعمالهم فى مجرى التاريخ المصرى ، ووجهوه إلى نواحى خاصة ، ويعد من أبطال عصر الأشرف الغورى . ويلخص تاريخ حياته فيما يلى :

كان من مماليك الأشرف قايتباى ثم أعتق . وعين شادا فى ضيعة الأستادار تغرى بردى فى الشرقية ، وهى المسماة « منية غزال » فنسب إليها . ثم رقى جمداراً ،

ثم كان كاشفا للشرقية منذ عصر الملك الأشرف قايتباى إلى عصر قانصوه بن قانصوه .
وفى شعبان عام ٩٠٤ هـ غضب عليه السلطان المذكور لبعض هفواته ، وأمر بإعدامه
لولا شفاعة بعض الناس فيه . وفى عهد الأشرف جان بلاط أنعم عليه برأس نوبة ثان
فى شهر جمادى الأولى عام ٩٠٦ هـ ، وانضم « جان بردى الغزالى » إلى جانب هـــذا
السلطان ضد مناوئه طومان باى المتملك ببلاد الشام ، والزاحف بجنوده على مصر .
غير أنه ما لبث حين رأى جنود العادل طومان باى ينتصرون شيئا فشيئا أن زايل
سلطانه بالقلعة ، وانضم إلى خصمه العادل هو وآخرون ، منهم خاير بك الكاشف ،
وذلك يوم السبت ١٨ من شهر جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ . وقد انتصر العادل طومان
باى فى النهاية ، وأصبح سلطانا على البلاد المصرية . فلما تم أمره أخذ يطهر البلاد
ممن يشعر منهم بالمنافسة ، وكان فى مقدمتهم الأمير قصروه نائب الشام الذى عاونه أكبر
معاونة فى الاستيلاء على مصر ، فقبض عليه وخنقه ! ثم قبض على أنصاره ، وكان منهم
« جان بردى الغزالى » كاشف الشرقية ورأس نوبة ثان . فسجن ، ثم نفى بعد قليل إلى
قوص . غير أنه اختفى بعد قليل ، حتى قامت قيامة بعض الأمراء على السلطان العادل
بزعامة قيت الرجبى ومصر باى ، فى شهر رمضان عام ٩٠٦ هـ ، فظهر « جان بردى » ،
وانضم إلى صفوف الثوار ضد العادل فى تلك الثورة التى أودت به ، وكانت عاقبتها أيلولة
الملك إلى الأشرف الغورى . فعين « جان بردى » فى الحسبة ، يوم السبت ٦ شوال سنة
٩٠٦ هـ عوضا عن قرقماس المقرى ، ثم اختفى « جان بردى » لبعض الأسباب ، ثم ظهر ،
ثم عين بعد زمن فى شهر جمادى الأولى عام ٩٠٧ هـ . فى حجوبية الحجاب بحلب ، فخرج
إليها بعد زمن يسير ، ثم انتقل بعد مدة إلى نيابة صفد عام ٩١٧ هـ . وكان قد وفد على
مصر بناء على دعوة من السلطان الغورى فى ربيع الآخر عام ٩١٦ هـ . فأقام بمصر
أياما . وفى عام ٩١٧ هـ وقع بينه وبين الأمير سيباى نائب الشام شجار وجفاء ، فأرسل
السلطان الغورى فى يوم الاثنين ١٦ المحرم فى ذلك العام رسولا من قبله ، من الخاصكية
اسمه طومان باى ليسافر إلى الشام ، ويقوم بمهمة الصلح بين الأميرين . وبعد مدة انتقل
« جان بردى الغزالى » إلى نيابة حماة عام ٩١٨ هـ ، فظل بها زمنا طويلا إلى آخر العصر .
وفى عام ٩٢٢ هـ رحل السلطان الغورى فى جيشه الكثيف إلى البلاد الشامية والحلبية
لملاقاة العثمانيين ، فمر على حماة فتلقاه بها نائبها « جان بردى الغزالى » خير لقاء وأولم

له الولائم الحافلة . ثم زحف السلطان وتلاقى بالعثمانيين ، ولم يكن « جان بردى الغزالى » أحد الأمراء الزاحفين معه ، وظل فى نيابته ، وقيل إنه أظهر الهزيمة ففت ذلك فى عضد السلطان . وكانت النتيجة هزيمة السلطان وضياعه فى مرج دابق . واتضحت خيانة خاير بك نائب حلب ، إذ فر منهزما من تلقاء نفسه أمام العثمانيين ، ففت فى عضد الجيش المصرى . أما « جان بردى » فإنه عمل على تعويق الجنود المصريين عن عودتهم إلى مصر . ثم إنه عاد إلى مصر مع بعض العائدين بعد الهزيمة فى يوم الخميس ١٣ رمضان عام ٩٢٢ هـ ، فرشحه السلطان الجديد طومان باى لنيابة الشام . ووقع بين الأمراء خلاف وشجار بشأن الوظائف . ومن ذلك ما وقع بين « جان بردى الغزالى » وبين الأمير علان الدوادار الثانى . ولا شك أن هذا الطمع وعدم القدرة على حسمه من أهم أسباب الهزيمة إذ به تفرقت القلوب .

وأخذ السلطان طومان باى فى جمع جيش جديد لملاقاة العثمانيين بالشام ، واختار لقيادته الأمير « جان بردى الغزالى » . ثم تم تعيينه لنيابة الشام ، فى يوم الخميس ٢٠ رمضان عام ٩٢٢ هـ ، وأطلق عليه منذ ذلك الحين لقب « ملك الأمراء » وهو لقب كثر إطلاقه فى أخريات العصر . وفى أوائل شوال أخذ فى أسباب الخروج بتجريدته إلى بلاد الشام ، وبعد لأى استطاع الأمير « جان بردى الغزالى » أن يخرج بهـــذه التجريدة المفككة . ثم أخذت بقاياها تلحق به شيئا فشيئا ، وأخذ فى مضايقة العثمانيين بنواحى غزة ، ولكن تم انكسارهم أمام عدوهم فى الأحد ٢٤ ذى القعدة ، وذلك بسبب تفرق قلوب الأمراء والجنود ، وتداعيهم وتكاسلهم عن اللحاق بأميرهم حتى اضطر إلى أن يجمع عددا من العربان هناك يستعين بهم فى قتاله ، ولكنه لقى العثمانيين فى فئة قليلة ، فانهزموا هزيمة منكرة بالقرب من « بيسان » وقتل عديد من أمرائهم وجنودهم . وقيل إن « جان بردى » نفسه جرح ، ونهب ما معهم . وقد سلم من الموت من عجل بالهرب والفرار — ولعل هذه الهزيمة كانت جزءا من برنامج الغزالى المتفق عليه مع العثمانيين — وعاد « جان بردى الغزالى » من هذه الهزيمة النكراء ، هو وفلول جيشه ، فدخل القاهرة فى يوم الأثنين ٥ من ذى الحجة عام ٩٢٢ هـ وبعد قليل اشترك مرة أخرى فى قتال العثمانيين مع سلطانه طومان باى حيث عسكروا فى الريدانية ، فلما تمت الهزيمة أيضا على الجيوش المصرية ، هرب « جان بردى الغزالى » ومعه عدد من المماليك ، قيل إنهم

هربوا إلى مكة ، وقيل إلى غزة . ثم تبين فيما بعد أنه إنما انهزم وفقا لخطة موضوعة رسمها مع السلطان سليم شاه العثمانى . فكانت خطته هذه أو خيانته تلك سببا لهزيمة جيش مصر ، ولذلك سرعان ما عاد واتصل بالسلطان سليم ودخل إلى القاهرة فى يوم الثلاثاء ١٨ المحرم عام ٩٢٣ هـ ، يحمل منشورا من سلطانهم بأمانه له ، ثم قابله فى وطاقه ، ومنذ ذلك الحين انضم فى وضح النهار إلى أعداء البلاد ومحتليها ، وأصبح شواظ نار على أهلها وسكانها .

فقد حدث أنه فى يوم الإثنين ١٦ صفر عام ٩٢٣ هـ ، ثار عربان الشرقية ووقفوا فى طريق العثمانيين الزاحفين يتسقطون ما معهم من جمال وخيول وسلاح وينهبونهم ويقتلون منهم ، فأرسل إليهم السلطان سليم نحو ألف وخمسمائة جندى عثمانى بقيادة الأمير « جان بردى الغزالى » فعاث بهم فسادا فى بلاد الشرقية ، وقتل من عربانها وأسر وسبى ونهب ، وباع بعد ذلك ما نهبه وما سباه من نساء وبنات حتى بيعت البنت بأربع أشرفيات . — وهكذا أصبح « جان بردى الغزالى » والأمير خاير بك الخائنان رجلى السلطان سليم اللذين ساعداه على احتلال مصر بخيانتهما . ولما استتب الأمر للعثمانيين بمصر عينه السلطان سليم ، نائبا عنه ببلاد الشام ، وجعل له حق التصرف فى حماة وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقدس والرملة والكرك ، فأصبحت فى يده البلاد الشامية والطرابلسية . فخرج إليها حينما خرج السلطان سليم من مصر إلى بلاده فى يوم الخميس ٢٣ شعبان عام ٩٢٣ هـ . وبقى خاير بك « ملك الأمراء » نائبا عنه فى مصر . — وأصبح كل منهما يلقب بملك الأمراء .

واستقر « جان بردى الغزالى » نائبا عن السلطان سليم ببلاد الشام وأصبح له حق التصرف فى شئونها . وقد طهرها من بعض العربان الثائرين بها . وخصوصا ناصر الدين ابن الحنش شيخ الأعراب والبقاع وغيرها بنواحى دمشق . وهو أحد المتعبثين بربوعها . وفى شهر صفر عام ٩٢٥ هـ ، بلغه أن الأعراب استولوا فى الطريق على أموال ركب الحج الشامى فى أثناء عودته من بلاد الحجاز ، ومنعوهم من المسير ، فذهب « جان بردى » توا وأوقع بهم وأعاد إلى الركب غنائمه وأمواله بعد أن غنم من الأعراب الشىء الكثير . — واشتط « جان بردى » بعد ذلك فى معاملة عربان بلاد الشام فجز فى هذا الشهر رءوس أربعة من كبار مشايخهم ، فكان ذلك سببا

فى اضطراب حبل الأمن وهبوب الثورة عليه فى جبل نابلس حينا من الدهر . — وقد أبلى « جان بردى الغزالى » بلاء حسنا فى دفع الفرنجة العابثين بسواحل الشام فى عام ٩٢٦ هـ ، إذ قهرهم بعد أن أثخن فيهم وأسر وغنم . وأخذ فى تثبيت مركزه فى بلاد الشام حتى أصبح بمثابة ملك عليها . فلما آل ملك بنى عثمان إلى سليمان القانونى بن سليم فى عام ٩٢٦ هـ ، حدثته نفسه بالسلطنة على بلاد الشام والزحف منها على البلاد المصرية . وتواترت أخباره بمصر ، فقيل أطاعه الجند ونادوا به سلطانا على بلاد الشام ولقبوه بالأشرف وخطب باسمه على منابرها ، وضربت السكة باسمه أيضا ، وأرسل هو لخاير بك ليكون ملكا على مصر ويبقى هو ملكا على الشام إلى الفرات ، ليطرد العثمانيين . وأخذ خاير بك ملك الأمراء ونائب العثمانيين بمصر يحصنها ويعد عدته ، وأرسل فأعلم السلطان سليمان بما كان من أمر « جان بردى الغزالى » ، بذلك اعتبر خارجا وعاصيا للسلطان العثمانى ، وذلك فى ذى القعدة عام ٩٢٦ هـ . وقيل إنه حاصر حلب محاصرة شديدة ، ولم يستطع الاستيلاء عليها . ولما زاد عبثه ببلاد حلب وسواها وترتب على ذلك قطع الصلة بين الشام ومصر نحو ثلاثة شهور ، جرد عليه السلطان سليمان القانونى جيشا لإخضاعه . فتمت عليه الهزيمة فى ربيع الأول عام ٩٢٧ هـ . وقبض عليه وجز رأسه وأرسل إلى استانبول . وكانت هذه هى نهاية هذا الأمير .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ – وج ٤ ص ٦ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٨٧ ، ٢١٠ ، ٢٦٧ – وج ٣ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٨ إلى ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، إلى ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ — الكواكب السائرة ١ ص ١٩٨ » .

٤٦ — خاير بك بن بلباى ٩٢٨ هـ

هو المعروف بملك الأمراء والذى اشتهر بأخى قانصوه البرجى . وهو أحد عظماء الأمراء الجراكسة ، وقد بلغ من الجاه والمجد والسيادة حدا يغبط عليه ، وتقلبت به ظروف حياة جادة حتى بلغ بحيلته علياها ما لم يبلغه سواه ، وحتى أتى عليه حين من الدهر كان نائبا على مصر ، شبيها بالسلطان منه بالأمير . ولكنه مع الأسف لم يسلك إلى مجده

سبيلا مشرفا ، بل استخدم أخس ضروب الحيلة ، وسلك أوبأ المسالك وأحط السبل. حتى ليصبح اعتباره وصمة عار فى تاريخ الجراكسة ، وثغرة ألم فى تاريخ مصر . ولا بدع فى هذا الوصف، وما بالك بمن خان عهده وسلطانه وأمته وغدر بهم جميعا غدرا لم يكونوا يتوقعونه منه ، فإنه كان إحدى نواحيهم المأمونة فأتوا منها . وصعد على أكف هذه الخيانة والغدر فى سلم الرقى والجاه والمجد الزائف حتى أشرف منه على الغاية ...

وهو جركسى الجنس . وأبوه اسمه بلباى الجركسى ، وله ثلاثة إخوة عاشوا فى كنف مصر ونعيمها زمنا طويلا ، منهم خضر بك . ومنهم جان بلاط وكان مقدم ألف ومات مطعونا فى عهد الناصر بن قايتباى ، ومنهم قانصوه البرجى المعروف بالمحمدى ، ارتقى حتى بلغ نيابة الشام فى عهد الغورى .

أما « خاير بك » الذى نحن بصدده ــ وهو أخوهم ــ فإنه كان من مماليك الأشرف قايتباى ، وعاش فى الطباق زمنا . وكان من المماليك السلطانية ، ثم أعتقه سيده ، وعينه جدارا ، فخاصكيا ، ثم صار أمير عشرة فى دولة الناصر بن قايتباى عام ٩٠١ هـ ، ثم أمير طبلخاناة ، ثم بعثه هذا السلطان رسولا من قبله إلى ملك العثمانيين فى رجب سنة ٩٠٣ هـ . فرحب به وأكرمه ، ثم قتل الناصر ، ولا يزال « خاير بك » لدى ملك العثمانيين . وبلغهما الخبر فانقلب ملك العثمانيين على « خاير بك » ، وقسا عليه وأسمعه قارص الكلام . فعاد من لدنه فى ١١ شعبان عام ٩٠٤ هـ ، فى عهد الظاهر قانصوه بن قانصوه . ولما آل الملك إلى الأشرف جان بلاط أنعم عليه بتقدمة ألف ، ثم عينه مع تجريدة تسافر إلى بلاد الشام بسبب عصيان الأمير قصروه وانضمام طومان باى إليه ، فخرج فى ربيع الأول عام ٩٠٦ هـ . فكان نصيبه القبض عليه هناك وسجنه بقلعة دمشق مع كثير من الأمراء ، فلما تم الملك للعادل طومان باى بعث مرسوما إلى الشام بالإفراج عن « خاير بك » فبلغ القاهرة فى أخريات شهر رجب عام ٩٠٦ هـ ، فأنعم عليه بتقدمة ألف كما كان فى عهد جان بلاط ، ولعلها ترضية له لكسب جانبه ، ومع ذلك ثارت ثورة الأمراء على العادل وكان « خاير بك » من الثائرين معهم ، وفسرعان ما آلت السلطنة إلى الأشرف الغورى بوساطة هؤلاء الأمراء ، ومنذ ذلك الحين أخذ نجم « خاير بك » فى الصعود . ففى يوم الخميس ١٤ المحرم عام ٩٠٧ هـ ، أنعم عليه السلطان الغورى وعينه حاجب الحجاب ، وفى ذى القعده سنة ٩٠٨ هـ ، سافر إلى الصعيد لتهدئة ثوران العربان هناك ،

وظل يقوم بمثل هذه المهام حتى توفى أخوه قانصوه البرجى الشهير بالمحمدى نائب الشام فترتب على موته عدة تنقلات ، ومنها انتقال الأمير « خاير بك » نائبا على حلب، فخرج إليها فى حفل حاشد فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٠ هـ ، فظل فى هذه النيابة أمدا طويلا، حتى حدث النزاع بين سلطان مصر الأشرف الغورى وبين سلطان العثمانيين الملك سليم الأول ، وخرج الغورى سنة ٩٢٢ هـ ، للقاء خصمه فى الديار الشامية والحلبية ، فكان الأمير « خاير بك بن بلباى » نائب حلب قائد ميسرة الجيش المصرى ، وقد لاقى سلطانه خير لقاء ساعة دخوله مدينة حلب وحمل بنفسه على رأس السلطان القبة والجلالة ...

ولما التقى الجيشان فى « مرج دابق » ، وكادت الهزيمة تتم على العثمانيين ويكتب النصر لجيش مصر ، انسل الأمير « خاير بك » نائب حلب مظهرا الهزيمة وترك ميسرة الجيش ، فوقع الاضطراب فى الحملة كلها وأقدم العثمانيون فمزقوها شذر مذر ، وضاع الغورى، وتمهد السبيل بذلك لغزو مصر نفسها واحتلالها ، كل ذلك بسبب ما أظهره « خاير بك » من هزيمة هى جزء من برنامج منظم متفق عليه بينه وبين العثمانيين لخيانة سلطانه وبلاده .

ولما ولى منهزما يمم شطر حماة ومهد السبيل بها وبحلب للعثمانيين . فلما ملك السلطان سليم مدينة حلب وفد عليه نائبنا الجليل « خاير بك » فجعـــله أحد أمرائه وخلع زى الجراكسة ولبس زى التراكمة . وما أجمل ما شبهه به ابن إياس المؤرخ إذ قال: «وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله ، وملك هولاكو ، ثم انقلب عليه وقتله ، وقال : أنت ما فيك خير لأستاذك ، فما يكون فيك الخير لى — وربما يقع لخاير بك مثل ذلك» .

ولكن ـ مع الأسف ـ كان السلطان سليم أكيس وأبعد نظرا من هولاكو . لأنه اصطنع هذا الخائن إلى أقصى حد ، وأسبغ عليه رضاه ليحكم بوساطته بلاده ، ويكفل بقاءها فى يده . وقد كان .

وقد دخل «خاير بك» هذا مع العثمانيين وقت زحفهم على مصر . فلما تم لهم الأمر، عينه سلطانهم سليم نائبا عنه بمصر ، وقد تم تعيينه فى يوم الثلاثاء ١٣ شعبان سنة ٩٢٣هـ . ودفع إليه خاتم الملك ، وفضله على يونس باشا أحد أتباعه . فظل يحكم هذه البلاد باسم العثمانيين حتى توفى . وقد وطد دعائم الحكم العثمانى فشنق ونفى وشرد وصادر وأخلص للعثمانيين أكثر من إخلاصه لمصر، ولقب بملك الأمراء . وشهد عصر سليمان القانونى .

«وظل يقوم فى خلال نيابته برسوم الملك وما تقتضيه ظروف الحكم من احتفال بكسوة، وفتح لسد ورعاية لحفل، وإطفاء لثورة، وتصريف للأمــــور، ومنح رتب وتولية موظفين، وغير ذلك - وقد أخذ السلطان سليم معه فى عودته إلى عاصمته ابن الأمير «خاير بك» رهينة فى يده حتى لايعبث من بعده بشىء. وقد توفى بعد زمن.

ومما يذكر أن «خاير بك» حرض فى يوم الأحد ١٦ شوال سنة ٩٢٣ هـ، بناحية منشية المهرانى بالفسطاط سفنا محملة قمحا وشعيرا فيها نحو ثلاثين ألف أردب مرسلة من مصر إلى السلطان سليم. ومما يذكر أيضا أن جان بردى الغزالى الخائن الثانى وشريك «خاير بك»، والمعين نائبا على بلاد الشام من قبل العثمانيين، حدثته نفسه بعد زمن بالعصيان وأرسل إلى «خاير بك» نائب مصر، وأخبره الخبر طالبا إليه أن يتعاونا معا فى التغلب على العثمانيين وفى أن يكون هو ملكا على الشام، ويبقى «خاير بك» ملكا على مصر. فما كان من «خاير بك» إلا أن بعث إلى الملك سليمان القانونى، فأعد له العدة وجرد عليه جيشا أباده سنة ٩٢٧ هـ، كما أشرنا ...

وفى شهر ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ. أصيب الأمير «خاير بك» ملك الأمراء بمرض شديد زادت شدته يوما بعد يوم حتى فلج وحبس بوله وغائطه لما أصابه من ورم. فلما شعر بثقل مرضه وأحس بأنه مرض الموت أعتق جميع غلمانه وجواريه وأخرج عشرة آلاف أردب من القمح تفرق على مجاورى الأزهر وغـــيره من المزارات وغيرهم من الفقراء. وأطلق عددا من المساجين، وقدم ضروبا كثيرة من الإحسان تكفيرا عما جنت يداه، فكان كما قال عنه ابن إياس المؤرخ: «لم يعرف الله إلا وهو تحت الحمل». وقد وافاه أجله المحتوم فى يوم الأحد ١٤ من ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ بعد أن ناب فى مصر عن العثمانيين خمس سنوات وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما.

وينسب إليه ابن إياس أنه كان جبارا عنيدا سفاكا للدماء مناعا للخير مسرعا إلى الشر، كثير الحيلة والمكر، واستخدم الأقباط وأذل لهم المسلمين وكره العلماء وطلبة العلم. ومهما يكن من شىء فحسبه خيانة بلاده عارا ومذمة، وهو آخر الجراكسة الذين حكموا مصر.

وقد وجد له بعد موته مال كثير وجمال وخيول وأقمشة وأوانى، وقد بيعت ممتلكاته من بعده على يد الحكام الذين تولوا بعد موته.

ملحوظة : خاير بك هذا ، غير خاير بك بن إينال الذى اشتغل كاشفا للغربية زمنا ، وغير خاير بك سلطان ليلة ، « أى الذى ملك ليلة واحدة قبل الأشرف قايتباى » وغير خاير بك الخازندار الذى ترجم له رقم ٤٣ فى هذا الباب . وغير خاير بك المعمار .

ابن إياس ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٣٩١ - و ج ٤ ص ٣ ، ١٨ ، ٣٠ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ١٢٣ ، ٢٠٦ ، ٢٨٥ - و ج ٣ ص ٣ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٢٢ ، ومن ص ١٣١ إلى ٣٢٢ - الكواكب السائرة ج ١

٤٧ — الزينى بركات بن موسى المحتسب

هو القاضى « زين الدين بركات بن موسى » الذى ظل محتسبا للقاهرة زمنا طويلا فى عهد السلطان الغورى وبعده فى عهد الاحتلال العثمانى ، وأصل أبيه من العرب وتسمى أمه عنقا ، وأول ظهوره أن كان ركابا للملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ، ثم عين برددار الدى السلطان الغورى بعد ابن أبى الجود ، ومن ثم أخذ اسمه فى الذيوع . وقد وكل إليه السلطان الغورى عقاب ابن أبى الجود واستخلاص ما قرر عليه من المال . ثم عينه فى شعبان سنة ٩١٠ هـ ، فى حسبة القاهرة فدخل فى زمرة الأعيان والرؤساء ، وأخذ يجور ويشتط فى معامله الناس وأكل أموالهم بالباطل ، وظل سادرا فى جوره هذا حتى غضب عليه السلطان وعزله من الحسبة والبرددارية وعن جميع الوظائف التى تولى أمرها ، وقيل إنها كانت ست عشرة جهة ، منها نظارة خانقاه سرياقوس ، وولاية جهات البرلس . وكان عزله فى رمضان سنة ٩١٤ هـ ، ثم رضى عنه السلطان بعد حين وأعاده إلى حسبة القاهرة فى ذى القعدة من نفسه العام . وعلا نفوذه مرة ثانية ، ثم ندبه السلطان ليقوم مقام الأتابكى ريثما يعين أتابكى جديد ، وذلك بعد وفاة الأتابكى قرقماس سنة ٩١٦ هـ . فظل مندوبا حتى عين دولات باى فى الأتابكية .

ظل « الزينى بركات » ممتعا برضا السلطان وبالجاه العريض حتى وقع شجار بينه وبين الوزير الجمالى يوسف البدرى بحضرة السلطان ، ولم يرع للسلطان حرمة ، وأفحش فى الإساءة إلى الجمالى على مسمع من السلطان ، فحنق عليه وقبض عليه وأسلمه إلى ألماس الدوادار لمعاقبته ومحاسبته ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٩١٨ هـ ، فاستمر فى السجن ثمانية أيام ، ثم أفرج عنه ورضى عنه السلطان وأعاده إلى وظيفته ، فنزل من لدنه بالقلعة

فى موكب حافل وازدانت له القاهرة وأوقدت له فى نواحيها الشموع والقناديل ولقيه الناس بالطبل والزغاريد !

وبعد زمن أشرك السلطان معه فى بعض وظائف غير الحسبة ، رجلا آخر يسمى أحمد بن الصائغ ، كان موظفا لديه ، فلم يلبث أن وقعت بينهما منازعة فى ربيع الثانى سنة ٩٢٠ ﻫ ، وراود ابن الصائغ المذكور السلطان بثلاثين ألف دينار ليحله محل «الزينى بركات» ، فنهره السلطان ولم يوافقه .

وفى جمادى الأولى سنة ٩٢٠ ﻫ ؛ ضم إليه السلطان استادارية الذخيرة . وفى صفر سنة ٩٢١ ﻫ ، استخلص منه السلطان ١٥ ألف دينار ، وقد عظم جاهه وظل كذلك حتى سنة ٩٢٢ ﻫ ، وحينئذ كثرت شكاية المماليك والناس منه بسبب ماجمعه منهم من الأموال المقررة واشتطاطه فى الجمع حتى ألحق بهم البوار ، ولاسيما أنهم كانوا فى زمن ارتفعت فيه الأسعار ارتفاعا كان عسفه أحد أسبابه .. وطلبوا إلى السلطان عزله وتسليمه لهم ليقتلوه . فرضى أولا ، ثم رفض ، فزادحنقهم . وهدده جماعة من المماليك بالقتل فخشى السلطان عليه وعزله من الحسبة وأسند إليه نظارة الذخيرة الشريفة فى يوم الخميس ٩ صفر سنة ٩٢٢ ﻫ ، وظلت وظيفة الحسبة من بعده شاغرة إلى أواسط ربيع الأول ، ثم عين فيها ماماى الصغير، مملوك الغورى . وهكذا خرج «الزينى بركات» من حسبة القاهرة بعد أن وليها هذه المرة نحو إحدى عشرة سنة .

غير أن الغورى حينما زحف بحملته على البلاد الشامية والحلبية لملاقاة العثمانيين، وخلف على البلاد الأمير طومان باى نائب غيبة ، أضاف الحسبة من جديد إلى «بركات ابن موسى» عوضا عن «ماماى» المسافر معه فى الحملة ، حتى يعود . ولم يكتف بذلك، بل أضاف إليه وظائف عدة حتى صار مختصا بكثير من أمور السلطنة حتى يعود . فصار من ذلك الحين صاحب الحل والعقد فى البلاد جميعها ، وأصبح طومان باى لايبرم أمرا إلا بعد مشورته ! وعاونه معاونة جدية فى أمور المملكة وضبط الأسعار منعا للغلو الفاحش ، ومازال حتى زالت دولة الغورى وآلت السلطنة إلى الأشرف طومان باى آخر ملوك الجراكسة . فبقى «زين الدين بركات» فى وظيفته ، إلى أن وقعت بينه وبين الشيخ أبى السعود الجارحى حادثة عجيبة تتلخص فى أن القاضى «زين الدين بركات» ظلم رجلا يبيع الجلود ، فشكاه إلى الشيخ أبى السعود ، فبعث الشيخ أبو السعود إلى القاضى

«زين الدين» رسالة خاصة بهذا الرجل وأساء فيها الكلام عنه وسفهه . فلم يعرها القاضى «زين الدين» التفاتة ، فما كان من الشيخ أبى السعود إلا أن استقدمه إليه . وكان من غفلة ابن موسى أن قدم إليه فى وكره بكوم الجارح وحوله أعوانه وأتباعه . فلما بلغه واجهه بجارح القول وقارص السباب . فخق منه القاضى وزايل مجلسه ، فما كان من الشيخ المذكور إلا أن أمر أتباعه بصفع القاضى على رأسه بالنعال ، فصفعوه حتى كاد يهلك ، وقبضوا عليه فسلمه الشيخ إلى والى القاهرة الأمير علان ، وقال له : ضعه فى الحديد وشاور فى أمره وأخبره الخبر . السلطان فعل الأمير علان ذلك ! فرد عليه السلطان بأن يخبر الشيخ أن يحكم فيه حكمه ! فكان جواب الشيخ أن يشهر القاضى ثم يشنق على باب زويلة ، ففعلوا . . . ! ولكن لما هموا بشنقه عاودوا الشيخ فى أمره وقالوا إن عليه مالا للسلطان ، فإذا شنق ضاع هذا المال . وهنا عفا عنه الشيخ ليفى بما عليه من المال للسلطان !

أقول إن هذا تدخل سىء من هذا الشيخ فى أمر القاضى ، وإساءة تصرف من السلطان ، بأن يجعل لمثل هذا الشيخ أمرا فى الملك وشأنا بين الموظفين وحكما على الجناة . ولكن الحق أن الفوضى إذ ذاك كانت ضاربة وهذه الحادثة إحدى مظاهرها . — ولعل عجبنا يزول حينما نقول إن هذا السلطان نفسه وهو طومان باى لم يتول السلطنة إلا بعد استشارة الشيخ الجارحى واجتماع الأمراء لديه كما بينا فى الباب الخاص بوراثة السلطنة ونظام الحكم . — ومع ذلك فقد ذكر ابن إياس أن الناس أنكروا تدخل الشيخ فى مثل هذه الأمور .

ظل القاضى «بركات» بعد عفو الشيخ عنه مسجونا لدى والى القاهرة . فانتهز «شهاب الدين أحمد بن الصائغ» — وكان حاقدا على القاضى «بركات» منذ خصامه معه فى عهد «الغورى» — هذه الفرصة وقدم نفسه لمرافعته مبديا أنه يستطيع أن يثبت عليه مائة ألف دينار إذا حاسبه . فما كان من القاضى «بركات» إلا أن ادعى هو أيضا أنه يستطيع أن يثبت على ابن الصائغ مائتى ألف دينار إذا حاسبه . فقبض على على ابن الصائغ أيضا حتى يحاسب كل منهما الآخر ! ثم حاسبهما الوالى معا وضرب القاضى عشرين عصا حتى وعد بأن يفى بما قرر عليه من المال وقدره عشرون ألف دينار . وضرب ابن الصائغ أكثر من أربعمائة عصا حتى أشرف على الهلاك وأشيع بين الناس أنه مات . .

أطلق سراح القاضى « بركات » بعد قليل . ورجا السلطان أن يعيد إليه وظائفه فلم يجب له رجاءه ، وذلك فى يوم السبت ٢٠ شوال عام ٩٢٢ هـ . وهم السلطان بإعادته إلى وظائفه من بعد ، لولا أنه لم يف بكل ما فرض عليه من المال ، وأزمت السلطان حاجته إلى مال ، فعاد إلى الضغط على ابن موسى وأمثاله ممن فرضت عليهم غرامات ، ثم هدأت هـــذه الغضبة وأعاده إلى الحسبة فى أوائل عام ٩٢٣ هـ . ثم وكل إليه جهات المحلة . ثم زحف العثمانيون على مصر واحتلوها وقتلوا طومان باى سلطانها . فماذا كان موقف « الزينى » ، « بركات » هنا ؟ . . .

بقى القاضى « زين الدين » محتسبا للقاهرة كما كان فى عهد الجراكسة . وقــد خلع عليه مــلك الأمراء « خاير بك » نائب العثمانيين فى مصر ، فى شهر شعبان عام ٩٢٣ هـ وجعله مدبر المملـكة ، وناظر الحسبة الشريفة ، وناظر المارستان المنصورى وناظر الذخيرة الشريفة ، وغير ذلك من الوظائف حتى قيل إنه صار حاكم البلد الحقيق . وكان هو الذى يركب فى موكب الاحتفال برؤيا رمضان كل عام وحوله المصابيح وحملة المشاعل فى أبهة وعظمة . . .

وفى يوم السبت ١٥ ربيع الأول عام ٩٢٤ هـ عـين القاضى « زين الدين » أميرا لركب المحمل الشريف ، وكان من قبله لا يليه ولا يؤمر عليه إلا أمير من المقدمين . وبهذه المناسبة خلـع عليه ملك الأمراء « خاير بك » خلعة ونزل من لدنه من القلعة فى موكب حافل جــدا . ثم احتفل بركبه فى يوم الخميس ليلة الجمعة ١٩ رمضان من العــام المذكـور وكان ركبا شائقا .

وقد ضمت إليه الاستدارية فى شوال من هـــذا العام أيضا ـــ وفى يوم السبت ١٨ شوال عام ٩٢٤ هـ ، خرج ركب المحمل ومعه أميره القاضى « زين الدين بركات » ابن موسى قاصدا إلى بلاد الحجاز . وقــد أصيب الحجاج فى إمرته هذه بضروب من الأذى ما بين غـلاء وموت « جمال » وعبث عربان قطعوا عليهم الطريق فى العودة . وقد عاونهم « خاير بك » نائب مصر بجملة من الجند بعث بهم إليهم فى الطريق . وكان وصوله بركبه إلى بركة الحاج عائدا ، فى يوم الأحد ٢٨ المحرم عام ٩٢٥ هـ . ولم يصب الركب المصرى بمثـــل ما أصيب به الركب الشامى . وذلك بهمة القاضى « بركات » . ولذلك شكـره « خاير بك » .

وفى شهر جمادى الأولى عام ٩٢٥ هـ خرج القاضى « بركات » إلى ناحية الصعيد لجمع بعض الضرائب وعاد بعد خمسة أشهر . ولكن حدثت فى غيابه ثورة على من قام مقامه ، إذ عبث بالأعمال عبثا أدى إلى غلو الأسعار ، فهاج الناس وماجوا ورغبوا إلى ملك الأمراء أن يعين فى الحسبة رجلا خبيرا بأحوالها ريثما يعود « الزينى بركات » من الصعيد . فاضطر إلى تعيين القاضى « عبد العظيم » . من هذا يمكن الاستنباط أنه كان قواما للسوق ونظاما للأسعار . وكثيرا ما تدخل فى مسألة النقد وتعديله حسب مقتضيات الأحوال .

ظل القاضى « بركات » يقوم بما تحتمه عليه وظائفه ، ويصحب النائب فى ترحله أحيانا ، ويستقبل القاصدين أحيانا أخرى ، ويقوم برسوم مختلفة تقتضيها ظروفه وعمله ، كالترسيم على بعض المحكوم عليهم ، أو ضمان من لا شبهة فيه عنده وهكذا . وترامت عليه الوظائف والمراكز ، ومن ذلك أن قرر فى التحدث على جهات الشرقية كلها من المطرية إلى دمياط ملتزما بأن يدفع على ثلاثة أقساط مبلغ أربعمائة ألف دينار فى كل عام ، فأصبح من ذلك الحين تدفع إلى بابه ظلامات تلك الناحية ، وذلك فى يوم الخميس ١٦ شعبان عام ٩٢٨ هـ . فزاد دخله ونما ماله وعظم جاهه .

ثم مات «خاير بك» نائب مصر وتولى النيابة بعده سنان باشا التركى ، فثبت القاضى « زين الدين » فى مناصبه بعد قلق واضطراب عليها ، ولعله مات بعد قليل .

ابن إياس جـ ٤ فى التواريخ المذكورة ، جـ ٣

الوزارة (١)

الوزارة بمعنى المعاونة وشد الأزر ، عرفتها الدول الإسلامية ، منذ مطلع حياتها فكان للخلفاء وزراء يعاونونهم فى تنظيم الأمور وتدبير المال وترتيب الجيوش ، ونحو ذلك من الشئون . ولكن لم يطلق على أحدهم كلمة « وزير » إطلاقا محدودا بها باختصاصاته وديوانه . ولم تصبر « الوزارة » منصبا بارزا معروفا بين مناصب الدولة إلا منذ أوائل العصر العباسى .

وأول من أطلق عليه لقب «وزير» هو : «أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال» ، وزير الخليفة السفاح ، أول خلفاء الدولة العباسية . وكان يقال لأبى سلمة : وزير آل محمد .

وكان الوزير حينذاك يوكل إليه ـ غالبا ـ كل شئون الدولة ، يصرفها كيف شاء ، فيولى ويعزل ، ويبرم وينقض . فكانت منزلته لهذا ، من المهابة بمكان عظيم . وكان يختار من النابهين فى الرأى والبيان والعلم .

وقد نهج هـذا النهج ملوك الفاطميين فى مصر ، منذ خلافة العزيز بالله ، إذ اتخذ «أبا الفرج يعقوب بن كلس» وزيرا له . وكان يعقوب يهوديا وأسلم . وفوض إليه العزيز جميع أمور مملكته . ودرج الفواطم على هذه السنة ـ إلا قليلا ـ واتسع نفوذ وزرائهم ، وطغوا فى أخريات دولتهم ، حتى تلقبوا بألقاب الملوك .

واتخذ الفاطميون أحيانا ، وزراءهم من غير المسلمين ، ومن مسالمة القبط ، واليهود ومن الرافضة . فأبطل ذلك فى الدولة الأيوبية ، إذ اتخذ الوزراء من العلماء والمنشئين . وفى مقدمة وزراء الأيوبيين منشىء مصر الكبير ، القاضى الفاضل محيى الدين عبد الرحيم البيسانى .

ليست الوزارة إذن جديدة طارئة فى العصر المملوكى . ولقد درجت هذه الدولة على اصطناعها منذ أول نشوئها . وجعلوا الوزارة منصبا بارزا بين مناصبها العليا . غير

---

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ تحت عنوان « ذكر وزراء مصر » ، وهو فصل ممتع فى هذا الموضوع ، عدد فيه وزراء الدولة الإسلامية ووزراء العصر المملوكى حتى أيامه . وراجع كذلك صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨ وخطط المقريزى ج ٢ تحت عنوان « ذكر دار الوزارة الكبرى » .

أن اختصاصها قد ضاق ، ومقامها قد اضمحل بالقياس إلى غابر أيامها . وذلك لإنشاء نيابة السلطنة والأتابكية وغيرهما من المناصب الرئيسية الكبرى ، فغضت هذه المناصب من مكانة الوزارة وتوزعت فيما بينها الكثير من اختصاصاتها . وأصبح أمر الوزارة مقصورا ـ غالبا ـ على الشئون المالية وضبطها إيرادا وإنفاقا ، وفرض الضرائب التي يراها الوزير ضرورية وجبايتها ، والنظر في أمور الجيش . وللوزير معاونون أشرنا إليهم في مناصب الدولة .

وقد ينصب في الوزارة رجل بارز الشخصية ذو حظوة لدى السلطان ، فيستمد من ذلك نفوذا يوسع به اختصاصاته حتى يطغى على سواه . ومن الأمثلة على ذلك الوزير شمس الدين بن السعلوس ، وزير الأشرف خليل بن قلاوون . فإن سلطانه أطلق يده في شئون دولته ، حتى أصبح فيها كل شيء ، وكأنه السلطان أو نائبه . وأصبح القضاة والأمراء يقفون على أعتابه ، ويمشون في ركابه .

كما أنه قد يوكل إلى الوزير أحيانا ـ وبخاصة إذا كان من أرباب السيوف ـ أن يطفىء ثورة ما ، أو يقضى على فتنة . ومن الأمثلة على ذلك ، الوزير الأمير سنقر الأعسر ، فإنه في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، خرج في عام ٧٠٠ هـ ، في عدد كبير من المماليك السلطانية لإطفاء ثورة العربان بالوجه القبلي ، ممن منعوا الخراج ، فأوقع بهم ، وأرغمهم على دفعه .

واختير الوزراء في أول دولة المماليك ، من أصحاب العلم والقلم ، كما كان الشأن في عهد الأيوبيين ، ثم اختيروا من رجال السيف الأمراء .

ومما يذكر أن الناصر محمد بن قلاوون ، ألغى الوزارة في عام (*) ٧٢٩ هـ ، ووزع اختصاصها بين ثلاثة مناصب هي : ناظر المال ومعه شاد الدواوين لتحصيل المال وصرف النفقات . وناظر الخاص ـ وقد استحدثت حينذاك ـ لتدبير الأمور العامة ، وتعيين المباشرين . وكاتب السر ، للتوقيع في دار العدل فيما كان يوقع فيه الوزير سواء من تلقاء نفسه أم بعد مشاورة السلطان .

وكان سبب إلغائها أن الأمير مغلطاى الجمالي ـ وكان وزيرا وأستادارا حينذاك ـ لم يحسن التصرف في شئونها . وكان له أيضا أعداء يكيدون له عند السلطان الناصر

(*) — ذكر المقريزى في الخطط في سياق ترجمة مغلطاى الجمالي أن الوزارة ألغيت عام ٧٢٨ هـ

ويرمونه بضعفه فى التحصيل ، ويرمون أحد معاونيه ، وهو أمجد الدين بن لفيتة (١) بالاستيلاء على بعض الأموال غيلة . فألغاها ، وقصر الأمير مغلطاى على الاستدارية ؛ ثم بعد وفاة الناصر عادت الوزارة إلى الظهور مرة أخرى . قال القلقشندى :

« واقتصرت على ما كانت عليه من التوقيع على القصص بدار العدل وغيرها » .

ومرت على الوزارة ظروف خلت فيها من شاغلها ، ومن الأمثلة لذلك ، الفترة التى تلت وفاة الوزير موفق الدين هبة الله بن سعد الدولة القبطى فى عام ٧٥٥ هـ ، فظلت عاطلة حتى عام ٧٥٨ هـ ، فوليها الأمير قشتمر .

هذا ، وكنا نود لو اتسع المقام لاستيعاب تراجم الوزراء فى هذا العصر . لكنا نقتصر على من سنوردهم ، ممن اشتهر أمرهم فى الوزارة ، ذاكرين أن من بين الوزراء — والأمراء منهم بخاصة — من أوردنا ترجمته فى الباب السابق ، لتقلبه — فى وظائف شتى غير الوزارة . ومنهم من سيرد فى باب القضاة .

ومن نوردهم هنا مرتبون حسب عصور ظهورهم ووفياتهم ، غالباً .

ونشير فى هذا المقام إلى الفصل الممتع الذى عقده السيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ تحت عنوان « ذكر وزراء مصر » ، فقد أورد فيه ثبتا قيما بأسماء وزراء الدول الإسلامية ، ووزراء العصر المملوكى ، مع بيان سنوات توليتهم وعزلهم .

الوزراء

١ — هبة الله بن صاعد الفائزى ٦٥٥ هـ

هو شرف الدين أبو سعيد ، هبـــة الله بن صاعد الفائزى ، وينعت بالأسعد . كان وزيرا للملك المعز أيبك ، فهو أول وزراء العصر المملوكى . وأصله من الأقباط ثم أسلم . ولما تولى الوزارة أحدث ضرائب ومظالم كثيرة كان صلاح الدين الأيوبى قد أبطلها ، فنقم عليه الناس . ولمـا قتل المعز ، ظل « الأسعد » وزيراً لابنه المنصور وكان صغيرا ، ولـكن نقل عنه أنه قال عن سلطانه هذا ما يشعر بعدم رضاه عنه لصغر سنه ، وأنه يود أن يملك غيره ، فقبض عليه ثم قتل ، وذلك عام ٦٥٥ هـ .

ذكر المقريزى فى السلوك قال :

---

١ — ذكر المقريزى فى خططه فى ترجمة مغلطاى الجمالى وقال أن اسمه المجد بن لعيبة .

« وفيها ـ أى سنة ٦٥٥ هـ ـ دخل الصارم أحمر عينه الصالحى بجماعة ، فقتلوا الوزير الفائزى فى جمادى الأولى . . .قال ابن واصل حكى القاضى برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا ، قال :

دخلت على شرف الدين الفائزى وهو معتقل ، فسألنى أن أتحدث فى إطلاقه ، بحكم أن يحمل فى كل يوم ألف دينار عينا . فقلت له : وكيف تقدر على ذلك ؟ فقال : أقدر عليه إلى تمام السنة ، وإلى أن تمضى سنة يفرج الله تعالى . فلم يلتفت مماليك المعز إلى ذلك ، وعجلوا بهلاكه وخنقوه . وحمل إلى القرافة ودفن بها » . .

وقد ولى الوزارة بعده القاضى بدر الدين السنجارى ثم القاضى تاج الدين بن بنت الأعز ، ونذكرهما فى باب القضاة . ثم الصاحب يعقوب بن الزبير الآتى .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٣ ـ السلوك ج ١ ص ٣٧٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ـ حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر وزراء مصر » .

٢ — زين الدين يعقوب بن الزبير ٦٦٨ هـ

هو الصاحب يعقوب بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير . ولى الوزارة فى ذى القعدة عام ٦٥٧ هـ فى أول عهد الملك المظفر قطز ، بعد عزل القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز . وقد ظل « زين الدين » فى الوزارة حتى عزله الظاهر بيبرس فى ربيع الآخر سنة ٦٥٩ هـ ، وقبض عليه . وولى الوزارة بعده بهاء الدين بن حنا . وذكر ابن إياس أن ابن الزبير ولى الوزارة بعد الفائزى مباشرة .

وكانت بين الوزير « زين الدين يعقوب » وبين بنى حنا عداوة . وعنه سلبوا الوزارة . قال المقريزى فى خططه ما نصه : « ومن غريب ما يتعظ به الأريب أن الوزير زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير ، الذى كان بنو حنا يعادونه وعنه أخذوا الوزارة ، مات فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وستمائة ، بالسجن ، فأخرج كما تخرج الأموات الطرحاء على الطرقات من الغرباء ، ولم يشيع جنازته أحد من الناس ، مراعاة للصاحب ابن حنا . وكان فخر الدين هذا ـ أى ابن حنا المذكور ـ يتنزه فى أيام الربيع بمنية القائد ، وقد نصبت له الخيام ، وأقيمت المطابخ ، وبين يديه المطربون فدخل عليه البشير بموت الوزير يعقوب بن الزبير ، وأنه أخرج إلى المقابر ، من غير أن يشيع جنازته أحد من الناس . فسر بذلك ولم يتمالك نفسه ، وأمر المطربين

فغنوه ، ثم قام على رجليه ورقص هو وسائر من حضر ، وأظهر من الفرح والخلاعة ما خرج به عن الحد . وخلع على البشير بموت المذكور خلعا سنية ... فلم يمض على ذلك سوى أقل من أربعة أشهر ، ومات فى حادى عشر شعبان من السنة المذكورة . ففجع به أبوه (١) .

« خطط ج ٤ ص ٩٠ تحت « جامع دير الطين » ـ سلوك ج ١ ص ٤١٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٧ » — ابن إياس ج ١ ص ٩٣ .

٣ ـ بهاء الدين بن حنا المصرى ٦٧٧ هـ

هو الصاحب « بهاء الدين » أبو الحسن ، واسمه على بن سديد الدين محمد بن سليم . وهو أحد رجال الدهر حزما وعزما ، ورأيا ودهاء ، وخبرة وتصرفا . وقد تقلب فى كتابة الدواوين زمنا ، حتى بلغ منصب الوزارة . وذلك فى عهد الظاهر بيبرس يوم ٨ ربيع الأول عام ٦٥٩ هـ ، بعد القبض على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير . وقد وزر من بعده لابنه الملك السعيد كذلك .

ولما وزر لبيبرس ، فوض إليه تدبير المملكة ، فقام بأعبائها بمهارة وحنكة وعدالة مع سعة صدر وعفة وذكاء . وكان بيبرس يثق فيه ثقة مطلقة ويعظمه . وقد حاول بعض الأمراء أن يوقع بينهما ليقصيه عن الوزارة فلم يفلح . وقد جهد فى جمع الأموال للظاهر ، واستحداث الضرائب ، واشتط فى معاقبة المتأخرين فى دفعها . حتى مات بعضهم من العقوبة .

و « بهاء الدين » رأس أسرة مجيدة ، خدم كثير من أفرادها الدولة ردحا من الزمان . وكانوا أهل ثروة وجاه وكرم ، وأدب وعلم ودين . وكان له ولدان هما الصاحب فخر الدين ، والصاحب زين الدين ، فرزىء بهما ، فعوضه الله خيرا فى أبنائهما . وما منهم إلا عالم فاضل ورئيس كامل .

وكان « بهاء الدين » حريصا على أصدقائه ، معوانا لهم ، كريما سمح اليدين يقصده الشعراء بالمديح أحيانا ، فينالون من عطائه الجزيل ، وممن مدحه الرشيد الفارقى قال :

---

١ — الصاحب فخر الدين بن حنا هذا : هو والد الصاحب تاج الدين الآتى ذكره فى الوزراء كذلك ، وقد روى أن فخر الدين ناب عن والده فى الوزارة زمنا . وترجمته فى الخطط ج ٤ ص ٩٠ تحت جامع دير الطين .

وقائل قال لى نبـه لنـا عمرا فقلت : إن عليـا قد تنبه لى
مالى إذا كنت محتاجا إلى عمر من حاجة فلينم حسبى انتباه على

ومدحه سعد الدين بن مروان الفارقى فقال :

يعم عليـا فهو بحر الندى وناده فى المضلع المعضـل
فوفده بحر على مجـدب ووفده مفض إلى مفضـل
يسرع إن سيل نداه وهل أسرع من سيل أتى من عل

وكان يستعين على تثمير ماله وتكثيره بالتجارة فيستعين بذلك على جزالة العطاء .

وقد قام بإصلاحات وإنشاءات عدة . فسهر على بناء جامع الظاهر بالحسينية ، وهو الذى أتم بناؤه عام ٦٦٧ هـ . وأنشأ مدرسة لنفسه عام ٦٥٤ هـ ، بزقاق القناديل بمصر — مصر القديمة — .

وقد ولد بمصر أيضا عام ٦٠٣ هـ ، وتوفى فى ليلة الجمعة مستهل ذى الحجة عام ٦٧٧ هـ — وقيل فى ذى القعدة — ودفن بتربته بقرافة مصر .

وقد ولى الوزارة بعده القاضى برهان الدين الخضر السنجارى ، ونذكره فى باب القضاة . ثم وليها بعده فخر الدين بن لقمان المنشئ ، ثم نجم الدين الأصفونى . ثم الأمير علم الدين الشجاعى ، وهو الآتى .

« خطط ج ٤ ص ٩٢ ، ٢٠٣ — فوات الوفيات ج ٢ ص ٩٥ — سلوك ج ١ ص ٤٤٧ ، ٦٥١ » .

٤ — علم الدين سنجر الشجاعى ٦٩٣ هـ

أصله من مماليك المنصور قلاوون ، ثم أعتق . ولما آلت السلطنة إلى المنصور أنعم على طائفة من مماليكه بإمرات وتقادم ، ومنهم « سنجر الشجاعى » ، فأصبح مقدم ألف ، عام ٦٧٨ هـ .

ولما خرج المنصور إلى حلب لرد التتار والفرنجة ، استخلف على البلاد ابنه الملك الصالح ، وأقام معه الأمير « سنجر الشجاعى » لاستخراج الأموال وتدبير شئون المملكة ، وذلك عام ٦٧٩ هـ فكان بمثابة وزير له ، وبعد هذا العام استخدمه السلطان فى أمور شتى ، وظل مدبرا للمملكة ، حتى كانت سنة ٦٨٢ هـ ، فابتنى السلطان مستشفاه المشهور ، وبجانبه قبته ومدرسته بجهة بين القصرين بالقاهرة . وقد عهد بعمارة البناء إلى الأمير

« سنجر الشجاعى » ، فقام بما عهد إليه خير قيام .

فلما كانت سنة ٦٨٥ هـ غضب السلطان على مملوكه « سنجر » وقبض عليه وصادر ماله وعذبه وخلعه من الوزارة ، وولى فيها مكانه مملوكا بيدرا . ويبدو لنا أنه عاد فرضى عنه ، إذ روى المقريزى فى سلوكه ، ما يفهم منه أن السلطان المنصور استخدمه عام ٦٨٦ هـ لبعض شئون مملكته وأطلق عليه لقب « مدبر الدولة » .

وقد أبان المقريزى فى سلوكه سبب غضب السلطان على الأمير « سنجر » وذلك أنه باع للفرنجة من سلاح السلطان ورماحه وذخائره شيئا كثيرا . فسعى بعض المطلعين على جلية الأمر إلى السلطان فأخبره فغضب . وقد احتج « الشجاعى » بأنه باع العتيق من السلاح مما لا يصلح ، وبأنه إنما باعه إشعارا للفرنجة أن لدى السلطان من السلاح شيئا كثيرا ، حتى إنه يستطيع الاستغناء عن بعضه ... ! ولكن قيل له : إن الفرنجة ربما فسرت هذا بحاجة السلطان إلى المال ... !

ومهما يكن من شىء فقد عزل « الشجاعى » من الوزارة فى يوم الخميس ٢ ربيع الأول عام ٦٧٨ هـ ، ولعل هذه العزلة والغضبة هما اللتان أشار إليهما ابن إياس فيما سبق ، وأنهما كانتا عام ٦٨٥ هـ .

سجن « الشجاعى » حتى ٩ ربيع الآخر عام ٦٨٧ هـ ، ثم أطلق بعد أن أخذ منه خمسة وستون ألف دينار ، سوى ما صودر من ممتلكاته . ثم عين متحدثا فى الأموال بدمشق فجار على الناس ، حتى فر منه بعضهم .

ولما آلت السلطنة إلى الأشرف خليل ، أعاد الشجاعى إلى الوزارة فى أول سلطنته ، فبدأ عمله بأن قام بمصادرة أموال الأمير طرنطاى نائب السلطنة ، الذى قتل بأمر الأشرف خليل ، وقبض على نسائه وجواريه وحاشيته وعذبهم ، واستخلص منهم أموالا طائلة . فعظم شأن « الشجاعى » حتى ندبه السلطان لأعمال نيابة السلطنة ريثما يختار لها أميرا . ولم يكتب له تقليد بالوزارة أو النيابة ، فظل حتى عين الأمير « بيدرا » نائبا ، واقتصر أمره هو على الوزارة .

ثم استقدم الأشرف خليل صديقه ، وصفيه شمس الدين بن السلعوس من مكة ، فقدم فى أوائل عام ٦٩٠ هـ . فأسند إليه الوزارة ، وعزل منها « الشجاعى » .

ومع ذلك أخذ « الشجاعى » بعد قليل ، يعود إلى الاشتراك فى شئون الدولة .

فاشترك مع السلطان فى حصار عكا ، ثم ولى نائبا على دمشق ، وزيد فى راتبه وإقطاعه واختصاصه ، وقام هناك بحملة أعمال حربية باهرة ثم عزل من نيابة دمشق فى ٦ شوال عام ٦٩١ هـ فتألم لذلك .

قتل الأشرف بعد حين ، وولى السلطنة أخوه الناصر محمد ، وكان صغير السن ، فاختير لوزارته الأمير « علم الدين سنجر الشجاعى ، مرة جديدة ، فى المحرم سنة ٦٩٣ هـ ، ولكنه أخذ يستبد ، مخدوعا بصغر سن السلطان ، وعاقب ابن السعلوس وزير الأشرف خليل ، وأخذ فى تدبير مؤامرة لخلع السلطان والكيد لكبار الأمراء ومنهم الأمير كتبغا المنصورى . وجمع بعض أتباعه ليفجأ بهم أعداءه ، فلم تفلح مؤامرته ، وهزم وفر . ثم طلب الأمان فلم يؤمنوه . فدخل على السلطان الناصر فى دور الحرم ، وأغلظ له فى القول . فعرض عليه السلطان أن يكون نائبا فى حلب — وقيل فى قلعة الشام — فرفض . وأحس غلمان السلطان منه الشر ، فأمسكوه وقيدوه ، وأرسلوه إلى البرج بالقلعة ليسجن . فلقيه به بعض أعدائه من المماليك البرجية ، فقتلوه وجزوا رأسه ، وبعثوا به إلى الأمير كتبغا .

بذلك انطفأت فتنته ، وتشتت أنصاره ، وختمت حياته . وطيف برأسه بالقاهرة ومثل به شر تمثيل ، وكانت قتلته فى صفر عام ٦٩٣ هـ .

ونشير هنا إلى أن « الشجاعى » لما عزل من الوزارة فى عهد قلاوون ، وليها الأمير بيدرا . ثم صار بيدرا نائب سلطنة ، وقد مرت ترجمته فى نوابها .

« ابن إياس ج ١ ص ١١٥ ، ١١٧ ، (١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ إلى ١٣٢ ، ١٧٤ — السلوك ج ١ »

٥ — شمس الدين بن السعلوس (١) التنوخى ٦٩٣ هـ

هو القاضى والصاحب ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن أبى الرجاء ابن السعلوس التنوخى . قيل : إنه كان تاجرا فى دمشق ، وولى الحسبة بها زمنا ، منذ رمضان عام ٦٨٧ هـ . ثم وفد على مصر فى بعض السنين . وكان يكتب خطا جيدا ، فاستطاع الاتصال بالأشرف خليل ، وهو أمير فى عهد سلطنة أبيه المنصور قلاوون ، فاتخذه ناظرا لديوانه . وكان يتوجه له ببعض الأعمال التجارية فى البلاد الشامية ، فيربح من

---

١ — هكذا فى ابن إياس وضبط فى السلوك « السلعوس » بتقديم اللام على العين وفتح السين .

ورائها الكثير من المال . لذلك ازداد قربا من الأشرف وأصبح محبوبا عنده ، وعلت منزلته لديه ، حتى صار كمستشار خاص له فى جميع أعماله وتصرفاته . فخاف منه المنصور على ولده ، وخشى أن يكون ذا أثر سىء فيه ، ووشى به إليه الأمير طرنطاى ، فضربه المنصور ونفاه إلى مكة ، فأقام بها حتى توفى المنصور .

آلت السلطنة حينذاك إلى الأشرف خليـل ، فرسم توا « لابن السعلوس » بالعودة إلى مصر . وكتب إليه بخطه على مرسومه يقول : « يا شقير ، جد السير جاء الخير »(١).

عاد القاضى « شمس الدين بن السعلوس » إلى مصر فى ١٣ المحرم عام ٦٩٠ هـ — وقيل فى السلوك : فى عاشوراء — فأسندت إليه الوزارة ، وفوضت إليه شئون المملكة ، فعلت مهابته وهيبت سطوته ونفذت كلمته . وأصبح يسير فى ركابه الأمراء والموظفون والمماليك ، بل والقضاة الشرعيون . فإذا اجتمعوا ببابه يدخـل عليه حاجبه ويقول : « أعز الله مولانا الصاحب قد اكتمل الموكب » ، فيخرج للركوب من داره أو إليها .

واتسعت أعمال الوزارة فى عهده ، حتى طغت على نيابة السلطنة نفسها ، وحتى كانت الظلامات المرفوعة إلى السلطان تقرأ على الوزير ويمضى فيها أمره بغير مشورة السلطان .

غير أن « ابن السعلوس » كان سريعـا إلى السوء والدس ، فأفسدما بين نفسه وبين كثيرين من رجال المملكة ، كالأمير بيدرا والقاضى تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز (٢) . ونسب إلى هذا القاضى الكفر ، فدفع إلى السجن بسبب ذلك ، ولبث يكيد له حتى اتضحت براءته فأطلق .

وقد أسـاء ابن السعلوس — بلاريب — إلى نفسه وإلى مليكه بهذه التصرفات الخرقاء ، حتى جلب لمليكه الأذى . وذلك أن السلطـان الأشرف خليـلا ، أراد فى عام ٦٩٣ هـ الرحيل إلى الاسكندرية . فسبقه إليها وزيره هذا ليمهد لاستقباله بها . فاختلف هناك مع غلمان نائب السلطنة حينذاك وهو الأمير بيدرا — وكان بينهما حقد خفى — وبعث بتفاصيل الخلاف إلى سلطـانه فأضمر هـذا الشر للأمير بيدرا واستقدمه بين يديه ووبخه وهم بالقبض عليه ، فترفق به بيدرا ، ورق أمامه حتى أطلقه ، ثم أخـذ بعد إطلاقه يدبر مؤامرة لاغتيال هذا السلطان ، وقد نجحت مؤامرته ، وقتل الأشرف

١ — وفى السلوك أنه كتب « ياشقير ، بأوجه الخير ، عجل السير ، فقد ملكنا »

٢ — فصلنا ماوقع بين السعلوس وبين القاضى تقى الدين فى ترجمته فى باب القضـاة .

وزالت دولته فى العام المذكور .

ومن غريب ما روى عن « ابن السعلوس » أن خبر مقتل سلطانه وافاه وهو بالإسكندرية ، فعاد إلى القاهرة ، واستأنف نشاطه السابق وركب من داره إلى ديوانه بالقلعة ، وهو على عادته من الزهو والكبر، غير عابىء بما جرى ولا متخذ لنفسه الحيطة. فعجب الناس منه وقال له أحد خاصته : « الرأى أن تختفى حتى تسكن الفتنة » . فقال : « هذا لا نفعله ولا نرضاه لعامل من عمالنا ، فكيف نختاره لأنفسنا ؟ »

ثم آلت السلطنة إلى أخى المتوفى ، وهو الناصر محمد ، فاختار لوزارته الأمير سنجر الشجاعى . فسرعان ماجهد فى القبض على « ابن السعلوس » وأسلمه إلى أحد الحاقدين عليه ، وهو الأمير بهاء الدين قراقوش الظاهرى شاد الصحبة . فطالبه بأموال وضربه فى مرة ألف عصا ومائة ، وعاقبه وعذبه . ثم تناوله رجل آخر فعذبه كذلك واستخلص منه مالا كثيرا . ومازال حتى مات . وكان موته فى يوم الأحد ١٥ صفر عام ٦٩٣ هـ . قيل: ضرب بعد موته ثلاث عشرة مقرعة . . ودفن بالقرافة واستحوذ الشجاعى على ماله وآذى أولاده ونساءه وحاشيته . وزال بذلك كله عزه وجاهه ، بعد ما لقى ضروبا من من الهوان والذلة .

ومما يذكر أن الأمير سنقر الأعسر — الذى ولى الوزارة بعد حين — تزوج بنت الوزير ابن السعلوس فى جمادى الأولى عام ٦٩١ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ الى ١٣٠ — السلوك ج ١ » .

٦ — تاج الدين بن حنَّا ٧٠٧ هـ

هو الصاحب تاج الدين بن الصاحب فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنا واسمه محمد بن محمد بن على محمد بن سليم . وقد مر ذكر جده بهاء الدين . ونوهنا بأبيه فى ترجمة الصاحب يعقوب .

وهو فرع من تلك الأسرة المصرية المجيدة — أسرة ابن حنا — قال المقريزى عنه فى الخطط : « وانتهت إليه رياسة عصره ، وكان صاحب صيانة وسؤدد ومكارم وشاكلة حسنة وبزة فاخرة إلى الغاية . وكان يتناهى فى المطاعم والملابس والمناكح . ويجود بالصدقات الكثيرة مع التواضع ومحبة الفقراء وأهل الصلاح والمبالغة فى اعتقادهم . ونال فى الدنيا من العز والجاه مالم يره جده الصاحب الكبير بهاء الدين » .

وكان « تاج الدين » حسن الترتيب فى منزله منظما بحيث تقضى له مآربه ومآرب ضيوفه دون أن يتكلف إشارة ما ، وكان كريما يقصـــده الشعراء فيجزل لهم العطاء . مدحه الشهاب محمود والسراج الوراق وابن دانيال .

وقد تقلد « تاج الدين » الوزارة بعد مقتل الوزير سنجر الشجاعى ، وذلك فى صفر عام ٦٩٣ هـ . فلبث بها أكثر من عام إلى جمادى الأولى عام ٦٩٤هـ ، ولم يوفق فى أعمالها، فصرف عنها . ووليهـا من بعده فخر الدين عثمان بن الخليلى ، قال المقريزى فى الخطط :

« لما تقلد الوزير الصاحب فخر الدين بن الخليلى الوزارة سار من قلعة الجبل وعليه تشريف الوزارة إلى بيت الصاحب تاج الدين ، وقبل يده وجلس بين يديه ، ثم انصرف إلى داره » .

وقد دعى لتقلد الوزارة مرة أخرى بعد زمن ، ولكنه لم يفلح كذلك فعزل .

وقد سلم مرة للشجاعى ليعاقبه فهابه ولم يضربه غير مقرعة واحدة على قيصه .

وقد ولد « تاج الدين » فى ٧ شعبـان عام ٦٤٠ هـ ومات فى ٤ جمـادى الآخرة عام ٧٠٧ هـ ودفن فى مدافن أسرته بالقرافة . وكان على شىء من العلم والأدب وينظم الشعر . ومن آثاره رباط الآثار بالقرب من بركة الحبش ، عمره ولكنه لم يكمل فى حياته . وجامع دير الطين . وقد اشترى بعض الآثار النبوية بستين ألف درهم فضة .

« خطط ج ٤ تحت عنوان « رباط الآثار » . سلوك ج ١ ص ٨٠٢ ـ الدرر ج ٤ رقم ٥٤٨ »

٧ — شمس الدين سنقر الأعسر ٧٠٩ هـ

أصله مملوك الأمير عز الدين إيدمر الظاهرى نائب الشـام . ترقى فى عهد قلاوون حتى كان أستـادارا فى دمشق ، ثم أضيفت إليه وظيفة شـد الدواوين بدمشق أيضا فى جمادى الثانية عام ٦٨٣ هـ فأخذ طريقه إلى الرفعة من ذلك الحين . وكان يقوم للسلطان المنصور بخدمات جليلة . لذلك استقدمه إلى مصر فى ربيع الأول عام ٦٨٩ هـ وألقى إليه تعليماته الخاصـة بجبى الأموال . وقلده أمور الحصون بكل البلاد الشامية والسواحل وكذلك ديوان الجيش ، فاتسع نطاق عمله وقوى نفوذه .

ثم آلت السلطنة إلى الأشرف خليل ، وكان حاقدا على هذا الأمير ، فاستقدمه إلى مصر عام ٦٨٩ هـ ، وأمر بضربه ومصادرة أمواله وعزله من وظائفه . وبعد حين ، وفى عام ٦٩٠ هـ أعيد إلى شد الدوارين بدمشق ثانيا .

وفى عام ٦٩١ هـ وفى منتصف جمادى الأولى منه تزوج هذا الأمير بنت الوزير الخطير صديق الأشرف خليل ، وأعنى به الصاحب شمس الدين بن السعلوس ، على صداق جملته ألف وخمسمائة دينار ، معجله خمسمائة . وكانت هذه الزيجة - بلا ريب - من أسباب تقدم الأمير « سنقر الأعسر » لدى الأشرف .

ثم قتل الأشرف ، وولى السلطنة أخوه محمد ثم العادل كتبغا . فظل الأمير « سنقر » شادا للدواوين بدمشق . ولكنه ما لبث أن قبض عليه لمحاسبته ، وذلك فى شوال عام ٦٩٥ هـ ، وأسلم الوزير فخر الدين بن الخليلى ، فاستخلص منه مالا ، وعزل من منصبه .

ولما آلت السلطنة إلى المنصور لاجين المنصورى ، استخدمه لبعض شئونه ، وكانت صلته به حسنة . وقد بعثه فى أول سلطنته رسولا إلى دمشق وأمرائها ليجمع الناس حول سلطنته - وقد كان السلطان السابق كتبغا المنصورى مقيما هناك - فاستطاع « سنقر » أن يجمع له الأمر ، حتى دانت له بلاد الشام وأعلن فى دمشق - وقد دخلها « سنقر » فى صفر عام ٦٩٦ هـ وتلقاه أهلها بالترحاب - أن من له مظلمة ، فعليه بباب الأمير « سنقر الأعسر » .

ظل « سنقر » فى دمشق نحو أربعة شهور ، ثم استقدمه المنصور لاجين فى رجب ، وقد عظمت مهابته وعلت كلمته وأصبح أحد الرؤساء المخوفين . وقلده لاجين منصب الوزارة ، وأفاض عليه رضا كثيرا .

ولعل ما بلغه « سنقر الأعسر » من عظمة ونفوذ أغراه بشىء خفى أضمره فى نفسه ، كان وبالا عليه ، فإنه حدث أن أصيب السلطان لاجين بكسر فى يده من جراء وقوعه من فوق جواده وهو يلعب الكرة . وأراد المجبرون كسر بعض عظامه للتوفيق بين سائر العظام . فخاف السلطان وأظهر رهبة وجزعا ، وذلك بحضور وزيره « الأعسر » ، فما كان منه إلا أنه ادعى أنه وقع له مثل هذا الحادث ، وأنه كسرت عظامه بآلة حديدية ، لما طلب إليه ذلك . وشعر الملك باستخفاف وزيره به ، فأضمر له الشر فى نفسه . ثم سرعان ما قبض عليه فى ذى الحجة عام ٦٩٦ هـ ، فلم ينعم طويلا . ولم يول السلطان أحدا بعده حتى ربيع الآخر عام ٦٩٧ هـ فأسند الوزارة إلى عدو « الأعسر » وهو الوزير الصاحب فخر الدين بن الخليلى . فضيق الحصار على « الأعسر » وصادر ممتلكاته ، وكاد لأتباعه وأرخى « الأعسر » فى جب القلعة مسجونا .

قتل لاجين وآلت السلطنة إلى الناصر محمد ثانية ، فأفرج عن « الأعسر » فى جمادى الأولى عام ٦٩٨ هـ وبعـــد قليل أعاده إلى الوزارة فعاد إلى سابق عظمته وكبره ، ونشاطه .

وأخذ يقوم ببعض المهام ، ومن ذلك خروجه عام ٧٠٠ هـ فى مئات من المماليك السلطانية إلى الوجه القبلى لإطفاء ثورة العربان العابثين به والمانعين الخراج ، لما وجدوا الدولة مشغولة بحركات غازان ملك التتار ، فأوقع بهم الأمير « سنقر » وقتل منهم عددا كبيرا ، وصادر كثيرا من خيولهم وجمالهم وسلاحهم وأذلهم وأرغمهم على دفع الخراج.

ظل الأمير « شمس الدين سنقر الأعسر » سادرا فى غلوائه ، قاسيا فى معاملة غيره ، مشتطا فى عقوباته ، لابسا ثوب كبره وتيهه ، حتى ثقـــل على نفوس الأمراء . وهموا بإخراجه من الوزارة — وكان السلطان صغير السن استبد بملكه الأميران بيبرس وسلار — ثم رأوا إرسال « سنقر » إلى القلاع الشامية ليتفقد أحوالها ويصلح شأنها ويفتش مافيها من رجال وعتاد ومال . فسافر إليها توا فى أخريات عام ٧٠٠ هـ وعين مكانه فى الوزارة الأمير عز الدين أيبك البغدادى فى المحرم عام ٧٠١ هـ .

عاد «سنقر» إلى مصر بعد قليل ، فظل بعيدا عن الوزارة ، مستعانا فى بعض المهام . وقد عاون النائب سلار فى ترميم الجامع الأزهر عام ٧٠٢ هـ ، وحج معه عام ٧٠٣ هـ ، وأسدى ألوانا من الإحسان . وقد توفى عام ٧٠٩ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٧٤ — السلوك ج ١ — الدرر ج ٢ رقم ١٩٠٥ » .

٨ — بكتمر الحاجب المنصورى ٧٢٨ هـ

هو الأمير سيف الدين «بكتمر» ظهر بدمشق فى نيابة الأفرم . فكان أمير أخور ، ثم ولى شد الدواوين ، ثم الحجوبية . وكان واسع الجاه نافذ الكلمة ، فلما زحف الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك إلى دمشق ، حظى عنده «بكتمر» وعاد معه إلى مصر فعينه نائبا لغزة عام ٧١٠ هـ .

لم يلبث « بكتمر » هذا فى غزة إلا قليلا ، ثم استدعاه الناصر ، وقلده الوزارة فى العام نفسه عوضا عن الصاحب فخر الدين بن الخليلى . فلبث بها حتى سنة ٧١٥ هـ ، إذ قبض عليه الناصر ، واعتقله نحو سنة ونصف ، وأخذ من ماله شيئا كثيرا . ثم أفرج

عنه ، ومنحه نيابة صفد سنة ٧١٦ هـ ، فلبث بها شهورا ، ثم عاد لمصر ، وقد قوى أمره ، وأصبح من المقدمين لدى الناصر ، يستشيره فى مهامه لما لديه من خبرة ودراية وحسن سياسة ، وصبر على عمله .

وتزوج « بكتمر » بنت الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك ، واقتنى مالا كثيراً ثم زوج ابنته لخازنداره واسمه سيف الدين بخشى .

وحدث أن سرق من خزانته مال ، وأنهى خبر السرقة إلى الناصر ، فعاقب كثيرين من الناس بسبب ذلك . غير أن « بكتمر » كان له أعداء يحقدون عليه ويكيدون له ، ومنهم الوزير مغلطاى الجمالى والأمير بكتمر الساقى ، والقاضى فخر الدين ناظر الجيش - فدسوا إلى والى القاهرة أن يتهاون فى ضبط هذه السرقة نكاية فى « بكتمر » ، ثم ادعوا لدى الناصر أن خازنداره سيف الدين بخشى ، يقول عن اللصوص إنه متفق معهم ، فعاقب خازنداره . لذلك اغتم « بكتمر » وملكه الحزن ، فمات ليومه سنة ٧٢٨ هـ .

« الخطط ج ٣ ص ١٠٣ تحت عنوان « دار الحاجب » — الدررج ١ رقم ١٣٠٦ » -

٩ — مغلطاى الجمالى ٧٣٢ هـ

هو الأمير علاء الدين « مغلطاى » بن عبد الله الجمالى . من مماليك الناصر محمد ابن قلاوون . رقاه أميرا ، وهو شاب . وحظى عنده وتقدم . وندبه الناصر فى كثير من خصوصياته . وجعله أميرا لركب المحمل عام ٧١٨ هـ . ثم رقاه أستادارا .

وفى يوم الخميس ٨ رمضان عام ٧٢٤ هـ ، قلده الوزارة عوضا عن الصاحب أمين الملك ابن الغنام . ولكنه اتهم بأنه أضاع أوضاع المملكة وفرط فى أموال المسلمين وفى الجيش . وأنه يجهل الأحكام . فشدد السلطان عليه النكير ، وندب لمعونته ناظر الدولة وناظر الخواص - وهى وظيفة جدت حينذاك - ثم انتهى الأمر بإلغاء الوزارة جملة ، وتوزيع اختصاصاتها ، وذلك عام ٧٢٩ هـ . — وقيل عام ٧٢٨ هـ —

واقتصر « مغلطاى » على الأستادرية . وكان له أعداء يدسون له ويحملون عليه لدى السلطان . وبخاصة لأنه قدم صديقه مجد الدين محمد بن لعيبة (١) ، وكان ناظر الدولة والصحبة والبيوت . وترك حبال الأمور فى يديه ، فسار وفق هواه . — وهم السلطان بمصادرة أموال « مغلطاى » فتوسط له الأمير بكتمر الساقى ، فعفا عنه .

---

١ — سماه ابن إياس : ابن لفيته بالفاء والتاء .

وذهب « مغلطاى » إلى الحجاز حاجا ، ثم عاد فتوفى بعقبة أيلة فى الأحد ١٧ المحرم عام ٧٣٢ هـ (١) . وحمل إلى القاهرة ودفن بالخانقاه التى أنشأها بجوار درب راشد بالقاهرة عام ٧٣٠ هـ ، والتى جعلها مدرسة للحنفية .

« الخطط ج ٤ ص ٢٣٨ تحت عنوان « المدرسة الجمالية » - والدرر ج ٤ رقم ٩٦٤ - والسلوك ج ١ » .

١٠ — الجناب الناصرى محمد بن الحسام الصفدى (٢) ٧٩٤ هـ

من وزراء برقوق . ولى الوزارة خلفا للقاضى سعد الدين البقرى عام ٧٩٢ هـ . ثم توفى عام ٧٩٤ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٦ » .

١١ — موفق الدين أبو الفرج ناظر الجيوش ٧٩٦ هـ

من وزراء عهد برقوق . اشتهر بناظر الجيوش ، إذ أنه تردد على هذه الوظيفة مرارا . وقد عينه فيها برقوق سنة ٧٨٦ هـ بعد القاضى تقى الدين بن محب التيمى . ثم غضب عليه عام ٧٨٨ هـ ، وضربه مائة وخمسين عصا . وفصله من وظيفته ، وعين مكانه القاضى كريم الدين بن مكانس .

ثم خلع برقوق ، وولى السلطنة «أمير حاج» ثم عاد برقوق بعد قليل ، ويبدو لنا أن القاضى « موفق الدين » أسندت إليه نظارة الجيوش حينذاك . وأضيفت معها الوزارة . إذ قال عنه ابن إياس : « إن السلطان برقوقا استقر به ناظرا للجيوش ، ووزيرا بالديار المصرية على عادته . وذلك لما عاد إلى سلطنته سنة ٧٩٢ هـ .

ثم فصل « موفق الدين » من الوزارة ، وعين فيها القاضى سعد الدين البقرى . ونصب «موفق الدين» مستوفيا للدولة بعد فصله . ثم مستوفيا على جميع أرباب الوظائف بالديوان المفرد - غير الأمراء - وسمى وزير الوزراء . فلبث مدة يسيرة كذلك ، ثم توفى عام ٧٩٦ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٩١ إلى ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ » .

---

١ — فى الدرر : أنه توفى سنة ٧٣٠ هـ .

٢ — ذكره فى الخطط فى سياق الحديث عن « دار ابن البقرى » ج ٣ ، فقال اسمه : الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى .

١٢ — محمد بن رجب بن كلبك ٧٩٨ هـ .

هو الجناب الناصرى محمد بن رجب بن كلبك - وقال المقريزى : « ابن كلفت » .
نشأ بالقاهرة محمود السيرة وشغل جملة من الوظائف السنية . إلى أن اختاره الظاهر برقوق وزيرا فى ١٤ ربيع الآخر عام ٧٩٦ هـ عوضا عن سعد الدين البقرى . وقال المقريزى : « عوضا عن موفق الدين أبى الفرج » . فباشر الوزارة بمهابة ، ودبر المملكة بحنكة ودراية ، واستعان فى عمله بعدد من المباشرين الذين كانوا وزراء . وأنعم عليه بإمرة عشرين فارسا فى ٦ ربيع الثانى عام ٧٩٧ هـ . فلبث حتى مات بعد مرض طويل فى صفر عام ٧٩٨ هـ وهو وزير . وكانت جنازته حافلة .

« الخطط ج ٣ تحت عنوان « دار ابن رجب » - وابن إياس ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦

١٣ — سعد الدين البقرى ٧٩٩ هـ

هو الوزير الصاحب سعد الله بن البقرى ، ابن أخت القاضى شمس الدين شاكر ابن غزيل البقرى . كان نصرانيا فأسلم . وقيل إنه كان يظهر الإسلام ويبطن النصرانية .

كان من كتاب الدواوين ؛ بارعا فى رسوم الكتابة الديوانية . وقد تقلب فى وظائفها ، حتى اختاره الظاهر برقوق لنظر الديوان المفرد ونظر الخاص ، عوضا عن الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن مكانس فى رمضان عام ٧٨٣ هـ . ثم عزل وأحيط بماله ، وأخذ ما فى داره من الأوانى والثياب والمال والحلى والجوارى وغير ذلك ، وحمل إلى القلعة ، وضرب وأهين .

ثم لما عاد برقوق إلى عرشه ، قلده الوزارة فى ١٧ ربيع الآخر عام ٧٩٢ هـ ، عوضا عن موفق الدين أبى الفرج . ثم عزل فى رمضان . وأحيط بداره مرة أخرى .

ثم ولى الوزارة الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصقرى - أو الصفدى - فى ذى الحجة ، فاستخدم عددا من الوزراء المفصولين عن الوزارة ، فى وظائف الوزارة المرعية ، كنظر الدولة ، ونظر البيوت ، واستيفاء الدولة ، فكان نصيب « ابن البقرى » نظر البيوت . فكان يقف بين يدى ابن الحسام ، مع أن ابن الحسام كان دواداره فيما سبق !

وبعد قليل قبض ابن الحسام عليه وألزمه غرما ماليا كبيرا . ثم بعد قليل عاد « ابن البقرى » إلى الوزارة . ومازال هذا شأنه . يلى الوزارة ثم ينفصل عنها ، ثم

يختار لغيرها أو يعود إليها . ويؤذى فى سبيلها . إلى أن كان يوم ٤ رجب سنة ٧٩٨ هـ، فأعيد إلى الوزارة ، وكانت هذه آخر عوداته إليها . إذ صرف عنها وقبض عليه ، فى ٤ ربيع الأول عام ٧٩٩ هـ وصودر جميع ما يملك ، وسيق مهينا على ملأ من الناس ، إلى دار ابن الطبلاوى ، حيث سجن ، ثم خنق ليلة ٤ جمادى الآخرة عام ٧٩٩ هـ .

ومما يذكر أن له ابنا يدعى تاج الدين عبدالله ، ولى الوزارة من بعد ، ونظر الخاص ، وعوقب ومات تحت العقوبة .

« الخطط ج ٣ تحت عنوان دار ابن البقرى — ابن إياس ج ١ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٦ » .

١٤ — مبارك شاه الظاهرى ٨٠٢ هـ

من وزراء برقوق . وقد عين هذا الأمير فى الوزارة عام ٧٩٨ هـ ، بعد الناصرى محمد بن رجب بن كلبك . ثم خلع فى العام نفسه ، وخلفه سعد الدين بن البقرى . ثم آلت السلطنة إلى فرج بن برقوق عام ٨٠١ هـ ، فأقام الأمير « مبارك شاه » أستادارا . فمكث أقل من شهر ، واستعفى ثم إن السلطان فرجا غضب على جماعة من أمرائه ، فنفاهم فى بلاد الشام عام ٨٠٢ هـ ، وكان من عدادهم الأمير « مبارك شاه » (١) .

« ابن إياس جـ ١ ص ٣٠٤ إلى ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ — الضوء جـ ٦ رقم ٨٢٢ » .

— ١٥ — الجناب الركنى عمر بن قايماز ٨٠٩ هـ

من وزراء برقوق أيضا . عين فى الوزارة خلفا للناصرى محمد بن الحسام الصقرى بعد وفاته عام ٧٩٤ هـ . وعزل فى العام نفسه . وخلفه القاضى تاج الدين بن أبى شاكر ومات « ابن قايماز » فى رجب عام ٨٠٩ هـ . ذكره الضوء فى « عمر قايماز » . وترجمه بإيجاز ، ولم يذكر الوزارة فيما ولى . فلعله هو .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣١٦ — الضوء ج ٦ رقم ٣٥٩ » .

١٦ — سعد الدين القبطى ٨١٨ هـ

هو ابراهيم بن بركة ، سعدالدين القبطى المصرى الوزير . ويعرف بالبشيرى . نشأ خدم فى بيت ناظر الدولة التقى بن المحب . ثم تنقل فى خدم الأمراء ، حتى ولى الوزارة .

١ — قال فى الضوء إنه لزم داره ، ومات فى رمضان عام ٨١٦ هـ

ثم قبض عليه فى الدولة المؤيدية عام ٨١٦ هـ . ثم لزم منزله حتى مات سنة ٨١٨ هـ فى صفر وكان رئيسا ذا مهابة حسن الإسلام .

« الضوء ج ١ ص ٣٣ » .

١٧ — تاج الدين بن أبى شاكر ٨١٩ هـ

هو عبد الوهاب بن عبد الله ، عين فى الوزارة خلفا لعمر بن قايماز بعد عزله سنة ٧٩٤ هـ فى عهد برقوق . ولما آلت السلطنة إلى الناصر فرج بن برقوق ، اختاره وزيرا له فى أول سلطنته سنة ٨٠١ هـ . وبعد زمن يسير أضيفت إليه الأستادارية ، بعد أن استعفى منها مبارك شاه . وفى العام نفسه عزل من منصبيه . وعين مكانه فى الوزارة الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر الحسنى بن قطينة ، وفى الأستادارية الأمير يلبغا السالمى .

وقد عاد « تاج الدين » إلى الوزارة مرة أخرى فى المحرم سنة ٨١٩ هـ ، ثم مات فى ذى القعدة من السنة نفسها وهو من مسالمة القبط .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٩٧ ، ٣١٦ ، ٣١٨ — حسن المحاضرة ج ٢ باب « ذكر وزراء مصر » — الضوء ج ٥ رقم ٣٨٤ » .

١٨ — أمين الدين بن الهيصم ٨٥٩ هـ

من وزراء عصر برسباى وابنه ، ووزر كذلك لجقمق . واسمه ابراهيم بن عبد الغنى ابن ابراهيم القبطى . وقيل كان ينسب إلى المقوقس صاحب مصر .

كان ناظر الدولة من سنة ٨٢٨ هـ . ثم عينه برسباى فى الوزارة سنة ٨٣٨ هـ (١) ، عوضا عن كريم الدين بن كاتب المناخات ثم عزل ثم عاد بعد مدة . وفى سنة ٨٥٣ هـ . فى عهد الملك جقمق ، أصيبت البلاد بغلاء شديد وقحط بالغ ، ولم يستطع الوزير « أمين الدين ابن الهيصم » أو سواه من المستوفين والمباشرين ، أن يخففوا عن الشعب ما يعانيه من آلام القحط ومشاق الغلاء . ولا أن يقدموا إلى المماليك حاجياتهم المرعية . لذلك قاسى الشعب حينذاك من أذى المماليك شيئا كثيرا .

وفى عام ٨٥٧ هـ ، فى عهد الأشرف إينال . اختفى الوزير « ابن الهيصم » ، فخلعت

---

١ — ذكر فى الضوء : أنه ولى الوزارة عام ٨٣٧ هـ ، وبه شىء من الخلاف فى التواريخ الأخرى .

الوزارة على سعد الدين فرج بن النحال كاتب المماليك . وبعد زمن ظهر « ابن الهيصم » فأعيد إلى الوزارة ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٨٥٨ هـ . ثم اختفى ثانيا ، فعاد ابن النحال إلى الوزارة . وذلك فى رمضان من العام نفسه . وما حان مستهل ربيع الآخر عام ٨٥٩ هـ (١) ، حتى أعلنت وفاة « ابن الهيصم » . وكان حنفى المذهب محبا للعلم والعلماء .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٢ إلى ٤٤ ؛ ٤٦ إلى ٤٨ — طبقات الشافعية — الضوء ج ١ ص ٦٨ » .

١٩ — سعد الدين فرج بن ماجد النحال ٨٦٥ هـ

أصل هذا الرجل من أقباط مصر . ورقى ، حتى عد فى جملة رؤسائها . وكان كاتبا للمماليك فى عهد الأشرف إنيال ، فلما اختفى الوزير أمين الدين بن الهيصم ، عين مكانه فى الوزارة عام ٨٥٧ هـ ثم عزل فى جمادى الأول عام ٨٥٨ هـ ، وأعيد ابن الهيصم ثم أعيد « سعد الدين فرج » مرة أخرى ، لاختفاء ابن الهيصم فى العام نفسه ، وظل حتى عام ٨٦٠ هـ . وفى صفر منه ، ثار عليه وعلى بعض المباشرين ، طائفة من المماليك الجلبان ، ونهبوا داره ، فاختفى ، وتوارى عن أنظارهم . وذلك لأنه لم يؤد ما فرض لهم من الطعام تمام الأداء . وظل متواريا حتى هدأت الحالة ، فظهر فى ربيع الأول وظل متقلدا الوزارة . وفى جمادى الآخرة من السنة نفسها نقل من الوزارة إلى الأستادارية . ثم توفى فى جمادى الآخرة سنة ٨٦٥ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٧ — الضوء ج ٦ رقم ٥٧٠ » .

٢٠ — الشمس محمد البباوى ٨٧٠ هـ

كان ناظر دولة . وفى سنة ٨٦٩ هـ ، انتقل الوزير مجد الدين بن البقرى إلى الأستادارية . فشغرت الوزارة حينا ، إلى أن اختار لها السلطان خشقدم ، الصاحب « شمس الدين محمد البباوى » . قيل : كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقيل : إنه كان طباخا وكان من متعهدى توريد اللحم . ويبدو أنه أحسن اتصاله بالسلطان المذكور ، حتى أسند إليه هذا المنصب الجليل . وقيل : فاشمأز الناس من هذا التعيين ، وانحطت

---

١ — وقيل إنه مات في ١٨ صفر عام ٨٥٩ هـ .

الوزارة فى نظرهم ، وإن كان قد قام بأعماله خير قيام . وقيل : كان ثقيل الظل ثقيل النطق . ولكن زادته ثقة السلطان به مهابة لدى الناس وإجلالا ، وسكن بين العظماء ببركة الرطلى .

وفى يوم الأربعاء ٢٨ من ذى الحجة سنة ٨٧٠ هـ ، نزل فى مركب ، وتوجه ناحية قناطر بنى منجا ، ثم رجع ، فما بلغ فم خليج الزربية ، حتى انقلب به المركب ، فغرق ولم تظهر جثته .

ابن إياس ج ٢ ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٦ » .

٢١ — شرف الدين يحيى بن صنيعة ٨٨٢ هـ

أصله من أقباط مصر . ولاه الظاهر خشقدم الوزارة سنة ٨٦٦ هـ ، لما عزل وزيره الأهناسى . ثم عاد ابن الأهناسى إلى الوزارة ، وعزل « ابن صنيعة » ، سنة ٨٦٨ هـ . وعاد فتقلدها سنة ٨٧٠ هـ بعد أن غرق الوزير ابن البباوى . ثم عزل ، وعين مكانه الزينى قاسم شغيته . وعاش « ابن صنيعة » إلى المحرم سنة ٨٨٢ هـ ، وتوفى فى الشهر المذكور ، بعد أن ولى الوزارة مرات عدة .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٧١ — الضوء ج ١٠ رقم ١٠٦١ » .

٢٢ — مجد الدين بن البقرى ٨٩٣ هـ

هو الصاحب مجد الدين شاكر بن علم الدين بن البقرى ، وأصله من الأقباط . عين فى الأستادارية فى جمادى الآخرة سنة ٨٦٥ هـ ، فى عهد أحمد بن إينال ، وذلك عوضا عن منصور بن الصفى . وهذه أول مرة يلى فيها الصاحب « مجد الدين » وظيفة من وظائف الدولة السامية . فلبث فيها مدة ثم عزل . وفى عهد خشقدم عاد إلى الأستادارية سنة ٨٦٦ هـ ، عوضا عن الأمير زين الدين يحيى الأستادار .

وفى سنة ٨٦٨ هـ عين فى الوزارة ، خلفا لعلاء الدين بن الأهناسى الذى اختفى ، ثم ما لبث أن قبض على هذا المختفى ، وسجنه ، وصادر أمواله ، واستخلص منه مائة ألف دينار ، ونفاه إلى مكة .

وفى سنة ٨٦٩ هـ اختفى زين الدين الأستادار ، فنقل « مجد الدين البقرى » من الوزارة إلى الأستادارية مرة أخرى ، وظلت الوزارة شاغرة من بعده زمنا ، حتى

عين فيها الشمس محمد البباوى ناظر الدولة .

وظل « ابن البقرى » حتى عهد قايتباى ، فآلت الوزارة والأستادارية معاوغيرهما، إلى الأمير يشبك الدوادار سنة ٨٧٣ هـ فى شهر شعبان . فقبض على « ابن البقرى » ، واستخلص منه خمسة آلاف دينار .

ولما خرج الأمير يشبك الدوادار للقتال فى بلاد حلب ، وهو القتال الذى مات فيه، عين « مجد الدين البقرى » فى الأستادارية . ولكن ما لبث أن قبض عليه فى ذى الحجة سنة ٨٨٥ هـ ، ليؤدى حسابا عما كان بيده من الأعمال والأموال . وعزل من منصبه ، وعين مكانه تغرى بردى بن بلباى الظاهرى ، خازندار الأمير يشبك الدوادار . وقد حاسبه السلطان محاسبة عسيرة ، وآذاه وقسا عليه ، إذ كرهه لشماتته بالأمير . يشبك بمناسبة ما جرى له من المحن فى قتاله . وسجن « ابن البقرى » بالمقشرة ، فلبث نحو ست سنوات ؛ حتى أوذى أهله وأولاده : وكانت خاتمة مطافه، أن حكم عليه السلطان بالإعدام فى ربيع الأول سنة ٨٩٣ هـ ، فانتهت بذلك حياته . ودفن فى تربة ابن عمه يحيى .

« ابن إياس جـ ٢ ص ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠٧ ، ٢٠٢ ، ٢٤٩ » .

٢٣ — زين الدين قاسم المعروف بشغيته ٩٠٠ هـ

هو الصاحب زين الدين قاسم بن أحمد القرافى القاهرى ، ويعرف بشغيته .

ويقال إن هذا الصاحب كان خبازا ، ثم اشتغل صيرفا للحم . ومن هنا اتصل بالصاحب الشمس بن البباوى . واتصل بوظائف الدولة . فلما غرق ابن البباوى سنة ٨٧٠ هـ - وكان وزيرا - عين مكانه الصاحب « الزينى قاسم شغيته » . واشترك معه فى أعمالها شخص آخر يقال له عبد القادر الطويل ، وكان ناظر الدولة ثم انفرد بأعمالها « الزينى قاسم » . فقام بها خير قيام ، وأصبح فى عداد رؤساء البلاد .

وفى شعبان سنة ٨٧٢ هـ ، اختفى « الزينى قاسم » - ويبدو أن قايتباى - السلطان حينذاك - كان يضغط على مباشريه إذ ذاك ، ففر هذا الوزير من وجهه فندب للوزارة عبد القادر الطويل ناظر الدولة . وبعد قليل أسندت إلى الصاحب شمس الدين محمد

والد علاء الدين بن الأهناسى .

ظهر « زين الدين قاسم » بعد قليل ، ورضى عنه السلطان . ولكن أسند إليه نظر الدولة فى ربيع الأول سنة ٨٧٢ هـ . فعاون إذ ذاك الأمير يشبك الدوادار الذى كان ذا وظائف عدة .

ظل « الزينى قاسم » فى نظر الدولة حتى شعبان سنة ٨٧٥ هـ ، فعزل وفرض عليه غرم مالى . ثم عاد إلى تقلد هذا المنصب فى جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ ، مضافا إليه الحسبة فى ربيع الأول عام ٨٨٥ هـ . ثم أسندت إليه الوزارة .

ثم حدث ما دفعه على الاختفاء ، فلبث مختفيا حتى شوال سنة ٨٨٧ هـ . فظهر ، وأنعم عليه السلطان وعينه ناظر الدولة عوضا عن موفق الدين بن الحمصى الأسلى . ثم أضيفت إليه الوزارة مرة أخرى فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٩ هـ . وفى ذى القعدة سنة ٨٩١ هـ عزل من وظيفتيه ، وقبض عليه وسجن ، وحوسب حسابا عسيرا عن أمواله ووظائفه ، وما زال بين ولاية وعزل ومصادرة حتى مات فى سجنه فى جمادى الآخرة سنة ٩٠٠ هـ . وكان كفئا فى عمله ، سديدا فى رأيه .

« ابن إياس ج ٢ ص ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ — الضوء ج ٦ رقم ٦٠٩ »

٢٤ — خشقدم الأحمدى ٨٩٤ هـ

هو الأمير الصاحب خشقدم الأحمدى ، الطواشى الزمام أصله من مماليك جقمق . ثم عد من رجال عصر قايتباى . وقد أنعم عليه هذا السلطان برتبة رأس نوبة السقاة عوضا عن شاهين غزالى فى شوال سنة ٨٧٣ هـ . ولما استقال الأمير يشبك الدوادار من الوزارة فى جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ ، أسندت إلى الأمير « خشقدم » . وحاول الامتناع عن قبولها خوفا من أذاها ، وبكى ، فلم يأبه السلطان لبكائه ، فقبلها مرغما . ثم أضيفت إليه فى ربيع الأول عام ٨٨٢ هـ ، الخازندارية الكبرى : والزمامية ، عوضا عن جوهر النوروزى ، فعظم أمره واتسع جاهه .

وفى عام ٨٨٤ هـ اختير أميراً لركب المحمل ، فخرج من القاهرة فى حفل حاشد وقد حج معه السلطان هذا العام ، وساس أمور الحج خير سياسة ، فلهج الناس بالثناء عليه والدعاء له .

وفى رمضان عام ٨٨٧ هـ سافر إلى الوجه القبلى بسبب الحصاد ، فلما عاد ، كان السلطان قد تغير قلبه عليه ، فاعتقله ليؤدى حسابا عما لديه من الأموال . ثم صرف عن الوزارة ، وعين مكانه فيها الجمالى يوسف بن الزرازيرى كاشف البهنسا ، وذلك فى ربيع الآخر عام ٨٨٩ هـ .

وعادت إليه الوزارة والخازندارية بعد زمن ، ثم ما لبث أن غضب عليه السلطان قايتباى مرة أخرى عام ٨٩٤ هـ فى شهر المحرم ، وقبض عليه وهم بضربه .

ثم إنه رحل بعد حين إلى سواكن ، وهناك توفى سنة ٨٩٤ هـ وكان معروفا بالقسوة وحب الشر .

« ابن إياس جـ ٢ ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٥٢ ، ١٧٢ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ - الضوء جـ ٣ رقم ٦٨٢ » .

٢٥ — الجمالى يوسف البدرى ٩٢٥ هـ .

من وزراء عصر الأشرف الغورى . وكانت له عنده منزلة سنية . يشهد لذلك أنه فى سنة ٩١٨ هـ ، وقعت مشادة بينه وبين الزينى بركات بن موسى المحتسب ، على مسمع من السلطان المذكور ، وأساء إليه الزينى بحضرة السلطان . فغضب السلطان على الزينى وأساء إليه ، ثم سجنه أياما . وحاسبه حسابا عسيرا .

وأصله من مماليك الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، قدمه الأشرف قايتباى . ثم سلك طريقه إلى الرقى وعليا المناصب ، حتى صار محتسبا للقاهرة . عينه الغورى فى هذه الوظيفة فى ١٧ رمضان سنة ٩١٤ هـ ، عوضا عن الزينى بركات بن موسى . ثم عزل فى ذى القعدة من العام نفسه ، وعاد الزينى بركات إلى منصبه .

وفى يوم الاثنين ٥ صفر سنة ٩١٦ هـ ، أسند إليه الغورى منصب الوزارة ، خلفا لتغرى برمش ، لانفصاله عنها . فظل فى هـــذا المنصب زمنا طويلا . وزاول أعماله فيه بهمة ونشاط وكفاءة وسداد .

وفى جمادى الأولى سنة ٩١٧ هـ ، ثارت ضده طائفة المماليك الجلبان ، لتراخيه فى تقديم اللحم المخصص لهم . وهموا بقتله ، فاختبأ منهم ريثما هدأت فتنتهم .

غير أن السلطان الغورى غضب عليه بعد مدة ، فقبض عليه ، حتى يؤدى عن عمله حسابا . ثم أعاده إلى منصبه فى يوم الخميس ١٣ رجب سنة ٩٢١ هـ . بعد أن كتب صكا

على نفسه للسلطان بمبلغ خمسة وستين ألف دينار ، التزم بسدادها هو وناظر الدولة القاضى شرف الدين الصغير .

وثار المماليك ثورة عنيفة فى شوال سنة ٩٢١ هـ ؛ ولم يطيعوا سلطانهم ، بل آذوه بسبب أجورهم المتأخرة ، ورواتبهم من اللحم ، التى لم تفرق فى مواعيدها . وطلبوا إليه عزل جماعة من مباشريه ، ومن بينهم « الجمالى يوسف البدرى » وزيره . ثم سويت أمور هذه الفتنة ، بشروط منها : عزل « البدرى » .

حانت سنة ٩٢٢ هـ ، والوزارة شاغرة ، إذ لم يعين فيها أحد . و « البدرى » كان قد اختفى إبان الفتنة . فنودى عليه ، وطلب منه الظهور ، ووعد بالأمان . فظهر فى يوم الثلاثاء ٩ المحرم ، فأعيد إلى الوزارة ، ولكن فى ٤ شعبان من السنة المذكورة .

ثم آلت السلطنة إلى الأشرف طومان باى ، بعد مقتل الغورى ، فى مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ . فظل « البدرى » فى الوزارة ، ويبدو أنه أضيف إليه كشف البحيرة ، لأنه نزع منه بعد ، وضم إلى حاجب الحجاب الأمير طقطباى فى شوال سنة ٩٢٢ هـ .

ويبدو لنا أنه خلع من الوزارة بعد قليل ، إذ قال ابن إياس ما نصه :

« فى يوم الخميس ١٠ من ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ — خلع السلطان على الأمير يوسف البدرى ، الذى كان وزيرا ، وقرره ناظر الذخيرة الشريفة ووكيل بيت المال عوضا عن بركات ابن موسى » .

ولما زحف السلطان سليم على مصر ، وامتلكها وفد عليه الأمير « يوسف البدرى » ، فى أوائل سنة ٩٢٣ هـ ، فأمنه ، وعينه متحدثا على جهات الغربية .

وفى يوم الخميس ٥ ذى القعدة من العام المذكور ، أعاده ملك الأمراء خاير بك نائب العثمانيين فى مصر ، إلى الوزارة مرة أخرى ، وخلع عليه خلعا بهذه المناسبة . وظل متمتعا بثقة ملك الأمراء ، حتى صدر منه ما أحقده عليه فقبض عليه فى شعبان سنة ٩٢٤ هـ . وسجنه ، واعتقل زوجته وأولاده وغلمانه وحاشيته ، وفرض عليه غرما ماليا ضخما ذهب فى سداده جميع ما يمتلكه من مال وجوهر وأثاث .

ظل « البدرى » فى معتقله نحو شهرين ، ثم أمر بالرحيل إلى الآستانة منفيا ، فرحل فى شوال سنة ٩٢٤ هـ . هو وطائفة من المباشرين . نفاهم ملك الأمراء خاير بك . فكثر الحزن عليهم وعم الألم وعلا العويل بين أولادهم وأهليهم .

وبينما كانت السفن تمخر بهم عباب اليم إذ لقيهم طائفة من الفرنجة فاحتربوا مع حراسهم من جنـــود العثمانيين ، فغرقت سفينة « البدرى » خلال الاحتراب ، قرب جزيرة إقريطش « كريد » . وبلغت أخبارهم القاهرة فى صفر سنة ٩٢٥ هـ . وبهـــذه المأساة ختمت حياة أحد أبطال هذا العصر . وهو آخر وزرائه .

« ابن إياس ج ٤ ص ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٨١ ، ٢٣٥ ، ٤٣٥ ، ٤٦٧ ، ٣٨٣ ، و ج ٣ ص ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ٣٣ ، ٦١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٩ » .

تم بحمد الله

تم القسم الأول من الجزء الأول من كتاب :

« عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى »

ويليه القسم الثانى من الجزء الأول وأوله باب الخلافة العباسية الثانية

كشاف بأعلام المجلد الأول

(ا)

غ

ف

ن

فهرس القسم الأول من الجزء الأول

عصر سلاطين المماليك

ونتاجه العلمى والأدبى

تأليف الدكتور

محمود رزق سليم

رئيس قسم الأدب بكلية الدراسات العربية — جامعة الأزهر

المجلد الثانى

وهو القسم الثانى من الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٣٨٤ هـ – ١٩٦٥ م

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

دار الحمامى للطباعة
شارع الجيش - ٢ كنيسة الأرمن

مراجع القسم الثانى من الجزء الأول

أثبتنا فى صدر القسم الأول من هذا الجزء عددا من مراجعه، ذاكرين الكتاب والطبعة التى اعتمدنا عليها . وهذه المراجع هى نفسها مراجع القسم الثانى أيضا ، ونزيد عليها ما يلى :

١ ـ تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى . طبع بالمطبعة المنيرية عام ١٣٥١ هـ

٢ ـ المختصر لأبى الفداء طبع الآستانة عام ١٢٨٦ هـ

٣ ـ تحفة الأحباب للسخاوى على هامش نفح الطيب ، طبع المطبعة الأزهرية بالقاهرة عام ١٣٠٤ هـ

٤ ـ الفوائد البهية للكنوى الهندى طبع الهند سنة ١٩٢٣ م

٥ ـ الطالع السعيد للإدفوى طبع مطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ

٦ ـ رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

٧ ـ نهاية الأرب للنويرى طبع دار الكتب المصرية .

٨ ـ تاريخ ابن الوردى «تتمة المختصر» طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٥ هـ .

٩ ـ تقويم النيل لأمين باشا سامى طبع مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٦ هـ .

١٠ ـ النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى طبع دار الكتب المصرية .

١١ ـ عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، لشهاب الدين أحمد بن عربشاه . طبع المطبعة العثمانية بباب الشعرية بمصر عام ١٣٠٥ هـ .

١٢ ـ إغاثة الأمة بكشف الغمة لتقى الدين المقريزى . طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠ م .

١٣ ـ المدخل لابن الحاج . طبع المطبعة المصرية بالأزهر عام ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وبعد فهذه هى الطبعة الثانية للمجلد الثانى من كتاب عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، وهو القسم الثانى من جزئه الأول . ويتضمن هذا المجلد خلاصات فى ضروب من الأحوال الاجتماعية فى مصر تلقى أضواء على نواح من حياة المجتمع المصرى فى عصر المماليك .

وقد راجعنا هذه الطبعة وصححنا ما كان من خطأ ، وأكملنا ما كان من نقص ، وزودناها بما ينبغى أن تزود به من الجديد الضرورى ، والله نسأل أن ينفع بها القراء .

مقدمة الطبعة الأولى

حمداً لله على ماأولاه ، وشكراً له على ماأنعم به وأسداه ،وصلاة وسلاما على سيدنا محمد رسوله ومصطفاه ، وعلى آله وصحبه أولى النبل والفضل ، وذوى الأدب اللباب والعلم والجزل .

وبعد فقد أعان الله على إظهار القسم الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب الجامع «عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى».وقد لمس القارىء الكريم فيه ـ بلاريب ـ ما استنفد من جهد ، وما احتاج إليه من مشقة ، وما استغرق من زمن ، وما بذل فيه من عناية .

وها نحن أولاء نصدر قسمه الثانى،مستمدين من الله فى الإرادة قوة،وفى العزيمة مضاء ، وفى الهمة توثبا ، وفى النشاط جدة ، راجين منه سبحانه ، أن يلهم السداد فى كل خطوة،ويهب الصواب فى كل مرحلة،وأن يهيء السبيل لنجاز هذه الموسوعة وإظهارها للناس متتابعة فى عهد قريب .

وهذا القسم ـ الذى نقدمه ـ يتمم سابقه ، ويتألف منهما الجزء الأول ، الذى خصصناه للموجزات التاريخية وتراجم بعض الرجال المتصلين بموضوعاتها .

ويرى القارىء فى هذا القسم ـ على غرار سابقه ـ عدة من نواحى الحياة فى العصر المذكور . الحديث عنها قد يوضح غامضا ، ويجلى مبهما ، أو يركز حائراً ويسكن قلقا ، أو يكشف الغطاء عن مخبوء ، أو يلم الشعث من متفرق.وفى خلال هذا وذاك طرف من القول محمودة ، وملح من الحديث معجبة فريدة .

وقد بدأناه بفصل عن الخلافة العباسية الثانية ، وتراجم خلفائها . ثم أتبعناه

بفصل آخر عن القضاء وأحواله ، مع تراجم رجاله ، من أول العصر إلى آخره. ثم بفصول أخرى عن المحمل والحج والفيضان والرسل والقصاد «السفراء» ، والهدايا. وتحدثنا فى فصل طويل عن حسنات العصر ومساوئه ، وركزنا فى هذا الفصل جملا من الحديث عن بعض نواحى الحياة فى سياسة العصر وإدارة الدولة واتجاهاتها . فتحدثنا فى إجمال ووضوح معاً ، عن حروب المماليك مع التتار ومع الفرنجة، وعن استقلال البلاد فى عهدهم، وعن التعليم وسياسته، وعن الجيش والسجون والثورات الداخلية ، وغير ذلك . ويرى القارىء فى ثنايا هذا الفصل ألوانا من الرأى جديدة نافعة .

وأتبعنا الفصل المذكور بحديث عن التقاليد والعادات المرعية فى الحياة الرسمية وغير الرسمية ، وأثبتنا نصوصا مأثورة ، وحكايات مروية تنطق بلسانها، وتتكلم معبرة وشاهدة بنفسها ، عما كان فى العصر من مزاج واتجاه . تاركين للقارىء أحيانا أن يستنبط من بعضها ما يشاء ، ، ويصل بنفسه منها إلى ما يريد .

وحرصنا فى كل ما نورده على ذكر مرجعه وسنده ـ كدأبنا ـ معونة لمن شاء التثبت والتزيد . وقد يرى القارىء أننا أكثرنا من أبواب الجزء الأول، دون أن نستقصى جميع المسائل فى كل باب ، وقد نوهنا فى مقدمة الكتاب بالقسم الأول بأن الاستقصاء لم يكن غاية من غاياتنا، فتركناه لظروف أخرى أو لباحثين آخرين. وإنما أكثرنا فى الأبواب لنضع بذلك عدة لبنات متواضعة فى بناء بحوث جديدة، نرجو أن تصلح كل لبنة منها لإقامة صرح من البحث مفيد .

والله نسأل أن يهب التوفيق والسداد ، ويهدى إلى سبيل الرشاد ، لنؤدى لأمتنا المصرية الكريمة بعض ما يجب علينا إزاءها ؟

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة العباسية الثانية (١)

لما اكتسح التتار ملك العراق،وأسقطوا مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وعاثوا فى أرجائها فسادا، وضموا ملكها إلى ملكهم،وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسى آخر خلفائها ، وولى عهده ، فزالت بزوالها الخلافة العباسية الأولى،ومثلوا بعلمائها وأحرقوا كتبها، كان لذلك أثر بالغ، وصدى بعيد المدى،فى مدينة القاهرة والبلاد المصرية ،التى كانت قد أصبحت تحيا تحت سيطرة سلاطين مماليكها . وهم مسلمون هالهم ما لقى الدين والعلم وأهلهما ، على يد التتار ببغداد . وخشوا أن يصيبهم مثل ما أصاب القوم فيها. فتهيئوا للقائهم خير تهيء ،وأعدوا العدة لقتالهم أحسن إعداد. ثم وقعت بين الفريقين وقائع عدة، كان النصر فيها سجالا. وانتصر سلاطين مصر فى بعضها انتصاراً حاسماً .

آلت تركة بغداد بذلك إلى القاهرة ، وحملت مصر من الأعباء ما كان يحمله العراق.وصارت عاصمتها ومدنها الكبرى موئلا لعلوم الدين واللغة،وملجأ لذويها، يفدون إليها من شتى الممالك والأمصار ، أو ينشئون فى أفيائها ، فيجدون فى كنف ملوكها وأهلها ، مراحا خصبا وظلا ظليلا . وأصبحت القاهرة من ذلك الحين مركزا للعلوم الإسلامية والعربية .

وكما آلت هذه العلوم والمعارف إلى مصر ، وآلت إليها أعباء حماية المسلمين

---

(١) مرجع هذا الباب : تاريخ الخلفاء، وحسن المحاضرة جـ ٢ ، كلاهما للجلال السيوطى ، وبدائع ابن اياس ، وسلوك المقريزى فى حوادث الأعوام ٦٥٣ هـ ، ٦٦٠هـ ونهج ابن أبى الفضائل. ومختصر أبى الفداء ، وصبح الأعشى جـ ٢ ، وتاريخ ابن خلدون ٣ ص ٥٤٠ تحت عنوان « فصل عن الخلفاء العباسيين بمصر » .

وبلادهم من أعدائهم ، آلت إليها كذلك الخلافة الزائلة من بغداد، فجددت نفسها ولبست بها ثوبا من الحياة قشيبا . ووجد سلاطين المماليك فى تجديدها هذا شرعية لمكانهم من الملك ، ومكملا لمظهرهم الإسلامى ، وسبيلا إلى جمع قلوب الخاصة والعامة من المسلمين فى سائر الأقطار حولهم . فيدعمون بذلك عرشهم ، ويثبتون سلطانهم . لذلك عاونوا معاونة كبرى على إنشائها واستمرارها .

فمنذ عصر الملك الظاهر بيبرس ـ فى سنة ٦٥٩ هـ ـ أنشىء منصب خلافة إسلامية فى مصر ، مركزه القاهرة . وأصبح أحد مناصب الدولة الرئيسية . وظل كذلك حتى آخر العصر الذى نحن بصدده ـ سنة ٩٢٣ هـ ـ أى نحو ثلاثة قرون :

وتوالى على هذا المنصب، ستة عشر، أو سبعة عشر خليفة من سلالة العباسيين. أولهم الإمام المستنصر بالله أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسى الهاشمى . وآخرهم الإمام المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن الخليفة المستمسك بالله يعقوب . وبعض المؤرخين يسقط المستنصر بالله ـ أول الخلفاء ـ من عدادهم . ويعتبر أولهم هو الذى وليه ، وهو الحاكم بأمر الله .

وتسمى كل منهم بأمير المؤمنين . وتوالوا على هذا المنصب بطريق الوراثة . وأعنى توريث الولد عن أبيه أو قريبه من العصب . ولم تخرج الخلافة عن أسرة الحاكم بأمر الله، ثانى هؤلاء الخلفاء . غير أن هذا كان منوطا إلى حد كبير بإرادة السلطان . فقد يعهد الخليفة إلى ابنه ، ثم لا يقر السلطان هذا العهد ، ويختار رجلا غيره من الأسرة نفسها ، ينصبه خليفة ، كما وقع فى عهد الناصر بن قلاوون ـ كما سيأتى ـ

وبلغت الفترة التى خلت فيها الدنيا من الخلافة الإسلامية نحو ثلاث سنوات ونصف من زوال خلافة بغداد فى صفر عام ٦٥٦ هـ إلى انشاء الخلافة الثانية بمصر فى رجب عام ٦٥٩ هـ .

وصاحب الفكرة فى إنشائها ، هو ـ بلا ريب ـ الظاهر بيبرس . فلما نفذت فكرته ، واستقرت دعائمها ، أصبحت حالة مرعية وسنة متبعة .

وخلاصة ما رواه المقريزى فى سلوكه ـ فى حوادث عام ٦٥٩ هـ ـ بصدد إنشائها ما يلى ، قال :

وفيها[١] ـ أى سنة ٦٥٩ هـ ـ سار الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى . . . مع جماعة من العرب بنى مهنا، يريد دمشق . وكان قد فر من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله ، ونزل عند عرب العراق فى هذه المدة . ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بيبرس بمصر . فوردت مكاتبة الأمير علاء الدين إيدكن البندقدار ، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب دمشق : بأنه ورد إلى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر . وهو عم المستعصم وأخو المستنصر . ومعه جماعة من عرب خفاجة فى قريب الخمسين فارسا[٢] . وأن الأمير سيف الدين قلج البغدادى عرف أمراء العرب المذكورين. وقال بهؤلاء يحصل المقصود» .

«فكتب السلطان إلى النواب بالقيام فى خدمته ، وتعظيم حرمته . وأن يسير معه حجاب من دمشق ، فسار من دمشق بأوفر حرمة إلى جهة مصر . فخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع[٣] شهر رجب إلى لقائه[٤] ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وسائر الأمراء وجميع العسكر ، وجمهور أعيان القاهرة ومصر ، ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين . وخرجت اليهود بالتوراة ، والنصارى بالإنجيل . فسار السلطان به إلى باب النصر ودخل إلى القاهرة ، وقد لبس الشعار العباسى . وخرج الناس إلى رؤيته . وكان من أعظم أيام القاهرة . وشق القصبة إلى باب زويلة ، وصعد قلعة الجبل وهو راكب . فأنزل فى مكان جليل قد هيىء له بها ، وبالغ السلطان فى إكرامه وإقامة ناموسه» .

---

(١) كان ذلك فى شهر رجب من عام ٦٥٩ هـ . (٢) قيل عشر من بنى مهارش .

(٣) فى ابن إياس : يوم الاثنين ١٩ رجب وفى حسن المحاضرة ٢ منه (٤) قيل : خرج السلطان إلى لقائه بالمطرية ، وعادا معا إلى القاهرة .

« فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره ، ـ أى ١٣ رجب ـ حضر قاضى القضاة ونواب الحكم وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية ، والأمراء ومقدمو العساكر ، والتجار ووجوه الناس ، وحضر أيضا الشيخ عز الدين بن عبد السلام . فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد ، وجلس السلطان متأدبا معه بغير كرسى ولا طراحة ، ولا مسند ، وشهد العربان وخادم من البغاددة ، بأن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين ابن الإمام الناصر أمير المؤمنين. وشهد بالاستفاضة القاضى جمال الدين يحيى بن عبد المنعم بن حسن المعروف بالجمال يحيى ، نائب الحكم بمصر . والفقيه علم الدين محمد بن الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق . والقاضى صدر الدين موهوب الجزرى ، ونجيب الدين الحرانى ، وسديد الدين عثمان بن عبدالكريم بن أحمد بن خليفة. وأبو عمرو بن أبى محمد الصنهاجى التزمنتى : أنه أحمد ابن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر ـ فقبل قاضى القضاة تاج الدين شهادات القوم ، وأسجل على نفسه بالثبوت ، وهو قائم على قدميه فى ذلك المحفل العظيم ، حتى تم الإسجال والحكم » .

« فلما تم ذلك كان أول من بايعه القاضى تاج الدين ، ثم بعده قام السلطان وبايع أمير المؤمنين المستنصر أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها فى مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ثم الأمراء وكبار الدولة[1] » .

« فلما تمت البيعة قلد الإمام المستنصر بالله ، السلطان الملك الظاهر البلاد

---

(١) وهكذا قال السيوطى فى تاريخ الخلفاء ولكنه قال فى حسن المحاضرة ، كان أول من بايعه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ثم السلطان الظاهر بيبرس ثم القاضى تاج الدين بن بنت الأعز ثم الأمراء . . . أخ وروى السبكى فى طبقاته فى سياق ترجمة الشيخ عز الدين أن الملك الظاهر لم يبايع واحدا من الخليفة المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدم الشيخ عز الدين للمبايعة .

الإسلامية ومايضاف إليها ، وماسيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . ثم قام الناس فبايعوا الخليفة المستنصر بالله على اختلاف طبقاتهم . وكتب فى الوقت إلى الملوك والنواب بسائر الممالك ، أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة المستنصر بالله أبى القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، وأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما » انتهى .

ومما يذكر أن الخليفة المستنصر بالله ، خطب خطبة منبرية فى جامع القلعة ، فى يوم الجمعة التالى ليوم بيعته — ١٧ رجب — وذكر فى خطبته شرف بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر ، وحض على الجهاد .

هذا وقد ذكر السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » أن السلطان رتب للخليفة أتابكا وأستادارا وشرابيا ، وخازندارا ، وحاجبا ، وعين له خزانة ، وجملة مماليك ، ومائة فرس وثلاثين بغلا ، وعشرة قطارات جمال إلى أمثال ذلك .

تمت إذاً بيعة الخليفة ، وأصبح مصدرا للولايات الشرعية ، وكان لابد للملك الظاهر من أن يبايعه الخليفة ويقلده عرشه ، حتى تصبح ولايته شرعية . وقد رأينا فى حفلة مبايعة الخليفة ، كيف بايع بدوره الملك الظاهر وولاة الأمور فى بلاد المسلمين مبايعة سريعة عقب الانتهاء من مبايعته هو . — وفى يوم ٤ شعبان من السنة نفسها أقيمت حفلة مبايعة رائعة ، قلد فيها الخليفة الملك الظاهر عرش البلاد وألبسه بيده خلعة سوداء ، وعمامة سوداء ، وطوقا من الذهب فى عنقه وقيدا من الذهب فى رجليه ، وفوض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية ، وما سيفتتحه من بلاد الكفر وسماه « قسيم أمير المؤمنين » .

ولا ندرى بالضبط ما هى الدوافع التى دفعت الملك الظاهر بيبرس إلى أن يعجل بتجهيز هذا الخليفة بمال ورجال ويشخصه لقتال التتار واسترداد بغداد وبلاد العراق منهم . وأشخصه وحده ولم يرحل معه . . ربما كان ذلك نتيجة لإلحاح هذا الخليفة على السلطان بتعجيل الغزو ، ليسترد بلاده وبلاد أجداده ، أولكى يظهر السلطان للملأ صدق نيته وصفاء طويته لنصرة الإسلام والمسلمين ،

أو ليكون هذا الخليفة وجيشه بمثابة الطليعة لجيوش السلطان ، فإن أصابوا غنما تبعوهم ، وإلا تريثوا . وقد يكون السلطان أحس بروح من الحماسة الإسلامية تسرى فى نفوس المسلمين جميعا بمناسبة تنصيب هذا الخليفة ، فخشى أن يلتفوا حوله ويجتمعوا إليه دونه ، فتفلت من يديه أزمة الأمور ، وهو إنما نصبه ليكون صنما يعمل باسمه وليس له من الأمر شىء ، فدفعه دفعا إلى قتال التتار ، منتهزا رغبته فى هذا القتال ، وهو يعلم أنه إنما يدفع به إلى أتون محرق .

ومهما يكن من شىء ، فقد سار هذا الخليفة إلى قتال التتار وخرج فى ذى القعدة عام ٦٥٩ هـ ، مجهزا بكل ما يحتاج إليه ، وسار معه الظاهر بيبرس إلى دمشق (١) ثم عاد إلى القاهرة . ولقى التتار بقيادة مقدمهم قرابغا ، جيش الخليفة ، على مقربة من « هيت » فدحروه ، وفر منه من فر ، ولم يعثر للخليفة على أثر ؛ قيل إنه قتل فى المعركة فى ٣ المحرم عام ٦٦٠ هـ ، وقيل إنه فر مجروحا فى طائفة من العرب ، فمات لديهم .

كان فقد هذا الخليفة ، مجدداً لمشكلة الخلافة مرة أخرى ، وقد انتهز الفرصة رجل آخر اسمه أحمد ، قال إنه من أمراء العباسيين ، وإنه كان فى عداد جنود المستنصر بالله ، وأنه استطاع أن يفر بنفسه من القتل . وقدم إلى مصر فلقيه الظاهر بيبرس . وأعيد تمثيل الرواية السابقة ، فأقيمت حفلة لمبايعته بالخلافة بعد ثبوت نسبه ثم بايع السلطان بالسلطنة وتلقب بالحاكم بأمر الله . ويعتبره بعض المؤرخين أول الخلفاء بمصر ويغضون النظر عن سابقه المستنصر . ومن سلالته جميع من ولى الخلافة بمصر من بعده .

كان وفود الحاكم بأمر الله إلى مصر فى ٢٧ ربيع الآخر عام ٦٦٠ هـ ، ولبث بها مكرما حتى ٨ المحرم عام ٦٦١ هـ ، وفى هذا اليوم تمت مبايعته ، ثم كتبت بيعته إلى الآفاق ليخطب له ، وتكتب السكة باسمه .

---

(١) هذه رواية المقريزى والسيوطى ، وذكر ابن اياس أنه سار معه إلى المطرية ثم عاد (ج ٢ ص ١٠٢) .

ويلاحظ أن الظاهر بيبرس تريث هذه المرة فى مبايعة هذا الخليفة الثانى . ولم يعجل إليها كما عجل فى الأولى . فقد بقى الحاكم بأمر الله نحو ستة شهور مقيما بغير مبايعة بعد قدومه إلى مصر ، ولعل مرجع هذا التريث رغبته فى التثبت من مقتل المستنصر ، أو رغبته فى اتخاذ الأهبة لكبح جماح الخليفة — فيما بعد — إذا أحاط به ما يدفعه إلى الجموح ، والتطلع إلى الاستئثار بشىء من الأمر . ولذلك قال السيوطى فى حسن المحاضرة ، بعدما تمت مبايعة الحاكم بأمر الله ، ما نصه :

« ثم خاف الظاهر عاقبة أمره فأسكنه عنده فى القلعة وعنده حريمه وخدمه وغلمانه موسعا عليه فى النفقات والكساوى ، يتردد إليه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الإكرام ، وملاحظة جانب الإجلال والمهابة ، ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة ، ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر » .

واستمرت الخلافة من ذلك الحين قائمة ، حتى زالت بزوال الدولة .

والخلافة العباسية المصرية قريبة الشبه بالخلافة العباسية البغدادية فى طورها الثانى — أى منذ عام ٣٣٤ هـ — تقريبا ، ومنذ احتل البويهيون بغداد وأصبحوا فيها أهل الأمر والنهى ، وأصبح خلفاؤها لاحول لهم ولاقوة . يقدم إليهم الطعام والشراب ، ولهم مرتب من المال يكفيهم حسب مقتضيات الأحوال .

كذلك فعل سلاطين مصر مع خلفائها ، وهم فى الواقع ذوو نعمتهم . وكان الخلفاء لا يملكون إزاء السلاطين حولا ولا طولا ، وتلك هى السياسة التى وضع قواعدها ، ودعمها ، الظاهر بيبرس كامر . فعاشوا كالأسرى قد هيئت لهم الدور ، ورتبت الأجور ، وقدمت الأطعمة والأشربة والكسى ، وما إلى ذلك من مطالب الحياة ليضمنوا عيشا رغدا هادئا صامتا ، وليسبغوا على من حولهم ألوان الرضا ، ويبذلوه كلما طلب إليهم بذله . وهل كانوا يملكون سواه .. ؟ وإذا ماخطر لأحدهم ما يغضب السلطان ، عرض نفسه للسجن أو النفى أو نحوهما .

كان من العجيب أن يفيض خليفة من هؤلاء ، أسباب الولاية على غيره ،

والسنة التى كانت متبعة ، ومع أنه قيل : إن فاقد الشىء لا يعطيه ، كان الخليفة الذى لا يملك ملكا ولا يعتلى عرشا ، يمنح الملك ، ويعلى العرش ! وهو الضعيف المغمور ، والدعى المنكور ، الذى لا يملك من أمر نفسه شيئا ، ولكنه كان يؤمر فيصدع بالأمر . فهو ذو سلطة شكلية اسمية فحسب ، أما صاحب السلطة الفعلية الحقيقية فهو السلطان .

وأعتقد أن هذا الوضع ـ وإن سلم من الناحية الشكلية ـ لا تبدو فيه روح الإسلام ولا سياسته ، وما هو إلا ضرب من خداع السلاطين ، ونفاق الخاصة وتمويه أولى الأمر ليبهروا أنظار العامة .

وقد اتبع فى اعتلاء منصب الخلافة طريق الوراثة ـ كما ذكرنا ـ ولكن أمره كان منوطا برغبة السلطان ، فهو الذى يبت فى الرجل الذى يبايع بالخلافة . ولو عهد الخليفة إلى ولده مثلا .

وقد حدث فى عهد الناصر محمد بن قلاوون من ـ عام ٧٤١ هـ ـ أن الخليفة المستكفى بالله أبا الربيع سليمان ـ أمير المؤمنين إذ ذاك ـ عهد بالخلافة من بعده ، إلى ولده أحمد وسجل عهده ، وشهد عليه أربعون شاهدا . ولكن الناصر لم يمض هذا العهد ، ولم يرضه ولم يجزه . فلما مات الخليفة المذكور دعا السلطان ابن أخيه المسمى ابراهيم ، وعهد إليه بالخلافة على الرغم من معارضة بعض الناس فى ذلك ، فلم يكترث السلطان ، وأنفذ عزمه وصار إبراهيم هـذا هو الخليفة . ولقب بالواثق بالله .

ولما مات الناصر وخلفه ابنه المنصور أبو بكر ، عقد مجلسا للنظر فى أمر الخلافة ، كانت نتيجته عزل الواثق بالله إبراهيم وتوليه أحمد بن المستكفى بالله ، وتلقيبه بالحاكم بأمر الله .

ومما وقع أيضا أن الخليفة المتوكل على الله أبا عبد الله محمدا ، خلع بناء على رغبة الأمير إينبك البدرى مدير الدولة فى عهد السلطان المنصور على بن الأشرف عام ٧٧٩ هـ ، وولى مكانه ابن عمه زكريا بن إبراهيم من غير عهد ولا مبايعة ،

ولقب بالمستعصم بالله . فلبث فى خلافته نحو خمسة عشر يوما ، ثم خلع وأعيد المتوكل على الله .

وكذلك خلع المتوكل على الله مرة ثانية ، فى عهد الظاهر برقوق — عام ٧٨٥ هـ — وسجن وأجبر الناس على خلافة عمر أخى زكريا بن ابراهيم ، ولقب بالواثق بالله .

وهكذا ترى أن منصب الخلافة كان أدنى شبها بأى منصب آخر من مناصب الأمراء وأمثالهم ، ورهنا بإرادة السلطان .

وكان أهم عمل يتولاه الخليفة ، مبايعة السلطان الجديد بالسلطنة ، وتفويض أمور المسلمين إليه . وكان بعض ملوك المسلمين فى الأقطار النائية يرسلون إلى مصر يستمنحون خليفتها أمرا بولايتهم لتكون شرعية . وقد روى ابن إياس من ذلك « ج ٢ ص ١٣١ » مانصه .

« وفى جمادى الآخرة ـ أى عام ٨٧٦ هـ فى عهد قايتباى ـ قدم قاصد من عند صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين . وأحضر على يده هدية إلى السلطان ، وإلى الخليفة المستنجد بالله يوسف . وأرسل يطلب منه تقليدا بولايته على إقليم الهند ، عوضا عمن كان قبله من ملوك الهند ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، وكتب له الخليفة تقليدا بما سأل » .

وحقا لم تكن سلطنة السلطان تتم إلا بمبايعة الخليفة له . ولكن الخليفة كان لايستطيع أن يمتنع عن هذه المبايعة ، متى تمت مشورة الأمراء ، ووقع اختيارهم على شخص الملك الجديد . وفى عام ٩٠٦ هـ أعلن طومان باى بنفسه سلطانا فى بلاد الشام ، وتلقب بالعادل ، وتم ذلك بغير حاجة إلى موافقة خليفة أو بيعة . غير أنه لما زحف على مصر وامتلكها ، أجريت له مراسيم التولية كالمعتاد ، وتمت مبايعة الخليفة له .

كان للخليفة بجوار هذا أعمال إضافية تافهة بالقياس إلى ما ينبغى لمنصبه من جلال . وذلك كنظر مشهد نفيسة أحيانا ، وكالركوب مع السلطان أحيانا

أخرى فى طليعة تجريدة . وذلك من باب الدعاية فحسب لا اشتراكا فى القتال ، كما كان يصاحبه يوم حفل ، أو يستقبله يوم أوبة من قتال أو حج ، أو رحلة أو نحو ذلك . ويستدعى أحيانا لشهود مجلس منعقد للنظر فى تقرير حرب أو فرض ضريبة ويستدعى لمجرد الشهود فحسب لا لإبداء الرأى . وقد يطلب إليه تحليف الأمراء على المصحف الشريف ، على ألا يخونوا السلطان ، وقد يستخدم استخداما أدبيا لإطفاء ثورة أو تهدئة فتنة . وهكذا .

ولا ندرى ! هل كان له من الأمر شىء فى سماع القصص والمظالم . ! نقول ذلك لمناسبة ما قرأناه فى سيرة الخليفة المستكفى بالله – الأول – على عهد الناصر بن قلاوون ، إذ قيل : إن السلطان المذكور غضب على الخليفة المستكفى لأنه رفعت إليه قصة وعليها خط الخليفة : « ليحضر محمد بن قلاوون إلى مجلس الشرع أو يوكل » . فشق عليه ذلك ، ونفاه إلى قوص » (١) .

وكان الخليفة بين هذا وذاك ، يقدم إلى السلطان التهانىء مع القضاة ، بمناسبة عيد أو موسم . وقد تأبى الناصر محمد بن قايتباى – عام ٩٠٢ هـ – على الخليفة المتوكل على الله ، حينما قدم إليه يهنئه ، فلم يقابله ، وبعث إليه من شكره وصرفه .

ولم أجد فى سيرة أحد الخلفاء ، من كان له سطوة أو نفوذ . بل لم يصل واحد منهم إلى مثل ما كان للشيخ أبى السعود الجارحى ـ مثلا ـ من نفوذ فإن الشيخ المذكور كان ذا مكانة عالية ، ورأى مسموع . وقد لجأ إليه الأمراء حينما اجتمعوا على ترشيح طومان باى للسلطنة عام ٩٢٢ هـ ، وأباها طومان باى ، فتدخل الشيخ بينهم فرضيها . وهذا الشيخ من الصوفية .

وقد عبث الزمان مرة فى عام ٨١٥ هـ ! بعد مقتل فرج بن برقوق ، إذ انحصر أمر السلطنة بين أميرين كبيرين هما شيخ المحمودى ، ونوروز الحافظى ، فرأيا حسما

---

(١) ابن إياس ج ١ ص ١٧٠ حوادث عام ٧٣٨ هـ .

للنزاع بينهما أن يوليا السلطنة خليفة عصره المستعين بالله أبا الفضل ، على أن يكون الأمير شيخ أتابكيا له ، والأمير نوروز نائبا عنه فى الشام . فأصبح المستعين بالله العباسى خليفة وسلطانا معا ، فجمع بذلك بين السلطتين الدينية والزمنية . هبطت عليه إذاً سعادة مفاجئة ، لم تهبط على غيره من الخلفاء . ولكنه كان يعرف أن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن هذا الوضع شاذ لا يلتئم مع سياق عصره ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون ريبة من ريب الزمان ، وأنها سحابة ستتكشف عن حوادث قد تطيح به وبخلافته وسلطنته ، وأن هؤلاء الأمراء من الأتراك أو الجراكسة لن يتركوا هذا العرش لدخيل مثله ! فامتنع عن قبول السلطنة امتناعا شديدا ، خوفا من عواقبها . فقال له الأمير نوروز « لاتخف أنا ظهرك لا يصيبك إلا ما يصيب رقبتى » ، فرضى بعد لأى مشترطا لذلك شروطا عدة ، هى فى دخيلتها مثار السخرية الشديدة ، والإشفاق الشديد . منها أن يحتفظ له بمنصب الخلافة ، حتى إذا ما خلع من السلطنة ، استمر فى خلافته على حاله الأول . . ! فأجابوه إلى ذلك . غير أنه لم يلبث فى السلطنة إلا نحو ستة أشهر لم يكن له خلالها من الأمر شىء ـ مع أنه السلطان ـ ثم وثب عليه أتابكيه الأمير شيخ وخلعه من السلطنة ، واستقر فيها مكانه بدعوى أن المملكة فى حاجة إلى سلطان تركى ، له سطوة يقمع بها أهل الفساد ، وتصلح الأحوال على يده (١) ! وقد بايعه الخليفة المستعين بالله بالسلطنة . . وقنع هو بخلافته . ومع ذلك فسرعان ما خلع من خلافته وولى مكانه أخوه المعتضد بالله .

وقد وقعت حادثة مماثلة تقريبا قبل الحادثة التى رويناها ، غير أنها لم تصل إلى حدودها ، وذلك سنة ٧٥٨ هـ بعد مقتل الأشرف شعبان حفيد قلاوون . إذ طلب عدد من الأمراء إلى خليفة ذلك الزمان ، وهو المتوكل على الله محمد ، أن يتبوأ العرش مكان المقتول ، فامتنع وصمم على الامتناع ، قانعا بمنصبه المتواضع .

---

(١) راجع ابن إياس ج ١ ص ٣٥٨ تحت عنوان ذكر سلطنة الخليفة المستعين بالله .

ومن طريف ما يذكر أن الخليفة المتوكل على الله أبا العز بن يعقوب ، أسند فى عام ٩٠٢ هـ ، إلى صديقه «جلال الدين السيوطى» وظيفة قاض كبير على جميع القضاة يولى منهم من يشاء ويعزل من يشاء ، فلما علم هذا الخبر احتج عليه القضاة واستخفوا عقله ، وأنكروا هـذه الوظيفة ، وأنكروا هم وذوو السلطان أن يكون للخليفة حق تولية شخص ما . وأعلموه أنه لا يملك هـــذا التعيين ..! فسرعان ما اعتذر واسترد الوظيفة من السيوطى ، واحتج بأن السيوطى هو الذى زين ما فعل وأوهمه أن له حق التعيين [١] . وقال عن نفسه «إيش كنت أنا» ! وقيل إن هـذه الوظيفة لم يلها إلا القاضى تاج الدين بن بنت الأعز فى عهد الأيوبيين .

ولعل هـذا الخطأ من الخليفة دليل على الجهل . وقد كان كثير من هؤلاء الخلفاء جهلاء ، أو على الأقل ذوى بضاعة من العلم هزيلة ، بل لقد رشح رجل من هؤلاء العباسيين نفسه للخلافة - واسمه خليل — وكا ابن عم الخليفة القائم حينذاك وهو المستمسك بالله يعقوب ، وذلك عام ٩١٤ هـ فى عهد الغورى [٢] وجهد فى سبيل بلوغها ، حتى بذل كثيرا من المال ، فعيره منافسه ـ وهو ابن المستمسك بالله ـ بأنه لا يحسن قراءة الفاتحة وأنه لا تصح خلفه الصلاة . ! وكان خليل هذا ألثغ لا يحسن النطق بالراء . فاختبره الغورى فتعثر فى قراءة الفاتحة . ! فأبعد عن الخلافة بعد رسوبه فى الاختبار . ولو قد اجتازه لأصبح للخلافة أهلا ...!

ومما يذكر بصدد هؤلاء الخلفاء أن أكثرهم من أم فارسية أو تركية أو حبشية وقليل منهم الهاشمى الأبوين مثل المستمسك بالله يعقوب أبى الصبر ابن عبد العزيز .

ومما يذكر أيضا أنه إذا اختير خليفة ، كتبت له تولية ، يدبجها كاتب سر السلطان وتتلى فى حفل المبايعة ، وتكون عبارة عن خطبة أدبية رائعة بأسلوب

---

(١) ابن اياس ج ٢ ص ٣٠٧ فى سياق حوادث عام ٩٠٢ هـ .

(٢) راجع ابن إياس ج ٤ حوادث السبت ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ .

أهل العصر (١) .

ومهما يكن من شيء ، فقد لبثت الخلافة فى مصر قائمة ، إلى أن احتلها العثمانيون عام ٩٢٢هـ ، ٩٢٣هـ ، فحمل السلطان سليم — فيما حمل — أثناء خروجه من مصر إلى بلاده ، آخر خلفاء العباسيين بمصر ، وهو المتوكل على الله الثالث . ـ وهناك فى القسطنطينية تسمى سلاطين العثمانيين بأمراء المؤمنين وخلفاء رب العالمين ، إن طوعا أو كرها . وبذلك انتقلت الخلافة الإسلامية من الجنس العربى والسلالة الهاشمية إلى الجنس التركى وسلالة آل عثمان ، فلبثت فيهم زهاء أربعة قرون ومركزها القسطنطينية عوضا عن القاهرة . حتى قضى عليها الكماليون القضاء المبرم فى سنة ١٩٢٣ م ، ومنذ تلك السنة والعالم الإسلامى يعيش بغير خلافة .

ونلاحظ أن مصر شهدت خلافة أخرى ، غير الخلافة العباسية الثانية ، وأعنى بها الخلافة الفاطمية ، وهى بالرغم مما بها من مآخذ ، أنبه شأنا وأسمى حياة وأشرف موضعا . وإن لم يعترف بها بعض المؤرخين .

ونورد فيما يلى تراجم يسيرة لخلفاء هذه الفترة .

---

(١) انظر الجزء الثالث من كتابنا هذا .

الخلفاء العباسيون في مصر

١ — المستنصر بالله ٦٦٠ هـ

هو أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر بأمرالله بن الخليفة الناصر لدين الله ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى الهاشمى[١] . كان أسمر اللون وأمه حبشية ، وهو أول من بويع بالخلافة فى مصر ، كان معتقلا ببغداد منذ سقوطها على يد التتار ، ثم أطلق أو فر ، فقدم إلى مصر مع جماعة من الأعراب ، منهم الأمير ناصر الدين مهنا ، لعله يجد فيها كنفا رحبا بجوار ملكها الظاهر بيبرس فبلغ القاهرة فى ٢[٢] رجب عام ٦٥٩ هـ ، فخرج الظاهر للقائه واحتفل بقدومه احتفالا شائقا ، ولقيه الناس بالقاهرة على اختلاف نحلهم وأديانهم ومراتبهم لقاء باهرا .

ثم عقد الظاهر مجلسا لمبايعته بالخلافة فى ١٣ رجب ـ تصدره الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وتقدمه قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، وشهده السلطان والأمراء وكبار رجال الدولة وتقدم الشهود فأثبتوا نسبه . فبايعه الشيخ عز الدين ثم القاضى تاج الدين ، ثم بايعه السلطان فالأمراء فالحضور[٣] . وكتبت الرسائل باسم السلطان إلى الآفاق لأخذ البيعة له من أهلها ، ولقب بالمستنصر بالله ، ودعى له على المنابر ، وضربت السكة باسمه مشاركا السلطان .

وقد قام الخليفة بدوره ، بمبايعة السلطان بيبرس ـ فى ٤ شعبان ـ وقلده السلطنة وفوض إليه أمور البلاد الإسلامية وما يفتتحه ، ولقبه « بقسيم أمير المؤمنين » وألبسه جبة وعمامة سوداوين ، وطوقا وقيدا من الذهب وقلده سيفا .

ورتب السلطان للخليفة أتابكا وأستادارا وشرابيا وخازندارا وحاجبا وكاتبا ،

---

(١) راجع ما كتب عنه فى الفصل السابق وقال فى السلوك إنه أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى .

(٢) قال ابن إياس إن قدومه كان فى الاثنين ١٩ رجب عام ٦٥٩ هـ .

(٣) وقيل بايعه أولا القاضى تاج الدين فالسلطان فالشيخ عز الدين فالأمراء الخ .

وعين له خزانة وجملة مماليك . ومائة فرس وثلاثين بغلا وعشرة قطارات جمال ، إلى أمثال ذلك .

سكن الخليفة المستنصر بالله بقلعة الجبل وفى يوم جمعة خطب بالناس وصلى بحضور السلطان ، ثم جهزه السلطان بعد زمن قليل بجند وسلاح ومال ، وسار إلى قتال التتار . ورحل معه السلطان إلى دمشق ، فدخلاها يوم الاثنين ٧ ذى العقدة عام ٦٥٩ هـ . ـ وقيل إلى المطرية ـ ثم عاد السلطان . فزحف الخليفة بمن معه ، فلقيهم التتار بقيادة مقدمهم « قرابغا » فى ناحية الأنبار ، فهزموهم هزيمة منكرة . وفر منهم من فر ، وقتل من قتل ، ولم يعلم للخليفة خبر . قيل إنه قتل بالمعركة فى جهة «هيت» فى ٣ المحرم عام ٦٦٠ هـ ، وقيل إنه فر مجروحا فى طائفة من العربان ، ثم توفى لديهم . وهكذا ذهبت خلافته بعد أقل من ستة أشهر ـ وبعض المؤرخين لا يعتبرونه أول الخلفاء ويسقطونه من عدادهم .

« ابن إياس ج ١ ص ١٠٠ إلى ١٠٢ ـ وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٩ ، إلى ٥٢ . ـ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٤ ـ سلوك المقريزى ج ١ حوادث عام ٦٥٩ هـ ٦٦٠ هـ ـ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣١٦ » .

٢ ـ الحاكم بأمر الله « الأول » ٧٠١ هـ

هو الإمام أحمد الحاكم بأمر الله أبو العباس بن الأمير أبى على الحسن القبى ابن الأمير على بن الأمير أبى بكر بن أمير المؤمنين المسترشد بالله العباسى . يقال إنه أقيم خليفة من قبل فى مدينة حلب ، ولقب بالحاكم أيضا . ثم يقال إنه كان ممن انضم إلى جند الخليفة المستنصر بالله أثناء قتاله مع التتار . منطويا تحت لوائه هو وأهل حلب . فلما انهزم الخليفة وفقد ، فر الأمير أحمد المذكور وسار إلى الرحبة ونزل إلى عيسى بن مهنا أحد الأمراء بها . فكاتب هذا فيه الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر ، فبعث إليه يستقدمه فقدم إلى القاهرة ومعه ابنه سليمان(١) وعدد

(١) فى صبح الأعشى أن الحاكم بأمر الله وفد على مصر وهو ابن خمسة عشر سنة وهذا غريب فقد كان يحارب مع المستنصر قبل قدومه إلى مصر وقدم ومعه ابنه . وذكر أيضا أنه قدم عام ٦٥٩ هـ وأن مبايعته كانت سنة ٦٦٦ هـ .

من تابعيه . فبلغها فى ٢٧ ربيع الآخر عام ٦٦٠ هـ . فلقيه السلطان لقاء حسنا ، وأنزله بقلعة الجبل . وظل بلا مبايعة إلى آخر العام المذكور . وفى يوم الخميس ٨ المحرم عام ٦٦١ هـ عقد له السلطان مجلسا كالذى عقده من قبل للخليفة المستنصر بالله . وأثبت نسبه بين يدى القضاة والأمراء ، وبايعوه جميعا بالخلافة وبايعه الناس من بعدهم . ثم لقبوه بالحاكم بأمر الله ، ثم بايع هو بدوره السلطان وفوض إليه أمور المسلمين . وخطب بين يدى السلطان فى الجمعة التالية ، خطبة منبرية طلية حض فيها على الجهاد وصلى به .

أقام الحاكم بأمر الله فى مصر وسكن مناظر الكبش التى أنشأها الأمير أحمد ابن طولون وهى مطلة على النيل ، ثم تحول عنها بعد زمن إلى قلعة الجبل فى زمن الأشرف خليل. وفى زمن لاجين عاد إلى مناظر الكبش ثانيا ،ورتب له ما يكفيه هو وأهله وأمر بالصعود إلى القلعة فى مستهل كل شهر ليهنىء السلطان به .

وقد ضربت السكة باسمه واسم السلطان بيبرس ودعى لهما على المنابر وبعد زمن خاف الظاهر عاقبة هذا الأمر ، فنقل الخليفة عنده فى القلعة هو وأهله وحاشيته كالمسجون ،ثم أسقط اسمه من النقود وأبقاه فى خطبة الجمعة .

وقد عاش هذا الخليفة فى منصبه زمنا طويلا يقرب من أربعين عاما . وشهد عددا من ملوك مصر فى ذلك الحين ، منهم ابنا بيبرس والمنصور قلاوون وابناه خليل ومحمد، والمنصور لاجين ويعتبره بعض المؤرخين أول خلفاء العباسيين فى مصر . لأنه هو وابنه سليمان ينتمى إليهم جميع خلفاء العباسيين بها .

وقد شهد هذا الخليفة أحداثا عدة ، لطول المدة التى أقامها . وكان يتردد على الخطابة المنبرية يوم الجمعة بين يدى السلطان من آن لآخر ، وقد كان سفيرا بين الأمراء الثائرين والسلطان الملك السعيد بن بيبرس ، وكانت نتيجة سفارته خلع السلطان وتولية أخيه .

وكان ـ بعامة ـ غير مطلق التصرف مضيقا على حريته خصوصا فى عهد بيبرس. وفى عهد الأشرف خليل نال بعض الحرية ، ورتبه هذا السلطان خطيبا بجامع

القلعة . ومن العجيب أنه خطب أول خطبة له بعد ترتيبه هذا يوم الجمعة ١٤ شوال عام ٦٩٠ هـ وتلا نفس الخطبة التي تلاها من قبل فى زمن بيبرس أى منذ نحو ثلاثين سنة . ووضع مكان اسم بيبرس اسم الأشرف خليل — وهذه الخطبة كانت من إنشاء شرف الدين أحد كتاب عصر بيبرس — . وفى عهد السلطان لاجين أبيح له التصرف والاختلاط بالناس والركوب مع السلطان ، وعاونه هذا السلطان على الحج عام ٦٩٧ هـ فأعطاه بهذه المناسبة سبعمائة ألف درهم .

وقد توفى فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنة الثانية ، بعد أن عهد بالخلافة لابنه سليمان . وكانت وفاته فى جمادى الأولى عام ٧٠١ هـ فى ليلة الجمعة ١٨ من الشهر ، ودفن بمشهد السيدة نفيسة فى قبة خاصة .

« ابن إياس ج ١ ص ١٠٢ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٤ — حسن المحاضرة ج٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ — سلوك المقريزى ج ١ — صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ — تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣١٧ — والدرر ج ١ رقم ٢٣٢ » .

٢ — المستكفى بالله « الأول » ٧٤١ هـ

وهو أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أحمد الخليفة السابق . ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه . وقد أقر هذا العهد السلطان الناصر بن قلاوون سلطان هذا الحين ، بعد أن سأل قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد عن صلاحه للخلافة لصغر سنه إذ كان دون العشرين إذ ذاك ، فأجابه بصلاحه لها . وكان ذلك بعد وفاة أبيه . فلما أقر له السلطان بالخلافة بويع ودعى له على المنابر بعد موت أبيه بثلاثة أيام فى جمادى الأولى عام ٧٠١ هـ . وكان ابن أخيه إبراهيم وهو أسن منه ينازعه الخلافة ولكنها تمت لسليمان . فلما بويع أشهد على نفسه أنه ولى الملك الناصر جميع ما ولاه والده وفوضه إليه . ومن ثم نقش اسمه على السكة مع اسم السلطان وحسنت صلتهما ، وسكن زمنا فى مناظر الكبش ثم رسم السلطان له بعد قليل أن ينتقل بأهله جميعاً إلى القلعة ، وأجرى عليهم الرواتب الكافية . وإلى هذا الخليفة تنسب خلفاء بنى العباس بمصر .

وخرج مع السلطان فى عام ٧٠٢ ﻫ إلى بلاد الشام لقتال التتار ، ثم عادا إلى القاهرة فى شوال من ذلك العام منتصرين . وظلت صلته بالسلطان على خير ما تكون حتى سعى السعاة بينهما ووشى الوشاة فغضب عليه السلطان الناصر محمد. وقيل إن سبب غضبه أن الخليفة كتب على إحدى القصص الخاصة بالسلطان : « ليحضر محمد بن قلاوون إلى مجلس الشرع أو يوكل » فشق عليه ذلك وأضمرها له فى نفسه . وكان ذلك عام ٧٣٦ ﻫ ، فرسم له أن ينتقل من القلعة إلى مناظر الكبش ثانيا . ثم نفاه إلى قوص هو وأهله فى ذى الحجة عام ٧٣٧ - وقيل أوائل عام ٧٣٨ ﻫ - فسافر الخليفة إليها ولبث بها منفيا حتى توفى . وقد ألم الناس لهذا أشد الألم - وكانت وفاته فى شعبان سنة ٧٤١ ﻫ - وقيل سنة ٧٤٠ ﻫ . وكان مولده فى منتصف المحرم عام ٦٨٤ ﻫ . وقيل ولد عام ٦٨٣ ﻫ .

وقد عهد بالخلافة من بعده لابنه أحمد ، وأشهد على هذا العهد أربعين عدلا. فلم يقره الناصر وولى مكانه ابن أخى المستكفى المدعو إبراهيم .

وكان المستكفى مشتغلا بالعلم محبا للألعاب الرياضية مجالسا للعلماء والأدباء مشاركا لهم فى كلامهم .

« ابن إياس ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٧٠ - سلوك المقريزى ج ١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٤ إلى ٥٨ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٢١ ج ٢ - الدر الكامنة لابن حجر ج ٢ رقم ١٨٢٨ » .

٤ — الواثق بالله « الأول » ٧٤٨ ﻫ

اسمه إبراهيم بن محمد الخليفة الحاكم بأمر الله وهو ابن أخى المستكفى الخليفة السابق .

كان الخليفة الحاكم بأمر الله قد عهد أولا إلى ابنه محمد ولقبه المستمسك بالله. فمات فى حياة والده ، فعهد الحاكم إلى ابراهيم ابن ابنه محمد ، ثم شهد فيه أمورا مرذولة دعته إلى العدول عن العهد إليه ، ثم عهد إلى ابنه الثانى وهو المستكفى بالله

سليمان . فاغتاظ إبراهيم وحاول منازعة عمه المستكفى بالله وقت ولايته ، وزاحمه ، فلم يلتفت إليه السلطان الناصر وولى المستكفى .

ثم غضب الناصر على المستكفى فنفاه هو وأولاده وأهله إلى قوص ـ كما مر فى ترجمته ـ وامتد غضبه عليه إلى أنه لم يقر عهده إلى ابنه أحمد ، واستدعى ابن أخيه إبراهيم المذكور وبايعه ، ودفع الناس إلى مبايعته . على الرغم من نصح كثيرين له بعدم بيعته ـ وكان من ناصحيه قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ـ فلم يأبه الناصر لكل أولئك . فتمت بيعة إبراهيم وسمى الواثق بالله ، بعد أن لبث منصب الخلافة شاغرا زمنا . وتمت هذه البيعة فى رمضان عام ٧٤١ هـ . وهو العام الذى مات فيه الناصر محمد بن قلاوون .

وقيل إن الناصر ندم بعد ذلك على تولية هذا الخليفة . ولذلك أوصى قبيل وفاته بخلعه وتولية ابن المستكفى وهو أحمد . فلما ولى الملك ابنه أبو بكر المنصور نفذ وصية والده وعقد مجلسا لذلك فى ذى الحجة عام ٧٤١ هـ . وطلب الخليفة الواثق بالله إبراهيم وأحمد ابن الخليفة المستكفى وبين يديه القضاة وحقق المسألة ووازن بينهما ، وراجع عهد المستكفى بالله إلى ابنه أحمد ، ثم خلع إبراهيم وولى مكانه أحمد ، ولقبوه بالحاكم بأمر الله كلقب جده .

وكانت مدة خلافة الواثق بالله عدة شهور . ومات فى ٤ شعبان سنة ٧٤٨ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٧٠ ـ حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ ـ صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ ـ سلوك المقريزى ج ١ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٢٤ ـ الدرر لابن حجر ج ١ رقم ١٤٧ » .

٥ ـ الحاكم بأمر الله « الثانى » ٧٥٤ هـ

لقب بلقب جده وهو أبو العباس أحمد بن المستكفى بالله بن الحاكم بأمر الله . لما مات أبوه عام ٧٤١ كان قد عهد إليه بالخلافة وهو منفى بقوص وأشهد على

عهده أربعين رجلا عدلا ، وسجل العهد لدى قاضى قوص ، ولكنه لما مات لم يأبه الناصر محمد بعده لابنه أحمد ، وولى مكانه إبراهيم الواثق بالله ـ كما مر بيانه ـ فلما ندم الناصر على تولية إبراهيم ، ثم أوصى بإعادة الأمر إلى أحمد ثم مات ، عقد الملك المنصور أبو بكر مجلسا من القضاة ، ونفذ وصية أبيه وأقر عهد المستكفى بالله إلى ابنه أحمد وبايعه الخلافة بعد أن خلع الواثق بالله وبايعه الناس قاطبة ، وكان ذلك فى ذى الحجة عام ٧٤١ ﻫ ولقبوه بالحاكم بأمر الله .

ويقول القلقشندى فى صبح الأعشى ج ٣ ، وكذلك ابن خلدون فى العبر ج ٣ ص ٥٤٠ ، إن هذا الخليفة ولى الخلافة زمنا يسيرا قبيل الواثق ودعى له على المنابر فى أواخر شوال عام ٧٤٠ ﻫ ، » يقصد السنة التى مات فيها المستكفى بالله إذ يعتبرها سنة ٧٤٠ ﻫ » ، ثم لم يرض الناصر بذلك واختار بدلا منه ابراهيم الواثق بالله .

ويقول السيوطى فى حسن المحاضرة عن الحافظ ابن حجر ـ وهكذا قال ابن حجر فى الدرر ونقله أيضا السيوطى فى تاريخ الخلفاء : إن هذا الخليفة لقب أولا بالمستنصر بالله ثم غير لقبه ، ولقبه القلقشندى بالمستعصم بالله .

وقد توفى هذا الخليفة فى عهد الملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد عام ٧٥٤ ﻫ بعد أن شهد عدة من الملوك . وقيل فى حسن المحاضرة إنه مات بالطاعون فى منتصف عام ٧٥٣ ﻫ . وفى صبح الأعشى أنه مات سنة ٧٤٨ ﻫ ولم يعهد بالخلافة لأحد من بعده . وكانت مدة خلافته نحو ثلاث عشرة سنة . وقد ولى بعده أخوه .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٠٠ ـ صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ ـ حسن المحاضرة ج٢ ص ٥٨ ، ٥٩ ـ وتاريخ الخلفاء ص ٣٢٥ ـ والدرر الكامنة لابن حجر ج ١ رقم ٣٨٤ » .

٦ — المعتضد بالله « الأول » ٧٦٣ﻫ

وهو أبو الفتح أبو بكر بن الخليفة المستكفى بالله وأخو الخليفة السابق الحاكم

بأمر الله ، مات أخوه ولم يعهد لأحد بالخلافة فوقع الاختيار على أبى بكر هذا ، ولقب بالمعتضد بالله وذلك فى١٧ شعبان عام٧٤٨ ﻫ ، على رأى القلقشندى ، وعام ٧٥٤ ﻫ كما يقول ابن اياس ، وعام ٧٥٣ ﻫ كما يقول السيوطى .

وقد أسند إليه نظر مشهد السيدة نفيسة ، ثم توفى ليلة الأربعاء ١٨ جمادى الأولى عام ٧٦٣ ﻫ وكانت مدة خلافته نحو عشر سنوات ، وعهد بالخلافة بعده لابنه فتقلدها ولقب بالمتوكل على الله .

« ابن إياس ج ١ ص ١٠٠ ، ٢١١ — صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٥ — تاريخ الخلفاء ص ٣٣٣ » .

٧ — المتوكل على الله « الأول » ٨٠٨ﻫ

وهو أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الخليفة المعتضد بالله ، بويع بالخلافة بعد أبيه بعهد منه فى جمادى الأولى عام ٧٦٣ ﻫ فى عهد الملك المنصور محمد بن المظفر ابن الناصر بن قلاوون .

ظل فى دست الخلافة إلى سنة ٧٧٨ ﻫ ، وفى هذه السنة خرج مع السلطان الأشرف شعبان قاصدين حج بيت الله الحرام . وهناك فى العقبة وقع تخاذل وعدوان بين الأمراء أدى فى النهاية إلى قتل الأشرف شعبان . هناك عرض عليه بعض الأمراء منصب السلطنة نخاف من عواقبها ، وصمم على عدم قبولها ، فوقع الاختيار على المنصور على بن الأشرف شعبان ، فصار سلطانا وهو فى سن السابعة تقريبا . ثم استبد بملكه الأتابكى أينبك البدرى وصار مدبر دولته ، فجرت بينه وبين الخليفة المتوكل حوادث أدت إلى كراهية شديدة وحقد عظيم . فما كان من البدرى إلا أن خلع الخليفة المتوكل عنوة عام ٧٧٩ ﻫ . وأقام مكانه خليفة جديدا هو زكريا بن الخليفة ابراهيم الواثق بالله . ولقبه بالمعتصم بالله وقيل المستعصم بالله .

خلع المتوكل إذن من منصبه ـ غير أن الأمراء لم يرتضوا هذا التغيير الجائر ، ولم يبايعوا ولم يبايع الناس هذا الخليفة الجديد ، حتى وجد الأتابكى أينبك البدرى

أنه لا بد من عودة المتوكل إلى منصبه ، فأعاده بعد خلع دام نحو خمسة عشر يوما أو عشرين . وهكذا خلع أيضا المعتصم بالله .

سافر الخليفة المتوكل فى نفس العام وهو عام ٧٧٩ هـ ، مع السلطان المنصور على فى تجريدته إلى بلاد الشام . غير أنهما اضطرا إلى العودة إلى القاهرة بعد بلوغهما بلبيس لفتنة قاصمة شبت بين الأمراء حينئذ .

وعاش هذا الخليفة حتى شهد أول دولة الجراكسة وعهد منشئها وهو السلطان برقوق بن آنص العثمانى . وما بدأت سنة ٨٨٥ هـ حتى نمى إلى السلطان برقوق أن الخليفة يريد أن يستبد بالملك دونه وأنه يراسل الأمراء والعربان بذلك وأنه يدبر مؤامرة لاغتياله . فحقد عليه وجمع القضاة ليفتوه فى شأنه فتوى تتفق وهواه . فلم يظفر منهم بشىء . فاستخار الله وأعلن خلعه عنوة فى رجب عام ٧٨٥ هـ وقبض عليه وسجنه بالقلعة فى البرج . وهكذا خلع للمرة الثانية .

استقدم السلطان برقوق بعد ذلك عمر بن الخليفة ابراهيم الواثق بالله وأخا زكريا الخليفة المعتصم بالله ، وولاه الخلافة ولقبه بالواثق بالله كلقب أبيه ابراهيم . وفى ذى القعدة من نفس العام أطلق سراح المتوكل وأنزله إلى داره مكرما .

ومهما يكن من شىء فإن المتوكل قاسى ضروبا من الضغط والأذى بعد ذلك كانت تمليها الظروف على السلطان . حتى إنه فى سنة ٧٩١ هـ أمر نائب القلعة بأن يضيق الخناق على الخليفة المتوكل ويمنعه من الاجتماع بالناس ، ويبقيه بالبرج مقيدا ،وذلك بمناسبة اضطراب الأمور فى السنة المذكورة .

وفى تلك الأثناء كان الخليفة الجديد الواثق بالله عمر قد توفى عام ٧٨٨ هـ فأسندت الخلافة إلى أخيه الخليفة الأسبق ، وأعنى به المعتصم بالله زكريا بن ابراهيم . فظل حتى عام ٧٩١ هـ وهنا اتجهت نفس برقوق من جديد إلى الخليفة المتوكل . فاستقدمه من سجنه بعد قبوعه فيه نحو ست سنوات ، فنزع منه قيده وقدم إليه المعذرة وندم إليه على مافرط منه فى حقه . وأعاده إلى الخلافة بعد أن خلع منها المعتصم بالله زكريا الذى عاش بعد ذلك حتى توفى عام ٨٠١ هـ مخلوعا .

عادت الخلافة إذن إلى المتوكل على الله . وهذه ثالث مرة يتبوأ فيها منصبه . وبعد قليل زال برقوق من السلطنة ، وأسندت إلى الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان للمرة الثانية وذلك عام ٧٩١ هـ ، فتنفس المتوكل الصعداء . وانضم إلى عصابة السلطان الجديد ، وهموا باستصدار فتوى بكفر برقوق لخلعه الخليفة المتوكل واضطهاده . ولقتله البرىء فى الشهر الحرام . وكان برقوق قد أخذ نجمه فى الظهور مرة أخرى بناحية الشام ، حتى خرج السلطان الصالح للقائه وقتاله فى بلاد الشام ، وخرج معه الخليفة المتوكل عام ٧٩١ هـ ، إلا أنهما شعرا بالهزيمة ففرا فى أوائل عام ٧٩٢ هـ ، بعد انكسارهما أمامه . غير أن الملك الصالح فضل الانسحاب من السلطنة ، فخلع نفسه وعادت السلطنة إلى برقوق ، فتولاها مرة أخرى ، وشهد المتوكل على هذا الخلع وهذه التولية . . . ودخل المتوكل فى ركاب برقوق وهو عائد من الشام إلى مصر .

ولما كانت ثورة منطاش ضد برقوق فى بلاد الشام وحلب عام ٧٩٣ هـ خرج ، إليه برقوق فى حملة كثيفة ، وكان فى ركابه هنا أيضا خليفتنا المتوكل على الله ، وخرج معه كذلك لقتال التتار فى عام ٧٩٦ هـ وهكذا .

ثم زالت دولة برقوق بموته ، وتولى ابنه الناصر فرج عام ٨٠١ هـ فبايعه المتوكل على الله ، وأقره هو أيضا على خلافته . وكان أحد أعضاء المجلس المنعقد فى نفس السنة من القضاة والعلماء والأمراء للتشاور فى أمر العثمانيين واعتدائهم على بلاد السلطان . وقرر هذا المجلس محاربتهم . ولكن هذه المحاربة لم تتم ، لنكوص العثمانيين عن أعمالهم العدائية . ثم إن المتوكل خرج إلى الشام ضمن حملة ، لتأديب الأمير تنم نائب الشام ، الخارج على السلطان عام ٨٠٢ هـ . ثم خرج معه أيضا فى حملته على تيمورلنك ملك التتار عام ٨٠٤ هـ ، ثم عاد معه على حين غفلة فى يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة من العام المذكور .

شهد هذا الخليفة أحداثا كثيرة هامة وتقلبات عدة . ثم توفى فى أول السلطنة الثانية لفرج بن برقوق عام ٨٠٨ هـ ليلة الثلاثاء ٢٨ رجب بعد أن قضى فى خلافته

نحوا من خمسة وأربعين سنة . ودفن بمشهد السيدة نفيسة . وتولى الخلافة خمسة من أولاده وهم داود وسليمان وحمزة ويوسف والعباس . وينسب إليه البر وحب الخير وفعل الجميل وبذل الصدقة . كما أنه أول من أثرى من خلفاء بنى العباس فى مصر . ورزق أولادا عدة . وقيل إن بايزيد ملك العثمانيين التمس منه تقليدا بملك الروم فقلده .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٥٠ . ٣٥١ — وحسن المحاضرة جزء ٢ ص ٦٥ إلى ٦٨ — صبح الأعشى جزء ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٦٨ — تاريخ الخلفاء ص ٣٣٣ » .

٨ — المستعصم بالله : ٨٠١ هـ

وسماه السيوطى فى حسن المحاضرة « المعتصم بالله » . وفى تاريخ الخلفاء « المستعصم » وهو أبو يحيى نجم الدين زكريا بن الخليفة الواثق بالله إبراهيم . — وبيت إبراهيم هذا كثيراً ما نافس بيت المستكفى بالله ، فى الخلافة .

وقد ولى المستعصم بالله زكريا أمرها فى عهد الملك المنصور على بن الأشرف شعبان . أسندها إليه أتابكيه الأمير أينبك البدرى عام ٧٧٩ هـ ، حينما حقد هذا الأمير على خليفة العصر المتوكل على الله محمد ابن المعتضد ، فخلعه عنوة ، ونصب مكانه زكريا . فظل فى الخلافة بلا مبايعة نحو أسبوعين ثم اضطر أينبك أن يعيد المتوكل ، ويخلع زكريا .

ظل زكريا بعد ذلك زمنا حتى وقع النفور بين المتوكل المذكور وبين السلطان برقوق ، فخلعه وقيده وسجنه ، ثم استدعى عمر أخا زكريا وولاه الخلافة فلبث بها حتى توفى عام ٧٨٨ هـ ، فاستدعى على إثره أخاه زكريا وولاه الخلافة ولقب المستعصم بالله كما كان . فظل فى الخلافة حتى عام ٧٩١ هـ . ثم بدا لبرقوق أن يعيد المتوكل فخلع زكريا فى ذلك العام . وهذه ثانى مرة يخلع فيها . فظل مخلوعا حتى

توفى عام ٨٠١ هـ فى شهر جمادى الأولى . وقال عنه السخاوى «كان عاميا صرفا» .

« ابن اياس جـ ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٣٦٥ — حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٦٦ ، ٦٧ — صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ — تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ ، — الضوء جـ ٣ رقم ٨٨٩ » .

٩ ـ الواثق بالله « الثانى » ٧٨٨ هـ

وهو أبو حفص عمر بن الخليفة الواثق بالله إبراهيم . وأخو الخليفة السابق المستعصم بالله زكريا . دعاه برقوق لتسلم مهام الخلافة بعد أن خلع منها المتوكل على الله فى رجب عام ٧٨٥ هـ ، فبقى بها حتى سنة ٧٨٨ هـ . ثم توفى فى شوال من العام المذكور . قال ابن إياس : إن برقوقا عزله قبيل وفاته : فعلى هذا الرأى يكون الواثق قد مات معزولا . وقد خلفه أخوه زكريا ثم المتوكل ثم ابن المتوكل وهو الخليفة المستعين بالله .

« ابن إياس جـ ١ ص ٢٤١ ، ٢٦٥ — صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٦٦ — حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٦٧ » .

١٠ ـ المستعين بالله « الخليفة والسلطان » ٨٣٣ هـ

هو أبو الفضل العباس ابن الخليفة المتوكل على الله محمد . وأمه أم ولد تركية اسمها خانون . ولى الخلافة بعد موت أبيه بعهد منه ، وكانت ولايته فى رجب عام ٨٠٨ هـ فى عهد السلطنة الثانية لفرج بن برقوق وقد كان أبوه المتوكل قد عهد إلى ابنه الأول المسمى أحمد ، ولقبه المعتمد على الله . ثم عدل عنه إلى ابنه الثانى أبى الفضل العباس المذكور .

ولما ولى الخلافة شهد أحداثا كبرى ومر بظروف متقلبة . وشهد من العز والهوان ضروبا . فهو فى هذا شبيه بأبيه المتوكل على الله محمد .

ظل يقوم بالمراسيم التقليدية لمنصبه حتى كانت سنة ٨١٤ هـ . فى هذه السنة شق عصا الطاعة على السلطان فرج الأميران شيخ المحمودى ونوروز الحافظى . وتحصنا فى بلاد الشام . وهناك قويت شوكتهما . فجرد عليهما السلطان الناصر فرج جيشا تحرك به فى نفس العام إلى بلاد الشام ، وسار صحبته الخليفة العباس المستعين بالله

ولكن كانت العاقبة وخيمة على السلطان ، فانكسر ثم قبض عليه ثم قتل عام ٨١٥هـ. وفى هذه الأثناء انضم عدد كبير ممن معه إلى المنتصرين وهما شيخ ونوروز ، فاشتور الجميع فى الأمر ، وفكروا فيمن يلى السلطنة . وكانت قد انحصرت بين هذين الأميرين فحسب . تخوفا من وقوع النزاع بينهما ، ودرءا للتباغض، استقر رأيهما ورأى من معهما على أن يكون الخليفة المستعين هو السلطان .

خشى المستعين مغبة الأمر فامتنع عن قبول السلطنة ، ولكنهما ألحا عليه وقدم إليه نوروز من المواثيق وعهود الأمان مالم يجد معه بدا من القبول . واشترط شروطا كثيرة كان فى عدادها أن يحتفظ بمنصب الخلافة ، وأنه إذا خلع من السلطنة يوما ما فإنه يعود إلى ذلك المنصب كما كان ، فرضوا بشروطه .

أصبح المستعين بالله خليفة وسلطانا معا على البلاد المصرية والشامية والحلبية وما يتبعها وذلك عام ٨١٥هـ . وفوض البلاد الشامية من غزة إلى الفرات للأمير نوروز الحافظى ، وفوض أتابكية مصر للأمير شيخ المحمودى وجعله مدير المملكة ونظام الملك . وعاد الجميع معه إلى مصر فى ركب عظيم وحفاوة باهرة وهنأه الشعراء ، وكان فى جملة مهنئيه ابن حجر العسقلانى القاضى والعالم والأديب الشاعر ، بقصيدة عصماء أولها .

الملك فينا ثابت الآساس بالمستعين العادل العباسى .
رجعت مكانة آل عم المصطفى لمحلها من بعد طول تناسى

سكن الخليفة السلطان بالقلعة . وظل يصرف أمور الدولة . ولكن الواقع أن الذى كان يصرفها من الوجهة العملية هو الأتابكى شيخ وظل يضيق الخناق على خليفته السلطان ويستأثر بكل الأعمال ، حتى ضاق المستعين بالله ذرعا به .

كان ذلك كله بمثابة تمهيد من الأتابكى شيخ ليستولى على السلطنة ، وقد نفذ هذه الرغبة فعلا فى مستهل شعبان عام ٨١٥ هـ ، أى بعد مضى نحو ستة شهور على سلطنة المستعين بالله ، وتلقب بالمؤيد .

كانت حجة الملك المؤيد شيخ أن الأحوال فسدت وأن أهل السوء اجترءوا ،

وأصبح الحال يتطلب سلطانا تركيا يقمع أهل الفساد . ! فخلع الخليفة من السلطنة واستولى هو عليها .

أراد الخليفة المستعين بالله أن يعود إلى منصبه ويفرغ له كما كان أولا ، فأبى عليه المؤيد وتركه بالقلعة سجينا ، فظل بها حتى ذى الحجة عام ٨١٦هـ . ثم خلع من الخلافة أيضاً ، وقد عوون على خلعه منها بفتوى شرعية من الشيخ جلال الدين البلقينى أحد قضاة الشافعية . ويقول السيوطى إنه كان فى نفس البلقينى من الخليفة شىء ! إذ عزله من القضاء فى مستهل سلطنته فأضمرها له فى نفسه .

فلما خلع من الخلافة ، استدعى أخوه المسمى داود فبويع بها ولقب بالمعتضد بالله . أما المستعين بالله فإنه أرسل إلى سجن الإسكندرية بعد أن سجن بالقلعة مدة فلبث فى السجن سنين طويلة ، حتى ولى الملك الأشرف[1] برسباى عام ٨٢٥ هـ . فكان فى جملة مآثره إخراج هذا السجين وإطلاق حريته ، وأسكنه بعض الدور بالإسكندرية . فزاول التجارة بها حتى كان عام ٨٣٣ هـ . فمات بطاعونه فى يوم الأربعاء ٢١ جمادى الآخرة ، وقد كتبت عنه كلمة بين سلاطين الدولة الجركسية.

« ابن إياس ج ١ ص ٣٥١ ، الى ٣٥٩ — ج ٢ ص ٣ ، ١٣ ، ١٩ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ — صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٧ — تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ — الضوء اللامع ج ٤ رقم ٧٠ » .

١١ — المعتضد بالله « الثانى » ٨٤٥ هـ

وهو أبو الفتح داود بن الخليفة المتوكل على الله محمد ، وأخو الخليفة المستعين بالله ، وأمه أم ولد تركية يقال لها كزل . ولى الخلافة فى عهـــد الملك المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٥هـ . عقب خلع أخيه المستعين بالله منها . وظل يقوم بمراسيم الخلافة من مبايعة سلطان وتهنئة آخر فى موسم أو عيد ورحيل مع ملك فى تجريدة إلى بلاد الشام ، وغير ذلك من ضروب الأعمال المنوطة به .

ويقال إنه بعد موت المؤيد شيخ ، عارض فى تولية ابنه المظفر أحمد لصغر

---

(١) هذه رواية ابن أياس ؛ وذكر السيوطى فى تاريخ الخلفاء ، أن الذى أطلقه هو الظاهر ططر ، وأذن له فى المجىء إلى القاهرة ، ولكنه اختار الإسكندرية .

سنه إذ كان فى نحو سنة وثمانية أشهر . ولما وجد إجماعا من المماليك المؤيدية على توليته ، رضى مكرها على أن يكون الأمير ططر ـ وهو من هو فى ذلك الحين ـ مدبر المملكة ونظامها . وأرجح أن هذه الشجاعة واتته من الأمير ططر نفسه ، ولابد أن يكون هو الموعز إليه بالمعارضة ، لأن فيها منفعة له .

ولما شق الأتابكى الطنبغا عصا الطاعة على هذا السلطان الصغير هو ومدبر مملكته ، سارع إليه الأمير ططر وحمل معه السلطان والخليفة والقضاة . وهزمه عام ٨٢٤هـ ، ثم خلع المظفر أحمد ، وتسنم عرشه بنفسه . وبايعه الخليفة ، ومن معه فى دمشق ،

ثم شهد هذا الخليفة عصر ططر وابنه وعهد الأشرف برسباى وابنه وعصر جقمق العلائى . ومما يذكر أنه حدث سوء تفاهم بين برسباى وبين قرا ملك أحد ملوك التركمان عام ٨٣٦هـ ، فخرج من مصر فى ذلك العام لملاقاته على الفرات وتأديبه ، فصحبه الخليفة المعتضد بالله فيمن صحبه .

وقد توفى هذا الخليفة فى سنة ٨٤٥هـ فى يوم الأحد ٤ ربيع الأول ، مناهزا السبعين، وقيل فى سن ٦٣ سنة « وينسب إليه حب الخير وكثرة البر والميل إلى العلماء وحب مجالستهم والاستفادة من فضلهم. وقد خلفه أخوه سليمان بن المتوكل على الله

ابن اياس ج ١ ص ٣٥١ ، ٣٥٨ ـ ج ٢ ص ٤، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ؛ ٢٠ ؛ ٢٣ ؛ ٢٤ ؛ ٢٨ ـ وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٧١ ـ وتاريخ الخلفاء ص ٣٣٨ » الضوء ج٣ رقم ٨٠٥ »

١٢ ـ المستكفى بالله « الثانى » ٨٥٤هـ

وهو أبو الربيع سليمان ابن الخليفة المتوكل على الله محمد . وأخو الخليفة السالف، وهو المعتضد بالله . ولى الخلافة بعد وفاة أخيه المذكور عام ٨٤٥ هـ ، بعهد منه كتبه له صديقه والد جلال الدين السيوطى .

وقد كان المستكفى رضى السيرة حسن العشرة ، كثير العبادة كثير التلاوة ، ورعا صالحا . وقد توفى آخر ذى الحجة عام ٨٥٤هـ ، وقال ابن إياس: فى يوم الجمعة ٢ المحرم عام ٨٥٥هـ ، بعد خلافة دامت نحو عشر سنوات . ومات بغير أن يعهد

إلى أحد بالخلافة ، وكانت وفاته فى عهد السلطان جقمق العلائى الذى كان يبجله ، فنزل وصلى عليه وشيع جنازته ، وقيل حمل نعشه مسافة . وتولى بعده أخوه حمزة ، ولقب بالقائم بأمر الله . ومما يذكر أن ابنة هذا الخليفة وهى آمنة ، تزوجها الخليفة المتوكل على الله عبدالعزيز فولدت له ابنه يعقوب الذى ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وتلقب بالمستمسك بالله عام ٩٠٣هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٨ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ـ حسن المحاضرة ص ٧١ ج ٢ ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٤٠ ـ الضوء ج ٣ رقم ١٠١٥ »

١٣ ـ القائم بأمر الله ٨٦٣هـ

وهو أبو البقاء حمزة ابن الخليفة المتوكل على الله محمد ، وأخو الخليفة السالف ، وهو المستكفى بالله . ولى الخلافة بعد وفاة أخيه المذكور عام ٨٥٥هـ بغير عهد منه ، بل وقع عليه اختيار السلطان جقمق وحاشيته ، ولقبوه بالقائم بأمر الله .

وشهد عهد ثلاثة من الملوك هم جقمق وابنه وإينال العلائى .

ومما يذكر أنه خلع الملك المنصور بن جقمق عام ٨٥٧هـ بناء على طلب أتابكيه إينال ، ثم ارتقى إينال العرش فبايعه الخليفة حمزة ، وكان من أكبر معاضديه على نيل السلطنة ، إذ أن المنصور لم يكن قد انهزم فى صراعه مع أتابكيه ، فقت خلع الخليفة له فى عضده ؛ ولما ملك إينال أنعم على الخليفة القائم بأمر الله بإقطاع واسع النطاق ومال وخيل وقماش .

ثم دارت الأيام دورتها وثارت ثائرة المماليك على إينال نفسه ٨٥٩هـ ، فضلع معهم الخليفة القائم بأمر الله آملا أن يحتاز لنفسه غنيمة جديدة من وراء ذلك ، حتى قيل إنه طمع فى السلطنة ، ثم إن المماليك أخفقوا فى حركتهم ، ومن ثم أسقط فى يد الخليفة وأوجس خيفة من السلطان ، وما لبث أن استقدمه السلطان إليه ، ووبخه على سوء عمله ، فما كان من الخليفة إلا أن خلع نفسه وخلع السلطان معا ، ولكن القاضى علم الدين البلقينى أفتى السلطان بأن عمل الخليفة ينطبق عليه هو دون السلطان ، إذ بدأ بخلع نفسه فأصبح لا يملك خلع سواه ... !

فبذلك ثبت الملك إينال فى السلطنة رغم أنف الخليفة وأفتاه علم الدين البلقينى بأنه يجوز له خلع الخليفة فخلعه فى مجلس عقد لذلك وشهد عليه الحاضرون، وقبض عليه وقذف به فى البحرة بالقلعة مسجونا، فلبث بها أياما وذلك عام ٨٥٩ هـ. ثم سيق إلى الإسكندرية فسجن فيها ولبث فى سجنه حتى توفى عام ٨٦٣ هـ ودفن فى مقبرة شقيقه المستعين بالله. وقد دامت خلافتـه نحو أربع سنوات ونصف. وخلفه فى منصبه عام ٨٥٩ هـ أخوه يوسف.

« ابن اياس ج ١ ص ٣٥١، ج ٢ ص ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٥١، ٥٢ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ — وتاريخ الخلفاء ص ٢٤١ — الضوء ج ٣ رقم ٦٣٩ ».

١٤ — المستنجد بالله ٨٨٤ هـ

واسمه أبو المحاسن الجمالى يوسف ابن الخليفة المتوكل على الله محمد، بويع بالخلافة فى عهد الملك إينال عام ٨٥٩ هـ فى يوم الخميس ١٣ رجب، وذلك بعد القبض على أخيه الخليفة السـابق حمزة القائم بأمر الله. وكان مصاهرا قاضى القضاة علم الدين البلقينى، وينسب البعض تحمس البلقينى فى خلع الخليفة القائم بأمر الله إلى هذه المصاهرة وإلى رغبته فى أن يكون صهره يوسف هو الخليفة مكان أخيه. فتم له ما أراد، ولبث يوسف هذا وهو الملقب بالمستنجد بالله فى منصبه زمنا طويلا يقدر بنحو ٢٥ سنة.

وشهد بقية عهد إينال وعهد ابنه المؤيد، وأيام خشقدم ويلباى وتمربغا وقايتباى. وقد توفى فى عهد هذا السلطان يوم السبت ٢٤ المحرم عام ٨٨٤ هـ بعد مرضه بالفالج نحو عامين، وقد بلغ التسعين أو جاوزها. وقد كان إينال قد أقطعه قرية إنبابة فأخرجها عنه قايتباى وأقطعها أحد الأمراء.

ومما يذكر أنه كان أحد أعضاء المجلس الذى عقده الأشرف قايتباى عام ٨٧٢ هـ للنظر فى أموال الأوقاف المرصودة على المساجد، ومحاولة الاستيلاء على جزء منها معاونة للسلطان على تجهيز الجنود بما يحتاجون إليه فى الحرب من سلاح وغيره، وكان رأى الخليفة الرضا والموافقة على رأى السلطان، وهو الاستيلاء

على جزء من المال . ولو لا معارضة شيخ الإسلام أمين* الدين الأقصرائى فى ذلك لنفذ هذا الرأى .

ومما يذكر أيضا أن هذا الخليفة هو الذى بعث إليه الملك غياث الدين صاحب بلاد الهند رسولا يطلب إليه تقليدا بولايته ، وذلك عام ٨٧٦ هـ . فبعث إليــه التقليد المطلوب .

ومما يذكر كذلك أنه سكن بالقلعة بعدأن سكن بمنازل إخوته زمنا . ولما مات لم يعقب ولدا ذكرا ، وأنجب ببنت واحدة تسمى ست الخلفاء ، كان الأمير خشكلدى السيفى قد عقد عليها ، ثم فسخ العقد .

وقد وليه فى الخلافة عبد العزيز ابن أخيه يعقوب بن المتوكل على الله بعهد منه .

« ابن اياس ج ٢ ص ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٣١ ، ١٤٣ ، ١٧٥ ، ١٨٥ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ ـ الضوء ج ١٠ رقم ١٢٤٧ .

١٥ — المتوكل على الله « الثانى » ٩٠٣ هـ

واسمه أبو العز عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله محمد ، وهو ابن أخى الخليفة السابق ولم يل أبوه الخلافة . بويع بالخلافة فى عهد قايتباى بعد وفاة عمه المستنجد بالله فى الاثنين ٢٦ المحرم عام ٨٨٤ هـ ، بعهد منه . ولم يكن إذ ذاك بين بنى العباس بمصر من يصلح للخلافة سواه . وكان عمه موسى موجودا ، ولكنه لم يكن كفئا للخلافة ، وقد مات موسى هذا عام ٨٩١ هـ

أراد أن يلقب بالمستعز بالله ، ثم لم يقع الاتفاق على هـذا اللقب الأخير . وسكن بالقلعة بالحوش .

كان هذا الخليفة صديقا لجلال الدين السيوطى ؛ فأسـند إليه فى سنة ٩٠٢ هـ وظيفة غير معروفة فى الدولة ، إذ جعله قاضيا على جميـع القضاة يولى منهم من يشاء ويعزل من يشاء فى سائر ممالك الإسلام . قيل إن هـــذه الوظيفة كانت قد أسندت حينا إلى تاج الدين بن بنت الأعز فى دولة الأيوبيين . وكان لهذا التعيين

رنة ألم وضجر ونقد مرير لدى قضاة الشرع ، ولدى السلطان . ورموا الخليفة بأنه استخف بالسلطان لصغر سنه . وقد كان السلطان هو ابن قايتباى . وما زالوا به ينكرون عليه حق التولية ، وأنه لاحل له ولاربط بجوار السلطان ، حتى اضطر إلى سحب الوظيفة من السيوطى ، وتقديم ضروب الاعتذار عما صدر منه قائلا إنه إنما فعل ذلك بناء على اقتراح السيوطى نفسه ! . وانتهت المسألة بعد أن كادت تكون فتنة للناس !

وقد صدرت من الخليفة المتوكل على الله فعلة أخرى فى نفس السنة ، إذ اشترك فى خلع الملك الناصر بن قايتباى ، وضلع من الأتابكى قانصوه خمسمائة ، وبايعه بالسلطنة فلم يلبث قانصوه بها سوى ثلاثة أيام ثم غلب ، وعاد الملك إلى صاحبه وهو الناصر بن قايتباى ، فعاد الخليفة وبايعه بالسلطنة . وهذا الخليفة صعد القلعة ، عام ٩٠٢ ﻫ يهنىء الناصر بن قايتباى بعيد الفطر ، فلم يقابله السلطان وأرسل إليه من يشكره ويصرفه .

توفى هذا الخليفة فى يوم الخميس آخر المحرم سنة ٩٠٣ ﻫ بعد أن مرض زمنا فى أخريات عام ٩٠٢ ﻫ . وينسب إليه الاشتغال بالعلم والأدب ودماثة الخلق ، وتوفى وله من العمر نحو ٨٤ سنة ، ومدة خلافته نحو ١٩ سنة . وتولاها من بعده ابنه يعقوب بعهد منه .

ومما يذكر فى تاريخ المتوكل أنه فى عهد قايتباى وفى سنة ٨٩٩ ﻫ ، شبت نار قاسية فى القلعة فألحقت بها وبحواصلها تلفا بالغا . فقيل للسلطان إن النار اندلعت من مطبخ الخليفة المتوكل ـ وكان يسكن القلعة ـ فرسم له توا بإخلاء سكنه بها والنزول إلى المدينة ليختار له بها سكنا فسكن فى قاعة مجاورة لمشهد السيدة نفيسة ، وظل كذلك حتى عام ٩٠٢ ﻫ ، فكان عهد الناصر بن قايتباى ، فرسم له بالعودة إلى سكنى القلعة كما كان ، فعاد فى تلك السنة وهذا الخليفة هو الذى ألف له السيوطى كتابيه فى تاريخ بنى العباس أولها « كتاب الأساس فى فضل بنى العباس » ثانيهما « كتاب رفع الباس عن بنى العباس » .

« ابن إياس ج ٢ص١٨٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٧، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ـ . حسن المحاضرة ج ٢ص ٧٢ ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ ـ الضوء ج ٤ رقم ٦١١ » .

١٦ — المستمسك بالله ٩٢٧ هـ

وهو شرف الدين أبو الصبر يعقوب بن الخليفة السابق المتوكل على الله عبد العزيز ، وهو هاشمى الأبوين . قال ابن إياس « لم يل الخلافة من هو هاشمى الأبوين غير أربعة من بنى هاشم وهم الإمام على كرم الله وجهه ، وكانت أمه هاشمية ، وهى فاطمة بنت أسد بن هاشم ، ثم ابنه الحسن رضى الله عنه ورحمه ، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ . ثم محمد الأمين بن زبيدة وكانت أمه هاشمية . ثم يعقوب بن عبدالعزيز وأمه هاشمية تسمى آمنة بنت أمير المؤمنين المستكفى بالله أبى الربيع سليمان . فهؤلاء الأربعة هاشميو الأبوين وغيرهم من الخلفاء كانوا من سرارى مولدات وحبش وغير ذلك .

بعد أن مات أبوه فى عهد الناصر بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ اختير للخلافة فى المحرم من ذلك العام ، وكان أبوه قد عهد إليه بهـا ، فأقر الناصر هذا العهد ، وزاحمه لدى السلطان على الخلافة ابن عم له يدعى خليلا ، فلم يأبه له السلطان . وتلقب بالمستمسك بالله . واكتفى القاضى الشافعى بعهد أبيه إليه عن المبايعة ، فتمت بذلك خلافته ، وهو فى سن الخمسين تقريبا وقد وخطه المشيب . وقد شهد هذا الخليفة عددا من السلاطين ، وتمت بيعتهم بالسلطنة على يديه وهم : قانصوه ابن قانصوه وجان بلاط والعادل طومان باى والأشرف الغورى والأشرف طومان باى . كما عاصر جملة من الحوادث الرائعة . وامتد به الأجل حتى رأى احتلال العثمانيين لبلاده . وابنه المتوكل على الله هو آخر خلفاء بنى العباس فى مصر .

ويلخص تاريخ المستمسك بالله يعقوب فيما يلى : كان يسكن بالمدينة حتى رسم له الأشرف جان بلاط بأن ينتقل إلى القلعة ، فانتقل وذلك عام ٩٠٥ هـ . ولما ملك طومان بلاد الشام ، وتلقب بالعادل ، دان له أهلها وبايعوه ودعوا له على منابرها

ولم يحتج إلى مبايعة الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، لأنه كان بمصر مع سلطانها جان بلاط . غير أنه سرعان ما بايع العادل لما تم له النصر على جان بلاط ، ولاننسى أن هذه المبايعات رسوم تقليدية فحسب لا تغير من جوهر الواقع شيئاً ، ولا أثر لها فيه . ا

ولما تمت السلطنة للعادل طومان - عام ٩٠٦ هـ - خلع على الخليفة بعض خلعه ، وبعد قليل فى مستهل رمضان رسم له بترك القلعة ، والسكنى بداره بالمدينة ثم زالت دولة العادل وآلت السلطنة إلى الأشرف الغورى .

ساير الخليفة المستمسك بالله العصر الجديد بنفس الهمة والنشاط اللذين ساير بهما العصور السالفة ، فبايع السلطان الغورى الجديد ، واشترك فى حفلة تنصيبه وقام الأمراء بين يديه مرات بالحلف على المصحف إخلاصا للسلطان .

وأصيب بضعف فى عينيه ، فعيره[1] بذلك خليل ابن عمه الذى زاحمه من قبل فى منصب الخلافة ، فلم يظفر بطائل حينئذ . فعاود الكرة فى يوم السبت ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ ووقع بينهما تشاجر بمجلس السلطان والقضاة . فقال خليل للخليفة يعقوب : أنت ولايتك ما تصلح فإنك أعمى ، فقام إليه الناصرى محمد ابن الخليفة ، وقال له : وأنت ماتصح خلفك صلاة ، لأنك ماتحسن قراءة الفاتحة - وكان خليل ألثغ لا يحسن النطق بحرف الراء - فألزمه السلطان الغورى بأن يقرأ بحضرة القضاة فلما قرأ لم يحسن ثم سكت ولم يكمل الفاتحة . وربما كان هذا التشاجر والاختبار والدفاع بسبب هم السلطان بتعيين خليفة آخر جديد بدل المستمسك بالله يعقوب لضعف عينيه . فانفض ذلك المجلس المعقود على أن يكون الناصرى محمد ابن المستمسك بالله هو الخليفة . وقد عاد المجلس فعلا إلى الانعقاد فى يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٤ هـ ، أى بعد يومين ، وقرر الخليفة خلع نفسه من الخلافة عاهدا

---

(١) ذكر ابن أياس خليلا هذا وقال عنه مرة أنه ابن عم يعقوب (ج ٢ ص ٣٣٤) ومرة ابن عم أبيه (ج ٤ حوادث ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ) .

إلى ابنه المذكور ، فأقر الغورى هـذا العهد ، ووافق القضاة والأمراء ، وزايل الخليفة المستمسك بالله المجلس مكرما . وانتهت بذلك خلافته بعد نحو إحدى عشرة سنة ونصف .

من ذلك الحين ظل الخليفة المذكور قابعاً فى داره ، قليل الاختلاط بالناس ، مختفيا عن الأنظار ، حتى أذن له السلطان بالخروج والظهور فى يوم الخميس ١٥ من ذى الحجة عام ٩١٧ هـ فركب ثانى يوم ، وهو الجمعة ، للصلاة وزيارة المقابر . وظل مرعى الجانب من السلطان الغورى ، حتى خرج فى تجريدته المشهورة إلى بلاد الشام للقاء السلطان سليم عام ٩٢٢ هـ ، وخرج معه الخليفة المتوكل على الله ، ثم مات الغورى ، وأسر المتوكل . فاستدعى حينئذ الخليفة أبو الصبر يعقوب المستمسك بالله للقيام بمراسيم الخلافة عوضا عن ابنه ، بصفة مؤقتة ليبايع السلطان الجديد طومان باى ، وأظهر هو توكيلا مطلقاً كتبه له ابنه المتوكل لينوب عنه فى أمور الخلافة ، فأقر القضاة هذا التوكيل ، وهكذا عاد إلى الخلافة فى عام ٩٢٢ هـ .

ثم زالت عنه صفة الخلافة حينما عاد ابنه المتوكل فى ركاب العثمانيين ، وبعد عودته معهم إلى بلادهم لم تبق للخليفة منزلة رسمية مرعية .

وقد توفى المستمسك بالله فى عهد ملك الأمراء خاير بك يوم الخميس ١٩ ربيع الآخر عام ٩٢٧ هـ . ودفن بمشهد السيدة نفيسة ، وينسب اليه الصلاح وحسن الدين وحب الخير والتواضع .

« ابن اياس ج ص ٣٥١ — ج ٢ ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٤٤ و ٣٥٠ و ٣٦١ و ٣٧٠ و ٣٧١ و ٣٧٣ و ٣٨٠ و ٣٨٧ و ٣٩٤ — ج ٤ فى التواريخ المذكورة من عام ٩٠٦ هـ إلى ٩٢٢ هـ — و ج ٥ فى التوايخ المذكورة » .

١٧ — المتوكل على الله « الثالث »

وهو آخر خلفاء بنى العباس بمصر . واسمه أبو عبد الله الناصر محمد بن الخليفة المستمسك بالله يعقوب . ولى الخلافة بعد تنازل أبيه عنها وبعهد منه إليه . وزاحمه فيها خليل ابن عم أبيه كما زاحم أباه من قبل ، ولـكنه لم ينتصر عليهما . ولى الخلافة

فى عهد الغورى يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٤ هـ ، وبايعه السلطان والقضاة ونزل إلى داره فى موكب عظيم ، وقيل إنه بذل فى سبيل الوصول إلى الخلافة ١٢ ألف دينار . ! ولولا ذلك لكان نصيبه النفى من القاهرة وإحلال خليل مزاحمه محله .

ظل المتوكل على الله محمد ، يقوم بمراسيم منصبه من تهنئة واستقبال وتحليف وغير ذلك . حتى أذنت سنة ٩٢٢ هـ وتحرك العثمانيون ضد مصر وممتلكاتها . فخرج الخليفة المتوكل فى عداد من خرج مع السلطان الغورى ، وأراده السلطان على أن يجهز نفسه من ماله كما أراد القضاة على ذلك . ولكنه لم يستطع ، وبعد لأى ومفاوضة أرسل السلطان إليه ألف دينار . . . . وكانت عادة الخلفاء من قبل إذا خرجوا فى حرب مع السلطان أن تكون نفقة خروجهم جميعها من مال السلطان .

ولما خرج ركب الخليفة كان أمامه طبل وزمر ... وعلى رأسه عمامة بغدادية بعذبتين .. وعلى جسده قباء بعلبكى مطرز بحرير أسود ... واختصر ضروبا من التجمل كان يتبعها الخلفاء السابقون فى مثل هذه المناسبات . وذلك نظراً للضنك المالى الذى كانت البلاد وأعيانها تعانيه .

ثم سار الجميع إلى الشام . وهناك كانت الهزيمة فى « مرج دابق » وفقد سلطان مصر الغورى . وأسر السلطان سليم عدداً كبيراً من مرافقيه ، ووفد عليه عدد آخر ، فكان الخليفة المتوكل فى عداد من وفد عليه . وقيل إن السلطان سليما سأله عن أصله . فقال : من بغداد ! فقال له : نعيدكم إلى بغداد كما كنتم ! ـ ولما هم الخليفة بالانصراف أحسن اليه السلطان سليم ، وخلع عليه خلعة ثمينة من ملابسه . وسيره إلى حلب وأمره بالإقامة بها . ووكل به من يحرسه ويمنعه الهرب !. فظل بها هو والقضاة المصريون الثلاثة الذين وفدوا على السلطان سليم معه . وقام مقامه بمصر أبوه يعقوب .

ظل فى الأسر حتى زحف العثمانيون على مصر فاحتملوه معهم هو والقضاة الثلاثة . ثم أرسلوهم سفراء إلى القاهرة قبيل دخولهم فيها ، هم وطائفة من وزرائهم وجنودهم ، طلائع لدخول سلطانهم ، وبشروا الناس بالأمن والعدل المنتظرين على يد العثمانيين ...

وأضفى السلطان سليم على الخليفة المتوكل ضروبا من الثقة والنفوذ ، حتى عظم أمره وهيبت سطوته وقبلت شفاعته . وأصبحت داره ملجأ لذوى الحاجة سادة وغير سادة . وكانت هذه بلا شك سياسة حازمة من السلطان سليم ليخدع الناس عن رغباته الخفية ، ويفهم المصريين حبه للدين وخوفه على رجاله . ثم هى وسيلة لإدخال الطمأنينة فى نفس المتوكل ، حتى يثق بالسلطان سليم ، وحينئذ يسهل على السلطان أن يتخذ منه إكافا إلى غايته ، وأن يمتطيه حتى النهاية .. ثم أمره بعد قليل بالمسير إلى القسطنطينية فى عداد من أمروا بذلك .

وفى يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى عام ٩٢٣هـ ، خرج الخليفة المتوكل على الله محمد ، ومعه عدد من أقاربه للسفر إلى القسطنطينية . فغادر القاهرة فى ذلك اليوم، ولبث فى جهة بولاق إلى الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى المذكورة . ثم برحها إلى رشيد ومنها إلى عاصمة بنى عثمان . وبسفره انقطعت سلسلة الخـــلافة من مصر ، وانتهت أيامها .

وقيل إن السلطان سليما نفاه بعد ذلك إلى مكان بعيد عن استانبول . وضيق عليه الخناق . وقيل إنه قهر على أن يتنازل عن الخلافة للسلطان سليم . وقيل إنه لم يقهره ، وإنما تسمى سلاطين العثمانيين بأمراء المؤمنين وتلقبوا بالخلفاء . وقد انتقلت بذلك الخلافة من العباسيين إلى آل عثمان .

ومما يذكر أنه بسفر الخليفة المتوكل انقطع عنه نظر مشهد السيدة نفيسة ، وكان هو ومن قبله من الخلفاء ينالون من وراء هذا المنظر المال الكثير والخير الوفير . وعاد المتوكل بأخرة إلى مصر ومات بها .

« ابن إياس ج ٤ ، ٥ فى التواريخ المذكورة ــ نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة »

القضاء

على الرغم من أن النظام الإدارى فى ذلك العصر ، قد اقتضى تحويل مناصب البلاد تقريبا ، إلى مناصب عسكرية ، اختير لشغلها عـدد من الأمراء أرباب السيف ، كان لابد من أن تترك مناصب القضاء والكتابة وما إليها ، لكى يليها أهل العلم ورجال الدين ، وذوو الخبرة باللغة العربية وإنشائها ، من نابتة البلاد ومثقفيها . وذلك لأن الأمراء لايستطيعون بفطرتهم ونشأتهم وظروف حياتهم، أن يقوموا بها لقلة خبرتهم بأحكامها ، ولضعف تجاربهم فيها ، ولانصرافهم عنها إلى غيرها من المهام العسكرية .

وقد يكون فى مقدمة الأسباب التى دفعتهم إلى ترك القضاء لعلماء الدين : أنهم مسلمون ، وأن سلاطينهم نصبوا أنفسهم حماة للإسلام ، وذادة عن أهله . فكان لابد لهم من أن يشجعوا رجال الإسلام ويبجلوهم ، ويستشيروهم ويسترشدوا برأيهم عند الحاجة إليه ، مقتدين بمن سلف من الملوك قبلهم. وفى ذلك كسب عظيم لجانب هذه الطبقة من أبناء البلاد ، وهى أكثر أبنائها ثقافة ، وأنبغها فقها ، وأقواها حجة ، وأشدها تأثيرا . ثم فى ذلك مافيه من إيهام العامة ـ إن حقا وإن باطلا ـ أن سلاطينهم وأمراءهم ، يغارون على دينهم ، ويحرصون على تنفيذ قوانينه وتعاليمه ، فيظفرون منهم بالإعجاب والطاعة .

وكان التعليم فى ذلك الحين نوعين :

الأول: مقصور على طائفة المماليك ، يساقون إليه دون استثناء ، ويربون على النمط الموضوع له ، فى أماكن خاصة بهم ، وقوام هذا النوع يسير من الكتابة والقراءة ، وآيات من القرآن الكريم ، وفروض الدين . وعناية كبرى بالرياضة البدنية من جرى وقفز وسباحة ورمى أطواق ، وغير ذلك . واهتمام بالتمرينات

العسكرية من ركوب الخيل ، والكر بها والفر ، ورمى النشاب ، وجر الرماح ، وسل السيوف ، إلى غير ذلك . وقد عقدنا لهذا النوع من التعليم فصلا مستقلا فيما مر .

الثانى : مباح لمن يشاء من أبناء الشعب الآخرين فى مصر والشام وسواهما من بلاد المسلمين . لا يساق إليه أحد دون رغبته ومشيئته . وأماكنه المساجد التى كانت فى ذلك الحين ، كالجامعات ، تدرس بها شتى المواد . وأهم ما كان يدرس بها علوم الدين ومذاهبه الأربعة ، وعلوم اللغة . وقليل من العلوم الأخرى . وسنفرد له فصلا فى الجزء الثانى من كتابنا هذا .

وقد نبغ كثير من أبناء البلاد ، الذين تثقفوا بهذا النوع الثانى من التعليم ، فى الفقه ، والحديث رواية وشرحا ، والتفسير ، والنحو والكتابة ، وماشاكل ذلك من علوم الدين وفنون اللغة العربية ، فاختار السلاطين من بينهم . ومن النابغين فيهم ، من احتاجوا إليهم ، فى مناصب القضاء والكتابة . وما إليهما .

ويحسن بنا ـ بهذه المناسبة ـ أن نشير إلى أمرين .

الأول . أن المتعلمين من أهل الدين واللغة ، كانت لهم عناية بالغة . بأن ينسبوا إلى المذهب الدينى الذى اختاروه ونبغوا فيه ، وكل منهم حريص على أن يضيف إلى اسمه فى النهاية كلمة . الشافعى ، أو الحنفى ، أو المالكى ، أو الحنبلى ، حتى أصبحت نسبة كل منهم إلى مذهبه لصيقة باسمه لا تفارقه ، وصارت إحدى مميزاته .

الثانى . أن القضاء لم يكن يطلق عليه لفظ « شرعى » إلا نادرا . لأنه لم يكن فى البلاد قضاء غير شرعى ، فلم تكن هناك حاجة إلى تمييزه غير أن القضاة كان يقال لهم أحيانا « قضاة الشرع » لما لكلمة « الشرع » فى بعض المواقف من تأثير ومعنى خاص.

وفى الحق كان القضاء « شرعيا » . وفى أيدى قضاة الشرع . غير أنه كان بجانبهم شخصان آخران يقضيان فى المنازعات ، وهما السلطان ، وحاجب الحجاب ويحسن بنا أن نشير بكلمة إلى كل منهما لأهميته القضائية .

السلطان وجلوسه للقضاء

السلطان ولى الأمر الشرعى فى البلاد . يقضى فيها باسمه ، ويستمد منه قضاة المملكة قوتهم القانونية ، التى بها يحكمون بين الناس .

وكان من المستطاع أن يترك السلاطين أمر الفصل فى القضايا والخصومات ، لمن نصبوهم من رجال الشرع فى مناصب القضاء ، إلا فى القضايا العليا ذات الصبغة العامة فلا مانع من أن ينظروا فيها نظراً أخيراً ، يفصلون به فيها نهائيا . وفى ذلك مافيه من الثقة برجال القضاء وفيه أيضا ما فيه من توزيع الاختصاص،وعدم شغل السلطان بما يستطيع أحد رعاياه أن يشتغل به . ولكن سلاطين المماليك ، أرادوا أن يتشبهوا بالسلف الصالح ، وبقادة الأمة فى بداءة أمرها وحداثة عهدها بالإسلام وذلك بتفقد أحوال الرعية ، والنظر فى مظلمات الأمة ، ونشر العدل بين ربوعها [1] ليكون لهم من وراء ذلك ذكرى حسنة وصيت جميل .

فعل السلاطين ذلك ، على الرغم من اتساع الدولة،وكثرة دواوينها ،وتشابك أمورها وتشعبها ، ووفرة موظفيها ، وقيام قضاتها . فعلوا ذلك على الرغم من الفارق البعيد بينهم وبين السلف الصالح ، فى فقه الإسلام والعلم بأصول أحكامه .

ولهذا ، لم يجدوا بدا من اصطحاب القضاة أنفسهم معهم،إذا ما جلسوا بمجلس القضاء.ولهذا أيضا ، لم يجدوا بدا من أن لايواظبوا على هذه العادة الحميدة. فكان . جلوسهم للقضاء بين الناس متقطعا حسب المشيئة والهوى . بل من السلاطين من هجر هذه العادة ، ولم يجعلها من تقاليده . ومنهم من أناب عنه نائب سلطنته لأداء هذه المهمة .

ومن جلس من السلاطين للقضاء :السلطان الظاهر بيبرس ، والأشرف خليل ابن قلاوون [2] وأخوه الناصر محمد . ومن نواب السلطنة:الأمير عز الدين إيدمر

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٦ تحت عنوان « ذكر النظر فى المظالم »

(٢) عن سلوك المقريزى ج ١ ص ٥٠٣ ، ٧٧٢ ـ الخطط ج ٣ ص ٣٣٣ ، ٣٣٨

الحلى [١] ، عن الظاهر بيبرس ، والأمير سلار المنصورى عن الناصر بن قلاوون.

فإذا ما استوى أحدهم على منصة القضاء، قدمت إليه الخصومات على اختلاف أنواعها ، سواء أكانت جنائية أم مدنية ، أو من قضايا الأحوال الشخصية ، فيستشير فيها قضاة الشرع ، ويحكم بما يمليه عليه رأيه ، بعد هذه الاستشارة ، وهو لا يخرج عن الأخذ بها غالبا .

ومن الممتع أن نثبت هنا وصف جلوس السلطان للقضاء فى دار العدل . وكان للسلطان فيها منصة . قال السيوطى (٢) :

قال ابن فضل الله : « إذا جلس السلطان للمظالم ، جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر فى الحسبة ، ويجلس عن يساره كاتب السر وقدامه ناظر الجيش ، وجماعة من الموقعين، تكملة حلقة دائرة. وإن كان ثم وزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر . وإن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفا على بعد مع بقية أرباب الوظائف ، ويقف من وراء السلطان، صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية. ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعا ، من يمنة ويسرة، ذوو السن من أكابر أمراء المئين ، وهم أمراء المشورة . ويليهم من دونهم من أكابر الأمراء، وأرباب الوظائف وقوفا، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان ، الحجاب والداوادارية، لإحضار قصص الناس ، وإحضار المساكين ، وتقرأ عليه ، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلقا بالعسكر تحدث مع ناظر الخاص وكاتب السر فيه » .

---

(١) السلوك ج ١ ص ٥٥٠

(٢) عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٢ بعنوان « ذكر جلوس السلطان فى دار العدل للمظالم » وقد ورد نفس النص بيسير من التفصيل فى خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٩ تحت عنوان « ذكر خدمة الايوان المعروف بدار العدل » . وورد كذلك فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٤ تحت عنوان « هيئته فى جلوسه بدار العدل لخلاص المظالم » .

قال : « وهذا الجلوس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس ، إلا أن القضاة وكاتب السر لا يحضرون يوم الخميس » .

وقد عقب القلقشندى فى صبح الأعشى على ذلك بما يفهم منه أن تعديلا طفيفا دخل على هذا النظام ، وأهم ما فيه جلوس القاضى الشافعى والمالكى عن يمين السلطان ، والحنفى والحنبلى عن يساره (١)

ومما يذكر أن دار العدل بناها الظاهر بيبرس وجلس فيها للفصل فى الشكايات عام ٦٦٢ هـ ، وتعرف بدار العدل القديمة ، ثم هجرت حينا لما بنى المنصور قلاوون بدلا منها « الايوان » ، ثم هدمت جملة فى عهد ابنه الناصر محمد (٢) . وحل محلها « الإيوان » ، وجعله الناصر المذكور وجلس فيه للقضاء والنظر فى المظالم يومى الاثنين والخميس . واقتدى به أبناؤه من بعده . حتى ملك برقوق . فاستبدل به الاصطبل السلطانى يجلس فيه للحكم بين الناس يومى الأحد والأربعاء . ثم استبدل بهما السبت والثلاثاء وأضاف إليهما يوم الجمعة .

هذا وقد كان للسلطان وحده الحق فى مصادرة أملاك المتهمين كبارا وصغارا دون اللجوء إلى حكم قضائى . فإذا ما اتهم لديه إنسان ما ، من الأمراء أو المباشرين أو غيرهم ، أمر فورا ـ إذا أراد ـ بالقبض عليه والإحاطة بماله من مال وعقار ونحوهما ، وضمه إلى الخزائن الشريفة .. ولهذه الحالة أمثلة كثيرة لا عدد لها يراها القارىء فيما مر من سير رجال العصر .

وكان السلطان كذلك يتدخل فى أحكام قضاة الشرع أنفسهم ، ويعنفهم أحيانا إذا لم يقضوا بحكم يرضيه ـ ومن الأمثلة على ذلك ، مارواه ابن إياس (٣) فى سياق حديثه عن السلطان الغورى ، قال :

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٥ بالعنوان السابق .

(٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » ص ٣٣٥ تحت عنوان « الإيوان ص ٣٣٨ فى نهاية « ذكر النظر فى المظالم » .

(٣) البدائع ج ٤ حوادث صفر سنة ٩١٧ هـ .

« فى صفر - أى عام ٩١٧ هـ - صعد الخليفة إلى القلعة ليهنىء بالشهر ، وكذلك القضاة الأربعة . فحصل فى ذلك اليوم للقاضى شمس الدين الحلبى غاية المقت من السلطان ، وكاد يبطش به ، وسبب ذلك أنه حكم فى بعض الوقائع بما اعترض عليه فى ذلك ، فتغير خاطر السلطان عليه ، ولم يقبل له عذرا ، وحط على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين بن الطويل بسببه ، وكان مجلسا مهولا » .

ويبدو لنا أن السلطان كانت تقدم إليه القصص من جميع الأنواع ،حتى التافه منها ، فكثر عددها وأرهقته كثرتها ، حتى اضطر إلى تحويلها إلى المختصين . ويدلنا على ذلك ما رواه ابن إياس ، قال ما نصه (١) :

« وفيه - أى فى شهر ربيع الأول عام ٨٧٦ هـ - نودى من قبل السلطان بأن لا يشكو أحد أحداً للسلطان إلا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فإذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان . وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان حتى إن امرأة شكت زوجها لأجل أنه وطىء جارية فى ملكه ، فما أطاقت زوجته الغيرة ، وشكته للسلطان بقصة » .

حاجب الحجاب

قد أشرنا من قبل إلى شىء من اختصاص هذا الحاجب (٢) . ويعرف منصبه بالحجوبية ، ويعرف هو بحاجب الحجاب ، أو الحاجب الأكبر ، وذلك لأن له أعوانا يساعدونه فى أداء عمله . ويعتبر منصبه من أهم مناصب المملكة ، وقد لا يسمو عليه - من الناحية العملية - غير نائب السلطنة .

وقد أنشىء هذا المنصب ، ليشغله أحد أمراء الدولة العظماء . وكان عمله فى بادىء أمره الفصل فى الخصومات المدنية ، وفى جميع ضروب النزاع التى تقع بين

---

(١) البدائع ج ٢ ص ١٢٩ فى سياق ترجمة قايتباى ، وفى سنة ٨٧٦ هـ .

(٢) راجع ما ذكرناه عنه فى هذا الكتاب - وراجع مقدمة ابن خلدون ص ١٧٠ فى نهاية فصل فى مراتب الملك والسلطان وألقابهما .

الجنود المماليك لحسب ، فينصف ضعيفهم من قويهم ، ويضرب على يد ظالمهم لمظلومهم،ولم يتعد اختصاصه هذه الدائرة .

غير أن أحكامه لم تكن دائما مقتبسة من أحكام الدين الإسلامى ، بل كان يمزج فيها بين رأيه الشخصى وبعض القوانين السابقة المرعية عند أمم أخرى غير إسلامية مثل التتار القدماء .

وكان جنكيز خان القائم بدولة التتر فى بلاد الشرق ـ على مارواه المقريزى(١) قد قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه « ياسه » ونقشه فى صفائح من الفولاذ وجعله شريعة لقومه . فالتزموه بعده. وكان جنكيز خان لايتدين بشىء من أديان أهل الأرض . فصار « الياسه » حكما يتابق فى أعقابه لا يخرجون عن شىء من حكمه .

ومن جملة ما شرعه جنكيزخان فى « الياسه » ـ على رواه المقريزى كذلك ـ أن من زنى قتل ، ولم يفرق بين المحصن . وغير المحصن ومن لاط قتل ؛ ومن تعمد الكذب أوسحر أوتجسس على أحد ، أودخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر ، قتل . ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل . ومن أعطى بضاعة فخسر فيها ، فإنه يقتل بعد الثالثة . ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغيرإذنهم قتل . ومن وجد عبداً هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل . وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ، ثم يؤكل لحمه . وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح . . . . إلى غير ذلك من الأحكام .

وقد حرف أهل مصر كلمة « ياسه » إلى « سياسة » وأدخلوا عليها الألف واللام فصارت «السياسة» . ثم قال المقريزى عن ملوك مصر وأمرائها وعساكرها فى دولة المماليك ما نصه :

« وكانو إنما ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة

---

(١) راجع الخطط ج ٣ ص ٣٥٧ تحت عنوان « ذكر أحكام السياسة » .

المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد إلى الردىء وفوضوا لقاضى القضاة ، كل مايتعلق بالأمور الدينية ، من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية ، كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك .

واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادات جنكيز خان ، والاقتداء بحكم الياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم ، والأخذ على يد قويهم ؛ وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى « الياسه » .

وجعلوا إليه مع ذلك ، النظر فى قضايا الدواوين السلطانية ، عند الاختلاف فى أمور الإقطاعات ، لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب . وكانت من أجل القواعد وأفضلها ، حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأراضى ، فشرعوا فى الديوان ما لم يأذن به الله تعالى ، ليصير لهم فى ذلك سبيلا إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه .

وكان ـ مع ذلك ـ يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان فى معظم الأمور . هذا وستر الحياء يومئذ مسدول وظل العدل صاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهاب ، فلا يكاد أحد أن يزيغ عن الحق ، ولا يخرج عن قضية الحياء . إن لم يكن له وازع من دين ، كان له ناه من عقل . ثم تقلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور أنيابه وقلت المبالاة ، وذهب الحياء والحشمة من الناس ، حتى فعل من شاء ماشاء ، وتعدت ـ منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة ـ الحجاب ، وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى ، وتسلطوا على الناس » .

وكان أول حكم الحجاب ـ على ما رواه المقريزى أيضا ـ فى جمادى الأولى سنة ٧٤٦ هـ ، فى عهد الملك الكامل شعبان بن الناصر بن قلاوون . وأول الحجاب هو الأمير سيف الدين بيغوا . وجلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لكاتبة الولاة ونحوهم بالأعمال . وأقيم الأمير رسلان بصل ، حاجبا معه يعاونه .

وكان أول قضاء الحجاب بما فى « السياسة » من الأحكام عام ٧٥٣هـ . فى عهد الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون . إذ رسم للأمير سيف الدين جرجى الحاجب ، أن يتحدث فى أرباب الديوان ويفصل بينهم وبين غرمائهم ، وكان هذا من اختصاص قضاة الشرع .

وكان سبب ذلك ، أن تجارا من العجم شكوا إلى السلطان بدار العدل ـ إذ ذاك ـ أنهم ما خرجوا من بلادهم إلا لكثرة ما ظلمهم التتار ، وجاروا عليهم ، وأن التجار بالقاهرة اشتروا منهم عدة بضائع ، وأكلوا أثمانها . فأثبتوا أمام القاضى الحنفى إعسارهم وأودعوا سجنه . وقد أفلس بعضهم ولم يستفيدوا هم من وراء سجنهم شيئا . فرسم السلطان الصالح للأمير سيف الدين الحاجب بأن يخرج هؤلاء الغرماء من السجن ، وأن يعمل على استخلاص الديون منهم ، وأنكر السلطان على قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى الحنفى ما عمله ، ومنع من التحدث فى أمر التجار والمدينين .

فأخرج الحاجب غرماء التجار من السجن ، وعاقبهم ، حتى أخذ التجار أموالهم منهم شيئاً بعد شىء . قال المقريزى : « وتمكن الحجاب حينئذ من التحكم على الناس بما شاءوا » .

ويعد نقل اختصاص النظر فى الديون ، والفصل فيها بغير طريق الشرع ، تعديا على الشرع . ونزعا لاختصاص القاضى الشرعى ، وتضييقاً لنفوذه ، وإضافة للفصل بين الناس فى بعض منازعاتهم إلى الحاجب ، بعد أن كان عمله مقصورا على الجنود .

وقد تدخل الحجاب من بعد فى كثير من اختصاص قضاة الشرع . وصار للحاجب أعوان . وكان له من قوة نشأته وعظمة رتبته ، وقرب مكانته من السلطان معين على توسيع دائرة نفوذه ، واستشراء شره ، وضخامة اختصاصه . ومسعف على جمع المال والثراء على حساب المتنازعين .

هذا إلى أن كثيرا ما كان الأمراء الآخرون ، يتدخلون فى القضاء كأنما كانوا ـ إلى جوار أنهم سلطة تنفيذية ـ سلطة قضائية كذلك ، تفصل فى المنازعات ،

ولهم فى ذلك أعوان ونقباء . ومما يدلنا على ذلك ، ما رواه ابن إياس فى سياق تاريخ الغورى قال ما نصه :

« لما اشتد أمر الطاعون وفشا ، أمر ـ أى السلطان ـ الأمراء بأن يبطلوا النقباء من أبوابهم ، وألا أحد يشكو إلا من طريق الشرع الشريف » وقد فعل ذلك قربى إلى الله وزلفى ، حتى يدرأ البلاء عن البلاد .

ويبدو لنا أيضا أن بعض علماء الشرع ، ممن أهلتهم كفاءتهم العلمية للفتوى ، كانوا يتصدون للفصل فى المنازعات بين الناس ، وبين من يلجأ إليهم للفصل فى منازعاته ، وشبيه بهذا فى عصرنا الحديث ، المجالس العرفية التى يفصل فيها بعض ذوى الرأى من العلماء والأعيان ، ويسرى حكمهم على المتخاصمين . ويبدو لنا كذلك أن من بين قضاة الشرع من كان يتناول أجراً على قضائه ، ومنهم من كان يقضى بالمجان . ويفهم هذا من عبارات كثيرة ترد على ألسنة مؤرخى العصر ، ومن ذلك ما ذكره السخاوى فى الضوء اللامع ـ ج١ ص ٢٠ ـ فى ترجمة عز الدين الحنبلى وهو أحمد بن ابراهيم بن نصر الله . إذ قال فى سياقها ما نصه : « وصار يقضى فيما يقصد به فى بيته مجانا . ثم تركه جملة » أى ترك القضاء .

القضـــــاء الشرعى

اتبعت مصر فى عصر المماليك . كثيرا من النظم الإدارية التى كانت متبعة فى عصر الأيوبيين ، ومن بينها النظام القضائى . وقد أسس الأيوبيون دولتهم على أنقاض الدولة الفاطمية الشيعية ، وكانوا سنيين يتبعون المذهب الشافعى ؛ فعملوا على نشره فى البلاد ، وقضوا به فى الأحكام ، وجهدوا فى محو آثار المذهب الشيعى .

ويعتبر رجال الشافعية البلاد المصرية من مناطق نفوذهم ، فعودة قضائها إليهم فى عهد الأيوبيين إعطاء الأمور لأربابها ، ورجوع للمياه إلى مجاريها .

وكان القضاء ـ إذ ذاك ـ مقسما إلى دائرتين ، الأولى قضاء القاهرة والوجه البحرى ، والثانية قضاء مصر ـ الفسطاط ـ والوجه القبلى . ويعين فى كل دائرة

قاض واحد . وقد تجمع الدائرتان لقاض واحد (١) .

وقد جرى المماليك على هذا النظام فى أول عهدهم بالدولة ، فكان بالبلاد حينا قاضيان ، وحينا قاض واحد ، وهو نادر . وممن اجتمع له قضاء مصر كله بدر الدين السنجارى فى عهد المعز بن أيبك ، وتاج الدين بن بنت الأعز فى عهد الظاهر بيبرس . ثم تعدد القضاة كما سيأتى .

والقاضى فى دائرته هو المتصرف الوحيد فى شئون القضاء ، وتعرض عليه جميع القضايا على اختلاف أنواعها سواء أكانت جنائية أم مدنية أو زوجية . ويدخل فى اختصاصه النظر فى عقود الزواج والبيع والإجارة والوصية ونظر الأوقاف ورعاية بيت المال ، والعناية بشئون الصلاة والزكاة والصوم ، وما إلى ذلك من شئون الدين (٢) . وهو يقضى فى كل أولئك حسبما يرتئيه فقهه وعلمه وذكاؤه .

ويبدو لنا أن القاضى ـ حينذاك وقبل عام ٦٦٣ هـ ـ كان إليه الفصل فى جميع قضايا دائرته مما يدخل فى اختصاصه ، وليس له من الأعوان إلا من دعت إليهم الضرورة ، بغير تدخل من أحد هؤلاء الأعوان فى شئون القضاء . ومع ذلك كان القاضى يلقب بقاضى القضاة . ولعله نظر فى ذلك إلى نوابه .

يفهم ذلك من عبارات المؤرخين ونعوتهم للقضاة قبل عام ٦٦٣ هـ ، فمثلا قال المقريزى فى سلوكه ـ ج ١ ص ٤٤٨ ـ مانصه « فى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى فوض قضاء القضاة بديار مصر للقاضى تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز خلف ، المعروف بابن بنت الأعز » . وقال فى ص ٤٧٢ « وفى ثالث رمضان عزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى ، وذلك كان عام ٦٦٠ هـ .

(١) فى ابن إياس ج ١ ص ١٠٣ أنه كان فى الدول المتقدمة قاض فرد كبير شافعى — وفى صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ أن الأمر فى الأول كان مقصورا على قاض واحد بالديار المصرية من أى مذهب كان.

(٢) راجع ماسبق فى حاجب الحجاب ، والخطط ج ٢ ص ٢٠٧ تحت عنوان « ذكر أحكام السياسة » وصبح الأعشى ج ٤ ص ٣٤ .

غير أنه لما ولى تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، قضاء الديار المصرية جميعها ، وكان متشددا فى أحكامه — ومن شأن هذا التشدد أن يوجه الأحكام وجهة خاصة ، أو أن يؤجل وقت الفصل فيها أو يوغر صدر البعض ممن لا يستريح إلى الفصل بمذهب الشافعى ، أو نحو ذلك - رأى السلطان الظاهر بيبرس فى عام ٦٦٠ هـ أن يستنيب القاضى تاج الدين بن بنت الأعز عنه ثلاثة قضاة ، واحدا من كل مذهب . وقد قال المقريزى فى ذلك مايلى بالنص (١) .

« وفى ثالث شهر رمضان - أى عام ٦٦٠ هـ - عزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى ، عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وأعاد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . فصار بيده قضاء القضاة بديار مصر كلها . وكان متشددا فى أحكامه ، فرسم له فى ذى القعدة أن يستنيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، فاستنابهم فى الحكم عنه ، ولم يعرف ذلك بمصر قبل هذا الوقت . فجلس القاضى صدر الدين سليمان الحنفى ، والقاضى شرف الدين السبكى المالكى ، والقاضى شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلى ، فى أول ذى القعدة ، وحكموا بين الناس بمذاهبهم » .

ويفهم من ذلك أن قاضى القضاة تاج الدين ، إستناب ثلاثة قضاة من المذاهب الثلاثة الأخرى غير مذهبه . ولم يستنب شافعيا . وأن كلا منهم يسمى « نائب حكم » . غير أن المقريزى عاد فى موضع آخر ، فقال مانصه (٢) :

« وفيها - أى فى سنة ٦٦٠ هـ - أمر بتنصيب أربعة قضاة نوابا لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، فاستناب حنفيا ومالكيا وشافعيا . ولم يجد من يستنيبه من الحنابلة ، فولى عاقدا حنبليا » .

ويفهم من ذلك أن قاضى القضاة استناب أربعة لا ثلاثة ، وأن بينهم قاضيا شافعيا ، وأن رابعهم الحنبلى كان عاقدا لا نائبا ، والعاقد أقل مرتبة من القاضى .

---

(١) السلوك ج ١ ص ٤٧٢ .
(٢) السلوك ج ١ ص ٥٠١

وهو الذى يتولى تحرير العقود ، كالبيع والأنكحة .

وذكر السبكى فى طبقاته ، ونقل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة [١] مايوافق المقريزى فى نصه الأول ، حيث قال :

« سئل تاج الدين ـ أى ابن بنت الأعز ـ فى أمر ، فامتنع من الدخول فيه ، فقيل له : مر نائبك الحنفى ، وكان القاضى وهو الشافعى ، يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة فامتنع من ذلك أيضا » .

ومهما يكن من شىء ، فقد أناب قاضى القضاة عنه نوابا يحكمون بمذاهبهم ، وكان ذلك منذ عام ٦٦٠ هـ . فكان هذا الحادث تمهيدا للحادث الأكبر التالى وهو تعدد القضاة .

ولعل بعض فقهاء المذاهب الثلاثة ـ عدا الشافعى ـ كان بهم تطلع إلى القضاء ومناصبه ، وبنفسهم شىء من استئثار فقهاء الشافعية بها . ومن لطيف ما نسوقه بهذه المناسبة ، ما رواه المقريزى فى مطلع عام ٦٦٢ هـ . حيث قال ما نصه [٢] .

« استفتح السلطان هذه السنة بالجلوس فى دار العدل ، فأحضرت إليه ورقة مختومة مع خادم أسود ، تتضمن مرافعة [٣] فى شمس الدين شيخ الحنابلة ، أنه يبغض السلطان ويتمنى زوال دولته ، لأنه ماجعل للحنابلة نصيبا فى المدرسة التى أنشأها بجوار قبة الملك الصالح ، ولا ولى حنبليا قاضيا . وذكر أشياء فادحة فيه ، فبعث السلطان بها إلى الشيخ ، فأقسم أنه ما جرى منه شىء ، وإنما هـذا الخادم طرده من خدمته . فقال له السلطان : « ولو شتمتنى أنت فى حل » . وأمر فضرب الخادم مائة عصا » .

هذا وقد لبث نظام النواب الثلاثة أو الأربعة مرعيا ، حتى كانت سنة ٦٦٣ هـ ، فتعدد فيها القضاة .

---

(١) الطبقات جـ ٥ ص ١٣٤ حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١١ .

(٢) السلوك جـ ١ ص ٣ ٥ ، والخطط ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » .

(٣) المرافعة الشكوى وإقامة الدعوى .

تعدد القضاة

كان نظام النواب تمهيدا واضحا لتعدد القضاة ، وقد أدى إلى الحادثين معا ، ما نسب إلى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز من شدة فى أحكامه ، ومن امتناعه ، حينا عن الفصل إلا بمذهبه ، وحينا عن أن يأمر أحد نوابه للفصل فى بعض المسائل بمذهبه . وكثير من الناس من يغص بمثل موقف هـــذا القاضى المتشدد النزيه ، وتقف شدته ونزاهته حينا عقبة فى سبيل تنفيذ بعض الرغبات ، وتلبيتها . ثم لعل هذه الرغبات تجد ملبيا لها ومنفذا ومتسعا فى المذاهب الأخرى، غير الشافعى . ثم إن هذا القاضى كان لا يقبل شهادة كبار الأمراء [١] . ولعله كان فى ريبة من أمر عتقهم ،

ولقد حنق بعض الأمراء فعلا ، على القاضى المذكور ، فوسوسوا إلى السلطان الظاهر بيبرس أن يعدد القضاة ، وأن يقيم من كل مذهب قاضيا ، يحكم بين الناس بأحكام مذهبه .

ويروى فى هذا المقام ، القصة التالية . وهى من الأسباب المباشرة التى أدت إلى هذا التعدد [٢] ، قال المقريزى فى السلوك :

« كان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، يكره قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . ويضع من قدره ، ويحط عليه عند السلطان بسبب تشدده فى الأحكام وتوقفه فى القضايا التى لا توافق مذهبه . فاتفق جلوس السلطان بدار العدل فى يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجة ـ أى عام ٦٦٣ هـ ـ فرفع إليه بنات الملك الناصر قصة ، فيها أن ورثة الناصر اشتروا دار قاضى القضاة

---

(١) يفهم هذا من الرواية التالية ، ومما رواه السيوطى أيضا فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ ، والسبكى فى الطبقات ج ٥ ص ١٣٥ .

(٢) رواها المقريزى فى سلوكه ج١ ص ٥٣٩ ـ وذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى ج٤ ص٣٤ ، ناقلا عن نهاية الأرب للنويرى .

بدر الدين السنجارى فى حياته ، فلما مات ذكر ورثته أنها وقف ، فعندما قرئت ، أخذ الأمير أيدغدى يحط على الفقهاء وينقصهم ، فقال السلطان للقاضى تاج الدين : « ياقاضى ! هكذا تكون القضاة ؟ » . فقال تاج الدين : « يا مولانا ! كل شاة معلقة بعرقوبها » . قال : « فكيف الحال فى هذا ؟ » قال : « إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان : فإذا لم يكن مع الورثة شيء ؟ » .

قال القاضى : « يرجع الوقف إلى أصله ، ولا يستعاد الثمن » . فغضب السلطان من ذلك . »

وما تم الكلام ، حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال : « يامولانا السلطان ! سألت هذا القاضى أن يسلم إلى مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده ، لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها ، فلم يفعل . » . فسأل السلطان القاضى عما قاله ، فقال : « نعم » . قال السلطان : « أنا أمرته بذلك . فكيف رددت أمرى ؟ » . قال : « يامولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه . ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه . ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته . فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه » . فقال السلطان : « تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى » ؟ قال « نعم » . قال السلطان : « لا تدفعه إلا لمن نختاره » .

ثم تقدم بعض الأمراء وقال : شهدت عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته » ، فسأل السلطان القاضى عن ذلك فقال : « ماشهد أحد عندى حتى أثبته . » فقال الأمير : « إذا لم تسمع قولى فمن تريد ؟ » . قال السلطان : « لم لا سمعت قوله » ؟ فقال : « لاحاجة فى ذكر ذلك » .

فقال الأمير أيدغدى : « يا قاضى ! مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضيا » . فصغى السلطان لقول أيدغدى ، وانفض المجلس » .

« إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشره ، ولى السلطان القاضى صدر الدين سليمان ابن أبى العز بن وهيب الأذرعى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية . والقاضى

شرف الدين عمر بن عبدالله بن صالح بن عيسى بن عبدالملك بن موسى . . . السبكى المالكى . والقاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى ، ليكونوا قضاة القضاة بديار مصر . وجعل السلطان لهم أن يولوا فى سائر الأعمال المصرية ، مضافا لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز . وأبقى على ابن بنت الأعز النظر فى مال الأيتام والمحاكات المختصة ببيت المال . وكتب لكل منهم تقليداً ، وخلع عليه . فصار بديار مصر قضاة القضاة من حينئذ أربعة ، يحكم كل منهم بمذهبه » .

ويستنبط من هذا النص جملة أمور :

الأول : أن القضاء تعدد فى عصر الظاهر بيبرس ، وصار بمصر أربعة قضاة ، واحد من كل مذهب ، يحكم بأحكام مذهبه . غير أنه بما رواه السيوطى فى حسن المحاضرة[1] يفهم أن القضاء تعدد مرة أخرى قبل عصر بيبرس . وقد قال ما نصه :

« قال ابن ميسر فى تاريخ مصر : « فى سنة خمسة وعشرين وخمسمائة ، رتب أبو أحمد بن الأفضل فى الحكم أربعة قضاة ، يحكم كل قاض بمذهبه ، ويورث بمذهبه . فكان قاضى الشافعية سلطان بن رشا ، وقاضى الملكية أبا محمد عبد المولى ابن اللبنى، وقاضى الإسماعيلية أبا الفضل بن الأزرق ، وقاضى الإمامية ابن أبى كامل، ولم يسمع بمثل هذا . وقال ابن ميسر : « وقد تجدد فى عصرنا هذا الذى نحن فيه أربع قضاة على الأربع مذاهب » .

هذا وعلى الرغم من فرض نظام التعدد ، ومن أنه صار لكل مذهب قاضى قضاة فى البلاد ، ينيب عنه فى الأحكام ، ورد فى بعض النصوص ما يشعر بأن السلطان قد يعين قاضى قضاة شافعيا للقاهرة والوجه البحرى، وقاضى قضاة شافعيا آخر لمصر والوجه القبلى فى وقت واحد ، على نمط ما كان متبعاً فى أول العصر إلى جانب قضاة القضاة الثلاثة الآخرين . وفى هذه الحالة قد يكون قاضى قضاة

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ باب ذكر قضاة مصر .

القاهرة والوجه البحرى مقدماً فى مجلس السلطان وفى الجلوس بدار العـــدل ، على زميله .

ومن تلك النصوص ما رواه المقريزى فى سلوكه (١) حيث قال ما ملخصه فى مطلع حوادث سنة ٦٨٦ هـ : « فى يوم الأحد نصف المحرم استقر برهان الدين خضر السنجارى فى قضاء القـــاهرة والوجه البحرى عوضا عن قاضى القضاة شهاب الدين محمد بن أحمد الخوبى .. فنزل السنجارى من القلعة ، وجلس للحكم فى المدرسة المنصورية بين القصرين ، ورسم له أن يجلس فى دار العدل فوق قاضى القضاة تقى الدين بن بنت الأعز ، فشق ذلك على ابن بنت الأعز ، وسعى أن يعفى من حضور دار العدل . فلم يشعر إلا وقد مات البرهان السنجارى فجأة . . فاستقر ابن بنت الأعز فى قضاء القاهرة وجمع له بين قضاء البلدين » .

الثانى : أن نظام التعدد بدأ يوم الاثنين ١٩ من ذى الحجة عام ٦٦٣ هـ ، ويوافق هذه الرواية فى تحديد العام القلقشندى فى صبح الأعشى « ج٤ ص ٣٥ » والسيوطى فى حسن المحاضرة « ج ٢ ص ١١٣ » ، وابن الوردى فى تتمة المختصر . وروى ابن إياس « ج ١ ص ١٠٣ حوادث عام ٦٦٠ هـ » ، أن هذا النظام كان فى أواخر عام ٦٦٠ هـ .

الثالث : أنه ـ على الرغم من التعدد ـ ظل قاضى قضاة الشافعية ممتازا على سائر زملائه ، وكان يقدم عليهم فى مناسبات كثيرة كالمبايعات والخطابة فى الاستسقاء ، وبقى له النظر فى مال الأيتام والمحاكات المختصة ببيت المال . وقد روى السبكى فى طبقاته بهذا الصدد مانصه ، قال (٢) : « وأما الظاهر فقلد الشافعى يوم ولاية السلطنة ثم لما ضم القضاة إلى الشافعية استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة البر والأيتام ، وجعلهم الأرفعين » . وهذه العبارة أوضح من عبارة المقريزى ،

---

(١) سلوك المقريزى ج ١ ص ٧٣٤

(٢) الطبقات جـ ٥ ص ١٣٥ فى ترجمة تاج الدين بن بنت الأعز . ونقــل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٢

وتبين أن اختصاص القاضى الشافعى كان أوسع ، وكان يضم ـ فيما يضم ـ الحق فى تعيين نواب الحكم دون بقية زملائه. وهذا الحق غير واضح فى عبارة المقريزى بل فيها ما يوهم نقيضه حيث قال : « وجعل السلطان لهم أن يولوا فى سائر الأعمال المصرية مضافا لقاضى القضاة تاج الدين . . » . فعبارته مع اضطرابها توحى بأن السلطان جعل للقضاة الثلاثة ـ مع الشافعى ـ الحق فى تعيين نواب حكم ينوبون عنهم فى الأحكام فى سائر الأعمال المصرية .

وقد وضح القلقشندى [1] هذا الحق وحده بما يناقض رواية السبكى بعض المناقضة حيث قال: « وجعل ـ أى السلطان ـ لهم الأربعة أن يولوا النواب بأعمال الديار المصرية ، وأفرد القاضى تاج الدين بالنظر فى مال الأيتام والأوقاف وكتب له بذلك تقليد [2] من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر ، أوله : « الحمد لله مجرد سيف الحق على من اعتدى » . ثم كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ، ونصب النواب وإجلاس الشهود . ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب بنواحى الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه غيره » . ويفهم منه أن القضاة ينيبون عنهم نوابا فى القاهرة والفسطاط فقط ، ويمتاز الشافعى بتعيين نواب له فى الوجهين دونهم .

ومهما يكن من شىء ، فهذا كله يشعر بأن القاضى الشافعى احتفظ له بكثير من مكانته واختصاصه .

هذا ، وقد طبق هذا النظام فى قضاء دمشق فى عام ٦٦٤ هـ ، فى شهر المحرم. إذ أرسلت فى الشهر المذكور تقاليد بتولية كل من شمس الدين عبد الله محمد بن عطا قضاء الحنيفة ، وزين الدين أبى محمد عبد السلام بن على بن عمر الزواوى قضاء المالكية ، وشمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبى عمر محمد بن قدامة قضاء الحنابلة ، وكان بها شمس الدين أحمد بن خلكان قاضى قضاة ، وكان شافعيا فلبث فى قضاء الشافعية .

---

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦

(٢) التقليد هو مكاتبة رسمية على لسان السلطان موجهة إلى القاضى يقلده فيها أعماله .

ومما رواه المقريزى أنه لما وردت التقاليد إلى دمشق لم يقبل المالكى ولا الحنبلى، وقيل الحنفى . فورد مرسوم السلطان بإلزامهما بالقبول أو أخذ ما بأيديهما من الوظائف إن لم يقبلا . فأجابا . . . ! ثم أصبح المالكى وعزل نفسه عن القضاء والوظائف ، فورد المرسوم بإلزامه ، فأجاب . . . وامتنع هو والحنبلى من تناول جامكية على القضاء .

ويبدو أن هذا الأخذ والرد استغرق زمنا . إذ ذكر المقريزى أن استقلالهم بالقضاء كان فى ٦ جمادى الأولى[١] .

محاسن التعدد ومساوئه

هكذا تعددت القضاة فى مصر ودمشق ، وأصبح لأصحاب المظالم والقصص الحق فى عرضها على أى القضاة يختارون ، ويتحاكمون بذلك إلى المذهب الذى يرتضون ، وفى ذلك من التوسعة وحرية التقاضى مافيه ، ويمكن بهذا التعدد حل مشاكل عدة كان يصعب حلها حلا مناسبا للظروف والملابسات ، لو اقتصر الأمر على مذهب واحد ، وبدهى أن أقل مايقال فى مزايا هذا التعدد أنه أضاف مواد قانونية جديدة متنوعة إلى مواد القانون المقضى به ، فاتسع بذلك مجال الفتوى والرأى . وكل مذهب من هذه المذاهب الشرعية ، يستقى من معين واحد ، هو كتاب الله وسنة نبيه ، جهد فيه أصحابه وجاهدوا ، وقلبوا الرأى على وجوهه ، حتى استقام لهم ، وبثوا تعاليمهم فى أماكن كثيرة ، فارتضى المسلمون منهم ذلك وأجمعوا على أن مذاهبهم خير ما استنبط من الكتاب والسنة . فلا غضاضة على الشافعية ، من أن يشركهم الحنفية أو غيرهم من فقهاء أهل السنة فى القضاء ، لأن الغرض الأول من القانون تيسير القضاء وتحقيق العدالة ، ورعاية المصالح العامة والخاصة بما يوافق الحق ، فإذا تعددت مواده ، بغير تناقض فى الباطن بينها ، استطاع القاضى أن يجد خلالها من الأحكام مايتمشى وملابسات القضية واستطاع

---

(١) السلوك ج ١ ص ٥٤٢ حوادث عام ٦٦٤ هـ

المتقاضيان ، أن يجدا متسعا لتحقيق ما ينشدانه من عدالة . واستطاعت المصلحة أن تتحقق وترعى بوجه من الوجوه .

وقد حدث فى سنة ٦٦٥ هـ ، أى بعد أن تعدد القضاء بزمن وجيز ، أن أصلح الأمير عز الدين إيدمر الحلى ، الجامع الأزهر ، بعد أن استأذن السلطان الظاهر بيبرس فى ذلك. فلما تم إصلاحه ، اختلف الناس فى صحة إقامة صلاة الجمعة فيه . — وكانت الجمعة وخطبتها قد أبطلتا فيه منذ عهد الأيوبيين — فعارض فى إقامة الصلاة قاضى قضاة الشافعية ، وهو تاج الدين بن بنت الأعز ، أيضا . وأفتى قاضى قضاة الحنفية بجواز إقامتها . فحل المشكل ، واجتمع فى الجامع الأزهر خلق كثير يوم الجمعة ١٨ ربيع الآخر فى السنة المذكورة ، وأقيمت بهم صلاة الجمعة ، ولم يكتفوا بإقامتها فى جامع الحاكم . وظل الأمر كذلك حتى اليوم .

على أن هذا التعدد كانت له ـ إلى جانب ذلك ـ مساوىء . لأنه يمهد الطريق أمام أرباب القضايا، ليتحيلوا لبلوغ مآربهم . يهجرون قاضيا إلى آخر، ويستبدلون مذهبا بسواه ، متى وجدوا فى ذلك إربتهم . وقد ينجم من وراء هـــذا التحيل والاستبدال اتساع الخلاف بين المتخاصمين ، واضطرابهم بين جهات الاختصاص. ثم إن فى تعدد القضاء فى البلد الواحد مظهرا للتفريق بين بنيه ، وأداة له ، وتهيئة لإثارة الفتن والخلاف بين الفقهاء .

ومهما يكن من شىء فقد سرى العمل بهذا النظام طول عصر المماليك .حتى وحده الأتراك والعثمانيون بعد فتح مصر . واتخذوا المذهب الحنفى مذهبا لهم يقضون به، وألغوا نظام القضاة الأربعة ، وجعلوا بالبلاد قاضيا واحدا من الأحناف .

وقد ذكرنا أن قاضى قضاة الشافعية ، كان أرفع القضاة منزلة ، وأكثرهم اختصاصا . وهو المقدم على زملائه ، وأقربهم إلى السلطان مجلسا . هذا إلا إذا اختص السلطان قاضيا آخر بصحبته ومودته . كالأشرف الغورى فإنه اختص قاضى قضاة الحنفية سرى الدين عبد البر بن الشحنة بمودته، فكان أكثر مجالسة له وأقرب إليه حديثا . ومثل هذا نادر .

شعور الشافعية نحو تعدد القضاة

كان يقضى فى البلاد بمذهب الإمام الشافعى قبل عصر المماليك وبخاصة فى عصر الأيوبيين ، وتلك نتيجة طبيعية لانتشار هذا المذهب فيها أكثر من غيره ، ولاعتناق الأيوبيين له ، وهم سلاطين البلاد وأمراؤها .

وقد أشرنا تلميحا من قبل،إلى ما قد يكون فى نفوس فقهاء المذاهب الأخرى، من قصر القضاء على الشافعية . ونشير هنا إلى شعور الشافعية أنفسهم نحو القضاء. وكأنما يقسم أئمة المذاهب بلاد المسلمين فيما بين مذاهبهم ، فكل مذهب يختص بمصر دون آخر . وكان نصيب المذهب الشافعى أن اختص بالديار المصرية ، وتوطنها ، واتخذها منطقة نفوذ ، لا يصح أن يجور عليه فيها مذهب آخر . وذلك لأن الإمام الشافعى نفسه قد اتخذ هذه البلاد موطنا، وفيها نشر مذهبه الأخير،وكثرت بها تلاميذه ، وتوالى فيها الأئمة المجتهدون على مذهبه . فكأنما صار من حق هذا المذهب أن يحتفظ لنفسه بهذه البلاد دون سواه من المذاهب الأخرى . وهى إذا عاشت معه فى ربوعها ، فإنما عيش الجار لا صاحب الدار ..

هذا هو الشعور الذى ساد رجال الشافعية فى الديار المصرية ، ورأوا أن من حقهم الطبيعى أن يكونوا وحدهم قضاتها . فلما تعدد القضاة منذ عصر بيبرس ، وأصبحت المذاهب الثلاثة الأخرى ورجالها ، شريكة المذهب الشافعى ورجاله ، فيه ، وجد رجال الشافعية فى أنفسهم ، ولم يبد منهم هذا الوجد صراحة ، بل لمحوا إليه تلميحاً لا يخفى عن اللبيب .

ونسوق هنا بعض أقاويلهم فى هذا الشأن،ومنها يتضح لنا صدق ما ذكرناه . قال السبكى فى طبقاته (١) ونقل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة ـ ما يلى :

« وفى أيامه ـ أى أيام القاضى تاج الدين بن بنت الأعز ـ جدد الملك الظاهر القضاة الثلاثة فى القاهرة ، ثم تبعتها دمشق . وكان سبب ذلك أنه سئل تاج الدين فى أمر فامتنع من الدخول فيه . فقيل له: « مر نائبك الحنفى » ـ وكان القاضى وهو

(١) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٤ فى سياق ترجمة تاج الدين بن بنت الأعز .

الشافعى ، يستنيب من شاء من المذاهب الثلاثة ـ فامتنع من ذلك أيضا . فجرى ماجرى . ، وكان الأمر متمحصا للشافعية ، فلا يعرف أن غيرهم حكم فى الديار المصرية،منذ وليها أبوزرعة محمد بن عثمان الدمشقى،فى سنة ٢٨٤هـ ، إلى زمان الظاهر ، إلا أن يكون نائب يستنيبه بعض قضاة الشافعية ، فى جزئية خاصة . وكذا دمشق ، لم يلها بعد أبى زرعة المشار إليه ـ فإنه وليها أيضاً ـ ولم يلها بعده إلا شافعى ، غير التلاشاعونى التركى الذى وليها يوميات . وأراد أن يجدد فى جامع بنى أمية إماما حنفيا ، فأغلق أهل دمشق الجامع ، وعزل القاضى . واستمر جامع بنى أمية فى يد الشافعية ، كما كان فى زمن الشافعى – رضى الله عنه – ولم يكن يلى قضاء الشام والخطابة والإمامة بجامع بنى أمية ، إلا من يكون على مذهبَ الأوزاعى ، إلى أن انتشر مذهب الشافعى ، فصار لا يلى ذلك إلا الشافعية » . وقال أيضا :

« وقال أهل التجربة إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية ، متى كان اليد فيها لغير الشافعية خربت . . . ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعى زالت دولته سريعا ،.. وكأن هذا السر جعله الله فى هذه البلاد ، كما جعله لمالك فى بلاد المغرب ، ولأبى حنيفة فيما وراء النهر . » وقال أيضا :

« سمعت الشيخ الإمام – يعنى أباه تقى الدين السبكى – يقول – : « سمعت صدر الدين بن المرحل – رحمه الله – يقول : ماجلس على كرسى ملك مصر غير شافعى إلا وقتل سريعاً » . وهذا الأمر يظهر بالتجربة. فلا يعرف غير شافعى إلا قطز – رحمه الله – كان حنفيا،ومكث يسيرا وقتل . وأما الظاهر فقلد الشافعى يوم ولايته السلطنة . » . وقال أيضاعن بيبرس بمناسبة أنه عدد القضاء ما نصه :

قيل إنه ندم ، وقال : « أندم على ثلاث : ضم غير الشافعية إليهم . والعبور بالجيوش إلى الفرات ، وعمارة القصر الأبلق بدمشق » .

« وحكى أن الظاهر رأى الشافعى فى النوم ، لما ضم إلى مذهبه بقية المذاهب ، وهو يقول : « تهين مذهبي ؟ البلاد لى أو لك ؟ أنا قد عزلتك وعزلت ذريتك

إلى يوم القيامة » . فلم يمكث إلا يسيرا ومات . ولم يمكث ولده السعيد إلا يسيرا ، وزالت دولته ، وذريته إلى الآن فقراء » . وقال أيضا عن بيبرس :

« وقد حكى أنه رؤى بعد ذلك فى النوم . فقيل : ما فعل الله بك؟ قال : عذبنى عذابا شديدا بجعل القضاة أربعة . وقيل : « فرقت كلمة المسلمين » .. إلى غير ذلك .

ولسنا بحاجة إلى رد هذه الأوهام . فقد تمذهب الحكم فى البلاد بمذهب أبى حنيفة منذ فتحها العثمانيون . وتمذهب حكامها بهذا المذهب ولم يصب أحد منهم بما وقع فى حدس رجال الشافعية . ثم إننا لا نرى غضاضة على الشافعية أن يشركهم فى القضاء رجال المذاهب الأخرى ، مادامت وجهة الجميع العدالة والمصلحة الحق لا المناصب والحكم .

تعيين القضاة وعزلهم

كان تعيين القضاة الأربعة منوطا بإرادة السلطان وحده . وقد يشير عليه أحد خاصته بتعيين قاض ، ولكن مرد الأمر إليه ، وهذا جميل غير أنه ـ مع الأسف ـ كانت مناصب القضاء ـ وكثير غيرها من المناصب ـ يسعى إليها طالبوها بالمال للوسطاء ، بل ومنه ما يدفع للوسيط يتوسط للطالب بين يدى السلطان ، ومنه ما يدفع للسلطان نفسه . فكان هذا بمثابة رشوة تقدم للوسيط وللسلطان معاً ثمنا للوظيفة ، وكان هذا فى جملة أسباب الفساد المنتشرة فى ذلك العصر .

وقد يعجب المرء ـ وقد يشك ـ فى أن يسعى قضاة الشرع إلى الوظيفة بالمال ، ولكن هذه هى الحقيقة ، غير أنه ليس معنى ذلك أن كل قاض كان يعين بعد أن يدفع مالا ورشوة ، بل إن من القضاة من عف عن القضاء ـ كما سيأتى ـ ومنهم من سعى إلى الوظيفة بالمال ، بل وكان السلطان نفسه فى بعض الأحيان يرسل إلى أحد العلماء يراوده عن الوظيفة ويساومه فى قبولها لقاء مال يدفعه . والأمثلة على الرشوة موفورة بارزة فى تراجم بعض القضاة . وقد روى أن قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، سعى إلى منصبه عدة مرات ، وفى كل مرة كان يبذل آلافا من الدنانير ، ولا يكاد يتربع فى دست منصبه شهوراً حتى يعزل فيعاود مسعاه . وقد قال عنه ابن إياس ما مؤداه : أنه كان فى كل مرة يسعى جاهدا إلى العودة لهذا المنصب

على الرغم من وجود قاض يشغله ... فيبذل المال الوفير للسلطان وللوسطاء حتى يصل إلى مبتغاه ، وبلغ مجموع مادفعه نحوا من ثلاثين ألف دينار .

ومثل ابن النقيب ، القاضى برهان الدين الديرى . قيل : دفع فى سبيل الوظيفة خمسة آلاف دينار . والقاضى بدر الدين المكينى ، قيل : سعى بنحو ثلاثة آلاف دينار[1] .

وروى ابن إياس[2] قال : توفى القاضى شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السوسى المالكى المغربى قاضى قضاة المالكية بدمشق . وولى قضاء الإسكندرية . وكان من أهل العلم والفضل ، وجرت عليه أمور شتى ، وأذهب أموالا جمة على وظيفة القضاء » .

وقد استشرى أمر الرشوة على الوظائف – ومنها وظائف القضاء – مما يدفع للوسطاء أو للسلطان ، فى أواخر دولة الجراكسة ، حتى إنه حدث فى عهد الأشرف الغورى عام ٩١٩ ﻫ ، حادثة[3] رائعة اتهم فيها أحد نواب الشافعية بالزنا ، واعترف بجريمته ثم رجع عن اعترافه . وقد اختلف فى الحكم فيها قضاة القضاة الأربعة ، مع السلطان ، وخالفوا رأيه ، فعزلهم جميعا بعد مشادة عنيفة . وبقيت مصر بلا قضاة خمسة أيام عطلت فيها الأحكام ، ثم عين السلطان مكانهم أربعة قضاة آخرين دون أن يسعوا إلى المناصب بشىء من المال ، فعد ابن إياس هذا التعيين فذا فى بابه ، وقال إنه كان من المستطاع أن تظفر الخزائن السلطانية بنحو عشرة آلاف دينار من وراء هذا التعيين[4] .

وروى السيوطى[5] أن الأشرف قايتباى لم يول قاضيا ولا شيخا بمال قط

(١) انظر تراجم هؤلاء القضاة فى الباب التالى وهو باب القضاة .

(٢) البدائع جـ ٢ ص ١١٤ فى حوادث ربيع الآخر عام ٨٧٤ ﻫ .

(٣) اقرأ تفصيل هذه الحادثة فى باب قصص هذا العصر ونوادره فى هذا القسم من الكتاب وفى غيره.

(٤) راجع ابن اياس فى جـ ٤ حوادث عام ٩١٩ ﻫ شهر شوال وذى القعدة .

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤٢ عند الكلام عن المستنجد بالله العباسى مستطردا إلى ذكر الأشرف قايتباى .

ويشعرنا هذا بأن التعيين بالمال كأنما كان قاعدة . ثم شذ عنها قايتباى .

غير أن المال الذى يسعى به لم يكن محدودا ، بل أمره موكول إلى همة الطالب ... ثم إن المدة التى يقضيها القاضى فى منصبه ـ لقاء مال ـ لم تكن محدودة كذلك ، ولم يكن له من الضمانات مايكفلها ، فقد يدأب فى السعى إليه ويدفع مايدفع ، ثم يعين فيه ولا يلبث فى دسته غير قليل ، ثم يعزل .

ويختار القضاة عادة من أبرز فقهاء كل مذهب . وممن اشتهروا فيه بالفضل : ولذلك ترى تاريخ قضاة مصر فى تلك الحقبة يضم نخبة صالحة من رجال العلم والفقه ، ومنهم من برز فى أكثر من ميدان . ويندر أن يختار قاض ليس فى الصف الأول من رجال مذهبه . وقد اختير القاضى حسام الدين بن حريز لقضاء المالكية عام ٨٦١ هـ ، وكان بين رجال مذهبه من هو أكفأ منه . فكان ذلك مثارا لنقد ابن إياس حيث، قال فيه مامؤداه : إنه كان بين المالكية من يعتبر أكفأ منه وأولى بمنصب القضاء ولكنه أسعده حظه » .

وقد ينتقل القاضى من قضاء دمشق إلى قضاء الديار المصرية أو العكس ، وقد يجمع له بين القضاءين ، وهذا نادر . وقد اجتمع للقاضى شهاب الدين بن فرفور الشافعى . وقد ينتقل أيضا من قضاء القدس أو غيرها من النيابات إلى قضاء مصر . وكثيرا مايكون قضاء دمشق وغيرها مرشحا لقضاء مصر . وبهذه المناسبة نذكر واقعة لها مغزاها . وهى أنه لما وقع الجفاء بين قاضى قضاة الشافعية بمصر تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز ، وبين الوزير ابن السلعوس ، وأدى ذلك إلى عزله من القضاء ، أراد السلطان الأشرف خليل أن يختار قاضيا من رجال الشافعية بالديار المصرية عوضا عنه . فسألهم واحداً واحداً ، كلا منهم على انفراد ، عمن يصلح من بينهم لولاية القضاء ، فلم يجد من بينهم إلا من ذم زميله وأهل مذهبه ، ورماهم بما لا يليق[1] . فوقع الاختيار على بدر الدين بن جماعة قاضى القدس وخطيبها .

---

(١) عن السلوك جـ ١ ص ٧٧١

وقد ينتقل القاضى إلى سلك القضاء من سلك غيره كالكتابة مثلا . أو ينتقل من القضاء إلى الكتابة . فمثلا : كان محمود بن أجا الحلبى قاضيا فى حلب ، ثم نقل إلى كتابة السر فى عهد الغورى . وكان محب الدين بن الشحنة كاتبا للسر فى عهد الأشرف إينال ، ثم انتقل إلى القضاء .

وقد يجمع القاضى بين القضاء ووظيفة أخرى كالقاضى قطب الدين الخضيرى، فقد جمع بين الكتابة والقضاء بدمشق فى عهد الأشرف إينال كذلك . وكالقاضى صدر الدين بن العديم الحنفى فقد جمع بين القضاء والحسبة ، وقيل إنه أول من جمع بينهما ، وكالقاضى شهاب الدين أحمد بن فرفور ، فقد جمع بين قضاء الشافعية بدمشق ونظر الجيش ، وهو الذى جمع بين قضاء الشافعية ومصر زمنا ـ كما أشرنا ـ (١) .

وإذا وقع اختيار السلطان على أحدهم لتعيينه قاضى قضاة ، مثل بين يديه بالقلعة وخلع عليه السلطان خلعة المنصب وتسمى «التشريف»، فينزل بها من لدنه فى موكب حافل ، ويكتب له كاتب الإنشاء أمرا بتولية القضاء عن لسان السلطان ، ويسمى هذا الأمر « تقليدا » .

ويكتب هذا التقليد بعبارة أدبية طلية مسجوعة بديعية على نمط الأساليب المرعية حينذاك، فيها ـ عادة ـ إسهاب وإطالة ، ويذكر فى هذا التقليد الأسباب التى أدت إلى اختيار القاضى ، وصفاته الممتازة التى أهلته للقضاء ، وجملة من الوصايا والنصائح التى يجب عليه اتباعها لتحقيق العدالة ومراعاة الإنصاف ، ونحو ذلك.

أما عزل القضاة ، فقد كان كتعيينهم منوطا بإرادة السلطان . وقد يغضب السلطان على القاضى فيعزله ، ولما يمتع بالوظيفة ، ولما يجب من ورائها ما تاقت إليه نفسه من مال ، أو ما يكون قد دفعه فى سبيل الوصول إليها . وقد يكون مما يغرى السلطان بعزل أحد القضاة ، سعى رجل آخر لديه ليحل فى هذا المنصب .

ومن الحق ـ ونحن بصدد الحديث عن تعيين القضاة وعزلهم ـ أن نذكر أن

(١) راجع تراجم هؤلاء القضاء فى الباب التالى .

مناصب القضاء ـ وإن كان قد تهافت عليها قوم ـ قد عف عنها كثيرون ، ربئوا بأنفسهم عن أن يحملوها أوزارها . أو أن يلوثوها بأجورها . وهم يعلمون تمام العلم أن من حمل عبء القضاء فقد ذبح بغير سكين(١) . فنهم من رفض القضاء جملة وأباه بل وفر منه ، ومنهم من رضيه كارها لما رأى العداله تقضى عليه بالرضا . ومنهم من نزه يده عن أن تتناول عليه أجرا ، ومنهم من رعى فيه العدالة وحدها دون الاكثرات بشيء آخر .

والقصص فى ذلك كله كثيرة موفورة . فقد ذكر السخاوى فى كتابه « تحفة الأحباب(٢) » أنه لما توفى قاضى القضاة شمس الدين البساطى المالكى أرسل السلطان جقمق وراء العالم الزاهد الجليل زين الدين عبادة بن على الجرزائى المالكى ، ليلى القضاء ، فاختفى . وقيل سافر من القاهرة ، حتى بلغه أن القضاء تولاه رجل آخر فظهر .

ومن القضاة : عبد الرحيم البارزى المتوفى عام ٦٨٣ هـ ، لما عين فى قضاء حماة أنف أن ينال من ورائه رزقا . وتاج الدين بن بنت الأعز المتوفى عام ٦٦٥ هـ فقد كانت صلابته فى الحق مضرب المثل . وتقى الدين بن دقيق العيد المتوفى ٧٠٢ هـ ، فإنه دعى إلى ولاية القضاء فى عهد السلطان العادل كتبغا المنصورى ، فأبى وامتنع امتناعا شديدا ، فهددوه بأن يولوا رجالا لا يصلحون للقضاء ، فخاف حينذاك على العدالة ، وأوجب على نفسه قبول المنصب ، وكان فى قضائه عفا نزيها . ومنهم زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ ، دعاه الأشرف قايتباى لولاية القضاء ، فزهد فيه وامتنع ، وطفق يشترط ويثقل فى شروطه ، والسلطان يقبل ، حتى قبل هو فى النهاية ، ورضى بالقضاء مكرها ، فلبث فيه مدة ثم عزل نفسه .

---

(١) هذا معنى حديث شريف .

(٢) تحفة الأحباب المطبوع على هامش نفح الطيب (ص ٣٦٤) . وزين الدين المذكور هو زين الدين بن عبادة بن على بن صالح بن عبد المنعم الأنصارى الجرزائى المالكى ، ولد بقرية جرزا بالصعيد ومن أعمال القاهرة سنة ٧٨٠ هـ ، وكان يدرس بالجامع الأزهر وبمدرسة السلطان الأشرف برسباى ،

وترى فى تراجم كثير منهم أخبارا من هذه الأنواع ، ومنهم من عزل نفسه وربما عزلها أكثر من مرة . والقاضى عز الدين بن عبد السلام ، وابن حجر العسقلانى عزل كل منهما نفسه . وغيرهما كثير .

أعوان القضاة ونوابهم

قد كان للقضاة جند وأعوان ورسل ونقباء — كما كان لحاجب الحجاب — يجلسون ببابهم ، إذا جلسوا للفصل فى الخصومات ، فيقدم إليهم هؤلاء الرسل والنقباء المتخاصمين ، ويتقاضون منهم الأجور ؛ ويقومون بتنفيذ الأحكام والأوامر .

ويبدو لنا أن كل قاض كان له «أمين» أو «نقيب نقباء» ، وهو رئيس لأعوانه . وربما تحكم النقيب فى نواب الحكم عوضا عن القاضى[1] . ويتبع قاضى القضاة عقاد الأنكحة[2] ، ونواب الحكم .

ونواب الحكم قضاة صغار ، يعينون فى الجهات المختلفة ليقوموا بالفصل فيما يقدم إليهم من القضايا والخصومات عوضا عن قاضى القضاة فيما لا يستطيع القيام به ، ولا ندرى على التحديد هذه الجهات التى وصفت بأنها من أعمال مصر ، والمفهوم على كل حال أن بعضها بعيد عن القاهرة كالمحلة أو أشموم .

وقد ذكرنا فيما سبق — نقلا عن المقريزى والسبكى — أن السلطان الظاهر بيبرس رسم للقاضى تاج الدين بن بنت الأعز فى عام ٦٦٠ هـ بتنصيب أربعة نواب أو ثلاثة ، واحدا من كل مذهب ، وقد يفهم من هذا أن أول تنصيب للنواب كان فى العام المذكور .

غير أن السيوطى فى حسن المحاضرة[3] روى عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ما نصه قال : «ولما عزل الشيخ نفسه عن القضاء ، تلطف السلطان فى رده إليه ، فباشره مدة ، ثم عزل نفسه منه مرة ثانية وتلطف مع السلطان

---

(١) راجع ترجمة زكريا الأنصارى فى الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٨٤٩ . (٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٠ .

فى إمضاء عزله، فأمضاه وأبقى جميع نوابه من الحكام ، وكتب لكل حاكم تقليدا ،

وقد كان عزل الشيخ عز الدين عن القضاء قبل عام ٦٦٠ هـ . فيفهم من عبارة السيوطى أن نظام «نواب الحكم» كان معروفا فى مصر قبل العام المذكور، غير أن النواب ربما كانوا ـ ويغلب على الظن أنهم كانوا ـ جميعا من الشافعية. فإذا صح هذا كان الجديد الذى تم فى عام ٦٦٠ هـ هو تنصيب نواب من رجال المذاهب الأخرى.

ثم لما تعدد القضاة ظل قاضى قضاة الشافعية ممتازا على سائر زملائه ـ كما بينا ـ وأوسع منهم اختصاصا . وكان فى جملة ما اختص به تعيين النواب . وقد قال السبكى فى الطبقات ما نصه :

« وأما الظاهر ـ بيبرس ـ فقلد الشافعى يوم ولاية السلطنة ، ثم لما ضم القضاة إلى الشافعية ، استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة البر والأيتام وجعلهم الأرفعين [1] ».

وصرح القلقشندى فى صبح الأعشى بما يناقض ذلك ـ فيما يختص بالنواب ـ حيث قال : « وجعل لهم الأربعة أن يولوا النواب بأعمال الديار المصرية وأفرد القاضى تاج الدين بالنظر فى مال الأيتام والأوقاف » ، ثم قال : « كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ونصب النواب » ثم عاد فقال : « ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب بنواحى الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه غيره » .

وروى المقريزى فى سلوكه فى حوادث عام ٦٧٠ هـ ما نصه : « أن القضاة الأربعة الذين ولاهم السلطان الملك الظاهر بديار مصر ، كان كل منهم يستنيب قضاة عنه فى النواحى » .

وقد روى المقريزى فى سلوكه أيضا فى حوادث عام ٦٧٨ هـ [2] قال : « وفى يوم

---

(١) سبق أن نقلنا هذا النص فى موضوع آخر . وبينا وجه الخلاف بينه وبين ما رواه المقريزى والقلقشندى .

(٢) السلوك ج ١ ص ٦٦٨ حوادث ٢٧ شوال عام ٦٧٨ هـ

الجمعة سابع عشريه ـ أى ٢٧ شوال ـ كتبت تقاليد القضاة الأربعة . واستقر الحال على أن يكون قاضى القضاة صدر الدين عمر بن قاضى القضاة تاج الدين عبدالوهاب ابن بنت الأعز الشافعى ، هو الذى يولى فى أعمال مصر ، قضاة ينوبون عنه فى الأحكام ، وأن قاضى القضاة معز الدين الحنفى ، وقاضى القضاة المالكى ، وقاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، يحكمون بالقاهرة ومصر خاصة بغير نواب الأعمال . فاستمر الأمر على ذلك حتى اليوم » .

ويفهم من ذلك أن تعيين النواب كان من حق القضاة جميعاً ، ولو فى فترة من الفترات قبل هذا التاريخ. وأنه منذ ذلك التاريخ أصبح من حق قاضى قضاة الشافعية دون سائر زملائه . وأن هذا النظام استمر معمولا به زمنا طويلا من بعده .

ويبدو لنا أنه أبيح بعد حين ، لكل قاض أن يعين لنفسه نوابا من مذهبه ينوبون عنه فى الأحكام ، وأن قضاة القضاة اشتطوا فى تعيين نوابهم ، حتى أربى عددهم على ما يحتاج إليه . وأن هذا العدد كان أكثر من مائة .

ويفهم هذا كله من عبارة رواها ابن إياس فى حوادث عام ٩١٩ هـ حيث قال ما مؤداه[1] : « إن الأشرف الغورى غضب مرة من قضاته وكثرة نوابهم ، فرسم لهم أن يكون مجموع نوابهم مائة : منهم أربعون يعينهم القاضى الشافعى ، وثلاثون يعينهم الحنفى ، وعشرون يعينهم المالكى وعشرة يعينهم الحنبلى ، وقرر معهم ألا يولوا أحدا من النواب إلا بإذنه » .

ويفهم من الجملة الأخيرة ، أن تعيين نواب الحكم كان من اختصاص القاضى وحده دون أن يرجع إلى السلطان . فظل للقاضى الحق فى اختيار نوابه ، ولكن لا بد من استئذان السلطان .

هذا ويُعزل النائب بناء على رغبة القاضى . كما أن القاضى إذا عزل من القضاء، كان ذلك عزلا أيضا لجميع نوابه . فإذا عين قاض جديد من بعده ، اختار لنفسه

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث ذى القعدة عام ٩١٩ هـ .

نوابا جددا ، ذلك لأن النائب يستمد صفته القضائية من قاضيه ، فإذا عزل زالت عنه هذه الصفة .

ويفهم هذا مما رويناه عن السيوطى خاصا بعزل الشيخ عز الدين بن عبدالسلام . فإنه « لما عزل نفسه من القضاء وأمضى السلطان عزله . أبقى جميع نوابه من الحكام ، وكتب لكل حاكم تقليداً » ، ولعلها خصوصية لهذا القاضى الكبير .

وقد روى الإدفوى فى كتابه « الطالع السعيد » قال[1] فى سياق ترجمة على ابن عبد الرحيم بن الأثير « إنه كان نائبا فى الحكم عن القاضى تقى الدين بن دقيق العيد . فعزل تقى الدين . ثم ولى القضاء مرة أخرى فولى من قبله قاضيا على جهة أشموم ، حيث كان ينوب عنه الشيخ على بن عبد الرحيم . فعجب هذا النائب . ولكنه أخبر أنه عزل بعزل قاضى قضاته » .

أجـــورهم

من البدهى أن يكون للقضاة والنواب أجور يدفعها لهم الأخصام ، بوساطة نقبائهم وأعوانهم . وإلا لما تهافت على مناصب القضاء المتهافتون ، ولما سعى إليها الساعون ، وبذل الباذلون . وإن رجلا يتقدم ساعيا إلى منصب القضاء بالمال والوسيط ليضمر فى نفسه — بلا ريب — أن يستعيض عنه بصورة ما . وإن كان من القضاة من عف عن تناول أجره كما بينا .

ويبدو لنا أنه لم تكن لهذه الأجور حدود مرسومة ، ولا قواعد مقررة . وأن أمرها كان فوضى ومتروكا لمشيئة القاضى والنائب وأعوانهما ، يقدرونها كما يشتهون . وما دامت النفس أمارة بالسوء ، وأن شهوتها لا تقف عند حد ، كان هذا عاملا من العوامل التى أدت إلى ظلم الخصوم ، وفرض الأتاوات الباهظة عليهم فى بعض الأحيان . وكان هذا الظلم مثاراً للشكاية ومحلا للنظر فى أحيان أخرى .

وقد روى ابن إياس[2] « أن الأمير كرتباى الأحمر لما قرر فى الوزارة — عام

---

(١) الطالع السعيد للإدفوى ص ٢٠٩ رقم ٢ ٣

٢) البدائع ج ٢ ص ٣٠٥ حوادث سنة ٩٠١ هـ.

٩٠١ هـ ـ أظهر ضروبا من العدل. منها أنه حجر على الرسل والنقباء ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصف فضة ، وأن أحدا منهم لا يقرر رسما على أحد » .

وروى أن قاضى القضاة محي الدين بن النقيب كان يربح من وظيفته هذه فى كل يوم أشرفيين ، والأشرفى أفضل أنواع الدنانير حينذاك[١] .

وهذه الأجور شبيهة « بالرسوم » التى يدفعها المتقاضون فى عصرنا إلى خزانة المحكمة ، ولكنها اليوم تنضم إلى الخزانة العامة للدولة . أما فى ذلك العصر البعيد فكانت تذهب إلى جيوب القضاة والنواب والأعوان .

وفى هذه الحالة — كما ذكرنا — تؤدى إلى الجور فى فرض الأجر . وقد تؤدى إلى أكثر من ذلك ، وهو الجور فى الحكم . وقد روى ابن إياس[٢] « أن السلطان الأشرف قايتباى رسم مرة — فى عام ٨٩٤ هـ — بعرض نواب الشافعية والحنفية عليه ، فلما عرضوا أسمعهم من الكلام ما آذهم وأزعجهم ، ثم أمر بعزل جماعة منهم . وآل الأمر إلى الحجر عليهم فى الأحكام الشرعية ، وإلى أمرهم بعدم سجن الخصوم إلا بإذن من القاضى الشافعى والحنفى ، وعم ذلك سائر النواب » .

وقد كان القضاة — كما نعتقد — يؤدون جزءا من هذه الأجور إلى الخزائن السلطانية . وإلا لما قبض على بعض القضاة وعزلوا وحوسبوا حسابا عسيرا ، واستخرج منهم جانب من المال . أو لعل السر فى القبض عليهم وحسابهم واستخراج جانب من أموالهم هو — غير غضب السلطان عليهم — أنهم جبوا هذه الأموال من المتخاصمين ظلما وإرهاقا .

وإذا ما غلا القاضى فى طلب الأجر ولم يتعفف ، انقلب الأجر رويدا رويدا إلى رشوة يدفعها المتخاصمون إلى القضاة لضمان الفصل لصالحهم . وهذا هو ما وقع فعلا . فكما اتهم القضاة بأنهم يدفعون الرشوة فى سبيل الوصول إلى منصب

---

(١) راجع ترجمته فيما يلى .

(٢) البدائع ج ٢ ص ٢٥٥ حوادث عام ٨٩٤ هـ .

القضاء ، اتهموا بأنهم يأخذون الرشوة على القضاء . وهذا شر ماتبتلى به أمة ، وكان ذلك فى جملة أسباب فساد القضاء .

ولقد قال السلطان سليم العثمانى لقضاة مصر حينما وقعوا فى أسره ومثلوا بين يديه ، موبخا لهم . « أنتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء » .

ومن طريف مايذكر بهذه المناسبة قصة(١) قاضى القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسى الحنبلى . « فقد كان قاضى الحنابلة فى عهد الظاهر بيبرس . وقد حدث أنه فى سنة ٦٧٠هـ . نحى عن نيابته أحد نوابه ، وكان مركزه المحلة الكبرى . فغضب أخو النائب لذلك واسم هذا الأخ تقى الدين شبيب الحرانى . فكتب ورقة للسلطان بأن عند قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام بجملة كبيرة ، وقد ماتوا ، فاستدعاه السلطان وسأله عن ذلك فأنكر وحلف ، وورى ، فى يمينه . فأمر السلطان بالهجوم على داره ، فوجد فيها كثيرا مما ادعاه شبيب ، بعضه قد مات أهله وبعضه لقوم أحياء . فأخذ السلطان مما وجد الزكاة لمدة سنين . وسلم لمن كان حيا ودائعه . وغضب السلطان عليه واعتقله وأوقع الحوطة على داره فى يوم الجمعة ثانى شعبان » . قال المقريزى «ولم يول السلطان بعده قضاء الحنابلة أحدا » . وهكذا كانت هذه الحادثة سببا فى إسقاط أحد مناصب القضاء ولو إلى حين » .

هذه العوامل تجعلنا ننظر بريبة إلى القضاء وأحكامه فى ذلك الزمن البعيد . إذا استثنينا بعض القضاء . وقد أصبح القضاء والقضاة حينذاك محلا للتندر والتفكه . وقد قال بعض شعراء العصر فى القاضى ابن النقيب .

قاض إذا انفصل الخصمان ردهما   إلى جدال بحكم غير منفصل
يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها   جهرا ويقبل سرا بعرة الجمل

---

(١) سلوك المقريزى ج١ ص٦٠٢ ، ٦٠٣ .

وللشاعر المصرى جمال الدين السلمونى قصة(١) طويلة مع قاضى قضاة الحنفية فى عهد الغورى ، وهو عبد البر بن الشحنة . وكانت بينهما خصومة . فنظم السلمونى قصيدة هجاء فى القاضى عبد البر ، رماه فيها بكل كبيرة ، واتهمه علانية بقبول الرشوة . وفى مطلعها يقول :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حل على شبهاتها
أجاز أمورا لا تحل بملة بحل وبرم مظهرا منكراتها. الخ

جلوسهم للقضاء

كان القضاة يجلسون مع السلطان ، إذا جلس للفصل فى الخصومات بدار العدل ، وذلك يوم الاثنين فقط ، دون يوم الخميس . وكان السلطان يستشيرهم فى الخصومات ذات الصلة بالشرع . ويبدو لنا أن كل قاض كان يختار لنفسه مسجدا أو مدرسة ، يجلس فيها للفصل فى الخصومات . وقد قال المقريزى فى سلوكه (٢) عن برهان الدين السنجارى إنه لما عين فى قضاء القاهرة والوجه البحرى ، جلس للحكم فى المدرسة المنصورية بين القصرين .

وإذا جمع القضاة بين قضاء القاهرة ومصر خصصوا يومى الاثنين والخميس لقضايا مصر . ويجلسون فيهما بجامع عمرو بن العاص . ويجتمع حولهم علماء مصر وقد قال تاج السبكى فى طبقاته فى سياق ترجمة تقى الدين بن رزين ما نصه(٣) .

«كان قضاة القضاة بالديار المصرية إذا جمعوا بين قضاء القاهرة ومصر ـ كما استقرت عليه القاعدة من الأيام الظاهرية ـ يتوجهون يوم الاثنين ويوم الخميس

---

(١) انظر تفاصيل هذه القصة فى الجزء الرابع من هذا الكتاب فى باب أثر البيئة الاجتماعية المصرية فى الشعر .

(٢) السلوك جـ١ ص ٧٣٤ حوادث عام ٦٨٦ هـ.

(٣) طبقات الشافعية جـ ٥ ص ١٩ .

إلى مصر ، فيجلسون بجامع عمرو بن العاص ، لفصل القضاء بين الناس . ويحضر عندهم علماء مصر . وكان ابن الرفعة يحضر عند قاضي القضاة تقي الدين مجلس حكمه إذا ورد عليهم مصر يوم الاثنين والخميس . وابن الرفعة كان ساكنا مصر ، وقاضي القضاة تقي الدين بالقاهرة » .

القضاة (١)

نردف مبحث القضاء ، بتراجم موجزة لأشهر قضاة مصر ، من جميع المذاهب. ولم نتوخ الاستقصاء والاستيعاب - كما جرينا على ذلك - وإنما هي مثل نعرضها . وجدير بهؤلاء القضاة أن يفرد لهم سفر على حدة . ولكن ليس هنا مكانه .

وقد عنينا بتراجم قضاة القضاة بديار مصر ، دون نوابهم ودون قضاة الشام. وأوردناها مراعى فيها عصور ظهورهم وسنوات وفاتهم جهد الطاقة أيضاً . فمنهم:

١ — عماد الدين الحموى

هو القاسم بن ابراهيم بن عبد الله الحموى . كان شافعى المذهب ، تولى القضاء فى مصر (٢) ، وشهد جزءا يسيرا من أوائل عصر المماليك . وصرف عن القضاء فى جمادى الأولى عام ٦٤٨ هـ . ثم ولى قضاء القاهرة ، ثم أعيد إلى قضاء مصر ثانية فى شهر رجب من العام المذكور ، ثم عزل فى شوال .

« حسن المحاضر ج ٢ ص ١١٠ ، ١١١ »

٢ — عز الدين بن عبد السلام ٦٦٠ هـ

هو شيخ الإسلام وسلطان العلماء ، عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم

---

(١) فى كتب التراجم ، كثير من أخبار هؤلاء القضاة ، مثل : الطالع السعيد ، والدرر الكامنة ، والطبقات والفوائد البهية للكنوى المندى والضوء اللامع ، وحسن المحاضرة ، ورفع الأصر ، ومنها متفرقات فى مثل بدائع الزهور والسلوك . وهذه الكتب مراجعنا فى هذا الباب ، وفى الجزء الثانى من كتابنا هذا تراجم لبعض القضاة فى باب العلماء .

(٢) المراد بمصر هنا . مصر العتيقة بلغة عصرنا . وكان لها وللوجه القبلى معاً قاض واحد ، وللقاهرة وللوجه البحرى قاض آخر . وهذا فى الغالب قبل تعدد القضاة .

ابن حسن محمد بن مهذب السلمى أحد الأئمة المجتهدين الأعلام . وأحد المتعصبين للحق ، والغيورين على سلامة الإسلام وأهله ، المدافعين عنهم المرشدين لهم ، الساعين فى صلاحهم .

ولد عام ٥٧٧ هـ . أو ٥٧٨ هـ . وتفقه على كثيرين ، ونبغ فى مذهب الشافعى ، حتى أصبح رأس الشافعية فى زمانه . واشتهر بالورع والتقوى والصراحة والقسوة فى الدعوة إلى الحق ، وهذا مما يتلاءم مع الفساد المنتشر فى عصره . وقد اشتغل بالتعليم والقضاء والفتوى والتأليف . وتخرج به تلاميذ نابغون .

وقد عاش فى دمشق ثم زايلها إلى القاهرة ، لخلاف وقع بينه وبين ملكها الصالح اسماعيل . فاستقر فى القاهرة منذ عام ٦٣٩هـ . ولبث حتى شهد عصر الظاهر بيبرس، وكان بيبرس يجله ويعظمه وينتظر رأيه فى مشاكله .

وله حوادث عدة بدا فيها حرصه على أموال المسلمين ، وعلى تنفيذ أحكام الدين وتنسب إليه كرامات متعددة . ومنذ قدومه إلى مصر ، وهو يلى قضاءها . فقد ولى قضاء مصر والوجه القبلى عام ٦٣٩هـ . ثم عزل نفسه بعد حين . وولى التدريس ومازال ينفع ويدفع ويجادل ويناضل ، حتى مات فى جمادى الآخرة عام ٦٦٠ هـ . بالقاهرة ، ودفن بالقرافة الكبرى .

« ملحوظة » ترجمنا له بتفصيل فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فى باب العلماء — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٥ — طبقات السبكى ج ٥ ص ٨٠ » .

٣ — بدر الدين السنجارى ٦٦٣ هـ

هو أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن على . كان شافعى المذهب ويعرف بقاضى سنجار — مدينة ببلاد الروم — كان بها قاضيا فى عهد الأيوبيين . وقد فارقها فى ذى الحجة عام ٦٣٨هـ ، فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت بينهما صلة ود وصداقة ، منذ كان الصالح ببلاد الشام ، وكان هذا القاضى حينذاك ـ عام ٦٣٨هـ قد توجه إلى سنجار برسالة من الملك الصالح عماد الدين صاحب دمشق ، فبلغه أن الصالح نجم الدين قد ملك مصر ، فرغب فى اللحاق به ولم يرغب فى العودة إلى

دمشق . فاحتال حتى بلغ حماة ، ومنها عاد لمصر عن طريق الساحل ، فتلقاه الصالح نجم الدين تلقيا كريما وفوض إليه قضاء مصر والوجه القبلي عوضا عن القاضي شرف الدين بن عين الدولة الإسكندراني(١) .

وفي سنة ٦٤٨ هـ في عهد المعز بن أيبك عين في قضاء القاهرة في شهر رجب ، ثم أضيف إليه قضاء مصر بعد أيام قليلة ، وذلك في شوال فجمع بين المنصبين .

وقد ورد إلى مصر رسول من قبل الناصر صاحب دمشق ، إلى المعز بن أيبك عام ٦٤٩ هـ للمفاوضة في الصلح بينهما فندب لمكالمته القاضي بدر الدين السنجاري . وقد تم الصلح على يده ، ثم صرف عن القضاء في هذا العام .

ولبث أمره في القضاء بين تولية وعزل وجمع بين المنصبين ، حتى صرف عنه في عام ٦٥٤ هـ ، ثم عاد إلى قضاء القاهرة في ربيع الآخر عام ٦٥٥ هـ ، وضم إليه ثانية قضاء مصر في رجب ، وفي هذا العام ولي الوزارة مع القضاء بعد القبض على الوزير شرف الدين الفائزي ، ثم صرف عن الوزارة في العام نفسه ثم عزل عن القضاء وعاد في أواخر عام ٦٥٩ هـ . ثم عزل عن قضاء مصر والوجه البحري في ٣ رمضان عام ٦٦٠ هـ . ولما عزل مرة قبض عليه الظاهر بيبرس وسجنه عشرة أيام ثم أطلق سراحه . وقد مات وهو معزول عن القضاء عام ٦٦٣ هـ عن نيف وستين عاما .

وينسب إلى هذا القاضي أنه باع داره مع العلم بأنها موقوفة لا تباع ولا تشترى . فلما مات تقدم الشارون إلى السلطان الظاهر بيبرس بالشكوى ، فنظر في قصتهم ثم قال لقاضي القضاة — حينذاك — تاج الدين بن بنت الأعز : « يا قاضي !

---

(١) هو شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي القاسم الإسكندراني المعروف بابن عين الدولة . من قضاة مصر في أواخر العصر الأيوبي .

وقد توفي في ذي القعدة عام ٦٣٩ هـ ، وله قصة طريفة مع الملك الكامل الأيوبي ملخصها أن هذا الملك كانت تطلع إليه مغنية اسمها « عجيبة » أولع بها تغنيه بالجنك على الدف ، ثم حضر في شهادة أمام هذا القاضي فلم يقبل شهادته . فلما أراده على قبولها ندد به ثم عزل نفسه من القضاء (راجع حسن المحاضرة ج ٢ باب قضاة مصر — وطبقات السبكي ج ٥ ص ٢٦) .

هكذا تكون القضاة » فقال له : « يامولانا اكل شاة معلقة بعرقوبها » . وكانت هـذه القصة فى عداد الأسباب التى أوجدت أزمة فى القضاء ، وأدت إلى تعدد القضاة — كما بينا — .

والقاضى بدر الدين السنجارى ، هو أخو القاضى برهان الدين السنجارى الآتى ذكره ، وكان يخلفه حينا فى القضاء .

« حسن المحاضرة ج ٢ فى بابى قضاة مصر . ووزراء مصر — السلوك ج١ » .

٤ — تاج الدين بن بنت الأعز ٦٦٥ هـ

هو قاضى القضاة الشافعى المذهب أبو محمد عبد الوهاب بن خليفة بن بدر العلامى المصرى المعروف بابن بنت الأعز . كان جده لأمه يعرف بالقاضى الأعز فخر الدين أبى الفوارس مقدام بن القاضى كال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر ، الذى كان وزيرا للملك الكامل بن أيوب ، فغلبت عليه هذه النسبة وقيل : ابن بنت الأعز . أما علامة بفتحتين وبغير شدة فهى قبيلة من لخم . فهو إذن من أصل عربى وقيل إنه عبد الوهاب بن خلف بن أبى القاسم وقد عرف بالذكاء وحدة القريحة والعفة وسداد الرأى ، وقد تولى قضاء مصر فى زمن الأيوبيين وصدر عصر المماليك . وبارك الله فى نسله فكان من أبنائه وحفدته قضاة وعلماء أجلاء منهم : تقى الدين وصدر الدين ابناه ، ومنهم : علاء الدين أحمد ابنه أيضا وفخر الدين حفيده .

وقد اشتهر تاج الدين بالعلم والتقوى والفضل وحسن الرأى وقوة الحجة والشدة فى الأخذ، والصلابة فى الحق . وتقلب فى مناصب عدة منها الحسبة والوزارة والخطابة والتدريس والإمامة . أما ولاية قضاء البلاد ، فقد كان بدء أمره فى عهد الأيوبيين ، وقيل إنهم عينوه قاضيا كبيراً على جميع القضاة يولى ويعزل منهم من يشاء ، — ولعل المراد بذلك نواب الحكم — وبلغ لديهم منزلة سنية .

وفى صدر عصر المماليك تنقل فى مناصب القضاء . ثم ظل أمره فيه بين عزل وتعيين حتى توفى . وخلاصة حالته هذه أنه فى عام ٦٥٤ هـ ولى قضاء البلاد بعد

عزل بدر الدين السنجارى فى عصر السلطان عز الدين بن أيبك ، ثم تقلد الوزارة ثم عزل ثم عادت إليه الوزارة فى ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ فى عهد السلطان المنصور ابن المعز بن أيبك . وعين فى قضاء مصر فقط ثم عزل عنه بعد قليل . ولما بدأ عهد المظفر قطز عام ٦٥٧ هـ عزله عن الوزارة فى أوائل حكمه ، فظل بعيداً عن المناصب حتى كان عام ٦٥٩ هـ وكان شهر جمادى الأولى من ذلك العام ، وكان سلطان البلاد بيبرس ، فدعاه ليسند إليه الوزارة فرفض ، ثم دعاه ليجلس على منصة القضاء بعد أن عزل بدر الدين السنجارى ، ولكنه أحب أن يرفض ، فاشترط لجلوسه ذاك شروطا قاسية على السلطان أملا فى أن يعفيه من تقلد هذا المنصب ، ولكن بيبرس أجابه إلى شروطه وقبلها رغبة فيه وثقة به . فتم بذلك تعيينه فى ١٠ جمادى الأولى . وصلى بالسلطان صلاة الظهر فى ذلك اليوم ، وتولى أمر القضاء . وأصبح منذ ذلك الحين مهيب المنزلة عند بيبرس ورجال دولته .

وفى عهده بالقضاء حدث حادثان هامان كان له شأن فى كل منهما :

الحادث الأول :

تجديد الخلافة العباسية فى مصر . فكان هو المقدم فى الرأى إذ جمعت إليه الشهود . وقدم إليه أبو القاسم أحمد بن الإمام الظاهر العباسى . فشهد الشهود بين يديه بأنه حفيد العباسيين . فكان القاضى تاج الدين أول من بايعه بالخلافة ـ على رأى ـ ثم السلطان ، ثم بايعه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ثم الباقون من علماء وأمراء ممن حضر الحفل ، وذلك فى عام ٦٥٩ هـ .

الحادث الثانى :

هو حادث تعدد القضاة وسنشير إليه من بعد .

ظل تاج الدين فى القضاء حتى عزل فى شوال من العام المذكور عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وتولى مكانه برهان الدين السنجارى ، وبقى هو قاضيا فى القاهرة والوجه البحرى فقط ، حتى كان يوم ٣ رمضان سنة ٦٦٠ هـ فعزل السلطان قاضى

القضاة برهان الدين السنجارى عن قضاء مصر والوجه القبلى وضمهما إلى تاج الدين ابن بنت الأعز ، وبذلك صار قاضيا بديار مصر جميعها . غير أنه نظرا إلى شدته وصلابته وتوقفه فى بعض الأحكام ، اضطر السلطان إلى أن يرسم له فى شهر ذى القعدة من نفس العام أن يستنيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، فاستنابهم فى الحكم ، أو صاروا « نواب حكم » ، وكانت هذه أول مرة ينيب فيها قاضى القضاة : كما أنها أول تمهيد عملى أدى إلى تعدد القضاة . وقد استناب القاضى تاج الدين عنه ثلاثة أحدهم حنفى والثانى مالكى والثالث حنبلى . وحكموا بين الناس بمقتضى مذاهبهم . غير أن القاضى تاج الدين لم يجد من الحنابلة رجلا كفئا للمنصب ، فاكتفى بأن ولى منهم عاقدا يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج والوصية والهبة وما شابه ذلك .

لم تكن شدة قاضى القضاة تاج الدين سببا فى هذا فقط ، ولكنها أوغرت صدور بعض الأمراء عليه ، لأنه كان لايقبل شهادتهم فى القضايا . ومن بين الحاقدين الأمير جمال الدين إيدغدى العزيزى الذى ظل يحط من قدر قضاة الشرع لدى السلطان بيبرس . وانتهز فرصة مظلمة رفعت إلى السلطان من بنات الملك الناصر، أن ورثته اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته ، فلما مات قال ورثة القاضى إن الدار موقوفة ، فقال السلطان للقاضى تاج الدين — وكان قاضى قضاته ـ «ياقاضى! هكذا تكون القضاة» فقال تاج الدين: « يامولانا! كل شاة معلقة بعرقوبها » ، قال : « فكيف الحال فى هذا ؟ » ، قال : « إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان : « فإذا لم يكن مع الورثة شىء ؟ » ، قال القاضى . يرجع الوقف إلى أصله ولا يستعاد الثمن! » . فغضب السلطان من ذلك . لأن معناه ضياع حق الشارين إذا ثبت الوقف ولم يكن فى ميراث القاضى البائع ماينهض بالثمن .

ثم حدثت حادثة أخرى ، وهى أنه قدم رسول أمير المدينة المنورة ليتسلم من قاضى القضاة مايخص فقراءها من ريع الوقف . ولم يكن الشيخ يعرف هذا الرسول

فرده دون أن يعطيه شيئاً . فشكا إلى السلطان بمحضر من القاضي . فسأل السلطان القاضي عن سبب امتناعه . فقال : « يامولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يمكنني أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته ، فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه ! » فقال السلطان : « تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى ، ؟ قال . نعم . قال السلطان : « لا تدفعه إلا لمن نختاره » .

هذه حوادث تشهد بصلابة هذا الرجل العظيم ، وتشدده فيما يراه أنه حق . وكانت هذه الحوادث من الممهدات إلى تعدد القضاة - وقد نوهنا بذلك - إذ انتهز الأمير إيدغدى هذه الفرصة وأوحى إلى السلطان بيبرس بوجوب هذا التعدد ، ليجدوا مندوحة فى المذاهب الأخرى وآراء رجالها ، عن مثل هذا الوقوف فى القضايا والمشاكل . ثم قال الأمير للقاضي : « ياقاضى مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضيا » . فلما كان يوم الاثنين ١٩ من ذى القعدة عام ٦٦١ هـ ، صدر أمر السلطان بيبرس بتعيين ثلاثة قضاة آخرين ، واحد من كل مذهب . أى واحد حنفى وآخر مالكى وثالث حنبلى . وتم بذلك تعدد القضاة على نحو ما بينا فى الباب السابق ، وبقى تاج الدين قاضى قضاة الشافعية ، مضافا إليه النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال . ومع هذا التعدد بقى ابن بنت الأعز مهيب الجانب مقدم المنزلة .

وعندما أصلح الأمير عز الدين إيدمر الحلي الجامع الأزهر . وجهد فى تجميله وانتزاع الأموال له من السلطان والأمراء ، وتم إصلاحه عام ٦٦٥ هـ وفرشه وجدد فيه مقصورة ومنبرا ، أحب أن تصلى فيه صلاة الجمعة ويخطب فيها ، فتنازع الناس فى جواز ذلك . ومنعه القاضى تاج الدين ولم يمنعه الأحناف وتمت بفتواهم الصلاة والخطبة .

هذا ، وقد ولى تاج الدين من المناصب الأخرى نظر الأحباس وتدريس القبة الشافعية ، والصالحية وغير ذلك . وقد توفى فى يوم الأحد ٢٧ رجب عام ٦٦٥ هـ ، عن ٥١ سنة . وفى حسن المحاضرة أنه مات فى ١٧ من رجب المذكور .

« نهاية الأرب ج٢٨ ص٦٢ ـ السلوك ج ١ ـ صبح الأعشى ج ٤ص٣٥ ـ حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١١ ، ١١٢ ـ ابن إياس جـ ١ ص ١٠١ ، ١١٢ ـ طبقات السبكى جـ ٥ ص ١٣٣ ـ راجع تراجم أبنائه وأحفاده فيما يلى » :

٥ — محيي الدين عبد الله بن شرف الدين بن عين الدولة ٦٧٨ هـ

هو قاضى القضاة محيي الدين أبو الصلاح عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن صدقة بن حفص الصفراوى الإسكندرانى المعروف بابن عين الدولة . شافعى المذهب . تولى قضاء مصر والوجه القبلى بعد وفاة قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، وورد له المرسوم بذلك فى يوم الخميس ٩ شعبان سنة ٦٦٥هـ . فلما كان عهد الملك السعيد بن بيبرس عزل فى ١٨ ذى القعدة عام ٦٧٦هـ، فظل مصروفا حتى توفى فى ٥ رجب سنة ٦٧٨ هـ وقد نيف على الثمانين .

« سلوك المقريزى ج١ ـ حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١١٢ ـ وراجع ترجمة أبيه فى طبقات الشافعية لابن السبكى ص ٢٦ جـ ٥ » .

٦ — تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموى ٦٨٠ هـ

هو قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية ، تقى الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن رزين بن موسى بن عيسى بن موسى العامرى الحموى . ولد بحماة سنة ٦٠٣ هـ ، وحفظ كثيرا من كتب الفقه والأصول والنحو والكلام والقراءات . وأخذ عنه جلة علماء عصره . وتولى بدمشق وظائف عدة منها التدريس ووكالة بيت المال . ثم يمم شطر مصر ، فاشتغل بالتدريس ، حتى توفى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز فى رجب عام ٦٦٥ هـ . فأسند إليه قضاء القاهرة والوجه البحرى فى شعبان من تلك السنة . فامتنع عن أن يتناول عليه أجرا . وعرف بالفقه وحسن الرأى وصدق النظر وحسن الفتوى . ولما عزل محيي الدين بن عين الدولة فى ١٨ ذى القعدة سنة ٦٧٦ هـ ضم اختصاصه إلى اختصاص ابن رزين ، فتم له قضاء مصر كله . ثم عزل فى رجب سنة ٦٧٨ هـ [1] لتوقفه فى خلع الملك السعيد بن بيبرس . وتولى

(١) فى سلوك المقريزى ج ١ ص ٦٥٧ مايفهم منه أنه عزل قبل رجب بنحو شهرين .

القضاء مكانه صدر الدين بن بنت الأعز ، فظل حتى عزل نفسه فى رمضان سنة ٦٧٩ هـ . فأعيد مكانه تقى الدين بن رزين ، فظل فى القضاء حتى توفى فى ٣ رجب عام ٦٨٠هـ . وله ولد من كبار علماء العصر هو صدر الدين عبد البر .

« سلوك المقريزى ج ١ — حسن المحاضرة ج٢ص١٦٢ — طبقات السبكى ج٥ص١٩ » .

٧ — صدر الدين بن بنت الأعز ٦٨٠ هـ

هو قاضى القضاة ، عمر بن تاج الدين بن بنت الأعز ، عبد الوهاب العلامى الشافعى . ولد عام ٦٢٥ ، وترعرع فى كنف أبيه تاج الدين . وأخذ عنه وعن علماء عصره ، الفقه والحديث . ونشأ ورعا تقيا دينا ، حتى كان أبوه — على جلال قدره — يتبرك به . كما نشأ صلبا فى الحق ، عيوفا عن الباطل . لا يحب المزاح ولا الهزل ولا الضحك .

وفى شهر رجب عام ٦٧٨ هـ مات القاضى محى الدين بن عين الدولة ، وكان بيده قضاء مصر والوجه القبلى . وعزل القاضى تقى الدين بن رزين ، وكان بيده قضاء القاهرة والوجه البحرى . فلما وقع ذلك ، أسند قضاء مصر كله إلى صدر الدين عمر ابن تاج الدين بن بنت الأعز . وذلك فى أوائل عهد الملك العادل سلامش عام ٦٧٨ هـ [1] .

فلما ولى القضاء سار فيه على سنة أبيه تحريا للحق ، وذودا عنه وصلابة فيه . ثم عزل نفسه فى رمضان عام ٦٧٩ هـ ، واشتغل بالتدريس وتنظر على المدرسة الصالحية ، فلبث حتى توفى فى ١٠ المحرم عام ٦٨٠هـ عن خمس وخمسين سنة .

« السلوك ج ١ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٣ — طبقات السبكى ج ٥ ص ١٣١ »

٨ — وجيه الدين البهنسى ٦٨٥هـ

هو أبو محمد وجيه الدين عبد الوهاب بن سديد الدين أبى عبد الله بن الحسين ابن عبد الوهاب المهلبى البهنسى . كان فقيها عالما بالأصول والنحو متدينا . اشتغل

---

(١) فى السلوك ج١ص٦٥٧ أن ولايته القضاء كانت فى منتصف جمادى الأولى عام ٦٧٨ هـ

زمنا طويلا بالتدريس والمناظرة . وقد كان به حب للفكاهة والنكتة . وقد تولى قضاء البلاد كلها بعد وفاة ابن رزين عام ٦٨٠ ﻫ فى ٢٧ شعبان ، ثم عزل عن قضاء القاهرة والوجه البحرى استجابة لطلبه ، إذ قال إنه يضعف عن أن يجمع بين كل جهات القضاء . واستمر بيده قضاء مصر والوجه القبلى إلى أن توفى فى جمادى الآخرة عام ٦٨٥ﻫ . وهو شافعى المذهب .

ولما مات انتقل قضاء مصر والوجـــه القبلى إلى تقى الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعز .

طبقات السبكى ج ٥ ص ١٣٣ — حسن المحاضرة ج ٣ ص ١١٢ — السلوك ج ١ » .

٩ — برهان الدين السنجارى ٦٨٦ ﻫ

هو أبو محمد الخضر بن الحسين بن على ، أخو القاضى بدر الدين السالف ذكره . وهو أيضاً شافعى المذهب وأدرك عهد الأيوبيين وطرفا من عصر المماليك . ولعل أول مرة ولى فيها منصب القضاء كانت فى رمضان عام ٦٥٤ ﻫ . وفى شوال سنة ٦٥٩ ﻫ ، كان قاضيا على مصر والوجه القبلى ، بدل القاضى ابن بنت الأعز إذ صرف عن قضاء هاتين الجهتين وقصر أمره على قضاء القاهرة والوجه البحرى . وقيل عوضا عن الوجيه البهنسى . ثم صرف السنجارى عن قضاء مصر فى رمضان سنة ٦٦٢ ﻫ . ويظهر أنه ظل بين تعيين وعزل فى القضاء حتى كانت سنة ٦٧٧ ﻫ وكان شهر ذى القعدة ، فاختاره الملك السعيد ناصر الدين بن بيبرس ليلى الوزارة عوضا عن بهاء الدين بن حنا . فظل بها عصره وعصر أخيه العادل سلامش حتى عصر المنصور قلاوون فثبته فى منصبه . غير أنه مالبث أن ساءت ظنونه فيه فعزله من الوزراة فى ٢٦ رمضان سنة ٦٧٨ ﻫ ، وقبض عليه وعلى ولده شمس الدين عيسى ، وأخذت خيولهما وخيول أتباعهما ، وسجنا فى دار الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . وصودر أتباعهما وحكم عليهم بأن يدفعوا غرما مقداره مائتا ألف وستة وثلاثون ألفا . ثم أفرج عن برهان الدين السنجارى ، بعد قليل فلزم مدرسة أخيه بالقرافة .

وفى أواخر جمادى الثانية عام ٦٧٩ هـ أعاده السلطان قلاوون إلى الوزارة ، وعزل عنها الصاحب فخر الدين بن لقمان ، ولكنه مالبث أن عزل مرة ثانية وذلك فى ربيع الأول عام ٦٨٠ هـ ، وقبض عليه وعلى ولده واعتقلا بقلعة الجبـــل . وصودرت أمواله وأهين . ثم أطلق سراحه بعد زمن . حتى كان يوم ١٠ ربيع الأول من عام ٦٨٢ هـ ، فأسند إليه التدريس بمدرسة بجوار ضريح الإمام الشافعى . فلبث بهذا المنصب زمناً حتى كانت سنة ٦٨٦ هـ ، وكان يوم الأحد ١٥ المحرم ، فأسند إليه منصب قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى . وجلس للفصل فى القضايا بالمدرسة المنصورية بين القصرين . ورسم له أن يجلس فى دار العدل فوق قاضى القضاة تقى الدين بن بنت الأعز . قيل : فشق ذلك على ابن بنت الأعز ، وسعى فى أن يعفى من حضور دار العدل . فلم يشعر إلاوقد مات البرهان السنجارى فى ٩ صفر من ذلك العام فجأة ، وذلك بعد أن ولى القضاء لآخر مرة نحو ٢٤ يوما . وتوفى وسنه نحو سبعين سنة . وقد دفن بعد أن صلى عليه ابن بنت الأعز تقى الدين .

ملحوظة : ورد فى طبقات السبكى ج ٥ ص ٥٥ اسم لأحد قضاة القضاة شبيه باسم برهان الدين المذكور هنا إذ قال « الخضر بن الحسن بن على ، الوزير الكبير قاضى القضاة برهان الدين السنجارى » . إلى آخره . ولكن سياق ترجمته لا يدل على أنه هو القاضى الذى ترجمنا له هنا . إذ أورد السبكى أنه توفى عام ٦١٨ هـ ، وقد نيف على الثمانين .

« سلوك المقريزى ج١ ـ وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١١١ إلى ١١٣ ـ وطبقات السبكى ج ٥ ص ٥٥ ـ ورفع الإصر »

١٠ — شهاب الدين محمد الخوبى ٦٩٣ هـ

محمد بن أحمد بن خليل من قضاة الشافعية . وهو الخوبى منسوب إلى خوية بلدة بأذربيجان . وقد كان متوليا قضاء حلب ثم عزل . وعين مكانه نجم الدين أبو بكر بن سنى الدولة ، وذلك فى عام ٦٧٨ هـ فى عهد السلطان المنصور قلاوون .

ولما طلب قاضي القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسي أن يقال من بعض نواحي القضاء ، أقيل من قضاء القاهرة والوجه البحري ، وبقي بيده قضاء مصر والوجه القبلي . فأسند قضاء القاهرة والوجه البحري إلى القاضي شهاب الدين محمد الخوبي . وذلك في أول رجب سنة ٦٨١ هـ وكان قبيل ذلك يشغل نيابة الحكم في قضاء الغربية من أعمال مصر . ولما كانت أوائل سنة ٦٨٦ هـ انتقل الخوبي إلى قضاء دمشق وترك قضاء القاهرة ، فأسند إلى برهان الدين خضر السنجاري كما مر في ترجمته . وقد عاش الخوبي حتى توفي في سنة ٦٩٣ هـ . وكان ميلاده في رجب عام ٦٢٦ هـ .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ ، ١١٣ — وسلوك المقريزي ج ١ — رفع الإصر »

١١ – تقي الدين بن بنت الأعز ٦٩٥ هـ

وهو قاضي القضاة عبد الرحمن بن تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، وأخو قاضي القضاة صدر الدين عمر . كان عالما فقيها . ذكيا فصيح اللسان محبا للأدب ، شاعرا مجيدا ومدرسا نافعا . تأدب وسمع الحديث : وانتفع بعلم أبيه وأفذاذ عصره كعز الدين بن عبد السلام . وكان شافعي المذهب . وقد كان في سنة ٦٨٠ هـ واليا على الخزائن المعمورة في عهد الملك المنصور قلاوون . وفي ١٠ المحرم من تلك السنة توفي أخوه صدر الدين ، وكان ناظرا على المدرسة الصالحية والتربة الصالحية . فصدر مرسوم الملك المنصور ، بأن يخلفه في النظر أخوه تقي الدين ، مضافا إلى ما بيده في نظر الخزائن ، بشرط أن يكتفي بالأجر الذي يصله من المدرسة والتربة فقط ويحذف أجره من نظر الخزائن . فتم ذلك .

ولما توفي القاضي وجيه الدين البهنسي عام ٦٨٥ هـ ، وكان بيده قضاء مصر والوجه القبلي ، اختير لهذا المنصب من بعده القاضي تقي الدين . فتم تعيينه فيه في يوم الأربعاء ١٥ جمادى الأولى من العام المذكور .

ولما نقل القاضي شهاب الدين الخوبي من قضاء القاهرة والوجه البحري إلى قضاء دمشق ، وأسند منصبه هذا إلى القاضي برهان الدين السنجاري في نصف المحرم

سنة ٦٨٦ هـ ، نزل السنجارى فجلس للحكم فى المدرسة المنصورية بين القصرين . ورسم له أن يجلس فى دار العدل فوق قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن بن تاج الدين بن بنت الأعز . فشق ذلك على القاضى تقى الدين وسعى أن يعفى من الجلوس للحكم فى دار العدل . ولكنه ما لبث أن مات برهان الدين السنجارى فى ٩ صفر فجأة بعد ولايته ٢٤ يوماً . فانضم قضاء القاهرة والوجه البحرى إلى قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن ، وبذلك أصبح قضاء البلاد كلها فى قبضة يده مع نظر الخزائن المعمورة . وأصبح ذا مكانة ممتازة . حتى لقد عرض السلطان المنصور عليه أن يلى الوزارة وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٨٧ هـ فامتنع . فوليها الأمير بدر الدين بيدرا ، وأمره السلطان بمشاورة ابن بنت الأعز تقى الدين ، وأن يعمل بما يشير به عليه . وقيل بصدد هذا إن السلطان كان إذا دخل عليه القاضى تقى الدين — وهو يومئذ ناظر الخزانة — يقول له : يا قاضى كيف حال ولدك بيدرا فى وزارته ! فيقول له : « ياخوند ! ولد صالح ، دخلت بولايته الجنة . وأزلت الظلم واستجلبت لك الدعاء . والذى كان يحصل بالعسف حصل باللطف » .

وصار القاضى تقى الدين يدخل على بيدرا كل يوم أربعاء وينظر فى تصرفاته ويفتش عمله ويشير عليه بما يفعل . ثم لم يلبث بيدرا أن عزل فى ١٩ ربيع الآخر من العام نفسه ، واستدعى قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن ليلى الوزارة مع ما بيده من القضاء ونظر الخزانة . فقبلها بعد أن قبلت شروطه التى قدمها . غير أنه — كما يقول المقريزى — لم يوف كل هذه المناصب حقها لانقسام وقته فيما بينها ، ولتشعب عمله فيها . إذ كان يجلس فى اليوم الواحد مرة فى دست الوزارة ومرة فى مجلس الحكم ومرة فى ديوان الحكم . ولم يوف منصب الوزارة حقه لتمسكه بظاهر الأمور الشرعية . . . » فأعفى من الوزارة وأعيدت إلى الأمير بيدرا بعد قليل.

وبعد زمن يسير أسندت الوزارة إلى ابن السلعوس . وذلك فى أوائل حكم السلطان الأشرف خليل ، لأنه كان من أصفيائه وخلصائه . وفوض إليه أمور

ذواته حتى عظم شأنه ، وأصبح صاحب الكلمة الأولى فى الدولة ، واستهان بغيره من أمراء وكبار وموظفين . ولعل قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن لم يعترف بتلك العظمة التى بلغها ابن السلعوس ، فلم يعامله بالتجلة المناسبة ، ولهذا كرهه ابن السلعوس وطفق يكيد له لدى السلطان حتى عزله عن جميع المناصب التى كان يتولاها ، وقيل إنه كان يتولى سبعة عشر منصباً ، منها : قضاء الشافعية فى الديار المصرية كلها وخطابة الأزهر ونظر الخزانة ومشيخة الشيوخ ونظر تركة بيبرس وأوقافه وجملة دروس . وقد تم هذا فى رمضان عام ٦٩٠ هـ ، وتولى القضاء من بعده بدر الدين بن جماعة .

ولما عزل القاضى تقى الدين عبد الرحمن ، عز أمره على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، فتقدم هذا الأمير إلى السلطان الأشرف خليل وشفع لديه فى القاضى تقى الدين ، واتفق وإياه على أن يتولى قضاء الشام ، فعلم عدوه ابن السلعوس بالأمر ، فما كان منه إلا أن دبر له مؤامرة دنيئة ، اتهمه فيها بأنه يلوط وأنه كافر ، وأنه يتشبه بالنصارى . ولم يعجزه أن يسوق الشهود لإثبات ذلك حتى اندفع السلطان إلى أن حكم على القاضى البرىء بأن يركب حماراً ويشهر فى الطريق . فقبض عليه الوزير ونكل به وسجنه ، وطالبه بمال كثير وألحق به ضروباً من الإهانة . وما زال أمره فى محنة . حتى شفع فيه لدى السلطان الأمير بدر الدين بيدرا ، بناء على طلب الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ، فأطلق السلطان سراحه بعد أن لبث فى السجن أياما ، وغرم غرما مالياً طائلا . وقد استمرت محنته إلى أخريات العام المذكور ٦٩٠ هـ . بفضل حنق ابن السلعوس عليه ! ولم تهدأ هذه المحنة إلا قليلا من الزمن ، تولى خلاله التدريس فى المدرسة الناصرية بجوار ضريح الإمام الشافعى ، وبسبب ذلك طولب بأن يؤدى مالا وسئل وأهين مرة ثانية وادعى عليه بالباطل . ثم سجن مرة أخرى . وظل فى السجن حتى أول شهر رمضان عام ٦٩٢ هـ . فأفرج عنه . ولم يجد الرجل بدأ من أن يداهن ويتملق حتى ينجو من الشر ! فأنشأ قصيدة يمتدح بها الوزير

ابن السلعوس . باعث محنته ومسبب كربته فقبلها منه وسن ثم ثبتت براءته ! .
وأذن له فى المسير إلى مكة ليؤدى فريضة الحج . بعد طول هذه الإهانة ، وبعد
بذل هذا الغرم الكبير الذى قيل إنه بلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار .

قيل إنه لما حج وزار قبر النبى عليه السلام ، كشف رأسه واستغاث به
ومدحه بقصيدة دالية ـ مستشفعا به إلى الله أن يجيره . فلم يصل إلى
القاهرة إلا وقد أزال الله ملك الأشرف خليل فقتل . أما وزيره ابن
السلعوس فقد سجن وعذب حتى مات ، وهكذا تقلبت الأحوال . وبدأت
سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون . وهى سلطنته الأولى ، وكان وزيره فيها
الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . وذلك فى أوائل المحرم عام ٦٩٣ ﻫ . فعزل
القاضى بدر الدين بن جماعة من قضاء الشافعية ، وأسند فى ١٩ صفر إلى القاضى
تقى الدين عبدالرحمن بن بنت الأعز كما كان . وسمى ذا الرئاستين ، وقد وصل إليه
خبر عودته إلى القضاء قبل وصوله إلى القاهرة فظل فى منصبه هذا حتى شهد عهد
عهد الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى . ثم وافته منيته فى ١٦ جمادى الأولى
عام ٦٩٥ ﻫ . وكان ميلاده فى ١٢ رمضان عام ٦٣٩ ﻫ ،

وولى القضاء من بعده تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى .

« طبقات السبكى ج ٥ ص ٦٤ ـ حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ ـ تاريخ ابن الوردى
ج ٢ حوادث عام ٦٩٥ ـ فوات الوفيات ج ١ ص ٣٢٧ ـ سلوك المقريزى ج ١ ـ رفع الاصر » .

١٢ — تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى ٧٠٢ (١)

هو قاضى القضاة العف الورع ، تقى الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين على
ابن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى المنفلوطى المعروف بابن دقيق العيد .
ولد بناحية ينبع سنة ٦٢٥ ﻫ ، وكان أبوه حينئذ متوجها من قوص إلى مكة لأداء
فريضة الحج . وقد نشأ مباركا ذكيا جليل النظر ، حسن الاستنباط ، وتمذهب
كأبيه بمذهب الإمام مالك ثم عدل عنه إلى مذهب الشافعى ، حتى أصبح فيه قدوة

(١) روى ابن إياس أنه توفى عام ٧٠٤ ﻫ .

وإماما ، ونبغ فى الفقه والحديث والأصول والنحو . وله باع طويل فى الشعر والكتابة والوعظ والتأليف والتدريس . وأكب على الاطلاع والدرس ، وتتلمذ للشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيره من الأفاضل .

وقد تولى التدريس بالمدرسة المجاورة لقبة الشافعى فى شهر رجب سنة ٦٨٠هـ. ولما توفى القاضى الشافعى تقى الدين بن بنت الأعز عام ٦٩٥ هـ . اختير تقى الدين ابن دقيق العيد ليلى منصب القضاء ، وذلك فى دولة العادل كتبغا المنصورى ، فتأبى وامتنع. فهددوه بأن يولوا القضاء رجالا لا يصلحون له ، فخاف تقى الدين وأوجب على نفسه القبول خشية على العدالة . وقد قام بمهمة القضاء خير قيام بعفة ونزاهة ومهارة وحكمة ، حتى أجله السلطان وعظمه الأمراء . واشتد فى الحق شدة شبيهة بشدة القاضى تاج الدين بنت الأعز . وغير لباس القضاة من الحرير إلى الصوف . ومما يدل على شدته أن الأمير منكوتمر نائب السلطنة فى عهد السلطان لاجين أراده على أن يقضى لشخص بإرث رجل متوفى باعتباره أنه أخوه ، فرفض القاضى تقى الدين على الرغم من إلحاح منكوتمر عليه وتحيله ، وهم بترك القضاء لولا إلحاح السلطان عليه . والسبب فى ذلك أن الأدلة لم تقم لديه كاملة على الأخوة المذكورة ، إلا شهادة منكوتمر وحده ومما يدل على ذلك أيضاً أنه فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، أراد السلطان مالا من الرعية لإنفاقه على تجريدة له إلى بلاد الشام . واحتاج فى ذلك إلى فتوى من القاضى تقى الدين بن دقيق العيد فرفض . فاحتجوا عليه بفتوى العز بن عبد السلام للمظفر قطز بجواز أخذ مال من الرعية . فرد عليهم بأنه لم يجز ذلك إلا بعد أن أحضر الأمراء مالديهم من مال وحلى هم وأولادهم ونساؤهم . وحلف كلا منهم أنه لا يملك غير ما تقدم . وظل رافضا آبيا وقام عنهم . فكان رفضه هذا سبباً لعدم إرهاق الرعية بضرائب فادحة .

ومما يذكر لتقى الدين بن دقيق العيد أنه كان كثير النصح للناس دائم الإرشاد لنواب حكمه يوصيهم بالعمل الصالح ومراعاة العدل . ويدبج لهم رسائل طريفة

جامعة برسم لهم فيها طريق العمل . . وخرج مرة مع الناصر محمد بن قلاوون عام ٦٩٩ هـ . إلى الشام لمحاربة التتار وشهد موقعة سلمية . وظل فى القضاء مهيب الجانب محمود السيرة سامى المنزلة حتى قبض إلى رحمة الله عام ٧٠٢ هـ فى ١٢ صفر .

وسنذكر عنه كلمة منفصلة فى الجزء الثانى من كتابنا هذا ، ومن شعره كثير فى مدح النبي عليه السلام والغزل والحنين ، وقد ورد كثير منه فى طبقات الشافعية للسبكى مع بعض نثره وخطبه .

« طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٣ — ١١٤ — وفى فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٠٥ ـ ابن اياس ج ١ ص ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ـ الطالع السعيد للأدفوى رقم ٤٦٢ ـ وفى سلوك المقريزى ج ١ ـ وفى رفع الإصر » .

١٣ — بدر الدين بن جماعة ٧٣٣ هـ

هو قاضى القضاة العالم الفاضل المؤلف الكاتب الشاعر الأديب ، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة بن حازم بن صخر الكنانى الحموى ، فخر حماة . وقد ولد فى ربيع الآخر سنة ٦٣٩ هـ وله أسرة من أعرق أسر مدينة حماة ، بارك الله فى كثير من رجالها فخدموا العلم والدين والأدب والعدالة فى القضاء خير الخدمات . وقد برع هذا القاضى فى الفقه والحديث وتفسير القرآن الكريم والكتابة الإنشائية ونظم الشعر . ولما ذاع فضله وكل إليه قضاء الشافعية بالقدس وخطابتها فى ٤ شوال سنة ٦٨٧ هـ .[1] وكان قبيل ذلك يشتغل بالتدريس فى دمشق . فلبث فى القدس حتى وقعت الفتنة والعداوة بين قاضى قضاة الشافيعة بمصر وهو تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعزوبين الوزير المستبد ابن السلعوس ، وأدى ذلك إلى عزله من القضاء . وأشار ابن السلعوس على سلطان البلاد الأشرف خليل بن قلاوون ، بأن يولى فى قضاء الشافيعة عوضا عنه قاضى القدس وخطيبها ، البدر بن جماعة ، فوقع عليه اختيار

---

(١) قيل فى الدور الكامنة أنه تولى سنة ٦٨٢ هـ

السلطان فعلا . وكانت بين بدر الدين وبين ابن السلعوس صلة ود ومحبة . ومن غريب ما يروى فى هذا المقام أن السلطان لما عزل القاضى تقى الدين أراد أن يختار رجلا من رجال الشافعية بالديار المصرية ليوليه القضاء فسأل هؤلاء الرجال واحدا واحدا ، كل منهم على انفراد ، فيمن يصلح منهم ليلي هذا المنصب الجليل ، فما منهم إلا ذم زميله وأهل مذهبه . . ! وعندئذ وجد ابن السلعوس الوزير فرصة أشار فيها على سلطانه بأن يختار البدر بن جماعة . فأرسل إليه ، فوفد إلى مصر وأجله أهلها. وتولى قضاء الديار المصرية فى رمضان عام ٦٩٠ هـ . وخطب بالجامع الأزهر وألقى دروسه فى المدرسة الصالحية . وكان يجيد إلقاء هذه الدروس ، كما أنه كان يعنى بتدبيج خطابته وتنميقها . ولبث فى منصبه حتى أوائل المحرم عام ٦٩٢ هـ ، إذ كانت السلطنة قد آلت إلى الناصر محمد بن قلاوون ، وكانت الوزارة قد آلت إلى الأمير علم الدين الشجاعى صديق القاضى تقى الدين بن بنت الأعز . فعزل البدر بن جماعة من منصب القضاء وأعيد إليه تقى الدين بن بنت الأعز . وتم ذلك فى ١٩ صفر من العام المذكور . وأسند إلى بدر الدين بن جماعة التدريس فى المدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعى وفى المشهد الحسينى . ثم نقل بعد قليل إلى قضاء الشافعية بدمشق . وفى السنة التالية أضيفت إليه الخطابة بالجامع الأموى . وقيل إنه أول من جمع له بين القضاء والخطابة بدمشق . وظل فى منصبيه حتى شهد عصر السلطان المنصور لاجين ، فعزل من قضاء الشافعية بدمشق وحل محله إمام الدين عمر ابن عبد الرحمن القزوينى وذلك فى ٤ جمادى الأولى عام ٦٩٦ هـ . وأصبح أمر ابن جماعة مقصورا على الخطابة فى جامع دمشق والتدريس بالمدرسة القيمرية بها .

ولبث على تلك الحال زمنا حتى توفى القزوينى ، فأعيد إليه منصب قضاء دمشق فى ١٥ شعبان عام ٦٩٩ هـ . وفى سنة ٧٠١ هـ أضيفت إليه مشيخة الشيوخ بدمشق بإجماع الصوفية ، بعد موت شاغلها وهو ابن حمويه فى ربيع الأول .

ولما مات قاضى قضاة الشافعية بمصر آنئذ وهو تقى الدين بن دقيق العيد ، وقع الاختيار على القاضى بدر الدين بن جماعة ليلى المنصب . وهذه ثانى مرة يليه فيها .

فقدم إلى القاهرة وخلعت عليه خلع المنصب في يوم السبت ٤ ربيع الأول عام ٧٠٢ ﻫ . ثم ظل أمره في قضاء مصر بين عزل وتعيين ، حتى كف بصره وثقل سمعه في أخريات حياته ، فاعتزل القضاء عام ٧٢٧ ﻫ ، وأقام في داره وفي مدرسة الخشابية يدرس العلم للناس . ويعرف عنه أنه كثرت أمواله فترك أخذ الأجر على القضاء . ثم توفي سنة ٧٣٣ ﻫ بالقاهرة في سن ٩٥ تقريبا ، ودفن بالقرافة ، بعد أن بلغ من المجد أوجه ومن العز أعلاه ومن الجاه أسماه . وقد ظل حياته مرجعا للأمراء في الصلح وفي الشورى والسفارة . وكان لا يفتأ يسعى لصالح الناس إلى أبواب الملوك . وكان في الوفد الدمشقي الذي وفد على السلطان غازان ملك التتار عام ٦٩٩ ﻫ ، يرجوه أن يرسل أمانا إلى أهل دمشق وألا يبطش بهم . وذلك بعد أن هزم جيوش مصر وفروا من وجهه إلى ديارهم .

ويعتبر القاضي بدر الدين بن جماعة أحد أدباء العصر ومؤلفيه ، لما له من خطابة جامعة شاملة كان يعكف على إعدادها . ولما له من نظم مليح . ولماله من مؤلفات منها : رسالة في الأسطرلاب ، وأخرى سماها «كشف المعاني» بحث فيها عن بعض معاني القرآن الكريم والفروق بين الآيات المتشابهة فيه . وله شعر ذكر بعضه السبكي في طبقاته، وهو رقيق من النوع العلمي . كما ذكر له عدة مسائل فقهية أفتى فيها برأى صائب ، وجملة تفاسير قرآنية جليلة في المتشابهات .

وأسرة ابن جماعة من الأسر التي أسدت خدمات جليلة للدين والقضاء والعلم والأدب . ومن أبنائه قاضي القضاة «عبد العزيز بن جماعة» ولد سنة ٦٩٤ ﻫ بدمشق وسمع الحديث من الأبرهوقي وابن عساكر . وتولى قضاء الشافعية بمصر زمنا . وزاول التدريس بها زمنا آخر بجامع الإمام الشافعي وجامع ابن طولون وتوفي بمكة المكرمة سنة ٧٦٧ ﻫ . — أما بدر الدين بن جماعة نفسه فقد دفن بالقرافة بالقاهرة .

* ابن إياس ج ١ ص ١٣٥ ، ١٤٠ — طبقات السبكي ج ٥ ص ٢٣٠ — وفي فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٧ — وفي كتاب تاريخ حماة لابن الصابوني الحموي — وفي تاريخ ابن الوردي ج ٢ حوداث عام

٧١١ هـ ـ وفي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ ـ وفي الدرر ج ٣ رقم ٧٤٦ ـ وفي السلوك ج ١ ـ وفي رفع الإصر » .

١٤ — جلال الدين القزويني ٧٣٩ هـ

هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر . ويلقب بجلال الدين . وأصله من بلاد قزوين ، قدم إلى دمشق . وكان شافعي المذهب ، فاشتغل بالتدريس في مدارسه . ثم ناب في الحكم عن القاضي نجم الدين بن صصرى ، قاضي قضاة دمشق . ثم اشتغل بالتدريس بالمدرسة البدرانية وولي الخطابة بدمشق ، ولقي حينذاك ، من نائبها كراي أذى كثيراً ، بسبب وقوفه مع العوام بسوق الخيل محتجين على الضرائب التي فرضها عليهم . ولكن سرعان ما عزل النائب لهذا . وولي جلال الدين قضاء القضاة بها . ثم انتقل إلى قضاء الشافعية بمصر سنة ٧٢٧ هـ ، على أثر عزل بدر الدين ابن جماعة . فلبث فيه زهاء إحدى عشرة سنة ، ثم عزل سنة ٧٣٨ هـ ، وانتقل ثانية إلى قضاء دمشق ، فظل حتى مات سنة ٧٣٩ هـ . فولي قضاء الشام من بعده تقي الدين السبكي[(١)]

وكان جلال الدين كريما سمحا غزير العلم ، متصدرا للفتوى ، مشتغلا بالشئون العامة . وقد وفد على ملك التتار غازان ، حينما أراد أن يقتحم دمشق سنة ٦٩٩ هـ ، فأرسلت إليه دمشق وفدا يطلب الأمان ، كان فيه بدر بن جماعة ، وجلال الدين القزويني . فأخبرهم أنه آمنها قبل قدومهم .

ولما مات رثاه صلاح الدين الصفدي بقصيدة منها :

هذا الإمام الذي ترضى حكومته   خلاف ما قاله النحوي في الصحف

حبر متى جال في بحث وجاد فلا   تسأل عن البحر والهطالة الوطف

ومن مؤلفاته الكثيرة : كتاب التلخيص في المعاني والبيان . وكتاب

---

(١) انظر ترجمة تقي الدين السبكي مفصلة في باب العلماء والمؤلفين بالجزء الثاني من كتابنا هذا .

الإيضاح فيه أيضا . وكانت ولادته بالموصل عام ٦٦٦ ﻫ .

« طبقات السبكي ج ٥ ص ٢٣٨ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ — ابن إياس ج ١ ص ١٤٠ — ورفع الأصر — وروى السبكي أنه مذكور في سجع المطوق لابن نباتة والمسالك لابن فضل الله . راجع أيضا المجلد السادس من كتابنا هذا » .

١٥ — ناصر الدين بن الميلق ٧٩٨ ﻫ

محمد بن عبد الدائم بن سلامة بن بنت الميلق ويقال له ابن الميلق . تناوب قضاء الشافعية زمنا ، هو وبدر الدين السبكي ، وغيرهما من القضاة . وأول تولية له كانت في شعبان عام ٧٨٩ ﻫ ، في عهد برقوق ، فلما خلع عليه السلطان خلعة التولية ، امتنع من لبسها ، غاية الامتناع ، فأكرهه السلطان على لبسها ، وتوفي عام ٧٩٨ ﻫ . وكان مولده في عام ٧١٢ ﻫ .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ — رفع الإصر — ابن إياس ج ١ ص ٢٦٧ ، ٣٠٤ »

١٦ — بدر الدين السبكي ٨٠٣ ﻫ

هو بدر الدين محمد بن القاضي بهاء الدين أبي البقاء محمد بن عبد البر السبكي . كان شافعي المذهب تولى أبوه بهاء الدين قضاء الشافعية بمصر زمانا . أما بدر الدين فقد ولي قضاء الشافعية سنة ٧٧٩ ﻫ . ثم عزل منه مراراً ، وعاد إليه مرارا أخرى . فمن ذلك انفصاله عام ٧٨٩ ﻫ ، ثم عاد إليه سنة ٧٩١ ﻫ . وتوفي في ليلة السبت ١٧ ربيع الثاني سنة ٨٠٣ ﻫ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٦٨ ، ٣٤٠ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ »

١٧ — موفق الدين الحنبلي ٨٠٣ ﻫ

هو أحمد بن نصر الله بن أحمد ، موفق الدين بن ناصر الدين الكناني العسقلاني الأصل ، القاهري الحنبلي . سبط الموفق عبد الله . اشتغل بالفقه وغيره فمهر . وولي قضاء الحنابلة بالديار المصرية بعد أخيه إبراهيم ، ثم صرف عام ٨٠٢ ﻫ . ثم أعيد في آخرها ، فلبث به إلى السنة التالية . وخرج عام ٨٠٣ ﻫ مع الناصر فرج للقاء تيمورلنك بالشام ، فهزم الجيش ، وعاد الموفق إلى مصر ، مع من عاد . وتوفي

بعد قليل في رمضان عام ٨٠٣ هـ . وكان مولده فى المحرم سنة ٧٦٩ هـ .

« ابن إياس ج١ ص٣٢٨، ٣٣٧ ـ رفع الإصر ـ الضوء اللامع ج٣ رقم٦٥٧ »

١٨ — صدر الدين المناوى ٨٠٤ هـ

كان شافعى المذهب . أول ما ولى قضاء الشافعية فى مصر فى ذى القعدة عام ٧٩١هـ، ثم عزل فى الشهر التالى ثم أعيد فى المحرم سنة ٧٩٥هـ عوضا عن عماد الدين الكركى . ثم أعيد وعزل عام ٧٩٩ هـ ، ثم أعيد وعزل فى السنة التالية . ثم أعيد فى رجب سنة ٨٠١ هـ وهكذا ظل أمره بين التعيين والعزل فى عهد برقوق وابنه فرج.

وقد خرج مرة مع السلطان فرج إلى بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ فى حملته ، لقتال تيمور لنك ملك التتار ، فانهزم الجيش المصرى ، وأسر التتار منه عددا ضخما ، كان من بينه ، القاضى صدر الدين المناوى . ويقال إن تيمور لنك وضع القاضى صدر الدين فى كيس وأغرقه فى نهر الفرات سنة ٨٠٤ هـ .

« حسن المحاضرة ج٢ ص١١٥ ـ ابن إياس ج١ ص٢٩٨، ٣٠٧، ٣٢٨، ٣٣٤، ٣٤٢ »

١٩ — ولى الدين بن خلدون ٨٠٨ هـ

هو عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ المشهور . كان مالكى المذهب . تولى قضاء المالكية بمصر عدة مرات . أولها جمادى الآخرة عام ٨٨٦ هـ بعد عزل القاضى جمال الدين خير السكندرى .

وسنترجم له بتفصيل فى الجزء الثانى، والثالث من كتابنا هذا .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣ »

٢٠ — تقى الدين القرشى ٨١٣ هـ

هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد عبد الناصر بن هبة الله . تقى الدين القرشى الزبيرى المحلى الشافعى . كان والده من أعيان أهل المحلة . اشتغل بالفقه وغيره . ومهر فى التوقيع . ومازال يرقى حتى ناب فى القضاء ، ثم ولى قضاء الشافعية بمصر

بعد عزل الصدر المناوى عام ٧٩٩ هـ . فباشره بحنكة ومعرفة وعفة. ثم عزل فى عام ٨٠١ هـ وولى غير القضاء . وقد توفى عام ٨١٣ هـ ودفن بتربة الصوفية خارج باب النصر.

«الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٦٢» .

٢١ — صدر الدين بن العديم

كان حنفى المذهب، تولى قضاء الحنفية فى مصر ، فى عهد سلطنة الخليفة المستعين بالله وتولى معها حسبة القاهرة . ويقال إنه أول من جمع بين القضاء والحسبة. وظل متوليا فى عهد الملك المؤيد شيخ مدة .

«ابن إياس ج ١ س ٣٥٩ — ج ٢ س ٩»

٢٢ — جلال الدين البلقينى ٨٢٤ هـ

هو أبو الفضل عبد الرحمن بن عمر بن رسلان، وأبوه شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى . كان شافعى المذهب مثل أبيه . فنشأ فى كنفه ورعايته : فحفظ القرآن الكريم وكتبا عدة علوم مختلفة . وفقهه أبوه وغيره . وكثرت مشايخه . وسمع الحديث ...

ولما ولى أبوه قضاء دمشق، رحل معه وهو صغير . ولبث مكبا على طلب العلم فى ذكاء وصبر، وجد وقوة حافظة . وكان ـ كما قال ابن حجر ـ من عجائب الدنيا فى سرعة الفهم وجودة الحفظ ، فمهر فى مدة يسيرة ، وأصبح أهلا لولاية الوظائف فاشتغل موقعا بالدست بديوان الإنشاء ، وولى قضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل، وتوقيع الدرج . ونبه شأنه وكان قد أذن له فى الفتوى والتدريس فتصدى لها وكثرت طلبته .

ثم ولى قضاء الشافعية بمصر لأول مرة فى جمادى الأولى عام ٨٠٤ هـ فى حياة أبيه ، عوضا عن القاضى ناصر الدين الصالحى . ثم عزل فى سنة ٨٠٥ هـ ، وأعيد سنة ٨٠٦ هـ ، ثم عزل بعد قليل .

وكان مبتلى بحب القضاء ، يأسف للعزل ، ويسعى للعودة ويهش لها . وظل

أمره فيه بين عزل وإعادة ، وشهد عصر فرج بن برقوق ، وعصر المستعين بالله الخليفة السلطان فعزل فى عهده مدة ، فأسرها بعزل هذا فى نفسه - على ما قيل - وأفتى المؤيد شيخ بعزل الخليفة من السلطنة .

وظل فى القضاء مرة نحوا من ستة أعوام ، وذلك فى صفر عام ٨١٥ ﻫ إلى جمادى الأولى عام ٨٢١ ﻫ . ثم عزل ثم أعيد فى عام ٨٢٢ ﻫ. ولبث فى منصبه حتى توفى فى ليلة ١١ شوال عام ٨٢٤ ﻫ . وكان مولده عام ٧٦٣ ﻫ .

وكانت وفاته فى منزله بالصالحية . وقال السخاوى فى الضوء : إن وفاته كانت بالقاهرة . وأنه مات مسموما بمكيدة .

وكان مهيبا عفيف النفس ، لا يقبل هدية من صديق أو غيره . متواضعا لين الجانب. اشتغل بالتدريس فى مدارس عدة وله تلاميذ أفاضل أئمة، منهم ابن حجر العسقلانى . وله نثر ونظم فى مسائل علمية ، مابين أسئلة وأجوبة وغيرها .

وله أخ اشتهر بالعلم والتقوى كأبيهما : وهو « علم الدين صالح البلقينى » الآتى ذكره ، ولى القضاء زمنا بعد أخيه . وله أيضاً ابن اسمه « تاج الدين البلقينى » .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص٦٨، ٧٠، ٧١، ١١٥، ١١٦ - ابن إياس ج ١ ص ٣٤٢، ٣٥١ - ج ٢ ص ٩ - الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٠١ » .

٢٣ - مجد الدين أبو البركات الحنبلى ٨٢٦ ﻫ

هو سالم بن سالم بن أحمد بن سالم . . . القاضى مجد الدين أبو البركات بن أبى النجا المقدسى القاهرى الحنبلى . لعله ولد بالمقدس ، وذلك عام ٧٤٨ﻫ أو ٧٤٩ ﻫ.

وقد اشتغل بطلب العلم فى بلده ، فبرع فى فنون عدة منها : الفقه . وسمع الحديث وناب فى الحكم ، ثم وفد على القاهرة عام ٧٦٤ﻫ ، فزاد تفقها على كثيرين من أئمتها، وفى مقدمتهم قريبه « موفق الدين الحنبلى » . فلما مات الموفق اختير مجد الدين لقضاء الحنابلة عام ٨٠٣ﻫ ، بعد تردد منه . وأضيف إليه التدريس فى مدارس عدة . ولبث فى القضاء نحوا من خمسة عشر عاما . ثم مرض وضعف ، فقعد عنه ، ثم توفى عام ٨٢٦ﻫ .

« الضوء اللامع ج ٣ رقم ٩٠٦ »

٢٤ ـ زين الدين التفهني ٨٣٥هـ

هو زين الدين أبو هريرة التفهني. واسمه عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن ولد بتفهنا عام ٧٦٤هـ، بالقرب من دمياط، ومات أبوه وهو صغير. وكان فقيرا، فانتقلت به أمه إلى القاهرة، وهناك تفقه وسمع، حتى أصبح أحد رجال الحنفية البارزين. ومهر، فضلا عن الفقه والحديث، فى الأصول والتفسير والعربية والبلاغة والمنطق، وتصدى للتدريس والفتوى وناب فى الحكم عن الأمين الطرابلسى وغيره. وولى مشيخة الصرغتمشية، واشتغل بالخطابة.

ثم ولى قضاء الحنفية بعد الشمس بن الديرى، فى عام ٨٢٢هـ، فباشره مباشرة حسنة، وسار فيه سيرا محمودا. ثم صرف عنه عام ٨٢٩هـ، وحل محله البدر العينى. وولى هو مشيخة الشيخونية.

لم يلبث أن مات عام ٨٣٥هـ ودفن بتربة صهره الشهاب المحلى -كبير تجار مصر- بالقرب من تربة يشبك الناصرى بالقرافة.

الضوء اللامع ج٤ رقم ٢٨٥.

٢٥ ـ شهاب الدين بن حجر العسقلانى ٨٥٤هـ

هو شيخ الإسلام وقاضى قضاة الشافعية بمصر. ولى القضاء لأول مرة عام ٨٣٠هـ وقيل عام ٨٢٧هـ، فى عصر الأشرف برسباى. وعزل من القضاء مرارا، وأعيد إليه. حتى اعتزله نهائيا فى جمادى الآخرة عام ٨٥٢هـ، وتوفى عام ٨٥٤ وقيل ٨٥٢هـ.

وابن حجر كان علامة زمانه فى فقه الشافعية، وكان من حفاظ الحديث كما أنه كاتب وشاعر ومؤلف فذ، وله كتب فى التاريخ والحديث، هى الحجة والسند منها: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة. والاصابة فى تاريخ الصحابة وشرح البخارى.

ملحوظة: ترجمنا له بتفصيل فى الجزء الثانى من كتابنا هذا فى باب العلماء والمؤلفين ونوهنا بأدبه فى الجزء الثالث والرابع.

٢٦ ــ سعد الدين الديرى ٨٦٧ هـ

هو سعد الدين بن محمد بن عبد الله بن سعد بن أبى بكر ، وهو سعد الدين أبو السعادات النابلسى الأصل الدمشقى الحنفى نزيل القاهرة . يعرف بالديرى نسبة إلى مكان بجبل نابلس يسمى الدير . وكان ذكى الفؤاد سريع الحفظ . تفقه على أبيه وعلى كثير من رجال عصره الأفذاذ مثل كمال الدين السريجى وعلاء الدين ابن النقيب . ونبغ فى فقه الحنفية وروى كثيراً من الأحاديث . وأجيزت له روايتها عن برهان الدين بن جماعة . وكان محبا للمباحثات والمناظرات العلمية ، مقبلا على تفسير القرآن الكريم ، كثير الاطلاع ، محبا للأدب ، كاتبا ناظما .

وقد زادت مهابته فى عهد أبيه ، فكان يقدمه على نفسه فى الفقه وغيره . وحج عدة مرات أولها سنة ٨٠١ هـ . ويعتبر فى مقدمة رجال الحنفية فى زمانه . وقد تولى قضاءها بالبلاد المصرية لأول مرة فى المحرم عام ٨٤٢ هـ عوضا عن العينى . فكان فى منصبه مهيبا كثير العفة . ثم عزل وأعيد مرارا ، وشهد عصر الظاهر جقمق إلى عصر الأشرف إينال ، وكان أحد قضاته . ثم فصل فى أواخر عام ٨٦٦ هـ وتوفى فى العام الذى يليه وهو ٨٦٧ هـ فى ٩ ربيع الآخر وقيل فى ١٠ منه.

وقد اشتغل بالتدريس بمدارس عدة منها المدرسة المعظمية بالقدس وتولى مشيخة الجامع المؤيدى زمنا . ولما مات دفن بمقبرة الظاهر خشقدم بعد أن تولى القضاء خلال ثلاثين عاما عدة مرات . وله ابن من رجال العلم والفضل يعرف « بتاج الدين » توفى سنة ٨٩٢ هـ .

ومن مؤلفاته : شرح العقائد النفسية والكواكب النيرات فى وصول ثواب الطاعات إلى الأموات ، والسهام المارقة ، ومنظومة فى علم البديع تسمى « النعمانية » وهى طويلة ، وفتوى فى الحبس بالتهمة ، وفتوى فى هل تنام الملائكة أم لا ، وفتوى فى هل منع الشعر مخصوص بنبينا عليه السلام أم عام فى جميع الأنبياء ، وتكملة شرح الهداية للسروجى صنف منها شيئا ، وقصيدة مخمسة فى مدح النبى عليه السلام .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٢ — ابن إياس ج ٢ ص ٣٣،٦٥،٧٤،٧٦،٢٤٥ — الضوء اللامع ج ٣ رقم ٩٣٩ — الفوائد البهية للكنوى الهندى ص ٨٧ » .

٢٧ — علم الدين البلقينى ٨٦٨ هـ

هو صالح بن عمر بن رسلان بن نصير بن صالح علم الدين بن سراج الدين. وأخو القاضى جلال الدين . كان شافعى المذهب . وأول من سكن « بلقينة » جده صالح . وكان مولد علم الدين بالقاهرة سنة ٨٩١ هـ .

نشأ فحفظ كتبا وتفقه بأخيه جلال الدين وغيره ، ودرس الفقه والأصول والنحو والحديث ، وحج عام ٨١٤ هـ. ودخل دمياط وأذن له فى الإفتاء والتدريس، وخطب بالمسجد الحسينى . واستقر حينا فى توقيع الدست ، وناب فى القضاء عن أخيه بدمنهور ، واشتغل بالتدريس ، فدرس الفقه والتفسير والميعـــاد . وولى وظائف عدة .

واختير بعد وفاة أخيه جلال الدين بمدة لقضاء الشافعية بالديار المصرية فى عام ٨٢٦ هـ ، وظل أمره فيه بين ولاية وعزل يتناوبه هو وابن حجر العسقلانى وشرف الدين المناوى وغيرهما من أفذاذ عصره ، حتى كان مجموع ولايته نحـــو ثلاث عشرة سنة ونصف . وقد أعيد إليه فى عام ٨٦٧ هـ ، فلبث به حتى مات سنة ٨٦٨ هـ فى شهر رجب ، بعد أن شهد عصر جقمق وإينال وخشقدم . وقال ابن إياس إن وفاته كانت سنة ٨٦٩ هـ ، وصلى عليه فى جامع الحاكم ودفن بجوار والده بمدرسته .

وكان علم الدين إماما فطنا قوى الحافظة سريع الإدراك ، طلق العبارة فصيحا ينطق العربية معربة صحيحة ، لم تضبط عليه شاذة ، مهيبا لا يهاب ملكا ولا أميراً وقد اشتغل بالتأليف ، ومن مؤلفاته : تفسير القرآن الكريم ، وشرح على البخارى لم يكمل ، وجملة من الفتاوى ، وحواشى على الروضة وترجمته وترجمة أبيه ، والقول المفيد فى اشتراط الترتيب بين كلمتى التوحيد والتذكرة . وله نثر ونظم كثير .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ ـ ابن إياس ج ٢ ص ٢٨و٦٠ و ٧٤ و ٧٥ و٧٨ ـ الضوء اللامع ﺟ ٣ رقم ١١٩٩ » .

٢٨ — شرف الدين يحيى المناوى ٨٧١ ﻫ .

هو من أسرة المناوى ، وهى إحدى الأسر المصرية التى اشتهرت بالعلم والفقه والأدب وكان شرف الدين شافعى المذهب ، وتولى قضاء الشافعية بمصر ، ويظهر أنه وليه لأول مرة عام ٨٥٢ ﻫ فى عهد الظاهر جقمق ، فكان عادلا ديناً كثير الصلاح . ومما حدث له أنه لما توقف النيل عن الوفاء عام ٨٥٣ ﻫ ، وخرج الناس على بكرة أبيهم للاستسقاء ، خرج معهم قاضيهم شرف الدين، فصعد المنبر وخطب خطبة الاستسقاء ، ولما هم بتحويل ردائه سقط منه الرداء إلى الأرض فتطير الناس، ولكن النيل أوفى بعد هذه الحادثة. وظل شرف الدين يعزل آنا ويولى آنا آخر، حتى توفى عام ٨٧١ ﻫ ، وكان إذ ذاك منفصلا عن منصب القضاء .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦ ـ وابن إياس ج ٢ ص ٣٠ و ٣١ و ٧٤ و ٧٨ و ٨٥ » .

٢٩ — حسام الدين بن حريز ٨٧٣ ﻫ .

هو قاضى القضاة المالكى المذهب السيد الشريف حسام الدين بن حريز بن أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى . أصل أسرته من بلاد المغرب ولد عام ٨٠٤ ﻫ . ونشأ بمنفلوط ، وبرع فى فقه المالكية، وأخذ جاهه يعظم ، والزمن يصفو له حتى ولى منصب قضاء المالكية بمصر عام ٨٦١ ﻫ بعد وفاة القاضى ولى الدين السنباطى ، ويقال إنه بذل فى سبيله مالا جزيلا ، وكانت وساطته إليه ناظر الخاص الجمالى يوسف ، وذلك فى عهد السلطان الأشرف إينال . ويقال إنه كان بين المالكية حينئذ من يعتبر أكفأ منه وأولى بمنصب القضاء . ولكنه أسعده جده ولبث فى هذا المنصب نحو ١٢ عاما حتى قبض فى شعبان سنة ٨٧٣ﻫ ، بعد أن شهد عصر خشقدم وتمربغا والأشرف قايتباى . وبعد وفاته تولى قضاء المالكية أخوه سراج الدين بن حريز الآتى ذكره بعد .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ ـ ابن إياس ج ٢ ص ٥٨ و ٨٣ و ٩٦ و ١٠٦ » .

٣٠ — عز الدين أحمد بن نصر الله الحنبلى ٨٧٦ هـ *

هو قاضى القضاة أحمد بن إبراهيم بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن هاشم ابن إسماعيل بن نصر الله بن أحمد العسقلانى الحنبلى . ولد بالقاهرة فى ١٦ ذى القعدة عام ٨٠٠ هـ ، وكان غزير العلم كثير التواضع فكه المحاضرة عفيف اليد واللسان . واشتغل بالتدريس زمنا ، وولى قضاء الحنابلة فى مصر بعد وفاة قاضيها بدر الدين البغدادى فى عام ٨٥٧ هـ ، واستمر فى منصبه هذا نحو عشرين عاما . وكان أجل علماء مذهبه وأفضلهم . وقد توفى بالقاهرة قبيل الثمانين فى جمادى الأولى عام ٨٧٦ هـ ، واستمر المنصب شاغراً بعد وفاته أشهراً ، ثم وليه القاضى بدر الدين السعدى ، وقد شهد القاضى عز الدين عصر ثمانية من سلاطين مصر وهم من جقمق إلى قايتباى . وقد ذكرناه فى جزئنا الثانى من هذا الكتاب .

* حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ — ابن اياس ج ٢ ص ٣٥ ، ٦٥ ، ٩٦ ، ١٤٩ — الضوء اللامع ج ١ ص ٢٠٥ » .

٣١ — برهان الدين الديرى ٨٧٦ هـ

هو قاضى قضاة الحنفية فى مصر إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن سعد بن مصلح العبسى القدسى . وقبل أن يلى منصب القضاء ، تقلب فى مناصب عدة فمنها ، نظارة الأسطبل ونظارة الجيش . وحينما عزل محب الدين بن الشحنة من كتابة السر وسلك فى منصب القضاء عام ٨٦٧ هـ ، عين على أثره برهان الدين الديرى فى كتابة السر بمصر ، ولكن لسانه زل زلة كانت سببا لغضب السلطان الظاهر خشقدم عليه ، وذلك أنه توفيت والدة المقر الشهابى أحمد بن العينى يوم سبت ، فشيعها مع المشيعين وعاد بصحبة الأمير جانى بك ، فقال له إن هذه المتوفاة نزلت من القلعة يوم السبت ولا بد أن يعقبها كبير ، وأظنه السلطان ! فبلغت قالته إلى السلطان فغضب عليه وعزله بعد أقل من شهرين ، مع العلم بأنه — كما قيل — ما نال هذه الوظيفة إلا بعد أن بذل فى سبيلها خمسة آلاف دينار ! ثم تقلبت الأيام ورضى عنه السلطان فأقامه قاضى قضاة الحنفية بعد عزل ابن الشحنة من هذا المنصب عام ٨٦٩ هـ ومنحه خلعة

القضاء ونزل فى موكب حافل من لدنه . ولكنه ماعتم أن عزل فى العام الذى وليه، وعاد مكانه ابن الشحنة ثانية . أما برهان الدين فقد ظل زمنا بلا منصب . ثم أسندت إليه مشيخة الجامع المؤيدى فلبث بها حتى توفى عام ٨٧٦هـ فى المحرم .

وهو أخو القاضى سعد الدين الديرى المذكور فيما مضى .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٥، ٧٨، ١٢٨ ـ الفوائد البهية للكنوى الهندى ص ٨٠ » .

٣٢ — شمس الدين الأمشاطى ٨٨٥ هـ

هو محمد بن محمد بن أحمد بن حسن به إسماعيل بن يعقوب العينتابى الكحكاوى الأمشاطى . برع فى فقه الأحناف وكان أحد نواب قضاته زمنا كبيرا مع وفرة عقل وفكاهة محضر وعفة واستقامة وعدل . وعندما عزل محب الدين بن الشحنة من القضاء الأكبر عام ٨٧٧هـ عين مكانه شمس الدين الأمشاطى ، فكان كفئا لهذا المنصب العظيم ، وذلك فى حكم الأشرف قايتباى . وراوده السلطان على حل الأوقاف والاستبدالات ، وأن يقيم قاضيا يفوض إليه أداء هذه المهمة ، فقال للسلطان : إن السلطان له ولاية التفويض إلى من يشاء ، وأما أنا فلا ألقى الله تعالى بحل الوقف ولا بعمل استبدال . وقام من مجلس السلطان كالغضبان . وما زال بمنصبه حتى مات فى شوال سنة ٨٨٥هـ ، وظل منصب قاضى قضاة الحنفية من بعده خاليا زمنا ، ثم عين فيه شرف الدين موسى بن عيد أحد علماء الشام . ومما يذكر أن شمس الدين كان شيخا للمدرسة البرقوقية .

ابن إياس ج ٢ ص ١٤٠، ١٤٤، ١٩٨، ٢٠٢

٣٣ — شرف الدين موسى بن عيد ٨٨٦ هـ

هو موسى بن أحمد بن عيد الدمشقى الحنفى . أصله من عجلان ، وتولى قضاء الحنفية بدمشق . ولما توفى قاضى قضاة الحنفية بمصر شمس الدين الأمشاطى عام ٨٨٥هـ ، لم تتجه رغبة السلطان الأشرف قايتباى إلى تولية أحد الأحناف المقيمين بمصر ، فاستدعى بعد قليل قاضى قضاة دمشق شرف الدين موسى بن عيد ليلى هذا المنصب الرفيع . فوصل إلى مصر فى ذى القعدة من هذا العام .

ولبث في منصبه قليلا ، ثم وقعت زلزلة رائعة في المحرم من عام ٨٨٦ هـ ، مادت لها الأرض . فارتاع لها الشيخ ، وسقط عليه ساقط ، فقتله ومات لساعته . ولما شيعت جنازته كان السلطان في طليعة المشيعين والمصلين عليها . وقد دفن بالصحراء وكان مولده في سنة ٨٠٣ هـ .

« ابن إياس ج٣ ص١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ » .

٣٤ — محب الدين بن الشحنة ٨٩٠ هـ

هو قاضي القضاة الكاتب الشاعر الفقيه المؤلف ، محب الدين محمد بن محمد ابن محمد ابن محمود بن غازي الثقفي الحلبي . وهو حنفي المذهب . وهو غير محب الدين ابن الشحنة الذي كان قاضيا في حلب عام ٧٧٧ هـ ، في العهد الأول من سلطنة الملك برقوق ، أول ملوك الجراكسة والذي ولد عام ٧٤٩ هـ وتوفي عام ٨١٧ هـ . والذي له بعض المؤلفات ولعل بين الاثنين صلة قربى ونسب [١]

أما محب الدين بن الشحنة قاضي قضاة مصر ، فيظهر أنه ولد عام ٨٠٤ هـ بحلب أيضا وشب بها ، وعلى علمائها تثقف ، وكانت ميدانا له ظهرت فيه مواهبه ثم يمم شطر مصر ، ولبث فيها زمنا يغترف من مناهلها . ثم اختاره السلطان الأشرف إينال قاضيا للحنفية في جمادى الثانية لمدينة حلب ، فسافر إليها . ثم عين كاتبا للسر في مصر في ذي القعدة عام ٨٥٧ هـ عوضا عن محب الدين بن الأشقر الذي عزل منها . فبدأ نجم ابن الشحنة في الصعود من ذلك الحين . ويظهر أنه أسند إليه أيضا نظر الجيش في ذلك الحين . وظل في منصبه ذلك أكثر من نصف عام ، ثم عزل في رجب سنة ٨٥٨ هـ وأعيد ابن الأشقر إلى كتابة السر كما كان من قبل . فظل محب الدين بعيدا عن المنصب حتى توفي ابن الأشقر عام ٨٦٣ هـ ، فعاد هو إلى كتابة السر . غير أنه مالبث فيها إلا إلى سنة ٨٦٧ هـ ، ثم عزله السلطان الظاهر خشقدم ، وعدل به من كتابة السر إلى القضاء . فعينه قاضي قضاة الأحناف

---

(١) انظر كتاب « التعليقات السنية على الفوائد البهية » للكنوى الهندي ص١٥

بمصر. فظل بمنصبه حتى عام ٨٦٩ هـ ثم عزل منه . ولم يمكث غير قريب حتى أعيد إليه في أوائل السنة التالية ، فظل في القضاء زمنا حتى شهد عصر السلطان تمربغا ثم قايتباى . وفى عام ٨٧٥ هـ ، وقعت فتنة بسبب عمر بن الفارض المتصوف من الزاهد والشاعر المشهور ، فاختلف العلماء فيه ، فمنهم من يقول بإيمانه وحسن معتقده ويؤول مااشتبه من ألفاظه ، ومنهم من يقول بفسقه بل وتكفيره ، لأن ألفاظه توهم الحلول والاتحاد . وكان على رأس الفريق الثانى القائل بتفسيقه جملة علماء على رأسهم محب الدين بن الشحنة وبرهان الدين البقاعى . ووقعت بين الفريقين فى هذه المسألة مشاحنات طويلة ومناقشات عدة ، أوذى فى سبيلها القاضى محب الدين حتى هجاه بعض شعراء عصره وعوامه .

عزل ابن الشحنة من القضاء بعد ذلك بقليل ، ثم أصيب بفالج ، فعد الناس ذلك من بركات ابن الفارض ! ولبث محب الدين زمنا حتى برىء من مرضه ، فعاد إلى القضاء . غير أنه مكث زمنا يسيرا ، ثم ابتلى بمحنة أخرى ، إذ وقع بين أميرتين شقيقتين نزاع حول وقف يخصهما ، فتعصب محب الدين لإحداهما ، وكان سلطان العصر الأشرف قايتباى فى جانب الأخرى ، فعزله من القضاء فى ربيع الثانى عام ٨٧٧ هـ ، فكان ذلك آخر عهده به . ولم يكتف السلطان بذلك بل أمر بالقبض عليه بدعوى استيلائه على بعض أموال أوقاف الحنفية ، فلبث فى سجنه زمنا ، ثم أطلق سراحه . وفى جمادى الأولى رضى عنه السلطان وأسند إليه مشيخة الخانقاه الشيخونية فلبث بها حتى توفى فى المحرم سنة ٨٩٠ هـ .

وأسرة ابن شحنة من الأسر المباركة ، التى نبغ فيها أفراد خدموا العلم القضاء والأدب فى مصر زمنا طويلا . ومنهم القاضى سرى الدين عبد البر بن محب الدين . ومنهم حسام الدين بن الشحنة ، والقاضى عفيف الدين ابن الشحنة وسنشير إلى بعضهم .

ابن إياس ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ٢٢٦ .

٣٥ — ولى الدين الأسيوطى ٨٩١ ﻫ

هو أحمد بن عبد الخالق بن عبد العزيز بن محمد القاهرى السيوطى الشافعى المذهب. ولد عام ٨١٣ ﻫ . وقد اشتهر بالعلم وحسن الخلق والمعاملة . وتولى مشيخة بعض الخوانق ، وقام بالتدريس زمنا . وقد ولى قضاء الشافعية عام ٨٧٠ ﻫ بعد أن عزل عنه القاضى أبو السعادات البلقينى . وكان ذلك فى عهد السلطان الظاهر خشقدم . واتصل حبله بالقضاء زمنا كبيرا حتى عهـــد الأشرف قايتباى : ثم اختلف معه فى الرأى بسبب تركة ، فما كان من السلطان إلا أن عزله ، فلبث المنصب شاغرا حتى عاد هو إليه بعد قليل بشفاعة بعض الأمراء ، وذلك فى ربيع الثانى عام ٨٨٥ﻫ .ثم حدثت له حادثة شبيهة بالأولى فى رجب عام ٨٨٦ ﻫ ، فقد كانت هناك قضية خاصة بتركة كان الشهاب أحمد بن العينى طرفا فيها ، وحكم له ولكن الحكم لم ينفذ ، فكان عدم تنفيذه سببا لأن آخذ السلطان القاضى الشافعى ولى الدين الأسيوطى والقاضى المالكى معا ، ويظهر أنهما كانا مختصين بالنظر فى هذه القضية . فعزلهما السلطان بعد نقاش بينهما طال أمده ، فكان ذلك آخر عهده بالقضاء بعد أن لبث فيه نحوا من ١٦ سنة مشكور السيرة دائم العدل ، ثم توفى سنة ٨٩١ﻫ فى شهر صفر .

« ابن إياس ج ٢ ص ٧٩ ، ٩٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢٣٤ — الضوء اللامع ج ١ ص ٢١ » .

٣٦ — شمس الدين الغزى بن المغربى ٨٩١ ﻫ .

عينه الأشرف قايتباى فى قضاء الحنفية بمصر عقب وفاة القاضى موسى بن عيد عام ٨٨٦ ﻫ . قيل إنه لم يكن أهلا لولاية القضاء ، إذ كان بين علماء الحنفية من هو أكثر منه فقها وجاها . وقيل إنه سعى إلى هـــذه الوظيفة ، وكانت وساطته إليه الأستادار تغرى بردى ، والمهمندار يعقوب شـاه . ولبث فى منصبه نحو عامين، ثم أمر السلطان فى ربيع الأول عام ٨٨٨ﻫ ، بمحاسبته على ما لديه من مال . فكان ذلك بدء عذابه ومحنه . وتكاثرت ضده الشكاوى ، حتى عقد له مجلس من القضاة الثلاثة ، وحاسبه جباة المال حسابا عسيرا ، وذلك بمنزل الأمير برسباى قرا . ومع هـذا كله ظل فى منصبه لا يبرحه حتى عام ٨٩١ ﻫ ، والسلطان يصابره حتى

فاض به إناء صبره ، فأمر فى شعبان من العام المذكور بالقبض عليه ومحاسبته حسابا دقيقا ، وسير إلى المدرسة الصالحية وظل مقبوضا عليه حتى صدر أمر عزله فى غضون العام نفسه . ويظهر أنه توفى قريبا من ذلك .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ » .

٣٧ — سراج الدين عمر بن حريز ٨٩٢ هـ

هو سراج الدين عمر بن أبى بكر بن محمد بن محمد بن حريز بن أبى قاسم ، الهاشمى القرشى العلوى الحسنى المنفلوطى . وهو أخو قاضى قضاة المالكية حسام الدين بن حريز الذى سبق ذكره . وسراج الدين هذا مالكى المذهب كذلك .

أصل أسرتيهما من بلاد المغرب ، استوطنت منفلوط . ولما توفى أخوه حسام الدين عام ٨٧٣ هـ ، تولى منصبه ، فظل قاضيا المالكية حتى عام ٨٧٧ هـ . ثم غضب عليه السلطان الأشرف قايتباى ، وقبض عليه وسجنه ، فلقى عذابا أليما وقاسى محنا شديدة . ثم أطلق سراحه . غير أنه ظل معزولا حتى توفى عام ٨٩٢ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٠٦ ، ١٣٧ ، ٢٤٣ » .

٣٨ — محيى الدين عبد القادر بن تقى ٨٩٥ هـ

هو عبد القادر بن أحمد بن محمد بن على بن تقى ، الدميرى المالكى . كان عالما فاضلا من أفقه المالكية فى زمانه ، وأكثرهم هيبة ووقارا . تلقى العلم على جماعة من القدامى كالبساطى ، فبرع فى مذهبه . وناب فى الحكم زمنا عن القاضى المالكى ، ثم انتهى إليه قضاء المالكية بمصر ، فى عهد قايتباى ، قبيل عام ٨٩١ هـ ، فظل فيه حتى توفى ذى القعدة عام ٨٩٥ هـ . وهو أخو القاضى عبد الغنى بن تقى الآتى ذكره .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٦٦ » .

٣٩ — برهان الدين المغربى ٨٩٦ هـ

هو أبو اسحق إبراهيم بن محمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن عطية ، المغربى الأصل اللقانى القاهرى الأزهرى المالكى . ولد عام ٨١٧ هـ ، بالقهوقية من أعمال

لقانة ، ووفد إلى القاهرة وجاور بالأزهر ودرس علوما عدة ، وحفظ كتبا فيها جمة ، وأخذ عن كثير من الأئمة ، ودرس الفقه وسمع الحديث وافن العربية . وما زال حتى نضج ، فتعرض للفتوى والتدريس بعدة مدارس منها : المؤيدية والقمحية ومدرسة أم السلطان . وصار مهيبا لدى الناس والعلماء .

ثم استدعاه الأشرف قايتباى يوم الاثنين ٦ صفر عام ٨٧٧ ﻫ لتولى قضاء المالكية ، بعد عزل سراج الدين بن حريز فباشره بمهارة وكفاءة . وله فيه مواقف رائعة . ثم جفاه السلطان قايتباى سنة ٨٨٦ ﻫ ، فعزله ، وقام مكانه محي الدين بن تقى . فتألم الناس لعزله .

من ذلك الحين لزم منزله مترددا على الجماعات وعلى الأزهر ، يفتى أحيانا ، ويقرىء أحيانا أخرى ، حتى مات فى ٩ من المحرم عام ٨٩٦ ﻫ ، وشيع بجنازة حافلة شهدها السلطان ، ودفن بتربة سعيد السعداء .

« الضوء اللامع ج ٢ ص ١٦١ »

٤٠ — بدر الدين السعدى ٩٠٢ ﻫ

هو محمد بن محمد بن أبى بكر بن خلف بن إبراهيم السعدى . كان حنبلى المذهب وقد تولى قضاء الحنابلة فى مصر وهو فى عنفوان شبابه، فلبث زمنا طويلا . وأول عهده به كان فى زمن الأشرف قايتباى عام ٨٧٦ﻫ بعد وفاة القاضى عز الدين أحمد الحنبلى . فقد أرسل السلطان إلى قاضى الحنابلة بدمشق ابن مفلح ليلى هذا المنصب فى مصر فاعتذر إليه بمرضه، فعين بدر الدين السعدى . وكان بين الحنابلة حينئذ من يعتبر أفضل منه، فعد بعضهم هذا المنصب كبيراً عليه . ومع ذلك فقد ازدان به منصبه ، وخلع عليه السلطان خلعة المنصب وعاد من لدنه فى موكب عظيم . وفى ربيع الثانى عام ٨٨٥ ﻫ غضب عليه السلطان كما غضب على القاضى ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، وذلك بسبب تركة ووقف . فعزله وأمر بنفيه إلى قوص . فشفع فيه الأتابكى أزبك بن ططخ ، فعاد إلى منصبه بعد قليل فى نفس شهر عزله وهو

ربيع الثانى . وهذه هى المرة الوحيدة التى عزل فيها عن القضاء إذ ظل فيه منذ ذلك الحين ، حتى قبض فى ذى القعدة عام ٩٠٢ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ١٣٠، ١٩٦، ٢٣٢، ٢٩١، ٣٢٢ »

٤١ — ناصر الدين محمد الإخميمى ٩٠٢ هـ

هو محمد بن أحمد بن الأنصارى الإخميمى القاهرى الحنفى . كان عالما فاضلا ، له دراية بالقراءات . وكان أبى النفس . وتولى قضاء الحنفية بمصر فى عصر الأشرف قايتباى قبيل عام ٩٠١ هـ . ولبث فى منصبه زمنا حتى توفى فى ذى الحجة سنة ٩٠٢ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٩١، ٣٢٦ » .

٤٢ — عبد الغنى بن تقى ٩٠٧ هـ

هو عبد الغنى بن أحمد بن محمد بن على بن تقى ، الدميرى المالكى ، وأخو القاضى محيى الدين عبد القادر بن تقى المار ذكره . كان مالكى المذهب كأخيه . وقد تولى منصب قضاء المالكية بعد وفاته . وكانت ولايته فى ربيع الأول عام ٨٩٦ هـ .

وحدث فى ذى الحجة عام ٩٠٢ هـ ، أن اشتط السلطان الناصر محمد بن قايتباى فى جمع المال من الناس ، ففرض على القضاة والمباشرين أموالا يجبونها له لكى ينفقها على الجنود . وكان من بينهم القاضى عبد الغنى ، فما كان منه إلا أن اختفى فى بيته ، ليبعد عن هذه المحنة ، ولا يشترك فيها .

وظل فى منصبه حتى شهد عصر جان بلاط والعادل طومان باى وأوائل حكم الغورى . ثم توفى فى أواخر ربيع الأول عام ٩٠٧ هـ . وكان عالما فاضلا ومن أسرة خدمت البلاد بعلمها وفقها .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٧، ٢٩١، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٨٧ — و ج ٥ حوادث ربيع الأول عام ٩٠٧ هـ » .

٤٣ — شهاب الدين أحمد بن فرفور ٩١١ هـ

كان عالما غزير المادة كفئا . عين فى قضاء الشافعية بدمشق زمنا . ثم عزل فى

رجب عام ٨٨٩هـ ، وتولى بعده شمس الدين بن المزلق الدمشقى [1] . ولكنه عاد إلى منصبه بعد عزل ابن المزلق عام ٨٩٩هـ فى جمادى الأولى . وأضيف إليه نظر الجيش ، مع القضاء .

وشهد عصر قايتباى ، ومن بعده ،حتى كان عصر الغورى ، وعزل قاضى قضاة الشافعية حينذاك ـ فى ربيع الأول سنة ٩١٠هـ ـ وهو برهان الدين بن أبى شريف ، فاستدعى شهاب الدين بن فرفور هذا ، ليلى المنصب مكانه ، فوق منصبه فى قضاء دمشق ، فجمع له بذلك بين قضائى دمشق والقاهرة وقد لبث فى قضاء مصر حتى توفى فى يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة عام ٩١١ هـ .

«ابن إياس جـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ ـ و جـ ٤ حوادث التواريخ المذكورة» .

٤٤ — برهان الدين الدميرى ٩١٣هـ

هو برهان الدين بن الدميرى قاضى قضاة المالكية بمصر . كان عالما فاضلا دينا خيرا لين الجانب كثير التواضع انتهت إليه رياسة المالكية فى عصره ، عينه السلطان الغورى فى القضاء فى جمادى الأولى سنة ٩٠٧هـ . وقيل فى ربيع الثانى ، بعد وفاة قاضى المالكية عبد الغنى بن تقى .فلبث فى منصبه ذاك حوالى ست سنوات ونصف ، ثم توفى فى الأربعاء ٢٣ رمضان سنة ٩١٣هـ .

وقيل فى سبب وفاته إن السلطان الغورى كان قد أمر بأن يخطب به قاض من القضاة الأربعة فى كل جمعة . فلما كانت جمعة ابن الدميرى هم أن يخطب فأرتج عليه فنزل فمرض ، وزاد مرضه حتى مات فى نحو الثمانين من عمره . فلما شيعت جنازته هم السلطان الغورى بأن يصلى عليها مع المصلين ولكن الجنازة كانت قد بدىء فى تشييعها فلم يلحقها ، فاتجه إلى المقابر جهة الإمام الشافعى لاستقبالها .

---

(١) هو شمس الدين بن محمد بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى ، كان قاضى قضاة الشافعية بدمشق فى عهد قايتباى منذ رجب عام ٨٨٩هـ عوضا عن ابن فرفور ثم عزل فى جمادى الأولى عام ٨٩٠هـ . وقد وجد مذبوحا فى داره فى شعبان عام ٩٠٢ هـ . وذكره ابن إياس جـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ . ٣٢٠ .

وقد كان الدميرى عليما بأحكام مذهبه متمكنا فيه . واشتهر بحسن الخط . وله ابن جليل وهو محيى الدين ، وتولى قضاء المالكية بعد وفاة أبيه وهو الآتى بعد .

«ابن إياس ج ٤ فى حوادث الشهور المذكورة ، و ج٣ ص٦٣» .

٤٥ — بدر الدين محمد المكينى ٩١٦ هـ

هو قاضى القضاة بدر الدين محمد بن قاضى القضاة صلاح الدين أحمد بن محمد بن بركوت المكينى . عينه السلطان الغورى قاضيا بمصر للشافعية بعد عزل كمال الدين الطويل فى ذى الحجة سنة ٩١٥ هـ ، فأصبح جامعا بين القضاء ومشيخة الخشابية والشريفية . ويقال إنه سعى لهذا المنصب بنحو ثلاثة آلاف دينار . فظل بمنصبه هذا حتى عزل فى ربيع الأول عام ٩١٦ هـ . ولم يمكث به سوى شهرين وأربعة عشر يوما . فخلفه فيه ابن النقيب السابق الذكر .

لم يمض على عزل المكينى شهران واثنا عشر يوما حتى قبض فى يوم الأحد ١٢ جمادى الأولى عام ٩١٦ هـ وله من العمر نحو ستين عاما .

« ابن اياس ج ٤ فى التواريخ المذكورة هنا »

٤٦ — شهاب الدين أحمد الشيشينى ٩١٩ هـ

أحد أفذاذ المذهب الحنبلى . انتهى إليه قضاؤه بمكة المكرمة ، ولما توفى قاضى قضاة الحنابلة بمصر عام ٩٠٢ هـ ، فى عصر السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، عين مكانه ، فوفد من مكة إلى مصر فى ربيع الثانى سنة ٩٠٣ هـ . وتسلم مهام منصبه ، ولما أراد السلطان أن يجبى من القضاة والمباشرين مالا ، كان الشيشينى أسبق إلى الاختفاء فى داره . فرارا من هذه المحنة ، كما صنع القاضى المالكى عبد الغنى بن تقى . ومع ذلك لبث فى منصبه حتى شهد عصر الملك الظاهر قانصوه ، فعزله من القضاء فى رمضان عام ٩٠٤ هـ . وولى القاضى ابن قدامة . ولكنه ما عتم أن عاد إلى منصبه بعد شهر وأربعة أيام . وعزل منه ابن قدامة . ولبث فيه بعد ذلك زمنا طويلا ، حتى شهد عصر العادل طومان باى ، وجزءا كبير من عهد الأشرف

الغورى . ثم توفى فى صفر عام ٩١٩ هـ ، بعد أن نيف على السبعين . وكان سبب وفاته إصابته بطاعون انتشر فى البلاد ذلك الحين . وكانت ولادته عام ٨٤٤ هـ .
وله ابن هو عز الدين الحنبلى الشيشينى ، سنشير إليه فيما بعد .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٨٧ ـ ج ٤ حوادث صفر عام ٩١٩ هـ »

٤٧ ـ سرى الدين محمد بن الشحنة ٩٢١ هـ

هو عبد البر محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود ، وهو سرى الدين أبو البركات بن محب الدين أبى الفضل، ابن محب الدين أبى الوليد الحلبى القاهرى الحنفى. ولد بحلب فى ٩ من ذى القعدة عام ٨٥١ هـ . وانتقل مع أبيه إلى القاهرة ، وحفظ كتبا علمية عدة. والتقى بكثير من المشايخ والأئمة ، فانتفع بعلمهم . ومنهم أبوه، قاضى القضاة محب الدين ، والأمين الأقصرائى ، والتقى الشمنى ، والزين قاسم بن قطلوبغا .

وقد عرف سرى الدين بالذكاء والفطنة ، حتى بذ أقرانه ، وفخر به أبوه . ونبه شأنه فى الفقه والحديث والأصول وغيرهما ، كما مهر فى الأدب ، فكتب وخطب ونظم الشعر متوسط الجودة . وأذن له أبوه فى الفتوى والتدريس . وأنابه عنه فى القضاء ، فكان أمره بيده . وولى وظائف عدة ، منها الخطابة بجامع الحاكم ، وتدريس الحديث بالحسينية ، والتفسير بالجمالية ، وغير ذلك .

ويتهمه السخاوى ـ معاصره ـ فى كتابه الضوء اللامع ، بتهم عدة خطيرة لعله مبالغ فيها ، ومنها « أنه « ليس بثقة فيما ينقله ، ولا بعمدة فيما يقوله ، بل هو فى غاية فى الجرأة والتقول » . ومنها « أنه اتهم بإخفاء تفسير الفخر الرازى ، وكان يضرب بسبب ذلك » . ومنها « أنه كثير الوقيعة فى الأكابر ، لا يتأدب مع مشايخ وقته » ، ومنها « أنه لما ناب فى القضاء عن والده استبد بالتعايين والاستبدالات ، فكثرت القالة فيه بسببها » . وغير ذلك .

ومهما يكن من شيء ، فقد لبث منصب قضاء الحنفية بمصر ، يتناوبه عدة قضاة منذ وفاة قاضيها محب الدين بن الشحنة ، حتى آل أمره أخيراً إلى ابنه سرى الدين.

وقد نشأ سرى الدين فى أسرة وفى بيئة مليئة بالعلم والأدب، فتحلى بما تحلت به من ضروب الكمال . فهو ما شئت أدبا وعلما وفقها وذكاء ودهاء وحسن حيلة . وقد تولى مشيخة المدرسة الأشرفية عام ٩٠٣ هـ ثم عزل منها ولبث زمنا حتى ملأ منصب قضاء الحنفية بمصر فى عهد العادل طومان باى سنة ٩٠٦ هـ لأول مرة . وذلك بعد عزل برهان الدين بن الكركى عنه، ولكنه لم يمكث به إلا أياما، ثم عزل وأعيد ابن الكركى . وقد قيل إن ابن الكركى دفع فى سبيل العودة إلى منصبه مالا . ولكن القاضى عبد البر عاد إلى المنصب بعد زمن ، وظل به حتى شهد عصر الغورى وأصبح أحد أصفيائه المقربين ، فقد كان يكون معه فى الأسفار ، وقد يأوى السلطان إلى داره للمبيت ، وصار متصرفا فى شئون كثيرة من شئون المملكة ، وكان كثير الموافقة للسلطان فى اقتراحاته، حتى قيل إن الغورى لما أراد أن يأخذ من مال الأوقاف ليشبع نهم جنوده أو يدفع رواتبهم المتأخرة، عارضه القضاة الثلاثة ووافقه القاضى عبد البر بمفرده . إلا أن الأيام حبب إليها أن تعبث بعض العبث بصداقتهما ، فنمى إلى السلطان أن قاضيه عبدالبر يكاتب يحي بن سبع أمير ينبع ـ وكان ثائراً على السلطان ـ ويحذره من القبض عليه . وكانت مكاتبته سببا فى انضمام هذا الأمير إلى الجازانى ابن أمير مكة الثائر أيضاً فنهباهما ورجالهما المحمل فى عام ٩٠٨ هـ . فما كان من السلطان إلا أن قبض على سرى الدين وأمر بنفيه إلى قوص ، وكاد يرحل إليها لولا شفاعة الأمير قيت الرجبى فيه ، فرضى عنه السلطان ، وأعاده إلى منصبه موفور الكرامة ، ووقعت بينه وبين القاضى ابن النقيب الشافعى مشاحنة ومشادة بسبب خزانة كتب اختلف فيها رأياهما . وابتلى أيضاً فى شهر المحرم عام ٩١٣ هـ بالشاعر جمال الدين السلمونى . وذلك أن الشاعر المذكور هجا « معين الدين بن شمس » وكيل بيت المال هجاء شعرياً مراً مقذعاً . فادعى « معين الدين » أن السلطان الغورى ترك له أمر السلمونى ليعاقبه

بما يقتضيه الشرع ، ولذلك شكاه إلى قاضى الحنفية سرى الدين عبد البر . فما كان من القاضى إلا أن ضرب الشاعر ، وعزره وأشهره فى القاهرة عارى الرأس . فنقم منه الشاعر وكال له بدل الكيل كيلين ، وهجاه بقصيدة طويلة مريرة نسب إليه فيها كل موبقة ومنها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حل على شبهاتها
أجاز أموراً لا تحل بملة بحل وبرم مظهراً منكراتها

وقد أوردنا هذه القصيدة فى ترجمة الشاعر المذكور فى الجزء الرابع . وقد شاع أمرها بين الناس وملأ أسماعهم وأصاب من لدنهم موضع قبول ! فشكاه القاضى عبد البر إلى السلطان ، فأرسل فى طلبه ثم وبخه ودفعه بين يدى القاضى يأمر فيه بما يأمر الشرع فى القاذفين الهجائين ، وتعصب للقاضى جميع قضاة الشرع ، وأرادوا ضرب هذا الشاعر وإشهاره فى المدينة إشهار المذنبين المعزرين ، ولكن الشاعر كان ذا منزله مرموقة لدى العوام وبعض الخواص ، فأغراهم ذلك بالقاضى عبد البر وهموا برجمه بالحجارة ، فخاف فكف عن إلحاق الأذى بالشاعر !

ومما يذكر أيضاً أنه وقعت مشاحنة بين القاضى عبد البر وبين كاتب السر محمود ابن أجا الحلبى خاصة بوقف فى مدينة حلب لكل منهما فيه نصيب . فأمر السلطان بعقد مجلس للفصل بينهما . ويظهر أن ابن أجا كان ألحن بحجته من القاضى فنصفه السلطان .

ثم إن السلطان الغورى أسند إلى القاضى عبد البر مشيخة المدرسة الصرغتمشية فى جمادى الأولى سنة ٩١٤ هـ ، وأدخل ابنه حسام الدين محمودا فى عداد موظفى الدولة ، فأخذ نجمه فى الصعود . وما زال يصعد حتى بلغ به منصب القضاء كما سنذكر بعد .

وقد وقعت فى سنة ٩١٩ هـ وفى شهر شوال منها حادثة زنا مروعة اتهم فيها

أحد نواب الحكم . وقد أشرنا إليها عند الكلام عن حالة القضاء . رأى السلطان فيها أن يقتل الزانى والزانية ، ورأى القضاة وفقهاء العصر أن الزانى له حق الرجوع عن اعترافه ، وحينئذ لا يحد . وكان الزانى قد اعترف كتابة بجنايته . وكان القاضى عبد البر فيمن أفتى بالرجوع ، فغضب السلطان وعزل قضاته الأربعة ومنهم عبدالبر ، بسبب هذه الحادثة . فكان هذا آخر عهد قاضينا بالقضاء . وظل معزولا حتى توفى فى يوم السبت ٢٨ رجب عام ٩٢١هـ ، وله من العمر ٧٥ عاما . وقيل إنه شارح منظومة ابن وهبان . وهو صاحب الذخائر الأشرفية فى الألغاز الحنفية .

ابن إياس ج ٢ ص ١٥٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ — ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة فى الترجمة من عام ٩٠٨ هـ — التعليقات السنية للكنوى ص ١١٣ — الضوء اللامع ج ٤ رقم ١٠٢ .

٤٨ — محيى الدين عبد القادر بن النقيب ٩٢٢ هـ

هو محيى الدين عبد القادر بن على بن مصلح الشافعى ، كان من أهل العلم والفضل ونبغ فى مذهب الشافعى . وأول ولايته القضاء بمصر كان فى عهد الأشرف جان بلاط فى ٢٠ صفر سنة ٩٠٦ هـ ، حينما اعتزل هذا المنصب قاضيه الأكبر الشيخ زكريا الأنصارى . وقيل حينئذ إنه كان بين الشافعية أنبغ من ابن النقيب ، وأحق بالمنصب منه .

وفى عهد جان بلاط ثار الأمير طومان باى ـ الذى ملك البلاد فيما بعد وتسمى بالعادل ـ وتحصن فى بلاد الشام وأخذ فى الزحف منها على الديار المصرية هو ومن التف حوله. هنا اضطرب أمر السلطان جان بلاط ، وجمع أمراءه ليقسموا له على المصحف يمين الطاعة وعدم الخيانة . وقيل إن القاضى ابن النقيب هو الذى كتب لهم صيغة القسم ، وهو قسم غليظ مؤكد بالله وبالمصحف وبالحج والعتق والطلاق. فكان هذا القسم سببا فى محنته فى المستقبل . فقد تم الأمر للأمير طومان باى وقبض على الأشرف جان بلاط . وما عتم أن قبض على ابن النقيب ودفع به بين

يدى جنود غلاظ شداد ، وسيق إلى السجن على أقدامه ماشيا . وفرض عليه غرم يدفعه ، فلبث فى سجنه حتى دفع مافرض عليه ، وعزل من القضاء وعاد إليه بعده الشيخ زكريا الأنصارى . ولم يمكث ابن النقيب فى القضاء هذه المرة إلا أقل من أربعة أشهر .

لم يستطع الشيخ زكريا الأنصارى أن يستمر طويلا فى منصبه فاعتزله . وكان عهد طومان باى قد انتهى ، وبدأ عهد الأشرف الغورى . فعاد حينئذ ابن النقيب إلى منصب قضاء الشافعية وذلك فى ٨ من ذى الحجة سنة ٩٠٦ هـ . غير أنه لم يمتع به سوى ثلاثة عشر يوما ، وبرمت به نفس السلطان فعزله فى ٢٣ من الشهر المذكور . ولم يكتف بذلك ، بل أمر بنفيه إلى قوص ، فتسلمه نقيب الجيش وأركبه حمارا ، وتوجه به إلى النيل ليركبه إلى منفاه ، فشفع فيه بعض الأمراء فأعفى عنه من النفى وفرض عليه غرم مالى فأداه .

ظل ابن النقيب زمنا طويلا معزولا ، حتى تقلبت الأيام وطابت له نفس السلطان ، فدلف إلى منصبه للمرة الثالثة فى ذى القعدة عام ٩١١ هـ ، عقب عزل القاضى برهان الدين القلقشندى ، فلبث فيه هذه المرة أقل من عام ، ثم عزل فى ١٢ رمضان عام ٩١٢ هـ . ولبث فى معزله هذه المرة نحو أربع سنوات . ثم أعيد إلى المنصب فى ربيع الأول سنة ٩١٦ هـ ، بعد عزل القاضى المسكينى ، فلم يلبث به هذه المرة أيضا إلا زمنا قليلا ثم عزل ، وفرضت عليه غرامة مالية كبيرة وسجن حتى دفعها . ثم ظل بعيدا عن القضاء نحو عامين ، فلما عزل القاضى الطويل عين مكانه ابن النقيب فى ٦ رجب سنة ٩١٨ هـ ، فمكث فى منصبه نحوا من أربعة أشهر ، ثم عزل فى ذى القعدة من نفس السنة ، ثم مالبث أن عاد إليه مرة أخرى فى جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ . وما عتم أن عزل فى ٢٧ رجب من نفس العام أى بعد خمسين يوما . فظل معزولا آويا إلى خلوته فى المدرسة المنصورية ، حتى توفى يوم الاثنين ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٢ هـ . وقيل فى سبب وفاته إنه ركله فرس فكبه على الأرض فأصيب بانكسار نخذه ، وحمل إثر ذلك إلى خلوته فلبث أياما ثم مات .

ويقول ابن إياس ماملخصه : إن هذا القاضى تولى قضاء الشافعية ستمرات ، ومع ذلك فمجموع أيامه فيه خلال هذه المرات الست يقرب من عامين ، وكان فى كل مرة يسعى جاهدا إلى العودة لهذا المنصب على الرغم من وجود قاض يشغله ، فيبذل المال الوفير للسلطان وللوسطاء حتى يصل إلى مبتغاه وبلغ مجموع مادفعه نحوا من ثلاثين ألف دينار . وكان سعيه سبباً فى إخراج كلمن القضاة الأنصارى والطويل والقلقشندى والمكينى وغيرهم من مناصبهم ليحل هو محلهم ، ومع ذلك فقدكان أغلب أمره أن يعزل أو يسجن ويؤخذ منه غرم مالى كبير » .

ويفهم من ذلك أن الرجل كان بائس الحظ ، كمايفهم أنهلم يكن عادلافى أحكامه وسيرته دائما ، أو أنه على الأقل كان قريب العثور سريع الزلل ، وكان محبا لجمع المال ، لذلك كان مايدخره من وراء وظيفته فى اليوم الواحد نحوا من دينارين أشرفيين . والأشرفى أجود أنواع الدنانير إذ ذاك .

وقيل فوق ذلك إنه كان شحيح النفس يعرف الناس عنه بخله . ولعل هذا من أهم ما شوه سيرته .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ — ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة ج ٣ ص ١٧ ، ٦٣ » .

٤٩ — برهان الدين الكركى(١) ٩٢٢ هـ

هو إبراهيم بن زين الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الكركى الحنفى ، ولد بالقاهرة عام ٣٨٥ هـ ، وأخذ العلم عن أفاضل علماء الأحناف فى زمانه ، مثل الشيخ محى الدين الكافيجى .

ولما عرف فضله وذاع صيته ، استخدمه الأشرف قايتباى إماما له : وبلغ

---

(١) ذكر أبو الفداء فى المختصر (ج ٤ حوادث سنة ٧٢٩ هـ) قال الكرك : بكافين الأولى مفتوحة وبينهما راء مهملة ساكنة ، قليعة قريب البحر فى أطراف بلد سيس من جهة الغرب والشمال وهى تتاخم بلاد ابن قرمان ، وضبطها غيره بفتح الراء .

فى كنفة من العز والجاه ما يغبط عليه ، وكان يتردد على مدارس العلم ، فيلقى بها الدروس الشافية واستخدم حينا فى استيفاء الصحبة ، وأسندت إليه مرة مشيخة المدرسة الأشرفية .

ولما كان عصر الناصر محمد بن قايتباى توفى قاضى الحنفية بمصر ناصر الدين الاخميمى فى أخريات عام ٩٠٢ هـ ، فاتجهت عناية السلطـــان إلى برهان الدين الكركى فعينه فى قضاء الحنفية مكان القاضى المتوفى . وكان تعيينه فى مستهل عام ٩٠٣ هـ ، وصرف عن المدرسة الأشرفية ، فأسندت مشيختها إلى سرى الدين بن الشحنة ، ولكنها لم تمكث فى يديه سوى ثلاثة أشهر ، ثم أعيدت إلى الكركى ، مع بقائه فى القضاء .

لبث برهان الدين الكركى فى منصبه القضائى زمناً طويلا ، حتى شهد عصر السلطان الظاهر قانصوه ، ثم الأشرف جان بلاط ، ثم العادل طومان باى . فلما بدأ عهد العادل المذكور عزل ابن الكركى من القضاء عام ٩٠٦ هـ وخلفه فيه سرى الدين بن الشحنة ، وهذه أول مرة يلى فيها القضاء ، فلم يلبث إلا أياما ثم عزل وعاد ابن الكركى إليه ، وقيل إنه سعى للعودة بمال .

ثم إنه بعد ذلك حسن اتصاله بالملك العادل طومان باى حتى إن العادل حينما خلع وزال ملكه فاختفى فأخذ فى البحث عنه عام ٩٠٦هـ ، قيل إنه اختفى فى منزل القاضى برهان الدين بن الكركى ، ولهذا قبض عليه فى أوائل ذى القعدة من العام المذكور ، وسجن يوما وليلة وفتش منزله ، وسطا عليه أثناء ذلك عدد من الجند فنهبوه وعبثوا بمال للأوقاف محفوظ عنده . ثم إنه عزل فظل معزولا حتى مات فى يوم الثلاثاء ٥ شعبان سنة ٩٢٢هـ ، فى أخريات عهد الغورى . وقيل فى سبب موته إنه نزل إلى النيل ليتوضأ ، وكان النيل فى إبان زيادته فزلقت رجله فجرفه التيار فغرق ومات . وكان باش الوجه رقيق الحاشية مرموق الحديث ، ومات فى خلال العقد الثامن من عمره .

«ابن إياس ج٢ص ٣٣١، ٢٣٦، ٢٤٤، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩١ — و ج ٤ حوادث شوال وذى القعدة سنة ٩٠٦هـ — وج٣ص ٤٤، ٦٣ — الضوء اللامع ج١ص ٥٩» .

٥٠ — عز الدين الشيشيني

هو عز الدين بن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد الشيشيني الحنبلي ، سلك في منصب القضاة بمصر بعد وفاة أبيه الذي كان يشغل نفس المنصب ، وذلك في ربيع الأول عام ٩١٩ ﻫ ، وكان إذ ذاك شابا حسن السيرة .

لم يلبث في منصبه سوى أشهر ، ثم عزل في شوال عام ٩١٩ﻫ ، مع القضاة الثلاثة عندما اختلفوا مع السلطان الغوري في حادثة زنا أشرنا إليها .

ظل معزولا عن القضاء حتى أسر قاضي قضاة الحنابلة عند العثمانيين بعد موقعة مرج دابق ، وهو القاضي الشهاب الفتوحي . فأعاد السلطان الأشرف طومان باي القاضي عز الدين إلى قضاء الحنابلة بمصر ثانية في ذي القعدة سنة ٩٢٢ﻫ .

علاء الدين الإخميمي

هو القاضي علاء الدين بن جلال الدين الإخميمي الشهير بالنقيب الشافعي . عكف على إجادة المذهب الشافعي فنبغ فيه وأصبح أحد أعلامه ، واشتغل في فجر حياته العملية بالخطابة في المساجد فكان مشارا إليه فيها . وكان إلى نبوغه فيما مر ، مشهورا بعلوم وفنون شتى حتى إنه كان عليما باللغة التركية وقديرا على رمي النشاب ، ولهذا كان ذا منزلة ممتازة عند الأتراك ، واشتغل بالخطابة في مسجد عبد القادر الدشطوطي ، وتردد على مجالس التدريس فشارك فيها ، وناب في الحكم عن القاضي الشافعي ، ولما عزل الشيخ كمال الدين الطويل قاضي قضاة الشافعية عام ٩١٩ﻫ ، استدعى الشيخ علاء الدين ليخطب بالسلطان ويؤمه يوم الجمعة بدل كمال الدين فأحسن وأجاد وأبدع وأفاد ، فعهد إليه بعد نحو يوم بالاضطلاع بمنصب قضاء الشافعية بمصر دون أن يسعى إلى ذلك بمال لاضطرار السلطان إليه . فظل في دسته نحو سبعة أشهر لم يترك خلالها دروسه النافعة بالمدرسة الصالحية النجمية . ثم عزل في ٦ جمادى الآخرة عام ٩٢١ﻫ وتولى من بعده ابنه النقيب محيي الدين .

وكان علاء الدين كفئا في منصبه لم يشهد عليه دنس أو جور أو فظاظة فكان مثال القاضي النزيه العادل . ولم يل القضاء بعد ذلك .

« ابن إياس ج ٤ حوادث ذى القعدة سنة ٩١٩ هـ وجمادى الآخرة سنة ٩٢١ هـ .

٥٢ — جمال الدين القلقشندى

هو جمال الدين إبراهيم بن علاء الدين القلقشندى . كان شافعى المذهب عينه السلطان الغورى قاضيا لقضاة الشافعية بمصر بعد وفاة القاضى ابن فرفور . وذلك فى جمادى الآخرة عام ٩١١ هـ . ثم صرف بعد ستة أشهر ، وقيل إنه سعى إلى ذلك بثلاثة آلاف دينار ، فما زال ابن النقيب ساعيا بخمسة آلاف دينار إلى السلطان، وألفين لمن توسط له من الأمراء ، حتى عزل القلقشندى ، واستقر مكانه ، غير أنه سرعان ماعزل وعاد القلقشندى إلى القضاء فى ١٢ رمضان عام ٩١٢ هـ ، فظل أقل من عامين ، ثم عزل فى أواخر صفر سنة ٩١٤ هـ ، وعين مكانه الشيخ كمال الدين المعروف بالقادرى . وقد توفى القلقشندى فى عهد الغورى .

« ابن إياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة — و ج٣ ص ٦٣ »

٥٣ — برهان الدين بن أبى شريف ٩٢٣ هـ .

هو برهان الدين إبراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى . عينه السلطان الغورى فى قضاء الشافعية بمصر يوم الخميس ٢٢ من ذى الحجة سنة ٩٠٧ هـ ، بعد عزل ابن النقيب . وكان كفئا لمنصبه . ويوم أن خلع السلطان عليه خلعة القضاء ، كان له فى القاهرة يوم حافل . وقد صرف عن هذا المنصب فى ربيع الأول عام ٩١٠ هـ ؛ ثم عينه السلطان الغورى شيخا لجامعة فظل به زمنا ، وقد ألحق الغورى به أهوالا وشدائد كثيرة ، مرض بسببها فمات ، وكانت وفاته فى أوائل عام ٩٢٣ هـ ، بعد ذهاب دولة الغورى .

« ابن إياس ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة — و ج ٣ ص ١٠ »

٥٤ — حسام الدين بن الشحنة ٩٢٣ هـ

هو محمود بن قاضى القضاة سرى الدين عبد البر بن محب الدين بن الشحنة . نشأ من أسرة اشتهرت بالعلم والفقه والفضل ، واتبع مذهب أبيه وهو مذهب

أبى حنيفة ، ولما ذاع فضله وكل إليه منصب قضاء الحنفية بمصر ، وهو لا يزال شابا لما يبلغ مبلغ علماء الأحناف فى ذلك الزمان . وكان ذلك فى رمضان عام ٩٢١ هـ . وقيل إنه سعى إلى هذا المنصب بدفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، فظل فى منصبه ذاك حتى عام ٩٢٢ هـ ، فخرج فى جملة القضاة مع السلطان الغورى لقتال العثمانيين ، فكانت عاقبة أمره الهزيمة معهم فى حلب : ولكنه دون سائر القضاة ، استطاع أن يفر بعد أن نهب ماله وثيابه ودخل بلاد الشام وهو بائس تعس ، فلما وصل إلى مصر وصلها مكدودا مجهودا ، فأعاده السلطان طومان باى إلى منصبه . ولما بدأت أقدام العثمانيين تثبت فى الديار المصرية أرسله السلطان سليم فى جملة القضاة والموفدين لمصالحة طومان باى بالصعيد بالبهنسا ، فأخفق معهم فى المسعى ، واستطاع غيره من القضاة الرجوع إلى القاهرة . أما هو فقد كان معه أخوه أبو بكر بن الشحنة ، وكانت بين أبى بكر وبين بعض الجراكسة الملتفين حول طومان باى ترة قديمة ، فاعتدوا فى الطريق عليه فتصدى أخوه حسام الدين للذود عنه ، فكانت عاقبتهما القتل معا ، وذلك فى ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ .

« ابن اياس ج ٤ حوادث رمضان سنة ٩٢١ هـ — و ج ٣ فى حوادث التواريخ المذكورة أيضا » .

٥٥ — جلال الدين بن قاسم ٩٢٥ هـ

هو القاضى جلال الدين عبد الرحمن بن زين الدين قاسم المالكى ، لما انفصل القاضى محيى الدين بن الدميرى من القضاء فى شوال عام ٩١٩ هـ ، تولى بعده قاضينا جلال الدين بغير سعى . فظل نحو عامين ، ثم انفصل فى رمضان سنة ٩٢١ هـ ، وظل مفصولا إلى أن توفى فى أواخر ذى الحجة عام ٩٢٥ هـ ، بعد الاحتلال العثمانى .

« ابن اياس ج ٤ ، ٥ حوادث الشهور المذكورة » .

٥٦ — زين الدين زكريا الأنصارى ٩٢٦ هـ

هو شيخ الإسلام المفتى الكبير والعالم القدير الجليل القدر السائر الذكر ،

زين الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن الأنصارى ، ذاع صيته فى مصر حتى صار فى مقدمة رجال الشافعية وهو فى مبكر حياته .

وكان مولده فى عام ٨٢٤ هـ ، وقيل عام ٨٢٦ هـ . فعاش نحوا من مائة عام ، قضاها فى ميدان الجهاد العلمى ما بين منصب القضاء الأكبر والتدريس والإفتاء والتأليف . حتى توفى فى ٣ ذى الحجة عام ٩٢٦ هـ ، فشيع تشييعا حافلا ، ودفن تجاه مقبرة الشافعى .

وقد عين مدرساً بالمدرسة الصلاحية بجوار قبة الشافعى عوضا عن الشيخ تقى الدين الحصنى المتوفى ؛ وذلك فى ربيع الأول عام ٨٨١ هـ . وولى منصب القضاء بعد تمنع وزهادة فى رجب عام ٨٨٦ هـ ، بعد عزل قاضى قضاة الشافعية ولى الدين الأسيوطى . وقد اشترط لولايته شروطا كثيرة قبل السلطان بعضا منها . وقد زاول منصبه بعلم ودراية وعفة ونزاهة ، وزهد وتقوى ، وشدة فى الحق وذود عنه وصراحة فيه .

وقد لبث فى منصب القضاء مدة طويلة ، لعلها أطول مدة قضاها قاض فى منصبه فى ذلك العصر ، وهى عشرون عاما تقريبا حتى صفر عام ٩٠٦هـ ، إذ مرض وضعف عن حمل أعبائه وعشى بصره ففصل من القضاء . فوليه بعده محيى الدين ابن النقيب ، فقبض عليه بعد قليل ، واستعيد الشيخ زكريا إلى القضاء رغم امتناعه ومرضه . إلا أنه زايله فى الخميس ٨ ذى الحجة عام ٩٠٦هـ ، ولم يعد إليه بعد ذلك .

وقد طالت حياته ـ كما ذكرنا ـ وشهد عصور سلاطين عدة وعاش حتى شهد عصر الغورى كله ودخول العثمانيين مصر . فرأى من الحوادث الكثر ما يندر أن يراه غيره . وقد وقعت فى عام ٨٧٥ هـ فتنة بين العلماء بشأن الشيخ عمر بن الفارض ، وانقسموا بين مفسقين له ، وغير مفسقين . وقد أخذ رأى الشيخ زكريا فيه ، فبرأه مما نسب إليه واتهم الناس بالقصور عن إدراك مرامى هذا الشيخ ، فسكنت الفتنة .

هذا : وسنترجم له بتفصيل فى الجزء الثانى من كتابنا هذا .

« الضوء اللامع جـ ٣ رقم ٨٩٢ » .

شمس الدين السمديسى

هو القاضى شمس الدين محمد بن النقيب السمديسى . أسند إليه منصب قضاء الحنفية فى عهد الغورى فى ذى القعدة عام ٩١٩ هـ بعد عزل ابن الشحنة عبد البر، ولم يسع إلى المنصب بمال ، بل اضطر الغورى إلى تعيينه هو وزملائه إذ ذاك ، بعد أن عزل قضاته الأربعة . وكان من قبل إماما للسلطان فى مدرسته ، كما كان مؤدبا لولده . وظل فى منصبه حتى عزل فى رمضان ٩٢١ هـ وعاد ابن الشحنة إلى مكانه، فعينه السلطان إماما له مرة ثانية ، ورحل معه فى خروجه عام ٩٢٢ هـ إلى الشام وحلب لقتال العثمانيين ، فكان نصيبه الأسر فيمن أسر . وأرسل مسجونا إلى القسطنطينية ، ثم عاد إلى مصر بناء على أمر السلطان سليم العثمانى ، وكانت عودته فى جمادى الآخرة ٩٢٧ هـ وفى صحبته عدد من الأسرى .

« ابن إياس ج٤ و ج٣ حوادث الشهور المذكورة » .

٥٨ — محيى الدين بن الدميرى ٩٢٨ هـ

هو قاضى قضاة المالكية محيى الدين بن يحيى قاضى القضاة برهان الدين إبراهيم الدميرى .كان فى حياة أبيه شابا حسن السيرة ، أخذ نفسه بالدرس والعلم والبحث، ونشأ فى بيئة علمية فنبغ فى مذهب مالك ، نبوغا شهد له به أهل عصره .

وقد تولى منصب القضاء فى ١٧ شوال سنة ٩١٣ هـ بعد أن توفى أبوه . فتلقاه المالكية بصدر رحب ونفس باشة ، فانتهت بذلك رياستهم ،وهو فى عنفوان شبابه . وضم إليه السلطان الخطابة فى جامعه المبنى فى ناحية الشرابشيين فى شهر المحرم عام ٩١٨ هـ ، عوضا عن شمس الدين الغزى المتوفى . وطلب إليه السلطان أولا أن يخطب مرة على مسمع منه يوم الجمعة . فخطب فأجاد ، فأعجب به السلطان وضم إليه الوظيفة المذكورة .

وما زال مرعى الجانب يعيش فى كنف السلطان حتى شوال عام ٩١٩ هـ وفى هذا الشهر تعصب القاضى محيي الدين مع سائر القضاة والعلماء ضد السلطان فى مسألة الزنى التى أشرنا إليها عند الكلام عن القضاء ، فعزل مع القضاة الآخرين . وظل معزولا حتى استعاده السلطان فى رمضان عام ٩٢١ هـ . بعد أن دفع ألفى دينار .

ظل القاضى محيي الدين بن الدميرى فى القضاء ، حتى خرج السلطان الغورى فى عام ٩٢٢ هـ بجيشه الكثيف نحو البلاد الشامية والحلبية لقتال السلطان سليم العثمانى ، ومعه الخليفة والقضاة الأربعة فكان من بينهم قاضينا محيي الدين . ثم تمت الهزيمة على الغورى فى مرج دابق ، وأسر كثير من رجاله ، كان من بينهم هذا القاضى . وقد أدخل على السلطان سليم فيمن أدخل من العلماء ، فوبخهم بكلام جارح لأنهم يسعون إلى القضاء بالمال ، ويقبلون الرشوة على الفتاوى والأحكام الشرعية . وسجن مع القاضى الشافعى والحنبلى فى مدينة حلب .

ولما دخل السلطان سليم مصر بجيشه كان القاضى فى ركبه مع الأسرى ، ولما اشتد النزاع بين السلطان سليم والسلطان طومان باى ، أرسل السلطان سليم إليه القاضى محيي الدين الدميرى ، وكمال الدين الطويل وشهاب الدين الفتوحى لمفاوضته ومصالحته بالصعيد ، ولكنهم أخفقوا فى مسعاهم ، وعادوا من لدنه إلى القاهرة فى أوائل ربيع الثانى سنة ٩٢٣ هـ .

وقد عاش الدميرى بعد ذلك زمناً طويلا . وحج عام ٩٢٣ هـ ، وظل متقلداً منصبه فى عهد العثمانيين ، وعلت مكانته لدى نائب السلطان الأمير خاير بك . ولهذا حينما كان ختان ابنه فى أواخر المحرم سنة ٩٢٦ هـ ، نظم له موكب شائق سار فيه كثير من الوجهاء ، وأصبحت شفاعته لدى النائب غير مردودة ، ويصحبه فى ركبانه أحياناً .

ظل يقضى حتى أرسل السلطان سليم العثمانى من لدنه قاضيا سمى « قاضى العسكر » وأمر بإلغاء نظام القضاة الأربعة . وحل « قاضى العسكر » محل قضاء الشرع الأربعة فى منصب القضاء بالبلاد مستمدا أحكامه من مذهب أبى حنيفة . فانفصل القضاة

الأربعة ومن بينهم محي الدين الدميرى . فهو آخر قضاة المالكية بمصر . وكان ذلك في جمادى الآخرة عام ٩٢٨ هـ . وعاش محي الدين بعد فصله زمنا ولعله توفى عام ٩٢٨ هـ .

«ابن اياس ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة — و ج ٣ ص ٧ ، ٢٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ١٤١ ، ١٨٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ».

٥٩ — كمال الدين محمد بن الطويل ٩٢٨ هـ .

هو أبو الفضل محمد بن نور الدين على بن الناصرى محمد بن السيفى بهادر العمرى القادرى . وأصله تركى الجنس ، وقد تمذهب بمذهب الشافعى ، وبرع فيه حتى عد أحد أساطينه ، وأول ولايته لقضاء الشافعية بمصر فى أواخر صفر عام ٩١٤ هـ ، بعد أن صرف عنه جمال الدين القلقشندى ، وكان من قبل شيخاً للخانقاه البيبرسية ، فاجتمعت له مع القضاء قيل لم يجتمع هذا لشخص غيره إلا للعلامة شهاب الدين بن حجر ، والقاضى شمس الدين القاياتى .

وقد خطب أمام السلطان الغورى خطبة يوم جمعة فى مستهل ربيع الأول من السنة نفسها ، فوفق فيها أكبر توفيق وأعجب بها السلطان والأمراء . وقد أخذت كفاءته لمنصبه تثبت على مر الأيام فيزداد مكانة وسمواً فى الجاه .

ظل فى منصب القضاء نحو عامين ثم عزل فى ذى الحجة عام ٩١٥ هـ ولكن الأمراء أظهروا رضاهم عنه ، فكان ذلك سبباً فى عودته إلى منصبه ، فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الاولى سنة ٩١٦ هـ ، وعزل ابن النقيب . وفى يوم توليته أم السلطان وخطب له فى الصلاة ، فلما نزل من داره إلى المصلى احتفل به الناس احتفالا شائقا ، وزينت له الدور والمحال ولقيه الناس بالتغنى والموسيق ، حتى بلغ الخانقاه البيبرسية حيث أديت الصلاة . فخطب خطبة بليغة أشار فيها إلى عودته للقضاء ، وقرأ وهو فى المحراب الآية التى منها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ، وقد سر منه السلطان وأظهر له رضاه بعد الصلاة ومنحه خلعة وضم إليه أعمالا ومشيخات

كثيرة . ويقال إنه دفع فى سبيل عودته إلى القضاء نحواً من خمسة آلاف دينار .

وقد ظل فى منصبه مهيب الجانب موفور الكرامة رفيع المنزلة حتى عزل فى ٦ رجب سنة ٩١٨ هـ . واستقر مكانه ابن النقيب . ولكن ابن الطويل ما لبث غير قليل حتى عاد إلى القضاء فى ذى القعدة عام ٩١٨هـ . وهذه ثالث ولاية له . وقيل إنه أدى فى هذه الولايات الثلاث أكثر من عشرة آلاف دينار . وظل قرابة عام ثم عزل فى شوال سنة ٩١٩ هـ فى حادث الخلاف الذى جرى بينه وبين السلطان خاصاً بمسألة الزنى التى أشرنا إليها عند الكلام عن القضاء ، فعزل مع بقية القضاة . وظل مقصياً حتى رضى عنه السلطان بعد زمن ، وأعاده إلى القضاء فى ٢٧ رجب عام ٩٢١ هـ بعد أن دفع ثلاثة آلاف دينار .

وقد خرج القاضى كمال الدين بن الطويل مع قضاة الشرع حينما خرجوا فى حملة الغورى سنة ٩٢٢ هـ فى قتاله للسلطان سليم العثمانى . ولما بلغوا حلب خطب فى جامعها الكبير عدة مرات خطباً بليغة ، ثم أسر فى جملة من أسر ، وأدخل مع القاضى المالكى والحنبلى على السلطان سليم ، فأسمعهم كلاماً قاسياً . وظل فى الأسر حتى دخل فى ركاب هذا السلطان وهو يفتتح مصر . ومر فى ركب الخليفة هو وسائر القضاة فى وسط القاهرة فى أواخر عام ٩٢٢ هـ ، ينادون الناس بالخضوع لسلطان العثمانيين . ثم ذهب فى وفد السلطان سليم أرسله إلى الصعيد لمصالحة السلطان طومان باى . فعادوا فى أوائل ربيع الثانى عام ٩٢٣ هـ ، ولم تفلح مفاوضتهم .

ولما زالت دولة الجراكسة وتم ملك مصر للعثمانيين ، حمل ابنه زين العابدين فيمن حملوا إلى القسطنطينية . أما هو فقد ظل فى منصبه بضع سنين ، وهو موضع التجلة والتعظيم والاستشارة . وظل عالى الكعب فى الخطابة المنبرية يرسلها منوعة حسب المناسبات . وما زال حتى ألغى نظام القضاة الأربعة فى جمادى الآخرة سنة ٩٢٨ هـ . وحل محلهم قاضى العسكر ، فانفصل القاضى كمال الدين عن القضاء بعد ما تردد عليه نحواً من أربعة عشر عاماً . ثم عاش بعد ذلك زمناً ، ولعله توفى فى ٩٢٨ هـ ، أو قريباً منه .

« ابن اياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة — و ج ٣ ص ٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٥٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ » .

٦٠ – شهاب الدين الفتوحى

هو شهاب الدين أحمد بن عز الدين عبد العزيز الفتوحى الشهير بابن النجار الحنبلى . لما انفصل قاضى الحنابلة بمصر الشيخ الشيشينى عام ٩١٩ هـ ، أرسل السلطان الغورى إلى الشيخ شهاب الدين . ووكل إلية منصب القضاء المذكور . فلبث فيه زمناً طويلا . وكان فى جملة القضاة الأربعة الذين خرجوا فى حملة السلطان الغورى إلى البلاد الشامية والحلبية لمقاتلة العثمانيين . ثم كانت عاقبة أمره أن أسر فى جملة الأسارى ، فظل فى حلب مدة ووبخه السلطان سليم مع من وبخ من القضاة . ثم عاد إلى مصر كما عادوا مسوقين فى الركاب العثمانى . ولما تمت نصرة العثمانيين الأولى على طومان باى ، سيق شهاب الدين هو والقضاة والخليفة ينادون الناس بالخضوع لهم ، ثم سار فى موكب السلطان سليم نفسه حينما اخترق شوارع القاهرة الرئيسية فى المحرم عام ٩٢٣ هـ . ثم أرسله السلطان سليم إلى الصعيد فى عداد الوفد المرسل إلى طومان باى لمصالحته فأخفقوا .

وبعد أن تم الفتح العثمانى ثبت القاضى شهاب الدين الفتوحى فى منصبه . غير أنه كان أقل نفوذاً من القاضى المالكى وهو برهان الدين الدميرى ولذلك حينما قام بختان ولده فى ٢٣ شعبان سنة ٩٢٦ هـ ، كان الاحتفال به أقل بهاء من احتفال الدميرى بختان ابنه .

وقد ظل الفتوحى فى منصبه حتى ألغى نظام القضاة الأربعة فى جمادى الآخرة عام ٩٢٨ هـ ، فانفصل من القضاء وعاش بعد ذلك زمناً ، ولعله توفى قريباً من العام المذكور .

« ابن اياس ج ٤ حوادث شوال عام ٩١٩ هـ — وفى ج ٢ ص ٢ ، ٢٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٨ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ » .

٦١ — يحي البرديني

هو القاضي شرف الدين يحي البرديني الشافعي . كان له باع طويل فى الخطابة المنبرية . وناب عن القاضي الشافعي زمنا . وشهد مبايعة الأشرف طومان باى بالسلطنة ، عوضا عن كمال الدين الطويل ، لأسره عند السلطان سليم . ولما عاد القاضي كمال الدين بن الطويل، وتسلم مهام منصبه أصبح البرديني مفصولا ، ولم يل القضاء بعد ذلك .

ولما نبابه العيش بمصر ، حينما اضطربت أحواله بعد الفتح العثمانى ، جهد فى أن يعين شيخا للحرم النبوى الشريف ، فأجيب إلى طلبه ، وسافر توا إلى المدينة فى شهر جمادى الآخرة عام ٩٢٣ هـ .

« ابن إياس ج ٣ ص ٧٠ ، ٧٨ ، ١٢٥ » .

قضاة آخرون

نجمل فيما يلى ذكر عدد آخر من قضاة مصر مرتبين حسب عصورهم ووفياتهم تقريبا . وقد اعتمدنا فى إيرادهم على تاريخ ابن إياس أولا ، ثم نضيف إليه من بعض المراجع الأخرى .

عن الجزء الأول من ابن إياس :

١ ـ جمال الدين الزرعي : من قضاة الشافعية فى عهد الناصر بن قلاوون «ص ١٧٥»

٢ ـ برهان الدين بن جماعة : خطيب بيت المقدس . عين فى قضاء الشافعية عام ٧٧٣ هـ فى عهد الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر بن قلاوون . بدلا من بهاء الدين السبكى . وهو ابن أخى القاضي عز الدين بن جماعة المقدسى « ص ٢٢٧ ، ٣١٥ ـ طبقات السبكى ج ٥ ص ٤٦ » .

٣ ـ جمال الدين بن خير المالكى السكندرى : قاضى قضاة المالكية عام ٧٨٧ هـ فى عهد برقوق ، بدلا من ابن خلدون « ص ٢٦٢ ، ٢٨٤ » .

٤ ـ شمس الدين الطرابلسى : قاضى قضاة الحنفية عام ٧٩١ هـ . فى عهد السلطان أمير حاج . « ص ٢٨٤ » .

٥ ـ ناصر الدين العسقلانى : قاضى قضاة الحنابلة عام ٧٩١ هـ . فى عهد السلطان أمير حاج . « ص ٢٨٤ »

٦ ـ تقى الدين الزبيرى : عين قاضيا للشافعية عام ٧٩٩ هـ ، عوضا عن المناوى ، فى عهد برقوق . « ص ٣٠٧ ، ٣١٥ » .

٧ ـ صدر الدين بن منصور : من قضاة الحنفية فى عهد برقوق . « ص ٣١٥ »

٨ ـ مجد الدين الكنانى من قضاة الحنفية فى عهد برقوق . وقد توفى عام ٨٠٢ هـ « ص ٣١٥ ، ٣٢٦ » .

٩ ـ جمال الدين محمود القصيرى : من قضاة الحنفية فى عهد برقوق « ص ٣١٥ »

١٠ ـ جمال الدين يوسف الملطى . من قضاة الحنفية فى عهد برقوق وفرج . توفى بالشام عام ٨٠٣ هـ « ص ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ » .

١١ ـ شمس الدين الركراكى : من قضاة المالكية فى عصر برقوق « ص ٣١٥ » .

١٢ ـ شهاب الدين أحمد النحريرى : من قضاة المالكية فى عصر برقوق . توفى عام ٨٠٣ هـ مفصولا عن القضاء « ص ٣١٥ ، ٣٤٠ » .

١٣ ـ ناصر الدين التونسى : من قضاة المالكية فى عصر برقوق . « ص ٣١٥ » .

١٤ ـ برهان الدين العسقلانى : من قضاة الحنابلة فى عصر برقوق . وقد توفى عام ٨٠٢ هـ « ص ٣١٥ ، ٣٢٦ » .

١٥ ـ نور الدين بن الجلال المالكى : من قضاة المالكية فى عهد فرج . ومات مأسورا عند تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ . « ص ٣٢٨ ، ٣٤٠ » .

١٦ ـ ناصر الدين الصالحى : من قضاة الشافعية ، ولى قضاءها عام ٨٠٣ هـ بدلا من صدر الدين المناوى لأسره عند تيمورلنك « ص ٣٢٧ »

١٧ ـ أمين الدين الطرابلسى : ولاه السلطان فرج قضاء الحنفية عوضا عن جمال

الدين يوسف الملطى المتوفى عام ٨٠٣هـ . « ص ٣٣٧ »

١٨ ـ جمال الدين الأقفهسى : ولاه السلطان فرج قضاء المالكية ، عوضا عن نور الدين بن الجلال المتوفى مأسورا عند تيمورلنك عام ٨٠٣هـ . ثم عزل الأقفهسى وعين مكانه ابن خلدون . «ص ٣٣٧ » .

١٩ ـ مجد الدين بن سالم الجهنى . ولى قضاء الحنابلة فى عصر فرج عام ٨٠٣ هـ ، بدلا من موفق الدين الحنبلى المتوفى. « ص ٣٣٧ » .

عن الجزء الثانى من ابن إياس :

٢٠ ـ ولى الدين العراقى : ولى قضاء الشافعية بمصر مدة فى عهد المؤيد شيخ عوضا عن جلال الدين البلقينى . وتوفى عام ٨٢٤ هـ فى عهد الملك المظفر أحمد بن المؤيد . « ص ٩ ، ١٣ » .

٢١ ـ بدر الدين محمود العينى : ولى قضاء الحنفية زمنا بمصر فى عهد المؤيد شيخ . وشهد عصور من بعده حتى توفى فى أواخر عهد جقمق . وله كتب فى التاريخ وشرح للبخارى وغيره من المصنفات النافعة ، وله شعر وزجل « انظره فى الجزء الثانى من كتابنا هذا » . « ص ٩ ، ٣٦ » .

٢٢ ـ نصر الدين بن التونسى : ولى قضاء المالكية زمنا فى مصر فى عهد المؤيد شيخ . « ص ٩ » .

٢٣ ـ علاء الدين بن مغلى : ولى قضاء الحنابلة زمنا بمصر أيام المؤيد شيخ « ص ٩ »

٢٤ ـ شمس الدين البساطى : ولى قضاء المالكية زمنا فى عهد الظاهر جقمق وتوفى عام ٨٤٢ هـ . «ص ٣٧، ٣٣» .

٢٥ ـ بدر الدين التونسى : ولى قضاء المالكية بمصر عام ٨٤٢ هـ بعد وفاة البساطى فى عهد جقمق ، ثم توفى فى نفس العهد . « ص ٢٧ ، ٣٦ » .

٢٦ ـ شمس الدين محمد القاياتى : ولى قضاء الشافعية بمصر زمنا فى عهد الظاهر جقمق بعد عزل ابن حجر عام ٨٤٩ هـ . « س ٢٩ » .

٢٧ ـ ولى الدين السفطى : ولى قضاء الشافعية زمناً بمصر فى عهد جقمق قبيل عام ٨٤٩ هـ وتوفى فى هذا العهد . « س ٣٥ ؛ ٣٦ » .

٢٨ ـ ولى الدين الأرموى : ولى قضاء المالكية بمصر زمنا فى عهد جقمق بعد البدر التونسى . « س ٣٥ » .

٢٩ ـ محب الدين العسقلانى : ولى قضاء الحنابلة بمصر زمنا فى عهد جقمق وتوفى فى ذلك العهد . « س٣٥، ٣٦» .

٣٠ ـ بدر الدين البغدادى : ولى قضاء الحنابلة بمصر زمنا فى عهد جقمق بعد محب الدين العسقلانى . وتوفى فى نفس العهد . « س ٣٥ ، ٣٦ » .

٣١ ـ بدر الدين عبد المنعم البغدادى : هو عبد المنعم بن محمد بن محمد بن عبد المنعم البغدادى ، كان عالما فاضلا وجيها عندالناس . ولد عام ٨٠١ هـ . وتوفى عام ٨٥٧ هـ . ولى قضاء الحنابلة زمنا وشهد عهد الأشرف إينال ـ ولعله هو بدر الدين البغدادى رقم ١١ كرر ابن إياس ذكره وذكر وفاته فى ميعادين وموضعين . « س ٤٢ »

٣٢ ـ عز الدين الكنانى . هو ابن برهان بن مجد الدين بن نصر الله . عينه الأشرف إينال فى قضاء الحنابلة بعد وفاة بدر الدين البغدادى سنة ٨٥٧ هـ فلبث فيه زمنا . « س ٤٢ »

٣٣ ـ ولى الدين السنباطى . كان قاضى قضاة المالكية بمصر زمنا . وتوفى فى عهد الأشرف إينال سنة ٨٦١ هـ . وولد سنة ٧٨٦ هـ ، واسمه محمد بن عبد اللطيف إسحق بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموى المالكى . كان عالما فاضلا وقد تولى بعده القاضى حسام الدين بن حريز . « س ٥٨ »

٣٤ ـ صلاح الدين أحمد بن بركوت المكيني : تولى قضاء الشافعية بمصر بعد عزل يحيى المناوى فى أواخر عام ٨٦٩ هـ فى عهد السلطان خشقدم . وقيل دفع فى سبيل ذلك مالا . ولم يلبث فى منصبه طويلا ، بل عزل أوائل عام ٨٧٠ هـ وظل معزولا حتى توفى عام ٨٨١ هـ .

« الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣٠٤ ـ وابن إياس ص ٨٧ ، ٧٩ ، ١٦٦ »

٣٥ ـ بدر الدين محمد أبو السعادات : هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الكنانى الشافعى . تولى قضاء الشافعية بمصر زمنا قليلا فى عهد خشقدم ، ثم عزل وتوفى سنة ٨٩٠ هـ . « ص ٢٢٨ » .

٣٦ ـ برهان الدين اللقانى : تولى قضاء المالكية زمنا بمصر فى عهد قايتباى بعد عزل ابن حريز عام ٨٧٧ هـ ثم عزل . « ص ١٣٧ ، ٢٠٦ » .

٣٧ ـ الجمالى يوسف الحنبلى : هو ابن الشهابى أحمد بن نصر الله بن البغدادى ، تولى قضاء الحنابلة بمصر زمنا . وكذلك اشتغل بالتدريس بمدارس الحنابلة كالمدرسة البرقوقية ، وكان لطيف المعاشرة . وقد توفى فى المحرم عام ٨٨٩ هـ .
«ص ٢٢١ »

٣٨ ـ بهاء الدين عبد الرحمن بن قدامة الدمشقى : عينه السلطان الظاهر قانصوه فى قضاء الحنابلة بمصر عوضاً عن الشيشينى فى رمضان عام ٩٠٤ هـ . فمكث أربعة أشهر وصرف عن القضاء . ثم عين فى قضاء الحنابلة بدمشق بعد ذلك ، وشهد عصر الغورى ، وتوفى فى أخرياته . « ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ـ وج ٣ ص ٦٣ » .

عن الجزء الثالث من ابن إياس :

٣٩ ـ شمس الدين التتائى :

عينه الأشرف طومان باى فى قضاء المالكية عوضا عن محيى الدين الدميرى الأسير لدى السلطان سليم وذلك فى مستهل ذى القعدة عام ٩٢٢ هـ ، ثم انفصل حينما عاد الدميرى وتسلم منصبه ثانيا . « ص ٧٨ » .

المحمل والحج

منذ دخل الإسلام بلاد مصر ، أصبح أهلها - إلا قليلا منهم - يدينون به ، ولم تفتر همتهم عن إظهار شعائره الدينية . والافتنان فى إظهارها . ومرت بمصر عصور دفعتها إلى الغلو فى ذلك ، حتى بدت منها فى هذه السبيل ضروب من البدع ، مابين مقبول ومرذول . ومن هذه البدع خروج المحمل فى موسم الحج إلى بلاد الحجاز . وقد كانت هذه البلاد خاضعة لمصر فى عصر المماليك .

والمحمل جمل فوقه تركيب يحمل أشياء ثمينة، وكسوة مخصوصة لتغطية الكعبة. والعادات المرعية فى إبان الاحتفال به وبخروجه الآن يعرفها المصريون ولاسيما القاهريون . إذ لايزال خروج المحمل سنة متبعة فى بلادنا حتى اليوم ، ويحتفل به فى القاهرة كل عام . وإن كان قد ركد أخيرا بسبب ظروف السياسة .

وقد كان لكل من العراق والشام والمغرب محمل،فكانت عدة المحامل السلطانية أربعة [1]. ثم عفى الزمن هذا التقليد ولم يبق مقيما على اتباعه حتى الآن غير مصر .

والمعروف أن الظاهر بيبرس،أول من أمر بخروج المحمل بديار مصر، وكان ذلك فى ١٦ شوال عام ٦٧٥ هـ . فقد روى السيوطى قال :

« وفى أيامه - أى بيبرس - طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة ،بالقاهرة. وذلك فى سنة خمس وسبعين - أى وستمائة - وكان يوما مشهودا . وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية » [2].

وقال صاحب تقويم النيل :

« إنه - أى بيبرس - بعد أن تولى ملك مصر ، قرر إرسال تحفة سنوية إلى مكة،وهى جمل محمل أشياء ثمينة وكسوة مخصوصة لتغطية الكعبة ، وهى التى أطلق عليها اسم المحمل » .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ نقلا عن ابن فضل الله .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٤

وقال أيضا ونقل عن حسن المحاضرة :

« وقال ابن كثير : فى سادس عشر شوال سنة ٦٧٥هـ ، طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة، وكان يوماً مشهودا ، قلت: كان هذا مبدأ ذلك . واستمر ذلك كل عام إلى الآن » [١] .

غير أنه ورد فى ابن إياس ما يفيد أن المحمل ، كان معروفا قبل عام ٦٧٥ هـ . فقد ذكر فى حوادث عام ٦٦٧ هـ أن السلطان بيبرس حج إلى بيت الله الحرام فى العام المذكور . ثم قال بالنص :

« وكان ولد السلطان ، السعيد محمد ، توجه صحبه المحمل بالحاج المصرى . فلما قضى حجه ـ أى السلطان ـ رجع إلى الشام، ورجع ابنه الملك السعيد صحبه المحمل مع الركب المصرى » .

فهل كان « المحمل » معروفا فى مصر قبل عام ٦٧٥ ؟ قد يكون ذلك تبعا لنص ابن إياس . غير أن ما رواه السيوطى أصرح وأقطع . وعلى كل حال، فالمفهوم أن بدعة «المحمل» وبدعة الطواف به فى مصر ، من مبتكرات عصر المماليك وعلينا أن نفرق أولا بين مجرد الكسوة للكعبة الشريفة ، وبين « المحمل » . فكثير من الأمم والسلاطين كانوا يرسلون الكسى ولكن بغير محمل .

ولسنا هنا فى مقام تعداد محاسن المحمل أو مساوئه، أو نقد بدعته ، وإن كانت تحتاج منا الآن ـ نحن أهل القرن العشرين ـ إلى إعادة النظر . وكل همنا منصرف إلى الحديث عنها ورواية أخبارها وبيان مبلغ اهتمام المصريين بأمرها ، وذكر ما يتصل بها من شئون الحج ، فى عصر المماليك فنقول :

روى السيوطى فى وصف المحمل المصرى ما يلى :

« قال ابن فضل الله... يخرج الركب من مصر بالمحمل السلطانى والسبيل المسبل للفقراء والضعفاء والمنقطعين ، بالماء والزاد والأشربة، والأدوية والعقاقير، والأطباء

---

(١) تقويم النيل ج ١ فى ترجمة الظاهر بيبرس .

والكحالين ، والمجبرين والأدلاء ، والأئمة والمؤذنين والأمراء والجند والقاضى والشهود ، والدواوين والأمناء ، ومغسل الموتى . فى أكمل زى وأتم أبهة . وإذا نزلوا منزلا أو رحلوا مرحلا ، تدق الكوسات ، وينفر النفير ، ليؤذن بالرحيل والنزول .. » (١)

وقد جرت عادة السلطنة المصرية أن يقوم بالحجاج ركبان : يسمى أحدهما « الركب الأول » ويسمى الثانى « ركب المحمل » ، وهو أهم الركبين ، لأنه يضم الكسى والهدايا وما إلى ذلك ، ويسافر فى صحبته عظماء الحجاج .

ويعين لكل ركب ، أمير يختاره السلطان من بين رجاله المقربين الموثوق بهم . والغالب أن يكونا من رجال السيف ، وقل أن كانا من رجال القلم أو الدين .

وبدهى أن يكون أمير ركب المحمل ، أهم وأسمى من أمير الركب الأول ، ويتم تعيينهما فى النصف الثانى من ربيع الأول من كل سنة ، وبعد انتهاء المولد النبوى ولوحظ أنه يندر أن يتأخر تعيينهما أو يتقدم ، إلا لسبب عارض ويعد ذلك مخالفا للعادة المرعية .

وإذا ما وقع اختيار السلطان على أميرى الركبين ، أهدى إليهما خلع الإمارة ، وهى أردية نفيسة ذات قيمة . ثم يأخذ الأميران فى الاستعداد للرحيل وينادى المنادى بين الناس بالقيام للحج ، ليستعد أيضا من عقد النية فى عامه على حج بيت الله الحرام . هذا إذا لم يكن هناك خطر مرقوب يتوقع حدوثه لركبى الحجاج ، كقيام العربان فى الطريق لقطعه عليهم ، وترصدهم لنزولهم حتى ينهبوا ما معهم . وقد يقتلون منهم عددا . وقد يأسرون عددا آخر . وكثيرا ما حدثت حوادث من هذا النوع حتى اضطر السلطان خوفا على حياة رعاياه أن ينادى فى سنة ما بمنع النساء وحدهن من الخروج للحج فى سنتهن تلك . أو بمنع الرجال والنساء معا من الخروج للحج فى عامهم ذلك . وكذلك إذا تتالت الأخبار عن ثوران العربان فى الطريق المؤدى إلى الحجاز ، وعن توقع الشر منهم للحجاج . وهذا هو

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ .

ما وقع فى سنة ٩١١ هـ. وربما خيف من فتنة أخرى أو حرب منتظرة أو نحو ذلك. فينادى بعدم الخروج للحج حينئذ.

ويزود ركبا المحمل بعدد من الجنود لحمايتهما. والذود عنهما فى خلال الطريق ذهابا وإيابا وإقامة. وقد يصل عدد الجنود إلى خمسمائة أو ستمائة ومعهم أمراؤهم. كما قد يزود الركبان بنحو خمسين جنديا آخرين عليهم أمير خاص بهم، يصاحبونهم إلى مكة. ولا يعودون فى عودتهم، بل يقيمون بمكة طول العام حتى يعود ركب المحمل فى السنة القادمة إلى الحجاز، فيستبدل بهم سواهم وهكذا. وهذه حيطة نافعة فى تلك العصور المظلمة المليئة بالفوضى وحب الاعتداء من العربان وغيرهم. ويسمى هؤلاء الخمسون «المجاورين» ويسمى أميرهم «باش المجاورين»، لأنهم يجاورون مكة والبيت الحرام. ويعطى كل جندى ممن يصحبون المحمل مالا لينفق منه ويكفيه طيلة عمله المكلف إياه.

فإذا تهيأ المحمل وأعد، عرض على الأنظار السلطانية عرضين: أما العرض الأول فموعده شهر رجب من كل عام. وفى نصفه الثانى فى الغالب. وأما العرض الثانى فموعده شهر شوال من كل عام، وفى نصفه الثانى فى الغالب. ويندر أن يعرض فى غير هذا الميعاد.

والعرض الأول عبارة عن خروج المحمل بالكسوة الشريفة والبرقع وكسوة مقام إبراهيم عليه السلام لتحيته وللحفاوة به، ولإعلان الناس باقتراب موسم الحج وبث الحماسة الدينية فى نفوسهم، ثم لإشهار فخامته، ولقضاء يوم فى التسلى برؤيته. ويسير الجنود أمامه وحوله بملابسهم المزركشة، وأسلحتهم المزخرفة، وألوانهم اللامعة. فيخترقون به وسط القاهرة ميممين جهة القلعة فى ناحية الرميلة. فإذا توسطوا ساحتها، أشرف عليهم السلطان وحوله عدد من موظفيه وأمرائه ورجال دولته. حينئذ يقوم «الرماحة»، وهم طائفة خاصة تحمل الرماح، معدة لمثل هذه المناسبة، بملابسهم الحمراء. فيلعبون ألعابا عسكرية كثيرة تنم عن فروسيتهم ومهارتهم. فيتسلى الجمع بمشاهدتهم. ويدور المحمل فى أثناء ذلك أمام السلطان دورة استعراض.

وفى هذا اليوم ـ وهو يوم العرض الرجبى ـ يدور المحمل دورتين ، أولاهما فى الصباح وثانيتهما بعد الظهر .

وفى هذا اليوم تبلغ الحفاوة باستقبال المحمل غايتها ، ويبالغ الناس فى حسن لقائه ، ويكابد بعضهم ضروبا من النفقة المرهقة لتزيين منازلهم ومحالهم وإبقاء هذه الزينة طول نهارهم وليلهم ويجملونها بقطع من القماش الملون والحرير الموشى والقناديل الزيتية ذات الأضواء الجميلة والشموع الموقدة ليلا ونهارا[١] . وينثرون هنا وهناك المقاعد الوثيرة المحلاة . منهم من يندفع إلى ذلك بدافع العادة والتقليد أو سعيا وراء الظهور وحب الصيت . ومنهم من يفعل ذلك خوفا من عقاب الوالى ـ وأعنى به والى القاهرة ـ لأن الوالى المذكور يغلب أن ينادى هو وأعوانه قبيل يوم العرض الرجبى فى أنحاء القاهرة ، وخاصة فى ممر المحمل ، بأن يجمل الناس وجوه منازلهم وحوانيتهم فى اليوم المذكور . فيخشى بعضهم العاقبة إذا لم يطع هذا الأمر .

ويكثر فى هذه المناسبة خروج الناس رجالا وركبانا ذكورا وإناثا إلى أماكن اللهو والتسلى يعبثون ويسمرون ويغنون ويرقصون ويتناشدون ، ويعاونهم فى ذلك الشعراء والزجالون بما ينظمون من ضروب الشعر والزجل .

ومما هو جدير بالذكر أن العرض الرجبى ظل مرعيا زمنا طويلا . ولبث من تقاليد الدولة . وأبطل مرة قبل الأشرف إينال فأعاده عام ٨٤٩ هـ ، ثم أبطل بعد الظاهر خشقدم فى سنة ٨٧٢هـ فنسيه الناس ، وظل منسيا[١] قرابة أربعين عاما ، حتى أعاده وقرره السلطان الأشرف الغورى فى عام ٩٠٩ هـ ، وجعله من تقاليد الدولة مرة أخرى . فظل كذلك إلى أخريات العصر . غير أنى لاحظت أن العرض

---

(١) المدخل لابن الحاج ؛ ج١ ص ٢٧٢

(١) هذا كلام ابن اياس ج ٤ حوادث عام ٩٠٩هـ . وحقا لم نلحظ أخبارا عن العرض الرجبى طول هذه المدة إلا مرة فى عهد قايتباى عام ٨٩٦هـ فوجب التنبيه .

الأول المذكور وقع مرارا فى شوال لا فى رجب وذلك فى عهد الغورى .

أما العرض الثانى فهو عرض الخروج ، ويكون فى شهر شوال من كل سنة كما ذكرنا ، وفى نصفه الثانى غالبا ، وهو عبارة عن خروج المحمل شاقا من وسط القاهرة فى زينة حافلة وحفاوة تامة . والحمالون يحملون على رءوسهم الكسوة وغيرها أو يستخدمون لذلك الجمال والدواب الأخرى ويعرض على أنظار السلطان فى جهة القلعة ، ثم يقبع فى مكانه يوما أو بعض يوم ، ثم يخرج من القاهرة فى زينته وبين حفاوة الناس بتوديعه ناسلا إلى بركة الحاج شمال القاهرة ، حيث يجتمع الحجاج، يفدون إليه ويأوون من كل حدب وصوب فى البلاد . وفى خلال هذين اليومين يولم السلطان والأمراء الولائم الحافلة ويبذلون الأطعمة ويمدون الموائد يأكل منها الناس ، ويفيضون بضروب من البر والعطاء ، يستعين بها الفقراء .

فإذا وصل ركب المحمل إلى بركة الحاج يبتدىء الحجاج المجتمعون بها فى الاستعداد الأخير للرحيل على جمالهم ودوابهم ، ثم يبتدىء الركب الأول ـ ويكون قد بلغها قبل ركب المحمل ـ فى السفر ، ويسافر قبل ركب المحمل بيوم واحد . ثم يليه ركب المحمل وهكذا . ويندر أن يتأخر عن اللحاق به أكثر من يوم .

ويفهم من تحديد زمن الخروج بالنصف الثانى من شهر شوال أن مسافة الرحيل قد تستغرق نحو شهر ونصف ، ومع ذلك فقد حج الناصر بن قلاوون عام ٧١٨هـ . وخرج مع ركبه فى ١٩ ذى القعدة فسار مسرعا وبلغ مكة قبل الوقفة بثلاثة أيام . وفى عام ٩١٥ جاء مبشر الحاج فى ١٣ يوما فقط .

هذا وقد يصحب الركب فى عام ما ، سلطان مصر نفسه متوجها لأداء الفريضة وفى هذه الحالة تزداد رغبة الأمراء والأعيان والناس فى السفر إلى الحج ، وكذلك يزداد عدد الأمراء والجنود والموظفين المعينين لمصاحبة الركب حفاوة بالسلطان وقياما على راحته وسهرا على حفظه . وقد حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٨هـ ، فاستصحب معه الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، واثنى عشر أميرا مقدما ، وثلاثين أميرا من غير المقدمين ، ورافقه كاتب سره علاء الدين بن

الأثير ، وناظر جيوشه القاضى فخر الدين ، وناظر خواصه القاضى كريم الدين بن السديد ، وكثير من المباشرين . وحج الناصر أيضاً مرة أخرى فى عام ٧٣٢هـ وكان يصحبه كذلك الملك المؤيد صاحب حماة وكثير من الأمراء ، قيل إن عددهم ٧٢ أميرا . وحج السلطان الأشرف قايتباى عام ٨٨٤هـ ومعه كثير من الجنود وأمرائهم . وهكذا .

وقد يحج ابن السلطان أو زوجته . فإذا خرجت زوجة السلطان إلى الحج يغلب أنها لا تصحب أحد الركبين فى سفرها . بل يهيأ لها ركب خاص تسافر فيه ، يبدأ ميعاده قبل ميعاد رحيل ركب المحمل بقليل . ويكتفى إذ ذاك بزفاف ركبها الخاص ضمن الاحتفال بعرض المحمل العرضة الأخيرة .

وبهذه المناسبة نذكر أنه قد جرت العادة إذا تهيأ أحد عظماء القوم للخروج للحج ، أن يعد لنفسه ركبا خاصا ومحفة خاصة مزدانة ازديانا على قدر استطاعته ومركزه وجاهه ، وينضم بهذا الركب الجزئى إلى الركب العام وهو ركب المحمل حين خروجه إلى بركة الحاج . فإذا كان هذا العظيم هو زوجة السلطان ، خرج ركبها وفيه محفتها جميلة وضاءة مزدانة بالحرير والأفواف والوشى والزخرف والجوهر وتسعى كأن الأميرة فيها . ويفهم الناس حينئذ أنها ملء محفتها ، ولكن الغالب أنها لا تكون بداخلها ، بل تلحقها خفية فيما بعد . ثم تمتطيها من بركة الحاج وتبكر بالسفر كما روينا .

ويرسل مع ركب المحمل ماجادت به مكارم السلطان ، وفاض به جود الدولة وسمحت به نفوس أعيان مصر ومحسنيها للبيت الحرام وخدمه وفقراء مكة والحجاز والحرم النبوى الشريف قربى إلى الله وزلفى .

فمن ذلك الكسوة الشريفة ، وكانت العناية بصنعها بالغة وينفق فى سبيلها وإعدادها مال وفير . وقد يهتم بشأنها بعض السلاطين والأمراء أكثر من اهتمام سواهم . فقد روى أن الملك الصالح علاء الدين بن الناصر محمد بن قلاوون د ٧٤٣ هـ -

٧٤٦ هـ ، أوقف إحدى ضيعاته وتسمى «بيسوس» على صنع كسوة الكعبة الشريفة. وفى عام ٧٩٢ هـ صنعت أخت الملك الظاهر برقوق كسوة ثمينة للحجرة الشريفة مع ستارة غالية لبابها. وهكذا.

ومن ذلك أيضا الغلال والشموع والزيوت والقماش وصرر الدنانير وأمثال ذلك، ومعها الهدايا المختلفة. وقد روى أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما خرج للحج فى مرته الثالثة عام ٧٣٢ هـ حمل معه بابا للكعبة قد صنعه بمصر من خشب السنط الأحمر المغطى بصفائح من الفضـــة، قيل إن زنتها كانت ثلاثين ألف درهم.

هذا، ثم يخرج ركب المحمل ميمما بلاد الحجاز. ويسير إليها براً لا بحراً[١] إذ طرق المواصلات البحرية عن طريق البحر الأحمر طبعاً، لم تكن ميسرة قادرة على حمل هؤلاء الحجاج وركبيهم بما معهم من زاد وملابس وخيل وأدوات وأسلحة وغير ذلك. ومع ذلك فقد كان بعض الحجاج يسافر عن طريق البحر، وكذلك يعود، أما الطريق البرى فعليه جل الاعتماد. ويمر كل ركب بجهة العقبة، ولا شك أنه يقيم هناك آونة للاستراحة. ولذلك عنى كثير من سلاطين مصر بهذه الجهة، فمنهم من أنشأ بها السواقى لاستنباط الماء، ومنهم من أقام الربوع للنوم، ومنهم من بنى الخافر وأسكن فيها الجند حماية للطريق ومحافظة على أرواح الحجاج. ومن هذا القبيل ما أنشأه السلطان الغورى فى عام ٩١٤ هـ.

وإذا بلغ الركب هذه النواحى يرسل عادة إلى القاهرة مبشراً ينبىء بسلامة وصوله إليها وبحالة الركاب وما هم عليه من سلامة وصحة وأمن، ويحمل معه رسائل بعض الحجاج إلى ذويهم.

ثم يصل الركب إلى مكة فيخرج أميرها للقاء أمير المحمل، وحينما يراه يترجل

---

(١) اقرأ وصف رحيل الحجاج من بركة الحاج حتى مكة ومراحله، لابن فضل الله فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ تحت عنوان « ذكر الطريق المسلوك من مصر إلى مكة ».

عن فرسه ويتقدم فى مهابة وتوقر فيقبل رجل جمل المحمل . ثم يتسلم الكسى والأعطيات ، ويقوم أميره وأعوانه بتفريق ما لديهم من الهبات والحسنات . ويؤدون جميعا مع الحجاج فريضة الحج ، ويتبركون بالزيارة ، ثم يأخذون سمتهم إلى العودة ويتخلف منهم الجندالمجاورون ، ويتخلف أيضا من حكم عليه السلطان بالنفى إلى مكة فى عامه ذاك ، فأوفده مع الركب إليها . ويتخلف أيضا من عقد النية على مجاورة بيت الله الحرام .

يعود الركبان والحجاج كما أتوا سالكين طريقهم فى المجىء فيصلون إلى البلاد سالمين ، ما لم يقم فى طريقهم فى الذهاب أو الإياب عائق . وأشد العوائق وأشقها خروج العربان عليهم ونهب ما معهم أو قتل بعضهم أو أسره . ومن ذلك ما وقع فى عام٨٥٨هـ ، ٩٠٠هـ . وأكثر ما اشتد عسف العربان وفتكهم بالحاج فى أخريات العصر . ومن أعداء الحجاج الأمراض والطواعين تنفشى فى جماعاتهم ، وكذلك الغلاء وموت الدواب يقاسون منهما شدة كبيرة وضيقاً لا حد له . وكذلك كثرة السيول أو قلة الماء . وقد يشتد بهم أمرهذه الأعداء فيتبدد جمعهم ويتبعثر ملمومهم من جرائها. فيعردون إلى مصر فرادى عن طريق البر أو البحر فيصلونها منهوكى القوى مكدودى العزائم .

وقد جرت العادة أيضا أن يفد إلى مصر فى أخريات شهر ذى الحجة ، مبشر يخبر بأحوال الحجاج والركبين فى مكة فى أثناءعودتهم ، ويحمل معه رسائل الحجاج إلى ذويهم . وقل أن انقطع مجىء هذا البشير . بخلاف المبشر الأول فإنه كثيراً ما انقطع . ثم يعود الركبان فيصلان فى أواسط النصف الثانى من شهر المحرم فى السنة التالية . فينزل الركب الأول ببركة الحاج ، وبعد نزوله بيوم ينزل ركب المحمل . ومن هنا يتفرق الحجاج إلى بلادهم، ثم يتقدم الركب الأول فيخترق مدينة القاهرة فيلاقيه الناس فى حفاوة . ثم يتلوه بعد يوم واحد ركب المحل ويشق طريقه فى وسطها ، فيحسن الجمهور لقاءه . ويندر أن يتأخر ركب المحمل عن الركب الأول فى قدومه إلى القاهرة أكثر من يوم واحد ، وكلما دخل أحد الركبين إلى القاهرة

صعد أميره إلى حضرة السلطان بالقلعة فيفيض عليه عادة بجميل رضاه وسنى جوائزه ونفيس خلعه ، فيحدث السلطان بما رأى فى رحلته وما سمع وما صنع . ثم يغادر مجلسه مكرما .

واعتاد الناس أن يتسقطوا أخبار الحجاج وأخبار أمير المحمل فإذا علموا عنه برا وعملا صالحا ، وحسن رعاية للحجاج وجميل معاملة ، أثنوا عليه بما هو أهله ، ولهجت ألسنتهم وتحدثت مجالسهم بمناقبه وحمده ، وإن علموا منه أذى كثيرا وبخلا وسوء معاملة ذموه وحفظوا له سوء صنعه .

وفيما يلى نصوص تاريخية منقولة عن تاريخ ابن إياس ـ وقد اكتفينا بذكر صفحاته ـ نجمل فيها بعض أخبار المحمل والحج فى العصر الذى نحن بصدده على سبيل المثال لا الاستيعاب. وهى مجموعة بعد تفرق مهذبة العبارة بعدركة ، مسبوكة فى قالب من اللفظ مناسب ، مع حذف ما لا غناء فيه ، مشاراً فى سياقها إلى أسماء الأمراء الذين اختيروا فى كل عام لإمارة الركبين ، مزودة أحيانا بنصوص عن غير ابن إياس فنقول :

أخبار ركبي الحج وأمرائهما وما يتصل بذلك

١ – فى سنة ٦٦٧ هـ . حج السلطان الظاهر بيبرس إلى بيت الله الحرام ، فخرج من القاهرة فى ثالث شوال وتوجه إلى غزة فأخذ ما أعده له نائب الشام ، ثم وفد إلى الكرك بالمدينة المنورة فزار قبر النبي عليه الصلام والسلام . ثم قصد مكة فدخلها فى خامس ذى الحجة ـ وكانت الوقفة يوم جمعة ـ وقد تواضع بيبرس لله كل التواضع . وكان ولد السلطان بيبرس ، وهو السعيد محمد ، قد صحب الركب المصرى ، فأدى السلطان فريضته وعاد إلى الشام . وعاد ابنه مع ركب المحمل المصرى .

« ج ١ ص ١٠٧ ـ وابن كثير حوادث عام ٦٦٧ هـ » .

٢ – سنة ٦٧٨ هـ حج بالناس الأمير جمال الدين أقش الباخلى . وسار الركب فى ١٧ شـــوال . وقاضيه فخر الدين عثمان ابن بنت أبى سعيد . « سلوك ج ١ ص ٦٧١ » .

٣ – فى سنة ٦٨١ هـ : حلف الشريف أبو نمى أمير مكة للسلطان المنصور ووالده بالطاعة . وأنه التزم تعليق كسوة مصر على الكعبة كل عام ، ولا يعلق غيرها ، وأن يقدم علم السلطان على سواه ، وأن يسهل زيارة البيت للحجاج ويحرسهم ويسهر على أمنهم .

وخرج من القاهرة بالمحمل الأمير ناصر الدين الطنبغا الخوارزمى ، ومعه كسوة الكعبة . وسار بالسبيل حسام الدين مظفر أستادار الفارقانى وحج الأمير علاء الدين البندقدار فى ركب كبير . « السلوك ج١ ص ٧٠٦ ، ٧١٠ » .

٤ – فى سنة ٦٨٣ هـ : فى هذا العام وقعت فتنة فى مكة بسبب استبداد شريفها أبى نمى ، ومنعه الحجاج من أداء الفريضة ، فجرد عليه السلطان جندا هزموه ، ثم خمدت الفتنة ، وقضى الناس حجهم . « السلوك ج ١ ص ٢٢٤ ، ٢٢٦ » .

٦ – فى سنة ٧٠٨ هـ : أعلن السلطان الناصر بن قلاوون أنه عقد النية على الحج ، ثم بكر فى الخروج ومعه عدد من الأمراء ، وقصد الكرك ، ولحقت به أسرته . وكانت هذه خطة موضوعة يرمى من ورائها إلى الإقامة فى قلعة الكرك . والتنازل عن العرش ومن المزاحمين له ، وقد تم له ما أراد .

وقد خرج الركب من القاهرة فى شوال ، وكان أمير المحمل الأمير جمال الدين خضر أبو نوكبة . « ج ١ ص ١٤٨ » .

٦ – فى سنة ٧١٨ هـ : خرج الناصر بن قلاوون للحج بعد عودته إلى سلطنته فاستصحب معه اثنى عشر أميراً من المقدمين ، وثلاثين من الطلبخانات والعشرات

وحج فى صحبته الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ونائب السلطان فيها، وكاتم سره علاء الدين بن الأثير، وناظر جيوشه فخر الدين، وناظر خواصه كريم الدين بن السديد وغيرهم من المباشرين . وخرج فى ٩ من ذى القعدة متأخراً، فأغذ السير إلى مكة فبلغها قبل الوقفة بثلاثة أيام . ولابد من أن ركب المحمل قد سبقه إليها . فأدى الفريضة وبذل . ثم قصد المدينة ودخلها ماشياً عارى القدمين . وزار وأنفق . وعاد إلى القاهرة فى حفل عظيم فى أوائل صفر عام ٧١٩ هـ .

« ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ » .

٧ ـ فى سنة ٧٣٢ هـ خرج الناصر محمد بن قلاوون للحج أيضاً ، واستصحب معه كذلك الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة . ورغب السلطان الناصر أن يوضع بمشهد منه باب جديد صنعه للكعبة . وقد رافقه فى تلك الحجة نحو ٧٢ أميراً من رتب مختلفة من بينهم صهره بكتمر الساقى وابن بكتمر ، وهو أحمد ابن أخت السلطان ، وقد مرضا فى عودتهما وماتا فى الطريق .

أما السلطان الناصر فإنه خرج إلى حجته تلك فى ٧ شوال ، وعاد بعد أربعة وخمسين يوما . « ج ١ ص ١٦٦ » .

٨ ـ فى سنة ٧٤٦ هـ . جاء فى أخبارها فى ابن إياس أن من أعمال السلطان الصالح علاء الدين إسماعيل بن الناصر بن قلاوون أنه أوقف ضيعة تسمى «بيسوس» على كسوة الكعبة الشريفة . «ج ١ ص ١٨٢» .

٩ ـ فى سنة ٧٥١ هـ . كان أمير ركب المحمل الأمير طاز ـ فى عهد الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون ـ فلما بلغ مكة وقع بينه وبين الملك المجاهد صاحب اليمن نفور ونزاع أدى إلى القتال ـ وكان صاحب اليمن يحج فى تلك السنة ـ فهزمه الأمير طاز وقبض عليه وساقه مقيداً إلى مصر فى أثناء عودته وكانت عودته فى أوائل علم ٧٥٢ هـ فقدم أسيره إلى السلطان . فلم يلبث حتى أطلقه ورده إلى بلاده.

« ج ١ ص ١٩٣ ، ٢٩٤ » .

١٠ ـ فى سنة ٧٧٨ هـ . كان السلطان هو الأشرف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون . فخرج للحج فى هذه السنة ، وأشار عليه بعض الصلحاء بترك الحج فلم يقبل ! . وخرج من القاهرة يوم السبت ١٢ شوال فى ركب عظيم ومعه الخليفة المتوكل على الله والقضاة . ومعه كمية كبيرة من المأكولات . فأقام مدة فى بركة الحاج ثم زايلها إلى العقبة ، ومعه عديد من الأمراء . ولكن سرعان ماوقعت فتنة هائلة فى القاهرة عقب خروجه أدت إلى سلطنة ابنه على ، بدعوى أن الأشرف قد قتل . ووقعت فتنة أخرى فى العقبة بين الأمراء المصاحبين للسلطان أدت إلى قتله فى النهاية ، فلم يتم له حج . . .

وقد عين الأمراء لإمارة الحج الأمير بهادر الجمالى أمير أخور كبير ، فصاحب المحمل وسار الجميع فى ركب واحد هذا العام . « ج ١ ص ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٥ » .

١١ ـ فى سنة ٧٨٨ هـ لما وصل المحمل إلى مكة خرج أحمد أميرها للقائه ، ونزل عن فرسه ليقبل رجل جمل المحمل فاغتاله رجل بسكين فى جنبه فمات ليومه . فاضطربت أحوال مكة وكادت العرب تستبد بالركب لولا ادراع الجند وأميرهم بسلاحهم سبعة أيام . ثم عين أمير الحاج الأمير عنان بن مغامس نائبا على مكة . فاستقر الاضطراب بعض الاستقرار . وكان ذلك فى عهد برقوق . « ج ١ ص ٢٦٥ » .

١٢ ـ فى سنة ٧٩٢ هـ : فى هذه السنة صنعت أخت الملك الظاهر برقوق كسوة نفيسة للحجرة الشريفة وستارة قيمة لبابها . وكانت قد نذرت أن تصنع ذلك إن عاد أخوها برقوق إلى السلطنة . وقد أرسلت هذه الكسوة والستارة هذا العام فى موكب حافل . « ج ١ ص ٢٩٣ » .

١٣ ـ وفى سنة ٨٠١ هـ : فى هذه السنة نادى السلطان برقوق للناس بأن يحجوا الحجة الرجبية . وكان قد بطل ذلك من عام ٧٨٣ هـ ، فرسم بإعادته . وكان أمير حاج المحمل ، الأمير شيخا المحمودى ـ قبل سلطنته ـ « ج ١ ص ٣١٣ ـ ج ٢ ص ٢٣ » .

١٤ ـ وفى سنة ٨٠٣ هـ : خرج المحمل والحجاج كالعادة . وفى أوائل سنة

٨٠٤ هـ جاءت الأخبار بأن عربان بنى عقبة اعتدوا على الحجاج ، ونهبوا ما معهم. فشتت أمير الحاج شملهم وكسرهم وأسر شيخهم « منجد بن خاطر » وساقه أمامه بين يدى السلطان ، فأمر بأعدامه ، فتقدم إليه واعدا برد جميع ما نهب عربانه من الحجاج . فظل مأسورا لدى السلطان حتى رد كثيرا مما نهب . « ج ١ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ » .

١٥ - فى سنة ٨٠٤ هـ : تأخر خروج المحمل من القاهرة إلى ٢٢ شوال ، وهذا لم يعهد قط . وكان أمير المحمل ، « نكسبيه الأزدمرى » وقد وقع له أمر عوق المحمل عن الخروج فى موعده . « ج ١ ص ٣٤٧ » .

١٦ - فى سنة ٨١٨ هـ : كان أمير الحج تانى بك الجركسى شاد الشر بخاناه المتوفى سنة ٨١٩ هـ . « الضوء ج ٣ رقم ١٢٦ » .

١٧ - فى سنة ٨٢٠ هـ : كان غرس الدين خليل بن شاهين الشيخى الظاهرى أمير الركب المحمل . « الضوء ج ٣ رقم ٧٤٨ » .

١٨ - فى سنة ٨٥٦ هـ : كان الأمير دولات باى الجركسى المحمودى أميرا لركب المحمل ، وحج فى تجمل زائد . « الضوء ج ٣ رقم ٨٢٧ » .

١٩ - فى سنة ٨٤٧ هـ : فى شهر رجب رسم السلطان إينال ، بدوران المحمل ونودى فى القاهرة بالزينة . ولعب الرماحة لعبهم برياسة جانى بك الظريف . وكان ذلك قد أوقف منذ زمن . ثم خرج الحجاج وركب المحمل فى شوال . وعقدت إمارته لجانى بك المذكور . وكان أمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير ، وهو الذى غضب عليه السلطان إينال عام ٨٥٩ هـ وضربه ونفاه إلى دمياط وكان نقيبا للجيوش ، ثم رضى عنه بعد ذلك ، وعينه أميرا للركب الأول عام ٨٦٠ هـ . « ج ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٣ » .

٢٠ - فى سنة ٨٥٨ هـ : فى هذه السنة أدير المحمل كما جرت العادة ، ثم خرج . وجاء فى ذى الحجة رسول من قبله يخبر بأن العربان تعرضوا بالأذى له فى الطريق . وعاد الحجاج فى المحرم عام ٨٥٩ هـ وتحدثوا بما أصيبوا به من سيول

شديدة وموت جمال وقطع طريق من العربان . « جـ ٢ ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ » .

٢١ ـ فى سنة ٨٥٩. عرض المحمل فى شهر رجب كالعادة وأبدع الرماحة . وكان السلطان هو إينال ، فرسم فى شهر شوال بأن تصنع كسوة للحجرة الشريفة، فلما تم صنعها عرضها على أنظاره ناظر الخاصة يوسف فأعجب بها وأنعم عليه ، ثم خرج الحاج . وكان أمير ركب المحمل بيبرس الأشرفى والأمير الثانى بردبك البجمقدارى ، وهو الذى ولى أمارة الركب مرارا بعد، وقد توفى عهد قايتباى عام ٨٧٥ هـ وكان نائبا على الشام . وقد عاد الركب وحجاجه فى المحرم عام ٨٦٠ هـ ، فحدثوا بما رأوه ومن ذلك أن العراق لم يحج منه أحد هذا العام خوفا من رجل ثائر كثير الفساد يدعى المشعشع . ولقى الحاج فى هذه السنة شدة وسوءا . «جـ ٢ ص ٥٢ ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ١٢٢ » .

٢٢ ـ فى سنة ٨٦٠ هـ أدير المحمل فى رجب وتقدمه لاعبو الرماح . وشهده السلطان إينال وضيفه إذ ذاك رسول ملك الروم ابن عثمان ، وخرج الحاج فى شوال من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل قانم التاجر أحد الأمراء المقدمين، وكان أمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير . وهو الذى كان أميرا للركب الأول عام ٨٥٧ هـ ، وفى عام ٨٥٩ غضب عليه السلطان ثم رضى عنه واختاره لإمارة الركب الأول . « جـ٢ ص ٥٥، ٥٦»

٢٣ ـ فى سنة ٨٦١ هـ . فى شهر ربيع الأول قرر السلطان إينال أن يكون ابنه المقر الشهابى أحمد أميرا لركب المحمل. ورأى لزوجته خوند زينب أن تحج هى وأولاده ، وأرسلهم فى رفقة ابنه أحمد المذكور . ثم أدير المحمل فى رجب . وانتهز المماليك الجلبان فرصة دورانه وعاثوا فى الأرض فسادا . ثم خرج الحجاج والركبان فى شوال ، وكان خروج ركب المحمل شائقا لعظمة من صحبه من أعيان الرجال والنساء وقد اصطحب المقر الشهابى أحمد أمير الركب كثيرا من المباشرين

منهم كاتم السر القاضى محب الدين بن الأشقر ، وبعض أبناء ابن الجيعان منهم: القاضى علم الدين بن شاكر ، وناظر الإصطبل القاضى أبو بكر بن مزهر وغيرهم .

وفى ٢٨ ذى الحجة جاء البشير ـ وهو مرداش الطويل ـ فأخبر عن حالة الحجاج ووصف ما لقوه من عطش أثناء الطريق وموت بعضهم بسببه . وأخبر عن سلامة زوجة السلطان وأبنائه . وفى المحرم ٨٦٢ عاد الحجاج إلى القاهرة ووصل ابن السلطان المقر الشهابى أحمد ووالدته وإخوته فكان يومهم مشهوداً ، وخرج الأمراء والناس جموعا للقائهم وفرشت البسط وشقق الحرير ونثر على رأس خوند « زينب » الفضة والذهب ، وقدمت إليهم الهدايا الثمينة وأولمت الولائم الشهية . وكان أفضل من تقدم بذلك ناظر الخاص الجمالى يوسف ، وأهدى إليهم نائب الشام قانى باى الحمزاوى ثمانين فرسا أحدها مسرج بسرج بلور !.

« ج ٢ ص ٨٥ إلى ٦١ » .

٢٤ ـ فى سنة ٨٦٩ هـ : كان السلطان إذ ذاك خشقدم ، وفى هذا العام حجت زوجته وهى خوند الأحمدية ،وكان أمير ركب المحمل المقر الشهابى أحمد بن العينى وأمير الركب الأول الشرفى يحيى بن الأمير يشبك الفقيه ، وحج معهم أيضا الأمير يشبك الفقيه نفسه ، وقد أظهر المقر الشهابى أحمد بن العينى ضروبا من الأبهة والعظمة فى إمارته تلك ، لأنه يعد من أبناء الملوك ، فهو حفيد خشقدم . وقد خرج فى أكوار مرصعة بالذهب والياقوت واللؤلؤ وغيرذلك ، وخرج فى موكب عظيم يتقدمه جميع الأمراء والمباشرين ، وذلك فى شوال . ثم عاد الركب فى أوائل عام ٨٧٠ هـ « ج ٢ س ٧٩ » .

٢٥ ـ فى سنة ٨٧٢ هـ : كان السلطان هو خشقدم أيضا،وقد أمر فدار المحمل دورته الرجبية ، وأحرقت إحراقة نفط فى ليلتها ، فشبت النار فى الإسطبل السلطانى فتشاءم السلطان من ذلك ، وقد أصابه هذا التشاؤم فعلا إذ توفى بعد قليل . وقال ابن إياس عن هذا السلطان ما نصه :

« وكان يدوّر المحمل فى كل سنة فى رجب ، وتسوق الرماحة على جارى العادة أربعين يوما ، ثم يلبسون الأحمر وتزين القاهرة ثلاثة أيام ، ويخرج الناس فى ذلك عن الحد فى القصف والفرجة » .

والمفهوم من كلام ابن إياس فى حوادث جمادى الآخرة عام ٩٠٩ هـ بالجزء الرابع أن من أيام خشقدم عام ٨٧٢هـ إلى أيام الغورى عام ٩٠٩ هـ أبطلت دورة المحمل الرجبية . فالمفهوم أنها أبطلت بعد زوال دولة خشقدم . «ج٢ص٨١،٨٢»

٢٦ ـ فى سنة ٨٧٣ هـ . كانت الدولة دولة قايتباى . وكان قد عين لإمارة ركب المحمل «ثانى بك المعلم» . فلما سار إلى العقبة بدا للسلطان أن يعيده ويقبض عليه ثم نفاه إلى القدس . ثم عين «يشبك جن» فى إمارته ، وكان قد عين فى الأمير آخورية الثانية . وعين « يشبك الجمالى » أميرا للركب الأول . وذلك فى ربيع الأول وفى شوال خرج الركبان والحجاج . وممن انضم إليهم الملك المنصور عثمان بن جقمق ـ وكان مخلوعا ـ وقد عاونه السلطان قايتباى أكبر معاونة فى خروجه إلى الحج وأذن له فى الخروج . ثم عاد الحجاج إلى القاهرة فى المحرم عام ٨٧٤هـ .

« ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٠٩، ١١٢ » .

٢٧ ـ فى سنة ٨٧٤ هـ : فى هذه السنة ـ فى عهد قايتباى ـ عين « يشبك الجمالى» المحتسب أميراً لركب المحمل ، « وأقبردى بن أصباى » الأشرفى برسباى أميرا للركب الأول . ثم خرج الركبان والحجاج فى شوال ، وحج معهم الشيخ كمال الدين ابن إمام المدرسة الكاملية ، وهو من أفاضل العلماء والمحدثين ، ولكنه توفى فى ثغرة حافد وقت الذهاب . وقد قاسى الحجاج فى هذه السنة شدائد عدة من عطاش وموت جمال ، وعادوا مجهودين مكدودين ، ولهذا عاد الركبان فى المحرم عام ٨٧٥ هـ ودخلا القاهرة معا فى موكب واحد . ومما يذكر أن الأمير يشبك الدوادار لما علم ما يعانيه الحجاج من العطاش والشدة بعث إلى المنقطعين منهم بأوعية مليئة ماء وزادا . فبلغتهم فى ينبع وانتفعوا بها انتفاعا محمودا . « ج٢ ص ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٢ » .

٢٨ — فى سنة ٨٧٥ هـ : فى هذه السنة — فى عهد قايتباى أيضا — عين « يشبك الجمالى المحتسب » أميراً لركب المحمل ، وأقبردى بن أصباى ، الأشرفى برسباى أميرا للركب الأول . وقد كانا أميرى الحج فى العام الفائت كذلك . وقد خرج الحجاج من القاهرة فى ٢٠ شوال ، وقد تأخروا إلى هذا الميعاد بسبب فرار غلمان أمير الحج ، ثم عاد الركب فى المحرم عام ٨٧٦ هـ . « ج ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٧ ».

٢٩ — فى سنة ٨٧٦ هـ : عين فى إمرة الركب الأول « برسباى الشرفى » ثم استعفى من ذلك فقبل منه السلطان ، وعين فى إمارة ركب المحمل الأمير « يشبك الجمالى الزردكاش المحتسب » ، وهذا ثالث عام يعين فيه إلى مكة أميرا للمحمل ، وهو الذى توفى عام ٩٠١ هـ . وكان هذا الاستعفاء والتعيين فى شهر ربيع الأول، فلما كان شهر رجب أبطل السلطان إمارة يشبك الجمالى ، وأسند إمارة ركب المحمل إلى برسباى الشرفى وهو الذى كان قد استعفى فى ربيع الأول منها . ثم عين فى إمارة الركب الأول الشهابى أحمد بن الأتابكى تانى بك البردبكى الظاهرى برقوق ، ثم خرج الركبان فى شوال من القاهرة ، وعادا فى المحرم من العام الثانى .
« ج ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٩٣ »

٣٠ — فى سنة ٨٧٧ هـ : فى ربيع الثانى خلع السلطان قايتباى على « برسباى[1] الشرفى » وأسند إليه إمارة ركب المحمل . وأسند إمارة الركب الأول إلى « الشهابى أحمد » بن الأتابكى تانى بك البردبكى . وكان كذلك فى العام الماضى ، ولكن الشهابى كان مريضا فاستعفى فلم يقبل السلطان أن يعفيه ، ولذلك لما نسل الركبان من القاهرة إلى بركة الحاج فى شوال ، حمل هذا الأمير فى محفته وهو على وشك الموت ، فبلغ بركة الحاج وبات بها ليلة الرحيل فتوفى ، فعين مكانه « جانى بك الأشقر » أحد مماليك السلطان وخواصه . فقام فورا ورحل بالركب .

---

(١) برسباى الأشرفى يونس ، أو الصرفى أرسله قايتباى رسولا إلى ملك الروم عام ٨٧٨ هـ ومات بحلب . ذكرناه فى باب السفراء . ونوه به السخاوى فى الضوء ج ٣ رقم ٣٩ .

ثم وفد رسول من قبل الحجاج فى ذى الحجة ، فكان من أهم ما أخبر عنه أن الركب العراقى كان عليه أمير يدعى « رستما » ومعه قاض يسمى « أحمد بن وجيه » — وكان ملك العراقين هو حسن الطويل — فدخل الركب المدينة المشرفة وأرغما قضاتها على أن يخطبوا هناك باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين . . . ثم أخذا فى الرحيل إلى مكة بركبهما ، فأسرع أميرها الشريف محمد ابن الشريف بركات وكان الخبر قد بلغه ، فلقيهم فى بطن من فقبض على الأمير والقاضى وعدة من أعيانهما وقيدهم بالحديد ليبعث بهم إلى السلطان . وأطلق الباقين .

وقد عاد الحجاج والركبان متأخرين عن موعدهم ثلاثة أيام لموت الجمال وقلة المياه وذلك فى المحرم عام ٨٧٨ هـ ومعهم الأسرى ، فسجن الأمير رستم والقاضى فى برج القلعة ثم أطلقا[1] بعد حين مراعاة لملكهم بإشارة من الأمير يشبك الدوادار « ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢١٢ » .

٣١ — فى سنة ٨٧٨ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى « جانى بك الأشقر » الدوادار . وقد كان فى العام الماضى أميرا الركب الأول وأسندت إمارة الركب الأول إلى « قانصوه خمسمائة » الخاصكى أحد مماليك السلطان . وقد ترجمنا له فى باب الأتابكية . وقد خرج الحاج فى شوال وعاد فى موعده . «ج٢ص١٤٧، ١٤٩».

٣٢ — فى سنة ٨٧٩ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى « جانى بك الأشقر » وهذه ثانى مرة يتولاها . وأسندت إمارة الركب الأول إلى « جانى بك الخشن » الإينالى تاجر المماليك . وذلك فى ربيع الآخر . وهذه آخر مرة يسافر فيها « جانى بك الأشقر » إذ عين فى السنة التالية — ٨٨٠ هـ — فمات قبل سفره .

---

(١) ذكرها ابن إياس مرة أخرى ج ٢ ص ٢١٢ فى المحرم عام ٨٨٧ هـ وقال إن السلطان أفرج عنهما فيه . فوجب التنبيه .

وفى ٣ شوال خرج إلى الحج عدد من عظماء مصر منهم الأتابكى أزبك بن ططخ ومعه زوجته بنت الملك الظاهر جقمق . ومنهم الأمير أزبك اليوسفى ومعه زوجته بنت عم الملك الظاهر جقمق أيضا . ومنهم الشيخ أمين الأقصرائى وولده أبو السعود وقد عاونه السلطان بسبعمائة دينار فسبقوا الحاج بنحو عشرين يوما وممن حج فى هذه السنة خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباى وهى بنت العلائى علاء الدين ابن خاص بك ، فكان لها ركب شائق ومحفة ثمينة مرصعة بالجواهر النفيسة . ومعها أخت السلطان فى محفة أخرى ، ومعها خمسون جملا محملة بشكول وألوان من طعام وكسى ومال . . . فسار الركب وأمامه كثير من الموظفين والمباشرين والخدم ، وأمامه كذلك عدد من المغنين والمنشدين منهم إبراهيم بن الجندى المغنى وأبو الفوز الواعظ .

وقد خرج الركبان فى هذا الشهر ، ثم عاد الحجاج فى ٢٤ المحرم عام ٨٨٠هـ . متأخرا أربعة أيام بسبب ما أصابهم من العطش .

وقد مات من الحجاج ابن الأقصرائى المدعو أبا السعود فأصيب أبوه بما يشبه الذهول ، ولم يمكث بعد عودته سوى تسعة أيام ثم توفى .

ولما عادت زوجة السلطان خرج إلى لقائها الأمراء والقضاة وترجلوا وهى فى محفتها وحولها تصدح الأغانى . ونثرت عليها الفضة والذهب ، وقدمت إليها هدايا نفيسة . « ج ٢ ص ١٥٥ إلى ١٥٧ » .

٣٣ — فى سنة ٨٨٠هـ :أسندت إمارة المحمل « لجانى بك الأشقر » ، لكنه توفى قبل موعد الرحيل فاختير مكانه « لاجين الظاهرى » أمير السلاح ، وذلك فى رمضان وأسندت إمارة الركيب الأول إلى « جانى بك الخشن » الإينالى كالمرة السالفة ، ثم خرج الركبان فى شوال ووصل مبشر بسلامته فى ذى الحجة .

« ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ » .

٣٤ — فى سنة ٨٨١ هـ . عين فى إمارة ركب المحمل « تانى بك الجمالى » الظاهرى

أحد مقدمى الألوف وعين فى إمارة الركب الأول « أقبردى الأشقر الأشرفى » وذلك فى جمادى الأولى . وخرج الحجاج فى شـــوال . وجاء المبشر عنهم فى ذى الحجة فأخبر بأمنهم وسلامتهم على الرغم من أن بمكة كثر الموت بعلة البطن ـ ولعلها نوع من الحميات ـ وفى المحرم عام ٨٨٢ هـ وصل الحجاج إلى القاهرة مثنين على « تانى بك الجمالى » . « جزء ٢ ص ١٦٧ إلى ١٧١ » .

٣٥ — فى سنة ٨٨٢ هـ . فى شهر شعبان عين فى إمرة الركب الأول « أقبردى الأشقر الأشرفى » كالعام الفائت . وفى إمارة ركب المحمل الأمير « جانى بك الفقيه » أمير السلاح . وخرج الحجاج والركبان من القاهرة وذلك فى ١٨ شوال . قيل لما خرج ركب المحمل ومعه أميره « جانى بك الفقيه » ، أمر السلطان قايتباى بهدم سبيله الذى أنشأه بالرميلة . فلهج الناس بعدم عودة جانى بك . . . وقد وقع ذلك ، فإن السلطان أمر بالقبض عليه من العقبة ونفيه إلى القدس . « ويغلب على الظن أنه نفى بعد أداء مهمته وفى أثناء عودته ، إذ ترامت أخبار نفيه فى المحرم سنة ٨٨٣ هـ ، ولم يذكر أن أحدا خلفه » .

وممن حج تلك السنة المؤرخ الكبير ابن إياس المصرى صاحب تاريخ مصر المعروف ببدائع الزهور — أهم مراجعنا — وقد عاد الحجاج فى المحرم سنة ٨٨٣ هـ ، وأخبروا بما قاسوه من شدة وضنك بسبب الغلاء وموت الجمال ، وقد تخلف بعضهم مضطرا فى الطريق . وأخبروا بقتل قاضى المدينة وخطيبها بيد رجل رافضى . « جزء ٢ ص ١٧٦ ، ١٨ ، ١٨١ » .

٣٦ — فى سنة ٨٨٣ هـ . فى شهر ربيع الثانى اختير « قجماس الإسحاقى » أمير آخور كبير أميراً لركب المحمل و « فارس الركنى » أميراً للركب الأول ، فاستعفى « فارس » ، هذا فأسندت إمارته « لأقبردى الأشقر الأشرفى » كالعام الفائت أيضا . وقيل إن فارسا دفع فى سبيل قبول السلطان استعفاءه مالا .

وقد خرج الركبان والحجاج فى شوال . وكانت العودة فى المحرم عام ٨٨٤ هـ وحمدت سيرة الأمير « قجماس » .

« جزء ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ » .

٣٧ — فى سنة ٨٨٤ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى الصاحب « خشقدم الأحمدى» الزمام الذى كان زماما وخازندارا ووزيراً فى عهد قايتباى ـ وترجمنا له مع الوزراء ـ . وأسندت إمارة الركب الأول إلى « شاهين الجمالى » وذلك على أثر وفاة « جانم الزردكاش » الذى كانت أسندت إليه أولا فتوفى قبل سفره .

وفى هذه السنة عقد السلطان قايتباى النية على الحج. فلما كان شهر شوال خرج الحاج من القاهرة . فى زينة باهرة وخرج الصاحب « خشقدم » فى موكب عظيم واستعداد كبير ، ومحمولات عدة بسبب سفر السلطان . وقيل كان معه نحو ٢٥٠ جملا محملة . وأرسل السلطان إليه لذلك ثلاثين ألف دينار .

ثم خرج الحجاج وركب المحمل من القاهرة فى شوال . وخيموا ببركة الحاج ثم نسلوا منها متخذين طريقهم المتبع إلى الحجاز. وبعد ذلك بقليل، فى يوم الخميس ٢٣ شوال نزل السلطان قايتباى من القلعة دون أن يشعر الناس بنزوله وسافر ميمما شطر الحجاز وفى معيته كثيرون من أمرائه وأخصائه ومباشريه . منهم : يشبك الجمالى الزردكاش المحتسب ، الذى عين مراراً فى إمارة المحمل . وأبو البقاء بن الجيعان وبرهان الدين بن الكركى الإمام . وقد ودعه الأتابكى أزبك بن ططخ ، والدوادار يشبك بن مهدى . ورحلا معه إلى مسافة من الطريق . وقد أوصاهما بالرعية ثم آبا .

وفى ذى الحجة قدم مبشر الحاج وهو « أسنباى » الخاصكى ، فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل مكة فى موكب حافل ولقيه أميرها قبيل دخولها بيومين وأنه أحسن وتصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار . وأظهر ضروبا من البر والتواضع. وبهذه المناسبة قدمت لهذا المبشر هدايا كثيرة لأخباره السارة، قدمت

إليه من بعض الأمراء ومن خوند زوجة السلطان . ثم أطلقت على « أسنباى » لفظة « المبشر » وظل معروفا بها من ذلك الحين .

وفى المحرم عام ٨٨٥ هـ جاء رسول « نجاب » من قبل السلطان إلى الأمراء مخبرا بأنه دخل المدينة المشرفة وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه تصدق بها على الفقراء بخمسة آلاف دينار ، وأنه يمم شطر ينبع قاصدا العقبة ، ثم زايلما ، وأنه آت عما قريب فهب الأمراء حينئذ إلى لقاء السلطان، وقد علموا رغبته فى نزوله بقبة الأمير يشبك بالمطرية . فنشروا هناك خيامهم وزينت الناحية خير زينة . ثم علموا أنه وصل إلى البويب فركب أزبك الأتابكى ويشبك الدوادار وعديد من الأمراء ، من جهة المطرية إلى البويب فلاقوا السلطان هناك وباركوا له حجه وهنئوه .

عاد ركب السلطان حافلا إلى المطرية فى السبت ١٢ المحرم قبل وصول الحجاج بثمانية أيام . وهناك توافدت الوفود إليه تهنئته . ومدت الموائد وأقيمت الحفلات وفى الاثنين ١٤ المحرم نظم له موكب عظيم الشأن سار فيه من المطرية إلى القاهرة ، والأمراء والأعيان من حوله ، والناس حافون به ، ومنهم وقوف بالطرقات يشاهدون ، والطرقات فى أبهى زينة . واللاعبون يعرضون على أنظاره ألعابهم ، وفرشت له خوند زوجته بسطا ، ونثرت على رأسه الفضة والذهب ، وقت صعوده إلى القلعة . ثم أولمت الولائم ، وقدمت الهدايا ، ووزعت الصدقات ، وكانت حجة مبرورة ...

وقد عاد الحجاج بعدذلك والركبان فى المحرم. وحمدت سيرة الصاحب خشقدم الزمام أمير المحمل . « جزء ٢ ص ١٩٠ إلى ١٩٣ » .

٣٨ — فى سنة ٨٨٥ هـ : فى ربيع الأول عين فى إمارة المحمل الأمير « تغرى بردى ططر » أحد المقدمين . وفى إمارة الركب الأول « يشبك بن حيدر » والى القاهرة . وخرج الحجاج والركبان فى شوال . «جزء٢ص١٩٥، ٢٠٢» .

٣٩ — فى سنة ٨٨٦ هـ . فى ربيع الأول عين يشبك بن حيدر ، والى القاهرة فى إمارة المحمل - وكان أميراً للركب الأول فى العام الماضى . وعين « الشهابى أحمد ابن الجمالى » ناظر الخاص أميراً الركب الأول . ثم عين شاهين الجمالى نائباً لجدة ، وضم إلى الشهابى أحمد، على أن يرعى شئون الحجاج بالركب الأول . - وفى شوال كان خروج الحجاج والركبين من القاهرة . وفى معيتهم الجام بن عثمان - من أمراء العثمانيين - ومعه أمه وأولاده ، وقد عاونه السلطان معاونة كبيرة فى خروجه إلى الحج . وكان إذ ذاك من ضيوف مصر .

وقد عاد الجميع فى المحرم عام ٨٨٧ هـ . « جزء ٢ ص ٢٠٥ ، ٢٦٠، ٢١٢ » .

٤٠ — فى سنة ٨٨٧ هـ : فى ربيع الآخر أسندت إمارة المحمل إلى « أزبك اليوسفى » أحد الأمراء المقدمين ، وإمارة الركب الأول إلى «دولات باى الحسنى» شاد الشون . وخرج الحاج فى شوال . ووصل مبشر بوصوله إلى مكة فى ذى الحجة ، وأخبر بنزول سيل عظيم بها حتى دخل الحرم وأحدث به تلفا وأغرق كثيرين . ثم وصل الجميع فى المحرم عام ٨٨٨ هـ . ولم يحمد الناس سيرة أمير المحمل أزبك اليوسفى . « جزء ٢ ص ٢١٣و٢١٥ إلى ٢١٧ » .

٤١ — فى سنة ٨٨٨ هـ : فى ربيع الثانى أسندت إمارة المحمل إلى « أزدمر تمساح » أحد الأمراء المقدمين . وإمارة الركب الأول إلى « أزدمر الأشقر » أحد الأمراء العشرات . وفى هذه السنة كان السلطان قايتباى قد أمر بصنع مقصورة للحجرة النبوية الشريفة . فعرضت على أنظاره فى شهر رمضان فى أوله ، ونصبت فى الحوش بالقلعة لمشاهدتها . وكانت زنتها أربعمائة قنطار من الحديد ، وقد نقلها إلى المدينة سبعون جملا . وفى شوال خرج الحجاج والمحمل من القاهرة فى حفاوة وبين زينة . وخرج فى معيتهم شاد بك أحد الأمير آخورية وكان ضخم الجثة ا فحمله السلطان المقصورة لإيصالها إلى المدينة ، وعينه « باش المجاورين » ومعه خمسون جنديا ، وحمله كذلك مصحفا كبيرا فوق ظهر بعير بمفرده . وهذا المصحف من خط شاهين النورى ، ومات دون أن يتمه فأتمه الشيخ خطاب . - قال ابن إياس :

« وهو باق إلى الآن فى الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام » .

وقد عاد الحجاج فى المحرم عام ٨٨٩ هـ وحدثوا بما وقع لهم من عطش وموت جمال وقد تأخر دخول المحمل فى هذه السنة إلى ٢٤ من الشهر المذكور بسبب ذلك .
« جزء ٢ ص ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ »

٤٢ – فى سنة ٨٨٩ هـ : فى هذه السنة كان أمير المحمل « أزدمر تمساح » أحد المقدمين، وأمير الركب الأول « برسباى العلائى » أحد العشرات . وقد حج معهم سيدى منصور بن الظاهر خشقدم ، وكان برسباى العلائى قد تزوج أم منصور . وحج فى تلك السنة أبو البقاء بن الجيعان ومعه الخاصكيان جان بلاط ومامای ، وذلك ليشرف على تفريق ما رتبه السلطان من الدشيشة على أهل المدينة . وحج أيضا عالم سمرقند الشيخ أبو بكر الليثى وولده ،مارين من ديارهما على مصر . وحج أيضا شيخ ركب المغاربة الشيخ عبد اللطيف ومعه عديد من المغاربة يبلغ ألفا وخمسمائة ، وحج كذلك بعض أقارب السلطان قايتباى .

وقد خرج المحمل فى شوال وعاد منه رسول مبشر بأمنه فى ذى الحجة ويدعى قايتباى وهو من مماليك السلطان . وقد دخل الحجاج القاهرة فى المحرم عام ٨٩٠هـ.
« جزء ٢ ص ٢٢٤ إلى ٢٢٧ » .

٤٣ – فى سنة ٨٩٠ هـ . فى جمادى الأولى أسندت إمارة المحمل إلى « أزدمر المسرطن » أحد الأمراء المقدمين . وإمارة الركب الأول إلى « برسباى اليوسفى » أحد الأمراء الطبلخانات . وخرج المحمل من القاهرة فى شوال . وعاد فى ٢٥ المحرم عام ٨٩١هـ وقد أصيب الحجاج بموت الجمال والغلاء . وانقطع بعضهم فى ينبع ولم يعودوا إلى القاهرة إلا بعد أيام وانقطع البعض فى مكة مجاورا . « ج٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ » .

٤٤ – فى سنة ٨٩١ هـ : خرج الحجاج فى هذه السنة فى شوال . وتولى إمارة ركب المحمل الأمير « أزدمر تمساح » . « ج٢ ص ٢٣٨ » .

٤٥ – فى سنة ٨٩٢ هـ : خرج الحجيج فى هذه السنة فى شوال أيضا . وتولى إمارة ركب المحمل الأمير « أزدمر تمساح » كالعام الفائت . وتولى إمارة الركب

الأول « خاير بك » كاشف المحلة . وعادوا فى المحرم عام ٨٩٣هـ إلى القاهرة وكان قد أشيع عنهم أن عرب الأحامدة اعتدوا عليهم واستولوا على ما معهم ولم ينج منهم أحد فظهر فساد هذه الإشاعة وعدم صحتها . « جـ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٨ » .

٤٦ – فى سنة ٨٩٣ هـ : أسندت إمارة المحمل فى هذه السنة إلى الأمير « جان بلاط الأشرفى » الخاصكى أحد الدوادارية – وهو الذى ملك فيما بعد – وأسندت إمارة الركب الأول إلى كرتباى ، كاشف البحيرة وخرج الحجاج فى شوال، وفى صحبتهم داود بن أمير عربان هوارة . « جـ ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٥٤ » .

٤٧ – فى سنة ٨٩٤ هـ : كان الحجاج فى هذه السنة قليلين . وقد خرجوا فى شوال . وإمارة ركب المحمل معقودة للأمير ، أزدمر تمساح » « جـ٢ ص ٢٦١ » .

٤٨ – فى سنة ٨٩٥ هـ . كان أمير ركب المحمل « كرتباى » كاشف البحيرة ، وأمير الركب الأول « إينال الفقيه » الحاجب الثانى . « جـ٢ ص ٢٦٣ » .

٤٩ – فى سنة ٨٩٦ هـ : منذ زمن بعيد لم نجد ذكرا للعرض الرجبى وذلك منذ زوال عهد خشقدم . أما فى السنة المذكورة فقد عنى السلطان قايتباى ، بعرض الكسوة الخاصة بالكعبة والكسوة المصنوعة لمقام ابراهيم عليه السلام ، وزف المحمل أيضا وذلك فى أول رجب ، فكان يوما مشهودا – وقدخرج الحجاج من القاهرة فى شوال.وكانت إمارة المحمل معقودة للأمير « أزدمر تمساح ». وعادوا فى المحرم عام ٨٩٧ هـ . وكان طريق الحج محفوفا بالمخاطر بسبب فساد العربان – ومما يذكر أن زوجة الأمير أقبردى الدوادار وهى بنت العلائى على بن خاص بك وأخت زوجة السلطان قايتباى ، قد حجت فى تلك السنة ، وكان أمير الركب الأول « شاهين الجمالى » ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم[١] .

« جـ٢ ص٢٧٠،٢٧٢ » .

٥٠ – فى سنة ٨٩٧هـ : خرج المحمل فى شوال . وكان أميره « تانى بك

(١) ذكره السخاوى فى الضوء ج ٣ رقم ١١٢٣ .

الجمالى ، أمير المجلس . وكان أمير الركب الأول « كرتباى » ابن أخت السلطان ، ووافت سنة ٨٩٧ هـ ولم يأت مبشر عن الحجاج حتى انتشر القلق بسببهم . وكان المبشر ، تانى بك الأبح ، أحد المماليك السطانية ، فاعترضه فى طريقه بعض العربان فتأخر عن موعده . « ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ » .

٥١ ـ سنة ٨٩٨ هـ : فى ربيع الثانى عين « قانصوه خمسمائة » أمير آخور كبير ، فى إمارة ركب المحمل ، والناصرى « محمد بن أزبك » الأتابكى فى إمارة الركب الأول ، فخرج الركبان فى شوال . واتفق أن وفى النيل واحتفل بكسر سده ، وكثير من الناس فى بركة الحاج يحتفلون بالحجاج . ثم عاد الحجاج فى المحرم عام ٨٩٩ هـ ، ولم يثنوا على « قانصوه خمسمائة » لسوء معاملته وعدم مساعدته لهم مع ما أصيبوا به من غلاء وموت جمال . « ج٢ ص ٢٧٨ إلى ٢٨٠ » .

٥٢ ـ فى سنة ٨٩٩ هـ : فى ربيع الثانى أسندت إمارة ركب المحمل إلى « أزدمر تمساح »[1] ـ وقد حظى بذلك مرارا ـ وأسندت إمارة الركب الأول إلى الناصرى « محمد بن العلائى » على بن خاص بك التركى ، ولكنه توفى فى رمضان . فعين مكانه « إينال الفقيه » وعين « يشبك الأشقر » باشا للمجاورين بمكة . وقد خرج الحجاج والركبان فى شوال ـ ثم عادوا فى اوائل السنة التالية . ومما يذكر فى هذه السنة أن الركب الشامى اعتدت عليه طائفة من عربان بنى لام فنهبوا المال وأسروا النساء وقبضوا على أمير الركب . « ج ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ » .

٥٣ ـ فى سنة ٩٠٠ هـ . فى جمادى الأولى عين « تانى بك الجمالى » أميرا لركب المحمل و « كرتباى » ابن أخت السلطان أميرا للركب الأول . وخرج المحمل فى شوال . وعاد فى المحرم عام ٩٠١ هـ وقد أصيب الحجاج بعطش شديد لقلة المياه بجهة نخل ، فعرج بهم أميرهم إلى عيون موسى ، فوجدوا بها ماء .
« ج٢ ص٢٨٦ ، ٣٨٨ ، ٢٩١ » .

---

(١) توفى ازدمر تمساح فى جمادى الآخرة عام ٩٠٠ هـ .

٥٤ ـ فى سنة ٩٠١ ﻫ : فى ربيع الأول عين « تانى بك قرا » أميرا لركب المحمل، و « بردبك » نائب جدة أميرا للركب الأول وخرج المحمل فى شوال ثم عاد فى المحرم عام ٩٠٢ ﻫ . ومما يذكر أن دولة قايتباى كانت قد انتهت بوفاته ، وذلك فى غيبة الحجاج،فتولى ابنه الناصر . فرسم بالقبض على أمير المحمل «تانى بك قرا » . فخرج لتنفيذ هذا الأمر فى شهر المحرم عام ٩٠٢ « اصطمر بن ولى الدين» ومعه عدة من الجنود ، فلقيه فى عجرود فقيده وبعث به إلى سجن الإسكندرية . ـ ومما يذكر أيضا أن المحمل حينما دخل القاهرة أمر السلطان الجديد بأن يمر تحت أنظاره بالقلعة ليتمتع بمشاهدته إذ أنه لم يره قبل ذلك .

« ج ٢ س ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٦ ، ٣ ، ٣٠٧ »

٥٥ ـ سنة ٩٠٢ ﻫ : أسندت إلى كرتباى » إمارة ركب المحمل وهو ابن عمة السلطان الناصر بن قايتباى ـ وكثيرا ما عين أميرا الركب الأول ـ وكان هذا الإسناد فى ربيع الأول . ثم قتل «كرتباى » قبل سفره ، فعين مكانه الأمير «مصر باى» أحد المقدمين . وعين المركب الأول الناصرى « محمد بن العينى » وكان الحاج فى تلك السنة قليلا لكثرة الفتن فى مصر .وقد خرج المحمل فى شوال . وتأخر مجىء المبشر إلى أوائل المحرم عام ٩٠٣ ﻫ لفساد العربان فى الطريق . ثم دخل الحاج القاهرة فى هذا الشهر . ومما يذكر أن السلطان أمر بالقبض على أمير المحمل « مصر باى » وهو عائد ، فقبض عليه فى عجرود وسجن بالإسكندرية .

« جزء ٢ ص ٣٠٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٢ » .

٥٦ ـ سنة ٩٠٣ ﻫ : فى هذه السنة كان أمير المحمل « تانى بك الجمالى » . وأمير الركب الأولى « جان بلاط الموتر » المحتسب . وخرج الحجاج فى شوال بحفاوة وزينة . وقد قاسوا هذا العام شدائد جمة من عطش وخوف وقطع طريق من العربان ، وعادوا فى المحرم عام ٩٠٤ ﻫ . ومما يذكر أن المحمل لما عاد سار فى وسط القاهرة حتى بلغ جامع الماردانى . وانفض الموكب وبدأ العمال ينزعون ما فوق جمل المحمل من قماش وغيره ، فإذا رسول من قبل السلطان يطلب إليهم العودة بالمحمل إلى المطرية حيث يقيم ليشاهده ، فأعادوا الموكب وساروا إلى

المطرية حتى رآه السلطان . « جزء ٢ ص ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ » .

٥٧ ـ فى سنة ٩٠٤ ﻫ : كان السلطان هو قانصوه بن قانصوه . فعين فى ربيع الثانى الأمير « قرقماس بن ولى الدين » ـ وكان رأس نوبة حينئذ ـ أميرا لركب المحمل . « وأزبك المكحل » أحد الأمراء الطبلخانات أميرا الركب الأول . ثم ألغى إمارة أزبك المكحل واختار مكانه الناصرى « محمد بن خاص بك » أخاخوند زوجة الأشرف قايتباى . وكان هذا مقبوضا عليه لبعض الأسباب . فلما اختاره السلطان لهذه الإمارة اشترط عليه أن يقوم بجميع نفقاتها من ماله الخاص، وخرج المحمل فى ميعاده فى شوال وعاد فى المحرم عام ٩٠٥ ﻫ .

ومما يذكر أن أمير المحمل « قرقماس » قدم معاونة كبيرة لركب غزة ، إذ انتهبته طائفة من العربان قرب الشرفة، وكذلك نهبوا بعض الركب الأول المصرى .
« ج ٢ ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ » .

٥٨ ـ فى سنة ٩٠٥ ﻫ : فى ربيع الأول عين الأمير « قانصوه البرجى » المحمدى ـ أمير المجلس ـ أميرا لركب المحمل . والمحتسب « جان بلاط الموتر » أميرا للركب الأول وخرج المحمل من القاهرة فى شوال وظل فى بركة الحاج إلى ٢٥ منه، فتأخر عن موعد رحيله كل عام ، وذلك بسبب هروب أكثر غلمان أمير الركب الأول . ثم عاد الحجاج والركبان فى ٢٥ المحرم سنة ٩٠٦ ﻫ متأخرين بسبب ما أصيبوا به فى الطريق من اعتداء العربان . « ج ٢ ص ٣٦٢، ٣٦٧ ، ٣٧٥ » .

٥٩ ـ فى سنة ٩٠٦ ﻫ : كان السلطان هو الأشرف جان بلاط : وقد عين فى شهر ربيع الأول الأمير « سودون العجمى » أحد المقدمين أميرا لركب المحمل . و « دولات باى قرموط » والى القاهرة أميرا الركب الأول .

ولم يجىء شهر شوال من السنة المذكورة إلا بعد أن زالت دولة السلطان جان بلاط وعقبه فى الملك العادل طومان باى ، وسرعان ما ذهبت دولته هو أيضاً ، وآل الملك إلى السلطان الغورى . وفى عهد هذا الأخير سافر المحمل فى شوال : ففى ١٨ منه

خرج الحجاج من القاهرة وركباهم وأميراهما المذكوران ، وذهب صحبتهم الأتابكى تانى بك الجمالى منفيا إلى مكة ، ومعهم أيضا خاتون ابنة خليل بن حسن الطويل صاحب العراقين ، وقد عاونها السلطان على حجها . » جزء ٢ ص ٣٧٦ — وجزء ٤ ص ٦ و ٧ . »

٦٠ — فى سنة ٩٠٧ هـ : فى يوم الاثنين ١٨ شوال خرج المحمل من القاهرة فى زينة وحفاوة . وكان أمير ركب المحمل اصطمر بن ولى الدين ، أمير المجلس ، وأمير الركب الأول الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك التركى . وقد ذهب أميرا غير هذه المرة ، وقد رسم السلطان بإخراج قانم أخى الظاهر قانصوه صحبة الحاج منفيا إلى مكة ، ومعه قانصوه الفاجر .

وإلى يوم الأحد ١٩ المحرم عام ٩٠٨ هـ لم يجىء مبشر أو رسول من قبل الحجاج حتى كثر القال والقيل واشتد القلق عليهم . وفى اليوم المذكور وصل إلى القاهرة راكب هجين ، وأخبر عن اضطراب أمور الحجاج بسبب ثورة العربان بزعامة الجازانى ابن أمير مكة ، فنهبوا ركب الحاج الشامى وقتلوا رجاله وأسروا نساءه ، قبل دخول الركب إلى مكة .

وفى أول صفر وفد الحجاج إلى بركة الحاج على حين غفلة ، وفى ٢ صفر دخل المحمل القاهرة ، وتحدث الحجاج عما لقوه من شدة ، من الجازانى وعصابته . وكان أمير ركب المحمل اصطمر من مثيرى هذه الفتنة كما أنه لم يستطع إطفاءها . وملخص الحادثة أنه تدخل فى النزاع القائم بين الجازانى وأخيه الشريف بركات ، وكانا يتنازعان إمارة مكة . فسعى اصطمر بينهما بالدس حتى تقاتلا ، ودخل هو فى هذا القتال بعد أداء فريضة الحج ، فقتل من ركبه نحو مائة ، ودارت الهزيمة عليه ، فنهب الحجاج وعرى النساء . وهرب كثير منهم وتخلف البعض فى ينبع ، ومنهم من امتطى ظهر البحر الأحمر عائداً ، ومنهم من مات جوعا وعطشا لردم آبار المياه . وهكذا كانت طامة كبرى على الحجاج لسوء تصرف أمير المحمل اصطمر . ومما زاد الطين بلة أن الحجاج الذين صاحبوا الركب إلى العقبة لقيهم دونها عربان بنى لام ، وفرضوا

عليهم غرما مقداره ثلاثة آلاف دينار فاضطروا إلى دفعها درءاً لأذاهم ، وقد جباها منهم أمير المحمل .

ولما مثل الأميران بين يدى السلطان أسمعهما من الكلام قارصه ، لسوء سلوكهما وعدم حيلتهما وأمر بهما فسجنا حتى حين . « ج ٤ ص ٢٨ ، ٣٥ إلى ٣٨ » .

٦١ - فى سنة ٩٠٨ هـ : فى شهر شعبان عين السلطان الغورى الأمير « قيت الرجبى » الأتابكى أميرا لركب المحمل ، والأمير « آنص باى » أحد المقدمين أميرا للركب الأول ، وأعد لهم ستمائة مملوك من المماليك السلطانية : وأنفق لكل مملوك مائة دينار ، وفرض على بعض البلاد المصرية تقديم الجمال للركب ، أو دفع قيمتها مالا ، فتأذى الناس من ذلك ، وإن كانوا قد أدوا ما طلب منهم .

وفى السبت ٢٧ رمضان عرضت الكسوة الشريفة والمحمل - بغير دوران - وخلع العيد كذلك على الأنظار السلطانية . وفى الاثنين ٢٠ شوال خرج المحمل من القاهرة ، ونبه النساء إلى عـــدم الخروج إلى الحج فى تلك السنة . وما ذلك إلا لأن السلطان عزم على إطفاء فتنة الجازانى والقضاء على قطاع الطريق من العربان ، فاحتاط بمنع النسوة فى الحج حتى لا يمسهن أذى أثناء الطريق .

وفى الجمعة ٢٨ من ذى الحجة جاء مبشر من قبل الحجاج ، فأخبر أن الأتابكى « قيت » طرد العربان من بنى إبراهيم عن مكة ، وهرب الجازانى من وجهه ، وأنه أصلح أمور مكة ، وقبض على الشريف بركات وآخرين . وانتشر الخبر فى أرجاء القاهرة فطرب الناس وعمهم السرور وزينوا الدور وأخذو فى أسباب اللهو والعبث . ونودى بأمر السلطان أن تزين القاهرة سبعة أيام .

وبسبب هذه الفتن والحروب تأخرت عودة الحجاج والركبين إلى يوم الخميس ٢ ربيع الأول عام ٩٠٩ هـ . وفى اليوم المذكور دخل الأتابكى « قيت الرجبى » والحجاج إلى القاهرة ومعهم الأسرى ، فكان لهم يوم مشهود . « ج ٤ ص ٤٨ إلى ٥٧ » .

٦٢ ـ فى سنة ٩٠٩ هـ : فى شهر ربيع الأول عين السلطان الغورى الأمير «آنص باى» أحد المقدمين أميرا لركب المحمل ، و«تانى بك الأبح» أميرا بالركب الأول .

وفى شهر جمادى الأولى عقد الغورى النية على أن يدور المحمل فى القلعة وأن يعاد العرض الرجبى كما كان . وأن يلعب حاملو الرماح «الرماحة» أمامه ، وكان هذا التقليد قد بطل منذ زوال سلطنة خشقدم عام ٨٧٢ هـ . فجدده الغورى فى عام ٩٠٩ هـ الذى نحن بصدده . ومن ذلك الحين أخذ السلطان الأهبة لهـــذا الاستعراض والدوران . فعين الأمير تمر الحسنى الزردكاش معلما للرماحة ومعه عدد من «الباشات» ـ أى الرؤساء ـ ليعاونوه فى عمله ، ومن الخاصكية أربعين مملوكا . فأخذوا فى الاستعداد ليوم العرض . وبعد تمرينهم مدة عرضوا مرة على الأنظار السلطانية .

وفى يوم الخميس ٨ رجب نودى بأمر السلطان فى القاهرة أن المحمل يدور فى هذه السنة ، وأمر الناس بنشر الزينات فى أرجائها .

وفى يوم الاثنين ١٢ رجب بدت القاهرة فى أبدع حلة وأينع زينة . وخرج المحمل والكسوة الشريفة قاصدا إلى الرميلة وهناك جلس السلطان ورجاله فى شرفة مطلة على هذا الميدان . ولعب الرماحة ، وهم فى أثوابهم الحمراء ، ألعابهم الشائقة . ودار المحمل مرة فى الصباح ومرة فى المساء بعد الظهر . والناس مجموعون لمشاهدته فى كل فج ومن كل بلد . ونظمت الأزجال بهذه المناسبة ، والعـــوام ينشدونها ويرقصون على نغمها وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحة   حتى أرى ذى الرماحة

بيع لى لحـافى ذى المخمل   حتى أرى شكل المحمل

ولج الناس بعد ذلك فى العبث واللهو والمجون ، واستعادوا ذكريات الأيام الماضية وتقاليدها القديمة فى ذلك الحين ـ وظلت هـذه العادة وذلك التقليد مرعيا ـ غالبا ـ بين تقاليد الدولة طول عهد الغورى بعد ذلك .

ثم خرج الحجاج والمحمل فى شهر شوال . ولم تخرج النساء للحج فى هذا العام

لتوقع فتن يقوم بها العربان فى الطريق ـ وقد عاد الجميع فى ٢٣ المحرم عام ٩١٠ هـ .
« جزء ٤ ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ »

٦٣ ـ فى سنة ٩١٠ هـ : فى ربيع الأول عين « قانى باى قرا » أمير آخوركبير ، أميرا لركب المحمل ، و « جان بردى » تاجر المماليك أميرا للركب الأول . وفى يوم ٩ رجب نودى فى القاهرة بالزينة لاقتراب موعد دوران المحمل . واستعد لاعبو الرماح « الرماحة » للقيام بألعابهم المدهشة . ثم دار المحمل دورتيه ولعب الرماحة على خيولهم ، فأبدعوا أكثر من العام الماضى وزفت الكسوة ، ووزعت الخلع على مستحقيها من اللاعبين .

ثم خرج المحمل من القاهرة فى شوال ، وعاد فى ٢٤ المحرم عام ٩١١ هـ ، بعد معاناة فتن عربان وعطش وموت جمال . « جزء ٤ ص ٦٦ ، ٧٢ ، ٨٠ » .

٦٤ ـ فى سنة ٩١١ هـ . فى شعبان خلع الغورى على الأمير « خاير بك » كاشف الغربية وأحد الأمراء المقدمين ، وأسند إليه إمارة ركب المحمل . وخلع على « قنبك » رأس نوبة ثان ، وأسند إليه إمارة الركب الأول . وفى شوال توالت الأخبار عن شدة فتن الأعراب بالحجاز ، ومكة ، فرأى السلطان أن يمنع الناس الحج هذا العام من مصر والشام وجميع البلاد التابعة وأصدر أمره بذلك . ثم إنه أرسل الكسوة والمال والزيت وما إلى ذلك فى مراكب شراعية بالبحر الأحمر . وقد وفد الركب المغربى والتكرورى إلى مصر ذاهبين إلى الحج ، فلما علما الأمر عدلا عن الرحيل أيضاً . قال ابن إياس : « إنه لم يسمع عن سنة امتنع فيها الحج من مبدأ دولة الأتراك إلا هذه السنة » .   « جزء ٤ ص ٨٦ ، ٨٩ » .

٦٥ ـ فى سنة ٩١٢ هـ . جاءت أخبار فى صفر فى تلك السنة من مكة تفيد أن عددا من اليمنيين والعراقيين وفدوا إليها حاجين فى ذى الحجة المنصرم ، وقد تم لهم أداء الفريضة . فندم السلطان على عدم إخراجه المحمل . ولمنعه الناس من الحج فى السنة السالفة بسبب ماتواتر إلى سمعه من الفتن القائمة ببلاد الحجاز .

ثم إنه أرسل جندا إلى مكة لتطهيرها من دعاة الفساد وأهل الفتنة . فخرج نحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية بقيادة خاير بك بن إينال كاشف الغربية وأحد المقدمين . وفى صحبته قنبك بن شاد بك رأس نوبة ثان وعدد من الأمراء العشرات . وكان خروجهم فى رجب . وقد أرسل معهم المحمل أيضا . ونودى للنساء بعدم الخروج إلى الحج فى هذا العام كذلك . فأقام المحمل بالريدانية إلى الأربعاء ٩ رجب ، ثم سافر . ولما بلغوا بلاد الحجاز قاتلوا الخارجين العابثين وانتصروا على بنى إبراهيم ، وهرب منهم أمير ينبع السابق يحيى بن سبع ، وهو أحد العابثين الثائرين وقد أرسلوا بذلك كله رسولا ـ هجانا ـ إلى السلطان بلغ القاهرة فى ١٨ رمضان ، فسر الناس والسلطان لأخبارهم . وأمر بعزف الموسيقا ثلاثة أيام . . . وقد أرسلت رءوس القتلى فيما بعد فى شوال فأشهرت فى القاهرة .

وفى الاثنين ١٩ رمضان عرضت كسوة الكعبة على السلطان مزفوفة على رءوس الحمالين بين طرقات القاهرة والناس يتمتعون بمشاهدتها . وفى ذى القعدة جاء مبشرون آخرون بأن الجند المصرى هزموا أعداءهم هزيمة أخرى منكرة . وفى ذى الحجة وفد مبشر عن الحجاج بأنهم فى أمن ، وأن الجنود بعد انتهائهم من القتال أدوا فريضة الحج . « ج ٤ ص ٩٥، ١٠١ إلى ١٠٦، ١٠٩ » .

٦٦ - فى سنة ٩١٣ هـ . فى الخميس ١٩ ربيع الأول خلع الغورى على الأمير « طراباى » رأس نوبة النوب وقرره فى إمرة ركب المحمل ، وقرر قانصوه أبو سنة ، والى القاهرة فى إمرة الركب الأول . ونودى للناس فى ذلك اليوم بأن يخرج إلى الحج من يشاء رجالا ونساء ، فكان ذلك مثارا للسرور العام .

وفى الاثنين ١٩ شوال خرج الركبان فى تجمل وزينة . وكان عدد الحجاج هذا العام وافرا ، نظرا لما توقعوه من أمن الطريق ، وحج عدد كبير من أعيان رجال مصر ومنهم القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى شمس الدين التتائى المالكى ـ وكان قاضى المحمل ـ وعدد من الأمراء العشرات . وحجت خوند أصل باى أم

الملك الناصر سرية الأشرف قايتباى . . وحجت خوند جان كلدى زوجة الملك الظاهر قانصوه خال الناصر بن قايتباى . وحجت زوجة الأمير تانى بك قرا وهى بنت بردبيك صهر الملك الأشرف إينال .

وفى ٢٤ وفد مبشر عن الحجاج وأخبر عما هم فيه من أمن وسلامة ورخاء . وعاد الجميع فى ٢٠ المحرم عام ٩١٤هـ . فأنعم السلطان على الأميرين لما مثلا بين يديه . « جزء٤ص١١٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ » .

٦٧ - فى سنة ٩١٤هـ : فى ربيع الثانى أسند السلطان الغورى إمارة ركب المحمل إلى « ماماى جوشن » ، وإمارة الركب الأول إلى « قانصوه دولات بردى » أستادار الصحبة . وفى يوم الخميس ٤ شوال نزل السلطان إلى الميدان وجلس بالمقعد وحوله أمراؤه ورسول من قبل ملك بغداد وطيف أمامهم بالمحمل ولعب الرماحة ألعاب فروسية مدهشة ، والناس من حولهم يشاهدون . وتقدم عدد من المماليك من راكبي الخيول ولعبوا بالنشاب ألعابا بديعة تنم عن مهارة وقدرة وأحرقت إحراقة نفط مرتين .

وفى يوم ١٨شوال نسل المحمل وحجاجه من القاهرة فى زينة وحفاوة وحسن وداع - وجاء مبشر بأمنهم وسلامتهم فى ٢٣ ذى الحجة ، وكان مجيئه مبكرا . وفى ٢٢ المحرم عام ٩١٥هـ دخل الحاج القاهرة ، وكانوا فى يمن وسرور وحدثوا بما أنشأه السلطان الغورى من ضروب الإصلاح بالعقبة ، فقد أنشأ هناك نزلا وعدة مخازن لإيداع الودائع ، وأبراجا يقيم بها جند لحماية الطريق . ومهد الطريق للمسير ، وأنشأ أبراجا بعدة نواح أخرى يقيم بها جنود منها برج بعجرود وآخر بنخل وآخر بالأزنم ، وأجرى آبارا بطريق مكة ، وهكذا فعل فى سبيل الحج . فلهجت الألسنة بمدحه ، والثناء عليه . « ج٤ ص١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥١ » .

٦٨ - فى سنة ٩١٥هـ : فى يوم الخميس ١٧ ربيع الأول عين الأمير «طقطباى»

نائب القلعة وأحد الأمراء المقدمين أميراً لركب المحمل «ومغلباى الزردكاش» أميرا بالركب الأول ، وفى يوم الاثنين ١٠ شوال نزل السلطان إلى الميدان بالقلعة وعرض عليه كسوة الكعبة والبرقع وكسوة مقام إبراهيم . وطيف بهذه الأشياء مع المحمل فى القاهرة . وفى يوم الاثنين ١٧ شوال أيضا خرج المحمل من القاهرة . وخرج فى صحبته أحد أمراء بنى عثمان حاملا نحو أربعين ألف دينار أرسلها ملك العثمانيين لتفريقها على فقراء مكة والمدينة . وفى ذى الحجة وفد مبشر من قبل الحجاج بالأمن والسلامة ، ويقال إنه وصل فى ١٣ يوما فقط وفى يوم الخميس ٢٣ المحرم عام ٩١٦ﻫ دخل المحمل إلى القاهرة ، وقد تأخر بعد دخول الركب الأول بيومين .

« جزء ٤ ص ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٩ » .

٦٩ — فى سنة ٩١٦ﻫ : فى ربيع الأول عين « قانصوه بن سلطان جركس » أحد الأمراء المقدمين أميرا لركب المحمل ، والأمير «نوروز» تاجر المماليك أحد الأمراء الطبلخانات أميرا للركب الأول . وفى يوم السبت ١٨ شوال خرج المحمل من القاهرة . وفى الخميس ٢٦ المحرم عام ٩١٧ ﻫ دخل الحجاج إلى القاهرة . وقد قاسوا فى هذه السنة مشقة وشدة من مرض وموت جمال ، وقيل توفى نحو ألف وثمانمائة نفس .

« جزء ٤ ص ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ » .

٧٠ — فى سنة ٩١٧ ﻫ : فى الاثنين ٢٠ ربيع الأول خلع السلطان على المقر السيفى «طومان باى الدوادار الكبير» — الذى ملك فيما بعد — وقرره فى إمارة الحج، بركب المحمل . وخلع على « بك باى » أمير عشرة وأحد مماليك الأتابكى أزبك — كان — ، وقرره فى إمارة الركب الأول .

وفى يوم الاثنين ١٥ شوال ، جلس السلطان فى الميدان بالقلعة وعرضت عليه الكسوة الشريفة والبرقع ومقام إبراهيم عليه السلام والمحمل الشريف وفى الخميس ١٨ منه خرج المحمل الشريف من القاهرة فى حفاوة وحسن وداع . وحج عدد كبير من الأعيان والأمراء والأميرات . منهم خاير بك أحد مقدمى الألوف والذى كان كاشفا للغربية واشتهر بذلك : وحج الشرفى يونس بن الأقرع نقيب

الجيوش . وزوجة الأمير طومان باى وهى بنت الأمير أقبردى الدوادار ومعها والدتها بنت خاص بك وزوجة الأتابكى سودون العجمى . وحج شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر ، وكثير غيره من العربان منهم حسام الدين بن بغداد .

وفى يوم الجمعة ٢٣ من ذى الحجة حضر مبشر الحجاج وأخبر عنهم بأمنهم وسلامتهم ، وكانت قد أشيعت عنهم أخبار سيئة فزيفت . وفى يوم الخميس ٢١ المحرم عام٩١٨هـ دخل الركب الأول، وفى يوم السبت ٢٣ منه دخل ركب المحمل إلى القاهرة متأخراً عن ميعاده ، فخلع السلطان على أميره خلعة نفيسة ، وكذلك على من حج غيره من الأمراء. وقد حمد الناس هذا العام سيرة أمير المحمل طومان باى الدوادار، وأثنوا عليه بما هو أهله . وتحدثوا بما قام به من ضروب البر والإحسان وما بذله للفقراء والمساكين . « جزء ٤ ص ٢٢٠، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٦ » .

٧١ — فى سنة ٩١٨ هـ : فى ٢٢ ربيع الأول خلع السلطان الغورى خلعة على الأمير « تمر الحسنى » المعروف بالزردكاش أحد الأمراء المقدمين وجعله أميرا لركب المحمل . وخلع على الأمير « يوسف الناصرى » شاد الشراب خاناة الذى كان نائب حماة ، خلعة وجعله أميراً للركب الأول . وكان قد اشتكى واستعفى من هذه الإمارة فلم يعفه السلطان .

وفى الخميس ١٤ شوال جلس السلطان بالميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام إبراهيم عليه السلام ، والمحمل ، فطيف بها فى القاهرة وكان يوما حافلا . وفى ١٨ منه خرج الحجاج من القاهرة وصحبتهم المحمل الشريف ، فرجت لهم القاهرة . وتقدم المحمل عدد من الأفيال الكبار مزينة بألوان من الأقمشة ومعها الموسيقا من طبل وزمر . وتقدمه أيضاً القضاة الأربعة وقاضى مكة وغيرهم من أمراء وأعيان .

وقد عاد الركب الأول فى الأربعاء ٢٢ المحرم عام ٩١٩ هـ . وعاد ركب المحمل فى الخميس ٢٣ منه . وقد أثنى الحجاج على أمير الركب الأول ولم يثنوا على أمير

المحمل لبخله وشحه . « جزء ٤ ص ٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ » .

٧٢ — فى سنة ٩١٩ هـ : فى ٢ ربيع الآخر خلع السلطان على الأمير « قانصوه كرت » أحد الأمراء المقدمين وقرره فى إمرة ركب المحمل . وخلع خلعة أخرى على الأمير « طومان باى » الحاجب الثانى وقرره فى إمرة الركب الأول وهو من الأمراء الطبلخانات .

وفى ١٤ شوال نزل السلطان إلى الميدان وعرضت عليه الكسوة والبرقع ومقام إبراهيم والمحمل عرضاعاما . وفى ١٧ منه خرج المحمل من القاهرة فى حفاوة وزينة، وفى صحبته ملكان من ملوك التكاررة ، وودعهم الأتابكى سودون العجمى وعدد من الأمراء . وفى السبت ٢٣ من ذى الحجة جاء البشير بخبرهم وأمنهم وسلامتهم . وقد وصل من مكة فى ١١ يوما فعجب الناس لسرعته . ثم عاد الحجاج فى الخميس ١٩ المحرم عام ٩٢٠ هـ ، إلى بركة الحاج ثم دخل الركب الأول القاهرة فى الجمعة ٢٠ منه، وعلى أثره فى السبت ٢١ المحرم دخل ركب المحمل. فخلع السلطان على أميريهما خلعه السنية . وقد تقدم يوم دخولهما عن كل عام يومين فى هذا العام .

« جزء ٤ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ » .

٧٣ — فى سنة ٩٢٠ هـ : فى ٢٣ المحرم خلع السلطان الغورى خلعة على الأمير « طقطباى » نائب القلعة أحد الأمراء المقدمين وأسند إليه إمارة ركب المحمل ، وخلع خلعة أخرى على الركنى سيدى « عمر » بن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق، وأسند إليه إمارة الركب الأول، فشكا واستعفى، فلم يعفه . وقد خالف السلطان العادة فى التعيين المذكور إذ جرت أن تكون حوالى ربيع الأول، فعجل بالتعيين هذا العام فى المحرم . قال ابن إياس: « وقد خالف السلطان العوائد القديمة فى لبس أمراء الحاج فى شهر المحرم ، وكانت العادة القديمة بأن يلبسوا بعد المولد فى شهر ربيع الأول » .

وقد حج فى هذا العام من الأعيان : المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى، وخوند زوجة السلطان، والقاضى محمود بن أجا كاتب السر، والأمير نانق الخازن،

وكان موكولا إليه شئون الركب السلطانى . وفى ١٥ شوال رحل السلطان إلى بركة الحاج ليتفقد الخيام والمحال المعدة للحجاج بمناسبة خروج زوجته وولده إلى الحج .

وفى الاثنين ١٧ شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة . وكان لخروجه يوم مشهود لم يقع له نظير . . . وذلك لعظم من صحب الركب هذا العام من الحجاج وجمال مواكبهم وأبهة زينتهم ، وما حملوه فى جعبتهم من مال وهبات . وخلع السلطان خلعا على أميرى المحمل وقاضيه وولده . وكان السلطان وقت خروج المحمل جالسا فى شباك قصره بالقلعة لمشاهدته . وقد ركبت زوجة السلطان إلى بركة الحاج وودعها من كرائم العقيلات عدد كبير ، ثم نودى ألا يصحب موكبها أحد من الحجاج ... وحج هذا العام عدد ضخم ، وخرج من أصحاب المحفات الخاصة أكثر من عشرة . وقد خيف عليهم من الكثرة والبرد معا ...

وقد رحل المحمل من بركة الحاج فى يوم السبت ٢٢ شوال ، وسبقه فى اليوم الماضى ـ ٢١ منه ـ الركب الأول ، ومعه باش المجاورين. أما زوجة السلطان وولده وكاتب سره فقد رحلوا فى ركب خاص مبكرين جداليل ٢٢ منه حين طلوع القمر. وقوبلوا مقابلة شائقة فى مكة ، وقيل نزل أميرها الشريف بركات عن فرسه واقتاد زمام فرس ابن السلطان .

وفى الخميس ٢٥ ذى الحجة ورد بشير بسلامة الحجاج وزوجة السلطان وولده وكاتب سره ـ وكان قد أشيع موته ـ ثم عاد الركبان إلى بركة الحاج فى ٢١ المحرم عام ٩٢١ هـ وصحبته هؤلاء العظماء ، فخرج الأمراء للقائهم ، ودخلوا القاهرة فى حفاوة وحسن استقبال ـ وقد أثنى الحجاج على أمير الركب الأول ، ولم يثنوا على أمير ركب المحمل .

« جزء ٤ ص ٣٦١ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ » .

٧٤ — وفى سنة ٩٢١ هـ : فى ٢٢ ربيع الأول أسندت إمارة ركب المحمل

إلى الأمير «علان» أحد المقدمين والدوادار الثانى. وأسندت إمارة الركب الأول إلى الجناب العلائى «على» بن المؤيد أحمد بن الأشرف إينال.

وفى يوم الخميس ١٦ شوال عرض السلطان كسوة الكعبة ومقام إبراهيم، وعرض المحمل وهو جالس فى حوش القلعة. وفى يوم السبت ١٨ منه خرج المحمل الشريف من القاهرة فى حفاوة وحسن وداع. ومعه باش المجاورين فى تلك السنة الأمير «بيبردى بن كسباى» أحد الأمراء العشرات، ومعه خمسون مملوكا للإقامة فى مكة.

وفى ٢٦ منه حضر المبشر الأول للحجاج، وقد أبطأ عن ميعاده أياما بسبب خروج العربان عليه وسرقة ما معه حتى خطابات الحجاج، فلم تصل إلى من أرسلت إليهم. ـ وقد عاد الحجاج هذه المرة فى يوم الثلاثاء ٢٣ المحرم عام ٩٢٢ هـ ـ وأثنى الجميع على الأمير علان لما بذله من المعاونة الصادقة والبر وعمل الخير. وقد قاسى الحجاج مشقة وشدة من السيول الجارفة والغلاء وقطع الطريق.

« جزء ٤ ص ٤٤٩، ٤٨٠، ٤٨١ ـ جزء ٣ ص ٦، ٧ ».

٧٥ — فى سنة ٩٢٢ هـ: فى ١٨ ربيع الأول خلع السلطان الغورى على الأمير «أرزمك الناشف» أحد المقدمين، خلعة، وعينه فى إمارة ركب المحمل. وخلع على الأمير «برسباى الفيل» أحد أمراء الطبلخاناة خلعة، وعينه أميراً للركب الأول. وبعد مدة خرج الغورى لقتال العثمانيين، فكان هذا التعيين آخر تعيين يمضى باسم السلطان المذكور. وكان هذان الأميران آخر أميرين عينا للحج فى عصر المماليك.

ولما رحل الغورى إلى الشام وحلب أرسل فى رجب كتاباً إلى نائبه فى مصر الدوادار طومان باى يطلب إليه أن يمنع الحجاج من السفر هذا العام إن علم أن طريق الحجاز غير مأمون. وإن علمه مأموناً فليجهز الحجاج كالعادة المتبعة وليرحلهم. وكان قد أشيع بين الناس أن الحج ممتنع هذا العام بسبب اضطراب الأحوال

ما بين هجوم العثمانين على أملاك الدولة ، وما بين فتن العربان وقطعهم الطريق الحجازى على سالكيه ، فنودى فى يوم ـ الاثنين ٤ شعبان فى القاهرة بأن يستعد معتزمو الحج للخروج فى الميعاد . ولكن بعد قليل كان الغورى قد انهزم وقتل فى مرج دابق وزادت البلاد اضطرابا ، وتولى الملك الأشرف طومان باى . وأخذ فى الاستعداد للقاء العثمانيين بالبلاد المصرية . حينئذ تقاعد الناس عن الخروج إلى الحج . وقد أرسل السلطان طومان باى الكسوة والأموال المعتادة لأهل المدينة ومكة مع رسول خاص هو الطواشى مرهف ، فركب لذلك البحر الأحمر وتوجه لقضاء مهمته ـ وفى أوائل عام ٩٢٣ هـ تم استيلاء العثمانيين على مصر وانتهى بذلك عصر المماليك .

« ج ٣ ص ١٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٦ ، ٧٧ » .

فيضان النيل والاهتمام به

النيل هبة لمصر ونعمته ، ويده عليها ورحمته . لولاه لنالها الجدب وأجهدها المحول ، ودب فيها دبيب الموت والخمول ، وأصبحت الحياة فيها قليلة الغناء ، ضئيلة الهناء . لأنه شريان أرضها . ومنشىء تربها . وباعث خصبها ، ومحيي نباتها ، وساقي أهلها ودوابها . وهي إليه أكثر احتياجا من بلدان كثيرة إلى أنهارها ، لضآلة مائها وقلة أمطارها .

وله في كل عام موسم فيضان ، يرتفع في إبانه ماؤه في مجراه رويدا رويدا في يوليو وأغسطس وسبتمبر إذ يبلغ أقصى ارتفاع له فيه . ثم في أكتوبر ونوفمبر ، ومن ثم يأخذ في التراجع والنقصان . وسبب فيضانه هبوط الأمطار الغزيرة على بلاد الحبشة في موسم الصيف لهبوط الرياح الموسمية الصيفية عليها . فتمتلىء وديان الحبشة بالماء ، وهي روافد النيل . فتتدفق في مجراه وتربو على مياه منبعه الاستوائي الدائم .

وفي غير موسم الفيضان تشح المياه في مجرى النيل وتتضاءل وتفيض ، حتى ليصعب على سقاة الأرض سقيها منه ، لذلك أخذت الحكومة المصرية في العصر الحديث تنشر الري الصيفي الدائم بوساطة ما تنشئه من قناطر وخزانات وترع ومصارف . فيخزن جزء من مياه النيل خلف القناطر ، حتى يحتاج إليه — أما في أيام الفيضان فيسهل الري طبعا ، ولاسيما في أراضي الحياض النيلية التي لم تنظم تنظيما صيفيا .

ولهذه الأهمية الكبيرة التي احتازها نهر النيل ، عني به المصريون منذ الأزمنة القديمة ، وحيكت حوله الأساطير الطريفة الخيالية المسلية التي برهن الكشف الحديث على عدم صدقها . فقالوا إنه ينبع من الجنة ! وإنه عند منبعه يشترك مع

سيحون وجيحون ودجلة والفرات حيث تفيض جميعا من قبة عظيمة..وهكذا[١]

وقد بلغ من حب المصريين القدماء له أن انقلب هذا الحب إلى قداسة وعبادة واحتفوا بفيضانه احتفاء هو مضرب الأمثال ، وجروا على عادات فى احتفائهم به فيها كثير من الإسراف ، منها ما أبطل منذ دخول العرب والإسلام إلى البلاد المصرية على ما يذكره بعض المؤرخين .

ولم يقصر المصريون فى العصور الوسطى ، فى الاهتمام بالنيل ؛ وفى العناية بفيضانه وإقامة الجسور عليه ، والقناطر ومد الخلجان منه، وإنشاء المقاييس عليه. وإقامة المهرجانات الحافلة فى موسم زيادته ، وتخصيص أيام بذلك ، اشتهر منها يوم كسر الخليج .

واهتمام مصر به فى العصر الحديث غنى عن الإشارة إليه ، فقد عنى بمقاييسه، ورصد له المهندسون والعمال والخفراء للحراسة وللملاحظة مائه ارتفاعا وانخفاضا ولحسن تصريفها . ويحتفل بوفائه كل عام .

والنيل كان ولا يزال إحدى النواحى الملهمة التى أوحت إلى شعراء مصر وأدبائها السائغ الرائع من الشعر ، والبديع الذائع من الأدب . فوصفوه طولا وعرضا ومدا وجزرا وفيضانا ونقصانا . ووصفوا ما على حفافيه من زروع كريمة وثمار شهية.وما شدا حوله من أطيار مغردة ،وما أنشىء من بساتين غناء،وجنات فيح ، وما امتلأ بأنسامه الوانية من ليالى حافلة ، وما فاض على جانبيه من أسمار وأحاديث ، وما خلد على شاطئيه من جميل الذكريات . . قال الشاعر أبو حامد ابن محمد الأنطاكى المتوفى عام ٣٩٩ هـ . من قصيدة له يتشوق إلى مصر :

ليالى النيل لا أنساك ما هتفت	ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هفوات فيك لى سلفت	قطعتهن وعين الدهر ترعانى
مع سادة نجب غر غطارفة	فى ذروة المجد من ذهل بن شيبان

(١) راجع ما كتب عن النيل فى حسن المحاضرة وخطط المقريزى

وذى دلال إذا ما شئت أنشدنى   وإن أردت غناء منه غنانى
سقيته وسقانى فضل ريقته   وجاد لى طرفه عفوا ومنانى (١)

ولم يقل اهتمام مصر فى عصر سلاطين المماليك ، بالنيل وفيضانه ، عن اهتمامها به فى أى عصر آخر ، وذلك بمراقبة فيضانه ونقصانه ، ونشر البشرى بزيادته ، والاحتفال بعيد وفائه ، والعناية بمقياسه .

ومقياس النيل له تاريخ حافل . وقد أفرده بالبحث فى باب طويل صاحب تقويم النيل (٢) . ويستخلص مما رواه ، وما رواه المقريزى وأبو المحاسن والسيوطى (٣) وغيرهم ما يلى :

١ - أن مصر عرفت مقاييس النيل قبل دخول الإسلام إليها ، ومنها :

(ا) مقياس منف - ويقال إن يوسف عليه السلام هو الذى بناه - ويبدو أنه ظل مستعملا معتمدا زمنا بعد دخول الإسلام .

(ب) مقياس ، قيل إن دلوكة الملكة العجوز أقامته ببلاد إخميم . وقيل أقامت مقياسا آخر بأنصنا .

٢ - أنه بنى بمصر عدة مقاييس بعد الإسلام ، منها :

(ا) مقياس ، قيل إن عمرو بن العاص بناه عند أسوان ، ثم عند دندرة ، ثم عند أنصنا . وقال المقريزى بناه بحلوان .

(ب) مقياس ، بناه عبد العزيز بن مروان - وكان واليا على مصر - بحلوان وكان يسكن بها . وذلك عام ٨٠ هـ .

---

(١) عن يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٢٦٠ .
(٢) تقويم النيل ج ١ ص ٦٥ وما بعدها .
(٣) راجع الخطط ج ١ ص ٩٢ تحت عنوان « ذكر مقاييس النيل وزيادته » وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٠ بعنوان ذكر المقياس .

(ج) مقياس ، بناه أسامة بن زيد التنوخى ـ وكان عاملا على خراج مصر ـ بجزيرة الروضة ، فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، ثم اقترح إبطاله فأبطل ، وبنى مقياسا آخر فى الروضة كذلك ، عام ٩٧ ﻫ ، فى خلافة سليمان عبد الملك .

(د) مقياس ، أقامه ـ أو رممه ـ الخليفة المأمون بالروضة أيضا ، بدلا من مقياس أسامة الذى هدمه الماء ، وذلك عام ١٩٩ ﻫ . ولكنه لم يتمه . فأتمه الخليفة المتوكل فى عام ٢٤٧ ﻫ . وهو أكبر المقاييس ،وقد بنى فى ولاية يزيد بن عبد الملك على مصر ، وقدم من العراق محمد بن كثير المهندس فتولى بناءه .

(ﻫ) مقياس ، يقال إن أحمد بن طولون بناه فى الجزيرة .

هذا وأهم المقاييس قبل الإسلام مقياس « منف » ، وأهمها بعد الإسلام وأكبرها مقياس « الروضة » الذى أتمه المتوكل . ولعله بنى على نمط من مقياس « منف » ومقياس الروضة هو الذى ظل مستعملا طول عصر المماليك ، وقد أمر قايتباى فى عام ٨٨٦ ﻫ بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه [١]

وقد روى المقريزى فى وصفه قال :

« والمقياس عمود رخام أبيض مثمن ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه . وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا . كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع ، ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى ، فإنها مفصلة على ثمان وعشرين إصبعا ، كل ذراع » . والأذرع الأولى هى السفلى .

وقيل فى سبب اختلاف تقسيم أذرعه ، ما يلى : وقد ذكره المقريزى نقلا عن القضاعى عن الحسن بن محمد بن عبد المنعم . ونقله السيوطى ، قال :

« لما فتحت العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، مايلق أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده فى مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره . وإن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ، وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد

---

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٥ .

الأسعار ، بغير قحط فكتب عمر إلى عمرو ، يسأله عن شرح الحال . فأجابه : إنى وجدت ما تروى به مصر ، حتى لا يقحط أهلها ، أربعة عشر ذراعا ، والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر . والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان ـ وهما الظمأ والاستبحار ـ اثنا عشر ذراعا فى النقصان ، وثمانية عشر ذراعا فى الزيادة . ـ هذا والبلد فى ذلك الوقت محفور الأنهار معقود الجسور عندما تسلموه من القبط ، وخميرة العمارة فيه. فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، عليا رضى الله عنه ، فى ذلك ، فأمره أن يكتب إليه أن يبنى مقياسا وأن ينقص ذراعين من اثنى عشر ذراعا ، وأن يقر ما بعدها على الأصل ، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعا أصبعين . ففعل ذلك ، وبناه بحلوان فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف ، وزوال ما منه كان يخاف ، بأن جعل الاثنى عشر ذراعا أربع عشرة ، لأن كل ذراع أربع وعشرون أصبعا ، فجعلها ثمانيا وعشرين من أولها إلى الاثنى عشر ذراعا . يكون مبلغ الزيادة على الاثنى عشر ثمانيا وأربعين أصبعا ، وهى الذراعان . وجعل الأربع عشرة ست عشرة ، والست عشرة ثمانى عشرة ، والثمانى عشرة عشرين » .

ويبدو أن هذا التقدير لمناسيب الفيضان لم يثبت تماما فيما بعد ، وطرأ عليه بعض التغيير .

ثم إن المقياس وكل به من يلاحظ ارتفاع الماء عنده باستمرار ، إذا حان موسم الفيضان ، ويبشر الناس بكل زيادة ، ويصعد إلى السلطان بأخبارها بين الحين والحين . واشتهر طيلة عصر المماليك اسم « ابن أبى الرداد » مختصا بمراقبة المقياس والبشارة بمناسيب الماء عنده . وأصل ابن أبى الرداد هذا ، يرجع إلى الفقيه عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى الرداد المؤذن . وكان أصله من البصرة ، قدم مصر وحدث بها . فلما بنى المتوكل مقياس الروضة عام ٢٤٧ هـ ، أمر ألا يتولى أمره إلا رجل من المسلمين ، فاختار القاضى بكار بن قتيبة ، ابن أبى الرداد لمراعاة

المقياس ، وأجرى عليه الرزق . وقد توفى ابن أبى الرداد فى عام ٢٦٦ هـ ، وبقى عمله وراثيا فى عقبه . فظلوا يتوارثونه واحداً بعد آخر .

هذا وكان للنداء بالزيادة أثر هام فى حياة الناس والدولة معاً ، لأن الدولة تستحق جباية الخراج إذا بلغ الفيضان حدا خاصا. وإذا تأخر الفيضان عن موعده أرجف الناس وخافوا الشرق والجدب والغلاء ، وأمسك التجار ما فى يدهم من البضائع، وإذا طغى الفيضان وزاد عن معتاده خشى الناس الغرق والبوار، وخافوا انتشار الأوبئة فى أعقاب نكوصه . وهكذا .

والفيضان — كما ذكرنا — يقع فى صيف كل عام وكانوا يضبطونه بالشهور القبطية لاطراد الحساب بها واتساق مواعيدها . ويبلغ النيل حد الوفاء عادة فى شهر مسرى . فإذا وفى تهيأ السلطان ورجاله والناس ، للاحتفال بعيد وفاء النيل . وتختلف أبهة الاحتفال وعظمته والعناية به باختـــلاف الأيام والظروف والملابسات . ومهما يكن من شىء فقد جرت عادة الدولة أن يندب سلطانها من ينوب عنه فى ترأس هذا الاحتفال . فيفتح السد على مرأى منه . وجرت العادة أيضا أن يكون مندوب السلطان هو نائب السلطنة أو أتابك العسكر . وقد يندب أمير آخر غيرهما من عظماء الأمراء كالأستادار أو الدوادار ، تبعا للملابسات الأحوال . وقل أن ذهب السلطان بنفسه لكسر السد . وممن ذهب بنفسه من السلاطين لكسره الظاهر برقوق عام ٨٠٠هـ ، والمؤيد شيخ المحمودى فى عام ٨١٦هـ ، والناصر محمد بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ ، وشارك الأشرف الغورى فيه عام ٩١٧ هـ ، والظاهر خشقدم عام ٨٧٠هـ ، وعام ٨٧١هـ وعام ٨٧٢هـ . كما جرت العادة بأن يكون كسر السد نهاراً لا ليلا . ولعل المرة الوحيدة التى كسر فيها السد ليلا هى المرة التى ذهب فيها الملك الناصر بن قايتباى لكسره عام ٩٠٣ هـ وذلك لخوفه على نفسه من بعض المماليك .

ويركب السلطان أو مندوبه سيفنة تتبعها سفن أخرى كثيرة تمتلىء برجال

الدولة ، وتدلف بهم السفن إلى ناحية المقياس ، وإلى حيث يوجد السد فى أول الخليج الكبير ، فيشاهدون المقياس . ويخلق أحيانا ، أى يطلى بالخلوق وهو عطر . ويكسر السد أمامهم ، ثم يأكلون ويشربون ويلهون حينا بضروب من اللهو ثم يعودون .

ومن السفن التى اشتهرت بالاستخدام لهذا الغرض سفينة أطلق عليها « الحراقة »، وأخرى سميت « الذهبية »، ولبثت « الذهبية » السفينة الرسمية التى تركب فى هذه المناسبة زمنا ، ثم أبطلت عادتها فى عهد الأشرف قايتباى [١] . ويبدو أنها كانت سفينة ضخمة مجهزة خير تجهيز ، إذ قيل إن فيها ستين مجدافا . هذا ولعل تسمية « العوامات » ـ السفن العائمة ـ المعروفة فى القاهرة الآن « الذهبيات » ذات صلة بهذه التسمية القديمة . وكان يطلق على السفن الأخرى التى تستخدم للعبور بين البرين أو للانتقال فى خلال النهر لفظ « العشاريات » .

وأهم المظاهر العملية للاحتفال بوفاء النيل ، كسر سد الخليج . أما الخليج فهو عبارة عن جدول متسع يستمد الماء من النيل زمن الفيضان . والمراد بالخليج هنا ، الخليج الكبير أو خليج مصر أو خليج القاهرة . فكل هذه تسمية لخليج واحد كان يجرى فى ظاهر القاهرة ومنهم من سماه خليج اللؤلؤ والخليج الحاكمى وخليج أمير المؤمنين وقد كان بمصر خلجان على غراره عدة ، يجرى معظمها فى الوجه البحرى ، ولكن الخليج الكبير هو الذى كان يعنى بكسر سده فى عيد الوفاء . أما السد فهو حاجز صناعى يسد به فم الخليج من ناحية النيل عندما يبتدىء النيل فى الفيضان تقوية لجسوره ، واحتفاظا به ليوم العيد . فاذا بلغ النيل ستة عشر ذراعا أو يزيد فى شهر مسرى احتفل بكسر هذا السد فتجرى المياه من النيل إلى الخليج الكبير إلى غاية مداه . وكان يتلو هذه العملية فتح السدود الأخرى للخلجان الأخرى فيجرى فيها الماء كذلك : وقد يحتفل بعض السلاطين بفتح سد آخر غير سد

---

(١) راجع ابن إياس ج ٢ ص ٣٠١ .

الخليج الكبير أو يعنى به على الأقل، كسد خليج أبى المنجا أو سد قنطرة قديدار . . .

والاحتفال بكسر الخليج ، عنى به الفاطميون قبل المماليك ، بل وكان يومه يعد فى جملة أيامهم العامة ، ولعل أبهة الاحتفال به فى زمن المماليك لم تبلغ فى أقصى مداها بعض ما بلغته فى زمن الفاطميين من ركوب الخليفة بنفسه لكسر السد فى أجمل ملبس وزينة ، وحوله رجال دولته ، ثم بذل ضروب البر والصدقات ، وإلقاء الخطب والقصائد ومنح الخلع والعطايا ومد الولائم الحافلة .

ومهما يكن من شىء ، فقد لبث هذا الاحتفال من تقاليد الدولة فى عصر المماليك. وكان السلاطين فى بعض السنين يأمرون بقراءة القرآن فى ليلة الاحتفال بجوار المقياس . وقد يأمرون القضاة الشرعيين بالمبيت هناك أيضا . فإذا تم الاحتفال فى الغد مدت الموائد وخلعت الخلع وأجريت الألعاب المختلفة . وفى يومه يخرج الناس فى سفن نيلية يرتادون بعض خلجان مصر أو يتجمهرون على جانبيها ويأخذون بأسباب اللهو والتمتع والعبث .

مما يذكر أن من العادات المتبعة حينئذ كتابة بشارات إلى آفاق الدولة بوفاء النيل المبارك واستحقاق الخراج . ويقوم بكتابتها موظفو ديوان الإنشاء الممتازون ، فيدبجو بأسلوب أدبى رائع مطول . وهو نموذج من أدب هذا العصر. كما ينظم الشعراء فى هذه المناسبة المقطوعات الكثيرة. وكذلك الزجالون والعوام ينظمون ويغنون .

ومما يذكر أيضا أن النيل إذا زاد ارتفاعه حتى خيف منه على البلاد ، صدر أمر السلطان إلى الأمراء والأعوان للتعاون فى ملاقاة ذلك . فتقام السدود والحواجز وتقوى الجسور ، وتسهر الحراس والرقباء . وقد يستخدمون من أبناء البلاد من يصلح لهذا العمل بطريق السخرة فيصابون بضرر من وراء ذلك كثير .

وإذا لم يف النيل فى موعده ، خيف الشرق والجفاف والغلاء ، يصدر أمر

السلطان فيخرج القضاة والناس للاستسقاء..أو لقراءة القرآن والحديث والدعاء طلبا للوفاء.وقد أفتى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى عام ٨٦٦هـ للسلطان خشقدم، لما لم يف النيل ، بأن يستعين ببنى العباس صغارا وكبارا ، وأن يضعوا ماء فى أفواههم ، ثم يمجوه فى إناء ، ويرمى فى النيل .. ففعلوا فزاد ..

وكما يستسقون طلبا للزيادة ، يستسقون طلبا للهبوط أحيانا،إذا طغى الفيضان وزاد حتى خيف الضرر . كما وقع فى عام ٧٦١ هـ .

وفيما يلى نصوص تاريخية عن اهتمام المصريين فى العصر المملوكى بفيضان النيل ـ دون تحاريقه ـ والاحتفال بوفائه وكسر سده وما يتصل بذلك من حوادث وحالات نقلا عن ابن إياس ، مع الاستعانة بغيره أحيانا ، ومع الإشارة إليه [١] وذلك على سبيل المثال لا الاستيعاب .

أخبار فيضان النيل وما يتصل به

١ ـ كان يجبى من أهل مصر عند وفاء النيل ثمن الحلوى والفاكهة والشواء التى يمد بها السماط بجوار المقياس يوم الوفاء . فأبطل المنصور قلاوون ذلك وجعل نفقات السماط من بيت المال . «ج١ ص١٢٠» .

٢ ـ بلغت الزيادة عام ٦٤٨ هـ ، ١٧ ذراعا وإصبعا ـ وفى عام ٦٤٩ هـ ، ١٨ ذراعا ، ١٨ إصبعا ـ وفى عام ٦٥٠ هـ ١٨ ذراعا ، ١٧ إصبعا ـ وفى عام ٦٥١ هـ ، ١٧ ذراعا و١٧ إصبعا ـ وفى عام ٦٥٢ هـ ، ١٧ ذراعا ، ١٢ إصبعا ـ وفى عام ٦٥٣ هـ ، ١٨ ذراعا ـ وفى عام ٦٥٤ هـ ، ١٨ ذراعا و ٣ أصابع ـ وفى عام ٦٥٥ هـ ١٧ ذراعا

---

(١) إذا نقلنا عن مرجع غير ابن إياس نصصنا عليه مشيرين إلى النجوم الزاهرة بحرف نون وحسن المحاضرة بحاء وسلوك المقريزى بسين ، وتقويم النيل بتاء . وقد التزم صاحب النجوم النص على مقدار الماء فى العام القديم ومقدار الزيادة فى العام الجديد ، عقب حوادث كل عام ، فليراجع ثمت . وقد أثبتنا عنه عشرة فيضانات متتالية .

(٢) انظر الحديث عن حوادث القحط والغلاء فى الأبواب القادمة .

و١٧ إصبعا ـ وفى عام ٦٥٦ هـ ، ١٧ ذراعا . ٥ أصابع ـ وفى عام ٦٥٨ هـ ، ١٨ ذراعا و ١١ إصبعا . « ن:ج٧ س٢٢ الى ٩٣ » .

٣ ـ فى عام ٦٩٤ هـ : أوفى النيل فى السادس من أيام النسىء وبلغت الزيادة فى تلك السنة ١٦ ذراعاً ، ١٧ إصبعا ، ثم هبط فوقع الغلاء وندر وجود القمح. وبلغ سعر كل أردب ثمانية مثاقيل ذهب ونصفا . « ت . ج ١ ص ١٦٧ » .

٤ ـ فى عام ٦٩٥ هـ : فى عهد العادل كتبغا ، شح النيل وقد وصل إلى اثنتى عشرة ذراعا، ثم هبط فشرقت الأراضى وزاد الغلاء وتعذر العيش على الناس ، حتى أكلوا الكلاب والقطط وسائر الدواب . ثم خف الأمر فى جمادى الآخرة .[1]

« ج ١ ص ١٣٣ »

٥ ـ فى سنة ٧٠٩ هـ : وقف النيل فى هذه السنة عن الوفاء فى ميعاده . واستمر كذلك إلى آخر مسرى : ودخلت أيام النسىء وهو فى توقفه . ثم أخذ فى النقصان، فكثر الضجيج والصخب والخوف من الغلاء . وفعلا ارتفعت أثمان الغلات والخبز وخرج الناس للاستسقاء ، فاستسقى الخطيب نور الدين .

ثم رسم السلطان المظفر بيبرس بكسر السد ، من غير وفاء ، إذ نقص النيل عن حد الوفاء ثلاث أصابع ، فكسر السد فى ٧ توت ، ولم يخلق المقياس حينئذ لأن التخليق لا يكون إلا بالوفاء . وفى ٢٧ توت نقص النيل نقصا عظيما وكان أقصى ارتفاع له فى هذا العام ١٥ ذراعا ، ١٧ إصبعا . فشرقت البلاد وأصابها الجدب واشتد الغلاء . « ج ١ ص ١٥٠ ـ ت : ج ١ ص ١٧١ »

٦ ـ فى سنة ٧١٧ هـ وفى النيل فى ٢٩ أبيب وزاد عن الوفاء نصف ذراع . فكسر السد بعد عصر اليوم المذكور خوفا من قوة عزم الماء . « ج ١ ص ١٦٠ »

٧ ـ فى ٧٢٤ هـ فى هذه السنة بدأ حفر الخليج الناصرى إلى سريا قوس بأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون . ـ وهو غير الخليج الحاكمى .

قيل : لما أوفى النيل فى تلك السنة ودخل الماء إلى الخليج الناصرى كان له يوم

---

(١) انظر الحديث عن حوادث القحط والغلاء فى الأبواب القادمة .

مشهود ، ونزل السلطان الناصر ومعه أمراؤه يوم كسر السد « ج ١ س ١٦٣ »

٨ ـ فى سنة ٧٦١ هـ : جاءت القاعدة ١٢ ذراعا ثم كان الوفاء فى ٦ مسرى ، وبلغت الزيادة إلى ما يقرب من ٢٤ ذراعا فأصاب الناس الضرر ، واستبسقوا لهبوطه حتى هبط بعدما مكث إلى آخر توت . « ج ٣ س ٣٤ ، ٣٠ »

٩ ـ فى سنة ٧٧٥ هـ : فى هذه السنه توقف النيل عن الزيادة والوفاء . ثم هبط ونقص أصبعين . فضج الناس وماجوا . وغلت أسعار الغلال وقلت كمياتها ، واختفى الخبز من الأسواق . فرسم السلطان الأشرف شعبان بأن يخرج الناس للاستسقاء . وفى يوم الخميس ٢ ربيع الآخر خرجت جماهير منهم إلى الصحراء وبينهم العلماء والصالحون والرجال والنساء والأطفال والمسلمون واليهود والنصارى . ثم وفد الخليفه المتوكل على الله محمد ، والقضاة الشرعيون الأربعة وساروا خلف قبة النصر ، وأقاموا منبرا صعد إليه قاضى القضاة الشافعى شمس الدين بن القسطلانى وخطب خطبة بليغة فى الاستسقاء . ثم حول رداءه وكشف عن رأسه . ودعا الله تعالى أن يخفف عنهم هذا البلاء .

وفى اليوم التالى نقص ماء النيل مرة واحدة . . . فزادت الأسعار وبلغ ثمن الأردب من القمح ١٢٠ درهما ومن الشعير ٨٠ درهما . وهكذا ... واستمر الحال كذلك ، فاضطر السلطان والأمراء إلى بذل المعونة للناس والفقراء . . .

« ج ١ س ٢٢٩ »

١٠ ـ فى سنة ٧٨٩ هـ : فى هذه السنة لم يصل النيل إلى حد الوفاء ثم نقصت زيادته واضطربت الأحوال وقلق الناس . ثم زاد مرة أخرى وبلغ حد الوفاء . « ج ١ س ٢٦٦ »

١١ ـ فى سنة ٨٩٧ هـ : فى هذه السنة وفى يوم السبت ٦ شوال الموافق آخر يوم من أبيب ، زاد النيل أربعين إصبعا فى يوم واحد .

وفى ثانى يوم ، أى فى أول مسرى ، زاد ٦٢ إصبعا . فبقى إلى الوفاء ذراعان . وفى ٣ مسرى زاد ٥٠ إصبعا فبلغ حد الوفاء وزاد إصبعين . وكانت جملة زيادته أربعة الأيام سبع أذرع ونصف ذراع وإصبعين .

وكان وفاؤه فى ٣ مسرى ـ وزيادته تلك لم يعهد مثلها فى السنين الماضية .

« ج ١ ص ٣٠٤ » :

١٢ ـ فى سنة ٨٠٠ هـ : فى يوم الأحد ١٩ من ذى القعدة كان وفاء النيل المبارك ، فنزل السلطان برقوق من القلعة إلى ناحية المقياس ليخلق العمود ويكسر السد ، فدخل إلى المقياس وخلق العمود ثم نزل إلى الحراقة لكسر السد فكسره .

« ج ١ ص ٣١٠ »

١٣ ـ فى سنة ٨٠١ هـ : بينما كان السلطان فرج بن الظاهر برقوق يجلس على عرشه فى أول عهده إذ جاءه ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك فاستبشر الناس بذلك . « ج ١ ص ٣١٧ » .

١٤ ـ فى سنة ٨٠٣ هـ : وقف النيل دون الزيادة . فانتشر الغلاء وقلت الغلال ثم زاد النيل فى يوم واحد ٤٨ إصبعا ، وبقى إلى الوفاء ١٦ إصبعا . وبعد قليل أوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع . « ج ١ ص ٣٤٠ »

١٥ ـ فى سنة ٨١٣ هـ : انتهت زيادة النيل إلى ٢١ ذراعا . وكان الوفاء أول مسرى . « ج ١ ص ٣٥٤ »

١٦ ـ فى سنة ٨١٤ هـ : وفى النيل فى أول مسرى . وبلغت الزيادة ٢٢ ذراعا وإصبعا من الثالثة والعشرين . فغرقت البساتين وانقطعت الطرق وتأذى الناس .

« ج ١ ص ٣٥٤ »

١٧ ـ فى سنة ٨١٦ هـ : قال ابن حجة الحموى : وفى النيل المبارك فى سنة ٨١٦ هـ

فى أوائل مسرى . فنزل الملك المؤيد وخلق المقياس ، وكسر السد على العادة . وذلك قبل أن يتوجه إلى دمشق بسبب نوروز - أى نوروز الحافظى الذى شق عليه عصا الطاعة - فأنشدته فى ذلك اليوم مهنئا :

أيا ملكا بالله صار مؤيدا ومنتصبا فى ملكه نصب تمييز
كسرت بمسرى سد مصر وتنقضى وحقك بعد الكسر أيام نوروز

فكان الفأل بالنطق . « ج ٢ ص ٤ »

١٨ - فى سنة ٨١٨ هـ : كان الملك المؤيد شيخ يتباهى فى يوم كسر النيل المبارك . ويلزم الأمراء المقدمين بأن كل واحد منهم يزين له «حراقة» ويجعل فيها الصناجق والكشوسات . فإذا وفى النيل يعدون له « الذهبية » فى بولاق . ويتوجه إلى المقياس يخلق العمود ويكسر السد . والأمراء المقدمون حوله فى «الحراريق» المزينة ، حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب . ويكون له يوم مشهود لم يسمع بمثله فيما تقدم . وقد فاق فى ذلك ما كان يصنعه أستاذه برقوق . « ج ٢ ص ٥ »

١٩ - فى سنة ٨٢١هـ : لم يف النيل فى ميعاده ، وزاد الغلاء . فنزل الملك المؤيد للاستسقاء ، ولبس جبة من الصوف الأبيض وعلى رأسه عمامة صغيرة جداً بعذبة مرخية خلفه . وعلى كتفه مئزر من صوف أبيض . وركب فرسا بغير قماش حريرى ولا سرج ذهبى . وذبح هناك بيده أغناما وأبقارا ، وفرقها على الفقراء وفرق فى ذلك اليوم على الفقراء ثلاثين ألف رغيف ، وصلى على الرمل من غير سجادة . وتواضع لله . فزاد النيل ، ووفى فى أواخر توت . ثم هبط بسرعة . وشرق أكثر البلاد ، واستمر الغلاء بمصر ، وعزت الأقوات سنة كاملة (١) « ج ٢ ص ٦ »

(١) هذه الحوادث ذكرها صاحب تقويم النيل فى عام ٨٢٣هـ وذكر فى عام ٨٢١هـ أن النيل وفى وفتح السلطان السد .

٢٠ ـ فى سنة ٨٢٤ هـ ، زاد النيل زيادة مفرطة . وثبت إلى آخر هاتور ، ولم يعهد هــــذا من قبل فى الإسلام . وأصاب الناس الضرر . وكثرت البرك والمستنقعات وغرقت البساتين وأوذيت الزروع وسدت الطرقات . وبلغت الزيادة ٢٠ إصبعا من ١٩ ذراعا . « ج ٢ ص ١٢ ـ ت : ص ١ ج ٢٠٩ ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٣٩ »

٢ ـ فى سنة ٨٢٦ هـ : وفى النيل فى ١٨ أبيب ، فكأنه تقدم عن ميعاده أياما . وقيل فى « ت » أوفى فى ٦ مسرى . « ج ٢ ص ١٧ ـ ت : ج ١ ص ٢١١ »

٢٢ — فى سنة ٨٢٨ هـ ارتفع النيل ١١ ذراعا و١٠ أصابع . ثم وفى فى ٢ مسرى . وبلغت الزيادة ٢٠ إصبعا من الذراع العشرين وثبت إلى أواخر بابه . وفتح السد الجمالى يوسف بن السلطان برسباى .

« ج ٣ ص ٣٥ ـ ت : ج ١ ص ٢١٣ »

٢٣ ـ فى سنة ٨٤٥ هـ : كان وفاء النيل فى ١٤ أبيب . « ج ٢ ص ٢٨ »

٢٤ ـ فى سنة ٨٣٥ هـ : وقف النيل عن الزيادة والوفاء ثلاث أصابع ، وقيل أربع ، ولبث كذلك أياما لم يزد شيئاً . فرسم السلطان بأن يخرج الناس للاستسقاء . فخرج القضاة الاربعة وأمير المؤمنين المستكفى بالله سليمان ، ومشايخ العــلم الصلحاء والأعيان ، ولم يصحبهم السلطان فتألم الناس . وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رءوسهم المصاحف . واليهود على رءوسهم التوراة . والنصارى وعلى رءوسهم الإنجيل . ومعهم أبقار وأغنام ، وكثير من الرجال والنساء والأطفال الرضع . وهم يقولون : يا الله ارحمنا ! ويمموا الصحراء عند الجبل الأحمر وأقاموا منبرا ، صعد عليه قاضى قضاة الشافعية شرف الدين يحى المناوى . فخطب خطبة الاستسقاء.

فلما أراد أن يحول رداءة سقط الرداء إلى الأرض فتطير الناس من ذلك ! فلما رجعوا من الاستسقاء طلع ابن أبى الرداد ، ومعه روايات زعفران ! ونادى

بزيادة إصبع ! ففرح الناس بذلك ! وأنعم عليه السلطان بمائة دينار . ثم إن النيل نقص بعد فى تلك الليلة أصبعين ، وبقى إلى الوفاء ثمانية أصابع . فرسم السلطان بكسر السد فكسر . فلم يجر الماء فى الخليج إلا قليلا . وأخذ النيل فى النقص بعد ذلك . وقد أصيب الناس من وراء ذلك شر إصابة ، فماتت البهائم وأجدبت الأرض وزاد الغلاء(١) « ج ٢ س ٣١ »

٢٥ — فى سنة ٨٥٧ هـ : وفى النيل فى ٢٣ مسرى - فى رجب - ، فكسر السد المقر الشهابى أحمد بن إينال ، وهذه أول مرة يفتتح السد . « ج ٢ س ٤٣ »

٢٦ — فى سنة ٨٥٨ هـ : وفى النيل فى ١٣ مسرى - فى شعبان - ففتح السد المقر الشهابى أحمد بن إينال . « ج ٢ س ٤٧ »

٢٧ — فى سنة ٨٥٩ هـ : فى شهر شعبان كان وفاء النيل ، وقد أوفى فى ١٥ مسرى ونزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان إينال وفتح السد . وبعد أيام زاد النيل زيادة مفرطة حتى قطعت الجسور وغرقت بلاد كثيرة . ثم انخفض الماء بسرعة حتى شرقت الأرض البعيدة العالية وارتفعت أسعار القمح بسبب ذلك. « ج ٢ س ٥٢ ، ٥٣ » .

٢٨ — فى سنة ٨٦٠هـ : وفى النيل فى ٦ مسرى- شعبان - . وفتح السد الشهابى أحمد بن إينال . « ج ٢ س ٥٦ »

٢٩ — فى سنة ٨٦٦ هـ : لم تبد زيادة فى النيل فى هذه السنة فى شهر أبيب إلا أوائلها فقط . أى أوائل الزيادة . وظل كذلك ١٥ يوما ، فضج الناس وافتضح خوفهم وارتفعت الأثمان . فرسم السلطان خشقدم للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا هناك ويتلوا القرآن والحديث الشريف ويتوجهوا إلى الله بالدعاء لزيادة النيل. فتوجه القاضى يحيى المناوى والسيد الشريف ابن حريز المالكى وجماعة من العلماء ، فأقاموا فى المقياس أياما ورجعوا ولم يزد النيل ! فأرسل السلطان إلى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى يستفتيه فى ذلك .

(١) هذه رواية ابن إياس . وذكرها صاحب تقويم النيل فى عام ٨٥٤ هـ

فقال الشيخ أمين الدين : اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء من صغارهم لكبارهم ثم يضعون فى أفواههم شيئا من الماء ويمجونه فى إناء ، ثم يصبونه فى فسقية المقياس ! ففعلوا ذلك . فكان فيه البركة !

ثم إن القاضى علم الدين صالحا البلقينى توجه إلى المقياس ، وأقام هناك ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع زاد النيل ثلاث أصابع ، ففرح الناس بذلك ورجع القاضى علم الدين وشق من القاهرة وأمامه الأعلام وحوله الهتاف . ثم وفى النيل وثبت ثباتا طويلا فى زيادته إلى أواخر توت ، وتوجه المقر السيفى قانم التاجر وكسر السد . وقيل فى « ت » هم السلطان بهدم المقياس حتى لا يعلم النـاس الزيادة أو النقصان فثبطه الأقصرائى . « ج ٢ س ٧٤، ٧٥ — ت ج ١ س ٢٢٣ »

٣٠ — فى سنة ٨٧٠ هـ . وفى النيل . فنزل السلطان خشقدم بنفسه وكسر السد وخلق المقياس . « ج ٢ س ٨٠ »

٣١ — فى سنة ٨٧١ هـ . كسر السلطان خشقدم السد . وقيل فى « ت » نقلا عن « ن » إن هذه السنة خلت من الوفاء . « ج ٢ س ٨١ . ت . ج ١ س ٢٢٥ »

٣٢ — فى سنة ٨٧٢ هـ . وفى النيل هذا العام فنزل خشقدم كعادته وفتح السد وهذه آخر مرة يفتحه فيها . « ج ٢ س ٨١ »

٣٣ — فى سنة ٨٧٣ هـ . بعد أن وقف النيل عن الزيادة فى موعده مدة ، وفى شهر المحرم . فأنيب الأمير قرقاس الجلب أمير مجلس فى فتح السد . وكان سلطان العصر الأشرف قايتباى . « ج ٢ س ٩٩، ١٠٠ »

٣٤ — فى سنة ٨٧٤ هـ . فى يوم عيد النحر عام ٨٧٣ هـ جاءت بشارة المبشر بارتفاع النيل . وفى شهر صفر عام ٨٧٤ هـ كان وفاؤه . وقد وافق ٢٤ مسرى . فلما وفى نزل الأمير لاجين الظاهرى أحد مقدمى الألوف وفتح السد .

« ج ٢ س ١١٠، ١١٣ »

٣٥ — فى سنة ٨٧٥ هـ . فى شهر صفر كان وفاء النيل ووافق ٢٢ مسرى . وقام بكسر السد الأتابكى قلقسيز الذى كان حينئذ أمير سلاح بعد زوال أتابكيته . أما

أتابكى العصر فقد كان أزبك بن ططخ ، وكان وقت كسر السد غائبا فى البحيرة .
« ج ٢ ص ١٢٢ »

٣٦ — فى سنة ٨٧٦ هـ . بشر بزياد النيل فى أول المحرم من السنة المذكورة . فتفاءل الناس بذلك . وفى شهر صفر كان وفاؤه . ووافق ٢٦ مسرى فقام الأتابكى أزبك بفتح السد . « ج ٢ ص ١٢٨، ١٢٩ »

٣٧ — فى سنة ٨٧٧ هـ . وفى النيل فى ٢١ مسرى ـ ربيع الأول ـ وفتح السد الأتابكى أزبك بن ططخ « ج ٢ ص ١٣٧ »

٣٨ — فى سنة ٨٧٨ هـ . وفى النيل فى شهر ربيع الأول . ووافق ٥ مسرى . فذهب الأمير لاجين الظاهرى أمير المجلس وفتح السد . وفى ذلك اليوم زاد النيل ١٢ إصبعا بعد ١٧ ذراعا وكانت زيادته ثلاث أذرع فى ستة أيام. «ج ٢ ص ١٤٧» .

٣٩ — فى سنة ٨٧٩ هـ . وفى النيل فى شهر ربيع الأول . وكان قد توقف أياما وقلق الناس لوقوفه . ووافق ٢٠ مسرى . ففتح الأتابكى أزبك بن ططخ السد . « ج ٢ ص ١٥١ »

٤٠ — فى سنة ٨٨٠ هـ وفى النيل فى شهر ربيع الثانى . ووافق يوم وفائه يوم ١٢ مسرى . وقام الأتابكى أزبك بفتح السد . « ج ٢ ص ١٥٩ »

٤١ — فى سنة ٨٨١ هـ : وفى النيل فى شهر ربيع الثانى . وكان وفاؤه فى ٣ مسرى . وفتح السد الأتابكى أزبك . « ج ٢ ص ١٦٦، ١٦٧ »

٤٢ — فى سنة ٨٨٢ هـ . فى شهر ربيع الثانى كان وفاء النيل . ووافق آخر شهر أبيب ، وكسر السد فى أول مسرى ، وقد قام الأمير لاجين الظاهرى أمير المجلس بكسره ، وفى جمادى الأولى انتهت زيادته إلى عشرين ذراعا وإصبع واحدة . وثبت كذلك إلى آخر بابه ، وقد كسر الجسور وقطع الطرقات وأغرق المنيا لارتفاعه .
« ج ٢ ص ١٧٤، ١٧٥ »

٤٣ — فى سنة ٨٨٣ هـ . فى شهر ربيع الثانى وفى النيل . وكان وفاؤه فى ٤ مسرى فتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد . وفى الليلة زاد عن الوفاء ١٢ إصبعا . وفى ثانى يوم كسر سده زاد ١٦ إصبعا ، وأكمل الذراع السابعة عشرة فى يومين . ويستفاد

ذكره ابن إياس فى سنة ٨٨٤هـ أنه بلغ ٢٠ ذراعا و٢٠ إصبعا .

« جـ ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ »

٤٤ ـ فى سنة ٨٨٤هـ : فى ٣ جمادى الأولى كان وفاء النيل . ووافق ٢٩ أبيب وكسر السد فى آخر أبيب على مرأى من الأتابكى أزبك . وبعد يومين زاد النيل عشرين إصبعا ، فبلغ بذلك الذراع السابعة عشرة وست أصابع ، واطردت زيادته بعد ذلك حتى بلغ عشرين ذراعا وعشرين إصبعا ، وثبت على ذلك فى جمادى الآخرة ، فوافق بذلك مقدار ارتفاعه فى العام الماضى « ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٩٠ »

٤٥ ـ فى سنة ٨٨٥هـ : فى جمادى الآخرة كان وفاء النيل وقام بكسر السد الأتابكى أزبك بن ططخ « جـ ٢ ص ١٩٧ » .

٤٦ ـ فى سنة ٨٨٦هـ : فى جمادى الآخرة كان وفاء النيل . ووافق ١٥ مسرى . وقام بفتح السد الأمير أزبك السيفى « جـ ٢ ص ٢٠٦ » .

٤٧ ـ فى سنة ٨٨٧ هـ : فى جمادى الآخرة كان وفاء النيل . وفتح السد الأتابكى أزبك بن ططخ . « جـ ٢ ص ٢٤١ » .

٤٨ ـ فى سنة ٨٨٨هـ : فى ربيع الآخر ارتفع النيل إلى ٦ أذرع وأربع أصابع وقد وفى النيل فى جمادى الآخرة . ووافق يوم ١٢ مسرى . وفتح السد الأتابكى أزبك « جـ ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ » .

٤٩ ـ فى سنة ٨٨٩هـ . جاء شهر جمادى الآخرة والنيل متوقف عن الزيادة حتى قلق الناس ، ثم زاد ، واطردت زيادته حتى وفى فى شهر رجب . ووافق يوم وفائه يوم ٢٢ مسرى . وقد قام الأتابكى أزبك بن ططخ بفتح السد . وبعد أيام فى شعبان انخفض انخفاضا سريعا . ثم ثبت على الأصبع الثانية والعشرين من الذراع الثامنة عشرة . قيل : فشرقت بلاد كثيرة وزاد سعر القمح . وقد تأثرت أسعار البضائع فى السنة التالية تبعا لذلك . وفى شهر رمضان عاد إلى زيادة مفرطة بغير أوان ، ودخلت مياهه الخليج بعد أن جف ماؤه . فكان ذلك مثارا لعجب الناس . ولكن رى الأرض كان قد اضطرب فلم تفد الزيادة فى ذلك الحين .

« جـ ٢ ص ٢٢٢ إلى ٢٢٤ » .

٥٠ - فى سنة ٨٩٠ھ : فى جمادى الأولى أخذ النيل فى الارتفاع حتى بلغ ثمانى أذرع وعشرين إصبعا . وفى ٢ شعبان كان وفاؤه موافقا ٢٠ مسرى . وفتح السد الأتابكى أزبك بن ططخ . وفى ذى القعدة فى يوم ١٣ هاتور زاد النيل زيادة مفرطة تقرب من ذراع فأثارت عجب الناس . « ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ »

٥١ - فى سنة ٨٩١ھ : فى شعبان تم وفاء النيل . ووافق وفاؤه يوم ١٣ مسرى فتوجه الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وذلك لغياب الأتابكى أزبك فى حملة . وقد زاد النيل فى اليوم المذكور عشرين إصبعا من الذراع السابعة عشرة، واطردت زيادته بعد الوفاء ثلاثة أيام متوالية حتى بلغت ٩٩ أصبعا . « ج ٢ ص ٢٣٧ » .

٥٢ - فى سنة ٨٩٢ھ : هل رجب والنيل متوقف عن الزيادة واستمر أياما، ثم زاد واطردت زيادته حتى بلغ حد الوفاء فى شهر شعبان ، موافقا ١٢ مسرى . ففتح الأتابكى أزبك بن ططخ السد فى اليوم المذكور . « ج ٢ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ »

٥٣ - فى سنة ٨٩٣ھ : فى شعبان وفى النيل موافقا فى وفائه يوم ١١ مسرى . ففتح السد الأمير أقبردى الدوادار لغياب الأتابكى أزبك . وهذه هى المرة الوحيدة التى فتح فيها الأمير أقبردى السد . « ج٢ ص ٢٥٣ »

٥٤ - فى سنة ٨٩٤ھ : وفى النيل فى آخر شعبان . وفتح السد فى أول رمضان موافقا ٦ مسرى بحضور الأتابكى أزبك . « ج ٢ ص ٢٦٥ » .

٥٥ - فى سنة ٨٩٥ : جاءت البشارة ببدء الزيادة فى شعبان ، وبلغت فيه سبع أذرع إلا ثمانى أصابع . وفى ١٠ رمضان كان وفاؤه موافقا ٤ مسرى . ونزل الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وقد زاد فى ٣ مسرى ٣٣ أصبعا مرة واحدة . «ج٢ ص٢٦٥»

٥٦ - فى سنة ٨٩٦ھ : فى شوال ليلة عيد الفطر كان وفاء النيل المبارك . فأمر السلطان بفتح السد فى ٢ شوال وكان ذلك فى ١٥ مسرى . « ج ٢ ص ٢٧٢ » .

٥٧ - فى ٨٩٧ھ . قال ابن إياس : إن النيل وفى هذه السنة فى ذى القعدة وفتح السد الأتابكى أزبك . ويفهم من هذا أنه تأخر شهرا تقريبا أو ثلاثة أسابيع على

الأقل من ميعاده فى السنة الماضية . وهذا كثير . فلعله أخطأ فى ذكر الوفاء فى شعبان . وكان أحق بذكره فى شوال . . . أو لعل النيل تأخر هذه المدة كلها ـ كما أنه لم يذكر التاريخ القبطى . « ج ٢ س ٢٢٧ »

٥٨ ـ فى سنة ٨٩٨ هـ : فى شوال كان وفاء النيل موافقا ١٢ مسرى . وفتح السد الأتابكى أزبك ، وكان قبيلها مشغولا بالحجاج فى بركة الحاج . فلما علم الوفاء سار تحت جناح الليل لفتح السد فى الغد ثم عاد . « ج ٢ س ٢٧٩ »

٥٩ ـ فى سنة ٨٩٩ هـ : فى ذى القعدة : وفى النيل بعد وقوفه مدة فاضطربت الأسواق . ولما وفى آخر الشهر فتح الاتابكى أزبك السد « ج ٢ س ٢٨٤ . ٢٨٠ »

٦٠ ـ فى سنة ٩٠٠ هـ : فى ذى القعدة وفى النيل . وفتح الأتابكى أزبك السد . وهذه آخر مرة له يفتح السد فيها . « ج ٢ س ٢٨٨ »

٦١ ـ فى سنة ٩٠١ هـ : وفى النيل فى ذى القعدة فرسم السلطان للأمير الكبير تمراز بفتح السد وخلع عليه خلعة . . فتم فتح السد والناس يسودهم الاضطراب من ناحية مرض السلطان ومن ناحية الفتن الكثيرة الناشئة بسبب المماليك ومطالبهم وبسبب الأمير أقبردى . وهذه آخر سنة يأمر فيها قايتباى بفتح السد ، إذ توفى فى ١٧ ذى القعدة المذكور . « ج٢ س ٢٩٦ »

٦٢ ـ فى سنة ٩٠٢ هـ : كان السلطان هو الناصر بن قايتباى . ولما بلغ النيل أيام الوفاء المعتادة لم يف . ووقف عن الزيادة . وكانت القاهرة إذ ذاك تموج فى فتنها . وظل كذلك حتى يوم الاثنين ٢٢ من ذى الحجة الموافق ٢٧ مسرى فبلغ حد الوفاء . وكان الأمير أقبردى الدوادار متغلبا على القاهرة فى ذاك الوقت . ففوتح فى مسألة كسر السد فبعث من لدنه والى القاهرة لهذا الغرض بعد يوم الوفاء بيوم ، أعنى يوم ٢٨ مسرى ، فوجد أن الشيخ عبد القادر الدشطوطى قد فتح منه جانبا . . فأجهز على البقية . ولم يصحب الاحتفال بفتح السد بهجة ولا روعة ولا سرور ، ولم يخرج الناس لمشاهدته والتفرج به نظرا لفشو الفتن والاضطراب ، وبعد أيام

انخفض ماء النيل بسرعة وأصيبت بلاد بالجفاف العاجل ، ونجم عن ذلك ضرر كثير وغلاء . « ٢ ص ٣٢٧ » .

٦٣ ـ فى سنة ٩٠٣ هـ : ناسب وفاء النيل فى هذه السنة أن جاء فى أوائل السنة الهجرية التالية لها إذ فى ٤ المحرم عام ٩٠٤ هـ الموافق ١٩ مسرى وكان السلطان الناصر بن قايتباى عقد النية على أن يفتح السد بنفسه فنعه الأمراء خوفا عليه من الفتن القائمة . ولكنه مالبث بعد أن صلى العشاء أن نزل من القلعة على حين غفلة وأمامه المصابيح والمشاعل ومعه أولاد عمه ونحو مائة من الخاصكية ، وسار إلى السد لفتحه بالليل . وهذ هى المرة الوحيدة ـ أو لعلها ـ التى فتح فيها السد ليلا . ـ وبعد تمام الفتح ذهب إلى سد قنطرة قديدار ففتحه أيضا . ثم عاد إلى القلعة تحت جنح الليل . فلما أصبح الصباح وجد الناس المـــاء يملأ الخلجان والبرك والفنرات فثار عجبهم . «جزء ٢ ص ٢٤٥ »

٦٤ ـ فى سنة ٩٠٤ هـ : رأينا كيف وقع وفاء النيل عام ٩٠٣ هـ فى المحرم عام ٩٠٤ هـ وذلك لاختلاف السنين القبطية والعربية إذ الأولى مطردة إذا قيس بها ارتفاع النيل . والثانية لااطراد لها فى ذلك . أما وفاء عام ٩٠٤ الهجرى فقد بدأت زيادته فى شهر ذى الحجة . وكانت زيادته فى ٣ مسرى ثلاثين إصبعا . وفى ٤ مسرى أربعين إصبعا . وفى ٥ مسرى عشرين إصبعا . وبلغ حد الوفاء فى ٥ مسرى . وفتح السد فى ٦ مسرى الموافق ٢١ من ذى الحجة عام ٩٠٤ هـ . وقد رسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار الكبير بفتح السد . ـ وطومان باى هو الذى ملك فيما بعد وتلقب بالعادل ـ وكانت الأتابكية إذ ذاك شاغرة . وكان السلطان قانصوه ابن قانصوه . « جزء ٢ ص ٣٦٠ »

٦٥ ـ فى سنة ٩٠٥ هـ : وقع وفاء النيل هذه السنة أيضا فى أوائل السنة الهجرية التالية أى عام ٩٠٦ هـ . فى يوم السبت ٥ المحرم الموافق ٨ مسرى بلغ النيل حد الوفاء . وكسر السد فى يوم الأحد ٦ المحرم . وقام بفتحه الأمير طومان باى

الدوادار إذ ذاك . فسار فى أبهة وعظمة . وفرق على المدعوين كثيرا من الحلوى والفاكهة . ونثر على العوام دراهم من فضة وكان السلطان إذ ذاك الأشرف جان بلاط . فلعل طومان باى كان بذلك يمهد لنفسه السبيل إلى السلطنة . . .

« جزء ٢ ص ٣٧٤ »

٦٦ ـ فى سنة ٩٠٦ هـ : فى أوائل هذه السنة كان النيل قد وفى وفاءه وفتح السد فى ٦ المحرم كما ذكرنا فى سنة ٩٠٥ هـ . ولم يقع وفاء النيل فى تلك السنة غير هذا . إذ الوفاء التالى وقع فى السنة التالية أى عام ٩٠٧ هـ .

٦٧ ـ فى سنة ٩٠٧ هـ : فى ١٨ المحرم الموافق ٩ مسرى كان وفاء النيل . وخشى الأتابكى قيت الرجبى أن يسير لفتح السد فبعث مكانه الأمير مغلباى الشريفى الزردكاش ـ وكانت السلطنة قد آلت إلى الأشرف الغورى منذ السنة الماضية . وفى ربيع الأول انتهت زيادة النيل إلى سبع عشرة إصبعا من الذراع العشرين . واستمر ثابتا إلى نصف بابه . « جزء ٤ فى التواريخ المذكورة » .

٦٨ ـ فى سنة ٩٠٨ هـ : فى يوم الخميس ٢٣ المحرم الموافق ٤ مسرى زاد النيل أربعين إصبعا فى يوم واحد . وفى يوم الجمعة ٥ مسرى زاد عشرين أخرى . وبلغ حد الوفاء فى يوم الأحد ٨ منه ، وزاد عنه إحدى عشرة إصبعا . وتم فتح السد يوم الاثنين ٩ مسرى الموافق ٢٧ المحرم . ـ قال ابن إياس : « وهو سابق النيل الماضى بيوم واحد . » مع أن وفاء العام الماضى كان فى ١٨ المحرم ـ كما قال ـ لا ٢٨ منه . . . وقد قام بفتح السد الأتابكى قيت الرجبى .

ثم قال : « والفضل بينهما سبعة عشر إصبعا » . أى زادها النيل فى هذه السنة عن السنة الماضية . « جزء ٤ ص ٣٦ »

٦٩ ـ سنة ٩٠٩ هـ : فى صفر وفى ٩ مسرى كان وفاء النيل . فتوجه الأمير سودون العجمى أمير المجلس وفتح السد . وكان الأتابكى قيت غائبا فى الحج .

« جزء ٤ فى التاريخ المذكور »

٧٠ - فى سنة ٩١٠ هـ : فى ٧ ربيع الأول الموافق ٢٥ مسرى وفى النيل متأخرا عن العام الماضى ١٧ يوما . ولكنه زاد خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة . وقد فتح الأتابكى قيت الرجبى السد . وفى ربيع الآخر ثبت النيل على ١٣ إصبعا و١٩ ذراعا وثبت كذلك إلى ٢٨ توت « جزء ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة »

٧١ - فى سنة ٩١١ هـ : فى المحرم أخذ النيل فى الارتفاع ، حتى بلغ سبع أذرع . وفى ربيع الأول فى يوم السبت ٢ منه كان وفاء النيل ووافق ذلك يوم ٩ مسرى . فتوجه الأتابكى قرقماس لفتح السد . وقد أوفى وزاد على وفائه ثلاث أصابع . وكانت مياهه كثيرة عالية . ولم يقف النيل منذ بدء زيادته بل اطردت . وفى جمادى الأولى ثبت ارتفاعه على ١١ إصبعا من عشرين ذراعا . واستمر كذلك ثابتا إلى آخر بابة . وكان نيلا مباركا .

« جزء ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة »

٧٢ - فى سنة ٩١٢ هـ : فى ٢٨ المحرم حمل ابن أبى الرداد بشارة ارتفاع النيل حيث بلغ سبع أذرع وعشر أصابع ، فهو أرجح منه فى العام الماضى فى مثل هذا الميعاد بنحو عشرة أصابع . وفى ٢٠ ربيع الأول كان وفاؤه . ووافق ٢٠ مسرى أيضاً : وكسر السد فى ٢١ منه بحضور الأتابكى قرقماس بن ولى الدين . وفى جمادى الأولى ثبت على ١٩ ذراعا وأصبعين من عشرين ذراعا .

« جزء ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة »

٧٣ - فى سنة ٩١٣ هـ : فى صفر طلع ابن أبى الرداد ببشارة الزيادة . وكانت سبع أذرع بلغتها فى الارتفاع . وفى ١٩ ربيع الأول تم وفاء النيل ووافق ١٠ مسرى ، وفتح السد فى ١١ منه بحضور الأتابكى قرقماس بن ولى الدين . وكان النيل قد استمر فى الزيادة حتى ٦ مسرى فزاد دفعة واحدة فى ذلك اليوم ثلاثين إصبعا وفى يوم ٧ منه زاد عشرين أخرى . وفى ٨ منه زاد عشرين أخرى . فبلغت زيادته سبعين إصبعا فى ثلاثة أيام . واستمرت زيادته حتى بلغ حد الوفاء .

« جزء ٤ فى سياق التواريخ المذكورة » .

٧٤ ـ فى سنة ٩١٤ هـ : فى صفر ، جاء ابن أبى الرداد ببشارة زيادة النيل إلى السلطان وبلغ الارتفاع ست أذرع وعشر أصابع . فكان أكثر ارتفاعا من مثله فى العام الماضى . ثم وقف عن الزيادة زمنا . ثم زاد فى ١١ مسرى خمسين إصبعا دفعة واحدة ، فرسم السلطان الغورى لقضاة الشرع بالتوجه إلى المقياس المبيت هناك فتوجهوا . واجتمع هناك قراء المدينة لقراءة القرآن . ثم أمر السلطان بمد الموائد وتقديم الأطعمة الشهية . فكانت تلك الليلة حافلة آهلة . وفى ١٢ مسرى زاد النيل ٢٠ إصبعا . وفى ١٣ منه عشرين أخرى . فبلغت زيادته فى ثلاثة أيام تسعين إصبعا .. قال ابن إياس : «وذلك ما لم يقع من مبتدأ الإسلام سوى مرتين منها مرة فى دولة الظاهر برقوق سنة ٧٩٧ هـ . فإنه زاد فى أول مسرى ٦٢ إصبعا ، وفى ٣ منه ٥٠ إصبعا . فكانت زيادته فى ٤ أيام ٧ أذرع ونصفا وأصبعين .. . والمرة الثانية فى دولة الأشرف برسباى سنة ٨٢٥ هـ فإنه زاد فى يوم واحد ٥٠ إصبعا دفعة واحدة .»[1]

هذا وقد قام بفتح السد يوم ١٤ مسرى الأتابكى ، قرقماس .

« جزء ٤ فى سياق حوادث التواريخ المذكورة هنا »

٧٥ ـ فى سنة ٩١٥ هـ : فى ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد إلى السلطان ببشارة النيل . وبلغ الارتفاع ست أذرع و ١٨ أصبعا . فكان أربى من العام الفائت فى مثل هذا الميعاد بثمانى أصابع . وفى ربيع الثانى انقطع جسر أم دينار بالجيزة . وكان ذلك فى ليالى الوفاء فتعاون الأمراء بأمر السلطان على إصلاحه . فسخروا كثيرا من الناس فى هذا العمل . واتبعوا معهم ضروبا من القسوة والإرهاق . فكانوا يقبضون عليهم فى الطرقات ويسوقونهم فى القيود إلى محل العمل ! ومع ذلك لم يجيدوا سده وإعادته إلى ما كان عليه على الرغم من إعيائهم .

---

(١) ذكر ابن إياس فى سياق حوادث سنة ٧٩٧ هـ ، هذه الزيادات كما ذكرها هنا . أما فى سنة ٨٢٥ هـ فلم يشر إلى النيل بكثير أو قليل

وفى جمادى الآخرة ثبت النيل على ٢٢ إصبعا من ١٩ ذراعا . وقد ثبت على ذلك إلى أواخر بابه . وكان النيل عاليا ومباركا . وظل ثابتا إلى نصف هاتور . ثم زاد فيه ثمانى أصابع حتى عد ذلك من النوادر الغريبة .. ! ولما اشتدت زيادته رسم السلطان للقضاة الأربعة بالتوجه إلى المقياس ليدعوا الله تعالى فى انخفاضه ، ففعلوا فانخفض فى تلك الليلة نحوا من نصف ذراع ! « ج ٤ حوادث التورايخ المذكورة »

٧٦ - فى سنة ٩١٦ هـ : فى يوم الخميس ١٣ ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد بشارة النيل، وارتفع إلى ٧ أذرع بزيادة عشر أصابع عن العام الماضى وفى ٢ جمادى الأولى قرئت ختمة فى المقياس بأمر السلطان كما مدت الأسمطة الحافلة وقدمت الأطعمة الشهية . وحضر القضاة وأعيان الناس وسبب ذلك أن البحر استمر فى الزيادة . ومضى من مسرى ١٦ يوما ولم يف .. فلما توجه القضاة إلى ناحية المقياس زاد النيل فى تلك الليلة ثمانى أصابع ، وفى الليلة التالية زاد ١٥ إصبعا ، واستمرت الزيادة حتى بلغ حد الوفاء فى ٢٠ مسرى ، وفى يوم ٢١ منه الموافق ٨ جمادى الأولى فتح السد ، وقد تأخر الوفاء عن العام الماضى ٧ أيام ، فلما وفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد . وهذه آخر مرة للأتابكى قرقماس يفتح فيها السد ، لأنه توفى فى أواخر هذه السنة ، وفى جمادى الآخرة ثبت النيل على ٢١ إصبعا من ١٨ ذراعا ، وانخفض فى أواخر توت ، ولم يثبت فكان نيلا شحيحا ، فأصيبت بلاد بالشرق والجفاف ، وكانت البلاد يتفشى فيها الغلاء. « جزء ٤ فى حوادث التواريخ المذكوره » .

٧٧ - فى سنة ٩١٧ هـ : فى يوم الجمعة ٢٤ ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد بشارة النيل ، وبلغ الارتفاع ست أذرع ، فهو أقل من العام الماضى فى مثل هذا الميعاد ، وفى يوم الأربعاء ١١ جمادى الأولى أخذ النيل تطرد زيادته حتى شارف الوفاء . وبقى إليه خمس أصابع ، فزاد فى تلك الليلة إصبعين ، فتأخر عن الوفاء فى ميعاده ، ثم زاد إصبعين ولم يصل حد الوفاء . فكثر بين الناس القيل والقال ، وقالوا إن عدم وفائه سببه كثرة الفسوق والعصيان . . فلما بلغت القالة سمع السلطان رسم لبعض الأمراء باقتحام بعض الجهات المشبوهة لمنع أهلها من اقتراف

الموبقات . ففعلوا بلا غلو .

وكان السلطان توجه إلى الروضة ، ورسم للقضاة الأربعة أن يتوجهوا إلى المقياس للمبيت ولقراءة ختمة ، ففعلوا ، ومد السلطان موائد حافلة واجتمع هناك أعيان النـاس من العلماء والفقهاء وغيرهم ، وفى يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى ركب السلطان من هناك « الحراقة » إلى المقياس ، وكانت تلك الليلة ليـلة الوفاء ، ثم شق من بر الروضة إلى قصر ابن العينى وعاد إلى القلعة .

ووفى النيل فى تلك الليلة وكسر السد ثانى يوم — الجمعة ١٣ جمادى الأولى — ١٥ مسرى — وقد زاد النيل فى يوم الوفاء إصبعين ، فزاد عن حد الوفاء إصبعا ورسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بفتح السد فركب الحراقة وأتى المقياس وخلق العمود ثم فتح السد وكان له يوم مشهود ، وهذا أول فتحه للسد وهو فى الأتابكية . ثم زاد بعد ذلك ثمانى أصابع مرة واحدة ، وقد عم الأراضى وملأ الخلجان فازدادت بهجة بما عليها من القناطر الجديدة ، وغدا الناس يروحون ويجيئون فى مراكبهم مبتهجين ، وقد ثبت النيل فى أوائل رجب على ٩ أصابع من عشرين ذراعا ، وكان النيل عاليا ، ولـكن ارتفعت أثمان بذور البرسيم والقمح .

« جزء ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٧٨ — فى سنة ٩١٨ هـ : بشر ابن أبى الرداد بزيادة النيل فى يوم الأحد ٦ ربيع الثانى ، وارتفعت المياه إلى ست أذرع فهى أقل من العام الماضى ذراعا — وفى الاثنين ١٢ جمادى الأولى كان وفاؤه ، ووافق أول مسرى . وفتح السد فى اليوم الثانى منها ، وفى اليوم الثانى المذكور زاد النيل بعد الوفاء اثنتى عشرة أصبعا ، وفى الثالث ست عشرة ، فبلغ سبع عشرة ذراعا وأربع أصابع ، فرسم السلطان الغورى للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه إلى السد ويفتحه فـكان له يوم مشهود .

وفى يوم ١٣ منه بات السلطان فى قصره بالمقياس وقرئت هناك ختمة ، واجتمع لذلك قراء المدينة ووعاظها ، وفى ثانى يوم ركب « الحراقة » وتوجه إلى بولاق — وفى هذا الشهر اطردت زيادة النيل حتى بلغ ١٢ اصبعا من الذراع التاسعة عشرة ،

فأخصبت الفواكه فى هذا الشهر حتى البطيخ الصيفى والعبدلى والعنب والرمان وسائر الفواكه . ولكن الزبيب كان غاليا . وكذلك الغلال والزيت والسكر وغيرها .

وفى يوم ١٨ رجب الموافق أول بابه ثبت النيل المبارك على ٨ أصابع من ٢١ ذراعا واستمر فى ثبات إلى نصف هاتور « ج ١ فى التواريخ المذكورة » .

٧٩ ـ فى سنة ٩١٩ ﻫ : طلع المبشر ابن أبى الرداد ببشارة النيل فى يوم الاثنين ١٦ ربيع الثانى . وارتفع الماءست أذرع وست عشرة إصبعا . وفى الأحد ٥ جمادى الآخرة بلغ النيل حد الوفاء . ووافق ذلك ١٤ مسرى . فوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة، وكان عرس النيل وفتح السد فى ٦ جمادى الموافق ١٥ مسرى . وقد رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بالذهاب لفتح السد .

وفى مستهل رجب كان النيل فى عشر أصابع من ١٩ ذراعا . وفى ١٦ رجب ثبت النيل على الأصبع الرابعة من الذراع العشرين . وكان فى العام الماضى فى مثل هذا الموعد قد أتم عشرين ذراعا وزاد ٨ أصابع من الذراع الحادية والعشرين .
« ج ٤ فى التواريخ المذكورة »

٨٠ ـ فى سنة ٩٢٠ ﻫ : طلع المبشر ابن أبى الرداد ببشارة النيل يوم ٢٦ ربيع الثانى . وكان الارتفاع إلى ست أذرع و١٢ ذراعا . وكان فى العام الماضى أرجح من هذا . وكانت زيادته فى أول يوم ٥ أصابع . وفى يوم ٢٣ جمادى الآخرة . بلغ حد الوفاء بعد الظهر ، وعلق الستر على شباك القصر الذى أنشأه السلطان على ردهة المقياس وقد بلغ ١٦ ذراعا وأصبعين ، وذلك فى ٢٢ مسرى ، وقد أبطأ النيل عن السنة الماضية بسبعة أيام ، والناس بسبب ذلك فى قلق واضطراب ، وقد فتح السد فى ٢٤ جمادى الثانية الموافق ٢٣ مسرى ـ وكان يوما مشهودا ـ برآسة الأتابكى سودون العجمى .

وزاد النيل بعد فتح السد بيومين عشرة أصابع دفعة واحدة، ثم فى اليوم الثالث زاد ١١ إصبعا دفعة واحدة ، وفى اليوم الخامس زاد ٧ أصابع دفعة واحدة ، فزاد

١٦ إصبعا من ١٨ ذراعا . وذلك فى أواخر مسرى بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النوادر . وفى ١٠ شعبان كان ارتفاعه يومئذ ١٥ إصبعا من الذراع العشرين. وقد انتفع الناس بذلك أيما انتفاع . وظل ارتفاع النيل ثابتا إلى أواخر بابة دون انخفاض . ـ وفى الأربعاء ١٥ شعبان الموافق ٧ بابة كان ارتفاعه هو نفس ارتفاعه فى ١٠ شعبان أى ١٥ إصبعا من ٢٠ ذراعا . فكان أزيد من العام الماضىء ١١ إصبعا . « ج٤ فى التواريخ المذكورة »

٨١ ـ فى سنة ٩٢١ هـ . فى جمادى الأولى ، جاء ابن أبى الرداد ببشارة النيل وبلغ ارتفاعه ٧ أذرع، و ٤ أصابع ، فكان أرجح من العام الماضى بعشرين أصبعا ـ وفى الاثنين ١٨ جمادى الآخرة احتفل بوفاء النيل المبارك . ووافق وفاؤه يوم الأحد ١٧ منه الموافق ٥ مسرى . فوقع الاحتفال حينئذ فى ٦ مسرى . وفى ذلك اليوم رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتجه إلى السد ليفتحه ، وإلى المقياس ليخلع عموده ، فنزل فى « الحراقة » وقام بما عهد إليه فى اليوم المذكور . وعاد إلى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة سنية .

وفى ٢٠ شعبان الموافق أول بابة ثبت ارتفاع النيل على ١٦ إصبعا من ٢١ ذراعا واستمر ثابتا إلى أوائل هاتور .

وقد رويت بلاد كثيرة لم ترو من قبل لعلو الماء ، وعم بذلك النفع .

« ج٤ فى التواريخ المذكورة »

٨٢ ـ فى سنة ٩٢٢ هـ . فى يوم الخميس ٢٣ صفر أشيع بين الناس أن النيل قد زاد ذراعين . . فصعد ابن أبى الرداد وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع . وكان النيل يومئذ فى ١٢ ذراعا و ٣ أصابع . فزاد على ذلك نصف ذراع . وكان هذا فى شهر برمهات . وسبب هذه الزيادة المبكرة أن الأمطار سقطت بأعلى بلاد الصعيد وانحدرت منها سيول إلى النيل ، فزاد هذه الزيادة فى غير أوانها .

وفى يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى طلع ابن أبى الرداد ببشارة زيادة النيل ، إلى

القلعة ـ وكان السلطان الغورى قد رحل فى جنده إلى بلاد الشام لملاقاة العثمانيين ـ وبلغت الزيادة حينئذ إلى ارتفاع ١٢ ذراعا وبقى على الوفاء ٦ أذرع . وقال ابن إياس نقلا عن المقريزى :

« ولم يحدث أن زاد ارتفاع النيل فى أول زيادته كل هذا الارتفاع وهو ١٢ ذراعا . إلا مرتين : واحدة عام ٧٦٢ هـ ، وأخرى فى عام ٨٣٨ هـ » . ثم قال : « فلما كانت الزيادة فى عامنا هذا - ٩٢٢ هـ - اثنتى عشرة ذراعا ، ظن الناس الظنون ، وخشوا أن تطرد الزدياة بهذه النسبة فتغرق الأراضى . غير أن النيل أخلف هذه الظنون .. »

وفى يوم الاثنين ٢١ جمادى الآخرة الموافق ٢٧ أبيب بلغ النيل حد الوفاء . وفتح السد فى يوم الثلاثاء ٢٢ منه ، الموافق ٢٧ أبيب . وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة أيام . وقد فرح الناس بهذا الوفاء المبكر ، ونظموا الأزجال يتغنون بها . وقد قام بفتح السد نائب الغيبة إذ ذاك طومان باى الدوادار ـ الذى ملك فيما بعد ـ فركب « الحراقة » وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومعه كثير من عظماء الأمراء . ثم عاد إلى بيته فى ركب حافل .

وفى شعبان بلغ النيل عشرين ذراعا . ووافق بلوغه ذلك ٢٢ توت . وثبت على عشرين ذراعا حتى ٢ بابة واستمر إلى هاتور . فكان أقل من مثله فى العام الماضى .

« جزء ٣ ص ١٤ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٤ ، ٥٦ »

ملحوظة . فى أوائل عام ٩٢٣ هـ تم للعثمانيين الاستيلاء على مصر ووقع وفاء النيل التالى فى عهدهم . فضربنا الذكر صفحا عنه .

السفارة

كانت مصر دولة عظيمة الشأن ، مترامية الأطراف فى عصر المماليك . نشبت بينهما وبين عدد من الدول ، وشائج وصلات من ألوان مختلفة ، ترجحت مابين صداقة وعداوة ، ومنافسة ومعاونة . وهكذا . ووسط هذا كله ، لم تجد بدا من اصطناع السفراء، تبعثهم إلى ملوك هذه الدول فى بعض المهام . أو تستقبل سفراء هذه الدول ، وتنظر فيما لديهم من المسائل والأخبار . ونعنى هنا السفراء المبعوثين فى أمر ما، والذين يعودون إلى بلدهم بمجرد نجاز ماأرسلوا من أجله ويسمونهم «قصادا».

وهم طائفتان : طائفة ترسلها مصر ، وطائفة تستقبلها . ومن العادات المتبعة ـ غالبا ـ أن سلطان مصر يختار رسوله من رجاله الحكماء الكيسين ، ويزوده بتعليماته وإرشاداته ، كما يزوده بهداياه أحيانا ليقدمها إلى من أرسل إليه .

ومن العادات المتبعة ـ غالبا ـ أن يستقبل سلطان مصر من يفد إليه من الرسل فى حوش القلعة ، يحف به كبار رجاله فى حفل عظيم . وقد يعرض بعض أسلحة الجند إذ ذاك وتعرض بعض الأسلحة أو الخلع أو نحو ذلك . وقد تعرض أيضا بعض الألعاب للتسلية ، أو يستصحب الرسول إلى حفل مقام لمناسبة ما ، وهكذا .

وينزل السفير ضيفا على السلطان طيلة إقامته . فينزله عند أحد أتباعه من أعيان الأمراء والمباشرين ، أو فى أحد قصورهم . وبعد زمن يأذن له فى العودة ، ويخلع عليه الخلع النفيسة ، ويزوده ببعض الهدايا .

ولاشك فى أن هؤلاء السفراء كثيرا ما تكون سفارتهم ذات أثر كبير فى علاقات الدولة المصرية بغيرها ، وذات أثر كبير فى توجيه سياستها إلى ناحية ما.

ومما اتبع فى بعض الأحيان أن السلطان إذا اختار أحد رجاله رسولا ، أن يأخذ هذا الرسول فى إعداد العدة لخروجه وسفره، ويقيم الاحتفالات والزينات

على داره . وربما جامله جيرانه وأحباؤه ، فأقاموا مثله الحفلات والزينات . وربما تحيا الليالى إذ ذاك بالمغنين والراقصين وأضرابهم ، احتفاء بالزوار . ومثل ذلك مافعله « ماماى بن خداد » الخاصكى ، حينما اختاره قايتباى رسولا إلى ملك العثمانيين عام ٨٩٩ هـ . وحين خروج الرسول من القاهرة يخرج فى ركب حافل وزينة بالغة

ونثبت فيما يلى بعض هذه الوفادات نقلا عن ابن إياس .

١ — من سفراء مصر إلى غيرها من الدول

١ - الأمير برسباى أمير آخور ثان : لما فتح السلطان محمد العثمانى مدينة القسطنطينية بعث رسولا إلى السلطان الأشرف إينال يبشره بذلك فبعث السلطان إينال هذا الأمير ليهنىء بالفتح . وذلك فى شوال عام ٨٥٧ هـ . فسار لأداء مهمته ، ثم عاد فى رجب عام ٨٥٨ هـ . فلقى السلطان فخلع عليه خلعة . « ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٧ »

٢ - الأمير قانى باى اليوسفى المهمندار : بعثه السلطان الأشرف إينال إلى السلطان محمد الفاتح مهنئا ببعض الفتوحات ومعه هدايا قيمة فسافر فى شعبان سنة ٨٦٠ هـ وقد عاد فى رجب عام ٨٦١ هـ وحدث بما لقيه من الكرم .

« ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ »

٣ - الأمير دولات باى حمام الأشرفى : أرسله السلطان الأشرف قايتباى فى ذى القعدة سنة ٨٧٧ هـ إلى ملك بنى عثمان ردا على رسوله الذى أوفده خاصا بما كاتب به ملك العراقين حسن الطويل ملوك الفرنجة للاتفاق على مقاتلة ملك العثمانيين وملك مصر « ج ٢ ص ١٤٥ » .

٤ - الأمير برسباى الأشرفى أستادار الصحبة [١] : أرسله السلطان قايتباى إلى ملك العثمانيين فى صفر عام ٨٧٨ هـ . فسافر ومعه هدايا قيمة . وقد توفى هذا

(١) هو برسباى الشرقى يونس الذى كان أميرا للمحمل عام ٨٧٧ هـ ، ونوه به السخاوى فى الضوء ج ٣ رقم ٣٩ .

الرسول بحلب . وجاء خبر وفاته فى جمادى الأولى من العام المذكور . ويبدو أنه لم يتم مهمته قبل وفاته «ج ٢ ص ١٤٧» .

٥ ـ الأمير الماس الأشرفى أستادار الصحبة : أرسله السلطان الأشرف قايتباى مبعوثا إلى ملك العثمانيين فى جمادى الأولى عام ٨٧٨ هـ بدلا من برسباى الأشرفى المتوفى . وكان الماس أحد خواص السلطان ، وقد عينه قبل سفره فى أستادارية الصحبة . وقد أخذ يستعد للسفر . ولكن ألغى إرساله فى ذى القعدة من العام نفسه . وعين مكانه يشبك الجمالى . «ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٩»

٦ ـ الأمير يشبك الجمالى : فى ذى القعدة عام ٨٧٨هـ رسم السلطان قايتباى للأمير يشبك الجمالى المحتسب بأن يخرج قاصدا إلى ابن عثمان ملك الروم عوضا عن الماس الأشرفى الذى ألغى إرساله. وقد عاد من سفره فى جمادى الأولى عام ٨٧٩هـ حاملا إلى السلطان رسالة تتضمن الود والصداقة من ملك العثمانيين . فسر السلطان قايتباى برسالته . ويشبك هذا ولى عدة مناصب منها الحسبة . وسافر أميرا للحج عدة مرات، وغضب عليه قايتباى عام ٩٠٠ هـ ونفاه إلى القدس فظل إلى أن مات فى عام ٩٠١هـ . «ج ٢ص ١٤٩ ؛ ١٥٣»

٧ ـ الأمير جانى بك حبيب العلائى : كان قد هرب من مصر فى أيام السلطان خشقدم لما أصابه من محن ، ويمم شطر بلاد العثمانيين . فلعله عرفها معرفة وثق ، ولعله أصبح ذا صلة محمودة ببعض من فيها ، إذ استخدم فى السفارة بينها وبين مصر فيما بعد ، أكثر من مرة . وقد عاد إلى مصر فى شوال عام ٨٧٢ هـ فى أوائل حكم قايتباى . فلما عاد أكرمه هذا السلطان وخلع عليه خلعة سنية . وبعث إليه الأمير يشبك الدوادار ألف دينار يصلح بها شأنه . وبعد قليل منحه السلطان قرية انبابة إقطاعا له ،وكانت بيد الخليفة المستنجد بالله يوسف فأخرجها عنه. وفى ربيع الأول عام ٨٧٤هـ منحه السلطان مركز أمير آخور ثان عوضا عن يشبك . فلبث فيه

بضع سنين . وسار فى عداد أمراء الحملة المرسلة إلى حلب بقيادة الأتابكى أزبك بن ططخ عام ٨٨٥هـ . وعرف هذا الأمير بالكياسة والسياسة وحسن التأتى ، ولذلك أرسله الأتابكى أزبك إلى يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقين ليطلق من عنده من الأسرى بعد واقعة يشبك الدوادار لدى بابندر عامل هـذا الملك . فأكرمه وسلم إليه الأسرى فعاد بهم إلى حلب، وذلك عام ٨٨٦ هـ . فكان هذا مرشحا له فى عام ٨٨٩هـ ، إذ اختاره السلطان قايتباى فى ذى الحجة رسولا إلى ملك بنى عثمان، بعد مشورة الأمراء فيمن يكون أهلا للسفارة ، وبعـــد أن أشاروا على السلطان باختياره . وكانت مهمته فى ذلك الحين أن يتحدث مع ملك العثمانيين فى الأسباب التى دعته إلى الانضمام إلى على دولات أمير التركمان الخارج على الدولة المصرية ، ويحاول إبعاده عنه وتهدئة الفتنة الناشبة بينه وبين السلطان بسبب ذلك . وقد حمل معه هدية نفيسة للموفد إليه . وحمل معه تقليدا من الخليفة ليكون نائبا عن السلطان فيما بيده من الأملاك ، ومكاتبة أخرى من الخليفة أيضاً يتلطف فيها بملك العثمانيين أن ينهى هذه الفتنة التى أثارها بينه وبين السلطان .

وقد قيل فى سببها الأول أن أحد ملوك الهند أرسل مع رسول هدية نفيسة إلى ملك العثمانيين وفى عدادها خنجر ثمين فانتزعه منه نائب جدة وأهداه إلى السلطان قايتباى مع بقية الهدية . فقبله هذا ولم يرده . فأكل الحقد قلب ملك العثمانيين وانتهز ثورة على دولات على السلطان وأمده بالجند .

وقد اضطر السلطان إلى رد الخنجر والهدية مع رسوله جانى بك حبيب مع الاعتذار . ثم سافر جانى بك فى صفر عام ٨٩٠ هـ . بطريق البحر المتوسط إلى القسطنطينية .

لبث جانى بك فى مهمته نحو ثمانية شهور . وعاد فى ذى القعدة عام ٨٩٠هـ . فحدث السلطان بأنه لم يجد لدى ملك بنى عثمان إكراما مناسبا ولا لقاء حسنا ولا إقبالا . وأنه أنس منه الجفاء لمصر وسلطانها وإضمار العداوة وحب الأذى . وقد

صدقت فراسته إذ أخذ العثمانيون في الكيد لمصر ونقص أطرافها حتى اضطر السلطان قايتباى إلى قتالهم مرات عدة كان النصر غالبا حليفا له .

وقد توفى جانى بك حبيب في المحرم عام ٨٩٣ هـ وكان فصيح اللسان بارعا يتقن الكلام بالعربية . « ج ٢ ص ٩٥ ، ٩٦، ١١٣، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٧ ، ٢٢٦، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ٢٤٨ ، ٢٤٩ » .

٨ - ماماى الخاصكى بن خداد : هو أحد مماليك الأشرف قايتباى وخواصه. بلغ من رتب الإمارة أن كان أحد المقدمين وتولى الدوادارية الثانية زمنا . حج في سنة ٨٨٩ هـ ، في صحبة أبى البقاء بن الجيعان . وكان السلطان قايتباى يستخدمه في كثير من مهامه ، وقد أوفده سلطانه رسولا إلى ملك بنى عثمان ثم عاد من وفادته تلك عام ٨٩٦ ، وقد أوفد مثل هذه الوفادة أكثر من مرة ، منها مرة في عام ٨٩٩ هـ. وكان ماماى في جملة من انضم إلى قانصوه خمسمائة الخارج على السلطان في قتاله لإقبردى الدوادار ، وتعقبوه إلى بلاد الشام وكادوا يفتكون به في خان يونس في جهة غزة عام ٩٠٢ هـ لولا أن نجده نائب غزة إذ ذاك وأنقذه من عصابه قانصوه خمسمائة بعد أن قتل منها عددا من الرجال ومن بينهم ماماى بن خداد المذكور . وقد حمل رأسه مع رءوس القتلى إلى القاهرة وطيف بها جميعا محمولة على الرماح ، وذلك في يوم الخميس ٤ رجب عام ٩٠٢ هـ .

وعرف ماماى برجاحة العقل والشجاعة ، قال ابن إياس عنه :« وهو الذى جدد الدار المعظمة التى بين القصرين وصرف عليها جملة مال عظيم » - هذا وماماى آخر قصاد قايتباى إلى ملك بنى عثمان . « ج٢ص ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٨١، ٣١٤، ٣١٦ » .

٩ - جان بلاط بن يشبك : أرسله قايتباى إلى ملك العثمانيين عام ٨٩٦ هـ ، - وجان بلاط هذا هو الذى صار سلطانا على مصر فيما بعد - أى بعد قايتباى - وتلقب بالأشرف . « جزء٢ ص ٢٧١ »

١٠ - قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى : هو أخو خاير بك ملك الأمراء،

وقد أرسله السلطان قايتباى إلى الملك رستم أحد أبناء حسن الطويل ملك العراقين وذاك فى عام ٨٩٨ هـ ، وكان إذ ذاك أمير عشرة . « ج ٢ ص ٢٧٩ »

١١ - الشيخ عبد المؤمن العجمى : وهو شيخ قبة السلطان بالمرج أرسله قايتباى إلى ملك بنى عثمان وفى صحبته هدية نفيسة بينها قماش فاخر وسبع وزرافة وببغاء حمراء اللون ، وقد عاد الشيخ عبد المؤمن من وفادته تلك فى المحرم عام ٩٠١ هـ . وقد نقل إلى السلطان أن ملك العثمانيين جبن وضعف عن الهجوم على مصر . . « ج٢ ص ٢٩٢ »

١٢ - خاير بك أخو قانصوه البرجى : وهو الذى صار بعد ملك الأمراء فى عهد العثمانيين وترجمنا له فى باب أفذاذ الرجال ، كان قد أرسله الناصر بن قايتباى إلى ملك بنى عثمان رسولا عام ٩٠٣ هـ فتوجه إليه بعد قليل ، ثم عاد فى عهد الظاهر قانصوه بن قانصوه بعد مقتل الناصر بن قايتباى ، وكانت عودته فى شعبان عام ٩٠٤ هـ : وقيل إن ملك العثمانيين أكرمه ، فلما بلغه مقتل الناصر أسمعه من الكلام قارصه. « ج ٢ ص ٣٣٢، ٣٣٩ ، ٣٥٤ »

١٣ - قانصوه كرد : أحد الأمراء فى عهد الناصر بن قايتباى، وكان خازندارا ثانيا وأحد الأمراء الطبلخاناه، وفى ربيع الأول عام ٩٠٥ هـ عينه السلطان قانصوه رسولا إلى سلطان بنى عثمان فخرج بعد مدة وجرى عليه أمور شتى . « ج٢ ص٣٦٢ »

١٤ - تغرى بردى الترجمان : أرسله الغورى إلى بلاد الفرنجة فى ذى القعدة عام ٩١١ هـ ، وأخذ معه كتابا إلى البترك ليمنع عبث الفرنجة بالسواحل، ثم عاد بعد سنتين . واستخدمه السلطان فى أمور شتى ، ووبخ بوساطته قناصل الفرنجة على مؤامراتهم ضده .

وفى ١١ المحرم سنة ٩١٧ هـ قبض عليه بتهمة أنه راسل الفرنجة بأسرار السلطان وبأنه يعد حملة عليهم ، وأفهمهم أن سواحل مصر خالية من الاستحكامات ولذا يستطاع التغلب عليها وامتلاكها بسهولة ، وضبطت مراسلات بخطه فى هذه الأمور .

وحقق معه بخصوصها فأنكرها . ولكن السلطان وبخه توبيخا شديدا ووضعه فى الحديد ، وألقاه فى السجن ، وصادر ممتلكاته وراقب أهله وأولاده .

وتغرى بردى هذا غير تغرى بردى نائب الشام فى عهد فرج بن برقوق ، والذى هو والد أبى المحاسن يوسف المؤرخ . « ج ٤ فى التواريخ المذكورة »

١٥ ـ الأمير تمر باى الهندى : أرسله الغورى إلى الشاه اسماعيل بن حيدر الصوفى « الصفوى » متملك العراق . فظل لديه زمنا ثم عاد فى ١٢ ربيع الثانى عام ٩١٨ هـ بعد نحو سنتين . وقيل إنه قاسى شدائد وأهوالا كثيرة فى سفارته تلك . فماتت خيوله وجماعة من غلمانه ، ولم ينصفه الشاه إسماعيل ولم يكرمه ولم يقابله غير مرة واحدة ، ولم يكتب له ردا على رسالة السلطان : بل أرسل صحبته رسولا آخر من قبله . « ج ٤ فى حوادث ربيع الثانى عام ٩١٨ هـ »

١٦ ـ يونس العادلى : أرسله الغورى إلى بلاد الروم حيث ملك ابن عثمان ، ليشترى له أخشابا وحديدا وبارودا . فلما بلغ ابن عثمان ذلك ، رد المال الذى حمله يونس العادلى . وأظهر استعداده لتقديم هذه المشتريات هدايا من لدنه إلى سلطان مصر . وكانت عودة يونس فى شهر رجب عام ٩١٦ هـ . وقد بر ابن عثمان بوعده إذ وصلت هذه الهدايا الثمينة فى مراكب إلى مصر فى شوال عام ٩١٦ هـ . « وقد ذكرت فى باب الهدايا والتقدمات » .

وقد سافر يونس هذا مرة إلى سيباى نائب الشام بصحبة ماماى الخازندار فى ٦ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ لخطبة ابنته لابن السلطان الغورى . ثم رجعا فى ١٥ رمضان عام ٩٢٠ هـ بدون قبول لصغر البنت فسنها كانت ٦ سنوات .

« ج ٤ فى التواريخ المذكورة » .

١٧ ـ الطواشى بشير : أرسله الغورى إلى بلاد اليمن قاصدا إلى بعض ملوكها وإلى بعض ملوك الهند . لكى يتعاونوا جميعاً مع عسكره على قتال الفرنجة العابثين بسفن التجارة فى المحيط الهندى . وذلك فى ١٤ ربيع الأول عام ٩١٦ هـ على أثر حضور رسول الملك محمود شاه صاحب كنباية وآخرين من ملوك الهند يطلبون

سرعة تجهيز تجريدة ضد هؤلاء الفرنجة لكثرة عبثهم ولأنهم أوشكوا أن يستولوا على بعض بلاد الهند. وقد عاد بشير الطواشي من وفادته في يوم الاثنين ٩المحرم سنة ٩١٧هـ فقابل السلطان وقدم إليه هدايا نفيسة فقبلهامنه وخلع عليه.

« ج ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة »

١٨ ـ الرئيس حامد المغربى : أرسله الغورى إلى بلاد العثمانيين ليشترى أخشابا وحبالا ومكاحل نحاسية . فلما بلغ ملكهم خبر مجيئه ، لقيه وأكرمه وأرسل صحبته عدة مكاحل نحاسية وحديدية وجملة من الأخشاب والحبال وغير ذلك من الأشياء المطلوبة، وشحن جميعها فى سفن إلى مصر وذلك فى رمضان عام ٩١٨ هـ .

« ج حوادث ٤ رمضان عام ٩١٨ هـ »

١٩ ـ الأمير أقباى الطويل : فى ١٠ من القعدة عام ٩١٨هـ ، خلع عليه السلطان الغورى خلعة وأرسله إلى السلطان سليم شاه ملك الروم بمناسبة توليه الملك ليهنئه بذلك ، ولعقد أواصر صداقة جديدة بين السلطانين. فنزل أقباى بعد الخلع عليه من القلعة فى موكب حافل . ثم سافر فى يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة عام ٩١٩هـ وخرج فى ركب حافل مارا بداخل ميدان القلعة ليمر تحت الأنظار السلطانية . وقد عاد من سفارته هذه فى ١٤ ربيع الآخرة عام ٩٢٠ هـ ومعه هدايا حافلة من السلطان سليم ومن نواب البلاد التى مر بها والخاضعة لسلطان مصر .

وأقباى الطويل هذا غير أقباى الطويل المذكور فى باب أفذاذ الرجال والمتوفى عام ٩٠٥ هـ .

« ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٢٠ ـ إينال باى دوادار سكين . وجهه الغورى إلى بلاد الشام وبلاد الروم فى ربيع الآخر عام ٩٢٠ هـ ، قاصدا ملك العثمانيين السلطان سليم لكى يتحسس الأخبار ويتلمس النوايا ، بمناسبة ماذاع من الأنباء عن عزم السلطان سليم على البطش بالشاه إسماعيل الصوفى ملك العراقين . وقد حددت له أيام معدودة للقيام بمهمته . وخرج مسافرا فى ٢٢ جمادى الأولى عام ٩٢٠هـ. ثم عاد فى رجب من العام نفسه مكرما من ابن عثمان أكثر من إكرامه لإقباى الطويل . وقيل إن السلطان

سليم أرسل معه مكاتبة للسلطان الغورى وصفه فيها بصفات عظيمة مبالغا فى تعظيمه مظهرا فى ثنايا ذلك ماعليه جنده هو من شدة وبأس . ولم يبال السلطان بذلك .

وقد أرسله السلطان مرة أخرى فى شوال عام ٩٢٠ ه إلى حلب ليعمل على تهدئة فتنة المماليك الثائرين بها . ولكى يكشف الأخبار عن أعمال العثمانيين . وقد عاد من إحدى رحلاته إلى حلب فى ربيع الثانى عام ٩٢٢ ه فأخبر أن السلطان سليم أهدى إليه هدايا وأنه يرغب فى المصالحة وأنه بعث من لدنه سفيرا وهو مقيم بحلب لدى نائبها وقد منعه من المسير .

«جزء ٤ فى التواريخ المذكورة ، وجزء ٣ ص ٣٠»

٢١ ـ جانم الخاصكى : أصله من مماليك قايتباى . ومن ذوى العقول الراجحة. أرسله الغورى فى المحرم عام ٩٢١ ه إلى السلطان سليم ومعه مكاتبة يرد على مكاتبة وردت إليه منه مع قاصد خاص ، وهى خاصة بالمشاحنة القائمة إذ ذاك بين على دولات نائب حلب وابن أخيه سوار ـ : وقد سافر فى ٢٥ صفر عام ٩٢١ ه . وعاد فى جمادى الأولى عام ٩٢١ ه وأخبر أن السلطان سليما أكرمه . ولكن ذلك بعد أن أوقع عسكره بعسكر على دولات بحلب ـ وقيل إن السلطان أرسله مرة أخرى إلى ملك التتار لمسائل تخص أقارب السلطان ـ قيل فر على بلاد العثمانيين فقبضوا عليه وسلبوا ما معه من الهدايا وهموا بشنقه ثم أطلقوا سراحه . فعاد إلى القاهرة فى ١٦ شعبان عام ٩٢١ ه وأخبر السلطان بضخامة عسكر ملك الروم السلطان سليم ، وأنه يجهز جنودا برية فى جهة حلب للزحف بها على مصر ، وأنه أعد ٤٠٠ مركب للهجوم على الإسكندرية ودمياط فاضطرب السلطان بسبب أخباره . «جزء ٤ حوادث التواريخ المذكورة»

٢٢ ـ الأمير مغلباى دوادار سكين : لعل هذا الأمير آخر سفراء الغورى إلى السلطان سليم ، فقد أرسله إليه عام ٩٢٢ ه ومعه مكاتبة خاصة بالصلح المقترح بينهما. وكان الغورى إذ ذاك قد خرج إلى الشام وحلب لملاقاة العثمانيين . فبعث السلطان سليم إليه وهو فى حلب وفدا من قبله يقترح عليه الصلح وعدم دخوله فى النزاع

القائم بين السلطان سليم والشاه إسماعيل الصفوى ، وأظهر الوفد الخضوع واللطف للسلطان الغورى ، وكان هذا من قبيل الخداع والتثبيط . فكان رد الغورى أن أوفد رسوله مغلباى إلى السلطان سليم مقترحا الصلح منخدعا بما اقترحه عليه وفد العثمانيين — فما كان من السلطان سليم إلا أن قبض على الأمير مغلباى وقيده بالحديد وآذاه ، وهم بشنقه — وكان الغورى إذ ذاك قد أطلق وفد السلطان سليم ولم يستبقه لديه حتى يعود رسوله — ثم شفع فيه بعض وزراء السلطان سليم ، فلم يعدم وحلقت لحيته ، وظل مهانا لديه ثم أطلقه ذليلا إلى سلطانه قائلا له : « قل لأستاذك : يلاقينا على مرج دابق » . « ج ٣ ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ » .

ب — من سفراء الدول إلى مصر

١ — فى عام ٦٥٨ هـ كان جند التتار بقيادة ملكهم هولاكو قد بلغوا أطراف دمشق ونهبوا وقتلوا بعد أن أوقعوا من قبل بمدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ — فلما بلغوا أطراف دمشق أرسلوا من قبلهم أمير اسمه « كتبغا فويزبك » رسولا من هولاكو إلى سلطان مصر المظفر قطز . ومعه رسالة تطلب إليه وإلى أهل مصر قاطبة الخضوع والتسليم لملك التتار ذاكرا ما عليه جنده من قوة ، وما عليه المصريون من ضعف — وكان مع الأمير كتبغا المذكور أربعة أمراء سواه . فتشاور السلطان قطز مع أمرائه ، فأجمعوا على قتال هولاكو . ثم أمر السلطان المظفر بإعدام كتبغا ومن معه . وسار لقتال هولاكو . فتلاقى الفريقان بعين جالوت فى أرض كنعان وكسروا التتار كسرة شنيعة فى عام ٦٥٨ هـ . ثم هزموه مرة أخرى فى بيسان فى العام نفسه . « جزء ١ ص ٩٦ ، ٩٧ » .

٢ — فى عام ٧١٢ هـ حضر إلى القاهرة رسل صاحب اليمن ومعهم هدايا نفيسة فقبلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون . « جزء ١ ص ١٥٧ » .

٣ — فى عام ٧٨٨ هـ : حضر إلى الأبواب الشريفة — فى عهد برقوق — قاصد

صاحب ماردين وأخبر بأن خارجيا من التتار الجغطاوية يقال له تمرلنك اقد استولى على البلاد وقد وصلت طلائع جنده إلى مدينة تبريز وخربها وقتل من أهلها آلافا مؤلفة ـ وهو يعنى تيمورلنك التترى ـ وأن القان أحمد بن أويس انتقل إلى بغداد وحصنها وأخذ حذره من تيمورلنك . « ج ١ س ٢٦٤ » .

٤ ــ فى عام ٧٨٨ هـ أيضا حضر إلى القاهرة رسول من قبل القان أحمد بن أويس صاحب بغداد مخبرا عن سلطان التتر تيمورلنك أنه قد بلغ مدينة قرباغ ونهبها وسبى أهلها وطلب إلى السلطان برقوق أن يعد العدة ويأخذ حذره .

« جزء ١ س ٢٦٥ »

٥ ــ فى عام ٧٩٥ هـ وفد على السلطان برقوق رسول من قبل صاحب ماردين يدعى صفى الدين جوهرا وهو طواشى رومى . يخبره أن تيمورلنك قد ملك تبريز . ثم حضر بعده بقليل رسول آخر من قبل صاحب بسطام وأخبره أن تيمورلنك قد ملك شيراز .

ثم وفد بعده رسول من نائب الرحبة مخبرا أن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد وصل إلى الرحبة هاربا من بطش تيمورلنك الذى قد صادر أملاكه ونهب معظم بلاده بعد أن خدعه بمعسول الكلام وأوفد إليه من يقول له إنه يرغب فى زواج ابنته . ففرح وثنى عزمه عن قتاله . وسرح جنوده الذين جمعهم لذلك . وكانت هذه خدعة من تيمورلنك جازت على القان أحمد بن أويس . فما لبث حتى أطبق عليه تيمورلنك بخيله ورجاله فترك له البلاد وفر . ودخلت بغداد فى طاعة تيمور .

وبعد قليل وفد نائب حلب مخبرا أن القان أحمد بن أويس قد بلغ حلب وأنه وافد على مصر . فاستعد السلطان للقائه وبعث إليه بالهدايا والمساعدات من مال وقماش وخيل وأمراء .

ثم جاء رسول من ملك العثمانيين ومعه هدايا نفيسة وقد جاء محذرا للسلطان

من بطش تيمورلنك ويطلب إليه الاستعداد والاحتياط والحذر . وطلب من السلطان أن يرسل طبيبا حاذقا وضروبا من العلاج والدواء لمداواة الملك إذ كان يشكو ألما فى المفاصل ، ويظهر أنه كان مريضا بالنقرس ، فأرسل إليه السلطان الطبيب الرئيس شمس الدين بن صغير ومعه الأدوية والهدايا ومن هنا نعلم مقدار ما كانت عليه مصر من عظمة الجاه والعلم والفن إذ ذاك .

ثم وفد رسول من عند صاحب ماردين مخبرا أن تيمولنك قد ملك بلاد الأكراد وأنه بعث إلى البصرة أستاذه الملك محمود شاه لمحاصرتها وكان معه ابن تيمور ، فوقع بين العسكريين موقعة هائلة هزم فيها التتار وقتل الشاه محمود وأسر ابن تيمور . فطلب تيمور من صاحب البصرة إطلاق سراح ابنه فلم يعبأ به وطلب إليه أن يطلق سراح أسرى البغداديين وابن القان أحمد صاحب بغداد فرفض تيمور وتوجه لغزو البصرة فأعجزه فصل الشتاء على بلوغ غايته .

« جزء ١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ »

٦ — وفى عام ٧٩٩ هـ حضر إلى السلطان برقوق رسول من تيمورلنك يطلب إليه إطلاق سراح أحد الأسرى المسمى « أطلمش » فرفض السلطان حتى يطلق تيمور ما لديه من أسراه . « ج ١ ص ٣٠٦ » .

٧ — وفى عام ٨٠٣ هـ وفد فى يوم الاثنين ٢٣ ذى الحجة رسول من قبل ملك العثمانيين صاحب بلاد الروم وهو بايزيد بن مراد بك. وفد إلى سلطان مصر فرج ابن برقوق ومعه هدايا للسلطان وللأمراء . وقد جاء محذرا من تيمورلنك مخبرا بأنه جمع عددا كبيرا من الجند الذى يخشى بأسه ويخاف قوته على مصر .

« ج ١ ص ٣٣٩ »

٨ — فى عام ٨٣٦ هـ جاءت رسل إلى سلطان مصر الأشرف برسباى من قبل قرا ملك . فصعدوا إلى القلعة وقدموا إليه هدايا ملكهم وفى عدادها مرآة مذهبة وخروف بأليتين وخلعة للسلطان من الحرير المذهب ، فاستهان السلطان بهذه الهديا، وفهم منها معانى أخرى مؤداها استهزاء قرا ملك بالسلطان . إذ فهم أنه يرمى من

إهداء المرآة أن جنود السلطان كالنساء ينظرون فى المرآة ، ومن إهداء الخروف أنهم أمامه كالنعاج ، ومن إهداء الخلعة أن السلطان من جملة نوابه . ـ ولهذا عامل السلطان رسل قرا ملك معاملة سيئة وتهكم بهم وأرجعهم إلى ملكهم ليبلغوه أن يلاقيه على الفرات . أخذ السلطان بعد ذلك فى إعداد العدة للقائه . وقد توجه فعلا إلى الديار الشامية فالحلبية فديار بكر وحاصر مدينة آمد ثم عاد بلا كثير طائل .
« ج ٢ ص ١٩ »

٩ ـ فى عام ٨٥٧ هـ وصل القاهرة فى شهر شوال رسول من لدن ملك بلاد الروم وهو سلطان العثمانيين محمد الفاتح ينبىء السلطان الأشرف إينال بفتح القسطنطينية . وقد زينت القاهرة وعم أهلها الفرح لهذه البشرى . وعاد الرسول ومعه رسول آخر من لدن السلطان ليقدم التهنئة بهذا الفتح العظيم . وهذا الرسول هو الأمير برسباى أمير أخور الذى ذكر فى سفراء مصر . « ج ٢ ص ٤٤ »

١٠ ـ وفى جمادى الأولى عام ٨٦٠ هـ جاء الخواجا جمال الدين عبدالله القابونى رسولا من لدن ملك بنى عثمان محمد الفاتح ومعه رسالة إلى السلطان إينال تتضمن ما تم له فتحه من البلاد فنال من سلطان مصر ما يليق به من إكرام وعاد ومعه رسول آخر هو قانى باى اليوسفى المهمندار ومعه هدايا إلى السلطان إلى محمد الفاتح . وقد سافرا فى شعبان . « ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ »

١١ ـ وفى ذى الحجة عام ٨٦٠ هـ وفد إلى مصر قاصد جهان شاه ومعه هدايا نفيسه للسلطان إينال . وفى يده رساله يشكو فيها الشاه إلى السلطان من حسن الطويل ملك العراقين ويشرح جوره عليه وأنه زحف على بلاده فرد السلطان بمكاتبة أخرى عليه . « ج ٢ ص ٥٦ »

١٢ ـ وفى شهر المحرم عام ٨٧٣ هـ جاء رسول من عند حسن الطويل ملك العراقين ومعه رسالة للسلطان الأشرف قايتباى يهنئه فيها بالملك وبصحبته هدايا قيمة وعاد بعد مدة . « ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠٢ »

١٣ ـ وفى شهر رجب عام ٨٧٢ هـ وفد رسول آخر من قبل حسن الطويل

ملك العراقين ومعه هدية قيمة للسلطان الأشرف قايتباى وفى صحبته رسالة ضمنها ما أفاء الله عليه من قلاع وحصون . وفيها يتملق السلطان ويتودد إليه ويظهر خضوعه كأنه نائب عن السلطان فى بلاده . فأكرم السلطان وفادته وأذن له بالسفر وكان هذا خداعا من حسن الطويل لأنه أظهر غير ما أبطن . « ج ٢ ص ١٠٦ »

١٤ ـ فى شهر رمضان عام ٨٧٤ هـ وفد إلى السلطان قايتباى رسول من لدن «سوار» ملك الأبلستين ليعرض عليه الصلح ـ وكانت العلاقات قد فسدت بينهما ـ وكان مع القاصد هدية ومكاتبة مضمنة شروط الصلح ـ ومن بينها أن يكتب السلطان تقليدا له بإمارة الأبلستين وأن ينعم عليه بتقدمه ألف بحلب . وإن رضى السلطان بذلك يسلم سوار مدينة « عينتاب » إلى السلطان ، ـ وقد رفض السلطان هذه الشروط وطال بينه وبين الرسول أمد المفاوضة دون طائل . وعاد الرسول دون جدوى . « ج ٢ ص ١١٧ » .

١٥ ـ فى شهر المحرم عام ٨٧٥ هـ وفد رسول من لدن حسن بك الطويل ملك العراقين ومعه مكاتبة يذكر فيها أنه قتل عددا من أولاد تيمور لنك وملك بلادهم . «ج ٢ ص ١٢٢» :

١٦ ـ وفى شهر المحرم عام ٨٧٥ هـ أيضا جاء رسول من لدن ملك بنى عثمان يخبر السلطان بما فتح من بلاد الفرنجة « البنادقة » . « ج ٢ ص ١٢٢ »

١٧ ـ فى شهر جمادى الآخرة من عام ٨٧٦ هـ قدم قاصد من لدن صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين ومعه هديه من الملك إلى السلطان قايتباى ، وهدية إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف . وأرسل يطلب من الخليفة أن يكتب له تقليدا بولايته على إقليم الهند عوضا عمن كان قبله من ملوكها . فأكرم السلطان وفادته وأهدى إلى الرسول خلعة . وكتب له الخليفة التقليد المطلوب . « ج ٢ ص ١٣١ »

١٨ ـ وفى ذى القعدة عام ٨٧٦ هـ جاء رسول من لدن حسن الطويل ومعه مكاتبة تضمنت أمورا لم ينشرح لها السلطان . « ج ٢ ص ١٣٤ » .

١٩ ـ وفى ذى القعدة عام ٨٧٧ هـ جاء رسول من لدن ملك بنى عثمان ـ وقد

وفد من ناحية البحر ـ فأكرمه السلطان . وعرض على السلطان مكاتبة أرسلها حسن الطويل إلى ملوك الإفرنج يحرضهم على سلطان مصر وملك بنى عثمان . ليهجموا عليهما من البحر ، وهو ـ أى حسن الطويل ـ يهجم من البر . ـ وقد ضبطت هذه المكاتبة مع رسول حسن بك الطويل الذى قبض عليه فى أثناء سفره إلى بلاد الفرنجة بحرا . ـ ثم إن الرسول أقام ردحا من الزمن مكرما ثم خلع عليه السلطان خلعة وأذن له فى السفر . «ج ٢ ص ١٤٥».

٢٠ ـ فى المحرم عام ٨٧٩ هـ قدم رسول من حسن الطويل ملك العراقين ومعه رسالة إلى السلطان قايتباى يعتذر فيها عما صدر منه . فأكرمه السلطان وعفا عما سلف ، وكانت المنازعات مستمرة فيما بينهما ـ . «ج ٢ ص ١٥٠» .

٢١ ـ وفى ربيع الثانى عام ٨٧٩ هـ وفد على السلطان قايتباى مبعوث من قبل ملك العثمانيين ومعه رسالة من ملكه يشفع فى « إينال الحكيم » وكان السلطان قد غضب عليه ففر إلى بلاد الروم فقبل السلطان شفاعته وأكرم وفادته وخلع عليه خلعة وأقام بمصر زمنا ثم عاد إلى بلاده . «ج ٢ ص ١٥١» .

٢٢ ـ وفى شهر جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ وفد إلى السلطان قايتباى رسول من ملك الهند ومعه هدية إليه ومن بينها سبع عظيم الخلقة وخيمة كبيرة نفيسة غريبة الصنع . فأكرمه السلطان . «ج ٢ ص ١٥٢، ١٥٣» .

٢٣ ـ فى صفر ٨٠٢ هـ وفد رسول من لدن ملك بنى عثمان ومعه رسالة إلى السلطان قايتباى فأكرمه ورد على رسالته وسافر إلى بلاده بعد أيام .
«ج ٢ ص ١٢٧

٢٤ ـ فى شعبان عام ٨٨٤ هـ حضر قاصد من عند بعض ملوك الهند صحبة ابى الفتح نائب جدة ومعه هدية نفيسة للسلطان . «ج ٢ ص ١٩٠».

٢٥ ـ وفى المحرم عام ٨٨٦ هـ وفد قاصد من ملك الحبشة فأقام له السلطان قايتباى موكبا بالحوش واستقبله استقبالا حافلا وأكرمه . وسبب وفادته أنه جاء يطلب إلى بطرك القبط أن يولى عنه نائبا فى بلاده . «ج٢ ص٢٠٤» .

٢٦ ـ وفى رمضان عام ٨٨٦ هـ جاء موفد من لدن يعقوب بن حسن الطويل

ملك العراق ، ومعه مكاتبة إلى السلطان قايتباى يعتذر فيها عما وقع من بابندر - وهو أحد نوابه ، وكان قد آذى جنود السلطان وقتل بعض أمرائه ومنهم الأمير يشبك - فعتب السلطان على الرسول تسرع بابندر بما قام به من الأعمال . ثم ظل الرسول زمنا بمصر وعاد إلى بلاده مكرما . « ج ٢ ص ٢١٠ » .

٢٧ - فى شهر ذى القعدة عام ٨٩٢ ھ جاء قاصد من ملك الغرب صاحب الأندلس ومعه مكاتبة يطلب فيها إلى السلطان قايتباى معونة عسكرية لمساعدته فى قتال الفرنجة الذين حاصروه وحاصروا مدينته غرناطة وأشرفوا على امتلاكها - وصاحب غرناطة هذا هو أبو عبد الله آخر ملوكها من بنى الأحمر[1] .

وقد رأى السلطان أن يعاونه عن طريق آخر وذلك أنه بعث إلى القسوس الفرنجة المقيمين بجهة القمامة بالقدس - وهى تابعة لمصر وهم يعتبرون من رعاياها - أن يرسلوا رسالة على يد قسيس منهم ومن كبارهم إلى ملك نابلى ليراسل بدوره صاحب أشبيلية ، وهو الذى يحاصر مدينة غرناطة ، ليفك عنها الحصار ، وإلا أساء السلطان معاملتهم - أى معاملة القسس الفرنجة المقيمين فى بلاده - ويمنع جميع طوائف الفرنجة من الدخول إلى القمامة ويهدمها .

وقد تم إرسال هذه المكاتبات كلها ولكنها لم تفد شيئاً وملك الفرنج مدينة غرناطة . « ج ٢ ص ٢٤٦ » .

٢٨ - فى شهر رجب عام ٨٩٣ھ وصل إلى مصر قاصد ملك الفرنج الانكيروس من بنى الأصفر وصحبته هدية حافلة للسلطان فأكرمه وأنزله فى مكان أعده له .

« ج ٢ ص ٢٥٢ »

٢٩ - فى جمادى الآخرة عام ٧٩٤ھ . قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن

---

(١) ذكر الأستاذ عبد الله عنان فى كتابه مصر الإسلامية هذه الوفادة فى الفصل السابع من الكتاب الثانى ، وحققها ، وخلص بأن صاحب الأندلس هو الزغل ملك وادى آش . لا أبو عبد الله ملك غرناطة - ص ١٣٨ .

عثمان يشير على السلطان بأن يبعث قاصدا إلى ملك بنى عثمان للمفاوضة فى الصلح بينهما ـ وكانت المنازعات قد بدأت بين الطرفين ـ فأجاب السلطان بأنه إذا أطلق تجار المماليك الذين أسرهم لديه ، وبعث مفاتيح القلاع التى أخذها يكاتبه فى أمر الصالح ، ويبعث إليه بمن ينوب عنه فى مفاوضته . «ج ٢ ص ٢٦٠» .

٣٠ ـ وفى جمادى الآخرة عام ٨٩٦هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك العثمانيين فى صحبة ماماى الخاصكى الذى أوفده السلطان إليه منذ أمد ، وكان هذا القاصد من أجل قضاة ابن عثمان تولى القضاة بمدينة بروسة ، وهو من أهل العلم ويدعى «الشيخ على جلبى» . فصعد إلى السلطان بالقلعة فأكرمه وبالغ فى تعظيمه جدا . وأحضر معه مفاتيح القلاع التى استولى عليها ملكه فسلمها إلى السلطان ، وكلمه فى المصالحة . «ج ٢ ص ٢٧٠» .

٣١ ـ فى رجب عام ٨٩٨ هـ جاء رسول من عند رستم بن قرا ملك صاحب العراقين . «ج ٢ ص ٢٧٩» .

٣٢ ـ فى جمادى الأولى عام ٩٠٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد ابن عثمان ملك الروم وصحبته هدية حافلة للسلطان الأشرف الغورى . فأقام له السلطان موكبا عظيما بالحوش وكان يوما مشهودا .

وفى جمادى الآخرة دعا السلطان هذا القاصد فى الميدان تحت القلعة حيث أقيمت حفلة رمى النشاب من فوق الخيل وقام بذلك عدة من المماليك . ونصب لهم هناك القبق [1] يرمون عليه ، وأحرق النفط بالنهار وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الثلاثاء ١١ من رجب أقام الأمير أزدمر الدوادار مأدبة حافلة لهذا القاصد فى جهة قناطر العشرة . وكان الزمن ربيعا . ولبثا مدة ثم عادا . ـ ثم أقام

---

(١) القبق : لعبة كانت معروفة حينذاك . وهى عمود طويل من الخشب ، فى رأسه هدف من ذهب أو فضة على شكل قرعة عسلية ـ كرة ـ بها حمام . يتبارى اللاعبون بقذفها وهم فوق الجياد «السلوك ج ٢ ص ٥١٨ ـ هامش» .

السلطان حفلة أخرى فى ميدان القلعة حضرها القاصد ، ثم خلع عليه خلعة وأذن له فى السفر . «ج س ٤٦ ، ٤٧».

٣٣ - وفى ذى القعدة عام ٩١٢ هـ وفد رسول ملك الروم ابن عثمان فأكرمه السلطان وأحسن إليه . «ج ٤ س ١٠٧» .

٣٤ - وفد فى رمضان عام ٩١٤ هـ رسول من عند مراد خان بن يعقوب صاحب بغداد ، يستمد المعونة من سلطان مصر الغورى لسيده . وذلك لأن الشاه إسماعيل بن حيدر الصوفى المتغلب على ملك العراق طغى على بلاده وسلب منه بغداد. فأكرمه السلطان ولبث فى رحابه زمنا ، غير أنه لم يجب طلبه . ورجع فى ذى القعدة عام ٩١٤ هـ . «جزء ٤ فى التواريخ المذكورة» .

٣٥ - فى ذى القعدة عام ٩١٤هـ وفد رسول من لدن صاحب قبرص ومعه هدايا للسلطان قيمة فأكرمه ورحب به . «ج٤ فى حوادث ذى القعدة المذكور» .

٣٦ - فى يوم السبت ١٦ ذى القعدة عام ٩١٦ هـ وصل إلى القاهرة رسول من لدن ملك الروم ابن عثمان إلى السلطان الغورى ومعه مكاتبة . فلما ناولها للسلطان قبلها ووضعها على عينيه ، ثم ناولها إلى كاتب السر فقرأها بحضرة السلطان والأمراء، وكانت ألفاظها منمقة مزوقة بضروب من البديع ونعت السلطان فيها نعتا رفيعا . وكان من مضمونها أنه بعث إلى السلطان عدة مراكب فيها زردخاناه ، فما يدرى هل وصلت إلى السلطان أم لا . وأخبر فيها أن الرئيس كالا المجاهد قد غرق ولا يعلم له خبر . فأقام القاصد بمصر أياما قلائل ، وكتب له الجواب عن مكاتبته وأذن له فى السفر إلى بلاده . «جزء ٤ فى حوادث ذى القعدة المذكور» .

٣٧ - وفى صفر عام ٩١٦ هـ جاء إلى مصر رسول من قبل الملك محمود شاه صاحب كنباية ومن قبل بعض ملوك الهند ، يستحثون سلطان مصر الغورى لإرسال حملة لتأديب الفرنجة العابثين فى المحيط الهندى الذين أوشكوا يستولون على البلاد. فأرسل السلطان رسوله بشير الطواشى إلى ناحية اليمن لتدبير هذا الأمر . وقد عاد

بشير المذكور فى المحرم سنة ٩١٧ هـ. « ج٤ فى حوادث الشهرين المذكورين ».

٣٨ ـ فى يوم السبت ١٨ ربيع الأول سنة ٩١٧ هـ دخل إلى مصر قاصد إسماعيل شاه الصوفى . فأنزل فى بيت قانى باى سلق الذى يقع فى رأس الرملة عند سوق الجلاق . فاستقر هناك إلى أن يؤذن له بمقابلة السلطان . وفى يوم قدومه رسم السلطان لبعض الأمراء والجند بالخروج إلى المطرية للقائه . فخرجوا وخرج الجم الغفير من العسكر حتى ضاق بهم رحب الفضاء .

قال ابن إياس : « ولكن وقع من السلطان فى ذلك غاية الخفة وهو أنه نزل وسار إلى نحو المطرية ليرى القاصد والعسكر عن بعد . فانعقد الغبار هناك فلم يتمكن السلطان من رؤية القاصد ولا العسكر فرجع إلى القلعة » .

وفى ٢٠ منه أقام السلطان موكبا بالحوش وجلس على المصطبة وحفت به الأمراء والجنود وهم بآلات الحرب والسلاح . ثم أذن للقاصد بالطلوع إلى القلعة، فلما مثل بين يدى السلطان قبل الأرض ثم رجل السلطان ، ثم قرئت مكاتبته بين يديه ، ثم قدم إليه مصحفا شريفا وسجادة صلاة . فقبل السلطان المصحف ، ثم أحضر القاصد صندوقا لطيفا ففتح بين يدى السلطان فوجد به رأس شخص من ملوك التتار يسمى «أزبك خان» وهو الذى قتله الصوفى ، فرسم السلطان بدفنه. ثم أحضر القاصد قوسا عريضة عرضها شبر ، فكسرها أحد الزردكاشية بعد نزول القاصد ـ ثم نزل القاصد بعد هذا الموكب والمجلس العظيم .

وفى يوم ٢٨ منه دعا السلطان هذا القاصد إلى ميدان القلعة وشاهد ضرب الكرة إذ اشترك السلطان هو والأمراء المقدمون فيه ، ثم خلع عليه السلطان سلاريا من الصوف .

وقد كان السلطان حذرا فى معاملة هذا القاصد ، إذ وكل به وبمن معه جماعة من الخاصكية تمنع وصول الناس إليهم وحرم عليهم المشى فى الأسواق . وكان القاصد مع ذلك يتردد على حفلات السلطان بين الفينة والفينة .

ثم أذن له السلطان فى العودة إلى بلاده يوم الجمعة ٦ جمادى الأولى عام ٩١٧هـ. ولم يعلم بماذا أجابه السلطان على جواب البيتين اللذين قيل إن مولاه اسماعيل شاه أرسلهما إليه وهما :

السيف والخنجر ريحاننا　　أف على النرجس والآس
مدامنا من دم أعدائنا　　وكأسنا جمجمة الراس

مع العلم بأن نحوا من مائتى شاعر من شعراء مصر عارضوا هذين البيتين بمقطوعات طريفة(١) .　«ج ٤ فى التواريخ المذكورة»

٣٩ – فى يوم الخميس ١٩ جمادى الأولى عام ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من ملك الكرج ، فأكرمه السلطان وقرأ مطالعته وأقام له موكبا بحوش القلعة وجلس على المصطبة التى أنشأها عوضا عن الدكة .

«ج فى حوادث جمادى المذكورة»

٤٠ – فى يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة عام ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد على دولات ومعه هدايا «انظر وصفها فى باب الهدايا من هذا الجزء من كتابنا» . – وقد أكرمه السلطان ودعاه إليه مرارا فى الميدان . وألبسه سلاريا بصمور من ملابسه ، وأذن له فى السفر فى ٤ المحرم عام ٩١٨ هـ .

«ج ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة»

٤١ – فى يوم الاثنين ١١ المحرم عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قصاد من عند ملوك الفرنجة الفرنسيين وكانوا من رؤساء الفرنجة ، فبعث إليهم السلطان خيولا يركبونها من بولاق إلى القلعة ، ثم أقام لهم موكبا حافلا بالحوش بالقاعة ، وزين باب الزردخاناه وغيره بالصناجق واللبوس وآلات السلاح .

وكان القصاد نحو خمسين رجلا وقد بدأوا فى أحسن زينة وأفخر لباس ، ومن بينهم اثنان برزا أجمل من سواهما بثياب مخملة كفورية وفى رقبتيهما سلاسل من

---

(١) راجع هذه الأبيات فى الجزء الرابع من كتابنا هذا .

ذهب . فلما مثلوا بين يدى السلطان أبدوا عظمة ، ثم قبلوا له الأرض ، وقرئت كتبهم ثم انصرفوا ، ونزلوا فى بيت كاتب السر أبى بكر بن مزهر ببركة الرطلى وفى صحبتهم نائب المهمندار . وساروا فى وسط القاهرة وكان يومهم مشهودا . . وقد قدموا إلى السلطان هدايا حافلة . «وتجد وصفها فى باب ذكر الهدايا من هذا الجزء» . « ج ٤ فى حوادث التاريخ المذكور »

٤٢ ـ فى الاثنين ٢٣ صفر عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصدملك البنادقة فكان له يوم مشهود . وأقيم له موكب شائق . وزين لأجله باب الزردخاناه باللبوس والسلاح . ثم صعد القاصد وفى صحبته هدية حافلة « انظر باب الهدايا » . وكان راكبا فرسا وأمامه سبعة من أخصائه يركبون الخيول مثله . وبقية حاشيته مشاة ، وعدد الجميع نحو رجلا . وكان القاصد مسنا ذا ذقن بيضاء ، وهو بدين يبدو عليه الوقار ، وعليه خلعة مذهبة من الحرير الأصفر .

فتلقاهم السلطان بالقلعة ثم غادروها إلى مكان أعد لإقامتهم . وأشيع أن القاصد جاء يسعى لدى السلطان فى أن يأمر بفتح القمامة بالقدس الشريف . وكان السلطان قد أغلق بابها ومنع الفرنجة من الدخول إليها بسبب ما تقدم منهم ـ وقد سافر القاصد فى ٢٦ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ .

« ج ٤ التاريخ المذكور »

٤٣ ـ فى ١٢ ربيع الثانى سنة ٩١٨هـ رجع تمرباى الهندى رسول السلطان إلى الشاه إسماعيل وكان غير مكرم منه . وكان فى صحبته قاصدان : أحدهما قاصد من الشاه إسماعيل ، والثانى من ملك الكرج . فأمر السلطان الزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يلاقيهما ويقيم لهما الموائد . فصدع بالأمر ومد لهما بالخانكة . وكان مع قاصد إسماعيل شاه نحو مائة رجل ، وقيل كان فظا شديد البأس . ونزل فى بيت قانى باى سلق فى رأس الرملة عند سويقة عبد المنعم .

وفى يوم ١٤ منه صعد هذا القاصد إلى السلطان بالقلعة فى موكب حافل بالحوش ،

فجلس السلطان إلى المصطبة و نصب السحابة الزركش ، وحوله الأمراء المقدمون وعديد من الجنود ، وزين باب الزردخاناه بالأسلحة والأعلام. وقد خرج القاصد إلى السلطان من بيت قانى باى سلق وفى صحبته أزدمر المهمندار والأمير كرتباى والى القاهرة . ثم مثل بين يدى السلطان وقدم إليه هدايا حافلة فكانت نحوا من أربعين حمالا ، ومنها من الفهود سبعة – وكانوا تسعة فمات اثنان — وقد شقت طريقها فى القاهرة وعليها جلال من الحرير. ومن بينها هدايا كثيرة أخرى. «انظر باب الهدايا» .

ومثل القاصد بين يدى السلطان ومعه رجل آخر وكلاهما من أعيان الأمراء لدى الشاه إسماعيل الصوفى . فقبلا الأرض ثم ركبة السلطان ثم قدما إليه مكاتبة مولاهما فقرئت فوجد فيها ألفاظ جافة نابية وكلام فج فلم يرتح السلطان إليه وبدا الغضب على وجهه فكظمه . ثم نزل هذا القاصد من لدنه .

وفى عقبه صعد قاصد ملك الكرج ومعه هدية حافلة بأثواب ثمنية وأقمشة غالية. وقد سافر هذا القاصد فى ٢٦ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ وقيل فى ١٠ جمادى الأولى .

أما قاصد الشاه إسماعيل فلبث مدة بمصر يحضر مع السلطان حفلات عدة . وقد رد السلطان جواب سيده بكلام يابس مثله . وكان ذلك بدءا للوحشة بين العاهلين . «ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة»

٤٤ – فى يوم الأثنين ٢٨ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ حضر قاصد ابن رمضان أمير التركمان ومعه هدية للسلطان حافلة . «ج ٤ فى حوادث اليوم المذكورة»

٤٥ – قال ابن إياس ماملخصه : « فى شهر ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ أنه من العجائب أن اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا . كل قاصد من لدن ملك على انفراده . ومنهم : ١ – قاصد الشاه إسماعيل الصوفى ، ٢ – قاصد ملك الكرج ، ٣ – قاصد ابن رمضان أمير التركمان ، ٤ – قاصد من لدن ابن عثمان ،

٥ ـ قاصد من عند يوسف الصوفى أحد أمراء التركمان ، ٦ ـ قاصد من عند صاحب تونس ملك الغرب ، ٧ ـ قاصد من مكة ، ٨ ـ قاصد من عند الملك محمود ، ٩ ـ قاصد ابن ذرغل من أمراء التركمان ١٠ ـ قاصد نائب حلب ، ١١ ـ قاصد من ملك الفرنج « الفرانسة » . ـ وغير هؤلاء . « ج ٤ فى التاريخ المذكور »

٤٦ ـ فى الخميس ٢ رمضان عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك الهند وصحبته فيلان عظيمان فى الخلقة وعليهما « بركستوانات [1] محلة بمسامير كفت » وعلى ظهرهما صناجق وعلى أنيابهما غلوف من الفولاذ ، فرجت لها القاهرة . ولما دخلوا على السلطان عرضا عليه فى الميدان وأمامهما الطبل والزمر . « ج فى التاريخ المذكور »

٤٧ ـ فى أواخر رمضان عام ٩١٨ هـ حضر الأمير حسين الذى وجهه السلطان إلى بلاد الهند لرد عبث الفرنجة فلق الشدائد . وعاد بعد سبع سنوات تقريبا . وكان معه قاصد من قبل الملك المظفر شاه بن الملك محمودشاه صاحب كنباية الذى توفى . وقد حضر قاصد المظفر ليكتب الخليفة تقليدا لمولاه بولايته . فخلع عليه السلطان وأكرمه . « ج ٤ فى التاريخ المذكور »

٤٨ ـ فى ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٠ هـ حضر رسول من لدن سليم شاه بن عثمان ملك الروم . وكان السلطان بالميدان . فلما قرئت عليه مكاتبته أشيع بين الناس أن السلطان سليما يرغب فى قتال إسماعيل الصوفى ملك العراقين . فبعث يخبر السلطان بذلك حتى يكون عونا له ضد الصوفى . ـ وقد أذن السلطان الغورى لهذا القاصد فى السفر يوم ٢٢ ربيع الثانى من العام المذكور ، فعاد ومعه إينال باى دواذار سكين قاصدا إلى سليم الأول ليتجسس الأخبار « انظره فى باب القصاد » . « جزء ٤ فى التواريخ المذكورة »

٤٩ ـ فى ٢٧ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ وفد رسول من عند السلطان سليم

(١) البركستوانات : السروج .

الأول . وهو أحد الأمراء الأجلاء لديه . فنزل فى بيت الظاهر تمربغا جهة سوق السلاح ثم قابل السلطان فى مستهل جمادى الآخرة عام ٩٢٠ﻫ فأوكب له بالحوش وجلس على المصطبة ونصب على رأسه السحابة الزركشية ، وزين له باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق ، واصطفت الأمراء والعسكر بالحوش من غير شاش ولا قماش . ثم طلع القاصد ومعه أزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب، فقدم هدية نفيسة إلى السلطان « انظرها فى باب الهدايا » . وكان جميل الهيئة ومعه جماعة من العثمانيين ذوو هيئات جميلة ، فأكرمهم السلطان وقرأ مطالعتهم وانفض الموكب وكان يوما مشهودا .

وفى اليوم الثانى استدعاه السلطان وجلس معه فى قصر المقياس ومد له هناك أسمطة حافلة .

وفى ١٢ جمادى الآخرة عام ٩٢٠ ﻫ ، وفد قاصد آخر من لدن السلطان سليم ، فلما وصل إلى الصالحية سرقت منه أقمشة فى طياتها مكاتبة إلى السلطان . فغضب الغورى لذلك وأرسل إلى شيخ العرب بتلك الجهة أحمد بن بقر ، وشدد عليه فى البحث عنها فبحث حتى وجدها وردت إلى صاحبها .

أما القاصد الأول فقد لبث مقيما فى مصر مكرما لدى السلطان . وأقيمت له حفلة فى ٦ رجب عام ٩٢٠ ﻫ ولعب الرماحة أمامه بما أعجبه وملأه دهشة . وقد قصد السلطان من إقامتها أن يريه ما عليه جند مصر من قوة ومهارة وفروسية :

وبعد أن أذن له فى السفر عاد فاستمهله وعاقه عنه ، حتى يئوب رسول السلطان إينال، لأن الأخبار كانت تتوالى باشتباك السلطان سليم مع الشاه إسماعيل الصفوى .

ومن الغريب أن القاصد الثانى عرض على القاصد الأول ـ إذ أنهما من جهة واحدة ووفدا فى زمنين متقاربين ـ فأنكره ولم يعترف به ! فما كان من السلطان إلا أن خلع عليه وأنعم بمال ، فسافر وهو ورفيق له فاختلفا فى الطريق على اقتسام المال ، فما كان من رفيقه إلا أن عاد إلى السلطان وأعلمه أن هذا القاصد جاسوس من قبل حسن بن احمد بك العثمانى الذى فر من وجه السلطان سليم إلى إسماعيل الصوفى،

وأنه جاء إلى مصر ليتسمع الأخبار . فرسم السلطان برده ، فقبض عليه وسجن بالمقشرة وأشهر فى القاهرة وهو مقيد بالحديد وحملة المشاعل تنادى عليه : هذا جزاء من يكذب على الملوك .

أما القاصد الأول فإن السلطان أذن له فى العودة إلى بلاده فى ٢١ رجب عام ٢٩٠ ﻫ بعد أن خلع عليه ومن معه ، فأخذ فى الاستعداد ثم عاد .

« ج ٤ فى التواريخ المذكورة »

٥٠ ـ فى يوم الخميس ٢٩ رمضان عام ٩٢٠ ﻫ حضر سفير من لدن السلطان سليم الأول العثمانى ومعه مطالعة تتضمن أخبار انتصاره على الشاه إسماعيل ملك العراقين . وتصف له أخبار هذه المعركة بما يشيب الولدان . فقرئت هذه المطالعة ثم خلع السلطان على القاصد ، ولم يأمر حين لقائه بالزينة كما أمر فى المرار السالفة . ثم أذن له فى السفر فى أواسط شوال سنة ٩٢٠ ﻫ ومعه جواب تهنئة .

« ج٤ فى التاريخ المذكور»

٥١ ـ فى أوائل المحرم عام ٩٢١ ﻫ حضر قاصد من عند السلطان سليم ومعه مكاتبة مضمونها أن شخصا من أبناء الشاه سوار وقع بينه وبين عمه على دولات نائب حلب ، شجار بسبب بلاد أبيه ، فحنق من عمه وتوجه إلى السلطان سليم ، فتعصب له ، وأرسل إلى السلطان الغورى يطلب إليه أن يعطى ابن سوار أملاك أبيه التى استولى عليها عمه على دولات . ـ فلم يوافق السلطان الغورى على ذلك ، وغضب أشد الغضب وتشاور مع الأمراء فى الأمر خوفا من الفتنة أن تتسع ، ويزيد الخلف بينه وبين السلطان سليم .

وأشيع أن السلطان سليما أورد فى مكاتبته المذكورة ألفاظا تنم عن عظمته وتشعر بسطوته ، إذ كان يقول عن نفسه : «مقامنا الشريف» ويقول عن السلطان: « مقامكم العالى » . وهذا التغاير نوع من الاستخفاف ...

وقد ورد بعد ذلك رسول من لدن على دولات ومعه مكاتبة أكد فيها للسلطان الغورى ماوقع بينه وبين ابن أخيه سوار مما ذكرته مكاتبة السلطان سليم

وذكر تعصب هذا السلطان لابن سوار ضده .　　　«ج ٤»

٥٢ - فى يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ حضر رسول من لدن السلطان سليم ومثل بين يدى الغورى سلطان مصر وهو جالس فى الحوش على المصطبة، فقدم إليه علبة وجدبها رأس على دولات نائب السلطان ، ورأس ولده ووزيره . فشق على السلطان رؤيتها ، وقال للقاصد : «هل هذه رءوس ملوك الفرنجة انتصر عليهم حتى أرسلهم إلى» . ثم أمر بدفنها وأذن للقاصد بالمسير إلى بلاده ، فى ١٠ رجب عام ٩٢١ هـ وكتب له بجاوبة عن مكاتبته .

أقول إن هذه السفارة والتى قبلها تنبىء عن الأسباب التى كان يخلقها السلطان سليم لإيقاع النزاع بينه وبين سلطان مصر ليتخذمنها ذريعة إلى غزوها فى المستقبل.
«ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة»

٥٣ - فى المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند سوار شاه الذى تعصب له السلطان سليم ضد أخيه على دولات. وأحضر صحبته هدية للسلطان وكانت غير نفيسة، وهى خمسة عشر جملا بخاتيا وثمانى أكاديش وستة بغال. وقد أرسله ليترقق للسطان ومعه مطالعة يبغى من ورائها رضاه . فاستشار السلطان الأمراء فى قبول الهدية أو ردها فاجتمعوا عنده وظلوا إلى قبيل الظهر ولم يعلم أحد ما تم عليه اتفاقهم .　　«جزء٣ ص ٥»

٥٤ - وفى يوم الخميس ٢٥ من شهر المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر قاصد من لدن ملك الحبشة - وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويلة لم يدخل منهم أحد إلى مصر - وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة فى دولة الملك الأشرف قايتباى وذلك فى عام ثمانين وثمانمائة ، ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة وأعمالهم فى مصر قليلة متضائلة .

فلما حضر هذا القاصد أقام له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولاقماش ، كما تقدم للأشرف قايتباى - فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ،

ونصب على رأسه السحابة الزركشية واصطفت الأمراء يمينه وشماله ، كل واحد منهم فى منزلته . ثم طلع القاصد من الصليبة وفى صحبته الأمير أزدمر المهمندار ، وجماعة من الرءوس النوب ومن المماليك السلطانية وغير ذلك . وكان مع القاصد من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة رجال ، والبقية ليسوا من الأعيان . وفيهم من هو عريان ومكشوف الرأس وعلى رأسه «شوشة» شعر . وفيهم من فى أذنه حلق من الذهب متسع الدائرة « قدر القرصة » وفى أيديهم أساور ذهبية . وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير فى الحبشة . وقيل إن أباه هو الذى حضر فى دولة الملك الأشرف قايتباى . وكان على رأسه خوذة من الحرير المخمل الأحمر وفيها صفائح ذهبية وبعض فصوص . وعلى رأس الخوذة درة كبيرة غالية وعليه علامات من الحرير الملون ـ وعلى بقية أمراء الحبشة علامات «شايات» من الحرير الملون وعلى رءوسهم « شدود » من الحرير . وذكروا أن فيهم شخصا شريفاً ـ وكان مجموع هؤلاء الأحباش الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان وأوساطهم مشدودة بحوائص كهيئة الدنانير . وكان معهم حينما خرجوا من الصليبة طبلان على جمل يضربون عليهما ، وكان فى صحبتهم البترك وعليه برنس من الحرير الأزرق . وكانت أعيانهم راكبة فوق الخيول ، والبقية مشاة . فصعدوا إلى القلعة من سلم المدرج ، والبترك ماش أمامهم . فلما وصلوا إلى باب الحوش كان فى صحبتهم كراسى عالية من الحديد وأرادوا الجلوس عليها بحضرة السلطان ، فلم تمكنهم رءوس النوب ، من ذلك . ـ ووقع فى أيام الملك الأشرف قايتباى مثل ذلك فما أجلسوهم . ا

فلما بلغ القاصد الحوش قبل الأرض ثم لما وصل إلى أوائل البساط السلطانى قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة . ولم يدخل معه أمام السلطان غير سبعة أنفس . ولم تدخل البقية . فلما اقتربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة . ثم قدموا كتاب ملك الحبشة ـ قيل إنه كان فى غلاف من فضة ، وقيل من ذهب ـ فلما قرىء على السلطان سمع منه ألفاظاً حسنة ونعتا رفيعا له وعلم منه أن ملكهم أوفدهم إلى مصر مستأذنين فى زيارة القمامة بالقدس ، وظلوا واقفين

زمنا حتى قرىء مكتوبهم ، ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة وأمرلهم السلطان أن يقيموا فى ميدان المهارة الواقع قرب قناطر السباع حتى يسافروا . وضربت لهم به خيام ونيطت حراستهم بعدد من الجند المماليك .

ولما عادوا من لدن السلطان عاد فى صحبتهم الوالى والمهمندار وجماعة رءوس النوب ، فما زالوا فى صحبتهم حتى أوصلوهم إلى حيث ينزلون . وقيل إن هذا القاصد أمضى تسعة أشهر مسافرا حتى بلغ مصر .

ثم إن القاصد بعث إلى السلطان بهدية لم تكن حافلة - قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك . فلما شهدها السلطان وبخ من قدم بها إليه . . وأطلعه على قوائم هدايا ملوك الحبشة إلى ملوك مصر فى العصور السالفة كالأشرف برسباى والظاهر جقمق والأشرف قايتباى وغيرهم وتواريخها .

قال ابن إياس ماملخصه : « ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة فى هذه الآونة بالنسبة إلى ماكان عليه أسلافهم فى قديم الزمان ، حتى نقل أحد المؤرخين أنه كان لملوك الحبشة على نواحى النيل ستون مملكة لا ينازع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الأراضى ، وضعفوا الآن عما كانوا عليه . - وقد أرسل بعض ملوك الحبشة هدية للملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧١٢ هـ فقومت بمائة ألف دينار أو أكثر حتى عدت من النوادر » .

وقد أقام قاصد الحبشة فى الميدان ثلاثة أيام ثم سافر هو ومن معه إلى القدس ليزوروا القمامة . « جـ ٣ ص ٧، ٨، ٩ » .

٥٥ - فى ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ أخذ السلطان الغورى يجمع جموعه ويعد عدته للرحيل إلى الشام لقتال بنى عثمان . . وبينماهو فى يوم من أيام ربيع المذكور جالسا بمخيمه إذ وردت عليه مطالعة من نائبه فى حلب يخبره أن السلطان العثمانى بعث إليه رسولا . وقد منعه النائب من المسير إلى مصر وأخذ الرسالة التى يحملها وبعث بها إلى السلطان . . !

اطلع السلطان الغورى على رسالة السلطان سليم فإذا بها عبارات رقيقة وألفاظ معسولة ومخاطبة بكلمة « ياوالدى » . وأنه يطلب إليه الدعاء له . وأنه مازحف على بلاد على دولات إلا لبغيه على ابن أخيه ، وأنه كان يثير الخلاف بين والد السلطان سليم والسلطان قايتباى ، وأنه كان جرثومة فساد فى مملكة سلطان مصر . وأن ابن سوار تحت أمر السلطان إن شاء أبقاه على ولايته أو عزله . وأنه ما منع تجار المماليك الجراكسة من جلب المماليك ومن مسيرهم إلى مصر ، بل هم الذين شكوا ما يصيبهم من الحيف والضر من جراء معاملتهم بالنقد المصرى . لذلك امتنعوا عن جلب المماليك الجدد — وفى هذه الرسالة يبدى السلطان سليم استعداده لرد جميع ما استولى عليه من ولاية على دولات . . . . !

وقد سر السلطان الغورى من هذه الرسالة هو ومن معه من الأمراء وانشرحت صدورهم وأنسوا قرب الصلح وفض الحرب والعودة إلى الوطن .

قال ابن إياس : « وكان هذا كله حيل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده . وقد ظهرت حقيقة ذلك فيما بعد » . « ج ٣ ص ٣٠ » .

٥٦ — فى جمادى الآخرة عام ٩٢٢ هـ كان السلطان الغورى قد رحل إلى الشام لحلب ، بجيوشه الكثيفة لمحاربة السلطان سليم ، فلما بلغ مدينة حلب ودخلها وفد عليه فيها توا قصاد من لدن السلطان سليم على رأسهم قاضى عسكره واسمه « ركن الدين » ، وأحد أمرائه واسمه « قراجا باشاه » . فلما مثلوا بين يديه ، قيل إنه عاتبهم على ماصنعه سيدهم من الإغارة على ممتلكات مصر واستيلائه على ولاية « على دولات » ، فقبلوا عتابه ، وأبدوا رغبة مولاهم فى مصالحة السلطان ، وأنه ينزل عند رأيه ، ويسير وفق مشيئته ، وأطلعوه على مكاتبته إليه ويقول فيها له « ياوالدى » ، ويطلب إليه الدعاء له . كما يطلب منه ألا يدخل فى النزاع القائم بينه وبين الشاه إسماعيل الصوفى ، وأطلعوه على فتوى من علماء العثمانيين بقتل هذا الشاه — وكما يطلب إليه أن يبعث له كمية من السكر والحلوى ، ويفهمه أنه ماجمع جنوده إلا لقتال الصوفى وأنه متجه بها إليه .

فانخدع السلطان الغورى بكل أولئك وبعث إليه بمائة قنطار من السكر والحلوى . . . . !

قال ابن إياس ما مؤداه : «كل هذا كان خداعا وتحيلا من السلطان سليم حتى يثبط همة الغورى ويثنيه عن عزمه ويفت فى عضده ويبعده عن فكرة القتال حتى يكر عليه على حين غفلة . وقد جازت هذه الحيلة على سلطان مصر . إذ وقع فى جيشه الخلف والفتنة والخيانة وضاعت معنويته ، حتى كان لذلك أسوأ الأثر إذ أدى إلى الهزيمة والاحتلال» «ج ٣ ص ٤٠» .

الهدايا

ليس عجيبا أن نتبع الفصل السابق بفصل نذكر فيه الهدايا المتبادلة بين سلاطين مصر وغيرهم من ملوك وأمراء ونواب ، وذلك لشدة الارتباط بين الرسل والهدايا . إذ كان الغالب أن يحمل الرسـول القادم من بلد هدية إلى سلطان البلد الذى يممه .

وأكثر ما كانت هذه الهدايا المتبادلة من الأقمشة والأسلحة والخيول المطهمة والمماليك والجوارى وبعض حاصلات البلاد ، وبعض الأموال ، فإذا وفدت من ناحية العراق وفارس كان من بينها السجاجيد ، وإن وردت من ناحية الشام وحلب كان فيها الدواب والمماليك والأقمشة النفيسة والفاكهة والحلوى . وإن وردت من موانى أوربا كان من بينها الجوخ والحرير والبلور . وإن كانت من مصر كان فيها السكر والحلوى والدواب والمال والمماليك .

ويظهر أن الهدايا كان لها دور خاص فى الرسميات ومنزلة مرعية وقيود عرفية ، كما كانت لها جداول وسجلات ترقم فيها وتنعت بين سطورها . وتحفظ للاطلاع عليها وقت الحاجة . كما كانت السلاطين تقيم لهـا وزنا وتجعل لها أهمية . وتستدل منها على أمور يكون لها دخل كبير فى العلاقة بين مصر والبلد الآخر . وكذلك كانت طبقات الشعب تلهج بذكر ما يهدى إلى سلطانها وتحوك حول أوصافها الأقاويل الكثيرة .

ويفهم هذا من جملة حوادث منها :

١ - فى عام ٨٣٦ هـ جاء إلى السلطان الأشرف برسباى قصاد من قرا ملك ومعهم هدايا من بينها مرآة مذهبة وخروف ياليتين وخلعة للسلطان من الحرير الأحمر المذهب . ففهم السلطان من ذلك أن قرا ملك ينعته وجنوده بأنهم نساء

يحتاجون للمرآة . وأنهم كالنعاج لا يأبه لهم . وأن السلطان نائب من نوابه ، ولذلك خلع عليه الخلعة . .

وكانت النتيجة أن غضب برسباى ، وأهان الرسل وتوعد ملكهم ، فما عادوا إليه حتى وقعت الحرب بين الملكين . « ابن إياس جزء ٢ ص ١٩ »

٢ ـ وفى يوم الخميس ١٥ المحرم عام ٩٢٢ هـ ، وفد إلى السلطان الغورى رسول من لدن ملك الحبشة ومعه عدد كبير من الأحباش . فقدم هدية إليه لم تنل منه الرضا ولا الإعجاب ، قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار . فوبخ من صعد بها إليه وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة إلى سلاطين مصر السالفين أمثال برسباى وجقمق وقايتباى وتواريخ هدايا ملوك الحبشة إلى ملوك مصر ، فقرئت عليه . « ابن إياس جزء ٣ ص ٨ »

٣ ـ وفى عام ٩٢٢ هـ وفى نفس شهر المحرم أيضا وفد على الغورى ، قاصد من سوار شاه وقدم إليه هدية قال عنها ابن إياس إنها « فشروية » وإنها وجودها وعدمها سواء ، وهى خمسة عشر جملا وثمانى أكاديش وستة بغال ، فتردد السلطان فى قبولها وردها وشاور الأمراء ولكن لم يعلم ما استقر عليه رأيهم . « ابن إياس جزء ٣ ص ٥ »

ومن هذا يفهم ما ذهبنا إليه ، وقد أشرنا فى باب السفارة إلى بعض هذه الهدايا ونذكر هنا عددا منها نقلا عن ابن إياس (١) فنقول :

١ ـ فى سنة ٦٦٩ هـ أرسل صاحب طرابلس هدية قيمة للسلطان الظاهر بيبرس وأظهر له الطاعة . فقبلها منه وأقره على ما كان بيده من البلاد . وأهدى إليه صاحب اليمن هدية فيها تحف ودب أسود وفيل . « ج ١ ص ١٠٨ ـ السلوك ج ١ ص ٥٩٠ »

٢ ـ فى سنة ٧٠٤ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة فى عهد السلطان الناصر محمد

---

(١) إذا نقلنا عن غير ابن إياس نصصنا عليه ، وج ٤ منه فى تواريخه .

ابن قلاوون ، صاحب دنقلة « من أعمال الصعيد » ، وكان صحبته هدايا جميلة من رقيق وجمال وأبقار حبشية وغير ذلك فخلع عليه السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة . « ج ١ ص ١٤٧ »

٣ ـ فى سنة ٧٦٢ هـ أهدى بعض ملوك اليمن إلى سلطان مصر الناصر حسن ، خيمة عظيمة غريبة الشكل ، بهاهيئة قاعة وبها حمام ، وهى منقوشة بصنعة غريبة . فتوجه السلطان إلى بر الجيزة ونزل بكوم برا ، ونصب هناك تلك الخيمة . فكان أهل القاهرة يخرجون لمشاهدتها . وقال فيها ابن أبى حجلة المغربى الشاعر الأديب:

حوت خيمة السلطان كل عجيبة   فأمسيت منهـا باهتا أتعجب
لسانى بالتقصير فيهـا مقصر   وإن كان فى أطنابها بات يطنب

وقال : إذا ما خيمة السلطان لاحت   فقل فى حسنها نظما ونثرا
وإن رفعت ورمت النصب منها   فصف أطنابهـا وهلم جرا

« ج ١ ص ٢٠٨ »

٤ ـ فى عام ٧٧٨ هـ بعث صاحب إفريقية « أحمد بن محمد » من سلالة الموحدين هدية نفيسة لسلطان مصر مع الذين وفدوا من بلاده إلى الحج . وهى عدد من الجياد العربية الأصيلة ، فسر منها السلطان . « ابن خلدون ج ٥ ص ٤٧٩ ».

٥ ـ فى عام ٧٩٢ هـ ، بعث إليه صاحب أفريقية أيضا هدية أخرى من الجياد الأصيلة كذلك . « ابن خلدون ج ٥ ص ٥٠١ »

٦ ـ فى عام ٧٩٢ هـ . أرسل ملك العثمانيين إلى برقوق ملك مصر ، يطلب إليه إرسال طبيب حاذق ومعه الأدوية اللازمة لعلاجه من وجع المفاصل . فبعث إليه الرئيس شمس الدين بن صغير الطبيب ، ومعه حملان من الأدوية . « ج ١ ص ٣٠٠ ».

٧ ـ فى عام ٧٩٦ هـ اقتحم تيمورلنك مدينة بغداد على أهلها وعلى صاحبها القان أحمد بن أويس . فهرب القان من وجهه ، ويمم شطر البلاد المصرية فى عهد السلطان برقوق فلقيه خير لقاء وأنزله خير منزل . وأسكنه فى دار الأمير

طقزدمر ، وأهدى إليه ضروبا من الهدايا إعانة له . ومن جملتها عدة خيول مطهمة بسروج ذهبية وكنابيش، وعشرون مملوكا صغيرا ، وعشرون جارية بكرا، وأقمشة وخمسة آلاف دينار . «ج ١ ص ٣٠١»

٨ ـ فى عام ٧٩٩ هـ وفد إلى الأبواب الشريفة فى عهد السلطان برقوق ، المقر السيفى «تنم الحسنى» نائب الشام ، فلما بلغ السلطان وصوله إلى الريدانيــة نزل من القلعة فلقيه وأنزله بالميدان الكبير عند الناصرية وخلع عليه .

فقدم النائب إلى السلطان عشرة مماليك جراكسة وعشرة جوار وعشرة آلاف دينار ومصحفا شريفا مكتوبا بالذهب، ونمجاة مسقطة بالذهب ومرصعة بفصوص من الياقوت والفيروز ، وأربعة كنابيش وأربعة سروج من الذهب وأربع بدلات ذهبية زنة كل منها أربعمائة مثقال من صنع المعلم «بهرام» وعشرة كواهى للصيد ، ومائة وخمسين حملا ما بين سمور ووشق وسنجاب وقاقم وقرضيات وأثواب من الصوف الملون ، ومائة فرس خاصة وخمسين جملا وعشرين حملا من الأثواب البعلبكية ، وثلاثين حملا من الفاكهة، وحلوى شامية ، وعشرين حملا من المخللات وحملين من علب السكر النباتى الحموى وغير ذلك أشياء كثيرة . «ج ١ ص ٣٠٦»

٩ ـ وفى عام ٧٩٩ هـ أيضا ورد رسول من قبل صاحب اليمن وهو الملك الأشرف محمد بن الفضل ومعه القاضى برهان الدين المحلى التاجر الكارمى . ومعهما هدية حافلة مختلفة الأنواع . فخلع السلطان برقوق على القاصد وأكرمه .

«جزء ١ ص ٣٠٧»

١٠ ـ فى عام ٨٠٣ هـ فى عهد السلطان فرج بن برقوق ، طلب إليه تيمورلنك أن يطلق قريبا له يدعى «أطلمش» كان أسيرا منذ عهد السلطان برقوق فى مصر. ووعد أن يطلق من لديه من أسرى المصريين فى نظير ذلك . فأطلقه السلطان فرج وأرسله إليه مع بعض أمرائه مكرما . ففرح به تيمورلنك وأطلق من عنده من الأسرى وأرسل إلى السلطان فرج هدية حملها إليه الخواجا مسعود الكجحاوى، وكان فى عدادها فيل عظيم الخلقة وعلى ظهره صندوق من الخشب يسع عشرة رجال

يجلسون فيه للضرب بالكشوسات . وعدا ذلك أشياء ثمينة . وكان وصوله إلى مصر حافلا وعجب له أهلها . « جزء ١ ص ٣٣٦ »

١١ ـ فى سنة ٨٣٦ ﻫ وفد إلى السلطان الأشرف برسباى قصاد قرا ملك ، ومعهم هدية له فمن جملتها قرص مرآة مكفتة بالذهب وخروف بأليتين وخلعة للسلطان من المخمل الحرير المرقوم بالذهب وبعض أثواب حريرية أخرى وصقور صيد . فلما رأى السلطان هذه الهدية استصغر شأنها . ودعا القصاد إلى البحيرة بالقلعة وألبس الخلعة المهداة لشخص من الشهدارية وكان مضحكا ! فرقص بها أمام السلطان فضحك عليه . ثم أحرق السلطان الخلعة أمامهم ، وذبح الخروف! ثم سأل القصـاد عن الكيفية التى بها يسخر ملـكهم من أحدهم فقالوا : يرميه فى الماء . فأمر السلطان برميهم فى البحيرة فظلوا بها ساعة ثم أخرجوا . ورسم بأن تقص أذناب خيولهم . وعجل لهم فى السفر قائلا : « قولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات » .

ثم أخذ السلطان فى تجهيز تجريدة لقتال هذا الملك . ووقعت بينهما الوقائع ـ والسبب الذى أهم برسباى هو ما أشرنا إليه فيما سلف من أنه ظن الهدية ضربا من التهكم به ، وأن قرا ملك يصفهم بأنهم نساء وتعاج وأنه ـ أى السلطان ـ نائب من نوابه . « ج ٢ ص ١٩ »

١٢ ـ فى ربيع الأول عام ٨٥٩ ﻫ فى عهد السلطان إينال العلائى وصلت إليه هدية من الملك أصلان صاحب الأبلستين ، وكانت حافلة وفى جملتها خيول وبغال وجمال وأقمشة من الحرير . « ج ٢ ص ٤٨ »

١٣ ـ فى سنة ٨٨٤ ﻫ حج السلطان الأشرف قايتباى ، فلما عاد من حجه أوائل عام ٨٨٥ ﻫ أهدى إليه الأمراء والمباشرون هدايا قيمة منها مال وخيول وقماش . وكذلك أهدى إليهم . « ج ٢ ص ١٩٣ »

١٤ ـ فى سنة ٩٠١ ﻫ فى شهر المحرم منها عاد الشيخ عبد المؤمن العجمى شيخ قبة

السلطان بالمرج والزيات . وكان قد بعثه السلطان قايتباى إلى ملك بنى عثمان ليتعرف أخباره . وكان السلطان قد بعث معه هديه من جملتها قماش فاخر وسبع وزرافة وببغاء حمراء اللون وغير ذلك . «ج ٢ ص ٢٩٢»

١٥ ـ فى شوال سنة ٩١٦ هـ قدمت إلى السلطان الغورى هدية حافلة من نائب حلب وهى : أطباق فيها ذهب عين ، ومماليك جراكسة نحو من ثلاثين أو أربعين مملوكا . ومن الخيول خمسون فرسا منها فرس بسرج بلور . وكنبوش من الذهب قيل إن ثمنه ألف دينار . وجملة من الأقمشة المتنوعة النفيسة . «ج ٤»

١٦ ـ وفى شوال سنة ٩١٦ هـ أيضاً وصلت عدة سفن من لدن ملك العثمانيين فيها زردخاناه للسلطان الغورى . فوصلت إلى بولاق عند الرصيف وشرعوا ينقلون ما فيها إلى القلعة . فكان من جملة مافيها مكاحل سبقيات عدتها ثلثمائة . وثلاثون ألفا من النشاب أسهما . وأربعون قنطارا من البارود ، وألفا مقذاف خشبي وغير ذلك من نحاس وحديد وبكر وحبال وسلب ومراسى حديدية ، وسوى ذلك مما تحتاج إليه السفن . فشكره السلطان لذلك . وكان السلطان الغورى قد أرسل فى مقابل ذلك مالا مع قاصده « يونس العادلى » ليشترى بها أخشابا ونحاسا وحديدا من بلاد العثمانيين . فلما بلغ ذلك أسماع ملك بنى عثمان ردا المال إلى السلطان وبعث إليه بما سبق ذكره هدية إليه . «ج ٤»

١٧ ـ فى يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول عام ٩١٧ هـ ، جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب جربة انتصر على الفرنجة نصرة عظيمة وغنم منهم غنائم كثيرة وقتل منهم وأسر . وبعث للسلطان مكحلة من النحاس كبيرة ، ومعها أشياء أخرى على سبيل الهدية ، واثنين من أسرى الفرنجة وعليهم سلاحهم . فشكر له السلطان الغورى وسر بهذه النصرة . «ج ٤»

١٨ ـ فى يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة سنة ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد على دولات ومعه هـــدية حافلة للسلطان الغورى . ومن جملتها مماليك وخيل وجمال بخاتى ، وخيمة كبيرة منقوشة بحرير ملون على شكل أشجار

مزهرة وفوقها أطيار ، وخركاة من الخشب مدهونة بماء الذهب، ولازورد وألوان غريبة وهى منقوشة برسوم من أشكال الوحوش المتقاتلة بينها الغالب والمغلوب. ولها غطاء من الجوخ الأزرق المقصوص . ولها أطناب وعرا من الحرير الأحمر. ولها باب خشبي موشق وعليه ضبة . ولتلك الخركاة بساط مستدير على سعتها، وهو منقوش نقشا غريبا قليل النظير . وكانت هذه الخركاة من تحف حسن بك الطويل ملك العراقين ـ كان ـ فظلت حتى وقع ملكها للشاه إسماعيل الصوفى فبعث بها إلى على دولات . فأرسلها هذا إلى السلطان الغورى . فكانت هذه الخركاة والخيمة من عداد التحف الغريبة . فأمر السلطان بنصبها فى الحوش ليشاهدها الناس ويتفرجوا بها . وأقام موكبا حافلا للقاصد فى ذلك اليوم بلا شاش ولا قماش . « جزء ٤ »

١٩ ـ فى شهر المحرم عام ٩١٨ هـ طلع قاصد ملك الفرنج؟ بهدية حافلة للسلطان ما بين أوانى بلور مزركة بالذهب وحمالين يحملون أقمشة من الجوخ والحرير والثياب المذهبة ، وقيل بها أيضاً ذهب عين . « ج ٤ »

٢٠ ـ فى الاثنين ٢٣ صفر عام ٩١٨ هـ حضر قاصد ملك البنادقة إلى مصر ومعه هدية للسلطان الغورى منها نحو مائة حمل بين أوانى بلور وجوخ وحرير من أصناف متعددة ، وأطلس وغير ذلك . « ج ٤ »

٢١ ـ فى ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ . حضر إلى مصر قاصد الشاه إسماعيل بن حيدر الصوفى المتغلب على فارس والعراق . فقابل السلطان الغورى مقدما إليه هدايا مولاه وفى عدادها سبعة فهود ـ وكانت تسعة مات منها أثنان أثناء المسير ـ وعليها جلال حريرية. ومنها خيول وأباريق من الفضة وطاسات من الذهب ، وزرديات وخوذ وأثواب من المخمل الملون وأدوات للبس الخيل وشقق حريرية مقصبة وسجاجيد رومية ومدى وغير ذلك . « ج ٤ »

٢٢ ـ فى أواخر ذى القعدة عام ٩١٨ هـ . كان الغورى قد رحل إلى زيارة الفيوم وعند عودته مر بدهشور. فخف لملاقاته فيها الخليفة محمد المتوكل على الله العباسى، وأهدى إلى السلطان مهارا وأغناما وأبقارا وكثيرا من الدجاج والأوز وقدور من عسل

النحل وجرار اللبن وغير ذلك كثير . وكانت دهشور بلد الخليفة.

« ج ٤ »

٢٣ ـ فى ١٥ ربيع الأول عام ٩٢١ هـ إلى الأبواب الشريفة الأمير قانى باى قرا ـ أميرا خور كبير ـ باش العسكر الذى وجه إلى حلب . ثم بعد ثلاثة أيام أهدى إلى السلطان الغورى هدية حافلة ، قيل: كان من جملتها عشرة آلاف دينار من الذهب الخالص ، وخمسة وعشرون مملوكا من الجراكسة ، وكثير جدا من الخيول والأغنام والأثواب البعلبكية والصوفية وغير ذلك. « ج٤ فى التواريخ المذكورة»

٢٤ ـ فى المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر إلى الغورى قاصد الشاه ابن سوار وقدم هدية تافهة وهى خمسة عشر جملا بخاتيا وثمانى أكاديش وستة بغال . فتردد السلطان فى قبولها ورفضها وعرض الأمر على أمرائه ولم يعلم ما تم رأيهم عليه .

« ج ٤ فى التواريخ المذكورة »

حسنات هذا العصر وسيئاته

لايخلو عصر من العصور من حسنة يقدمها إلى الناس بيد ، ومن سيئة يقدمها باليد الأخرى . فهو بذلك يجمع فى آن واحد بين الحسن المقبول وبين القبيح المرذول . وكذلك هذا العصر .

وأهم حسناته :

١ — دفع التتار عن اقتحام الأراضى المصرية . ٢ — دفع الفرنجة عنها أيضا ٣ — المحافظة على استقلال البلاد . ٤ — رصد الأوقاف الكثيرة على وجوه البر والإحسان ، مع البذل الكثير . ٥ ـ تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب .

وأهم سيئاته :

١ ـ احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية ٢ ـ فداحة الضرائب المفروضة عليه . ٣ — الجور والعسف الذى نزل به . ٤ — كثرة الفتن الداخلية ٥ ـ تعدد الزلازل والطواعين والغلاء .

ونتكلم الآن بإيجاز عن كل واحد مما ذكرنا فنقول :

حسناته

١ — دفع التتار عن اقتحام الأراضى المصرية[1] :

لقد كان زحف التتار من أواسط آسيا إلى غربها شروباء أصيب به غرب آسيا فى العصور الوسطى . فلقد طغت سيول التتار عليه ، وسقطت دوله فى أيديهم ،

---

(١) نذكر فى الجزء الثانى كلمة أخرى عن التتار . وقد اعتمدنا فى هذا الباب على العبر لابن خلدون ، والبدائع لابن إياس ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى والسلوك للمقريزى وعجائب المقدور لابن عربشاه .

وأذاقوا بلاده من الخسف والهوان ، وأراقوا الدماء فيه بلا روية ولا ورع ، غير مبالين بصغير ولا كبير ولا عالم ولا جاهل ولا امرأة ولا طفل . ومازلوا جادين فى زحفهم وطغيانهم كسيل العرم ، حتى بلغوا مدينة بغداد فأسقطوها وقتلوا خليفتها وولى عهده وشتتوا شمل أهلها ، وكادوا لهم كيدا شديدا ، وملكوا الكثير من بلاد العراق ، وساروا على ضفاف الفرات ، وتاخموا حدود المملكة المصرية فى الشام وفى حلب ، وامتلكوا بعض تلك النواحى .

فى تلك الأثناء كانت دولة سلاطين المماليك قد تكونت فى مصر ، وامتلك أمراؤهم ناصية الأمور فيها. فشعروا بالخطر التترى يقترب منهم رويدا رويدا ، فجمعوا جموعهم وحملوا أسلحتهم ، وهناك فى بلاد الشام وحلب وقعت الوقائع بين الفريقين ، وكان النصر فيها غالبا حليف سلاطين مصر ، فردوا بذلك التتار عن ملكهم مدحورين .

ظلت دولة التتار متاخمة للدولة المصرية وأملاكها طيلة قرنين تقريبا . وتقلبت بها الأحوال حتى انقسمت دولا ، ثم زالت جميعها عام ٩٠١ هـ ، وكان آخر ملوكهم « محمد بن أبى سعيد » صاحب سمرقند ، وقد قتل فى العام المذكور[١] . وكان لابد من النزاع بين الدولتين . وكان التتار فى أغلب أمرهم الطاغين الباغين على أملاك مصر ، والمعتدين على أطرافها ببلاد الشام وحلب . فصبر لهم ملوك مصر إلى آخر لحظة من لحظاتهم ، وظلت الحرب دائرة الرحى بينهما ، والعداء مستمرا ، والوقائع سجالا ، والنصر متبادلا ، وبين الفينة والفينة فترة صبر وانتظار ، وريث وراحة .

وكان التتار يمنون النفس بدخول مصر أسوة بسواها ، فردتهم شجاعة المماليك وتماسكهم إزاء هذا العدو الخارجى الممقوت . فدالوا ودالت معهم أمانيهم . وسلمت مصر وقاهرتها من كل أذى كان مرتقبا ، ومن كل سوء كان منظورا ، كذلك الأذى والسوء اللذين أصابا بلاد العراق وبغدادها .

---

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٢٩٢ .

ونستعرض هنا بإيجاز تاريخ هذا النزاع فنقول :

حروب التتار فى الممتلكات المصرية ومقاومة سلاطين مصر لهم

نذكر هنا أهم هذه الحروب ووقائعها الفاصلة فمنها :

١ ـ لما فرغ التتار من احتلال بغداد والتمثيل بأهلها ، لووا أعناقهم شطر بلاد المملكة المصرية والشامية وبدءوا ببلاد الشام . فبعث ملكهم « هولاكو » ثلاث رسائل إلى أمير دمشق المسمى الملك الناصر ، إحداها بعد الأخرى يهدده فى كل منها ويتوعده ، ويراوده على التسليم . وفى إحدى هذه الرسائل يقول له :

أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء[1]

وأخذ هولاكو فى الزحف على مدن الشام وحلب فأسقطها مدينة إثر مدينة ودخل فى طاعته كثير من حكامها وفر آخرون من وجهه .

فشعر سلطان مصر حينئذ المظفر قطز بخطر الغزو يهدد سلطنته من أطرافها ، وخاصة عندما وافته الأخبار بأن طلائع التتار بلغت ظواهر دمشق ، وأخذت فى النهب والسلب والقتل والأسر . وخاصة أيضاً عندما بعث هولاكو إليه أحد أمرائه « كتبغا » برسالة تهديدية أخرى يذكر فيها سطوته وقوة جنده . وفيها يقول: « يا أهل مصر أنتم قوم ضعاف فصونوا دماءكم منى ، ولا تقاتلونى أبداً فتندموا » [2].

فاستشار السلطان المظفر قطز أمراء دولته فى الأمر فأجمعوا على محاربة التتار . فجمعوا عدداً ضخماً من الجنود بينهم كثير من عربان الشرقية والغربية . وقد عاونهم أهل مصر بالمال والرجال ، فهما منهم أن هـذا القتال جهاد فى سبيل الله . ولعل مما ساعد على ذلك أن التتار كانوا وثنيين ومنهم من يعبد الشمس .

وفى أواخر شهر شعبان سنة ٦٥٨ هـ نزل السلطان المظفر من قلعة الجبل

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء سيوطى فى ترجمة الخليفة المستعصم بالله. وسلوك للقريزى ج١ ص ٤١٥ .

(٢) ابن إياس ج ١ ص ٩٦ . والسلوك ج ١ ص ٤٢٧ وفيه نص الرسالة .

فى موكب عظيم حتى بلغ الريدانية ، وهناك أمر بإعدام رسول هولاكو « كتبغا » وأربعة وفدوا معه من التتار . ثم أخذ فى المسير إلى الصالحية ثم فلسطين حتى بلغ بجنده « عين جالوت » وكان هولاكو قد رحل عن بلاد الشام تاركا فيها جنده ونائبه . وهناك تلاقى العسكران فى موقعة هائلة استمر فيها القتل فى كل فريق ثم انجلت بغبارها عن هزيمة شنيعة للتتار قتل فيها قائدهم « كتبغا » ، وانتصر جنود مصر انتصارا مبينا . وكانت هذه الواقعة فى يوم الجمعة ٢٥ رمضان عام ٦٥٨ هـ .

ثم تتبع جند مصر أثر التتار حتى تلاقوا بهم مرة أخرى عند « بيسان » فكانت بها موقعة أحر من الأولى قتل فيها نصف التتار وغنم جند مصر غنائم كثيرة .

وقد تجلت شجاعة المماليك البحرية فى هاتين الموقعتين وخاصة الأمير « بيبرس » الذى ملك مصر فيما بعد ، وتلقب بالظاهر .

٢ ـ لما استوى الظاهر بيبرس على عرش مصر ، وأقام الخلافة العباسية الثانية وأجلس فى كرسيها الإمام أحمد الملقب بالمستنصر بالله عام ٦٥٩ هـ ، رأى أن يجهزه بطائفة من العساكر السلطانية ويمده بالمال والعتاد نحو بغداد ، كى يستردها من التتار ويعيد ملك بنى العباس . فسار المستنصر فى هذا العام بجنده حتى بلغ إلى الفرات فخرج إليه أمير التتار إذ ذاك وهو « قرابغا » ، والتقى به عند « الأنبار » ، فدارت الدائرة على التتار وولوا الأدبار . ولكنهم عادوا فى الليل فكروا على جند الخليفة وأحاطوا بهم وشتتوا شملهم وهزموهم هزيمة نكراء . واختفى الخليفة من ذلك الحين ولم يعثر عليه . ـ وقد كانت هذه الحادثة مثار أسف شديد لدى الظاهر بيبرس ....

وفى عام ٦٧٠ هـ فى عهد بيبرس أيضا جاءت الأخبار بعودة التتار إلى الإغارة على البلاد وأنهم بلغوا الفرات وملكوا « ألبيرة » فخف للقائهم ومعه أمراؤه وجنوده يتقدمهم الأمير قلاوون الألفى ـ المنصور قلاوون فيما بعد ـ والأمير بيسرى ، فتلاقوا على ضفاف الفرات فى موقعة عظيمة دارت رحاها على التتار فقتل منهم وأسر عدد كبير .

وفى عام ٦٧٥ هـ عاود التتار الزحف ، فخرج إليهم بيبرس ، واتجه إلى حلب والتقيهم فى معركة حامية ، فأثخن فيهم ، حتى فر ملكهم « أبغا » ، فاتبعه بيبرس إلى « الأبلستين » وتلاقوا مرة أخرى ، فانتصر بيبرس بعد أن قتل نحو مائة ألف نفس ، وهرب أبغا إلى جهة «زبيد» وبيبرس يطارده . ثم عاد بيبرس إلى «قيسارية» وحاصرها فاستسلم له أهلها .

٣ ـ وفى عام ٦٧٩ هـ فى عهد المنصور قلاوون أغار التتار بزعامة الأمير « منكوتمر » ، أخى ملكهم « أبغا » ، على مدينة حلب فملكوا ضياعها وأوشكوا على امتلاكها هى . فخف إليهم المنصور فى عديد ضخم من جنده على ظهور الخيل . فما سمع التتار بقرب قدومهم حتى جلوا عن حلب وفروا ، بعد أن ألحقوا بها ضروبا من الفساد . فلما سمع المنصور خبر نكوصهم وهو فى غزة عاد إلى القاهرة . وما لبثوا هم أن عادوا إلى حلب يعيثون فيها فسادا . فخرج المنصور ثانيا إلى لقائهم وأغذ السير فى أثرهم حتى تلاقوا على « المرج الأصفر » فى أوائل عام ٦٨٠ هـ . فكانت بين الفريقين واقعة هائلة ، انهزم فيها التتار شر هزيمة ووقع السبي والغنم فى صفوفهم وعتادهم .

٤ ـ وفى عام ٦٩٩ هـ فى عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ، أخذ التتار فى الزحف على مدينة حلب مرة ثانية ، بقيادة ملكهم غازان بن أرغون ابن أبغا بن هولاكو ، بجند يبلغ عددهم نحو مائتى ألف وقد زين لغازان هذا الغزو الأمير قفجق الذى كان نائبا على الشام فى عهد المنصور لاجين ، وهم المنصور بالقبض عليه ففر إلى غازان .

خرج الناصر محمد إلى لقائه بجند كثيف فى ١٥ صفر من العام المذكور ، فبلغ دمشق فى ٨ ربيع الأول ، ثم تلاقى الفريقان فى « سلمية » قرب بعلبك ، فدارت الدائرة على الناصر ففر إلى بعلبك ونهب عتاده وذخيرة جنده .

هذا النصر الذى أصابه « غازان » خول له غزو بلاد الشام جميعها ودخول

مدينة دمشق . ولهذا تحول إليها نخاف أهل دمشق مغبة الأمر ، وأوفدوا وفدا من خيار علمائهم إليه ليطلبوا منه الأمان . وكان فيه بدر الدين بن جماعة وزين الدين الفارق وتقى الدين بن تيمية الحرانى ونجم الدين بن الصرصرى وعز الدين بن تركى وعز الدين بن القلانسى وجلال الدين القزوينى وغيرهم . ـ وكان غازان قد بعث إلى أهل دمشق الأمان .

ثم إن « غازان » حاصر قلعة دمشق ولم يستطع الاستيلاء عليها لمناعتها . فرحل عنها وولى نيابة دمشق للأمير قفجق . ثم إن الملك الناصر عاد إلى القاهرة وأعد جيشه من جديد وزحف به على دمشق فأظهر له نائبها قفجق الخضوع ومن ثم عاد إلى عاصمة ملكه .

ثم ما لبث التتار حتى أعادوا الكرة على ضفاف الفرات عام ٧٠٠ هـ ، فخرج الناصر للقائهم مرة ثالثة . فلما بلغ غزة جاء الخبر أن نائب حلب كسرهم كسرة حاسمة فروا على إثرها هاربين . فعاد الناصر إلى القاهرة .

وفى عام ٧٠٢ هـ ، تواترت الأخبار عن حلب أن أحد أمراء غازان وهو « قطلوشاه » قد دخلها فجأة بجملة من جنده واحتلوها . فبعث لهم الناصر عدة من الجنود لإجلائهم . فسار الجنود فبلغوا غزة وهناك علموا أن غازان قد تحرك . وأنه وصل إلى الرحبة ، وأن نائبها قد خضع له ، فهب الناصر حينذاك لقتال التتار وجمع جموعا كثيفة بينها كثير من العربان . وسار بهم إلى الشام . وكان « غازان » قد قارب حماة . فبلغ الشام فى مستهل رمضان وهناك فى « مرج راهط[1] » ، دارت واقعة رائعة انفرط على إثرها عقد التتار ودارت الدائرة على « غازان » وجنوده ، وأبيد نحو ثلثهم ، وتشتت شمل البقية وغنم منهم الشىء الكثير . وكانت هذه الواقعة إحدى الوقائع الحاسمة بين التتار ومصر .

ومع ذلك فقد عادوا لعبثهم مرة أخرى عام ٨٠٧ هـ ، ولكن وقع الخلف فى صفوفهم فنجت بذلك حلب من شرورهم .

---

(١) يسميه ابن خلدون « مرج الصفر » ويقال له أيضا « شقحب » .

وفى عهد السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون أرسل إليه نائب حلب فى عام ٧١٢ هـ مملوكا يخبره أن التتار قد عادوا إلى حركتهم ضد البلاد ، فعبأ السلطان جنوده على عجل فى سبعة أيام ، ورحل توا إلى ديار حلب . فلما بلغ غزة وردت إليه الأخبار بتراجع التتار خوفا منه ، ورحلوا عن مدينة الرحبة إلى بلادهم بعد أن كسرهم نائبها كسرة قوية . فعدل الناصر عن المسير إلى حلب وسافر إلى بلاد الحجاز حاجا .

ومن ذلك الحين وقف نسبيا تعدى التتار على أملاك الدولة زمنا طويلا حتى كانت سلطنة الظاهر برقوق .

٥ — وفى عهد السلطان برقوق ظهر ملك للتتار قوى الشكيمة قاسى القلب محب للتدمير شبيه بهولاكو . وهو « تيمور لنك » . وقد وردت أنباؤه إلى أسماع المصريين عام ٧٨٨ هـ ، إذ أرسل إليهم صاحب ماردين رسولا ينبىء السلطان أن « خارجيا » من التتار الجغطاوية يقال له « تمرلنك » استولى على البلاد وبلغ مدينة « تبريز » ، وخربها وقتل كثيرا من أهلها ، وهو على وشك الزحف إلى بغداد ، وأن صاحب بغداد القان أحمد بن أويس أخذ حذره لهذا الزحف .

وبعد قليل جاء رسول من القان أحمد ينبىء السلطان أن «تيمورلنك» استولى على مدينة « قرباغ » ، ونهبها وسبى أهلها ، ويطلب إليه الحذر ..

فأرسل السلطان برقوق الأمير « طغاى » ليتلمس أخبار هذا الطاغية فعاد إليه فى جمادى الآخرة عام ٧٨٩ هـ ، وأخبر أن « تيمورلنك » قد وصلت طلائعه إلى الرها وانهزمت أمامها جنود « قرا محمد » أمير التركمان ، وأن بوادر عسكره أيضا قد وصلت إلى ملطية . حينئذ أخذ السلطان برقوق يعد العدة للقتال . غير أنه قعد ثانياً عن عزمه حينما علم أن « تيمورلنك » انسحب إلى بلاده . — وكان برقوق قد أرسل طليعة إلى بلاد حلب ، فلما بلغت سيواس تقابلت بجند «تيمورلنك» وكسرته.

ثم إن « تيمورلنك » ماعتم أن كر على بلاد الأكراد ، ثم حاصر البصرة ، وتواترت الأخبار أنه يعد العدة لغزوها وفتحها . فساد الخوف بلاد مصر وهب

سلطانها برقوق يجمع الجند ويستعد للقائه. ولاسيما عند ما بلغته أخبار تيمورلنك في أوائل عام ٧٩٦ هـ بأن طلائعه وصلت إلى الرها. فخرج بحملته إلى بلاد الشام في ربيع الآخر فوصل دمشق في يوم الاثنين ٢٢ منه. ثم رحل إلى حلب. فعلم أن جنود «تيمورلنك» قد بلغت إلى البيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات. فأخذ جند مصر في عبوره ليلا - وقيل إنهم كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل فيعبرون بها إلى الضفة اليسرى - وأوقعوا بهم وغنموا منهم الشيء الكثير. ولكنهم لم يلتقوا جميعا في معركة حاسمة. ثم «رحل تيمورلنك» بلا منازلة، فعاد برقوق إلى مصر.

وفي عام ٧٩٩ هـ جاء رسول من «تيمورلنك» يطلب إلى السلطان برقوق إطلاق سراح «أطلمش» المأسور لديه. وهو قريب تيمور. فرفض برقوق، حتى يطلق «تيمور» ما لديه من الأسرى والنواب التابعين لمصر.

٦ — وفي عهد الملك الناصر فرج بن برقوق اعتدى جند «تيمورلنك» على بغداد، فاجتمع لصده صاحبها القان أحمد بن أويس ومعه قرا يوسف أمير التركمان، وكسروا الجند كسرة بالغة. وذلك في عام ٨٠٢ هـ. فلما انكسروا قصدوا مدينة «ملطية» وكانوا نحو سبعة آلاف نفس. ثم بعثوا إلى نائب حلب يطلبون إليه أن يخلي لهم مكانا لنزولهم. فهب نائب حلب ومعه نائب حماة ومعهما جنودهما ودارت دائرة الحرب بين العسكرين فانهزم نائب حلب وحماة وقتل من عسكرهما عدد كبير، منهم «جاني بك اليحياوي» أتابك العسكر بحلب، وأسر نائب حماة «دقماق المحمدي»، فاشترى نفسه منهم بالمال وعاد نائب حلب إليها مهزوما.

جاءت أخبار هذه الوقائع كلها إلى مصر في ذي القعدة من العام المذكور. فلما سمع بها السلطان فرج رسم لنائب الشام ونائب صفد ونائب طرابلس بأن يجمعوا جنودهم وييمموا شطر حلب ويقيموا بها.

وفي أوائل عام ٨٠٣ هـ أرسل نائب حلب رسولا إلى السلطان يخبره بوصول جند «تيمورلنك» إلى سيواس، وأن ملك بني عثمان والقان أحمد بن يس أو وقرا

يوسف توجهوا إلى مدينة « برصا » وتركوا بلادهم خوفا . وقيل إنه نهب مدينة سيواس ، وقتل أهلها ، يدفن بعضهم أحياء ، ويحرق البعض الآخر .

ثم جاءت الأنباء بامتلاكه عنتاب وغيرها ، ووصوله إلى الباب وبزاغا قرب حلب . وبعث يهدد نائب حلب ويغلظ له فى الحديث ، فخنق هذا وضرب أعناق رسل تيمورلنك ، وأخذ فى تحصين المدينـــة والاستعداد للقاء العدو بالمدافع والمكاحل والجنود . فما كان من « تيمور » إلا أن دلف إليها من ناحية قرية « جبلان » وأحاط بها . فخرج إليه عسكرها فبطش بهم « تيمور » بطشا بليغا ، ففروا إلى مدينتهم فى أسوأ حال ، وجنود « تيمور » فى أثرهم ، فقتلوا وسبوا من سبوا ونهبوا الشىء الكثير · وعاثوا بها وبأهلها فساداً ، وصارت المدينة أمامهم كالكلأ المباح. وذلك فى شهر ربيع الأول عام ٨٠٣ هـ . وقيل كانت القتلى أكواما مكدسة فى شوارع المدينة . حينئذ طلب نائبها ومن معه الأمان ، فأمنهم تيمور وامتلك زمام المدينة وقلعتها(١) .

سمعت مصر وسمع سلطانها وأمراؤها بأخبار تيمور ، وما أجرى على مدينة حلب من الشقاء . فسرى الألم فى النفوس وملك الخوف الأفئدة . وبعث السلطان الأمير « سودون بن زاده » والأمير « إينال حطب » لكشف الأخبار .

وقد علم بعد قليل أن « تيمور » أقام بحلب شهراً ثم انصرف إلى بلاد الشام ، وأنه بلغ جبل الثلج ، فأخذ السلطان فرج فى جمع جنوده وتنظيم صفوفهم استعداداً للقتال . ثم يمم بجنده الكثيف شطر البلاد الشامية فى شهر ربيع الثانى عام ٨٠٣ هـ ، فبلغ غزة . ثم سار إلى دمشق فبلغها فى يوم الخميس ٦ جمادى الأولى . ثم التقى من الجمعين طائفتان فانهزمت طائفة تيمور وولوا الأدبار .

قيل إنه لما وقعت الهزيمة فى صفوف التتار ، فر كثيرون منهم إلى صفوف سلطان مصر ، وانضووا تحت لوائه مظهرين الطاعة له . وعقب ذلك ظهر الخلاف

---

(١) أسهب السخاوى فى ذكر حوادث تيمور هذه فى ترجمته بالضوء ج ٣ رقم ١٩٢ .

بين أمراء السلطان وجنوده وانقسموا شيعاً وراجت الفتن وزايله من زايل ، فاضطره بعض من معه إلى العودة إلى مصر ، فعاد فبلغها فى جمادى الآخرة . ـ أقول لعل الوقيعة تسببت عن هؤلاء الدخلاء من جند التتار بين صفوف جند السلطان ،ولعلهم كانوا «طابورا خامسا» على حد تعبير الساسة فى عصرنا الحديث.

عاد السلطان فرج هذه العودة على الرغم من انتصار جنده ، وعلى الرغم مما قيل من أن « تيمورلنك » بعث إليه فى طلب الصلح . . . عاد السلطان فأخذ يعد عدة جديدة للخروج إلى بلادالشام ولقاء التتار فى موقعة حاسمة . وخاصةأن التتار لما علموا بنكوص السلطان وبالفتنة التى وقعت فى جنود مصر ، زحفوا إلى دمشق ووقعت معارك عدة بينهم وبين أهلها . ثم طلب منهم تيمورلنك أن يتفاهموا معه فبعثوا إليه من لدنهم سفيراً للمفاوضة وهو القاضى « تقى الدين بن مفلح الحنبلى » ومعه خمسة من أعيان دمشق. ثم عاد ابن مفلح إليهم وطلب إليهم الخضوع لتيمور وانحاز هو إلى جانبه، وأراد أن يفتح لجنوده باب النصر ليدخلوا منه إلى دمشق. فمنعه نائب القلعة وهدده بإحراق البلد كله إن فعل. وقد انقسم سكان دمشق فريقين فريقاً يريد التسليم ، وفريقاً يأباه . ثم أرسل « تيمورلنك » أمانا لأهل دمشق مع فئة من أعيانها، فقرىء عليهم فى جامع بنى أمية، ففرحوا به وفتحوا له أبواب مدينتهم! وبذلك سقطت دمشق فى يد تيمور . فلما امتلك ناصية الأمور فيها فرض عليها الغرامات الباهظة الثقيلة ، وكان زعيم جبايتها له القاضى ابن مفلح . فلقى الناس منه الأذى والسوء، إذ جمع ما لهم ودوابهم وألقى بها غنيمة باردة بين يدى تيمور، ومع ذلك لم يقنع بها وطلب منه سواها . فلما أخبره أن البلد أقوى وأقفر ، ولم يعد به مال ولا دابة، حنق به وقبض عليه وعلى أعوانه وقيدهم بالحديد ... ثم إن تيمورلنك قسم المدينة بين أعوانه لينزلوا بها ويجبوا منها الأموال كل فى قسمه . ثم أذاقوا أهلها مر العذاب من ضرب وقتل وهتك عرض وتعذيب مختلف الأنواع، وامتلأت ساحاتها بجنود التتار ينشرون فيها كل فساد وموبقة ... وظل الحال كذلك حتى شهر شعبان من عام ٨٠٣ هـ وفى مستهله أمر « تيمورلنك » بإحراق دمشق فاشتعلت

فيها النار وتداعت مبانيها وصوحت أرضها وأصبحت أطلالا بالية . . . وهذا جزاء الاستسلام والاختلاف . . . . .

ثم رحل « تيمور » عنها بعد فساد دام ثمانين يوما أقامها فيها . وقيل إنه أمر بالفتك بأطفال المدينة الذين بقوا بعد هذا الدمار كله فقتلوا جميعاً .

ومن عجيب الأمر أن « تيمور لنك » بعث إلى السلطان فرج يطلب إليه الإفراج عن « إطلمش » ـ قريبه الذى كان أسيرا لدى برقوق ولم يرض بإطلاقه ـ ويعتذر إليه عما بدر منه . . . فأطلقه فى مقابل أن يطلق « تيمور » سراح من عنده من الأسرى ، فأطلقهم . ورحل بحملته عن بلاد الشام .

حينئذ عين السلطان الأمير نوزور الحافظى نائبا على الشام ليصلح فيها ما أفسدته يد « تيمور » .

ومن لطف الله أن مات «تيمور لنك» ، وجاءت أخبار موته إلى مصر فى عهد السلطنة الأولى لفرج بن برقوق . وقد أثبت ابن إياس خبر موته فى حوادث عام ٨٠٤ هـ . وأثبتها ابن عربشاه فى كتابه «عجائب المقدور» عام ٨٠٧ هـ فى ليلة الاربعاء ١٧ شعبان . وذلك بعد أن ملك من أواسط آسيا إلى حدود الشام .

وطبيعى أن الفتن والحروب الكثيرة التى وقعت فى صفوف التتار وبين دولهم المتعددة فيما وراء الشام شرقا إلى أواسط آسيا ، بين الحين والحين كانت تعفى سلاطين مصر وأهلها وأهل الشام من مدافعتهم . ويضاف إلى هـــذا قيام دولة بنى عثمان واستحرار النزاع بينها وبين التتار وسواهم مما أقعد همة التتار فى الأجزاء الأخيرة من العصر الذى نحن بصدده عن انتقاص أطراف المملكة المصرية ، وإن كان بنو عثمان أنفسهم أصبحوا جارا وخصما خطرا عليها جديدا ، شغلها بكفاحه زمنا حتى أضاع استقلالها فى سنة ٩٢٣ هـ .

٢ ــ دفع الفرنجة عن ممتلكات مصر ودوائر نفوذها :

مما شغل بال سلاطين المماليك فوق انشغالهم بمدافعة التتار ، إغارة الفرنجة على ممتلكاتهم وطمعهم فى الاستيلاء عليها ، وما كانت الحروب التى وقعت بين الفريقين إلا امتدادا لتلك الحروب الصليبية التى اشتهرت فى العصور الوسطى مبتدئة من عهد الفاطميين فالأيوبيين . وكان الفرنجة قد أسسوا وملكوا مدنا عدة فى سواحل البحر المتوسط فى داخل بلاد الشام وحلب ؛ وأصبحت هذه المدن عبارة عن مستعمرات لهؤلاء الأوربيين . فعمل سلاطين مصر على استردادها منهم ومقاومتهم .

١ — ومن أشهر سلاطين مصر الذين قاوموهم : « الظاهر بيبرس » فقد حاربهم واسترد منهم أو غزا كثيرا من المدن التى انتزعوها فيما سلف أو أسسوها مستعمرات لهم فى الشام وسواحل البحر المتوسط الشرقية ، ومن هذه البلاد : قيسارية وأرسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا والمرقبة وحلب وبانياس وطرسوس .

وكان فتح صفد عام ٦٦٤هـ ، وفتح انطاكية ٦٦٦هـ ، وفتح قيسارية عام ٦٧٥ هـ .

٢ ـ ومنهم المنصور قلاوون ، وقد فتح حصن المرقب وجبلة ، وفتح طرابلس عام ٦٨٨هـ ، بعد أن حاصرها ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة بعد ٣٤ يوما (١) ومنهم الأشرف خليل بن قلاوون . فقد جرد على مدينة عكا جيشا كثيفا وسار إليها فى عام ٦٩٠هـ ونصب حولها ٧٥ منجنيقا وحاصرها عدة أيام ثم اقتحمها فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة من العام المذكور ، وهدم أسوارها . ومنها سار إلى جبت وبيروت فاقتحمهما . ويعتبر بعض المؤرخين سقوط مدينة عكا ومدن الساحل فى يد مصر عام ٦٩١ هـ نهاية للحروب الصليبية الدامية .

٣ ـ على أن ثمت وقائع أخرى تلت هذه منها : هجوم فرنجة جزيرة قبرص على ميناء الإسكندرية عام ٧٦٧هـ بقيادة حاجبهم فى أسطول عظيم يقال إنه بلغ

(١) العبر ج ٥ ص ٤٠١

سبعين مركبا مليئة بالعدد والعدة والخيول والفرسان ، فباغت سكانها ونضحهم بالنبل وأحرق باب المدينة واقتحمها ، ففر أهلوها منها وأصابهم فى فرارهم كثير من الأذى والسوء من عربان ضواحيها . أما فرسان قبرص فقد نهبوا من المدينة ما استطاعوا حمله ، وأسروا من أسروا ، ثم عادوا إلى سفنهم وأقلعوا إلى حيث أتوا . وكان نائب المدينة إذ ذاك قد فارقها للحج ، وكان سلطان مصر إذ ذاك الأشرف شعبان بن الأمجد حسين، وكان نائب سلطنته يلبغا العمرى. فكتب كتيبة وساقها إلى الإسكندرية حينما علم الخبر ، فوجد الفرنجة قد رحلوا عنها فامتلأ غيظا وحنقا ، وأمر بإصلاح ما أفسدوا . ثم هم بصنع عمارة بحرية قوية ، ولكن الأيام لم تعاونه (١) .

وذكر ابن إياس فى هذه الواقعة أن نائب الإسكندرية جمع عدد من عربان البحيرة والتقوا بالفرنجة القبرصيين فى معركة حامية فانكسر النائب ومن معه وفروا من وجههم . فأحرقوا باب رشيد ودخلوا منه إلى المدينة وعاثوا فيها فسادا ، ونهبوا وسلبو وقتلوا كثيراً من المسلمين ، ثم فروا قبل مجىء جند السلطان من القاهرة .

٤ ـ ومما يذكر أن السلطان الأشرف برسباى بعث تجريدة قوية إلى قبرص عام ٨٢٩ هـ ففتحها وأسر ملكها وجىء به إلى القاهرة مصفدا أسيرا ، معه عدد من جنده . وكان ملكهم راكبا وعليه خوذته وسلاحه . فأمر الأشرف بأن تعلق هذه الخوذة على باب مدرسته الواقعة بسوق الوراقين لتكون عبرة وذكرى .

٥ ـ وفى عام ٨٦٣ هـ استغاث ملك قبرص على أعدائه بملك مصر الأشرف إينال فبعث إليه تجريدة بقيادة الأمير يونس الدوادار ، فبلغت قبرص ولكن قائدها عاد بلا نتيجة وترك بقية جنده بها .

---

(١) العبر ج ٥ ص ٤٥٤ ـ البدائع ج ١ ص ٢١٤ .

٦ — وفى عهد الأشرف قايتباى أخذت جموع من الفرنجة يتلصصون على سواحل مصر الشمالية ويباغتونها بين الحين والحين ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم، ويأسرون من التجار وغير التجار من يقع لهم . وأكثر ما تلصصوا على سواحل دمياط والإسكندرية . فاهتم قايتباى للأمر وكان يعين لهم فى كل مرة تجريدة بحرية لتتبعهم وإرجاع ما أخذوا وقطع دابرهم. وفى عام ٨٨٠ هـ وقعت إحدى حوادثهم فى مدينة الإسكندرية حيث أغاروا عليها واحتالوا حتى أسروا عددا من تجارها ومن بينهم أخصاء للسلطان منهم ابن علبية يعقوب وعلى الكيزانى وعلى التمراوى . وحملوهم معهم إلى بلادهم . فأمر السلطان بالقبض على جميع تجار الفرنجة بثغر الإسكندرية، وبعث أحد خواصه وهو « قيت الساقى » لتنفيذ الأمر ، فاضطلع به ، وطلب إلى المقبوض عليهم أن يراسلوا ملوكهم بما فعل السلطان ليكون ذلك عبرة وعظة ولكى يطلقوا سراح تجار الإسكندرية حتى يطلق سراحهم فى مقابل ذلك . وقد تم الأمر وفق مشيئة السلطان وعاد الأسرى .

٧ — وفى عهد الأشرف الغورى نشط البرتغاليون إلى إيذاء مصر بدافع حقدهم عليها لما كانت تجبيه من الضرائب على البضائع المارة بها بين الشرق والغرب ، إذ كانت مصر هى الطريق الأهم بين الجهتين . فأخذوا فى التلصص على الشواطىء المصرية وغير المصرية من سواحل البحر الأبيض والأحمر وشرق أفريقيا ، يتلمسون السفن المصرية والمتاجر المصرية فيلحقون بها السوء . وكان من نتائج نشاطهم كشف طريق رأس الرجاء ، الذى هدد مصر فى مورد من أهم موارد ثرائها. وقد استغاث بالغورى عدد من أمراء الهند والعرب ممن تربطهم بمصر روابط اقتصادية ودينية ، زد على ذلك إيحاء هؤلاء الفرنجة الى ملك الفرس إذ ذاك بالإغارة على ممتلكات مصر واعديه بالمساعدة .

فاضطر الغورى إزاء ذلك إلى إنشاء عمارة بحرية بقيادة أحد أمرائه لردعدوان البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة فى شرق إفريقيا وبلاد العرب والهند . فظلت عدة سنوات ولكنها لم تفلح فى رد عدوانهم .

٣ ــ المحافظة على استقلال البلاد وبسط نفوذها

على الرغم من أن طبقة المماليك طبقة طارئة على البلاد المصرية ، وعلى الرغم من أنها طبقة متجددة تجددا خارجيا باستمرار ، اكتسبت بالإقامة والاستقرار صفة المصرية ، واتخذ سلاطينها وأمراؤها هذه البلاد لهم موطنا لا يعرفون لهم موطنا سواه . ولا بدع فقد جلبوا إليه أو نشئوا فيه صغارا ، وشبوا تحت سمائه وفوق أرضه ، وملأ هواؤه صدورهم حياة وحركة ، وحاطتهم نعمه أينما ساروا ، واتسع لهم صدره بما لم يتسع به لهم صدر غيره . وآل إليهم حسب تقلبات الأحوال ، حكمه . ونيطت بهم حمايته .

فلا غرابة إذن أن نصبوا أنفسهم ذادة عنه ومدافعين ، وحاطوا استقلاله بكل ضرب من ضروب الصيانة ، وغزوا باسمه فى كل مكان يحيط به ، ونشروا رايته على كثير من الآفاق المجاورة ، وأدخلوا فى حوزته عـــددا ضخما من البلاد . وأحسنوا سمعته بين دول العالم المعروفة إذ ذاك بصفة عامة ، وبين دول المسلمين بصفة خاصة . فانتشر صيت مصر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وامتد ملكها فى بعض أيامهم بل وفى معظم أيامهم إلى بلاد المغرب غربا ، والنوبة جنوبا ، وبلاد الحجاز والشام وحلب وضفاف الفرات شرقا ، وإلى قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط شمالا.

حافظوا على استقلالها ، وبطشوا بكل من بغى عليه ! واعتدى على أى طرف فى هذا الوطن . لذلك شغلوا جزءا كبيراً من زمنهم بالحروب الخارجية .

وحافظوا بصفة خاصة على بلاد الشام وحلب كأنما اعتبروهما جزءا من مصر لا يتجزأ . وعنوا بهما عنايتهم بالبلاد المصرية ، ونسقوهما من الناحية الإدارية نسقا مشابها للنسق الإدارى المصرى تقريبا ، فكانت مدنهما نيابات مصرية يعين السلطان لكل منها نائبا ، فمنها نيابة صفد وطرابلس وحلب وحماة ودمشق وغزة

وغيرها . وكان نائب دمشق يعتبر أكبر نواب السلطان بعد نائب السلطنة وكافلها المقيم بالقاهرة .

ومن أجلهما اعتركوا مع التتار والفرنجة ، وردوا كلا منهما مرارا عنهما . ومع ذلك لم يقتصر نزاعهم الخارجي على التتار والفرنجة فحسب ، بل كان هناك أمراء التركمان وملوك فارس وملوك بغداد وأمراء الأرمن وعربان الحجاز ، وغير هؤلاء وهؤلاء ، كثيرا ما طمعوا فى أملاك الدولة ، ووثبوا أو تحفزوا للوثوب عليها ، فهب لهم أمراؤها وردوهم على أعقابهم داحرين .

ومن أدهى ما ابتليت به السلطة المصرية ، قيام دولة الأتراك العثمانيين ، التى أسست على أنقاض الدول السلجوقية ثم الدول التترية المتبعثرة ، وملكت بلادا فى أرمينية وشرق الفرات فوق رقعتها فى بلاد الأناضول . لقد أخذ النزاع بينها وبين مصر يحتدم شيئا فشيئا منذ عهد الأشرف قايتباى ، فذادهم سلاطين مصر عنها ودفعوا غائلتهم وأوقفوا أطماعهم . ولكن ما زال شرهم يكبر ويستشرى ، حتى كانت الطامة الكبرى التى أصابت مصر على يدهم إذا فتتحها سلطانهم سليم الأول . بعد جهاد عنيف من سلطانيها الأشرفين الغورى وطومان باى .

هكذا حافظوا على مصر واستقلالها . ولولا ما طرأ عليهم من فساد فى النية و التواء فى الطوية وتنازع أملته الأهواء والمطامع ، لظل لها استقلالها مصونا ولتغير لها بهم وجه التاريخ . وما ذلك إلا لأن بهم نزعة استقلالية ملموسة واستفتالا فى سبيلها .

ولم يقف جهد المماليك عند هذا الحد ، بل كانوا يمدون يد المعونة إلى كل من لجأ إليهم واستنجد بهم من ملوك المسلمين وأمرائهم . فعاون الظاهر بيبرس الخليفة المستنصر بالله لرد عرش العباسيين من التتار . وساعد السلطان برقوق القان أحمد ابن أويس صاحب بغداد ضد التتار أيضا . وبعث الغورى عمارة بحرية لمعاونة ملوك الهند والعرب على الفرنجة العابثين بسواحلهم ، وذلك حينما جاءت رسلهم فى طلب النجدة . وأرسل الغورى أيضا رسله إلى ملوك الفرنجة يلفتهم إلى ضرورة الرفق

بمسلمى الأندلس وضرورة الكف عن محاصرة مدنهم فى نظير أنه يعامل رعاياه من الفرنجة معاملة حسنة ، مهددا بالإساءة إلى هؤلاء الرعايا إذا لم يستجب ملوك الفرنجة إلى ندائه . وذلك كله حينما ناداه صاحب الأندلس مستغيثا به من الحصار.

هكذا أتيحت فرص عدة لهؤلاء السلاطين ، بوءوا مصر فيها مركز الزعامة الحربية والسياسية والأدبية بين أمم المسلمين فى العصور الوسطى .

٤ — رصد الأوقاف وبذل الأموال وصنع البر :

من المفاخر التى تسابق إليها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأعيانهم إقامة الأوقاف ورصد الأموال الوفيرة على ضروب البر والإحسان . وسواء أكانوا مدفوعين إليه بعامل من الإيمان الصحيح بالله والعطف الحق على الفقراء والرغبة الخالصة فى عمل الخير ، أم كانوا مدفوعين إليه بعامل حب الظهور والرغبة فى المباهاة والسمعة والصيت فحسب ، أو بعامل الملق إلى الشعب وغض طرفه عن مساوئهم وأنواع ظلمهم أو بعامل الخوف على ذراريهم من الفاقة بعدهم إذ تئول أملاكهم إلى السلطان أو بأى عامل آخر من العوامل الاجتماعية أو الاقتصادية . فسواء أكان هذا أم ذاك فقد نشط المماليك إلى إنشاء الأربطة والسبل والمدارس والمساجد وأوقفوا عليها الدور والأراضى والأموال . وكثيرا ما كانوا ينتهزون فرصة عيد أو موسم أو جمعة أو أى ظرف آخر مناسب ويفيضون بالخير الكثير على الفقير والمحتاج من مال وطعام وكسوة فى البلاد المصرية أو الأماكن المقدسة أو غيرها . بل كان لبعض السلاطين عادات مرعية متبعة فى مناسبات خاصة يمدون فيها يد المعونة إلى المعوزين والمنكوبين . فكان هذا العمل من جانبهم حسنة من الحسنات خففت كثيرا من الويلات .

ونحن نسوق هنا طرفا من هذه الأعمال الخيرية نقلا عن ابن إياس لا على سبيل الاستقصاء والاستيفاء ، ولكن على سبيل المثال والاستدلال . فمنها .

١ — المستشفى المنصورى « البيمارستان » الذى أنشأه السلطان قلاوون عام

٦٨٢هـ ـ قال ابن إياس : وجعل له فى كل يوم من الرواتب ألف دينار ، ووقف عليه أوقافا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك . وشرط فى وقفه أشياء كثيرة من أنواع البر والخير مما لم يسبق فعله لأحد من الملوك من قبل ومن بعد .. فهو من حسنات الزمان تحتاج إليه الملوك ويفتقر إليه الغنى والصعلوك .

وقال مالخصه . إن سبب بنائه أن كان المنصور قلاوون قد أطلق مماليكه فى العوام وأمرهم بقتلهم فظلوا يقتلون منهم نحو ثلاثة أيام وذلك لتوهمه مخالفتهم ، ثم ندم على ماجنى وتقرب إلى الله بإنشاء هذا المستشفى «ج ١ ص ١١٦» .

٢ ـ فى عام ٧٠٢هـ وقعت زلزلة بالبلاد المصرية تهدم من جرائها عدة أبنية وأصيبت عدة مساجد منها الجامع الحاكى والمدرسة المنصورية وجامع الظاهر بالشوايين وجامع صالح بباب زويلة وجامع عمرو . فقام عدد من الأمراء بترميم هذه المساجد على نفقتهم الخاصة عام ٧٠٣هـ «ج ١ ص ١٤٦» .

٣ ـ ومن محسناتهم خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان : قيل إنها كانت ذات دين وبر وإحسان . أنشأت مدرسة بالتبانة ورتبت بها دروسا للمذاهب الأربعة ومجلسا للصوفية فى كل يوم ، وأسست مكتبا للأيتام وحوضا وسبيلا .

«ج ١ ص ٢٢٧»

٤ ـ وقيل إن السلطان برقوقا لما مرض فى أخريات حياته تقرب إلى الله بأن تصدق على العلماء والفقراء بمائتين وخمسين ألف دينار . وقيل إنه كان كثير البر والصدقات ، فمن ذلك أنه أوقف بلدا فى الجيزة ينتفع من إيرادها الحجاج المنقطعون بالحجاز ، وكان له فى كل يوم من شهر رمضان عشرون بقرة تطبخ وتفرق على على الفقراء ومعها ألف رغيف ، وكان يفرق فى كل سنة من القمح سبعة آلاف أردب فى الزوايا والمزارات . «ج ١ ص ٣١٤ ، ٣١٥»

٥ ـ فى عام ٨٢١هـ اشترك الطاعون والغلاء فى الهجوم على البلاد المصرية ،

فاستسقى السلطان المؤيد شيخ ثم ذبح بيده قربانا لله عددا من الأغنام والأبقار وفرقها على الفقراء ، وفرق كذلك عليهم ثلاثين ألف رغيف . « ج ٢ س ٦ »

٦ — وفى عام ٨٢٢ هـ كملت عمارة جامع المؤيد فأوقف عليه السلطان المؤيد شيخ أوقافا كثيرة ، ورتب فيه الدروس وأجرى على الحاضرين فيها الطعام .
« ج ٢ س ٧ »

٧ — ومن المحسنات خوند مغل بنت البارزى زوجة الملك جقمق « كانت دينة خيرة ولها بر ومعروف » ، عمرت جامع الشيخ مدين بالمقس ، ووقفت عليه أوقافا كثيرة . « ج ٢س ١٣٤ »

٨ — وفى سنة ٨٧٩هـ رمم السلطان قايتباى مسجد عمرو ورتب ثلاثين صوفيا يقرءون فى تربته الخاصة وبنى لهم عدة بيوت حولها للسكنى ، وأجرى عليهم الأرزاق من الخبز والزيت والصابون وغيره . « ج ٢ س ١٥٣ »

٩ — ولما حج قايتباى عام ٨٨٤ هـ بذل كثيرا من المال للفقراء فى طريقه وتصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار . ولما دخل المدينة المنورة فى أوائل عام ٨٨٥ هـ تصدق على فقرائها بخمسة آلاف دينار ، ثم إنه لما عاد إلى القاهرة من حجه هذا أخرج ستين ألفا من الدنانير الذهبية ليشترى بها قاضى قضاة الشافعية ما يناسب من أماكن أو ضياع أو غيرها ويجعلها وقفا لله على فقراء المدينة . فامتنع القاضى من ذلك ، فتولاه السلطان بنفسه وبنى ربوعا فى جهة باب النصر والبندقانيين والخشابين والدجاجين وغيرها .
« ج ٢ س ١٩٢ ، ١٩٤ »

١٠ — وفى عام ٨٨٦ هـ شرع قايتباى فى تجديد المسجد النبوى الشريف وتجميله وإعادة بناء قبته وتزويده بالحديد المرخم بدل الخشب وتغيير المنبر والمآذن . وبعث لذلك كبار المهندسين وعددا من البنائين والنجارين والمرخمين . وقد انتهى العمل منه فى أواخر عام ٨٨٧ هـ . وقيل أنفق السلطان فى ذلك نحوا من مائة ألف دينار . وفى عام ٧٨٨ هـ بعث قايتباى مع المحمل مقصورة من

الحديد للحجرة النبوية . « ج ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ »

١١ — ولما دخلت سنة ٩١٢ هـ تجمع عدد من الفقراء و « الحرافيش » فى يوم عاشوراء بأمر السلطان الغورى . وكانوا جمعا غفيرا ، ونزل السلطان بنفسه ووقف فوق سلم المدرج وصار يعطى كل إنسان من الفقراء رجلا أو امرأة ، كبيراً أو صغيراً ، أشرفيا من الذهب . وقيل إنه فرق فى ذلك اليوم نحوا من ثلاثة آلاف دينار . « ج ٤ حوادث عام ٩١٢ هـ »

١٢ — وفى ذى الحجة عام ٩١٣ هـ ، فرق السلطان الأضحية على العسكر وجماعة من المباشرين والفقهاء . « حوادث عام ٩١٣ هـ »

١٣ — وفى ٨ شعبان عام ٩١٤ هـ نزل الغورى إلى الميدان وجمعت له فقراء المدينة « وحرافيشها » فاجتمع خلق كثير من رجال ونساء ففرق عليهم لكل واحد منهم نصفين من الفضة . قيل إنه فرق فى ذلك اليوم نحوا من ٤٠٠ دينار .

« ج حوادث عام ٩١٤ هـ »

١٤ — وفى جمادى الآخرة عام ٩١٧ هـ ، نزل السلطان الغورى من القلعة وذهب إلى جامعه الذى أنشأه بالشرابشيين وإلى مدرسته ، فمد له هناك الأمير « خاير بك » مائدة حافلة . وأنعم السلطان فى ذلك اليوم على صوفية المدرسة وعلى البوابين والفراشين وأيتام المكتب بنحو من خمسمائة دينار . ولكل شيخ من مشايخ الدروس بعشرة دنانير أشرفية . « ج حوادث جمادى الآخرة عام ٩١٧ هـ »

١٥ — ومما فعله الغورى فى باب البر والإحسان أنه لما وقف له فى جمادى الأولى عام ٩١٩ هـ ، القاضى فخر الدين بن العفيف وشكا له ضيق حاله رسم له بألفى درهم فى كل شهر ، وزبديتين من اللحم فى كل يوم . وصنع مثل هذا الصنيع مع كثير من الناس فى الشهر المذكور ، ورد كثيراً من الرواتب والمجريات التى قطعت عن أهلها ، إليهم .

« حوادث جمادى الأولى عام ٩١٩ هـ »

١٦ — وفى يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة عام ٩١٩ هـ حضر طومان باى الدوادار وكان مسافرا إلى الصعيد لجمع الغلال ، وساق معه عددا كبيراً من مشايخ العربان فى الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المغل . قيل إن عليهم نحوا من سبعين ألف أردب من القمح ، فلما عرضوا على السلطان سأل عن سبب قيدهم ، فأخبره فسكت قليلا ثم قال : أطلقوهم جميعا فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى(١) .

« ج ٤ حوادث جادى الآخرة عام ٩١٩ هـ »

٥ — تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب

أفردنا لهذا الموضوع جزءا خاصا من كتابنا هذا ، وهو الجزء الثانى منه استوفينا الكلام فيه عن هذه الناحية لأنها من أهم ما نعنى به . وسقنا فى خلال بحوثه كلاما عن المدارس والمساجد التى أنشئت فى هذا العصر لارتباطها به أكثر من ارتباطها بغيره ، ولهذا لم نتعرض لذكرها فى الباب السابق وهو باب الكلام عن الأوقاف وأعمال البر والإحسان .

سيئاته

١ — احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية :

أعتقد أن أول فرض على سلطان البلاد ، وأولى الأمر فيها ، السهر على الرعية والمحافظة على كرامتها ، وإنهاضها من عثارها ، وتوجيهها إلى خيرها ، وتزويدها بوسائل القوة المعنوية وتقويم أخلاقها بطرق عملية ، وبث التعليم بين طبقاتها ، بسياسة ثابتة وخطط مرسومة دقيقة ، وإفهامها موضع حقوقها ومكان واجباتها لتسير فى حياتها وفق هذه الحقوق والواجبات ، فلا تشتبك فيها الأطماع ، ولا تختلف

(١) فى دار الكتب المصرية حجة شرعية مخطوطة تاريخها عام ٨٦٢ هـ صادرة من الأشرف إينال بوقفه على مدرسته بظاهر القاهرة خارج باب النصر . ومنه أملاك بطرابلس والشام ، وبالغربية بمصر وغير ذلك وهى رقم ٦٢ تاريخ .

الأهواء ولا تتضاد المصالح ، مادام كل فرد يضطلع بنصيبه الطبيعى من المسئولية.

بهذا كله تسعد الأمة . ويعيش الشعب عيشة هى أدنى إلى الكمال . والسعيد هو الذى يحكم شعبا سعيدا ، الثقة بينهما موفورة ، والمحبة متبادلة ، والروابط وثيقة تامة ، والصلة بينهما صلة ما بين الرأس والأعضاء فى الجسد الواحد .

فهل سرت هذه الروح الطيبة فى سلاطين مصر وأمرائها فى عصر المماليك ؟ وهل كان هدفهم الأساسى من نضالهم فى الداخل والخارج إسعاد هذا الشعب وتزويده بوسائل الرفاهية والطمأنينة والحياة الكريمة ؟ كلا ! ولن يستطيع إنسان ما أن يقول إن الشعب كان وجهة هؤلاء السلاطين والأمراء . بل إن طبيعة وجودهم والطريقة التى توخوها فى حكم هذه البلاد تتنافى تنافيا كليا مع ما كنا نرجوه أن يكون بينهم وبين الشعب .

ونحن نعتقد أن على أولى الأمر واجب إنهاض الشعب ، وتنبيهه ، وحسن توجيهه إلى غاياته هو الإنسانية لا إلى غايتهم هم الشخصية . نحن نعتقد ذلك لأن الشعب المربى المثقف الكريم الذى حسن توجيهه ، يكون أكثر صلابة على احتمال أعباء الحياة ، وأكثر تماسكا عند نزول الحوادث وأكثر إنتاجا وأوفر إيجادا ، وأعمق شعورا بلذة الحياة . وفى ذلك كله حياة أسمى لحكامه أنفسهم ، ومنزلة لهم أعلى وأشرف . لهذا نعتقد أن واجبهم الأول أيضا نحو أنفسهم ، هو إنهاض الشعب ، لأنه نهوض لهم هم وسمو لمكانتهم وعلو لمنزلتهم .

ولم تكن هناك فكرة كهذه الفكرة تتمشى فى عقول حكام مصر أولئك ، بل إن طريقة حكمهم — كما قلنا — تتنافى معها تنافيا كليا .

لم يكن هم المماليك إلا الاحتفاظ بحكم هذه البلاد فحسب. واستغلالها ، وتسخير أهلها فى مصالحهم الخاصة وجبى الضرائب منهم . فهم إذا كانوا قد دافعوا عنها ، ودافعوا كثيرا من أعدائها فى الخارج ، فما فعلوا ذلك إلا خوفا على سلطانهم هم أن يضيع ، وخشية على نفوذهم أن ينهار ، وحرصا على نعيمهم أن يزول ورهبة على دولتهم أن تدول .

هم عبارة عن شراذم من الأفراد جمعتهم ظروف واحدة ، وغاية واحدة فقرضوا أنفسهم حكاما لهذه البلاد ، دون أن يكون لأهلها رأى فيما فرضوه . ولم يرضوا لأنفسهم أن يندمجوا فى شعبها ، بل حافظوا على جنسيتهم ، وظلوا طبقة ممتازة ، لها تعاليمها الخاصة ، وتقاليدها الخاصة . وهم جيش الدولة وموظفوها . ولم يشركوا أفراد الطبقات الأخرى من الشعب فى شيء من ذلك كله إلا قليلا . مع أن للشعب حقوقا فيه طبيعية . ولكن الخطة التى انتهجوها فى معاملة الشعب وإقصاء أفراده عن كل نفوذ وسلطة ، جعلت هذه الحقوق مجهولة من الشعب إلى درجة أنه لم تكن تحوم له حولها آمال . . ولم يقع على نفسه يوما أن له حقوقا فى هذه النواحى . . وهذا موت أدبى شنيع ، وتلك هى الجناية التى جناها المماليك على الشعب المصرى .

ويتجلى إهمالهم للشعب فى عدة مظاهر منها : التعليم والجيش وملكية الارض والوظائف العامة ، والتقاضى . ولنتكلم كلمة يسيرة فى كل موضوع من هذه توضيحا له وبيانا فنقول :

ا ـ التعليم .

كتبنا فيما سبق فصلا عن ثقافة المماليك وطريقة تعليمهم ، وبينا فيه أنه كانت ثمة عناية بتنشئتهم تنشئة حربية ممتازة وأنهم كانوا يلقنون فى صغرهم ضروبا من الكتابة والقراءة ، وبعض آيات من القرآن الكريم ، وكانوا يراقبون مراقبة دقيقة ويؤخذون أحيانا بالحزم حتى ينشئوا نشأة خلقية صحيحة . فإذا ماشبوا دربوا تدريبا عسكريا ، وعاشوا عيشة رياضية بحتة تنمو فيها عضلاتهم ، ويمهرون فى فنون الحروب من كر وفر وحمل سلاح وضرب نشاب ورمى سهم ، إلى غير ذلك .

بينا هذا مفصلا فى الفصل المذكور . فهل كان هذا النظام مباحا لفرد من أفراد الطبقات الأخرى ، وهل كان هذا التعليم عاما لجميع الطبقات على السواء ، وهل كانت ثيكنات القلعة وطباقها مبيتا لغير طبقة المماليك ؟ . . كلا ! بل كان ذلك عليهم محرما .

أما طبقات الشعب الأخرى ، فقد كانت أمامهم أبواب المساجد مفتحة، يلجها من يشاء منهم بمحض رغبته ، ووفق ظروف حياته ـ وبين أفنية هذه المساجد يجدون من الشيوخ والمدرسين أصنافا عدة يلقون دروسهم على الناس ، ولمن يشاء، دون أن يتجشم فى سبيل ذلك مالا يدفعه لقاء تعليمه .

وهذه الطريقة التعليمية نشعر بما فيها من ملاحة وجودة وتيسير ومعونة لطالب العلم ، إذ التعليم فيها حر وبالمجان . بل كانت المعونات المادية تتوالى على طلاب العلم والمنقطعين له تواليا مشكورا . وبذلك كله تقوى النزعة إلى العلم الصحيح وتشتد الرغبة فيه ، وتنتج نتيجتها المرجوة .

هذا حسن ! ولكننا هنا ننظر إلى المسألة من ناحية أخرى . ونسأل . هل كان السلاطين قد سنوا هذه السنة التعليمية لتثقيف الشعب باعتبار أنها حق من حقوقه وعلى أن له أن يتعلم ، وعلى أنها واجب عليهم نحو الشعب يقومون به ؟ .

الجواب على ذلك : كلا ! بل إنما كانوا ينشئون المدارس ويشيدون المساجد، ويقررون بها الدروس المختلفة، ويرتبون بها مشايخ العلم والفقهاء والمدرسين، صدقة على الشعب وعلى محبي العلم من أفراده يتقربون بذلك إلى الله سبحانه وتعالى ونحن نحمد لهم الزلفى إلى الله ، ولكننا نشعر بفرق بعيد بين من يقوم بعمل هو واجبه الذى يشعر بالإثم والجناية لو تركه ، ومن يقوم بهذا العمل صدقة وزكاة ونافلة لا يشعر بالإثم والجناية لو تركه ، هناك فرق بعيد بين الشعورين وبين العاطفتين ، فرق كبير بين اعتبار الشعب صاحب حق يؤدى إليه ، وبين اعتباره مستجديا يتصدق عليه .

بهذه الروح وبهذا الشعور وبنفس العاطفة كان سلاطين المماليك وأمراؤهم يقومون بنشر العلم . وهى روح وشعور وعاطفة تسيء إلى كرامة الشعب أكبر إساءة ، فإن الشعب من حقه أن يتعلم ، ومن حقه أن تيسر له وسائل التعليم ، ومن حقه أن تنظم له طرق التعليم ومناهجه تنظيما دقيقا يوصله إلى غاياته ويوجهه إلى سعادته .

ولعلنا نشعر بغضاضة إذا قلنا إنه يندر أن نجد بين المماليك من اندمج فى غمار الشعب وتلقى العلم كما يتلقى أفراد منه ، وتتلمذ لبعض مشايخه كما يتتلمذون . وانقطع إلى طلبه كما كانوا ينقطعون . ثم أصبح من بعد شيخا يشار إليه فى علم أو أدب . . وإن كان ثمة من كتب أو نظم أو تفقه فهو نادر .

ب ـ الجيش :

لم يسن سلاطين المماليك هذه السنة التعليمية التى أشرنا إليها إلا لتنشئتهم أسرة عسكرية ضخمة يكون سوادها جنودا ، وتكون خاصتها أمراء عليهم ، ويقطعون لكل منهم الإقطاع الذى يناسبه . وسواء أكان جنودهم هم الجنود السلطانية الذين ينفق عليهم السلطان من الخزائن الشريفة . أم كانوا أتباع الأمراء . فالجميع سواسية فى هذا الشعور وفى هذا التوجيه .

ولم يكن يسمح لفرد من أفراد الشعب من غير الطبقة المذكورة أن يندمج فى عدادها وينغمر فى غمارها ويصبح عضوا من أعضاء هذا الجيش ، وكيف يتسنى لفرد أن يندمج هذا الاندماج وهو لم يثقف ثقافة عسكرية ، ولم يتدرب التدريب الرياضى المناسب الذى يؤهله لهذه العضوية ؟

كان غرض المماليك من هذا أن يظل جيشهم سليما من الشوائب الغريبة ! متجانسا بريئا من كل عضو دخيل ، ومن غريب الأمر أن كانوا يفضلون الجنود الأتراك أو الجراكسة الجدد الطارئين من الخارج والوافدين مع تجار الرقيق ، على ناشئة البلاد وشباب الشعب المقيمين فى داخل هذا الوطن . وكأنما كانوا يظنونهم طبقة عاملة لا تصلح لحرب أو ضرب ، أو تفيد فى قتال أو نزال ، وكأنما ظنوها خلقت وليس فى طبيعتها همة تقدرها على الثبات فى ميادين الوغى ، أو أنها طبيعة متأبية على الفنون العسكرية ، تلك الفنون التى كانت وقفا على الجنس التركى فى ذلك الحين ....

ومع ذلك لم ينج الجيش من اختلاف الجنسية ، ولم ينج من الحزبية التى تشعبت بتشعب الملوك والأمراء ، فكان لكل منهم طائفة تنتمى إليه ، فكان منهم فى

بعض الظروف : المماليك الأشرفية وغير الأشرفية . والمماليك الجلبان والمماليك القرانصة . وأكثر ماطرأ هذا الفساد فى القسم الأخير من العصر .

ومع هذا كله ، كانت نظم جيشهم تنفر دون قبول فرد من أفراد الشعب ، وكيف كان يتسع صدرها لقبول فرد منه وهم ينعتون هؤلاء الأفراد بالفلاحين تارة ، وتارة بالعوام والزعر . . !

هذه الحالة التى وصفناها أقرت فى نفس الشعب شعورا عجيبا أوفكرة عجيبة وهى أن هؤلاء السادة طبقة ممتازة حقا منحها الله حكم هذه الديار ، وأصبحوا ولاة أمرها بما لهم من قوة وشجاعة وجاه وحيلة ، وليس على الشعب سوى طاعتهم والائتمار بأمرهم والانتهاء بنهيهم ، ودفع ما يطلبون من الضرائب ، وقد ألقت المشيئة أمر الدفاع عن البلاد على كاهلهم وحدهم . والله يولى منهم من يصلح ..

وقد يعجب قارىء ويعترض على هذا ويحتج بأن كثيرا من العامة وعربان البلاد اشتركوا فى بعض الحروب ورجحوا كافة سلاطينهم ، وهذا صحيح ، ولكنهم كانوا يقاتلون معهم لا على أساس ثابت ونظام موضوع ، بل هو أمر مرتجل تدعو إليه الساعة الشديدة والحدث القاسى المشترك . على أن هؤلاء العامة والعربان يغلب عليهم اشتراكهم فى القتال ، إما بدافع دينى أو حبا فى النهب والسلب والاستحواذ على ما يمكن الاستحواذ عليه بأى طريق ، ولم تكن غايتهم المستقرة فى نفوسهم غالبا ، الدفاع عن الوطن ، باعتباره وطنا . هذا على الرغم من ادعاء بعض العربان حينذاك أن البلاد بلادهم دون الأتراك .

ولا أدل على ماوصفنا من أن الصلة الروحية لم تكن قوية بين جيش البلاد وأفراد الشعب إذ كان هؤلاء الأفراد ـ كما قلنا ـ يشعرون أن هـذا الجيش مسلط على الشعب لحكمه وإخضاعه فحسب ، وقليلا ما تجلى عطف الشعب على جيشه المحارب ، أو زوده هذا العطف بقوة معنوية اعتمد عليها ، أو شعر الجيش نفسه أنه فى حاجة إلى هذا العطف عليه .

وهذا غير ما نفهم فى عصرنا الحديث ـ على الأقل ـ من متانة الصلة بين الأمة وجيشها ، ومن أن الأمة تعتبر جيشها أعز فلذها ، وأنه يضم أفضل بنيها وأحبهم إليها ، وتظل توليهم عطفها ومحبتها الدائمة ، وتظل عواطفها متعلقة بهم ، ليدافعوا عنها بنفسية قوية كما يدافع العاشق عن معشوقه ، وكما يدافع الولد عن أمه وأبيه ، وكما يدافع الرجل عن نسائه وبنيه ـ وإن أفراد الأمة الآخرين ولو لم يشتركوا ـ كما اشترك أفراد الجيش ـ فى قتال الأعداء فهم مشتركون معهم بالنفس والروح والقلب والعقل والعاطفة والمال وبكل شىء ، وهم على قدم الاستعداد للانضمام إلى صفوفهم إذا دعت الحاجة ، وينتظر كل منهم دوره فى الذود عن وطنه بصبر فارغ ، وقلب يملؤه الشوق .

ولا ينهض حجة علينا ما قد يصادفه القارىء ، حين يقرأ أخبار الفتوح والانتصارات التى تمت على يد سلاطين المماليك ، من أن الأفراح قد سرت فى البلاد وأن الزينات انتشرت فى أرجائها ، ودقت الطبول ... إلى آخر ما هنالك ، فأغلب الظن أن هذه مظاهر رسمية قليلا ما اشترك فى إقامتها أفراد الشعب عن إخلاص أو صدرت منهم عن عاطفة قلبية عميقة صادقة .. وإن كانت هذه الفتوح موافقة لهواهم .

وإلا ! فكيف نفسر امتناع بعض المصريين عن دفع الضرائب المتأخرة عليهم حينما طلبها منهم نائب الغيبة الأمير «طومان باى» بعدما كان سلطان البلاد الأشرف الغورى يقاتل العثمانيين فى « مرج دابق » وكان «طومان باى» فى حاجة قصوى إلى المال لتعزيز القتال وإقامة الاستحكامات فى مصر انتظارا للقاء العثمانيين .. امتنع هؤلاء عن دفع المتأخر عليهم ، وكانت حجتهم فى ذلك أنهم لا يدرون لمن تكون البلاد ، ومن سيكون وليها الشرعى ! . الذى تجب تأدية الضرائب إليه . ! وقالوا إنهم صابرون حتى تنجلى هذه المعارك ثم يدفعوا هذه الضرائب لمن يغلب وتخضع له البلاد . . . وحسبنا هذا .

(ج) ملكية الأرض :

بعد أن دخل العرب مصر ، تصرف حكامها فى الأراضى الزراعية ، ثم اتبع نظام « القبالات [1] » . ومعنى ذلك أن تقسم الأراضى أقساما ، ثم ينادى عليها قسما قسما فى « مزاد علنى » ، ويتقدم فيه لقبولها من يشاء من أهل مصر . ويتزايد الناس فى تقدير خراج القسم المعروض ، حتى يرسو المزاد على أحدهم ، بما قدره من خراج يتعهد بدفعه فى مواعيده ، بعد أن يخصم منه مقدار المال الذى أنفقه فى استصلاح أرضه . وكان هذا الخراج بمثابة إيجار الأرض لمدة معينة ، ويدفع خراجها المقدر سنويا ، حتى تنتهى مدته . وحينئذ يعاد النداء على الأرض ويعقد لها كتاب الخراج مزادا جديدا ، وهكذا .

واعتادوا إثر كل ثلاثين سنة ، أن يعيدوا تقسيم الأراضى تقسيما جديدا ، على ضوء التجارب وباعتبار مازاد منها واتسع واستصلح ، أو ماقل وضاق وبار ، وهذه اعتبارات لها اتصال بتقدير خراجها الجديد . وظل نظام « القبالات » متبعا حتى حل محله نظام الإقطاع ،

ونظام الإقطاع عبارة عن تقسيم الأراضى الزراعية أقساما أو إقطاعات أو « دوائر وتفاتيش » بلغة عصرنا . ثم يختص السلطان نفسه بنسبة خاصة من هذه الإقطاعات . ويمنح البقية لأمراءه وجنوده فحسب . أما عامة الشعب فقد حرموا ملكية الأراضى أو إيجارها .

ويبدو أن نظام الإقطاع اتبع منذ عصر صلاح الدين الأيوبى [2] . ثم ظل سائدا فى مصر طيلة عصر المماليك ، فكان فى جملة مساوىء العصرين .

---

(١) الذى نفسه من كلمة القبالات « الأراضى المقبولة بما عقد عليها من خراج » ومفردها قبالة ، وفى رأينا أن فاءها مثلثة ، وكلها يؤدى المعنى . قال فى المحيط ما مؤداه : قبالته بالضم تجاهه . وقبلت المرأة كعلم أخذت الولد عند الولادة ، قبالة بالكسر . وقبلت العامل العمل تقبلا نادر ، والاسم القبالة .

(٢) مقدمة تقويم النيل ص ١٢٤ .

وصاحب الإقطاع يستغله لنفسه ما دام ممنوحا له ، سواء فى ذلك السلطان أم الأمير أو الجندى . وجميع السكان الذين يعيشون فى الإقطاع ، ويفلحون أرضـــه، أجراء بل خدم وعبيد لصاحب الإقطاع . وقد عرفوا من ذلك الحين « بالفلاحين » قال المقريزى فى خططه [١] :

« واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم . لا يعرف هذه الأبذة التى يقال لها اليوم « الفلاحة » . ويسمى المذارع المقيم بالبلد « فلاحا » قرارا . فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ، ومن ولد له كذلك . . . » .

والإقطاعات لاتورث ، بل ترد إلى يد السلطان إذا مات أصحابها ، ليعود السلطان بدوره، فيهبها لمن يشاء ، ولمن يستحقها من جديد . ومن هنا نفهم السر فى أن الأمراء كانوا يستغلون إقطاعاتهم إلى أقصى حدود الاستغلال ، لمصلحتهم الخاصة ، لكى يحوزوا من المال البعيد عن الإقطاع ، الشىء الكثير . وكثيراً ما كانوا يستعينون على استبقاء مافى أيديهم من ممتلكات بوقفها،حتى لا تمتد إليها يدالسلطان فى حياتهم أو بعد موتهم ، وحتى ينتفع بها ذراريهم . وأفراد الشعب على كل حال ، محرومون الملكية أو الانتفاع من أراضى بلادهم الزراعية ، إلا ما قد يصيبهم من الأجر على العمل ، أو المعونة من مال الأوقاف .

وقد قال ابن خلدون : « ولقد وقع لهذه العصور بمصر ، منذ مائتين من السنين فى دولة الترك ، من أيام صلاح الدين بن أيوب ، وهلم جرا . وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لماله عليهم

---

(١) الخطط ١ ص ١٣٨ .

من الرق والولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته . فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة ، يجعلون فيها شركاء لولدهم بنظر عليها أو نصيب فيها . مع مافيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال . فكثرت الأوقاف . » .

على أن السلطان كان يتصرف أحيانا فى الإقطاع ، فيسترده من صاحبه ـ لدواع من الرضا أو الغضب ـ فيمحنه إقطاعا آخر جديدا أكثر غلة ، أو يحرمه فيرسله « طرخانا » ـ أى عاطلا ـ وينفيه إلى القدس أو مكة مثلا . كما أن بعض السلاطين كان يجترىء على ما أوقفه أمراؤه ، فيأمر بحله . وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون بحل ما أوقفه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار نائب سلطنته . (١)

وقد وفى المقريزى فى خططه الحديث عن « القبالات » (٢) . أما الإقطاعات فقد اشتهر فى عصر المماليك تقسيمان لها يسميان « الروكين » هما الروك الحسامى ، والروك الناصرى . (٣)

أما الروك الحسامى . فقد تم فى عهد المنصور حسام الدين لاجين . قيل : إنه لما أفضت إليه السلطنة ، راك البلاد ـ أى قسمها ـ وذلك لما رأى أن الأرض ٢٤ قيراطا، منها ٤ للسلطان ، و١٠ للأمراء ، و١٠ للأجناد وكانت إقطاعات الأجناد لا تصل إليهم ، لتغول الأمراء عليهم ، فدخلت فى إقطاعاتهم . فأبطل السلطان هذا التقسيم ، وجعل للأجناد والأمراء عشرة قراريط ، وللسلطان أربعة، ولخدمه العسكر تسعة ، وواحد لزيادة من عساه يطلب الزيادة .

فكان هذا سببا لتنكر قلوب الأمراء له ، وسرعان ما ذهبت دولته عام ٦٩٨هـ . ولما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى سلطنته عودته الثانية ، راك البلاد من جديد . وعرف روكه بالروك الناصرى وذلك عام ٧١٥ هـ .

---

(١) الخطط المقريزية ج ١ ص ١٤٥ .

(٢) الخطط المقريزية ج ١ ص ١٣١ .

(٣) ج ١ ص ١٤١ .

أما الروك الناصرى ، فملخص ماقيل فيه : أن الناصر بن قلاوون رأى أن يروك البلاد المصرية روكا جديدا عام ٧١٥هـ . فأبطل مكوسا كثيرة . وقد نظم له هذا العمل القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش . فأرسل الأمراء والكتاب والقياسين إلى النواحى للاطلاع على « مكلفات » كل ناحية وضبط مافيها من حيوان ومالها من غلة ، وماعليها من خراج . ثم القيام بقياس كل ضيعة ، وتطبيق ذلك على « المكلفات » والأوراق ، مسترشدين فى ذلك بأهل الإقطاع ومشايخه وعدوله وقضاته . وقد أنجز هذا العمل فى نحو ٧٥ يوما ، ثم انقسمت كل الأراضى إلى عدة مثالات — أقسام — منها الكثير الغلة ، ومنها القليل الغلة . وقام السلطان بعرض عام ، استعرض فيه الجنود جنديا جنديا ، كل طائفة مع مقدمها ، يقدمها نقيب الجيش أمام عيون الأمراء فيسأل السلطان الجندى عن اسمه وسنه ومولده ووفوده على مصر ، والحوادث التى اشترك فيها ، إلى غير ذلك ، ثم يمنحه مثالا .

هكذا وزع الناصر الأراضى على أمرائه وأجناده مستبقيا لنفسه عشرة قراريط من مجموع الأراضى ، اختار مواقعها حسب مشيئته . وترك لجنوده وأمرائه أربعة عشر قيراطا . فكانت نسبة التقسيم ١٠ : ١٤ ، ويبدو أن تعديلات متكررة قد أدخلت على هذا التقسيم ومواضع الإقطاعات ، دون أن تمس نسبته . ومنها ماوقع فى عهد الأشرف شعبان والظاهر برقوق .

ومما يتصل بهذا الموضوع ، ما أورده ابن إياس عن السلطان الغورى ، قال إنه : « أحدث شيئا لم يفعله أحد من الملوك قبله ، وهو أنه نقص من إطلاقات الأمراء أشياء كثيرة ، وأخذ منهم الحلوان زيادة عن العادة . فنقص من إطلاق الأمير الكبير سودون العجمى مائتى فدان . وكان قبل ذلك سلخ من إقطاعه جهات بنحو من عشرين آلاف دينار ، كون أنه كان لين الجانب فاستضعفه . ونقص من إطلاق بقية الأمراء المقدمين كل واحد مائة فدان ، ومن إطلاقات الأمراء الطبلخانات كل واحد عشرين فدانا ، ومن إطلاقات الأمراء

العشرات كل واحد خمسة عشر فدانا » . (١) .

ويبدو أن من الأمراء والمقطعين من كان يدفع أرضه إلى الزراع يفلحونها ويزرعونها وينالون من غلتها لقاء مال يفرضه عليهم صاحب الإقطاع . وكثيرا ما كان السلطان يفرض على هؤلاء المساكين الغرامات الفادحة ، ويسخرهم فى إعداد جمال أو دواب ، أو تقديم شيء من التبن والغلال والفاكهة ، لقاصد يمر بهم ، أو أمير يجتاز إقطاعهم ، أو تجريدة أشخصت لقتال أو إخماد فتنة .

ومهما يكن من شيء . فقد كان نظام الإقطاع ذا أثرين سيئين بارزين ، أولهما إغراء الأمراء بالإسراف، والمباهاة وحب الظهور ، والإمعان فى الترف والملاذ، لكى تمتص هذه الأمور ثراءهم قبل أن تنتهى حياتهم فيئول إلى السلطان ، ولما يمتعوا به . وثانيهما فقر الشعب فقرا أورثه الهم والخمول والشقاء .

(د) الوظائف العامة :

إذا استثنينا وظائف القضاء والكتابة وما إليهما ، وجدنا وظائف الدولة عسكرية ، لا يليها إلا الأمراء ، سواء فى ذلك إمارات الجند وغيرها ، حتى ما كان منها أبعد عن الجندية وأدنى إلى غيرها مثل الحسبة. فلم يكن لفرد من الشعب مهما سمت همته أن يصل إلى منصب منها إلا نادرا جدا ، وفى أحوال فردية ، وبذلك حرم الشعب الهيمنة على إدارة شئونه . كما أن تصرف الموظف فى شئون وظيفته كان منوطا برأى السلطان ، إذ كانت المناصب ذات متات وثيق به ، وكلها تسهر على خدمته ورعايته وتنفيذ إرادته .

أما العمل فى مجال القضاء والكتابة فلا يتفق وطبيعة النشأة التى نشأ عليها أمراء المماليك . ويندر أن نجد لأحدهم اجتهادا فى فقه ، أو بروزا فى أدب، أو مشاركة فى علم . والدولة فى حاجة إلى قضاة يحكمون بين الخصوم بما أنزل الله ، حتى لا تتعطل

---

(١) البدائع ج ٤ حوادث شعبان سنة ٩١٨هـ ــ والإطلاق أرض معفاة من الضرائب «راجع السلوك ج ١ ص ٧٨٨ ــ هامش » .

مصالح الناس . وفى حاجة إلى كتاب نابهين فى العربية لضبط أمورها وحسابها ـ وكانت قد اتخذت العربية أداة لتفاهمها الرسمى ـ لهذا لجأت مضطرة إلى استخدام القضاة والمنشئين والكتاب من البارزين بين أبناء الشعب ، فى مناصب القضاء والكتابة ، وهؤلاء هم المتخرجون فى المساجد ، ويعرفون « بالمتعممين » .

وقد يكون لبعض هؤلاء نفوذ ما وجاه ، لما يتحلون به من فضل وعلم، ولما يعرفون به من ورع وتقوى. ومن هؤلاء قضاة كان يؤخذ رأيهم عند فرض الضرائب الجديدة ، وفى مال الأوقاف عند الحاجة إلى شيء منه. ويستشارون فى الحرب قبل إعلانها . كذلك كان بعض كبار الكتاب من أصحاب ديوان الإنشاء وكتاب السر يبلغ نفوذ أحدهم إلى مثل مايبلغه وزير الخارجية فى زماننا . فترد إليه المكاتبات الخارجية ويرد عليها ، بعد أخذ رأى السلطان .

هؤلاء وهؤلاء ـ إن جاز أن نعتبرهم ممثلى الشعب فى هذه الدولة ـ لا ننسى أن تعيينهم فى وظائفهم كان رهنا بمشيئة السلطان وحده ، لهذا غلب عليهم الخضوع له . وأن حوادث نفوذهم فردية . وأن آراءهم استشارية فحسب . وممن برزوا منهم ، وكان لهم رأى مسموع : عز الدين بن عبد السلام فى عهد بيبرس . وسراج الدين عمر البلقينى فى عهد برقوق . وأمين الدين يحيى الأقصرائى فى عهد قايتباى . وزكريا الأنصارى فى عهد الغورى . وكلهم من رجال الدين . ومحيى الدين بن عبد الظاهر فى أيام بيبرس . وشهاب الدين بن فضل الله . وأخوه علاء الدين . وعلاء الدين بن الأثير فى أيام الناصر بن قلاون . وناصر الدين محمد بن البارزى ، وتقى الدين بن حجة الحموى فى أيام المؤيد شيخ . وكلهم من رجال القلم .

(هـ) التقاضى :

كانت قوانين القضاء المعمول بها ، مستمدة من الدين الحنيف ـ كما بينا فى فصل القضاء ـ والمتخاصمون متساوون أمامها . وهذا مايحمد عليه العصر . ولكن وجود حاجب الحجاب وأعوانه وإعطاءهم حق الفصل فى قضايا المماليك ، ثم اتساع

نفوذهم بعض الأيام ، يشعرنا بأنهم كانوا يتأبون على التساوى مع عامة الشعب أمام القانون .

ولا نترك هذا الباب دون أن نقول إن المماليك ، إلى جانب حرمانهم الشعب حقوقا كثيرة ، كانوا ينظرون إلى طبقاته على اعتبار أنها طبقات منحطة، لا تصلح لحكم ولا رياسة . ولعلهم كانوا يصدرون فى ذلك لا عن عقيدة « ولكنها شهوة الحكم وحب الاستئثار به ، وجهتهم هذه الوجهة. وكانوا يطلقون على عامة الشعب « الفلاحين أو الزعر » ـ كما مر ـ .

ومن لطيف ما انساق إليه ابن إياس متأثرا بهذه الروح السائدة ـ ج ٤ حوادث ربيع الثانى عام ٩٢٠ هـ ـ قوله عن شمس الدين بن عوض من رؤساء عصره :ـ «ولما صار شمس الدين بن عوض من جملة الرؤساء، لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى ربى عليه . فكانت عمامته عمامة الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث .. ولم ينطل فى رياسته . فكان كما يقال :

فقيه ريف يقول إنى   برعت فى العلم والرواية
فقلت لا شك أنت عندى   تصلح للدرس والدراية »

٢ ـ فداحة الضرائب وتعدد أنوعها :

لا بد للدولة من أن تفرض على رعيتها ضرائب مختلفة لتكون وسيلتها إلى الإنفاق على شئونها . ولكن بشرط العدالة والمساواة ، والتبديل فيها والتغيير حسب مقتضيات الأحوال .

وقد كانت الأراضى الزراعية ملكا للسلطان ـ كما بينا ـ يقطع منها من يشاء من أمرائه وجنوده ، فى حدود أربعة عشر قيراطا . ويزرع « الفلاحون » هذه الأراضى ويؤدون ثمراتها للمقطعين، فيؤدون بدورهم مافرض عليهم للسلطان من خراج إقطاعاتهم .

وبجوار طبقة الزراع ، طبقات التجار والصناع وأرباب الحرف ، وملاك

المنازل وسكانها . هؤلاء جميعا كانت تفرض عليهم ضرائب أخرى ، فى نظير مزاولة البيع والشراء أو فى نظير الحراسة أو نحو ذلك .

ويخيل إلينا أن السلاطين لم يتركوا ناحية يستطيعون فيها فرض ضريبة إلا سلكوها . وكثيراً مافرضوها ظالمة فيها الشطط الكثير ، وفرضوها دون أن تدعو إليها مصلحة عامة، بل كثيرا ما فرضوها للمصلحة الخاصة . ولكى يسدبها السلطان أفواه الثائرين عليه من الجنود. وكثيرا ما انتهز السلاطين فرصة الحرب لفرض الضرائب الفادحة بدعوى الإنفاق عليها. ومنهم من تطلع فى هذه المناسبة أو فى غيرها ـ إلى مال الأوقاف، ومنهم من أثقل على أرباب المناصب بالمصادرات وفرض الغرامات الباهظة ، عند وقوعهم فى خطأ ما. فكانت هذه الغرامات لونا من ألوان الضرائب المستورة التى أثقل بها كاهل الناس . ومن الحق أن نذكر أن بعض السلاطين ـ مثل الناصر بن قلاوون ـ كان يلغى شيئا من الضرائب المفروضة أو يخفف منها، فيلهج الناس بالثناء عليه ، ويضجون له بالدعاء...ولكنها حوادث فردية ونادرة .

ونسوق هنا عددا من الأمثلة على الضرائب وثقلها ، وعددا من الحوادث التى تشعرنا بظلم هذا العصر وفداحة مكوسه . فمن ذلك ما ذكره المقريزى فى خططه بالجزء الأول عند الكلام عن الروك الناصرى. قال ما ملخصه: إن السلطان الناصر محمدا أبطل ضروبا من المكوس والمقررات فمنها :

١ — مكس ساحل الغلة : « وكان جل متحصل الديوان . وعليه إقطاعات الأمراء والأجناد. ويتحصل منه فى السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم . وعليه أربعمائة مقطع ، لكل منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف . ولكل من الأمراء من أربعين ألفا إلى عشرة آلاف. وكانت جهة عظيمة .. لهامتحصل كثير جدا . وينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى . ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم . فإن مظالمها كانت تتعدد مابين نوتية تسرق، وكيالين تبخس ، وشادين وكتاب ، يزيد كل منهم شيئا . وكان مقرر الأردب درهمين

للسلطان، ويلحقه نصف درهم غير ماينهب ويسرق وكان لهذه الجهة مكان يعرف «بخص الكيالة»، فى ساحل بولاق، يجلس فيه شادوستون متعمما ما بين كتاب ومستوفين، وناظر وثلاثون جنديا مباشرون. ولا يمكن أحدا من الناس أن يبيع قدحا من غلة فى سائر النواحى. بل تحمل الغلات حتى تباع فى «خص الكيالة» ببولاق.

٢ — نصف السمسرة عبارة عن أن البائع يدفع عن كل شىء يبيعه بمائة درهم نحو درهمين يدفعان للدلال. فقرر على الدلال دفع درهم من الدرهمين. فأخذ كل دلال يبذل جهده لاستيفاء هذا الدرهم من البائع نفسه، حتى لا يقل نصيبه، فأصاب الحيف كل بائع، وعلا الضجيج والشكوى من الدلالين، ولا من مغيث ولا سامع.

٣ — رسوم الولاية: ضريبة يجبيها الولاة والمقدمون من عرفاء الأسواق وبيوت الدعارة. وكثيرا ما نال الناس منها ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجوم على بيوت الناس.

٤ — مقرر الحوائص[1] والبغال: وكان يجبيه من القاهرة وسائر مدن مصر، الولاة والمقدمون أيضا، ويحمل متحصله إلى بيت المال. ويجبى عن الحياصة ثلثمائة درهم وعن البغل خمسمائة درهم. وكان يصيب الناس من هذه الضريبة كثير من عسف المراقبين.

٥ — مقرر السجون: ضريبة يدفعها كل من يدخل إلى السجن بريئاً كان أم مظلوماً، ولو لم يقم فى السجن إلا لحظة قصيرة وكان يدفع منها للسجان ستة دراهم من ضريبة كل مسجون.

٦ — مقرر طرح الفراريج: وهى عبارة عن أن الفراريج اختص ببيعها جماعة من الضامنين يطرحونها على الناس للشراء، فمن احتاج إلى فروج، اشتراه من الضامن بالثمن المفروض، وفى ذلك كثير من الظلم: ومن اشترى أو باع فروجا عن طريق

---

(١) الحوائص جمع حياصة وهى الحزام.

آخر غير طريق الضامن ، قال المقريزى : « جاءه الموت من كل مكان وما هو بميت. . . . » .

٧ ـ مقرر الفرسان : ضريبة يجبيها ولاة النواحى فوق كل ضريبة ، أى أنها ضريبة إضافية. فمن يدفع درهما ضريبة أصلية يدفع معها درهما آخر أو نحوه ضريبة إضافية للجباة .

٨ ـ مقرر الأقصاب والمعاصر : وهو ما يجبى من مزارع قصب السكر ، ومن المعاصر ورجال المعاصر .

٩ ـ مقرر رسوم الأفراح : يجبى ممن يقيمها ويغالى فيها أحيانا ، وتفرض فوقها غرامات عادة ..

١٠ ـ حماية المراكب : ضريبة تؤخذ من كل مركب ، وهى عبارة عن رسم يدفعه المسافر فيها ، وكل من ركبها حتى الفقير والمحتاج والسائل .

١١ ـ حقوق القينات : يجبى هذه الضريبة من أهل الدعارة ومرتكبى المنكرات.

١٢ ـ مقرر المشاعلية : وهو عبارة عن ضريبة تؤخذ من أصحاب المنازل نظير كسح الأفنية ومحال القذارة . وكان هناك لهـذه الحرفة صناع مخصوصون ، ولـكل جهة ضامن ـ مقاول ـ يقوم بهذه العملية ، ولا يستطيع أحد سواه أن يقوم بها . ولذلك كان يشتط كما يشاء فى فرض الأجر .

وإلى القارىء الآن بعض ما ذكره ابن إياس فى تاريخه عن الضرائب وفرضها وإلغائها وظروفها وما لا بس ذلك من الحوادث والاعتبارات فمنه :

١ ـ لما قرر السلطان المظفر قطز أن يحارب التتار عام ٦٥٨ ﻫ أخذ فى جمع المال اللازم لذلك. فأخذ من أهل مصر والقاهرة دينارا واحدا لكل رأس ذكرا كان أو أنثى . وأخذ من إيجار الأملاك والأوقاف أجرة شهر ، ومن أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلة ؛ ومن ضرائب الأراضى الأهلية ثلث مافرض عليها معجلا ، وعلى الغيطان والسواقى أجرة شهر . ـ قال : وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة . . « ١ ص ٩٦ »

٢ ـ أبطل المنصور قلاوون وظيفة « ناظر الزكاة » وهو من يأخذ ممن عنده مال ، زكاة هذا المال ، فإن مات ذو المال أو عدم ماله ، يظل المقرر عليه يجبى منه إن كان حيا أو من ورثته أو من أقاربه إن مات ، ولو كانوا واحدا فحسب ، ولو كان المال قد هلك وزال منذ زمن بعيد . « ج ١ ص ١٢٠ »

٣ ـ فى سنة ٧٤٨ ﻫ فى عهد السلطان الناصر أبى المحاسن حسن تهدمت سواحل النيل من ناحية الجيزة ، فرسم للأمير منجك اليوسفى الوزير أن يتولى ترميم هذه الجسور . ففرض على كل دكان بمصر والقاهرة درهمى فضة ، وعلى كل نخلة بالشرقية درهمى فضة أيضا . فاجتمع مال كثير اشترى به منجك حجارة كبيرة الحجم ورمها به . ولكنها لم تفد شيئا وطغى عليه الماء فقبض عليه بسبب ذلك وصودر ماله وعزل من الوزارة . « ج ١ ص ١٩٠ »

٤ ـ ومما أبطله الناصر بن قلاوون «ضمان الغوانى» ، وهو عبارة عن ضريبة تجبى من البغايا ، وذلك أن البغى إذا أرادت احتراف البغاء ونزلت عند امرأة تسمى «الضامنة» ودفعت لها مالا معينا ، أمنت أن يدهمها أى إنسان . فكان يجبى من وراء ذلك مال كثير .

ويظهر أن هذه الضريبة قررت مرة أخرى بعد عهد الناصر ، لأن الأشرف شعبان أبطلها فى عهده أيضاً . « ج ١ ص ١٧٥ ، ٢٣٠ »

٥ ـ ومما أبطله الأشرف شعبان عام ٧٧٨ ﻫ « ضمان القراريط » . وهو عبارة عن ضريبة يدفعها البائع الذى يبيع ممتلكات ، فيؤخذ منه عن كل ما ثمنه ألف درهم عشرون درهما . « ج ١ ص ٢٣٠ »

٦ ـ وفى عام ٧٨٩ ﻫ أراد برقوق أن يعد حملة عسكرية لملاقاة التتار فى بلاد الشام وحلب . فعقد مجلسا كان فى جملته الخليفة والقضاة الأربعة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى ، وطلب إليهم أن يأخذ جانبا من مال أوقاف المساجد والمدارس ، فلم يوافق القضاة ولا البلقينى على ذلك ، ووقع بين الجميع جدال عنيف

ثم انجلى غباره عن أن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن لمدة سنة، ومن خراج الأرض لمدة السنة أيضا ، وتبقى الأوقاف كما هى . وقد شرع السلطان فى جبى هذه الأموال من الناس وقسا الجباة عليهم فى ذلك حتى استعملوا معهم العصا والضرب والإكراه . «ج ١ ص ٢٦٧»

٧ - وفى عام ٨٠٣ هـ أراد السلطان فرج بن برقوق أن يخرج إلى الشام فى تجريدة لقتال التتار . فرسم بأن يؤخذ من بلاد المقطعين ومن أملاك القاهرة وضواحيها أجرة شهر واحد ، وعن كل فدان عشرة دراهم ، ومن البساتين عن كل فدان مائة درهم ، وأخذ الجباة يفتحون المتاجر قوة واقتدارا باحثين وراء المال زاعمين أن السلطان يريد الاقتراض من مال التجار . فمن كان من التجار موجودا وقت البحث فى متجره أخذوا نصف ماله وتركوا له النصف الآخر ، وإلا جردوا المتجر مما فيه من قماش ومال .

ثم أخذ السلطان كذلك من أوقاف الجوامع والمساجد أجرة شهر واحد ، حتى من أوقاف المستشفى المنصورى « البيمارستان » وقد أوذى كثير من الناس فى هذه الحوادث ، وكم صودرت أموال وكم سجن رجال .

وكان القائم بجباية هذه الأموال الأمير « يلبغا السالمى » الأستادار . وقيل إنه أخذ لنفسه منها أضعاف ماورده إلى السلطان . - وهذا دليل على فوضى الجبى - فلما بلغت هذه الدعوى سمع السلطان قبض عليه وسجنه وعزله من الأستادارية .
«ج ١ ص ٣٣٠»

٨ - ومما صنعه السلطان فرج أيضا بمناسبة تجريدته إلى بلاد الشام أن عرض أجناد الحلقة، فمن كان قادرا على حمل السلاح والسفر معه سافر، ومن لم يجده قادرا طلب إليه أن يقدم بديلا عنه أو يأخذ منه نصف خراج إقطاعه عن سنة كاملة ، فجمع من وراء ذلك جزيلا . «ج ١ ص ٣٣١»

٩ - وفى عام ٨٧٢ هـ أخذ السلطان قايتباى فى إعداد حملة عسكرية ضد «سوار» ولما كان المال ينقصه أراد أن يمس أوقاف المساجد ،فيبقى منها مايكفى ريعه نفقات

المساجد ويستولى هو على البقية لينفق منها على تجاريده وحملاته. فجمع لذلك مجلسا فيه الأمراء والخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة وشيخ الإسلام أمين الدين يحيي الأقصرائى. فتجادلوا زمنا فى الأمر وكادوا يوافقون السلطان على رأيه لولا أن أغلظ الأقصرائى لهم القول وأنكر هذا المساس بمال الأوقاف كل الإنكار وأنذر السلطان بعاقبة هذا العمل. وخوفه من الله سبحانه. وطلب إليه أن يلتمس ما يحتاج إليه من مال، من بيت المال، وإلا فمن أموال الأمراء والجند وحلى النساء أولا. ثم بعد ذلك يمس مال الأوقاف فينال منه الضرورى الذى يدفع الأذى عن المسلمين. بذلك حفظ مال الأوقاف من العبث. ورضى السلطان مرغما.

« ج ٢ ص ٩٧ »

١٠ ـ وقد عاود السلطان قايتباى إظهار رغبته فى حل الأوقاف وإجراء حركة استبدال فى أعيانها، وذلك عام ٨٧٧ هـ فعارضه قاضى قضاة الحنفية شمس الدين الامشاطى فى ذلك معارضة شديدة فلم ينفذ من رغبته السلطان شيء. « ج٢ ص١٤٤ »

١١ ـ وقد استطاع قايتباى عام ٨٩٤ هـ أن ينال موافقة القضاة الأربعة على أن يجبى من أرباب الأملاك، ومن إيجار الأوقاف بمصر والقاهرة أجرة شهرين، معاونة له، للنفقة على الجند. « ج ٢ ص ٢٥٧ »

١٢ ـ وفى سنة ٨٩٦ هـ اضطر قايتباى إلى مال كثير لينفق منه على حملة يبعثها إلى بلاد الشام لرد اعتداء العثمانيين. فجمع لذلك مجلسا فيه القضاة الأربعة، فشرح لهم غرضه وطلب إليهم أن يقروه على فرض إيجار سنة على الأوقاف والأملاك بمصر والقاهرة سواء أكانت أماكن أم أرضا مزروعة أو حمامات أو طواحين أو أفرانا أو مراكب أو غير ذلك. وبعد جدال وتوقف وأخذ ورد اتفقوا على فرض إيجار خمسة أشهر فقط، وفرضت هذه الضريبة أيضا على الأملاك والأوقاف.

ومع هذا كله لم ينفق السلطان هذه الضريبة فى وجهها.

« ج ٢ ص ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٩٥ ».

١٣ ـ وفى سنة ٩٠١ هـ فرض قايتباى ضريبة على بيع الغلال فجعل على كل إردب مبيع نصفاً فضة. « ج٢ ص ٢٩١ »

١٤ ـ وفى ذى الحجة عام ٩٠٣ هـ اشتط السلطان الناصر بن قايتباى فى جمع الأموال لكى ينفق منها على المماليك الجلبان الذين زادت أطماعهم ، واستشرى شرهم وثاروا فى وجه السلطان المذكور وأرغموه على أن يدفع لهم مالا . فلم يجد بدا من أن يفرض غرامات فادحة على كل من المباشرين وقضاة الشرع والأعيان والتجار وصغار الباعة واليهود والنصارى ، ووكل أمر الجميع إلى خاله قانصوه وأعوانه ،فقسوا فى معاملة الناس ، وآذوا الكثير منهم ، وألحقوا بهم ضروبا من الإهانة والتعذيب ، وإستعملوا لذلك المعاصير والكسارات ، والخوذ الحديدية المحماة ، فاختفى ابن تقى القاضى المالكى ، والشهاب الشيشينى القاضى الحنبلى،وطرح شهاب الدين أحمد ناظر الجيش على الأرض ليضرب لامتناعه عن الدفع.وكذلك فعلوا بعلاء الدين بن الصابونى ناظر الخاص وبكثير من الأعيان . فجمعت هذه الضرائب أو الغرامات بالضرب والحبس،فكان جمعها أحد مظاهر الظلم الصارخة. وقد كثر دعاء الناس على هذا السلطان . « جـ ٢ ص ٣٤٣ »

١٥ ـ وبعد أن ولى الأشرف الغورى بزمن قليل رأى الخزائن خاوية وثار عليه المماليك مرات متوالية لطلب النفقة التى تأخرت ثلاثة أشهر . ورأى الاستيلاء على مال الأوقاف وأرضها ثم تشاور مع الأمراء والخليفة والقضاة ، فقر رأى الجميع بعد جدال عنيف على أن يأخذ من ريع الأوقاف سنة واحدة ، ومن إيجار الأملاك بالقاهرة عشرة أشهر . فثار الناس لهذا العمل وضجوا ، فاكتفى بإيجار سبعة أشهر بدل عشرة. (١)

١٦ ـ وفى ١٤ جمادى الآخرة عام ٩٠٧ هـ أرسل الغورى خاصكيا يدعى «نانق» الخازن ليتوجه إلى بلاد الشرقية والغربية ليجمع المال من المقطعين. فضيق الخناق على الفلاحين . وأراد أن يحاسب المقطعين حسابا عسيرا.ففحص أصل خراج كل حصة، حتى إن بعض الفلاحين غادر بلده خوفا وخشية . ثم إن بعضهم قدم

(١) من رقم ١٥ إلى ٢٤ مرجعه بدائع ابن إياس ج ٤ فى حوادث التواريخ المذكورة بكل رقم .

إلى « نانق » المذكور جملة من المال ، فرحل عنهم ، وبذلك ضاع خراج تلك السنة على المقطعين ما بين « نانق » والفلاحين .

١٧ ـ وفى عام ٩٠٨ هـ عاد أمير الحج الأمير الناصرى محمد بن خاص بك ، وكان العربان قد نهبوا ركبه فى الحجاز. فأمر الغورى بحبسه وفرض عليه عشرين ألف دينار يؤديها غرما. فما زال محبوساً نحوا من ثلاثة أشهر حتى أدى مافرض عليه ، بعد أن أنقص منه السلطان خمسة آلاف دينار .

١٧ ـ ومن غريب ماحدث فى عهد الغورى عام ٩١٢ هـ أن تقدم إليه شخص اسمه « أبو الخير المرافع » والتزم للسلطان أن يجمع له مائتين وخمسين ألف دينار يستخلصها له من الناس ممن يعلم لديهم مالا . وبشرط أن يطلق السلطان يده فى جمعها . وكاد السلطان يجيب دعوة هذا الرجل ، لولا أن اجتمع به بعض الأمراء وقبحوا هذا العمل .

١٩ ـ وفى ٢٢ ربيع الأول عام ٩١٨ هـ رسم السلطان الغورى لكاشف الشرقية والغربية بجباية ضريبة الحماية والشياخة عن السنة المذكورة قبل استحقاقها. فأخذاهما وأعوانهما يجمعونها من الفلاحين والمقطعين ، واستخدموا فى ذلك الضرب والقوة والإهانة والهجوم على المنازل للبحث عن المال. ولم يرعوا حرمة مسافر ،ولم يكترثوا لهارب بل من لم يجدوه أرغموا أهله على دفع ما يطلب منه. ومن عجيب الأمر أن الخراج لم يكن قد استحق ، وكان القمح لا يزال فى مزارعه لم يحصد ، والنيل لم يصل حد الوفاء، وقد زايل كثير من الفلاحين دورهم وبلادهم، بسبب ما لاقوا حينئذ من جور وعسف .

٢٠ ـ ولما فشا الطاعون فى أوائل عام ٩١٩ هـ وكثر الموتى رسم السلطان الغورى فى شهر صفر منها ، للأمير مغلباى الزردكاش بأن يأخذ من تركة من يموت من المماليك السلطانية ممن له « جامكية » ـ راتب ـ سيفا مسقطا بفضة وزردية وخوذة وتركاش « وكلها أسلحة» وله أن يحجز وصيه حتى يفى بما قرر عليه . فكان الأمير مغلباى يحجز زوجات المتوفين من المماليك حتى تؤدى كل ما عليها .

ورسم للأمير آخور كبير بأن من يتوفى من المماليك ممن له « جامكية » و « عليق » يأخذ من وصيه فرسين أو ثمنهما . وعن الخاصكى ثلاثة رءوس خيل وبغلة ، وعن كل من أصحاب الوظائف خمسة رءوس خيل وبغلة .

ورسم لألماس دوادار سكين بأن يجبى عن كل من يتوفى من المماليك الأجلاب خمسين دينارا . وعن كل جمدار عشرين دينار . هـذا ولم يعهد المماليك مثل هذه الضرائب من قبل ولا فداحتها ، وكادت تـكون فتنة بينهم بسببها .

٢١ — وفى أواخر صفر عام ٩١٩ هـ . أيضا رسم الغورى بأبطال جملة من الضرائب منها المشاهرة والمجامعة وكل المـكوس المقررة على السوقة والباعة وعلى طواحين القاهرة ، وضريبة بيع الغلال . وذلك بمناسبة الغلاء وارتفاع أثمان الحاجيات . ففرح الناس بما رسم .

٢٢ — كان على أبواب الأمراء مقاعد يجلس عليها نقباؤهم الذين يقدمون إليهم أرباب القضايا ، للفصل فيها فى نظير جعل خاص . فلمـا فشا الطاعون عام ٩١٩ هـ رسم السلطان الغورى برفع هذه المقاعد وإبطال هؤلاء النقباء ،ونودى أن كل من له مظلمة أو قضية فعليه أن يتوجه بها إلى الوالى أو إلى أحد قضاة الشرع . وحاول الأمراء أن يرجعوا السلطان عن قراره فلم يفلحوا . وكانت هذه الضريبة تدر على الأمراء أموالا طائلة . وكانت حجة السلطان فى رفض طلبهم أنه وضع عن الناس ضرائب قيمتها نحو أربعين ألف دينار . ثم أمر بأن من له حق عند غيره فليتوجه بغريمه إلى القضاء ، وأما الجناة واللصوص فيساقون إلى بيت الوالى .

هذا ، وقد عاد الغورى عن هذا القرار وطاوع الأمراء فى رأيهم فى يوم الخميس ٤ جمادى الأولى من السنة نفسها . وكانت حجتهم الجديدة التى ساقوها إليه هي أن السلطان أصبح ولا حكم له ، وكذلك الأمراء لم تعد لهم يد فى الحـكم بين الناس ، وهذا — فى نظرهم — فساد كبير . ومن هنا نودى بوضع المقاعد وإعادة الرسل والنقباء ! ونودى بأن من له مظلمة يتوجه إلى الأمراء كالعادة ، وبشرط ألا يغلو النقباء فى الجعل الذى يفرضونه على الأخصام .

٢٣ — وظلت الضرائب التى رفعها الغورى عن العامة والسوقة والباعة المتسببين ملغاة منذ صفر عام ٩١٩ هـ ، حتى كان رجب من العام نفسه إذ تعرض كثير من العوام للسلطان فى الطريق شاكين إليه من فساد العملة ، فحنق عليهم وغضب ، وأمر بإعادة هذه الضرائب كما كانت . . . !

٢٤ — وفى شهر رجب المذكور أراد السلطان الغورى إصلاح جسر أم دينار بجهة الجيزة ، ففرض على المقطعين بناحية هـذا الجسر ألف درهم تدفع عن كل فدان ، فنالهم من ذلك ظلم كثير .

٢٥ — تقلبت ضريبة بيع القمح وما إليه بين الإلغاء والتقرير عدة مرات منذ عهد قايتباى . فلما كان عهد الغورى زاد خطرها . وأصبحت ثلاثة أنصاف فضة من البائع والمشترى — وكانت تسمى « الموجب » — بعد أن كانت نصفا واحداً فى عهد قايتباى . وقد رأينا كيف قررها الغورى مرة جديدة فى رجب عام ٩١٩ هـ فلما حل يوم الخميس ٢٥ من شهر المحرم عام ٩٢٢ هـ أمر بإلغائها عن القمح والشعير والفول والبطيخ . ونودى بذلك فى سواحل مصر « العتيقة » وبولاق .

« ج ٢ حوادث المحرم عام ٩٢٢ هـ ص ١٠ »

٢٦ — وفى يوم الاثنين ٦ صفر عام ٩٢٢ هـ أمر الغورى بإبطال ضريبة المشاهرة والمجامعة التى كانت تجبى للمحتسب وأمر بإلغاء بعض الضرائب التى كانت تؤخذ على الغلال وتعرف « بمكس البحرين » ففرح الناس بذلك . « جزء ٣ ص ١٢ »

ملحوظه : كتب ابن إياس فى الجزء الثالث من تاريخه — عام ٩٢٣ هـ — معددا محاسن ومساوىء الغورى . وقد عرض لذكر بعض الضرائب التى فرضها والتى أشرنا إلى بعضها . فليرجع إليها من يشاء فى الجزء المذكور .

٣ — الجور والعسف :

رأينا عند الكلام عن الضرائب ، كيف كانت فادحة ثقيلة ، وأنها كانت تفرض على بعض الناس دون بعض ، وأنها لم يكن يراعى فى فرضها منفعة عامة فى أحيان كثيرة ، ولم يكن الأمر مقصورا على ذلك ، بل إن الطرق نفسها التى كانت تجبى بها الضرائب

طرق شاذة سقيمة ظالمة ، إذكان الجباة يصبون جام غضبهم ويطلقون سوط عذابهم على الناس لاستخراج الأموال منهم ومضاعفة ما يطلبونه ، فمن سجن إلى تشريد إلى تعذيب إلى وعيد إلى مطاردة ، وهكذا حتى اضطر بعضهم إلى الاختفاء . . . وحسبنا أن نقول إن الجمهور لم يكن يدفع ضريبة ما وهو يعتقد أن واجبه الوطنى يقضى عليه بدفعها ، فيدفعها إذن عن طيب خاطر ونفس راضية ، بل كان يشعر دائما أن كل ضريبة إنما هى غرم عليه ومغنم للسلطان وأتباعه .

وهناك ضروب أخرى من الظلم تجلت فى غير الضرائب . وذلك كسوء معاملة العامة وازدرائها واعتبارها مثل السائمة . وتسخيرهم بلا أجر فى عمل حكومى . ومثل التماس التهمة عند البرىء ، وإغفال الجانى حسب الظروف وما تدعو إليه . ومثل العنت والشدة فى الحكم على المتهم ، ومثل القسوة فى تنفيذ العقوبات ، وهكذا . وقد تعددت الحوادث التى من هذا النوع . ونحن نسوق منها بعضا ، فمنها :

١ – فى عام ٦٨٢ هـ . أنشأ المنصور قلاوون «البيمارستان» المنصورى ، وقيل فى سبب إنشائه أنه كان أمر مماليكه بأن يضعوا السيف فى رقاب العوام لأنهم خالفوا أمره فى بعض ماأمر ، فاستعمل السيف فى قتلهم ثلاثة أيام وقتل منهم عددا لا يحصى وذهب البرىء منهم مع المسىء ، والصالح مع الطالح ، وما زالوا حتى ضج الناس وعلا الصراخ وعمت الشكوى وطفحت الكأس ، فشفع فيهم القضاة وعلماء الدين فعفا عنهم المنصور . ثم ندم على ما فعل وتقرب لله بهذا المستشفى . «ج١ ص١١٦»

٢ – حينما اعتزم الملك المؤيد شيخ أن يبنى مسجده الشهير بجوار باب زويلة عام ٨٢٢ هـ ، بث أعوانه فى فجاج القاهرة يجمعون له الرخام قوة واقتدارا من كل منزل به أثارة منه ، فظلموا فى ذلك كثيرا من أعيان الناس . «ج ٢ ص ٦»

٣ – وهناك رجل من الرؤساء ولى الاستادارية أكثر من مرة وكذلك الوزارة وهو مجد الدين بن البقرى ، كان الأشرف قايتباى يكرهه . فترقب فرصة فيه ليبطش به . وسنحت هذه الفرصة له حينما بلغه أن مجد الدين فرح هو وأهله فى مقتل الأمير يشبك الدوادار أحد القواد العظماء فى ذلك الحين ، وأحد المقربين

إلى السلطان . فقبض عليه وأمر بقتله فقتل . «ج ٢ ص ٢٤٩»

٤ ـ [1] وفى يوم الأحد ١٤ ربيع الأول عام ٩٠٨ هـ ، رسم السلطان الغورى بشنق رجل من أهل حلب لم يستطع أن يدفع مالا فرض عليه . فشنق على باب زويلة .

٥ ـ وفى سنة ٩١٢ هـ : ازداد ظلم الأمير «طراباى» رأس نوبة النوب . وأطلقت يده فى بلاد وفى بيوت وغيرها ، يستولى على ما فيها من الأوقاف ويأمر بحلها والتصرف فيها توا ، ويأخذ منها ما يشاء بأبخس الأثمان . وكل من امتنع وعارضه يضرب ضربا مجهدا ويحجر عليه . ومن هؤلاء شخص يدعى «يونس ابن جانم الزردكاش» أخذ منه بيت أبيه ـ وكان فى زقاق حلب ـ فامتنع من تسليمه فضربه ضربا مؤلما . وغيره كثيرون .

٦ ـ ومن الحوادث فى المحرم عام ٩١٣ هـ أن ضرب الأمير «أرزمك الناشف» وهو أحد المقدمين ، شخصا من النوتية ، حتى مات من شدة الضرب . وكان سبب ذلك أن النوتى حمل إلى هذا الأمير بضاعة فوصلته ناقصة ... فلما مات شكا أولاده للسلطان الغورى فتعامى عن ذلك ، وأشار على الأمير أرزمك أن يرضى أولاد المقتول ، وذهبت دماؤه عبثا .

٧ ـ ومن حوادث شهر رجب عام ٩١٥ هـ . أن «قرقماس» المقرى أحد أمراء العشرة ، سرق من منزله بزقاق الكحل عملة بألف دينار ، فقبض على جيران الحارة أجمعين وسلمهم لوالى القاهرة فعاقبهم أشد عقوبة وغرمهم أضعاف ماسرق . ومن بينهم أسر مجيدة كأسرة البقرى .

ثم اتضح فى أواخر المحرم عام ٩١٦ هـ أن سارق هذه العملة مملوك هذا الأمير وهرب بها إلى الحجاز ، فقبض عليه وأعيد إلى القاهرة وسلم إلى سيده فضربه فاعترف . ثم إن جيران الأمير شكوه إلى السلطان فوبخه وطلب إليه أن يرضى هؤلاء الجيران ، ولكن بعد ما غرموا وضربوا وأوذوا . . . فراضاهم .

---

(١) رقم ٤ وما بعده مرجعة ابن إياس ج ٤ فى حوادث تاريخ كل رقم .

وما دمنا بصدد ذكر ضروب الظلم والقسوة فلا مانع من أن نقول كلمة فى أنواع التعذيب فى هذا العصر وننوه بذكر السجون الشهيرة :

وقبل أن ننوه بذكر التعذيب والسجون نرى لزاما علينا الاعتراف بأنهما أمران ضروريان للدولة حتى تصان الحقوق من العبث وتحفظ الأرواح من الاعتداء عليهما . وهما أمر مشروع فقد أمر الله بقتل القاتل وقطع يد السارق وحبس المدين وهلم جرا . وقال جل شأنه « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » .

وكل الذى نحمل عليه هو أن يبدو فى العقوبة الرغبة الأولية فى الإيذاء ، ويبدو فيها القسوة والتمثيل البشع وهكذا . وهناك حوادث سنقصها منقولة من تاريخ هذا العصر تدل على القسوة فى العقوبة ، والافتنان فى التعذيب ، ومن ذلك ما يلى :

الإعدام والتعذيب :

كان للإعدام طرق شتى : منها حز الرأس ثم وضعه أحيانا فوق حامل لإشهاره فى المدينة ، وقد ينادى عليه ويسار به فى شوارعها ويقال أمامه : « هذا جزاء من خالف السلطان » ، وهذا جزاء من صنع كذا » . ويقوم بهذه المناداة عادة عدد من حملة المشاعل ويوقدونها إذا كان الوقت ليلا .

ومن طرق الإعدام : « التوسيط » ، وهو على ماجاء فى شرح سلوك المقريزى - ضرب وسط المحكوم عليه بالسيف بعد طرحه أرضا . ومنها استخدام الخازوق ، وهو - كما شرحه صاحب كتاب « تاريخ حماة » - عبارة عن عمود طويل رأسه مخروط الشكل يغرز فى الأرض كأحد عمد السلك البرقى ، يوضع الرجل عليه محمولا ، ويدخل رأس الخازوق فى مقعده . ثم يترك على هذه الحال مدة ثم يجذب بعنف حتى يدخل جوفه . - ومنها . الشنق بالحبال ، فبعد أن يعلق المتهم على حامل مرتفع ويوضع الحبل فى رقبته يخلى بينه وبين الأرض فيهوى مختنقا فيموت . ومنها أيضاً الإغراق فى النهر . ومنها الخنق فى السجن .

ومن طرق التعذيب: التسمير فى الأخشاب وهو مثل الصلب، ثم وضع المسمرين فوق الدواب وإشهارهم فى شوارع المدينة ، والمناداة عليهم بأنهم فعلوا كذا وكذا .

ومنها الاعتقال والسجن والقيد فى الحديد والضرب بالمقارع . ومنها ضرب الجسد عاريا . ومنها قيد الأرجل والضغط عليها وإيلامها بآلات تسمى « المعاصير » و « الكسارات » ، وكذلك كانت تعصر الأصداغ والأيدى . ومنها إحراق الأصابع بالنار ، ومنها وضع خوذة حديدية أو نحاسية فى النار ثم تثبت على رأس المتهم . . .

هذا وكان أعوان السلطان يقومون بتنفيذ ما يأمر به من العقوبة ، وربما أمر بتنفيذها أمام عينيه ـ وربما زاول هو بنفسه تنفيذها فضرب المتهم أو قتله بيده .

وإلى القارىء بعض الحوادث التاريخية الناطقة بما ذكرنا فمنها .

١ ـ فى عام ٦٨٩ هـ ولى السلطان الأشرف خليل الملك ، وكان يكره نائب السلطنة الأمير « طرنطاى » فقبض عليه وسجنه بالقلعة ثلاثة أيام ثم أمر بخنقه فى السجن ، فخنق ودفن « جـ ١ ص ١٢٢ » .

٢ ـ روى المقريزى أن الناصر محمد بن قلاوون ، بينما كان مضحكه يسليه ، وهو جالس فى بستانه ، إذ بدت منه بادرة أشعرت الناصر بأنه يتنقص عمله ، فأمر لوقته بربطه فى الساقية عاريا ، وألهبت ظهور دوابها فأسرعت ، والمسكين يغرق فى الماء آنا بعد آن حتى كاد يموت ، والناصر ينظر إليه ، ثم أطلقه ونفاه . « الخطط جـ ١ ص ١٤٦ »

٣ ـ فى عام ٧٦٨هـ : قبض السلطان الأشرف شعبان على الصاحب فخر الدين ابن قروينة وسلمه إلى الأمير قرابغا الصرغتمشى فما زال يعاقبه حتى مات تحت الضرب . قيل إنه أحرق أصابعه بالنار ، وأحمى له خوذة فى النار وألبسها له حتى مات . « جـ ١ ص ٢٢٠ »

٤ ـ وفى عام ٧٨٨ هـ . قبض السلطان برقوق على القاضى موفق الدين أبى الفرج ناظر الجيوش المنصورة ، وضربه مائة وخمسين عصا كما ضرب القاضى تقى الدين ابن محب الدين التيمى . « جـ ١ ص ٢٦٤ » .

٥ ـ لما تولى فرج بن برقوق عرش البلاد شق عليه عصا الطاعة الأمير « تنم »

نائب الشام وانضم إليه عدد ضخم من الأمراء والنواب والجند ، فخف إليه السلطان فرج عام ٨٠٢ﻫ ، وهزمه هو وأتباعه وقبض على كثيرين منهم . وقتل نحو أربعة عشر أميرا ، ذبحوا كلهم ببرج الحمام بقلعة دمشق. وكان من بينهم الأتابكى إيتمش البجاسى ، والأمير « فارس » حاجب الحجاب ، فبعث السلطان رأس هذين الأميرين إلى القاهرة فطيف بهما فى شوارعها ثم علقا على باب زويلة . ثم خنق « تنم » النائب من بعدهم أن استصفى أمواله ، وصادر ممتلكاته ، ودفعه إلى الاعتراف بما سلب من أموال البلاد . « ج ١ ص ٣٢٤ » .

٦ ـ وفى عام ٨١٢ﻫ ازداد جور السلطان فرج بن برقوق على مماليك أبيه ، وحنق عليهم ، فشرد بعضهم وأغرق الآخر ، ثم أنه أخذ يسفك دماءهم بلا روية ، وذلك أنه كان يسكر إلى نصف الليل ثم يخرج إلى حوش القلعة وهو سكران ، فيعرض عليه هؤلاء المماليك وهم فى قيودهم الحديدية ويقدمون واحدا فواحدا ، فيقول . من هـذا ؟ فيقولون له . فلان ! من الطبقة الفلانية فيقول : قدموه ، فيبطحونه على الأرض فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله ، وربما بال عليه أو صب فوقه النبيذ . « ج ١ ص ٣٥٣ » .

٧ ـ فى عام ٨٧١ﻫ أمر السلطان خشقدم بإغراق «برش» خازندار الأمير جانى بك نائب جده ، وكان شابا صغيرا فأسف الناس لإغراقه « ج ٢ ص ٨١ » .

٨ ـ وفى الخميس ٢٩ ذى الحجة عام ٩١٧ﻫ رسم الغورى بتسمير ثلاثة أشخاص قيل إنهم سرقوا حجزة من حجزاته ، تقوم بنحو مائتى دينار ، فسمروا ثم وسطوا أى أعدموا[1] .

٩ ـ فى شهر جمادى الأولى عام ٩١٨ ﻫ : ادعى رجل شامى دعوى كذب بأن جزيرة رودس فتحها المسلمون بلا حرب ولا قتال ، وألف فى ذلك كتابا ، فصدق

---

(١) رقم ٨ وما بعده مرجعه ابن إياس ج ٤ حوادث تاريخ كل رقم .

السلطان ما جاء به ! . ثم اتضح كذبه بعد ذلك . فأتى به وعرى وضرب بالمقارع وأرسل إلى المقشرة .

١٠ – فى جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ قبض على رجل ينبش القبور ويستخرج لحوم الموتى ، ويبيع جماجمها للإفرنج فسمر على جمل وأشهر فى القاهرة ثم شنق.

١١ – وفى ذى القعدة عام ٩١٩هـ ، ضبط أحد نواب الشافعية وهو « المشالى » مع زوجة أحد نواب الحنفية وهو « غرس الدين خليل » ، فضربهما حاجب الحجاب بالمقارع وأشهرا فى القاهر والصليبية وقنطرة السباع . ثم حبسهما السلطان ورسم بشنقهما فشنقا وجها إلى وجه معا .

١٢ – وفى ربيع الآخر عام ٩٢٠هـ : اعتدى خياط يقال له « نجا ابن تمساح » على صبى صغير فأتلفه ، فاستغاث الصبى لخنق عليه الخياط فذبحه ورماه فى بئر ، ثم شاع خبرهما ، فقبض على الجانى فاعترف ، فرسم السلطان بشنقه فى المكان الذى قتل فيه الصبى . وقيل رسم السلطان بقطع مذاكيره وتعليقها فى عنقه وهو مشنوق . ففعلوا به ذلك . . .

ورسم السلطان فى حادثة مماثلة اتهم فيها طحان ، بأن يوضع على الخزوق . ففعلوا به ذلك .

١٣ – وفى جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ أخذ الزينى بركات فى تعذيب « شمس الدين بن عوض » وولده ، وبذل فى ذلك كل جهد مستطاع من ضرب كسارات وعصر أكعاب وأصداغ وأيد ، وإحراق أصابع .

السجون الشهيرة :

تعددت السجون فى هذا العصر ، وشهد كل منهما عددا ضخما من المساجين ما بين أمراء عظام بل وملوك أجلاء ، وبين مماليك موظفين وجنود وعامة . ويبدو أنه كان فى كل مدينة كبرى سجن حصين ، وكان فى القاهرة وحدها عدة منها . ويبدو أيضا أن أمر الاعتقال فى السجون ومدته منوطان بإرادة السلطان وحده ، كما يبدو أن بعض السلاطين كان ينتهز فرصة رمضان فيعرض المساجين فى مستهله ثم يطلق

سراح بعضهم حسب مشيئته (١)

وننوه هنا بذكر بعض هذه السجون وبعض من أقام فيها باختصار فنقول :

١ ـ الجب : كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلما كثير الخفافيش كريه الرائحة ، يقاسى المسجون فيه ماهو كالموت أو أشد منه . عمره الملك المنصور قلاوون فى سنة ٦٨١ هـ ، فلم يزل إلى أن أقام الأمير بكتمر الساقى بحملة ضده لدى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم إلى الأبراج ، وردمه وأقام فوق أرضه طباقا فى سنة ٧٢٩ هـ . وتم هدمه فى يوم الاثنين ١٧ جمادى الأولى عام ٧٢٩ هـ . وممن ابتلى بالسجن فيه تغرى بردى الترجمان ، والجمالى يوسف بن أبى أصبع الحلبى .

« الخطط ج ٣ ص ٣٠٦ ، ٣٤٦ ـ والسلوك ج ١ ص ٣١٠ ـ ابن إياس ج ٤ حوادث ربيع الآخر عام ٩١٩ هـ »

٢ ـ حبس المعونة : كان بالقاهرة ، استخدم سجنا منذ عصر الفاطميين ثم لما ولى الناصر محمد بن قلاوون أمر بهدمه . « الخطط ج ٣ ص ٣٠٥ »

٣ ـ خزانة شمائل : مكانها الآن جامع المؤيد شيخ بجوار باب زويلة « بوابة المتولى » . وهى منسوبة إلى الأمير « علم الدين شمايل » الذى كان من أتباع والى القاهرة فى العهد الأيوبى ، ثم اتصل بالملك الكامل محمد بن العادل بن أيوب، فأقامه واليا على القاهرة ، فبنى له هذا السجن ليسجن فيه من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطريق ، ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة . وكان سجنا شنيعا قبيح المنظر ، وقد استمر مستخدماً فى أداء هذه المهمة زمنا طويلا فى عهد المماليك،حتى كان عصر المؤيد شيخ المحمودى،وقد كان هذا السلطان فى جملة من حبس فى هذه الخزانة فى عهد السلطان برقوق،ولاقى فيها كثيرا من الأذى . فنذر إن من الله عليه بالخلاص منها ثم وصل إلى سلطنة مصر

---

(١) راجع ابن اياس ج ٢ ص ٣٦٦ .

أن يهدمها ويبنى فى مكانها مسجدا لله سبحانه وتعالى وقد من الله عليه بما أمل. فأمر بهدمها فى يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٨ هـ ، وبنى مكانها مسجده الشهير . وممن سجن فيها الأمير علاء الدين بن الطبلاوى وإلى القاهرة فى عهد برقوق.

« ابن إياس ج ١ ص ٣١٣ ، ج ٢ حوادث عام ٨٢٢ هـ ، الخطط المقريزية ج ٣ ص ٣٠٥ تحت عنوان « ذكر السجون » .

٤ ـ المقشرة : قال المقريزى : هذا السجن بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين الجامع الحاكى . كان يقشر فيه القمح ، ومن جملته برج من أبراج السور على يمنة الخارج من باب الفتوح ، استجد بأعلاه دور لم تزل إلى أن هدمت خزانة شمائل ، فعين هذا البرج والمقشرة لسجن أرباب الجرائم وهدمت الدور التى كانت هناك فى شهر ربيع الأول سنة ٨٢٨ هـ وعمل البرج والمقشرة سجنا . ونقل إليه أرباب الجرائم ، وهو من أشنع السجون وأضيقها ، يقاسى فيه المسجونون من الغم والكرب مالا يوصف .

هذا ، وممن سجن فيه « معين الدين بن شمس » وكيل بيت المال ، وأبو بكر بن مزهر كاتب السر فى أول زمن السلطان الغورى . وفيه عذب وضرب بالمقارع .

« الخطط ج ٣ ص ٣٠٦ ، وابن إياس ج ٤ حوادث المحرم عام ٩١٧ هـ » .

٥ ـ الحجرة : يبدو أنها كانت خاصة بالنساء . قال ابن إياس فى حوادث صفر عام ٩١٩ هـ : عرض السلطان محابيس « الحجرة » من النساء وأطلق من كان بها .

« ابن إياس جزء ٤ حوادث صفر سنة ٩١٩ هـ » .

٦ ـ العرقانة : سجن فيه « على شرف الدين الصغير » ، كاتب المماليك ، وعلى شرف الدين النابلسى الاستادار ، وقررت عليهما غرامة ووضعا فى الحديد ، وذلك فى ذى القعدة عام ٩١٦ هـ . « ابن إياس جزء ٤ حوادث القعدة سنة ٩١٦ هـ » .

هذا وكان ثمة سجون أخرى فى الأقاليم هناك وأماكن أخرى ودور تستخدم سجونا أحيانا فمنها :

١ ـ قلعة دمشق : وسجن بها كثيرون .

٢ ـ سجن الكرك وهو فى مدينة الكرك شرق مصر . وسجن به كثيرون من أمراء وغيرهم ومنهم الملك السعيد بن بيبرس بعد خلعه . ومنهم الأمير «طقزدمر» نائب الشام ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان بن الناصر بن قلاوون .
« ابن اياس جزء ١ ص ١٨٤ » .

٣ ـ سجن الإسكندرية : شهد هذا السجن كثيراً من السلاطين المخلوعين والأمراء المغضوب عليهم . ومنهم الأمير «آل ملك» الذى كان نائبا للسلطنة ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان أيضاً . « ابن اياس جزء ١ ص ١٨٤ »

٤ ـ سجن دمياط : شهد كذلك كثيراً من السلاطين المنفيين والأمراء المنبوذين ، ومنهم الأمير «قارى» استادار العالية ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان كذلك . « ابن اياس جزء ١ ص ١٨٤ »

٥ ـ سجن قوص : وكذلك هذا السجن . وممن سجن فيه السلطان المنصور أبو بكر هو وأخواه . سجنوا فيه بأمر الأتابكى «قوصون» لما استبد بالملك .
« ابن اياس جزء ١ ص ١٧٧ »

٦ ـ الجامع الصغير : وهو موجود ـ كان ـ بداخل الحوش السلطان بالقلعة . استخدم أحيانا سجنا ، وممن سجن فيه بأمر الغورى «شريف الدين يونس النابلسى» الذى كان أستادارا . ظل فيه ثلاث سنوات ثم أفرج عنه فى ١٦ شعبان عام ٩١٨ هـ .
« ابن اياس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١٨ هـ » .

٧ ـ بيت الوالى ، وبيت المحتسب : كثيراً ما كان يساق المحكوم عليهم ، وخاصة بغرامة مالية إلى بيت والى القاهرة أو بيت محتسبها حيث يسجنون ويعذبون حتى يستخلص منهم المال المقرر . ومن هذه البيوت البيت المحتسب الزينى بركات ابن موسى فى عهد الغورى ، وممن سجن وعذب فيه لذلك «شمس الدين بن عوض» .
« ابن اياس جزء ٤ حوادث ربيع الثانى سنة ٩٢٠ هـ »

٨ ـ بيوت الأمراء : وكان يسجن فيها أحيانا المعتقلون «السياسيون» .

٤ — كثرة الفتن الداخلية :

لا نغلو إذا قلنا إن شر آفة ابتليت بها مصر فى هذا العصر ، هذه الفتن المحتدمة والمؤامرات المستعرة الواسعة النطاق، التى دبرها الأمراء بعضهم ضد البعض الآخر، أو دبرها بعض الأمراء ضد سلطانهم أو قام بها عدد من المماليك ضد سادتهم من سلاطين أو أمراء .

وقد صحبت هذه الفتن حياة دولتى المماليك تقريبا ، ولاسيما الدولة الجركسية، ومما عاون على وجودها طريقة الحكم المتبعة . فقد غرست الآمال الواسعة فى نفوس الأمراء والجند ، وأوحت إلى كل بالأمانى المعسولة فى الوصول إلى العرش والسلطنة ، أو الاستحواذ على المال والجاه والنفوذ . فامتلأت صدورهم هوى ، وأفعمت قلوبهم طمعا ، وصبت نفوسهم إلى استعجال الأمر ، فلم يجدوا بدا من إشعالها فتنة شعواء وثورة جامحة ،خبوا فيها ووضعوا وغامروا بحياتهم، وقامروا بمستقبلهم ، ابتغاء أن تكون الورقة الرابحة من نصيبهم .

ومما ساعدهم على ذلك أيضا هذه الحزبية ، أوهذه العصبية التى كانوا يؤلفونها حول أنفسهم ، فكل أمير له أتباعه وأخصاؤه ، وله مماليكه الذين اقتناهم بماله وأمدهم بخيره وبره ، وألف من شتاتهم مجموعة قوية تتبعه وتتعصب له. وتأتمر بأمره وتنتهى بنهيه ، لأنه إنما ادخرها للملمات ، وملأ قلوب أفرادها أملا قويا وطمعا .

وطبيعى أن تؤثر هذه الفتن والقلاقل فى مرافق الحياة بالبلاد فترميها بسهم صائب من الإهمال فتصميها . كما أنها تشغل بال السلاطين بإطفائها والقضاء على مثيريها ، عن أن يحسنوا القيام بشئون الدولة ، ويهيمنوا على أمورها ، كما أنها تطمع كل خارج على الدولة فيها ، وتوحى إلى أعدائها بالانقضاض عليها والانتقاص منها. وهذا هو ما حدث فعلا ، فإن هذه الفتن ظلت كالسوس تنخر فى عظام الدولة حتى تداعت أركانها ، وقوض بنيانها ، وسقطت فى يد العثمانيين نتيجة للأطماع غير المشروعة وعاقبة لاختلاف القلوب . .

وكثيراً ما أفلحت هذه الفتن فوصلت إلى غايتها فسلبت العرش من معتليه ، وفتكت بأرواح عدة ، وأسالت دماء كثيرة وأضاعت أموالا وأضعفت جندا . ولكنا نلحظ فيها جميعا بوجه التقريب أنه لم يكن يقصد منها إلى مصلحة عامة أو منفعة وطنية .

ونسوق فيما يلي أخبارا عن بعض هذه الفتن والمؤامرات ونتائجها ملمحين إليها بحسب إذ سبق ذكرها في تاريخ الملوك والأمراء في القسم الأول من هذا الجزء ، فمنها[1] .

١ — أول المؤامرات التي فتحت بها هذه السلسلة الطويلة منها : مؤامرة شجرة الدر على زوجها « المعز بن أيبك » أول سلاطين المماليك . فإنها بعد أن نزلت له عن الملك وتزوجها ، لقي منها ما أحنقه عليها . فغضبت منه في نفسها وأضمرت له السوء . واختارت له خمسة من خدامها أمرتهم بقتله واغتياله .فاقتحموا عليه حمامه وخنقوه على مرأى منها وهو يستغيث بها فلم تغثه ، ويقبل يدها فلا تأبه له . وذلك عام ٦٥٥ هـ .

٢ — المؤامرة التي قتل فيها بيبرس ، سلطانه المظفر قطز عقب انتصاره على التتار .

٣ — وفي سنة ٦٧٧ هـ كان سلطان البلاد ، هو الملك السعيد محمد بركة خان بن بيبرس . خرج عن طاعته نائب الشام فهب لتأديبه وسافر إلى دمشق في جمع من الجند والأمراء . وهناك انضم بعضهم إلى نائب الشام بحجة أن السلطان يريد القبض عليهم ، فحاول هو وأمه إصلاح الأمر بينهما فأبوا ، فجمع جموعا من العربان وغيرهم وفرق عليهم أموالا ليكونوا عونا له على أعدائه . فنالوا أمواله ثم زايله منهم عدد كبير . فأخذ سمته عائداً إلى القاهرة ، فهم من فيها من الأمراء بلقائه وقتله ولكنه أفلت منهم واحتمى بالقلعة . ثم سفر بين الفريقين الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد العباسي ، بعد حروب بينهما دامت سبعة أيام ، فاضطر السلطان إلى النزول عن عرشه وسار إلى الكرك مسجونا . ثم بايع الأمراء أخاه العادل سلامش .

---

(١) تراجع أخبار هذه الفتن والمؤامرات في مواضعها بالقسم الأول من هذا الكتاب ، وفي تراجم الأمراء .

٤ ـ ومنها المؤامرة التى دبرها الأمير « بيدرا » لقتل السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون ، وهو يرتاض ، وقد فتك به فى عام ٦٩٣ هـ.

٥ ـ وفى عهد السلطنة الأولى للملك الناصر محمد بن قلاوون حدثت فتنة كبيرة بين نائب السلطنة الأمير كتبغا ، وبين الوزير سنجر الشجاعى . أثارها الشجاعى ودبرها لكى يخلو له الجو من كتبغا فيستبد هو بالسلطان لصغر سنه . فانقسم المماليك قسمين ، وشبت بينهما نار الحرب الداخلية عام ٦٩٣ هـ وظلت أياما ، وكانت عاقبتهما قتل الشجاعى وعزل الناصر ، وأيلولة الملك إلى الأمير كتبغا فتلقب بالعادل .

٥ ـ وفى عام ٧٦٣ هـ وقعت فتنة حارة بين السلطان حسن بن الناصر ، وبين مملوكه « يلبغا » وكان هذا السلطان قد رقى مملوكه المذكور حتى أصبح فى مصاف عظماء الأمراء . فحسده كثير منهم على هذا الجاه ، ووشوا به إلى السلطان ، وأوقعوا بينهما العداوة والبغضاء ، فجمع كل منهما عصابته وكيده واقتتلا ، فانهزم السلطان حسن . وكانت النتيجة أن قبض عليه ، وقيل إنه خنق بعد ذلك وآلت السلطنة إلى المنصور محمد ، ورقى « يلبغا » إلى منصب الأتابكية وأصبح صاحب الحل والعقد .

٦ ـ وابتلى السلطان برقوق بعداوة مملوكه « منطاش » ، الذى ظل زمنا طويلا يعيث فى الأرض فسادا طورا بمصر ، وطورا ببلادالشام ، وكان سببا فى زوال سلطنة برقوق الأولى عام ٧٩١ هـ وارتقى السلطنة بعده أمير حاج ، وكان أتابكيه يلبغاالناصرى ، فاشتدت الشحناء بينه وبين « منطاش » ، ووقعت بينهما حروب هزم فيها يلبغا ، فقبض عليه « منطاش » وخلا له الجو ، وظل يكيد لبرقوق وهو فى سجنه بالكرك ، حتى أفل نجمه ، وعاد برقوق إلى السلطنة ، ففر منطاش إلى بلاد الشام عابثا بها حتى قبض عليه فانتحر .

٧ ـ وفى سنة ٨٠٠ هـ أخذ الأمير « على باى » فى الكيد للسلطان برقوق ، مع أنه مملوكه ، وهو الذى رقاه حتى صار رأس نوبة النوب ، وهيأ له كمينا من أتباعه

ليفتكوا به حين عودته من تخليق العمود فى حفلة كسر السد ، ولكنه نبه عليه فلوى عنان فرسه مبتعدا عن هذا الكمين ، فحنق . على باى » وكر على السلطان ومن معه بمن لديه من الجند والأتباع ، فترامى الفريقان ، ثم هزم « على باى » ثم قبض عليه بعد زمن ، وسيق إلى السلطان ، فسجنه ثم أخذ يسأله عن أموال لديه، ثم حنق منه ولكزه بحديد فى يده فقضى عليه . وكان سبب هذه الفتنة كما قال « على باى » أن السلطان لم ينصفه من عدوه الأمير « أقباى » .

٨ ـ وقد نوهنا فى باب « الجور والعسف » بما ألحقه السلطان فرج بن برقوق بمماليك أبيه من سجن وقتل وتعذيب جزاء لهم على خيانتهم له وإنكارهم نعمته .

٩ ـ ولما تولى الملك المظفر أحمد بن المؤيد شيخ عرش مصر عام ٨٢٤ هـ ، كان رضيعا ، فاستبد به أتابكيه ططر ، ونزع منه الملك وتزوج أمه ، فما كان من أمه — على ماقيل — إلا أنها دست السم لهذا السلطان الجديد . . .

١٤ ـ ومن الفتن التى وقعت فى عهد قايتباى ، تلك الفتنة التى كان يقوم بها المماليك الجلبان بين آن وآن . والعداوة التى شبت نارها بين «قانصوه خمسمائة» و « أقبردى الدوادار» والمماليك الجلبان .

١١ ـ وفى عام ٩٠٣هـ غدر الأمير طومان باى بالسلطان الناصر بن قايتباى وأعد له كمينا بالجيزة ودعاه إلى النزول عنده ليقضى ساعة هنيئة ، ثم اغتاله . ومن آثار الفتن فى عهد الناصر المذكور أيضا الأمير « قانصوه خمسمائة » حيث استعرت بين الفريقين نار حرب أهلية غشوم انهزم فيها قانصوه واختفى .

١٢ ـ ولما تولى الملك العادل طومان باى السلطنة ، كان ممن عاونه على بلوغها معاونة صادقة الأمير « قوصروه » نائب الشام ولكن هذا السلطان خانه وفتك به دون جريرة فخنقه عام ٩٠٦هـ .

١٣ ـ وممن ابتلى بهم السلطان الغورى وأقلقوا باله وأقضوا مضجعه . المماليك الجلبان ، فقد أكثروا الفتن والمشاغبات وتعددت ثوراتهم بدعوى طلب أجورهم والسلطان يمنيهم تارة ويلاينهم تارة أخرى ، ويغلظ لهم القول آنا ، حتى هددهم

مرة بالنزول عن العرش وترك الأمور فوضى يزاولونها كما يشاءون ... وهم فى كل مرة لا يزيدون إلا شراسة وعراما ، وما كانوا يهدءون مرة إلا ليثوروا مرة أخرى وهكذا . . . حتى كانوا من أهم الأسباب التى أدت إلى سقوط الدولة . .

وفى يوم السبت ١١ المحرم عام ٩١٦ هـ ثاروا طلبا للنفقة المتأخرة ، وذهبوا إلى منزل الأتابكى قرقماس ومنزل غيره من الأمراء وأركبوهم مكرهين ليفاوضوا عنهم السلطان فى أمرها، فلما غضب عليهم ورفض مطالبهم تجمعت جموعهم وهجموا على حى الصليبة وسوق جامع ابن طولون،وانضم إليهم لفيف من العامة وخربوا نحوا من ٥٧٠ دكانا ونهبوا مايقدر بنحو عشرين ألف دينار . وحاولوا أن يقيموا الأمير « دولات باى » سلطانا . ولكنه فر منهم إلى السلطان . ثم سمعوا أن الأمراء يتجمعون للبطش بهم فتفرقوا وعادوا إلى طباقهم بالقلعة .

ومن ثوراتهم : ثورتهم فى جمادى الأولى عام ٩١٧هـ وثورتهم فى ٥ رجب عام ٩١٧هـ ، وثورتهم فى ذى الحجة عام ٩٢٠ هـ وثورتهم فى مستهل رجب عام ٩٢١ هـ وفى شوال عام ٩٢١ هـ أيضا .

وكانوا فى كل مرة يكررون ماصدر منهم فى المرة الأولى من التهديد والوعيد والنهب والسلب والقتل . « ابن إياس ج ٤ » .

ثورات العربان (١) :

ومما يتصل ذكره بذكر الفتن الداخلية ثورات العربان . فقد كان فى داخل البلاد كثير من هؤلاء يقيمون فى أنحاء متعددة منها. الشرقية والغربية والبحرية والوجه القبلى، وكذلك كان هناك عرب صحراء الشام ، وصحراء بلاد العرب . وإذا ثار هؤلاء اعتبرنا ثورتهم من الأمور الداخلية ـ وقد تعددت منهم الفتن وشغلوا السلاطين والأمراء زمنا بمكافحتهم . ويغلب عليهم حب النهب والسلب والرغبة فى الاستيلاء على ما بيد الأتراك من جاه ونفوذ . ـ وكثيرا ما كانوا ينتهزون فرصة الفتن الداخلية بين الأمراء ،أو خروج الجنود المماليك إلى غزوة فى الشام أو غيرها، أو

(١) النقل هنا عن ابن اياس ، وإذا نقلنا عن غيره نصصنا عليه ،

هزيمة تصيب جيشا محتربا ، ثم يغيرون عليه أو على البلاد وفلاحيها وزراعها ، فيسلبون مالديهم من قوت ودابة . وكذلك قد يدفعهم سلطان أو أمير بوسيلة ما فيعاونونه فى قتاله . وكانوا فى معيشتهم أقرب إلى الاستقلال بشؤنهم منهم إلى اندماجهم فى عداد الشعب ، ونشعر أنهم كانوا أكثر استقلالا واتباعا لتقاليدهم الخاصة فى هذا العصر منهم فى عصرنا الحديث .. وإلى القارىء نبذا من أخبارهم :

١ ـ فى سنة ٦٥١ هـ ثار العربان ببلاد الصعيد والوجه البحرى ، وقطعوا الطريق برا وبحرا بقيادة الأمير الشريف « حصن الدين بن ثعلب » ، وكان بناحية « دهروط صَرَّبان » وهى ديروط الحالية بمديرية أسيوط ـ وقالوا : « نحن أصحاب البلاد ، وصرحوا بأنهم أحق بالملك من المماليك ، وكفى أنهم عاونوا بنى أيوب ! ولكن لن يعاونوا عبيدهم ....

وتجمعت جموعهم من أماكن عدة حتى بلغت عدة فرسانهم ١٢ ألف ، ورجالتهم لا تعد كثرة . فتجمع لهم الترك بقيادة الأميرين « فارس الدين أقطاى » المتعرب و « فارس الدين أقطاى » الجمدار وأوقعوا بهم فى ناحية « ذَرَوَة » وغيرها . وكذلك فعلوا بعرب الغربية والمنوفية من قبيلتى سِنْبِس ولواته . فقتلوا منهم وسلبوا وغنموا ، وأخمدوا جذوة ثورتهم . وفر أميرهم « ابن ثعلب » . ثم طلب الأمان فأجيب إليه . ثم قبض عليه مع عدد من أصحابه وشنقوا جميعا إلا « ابن ثعلب » فإنه سجن بالإسكندرية . » « السلوك ج ١ ص ٣٨٦ »

٢ ـ وفى عام ٦٩٩ هـ فى عهد الناصر بن قلاوون اختلفت قبيلتا جابر ومرديس بالبحيرة فأغاروا على أجرانها وأحرقوا ما فيها . فبعث إليهم السلطان حملة تأديبية بقيادة الأمير « بيبرس المنصورى الدوادار . فوصلوا إلى تروجه وكسروا العرب كسرة قوية ، فهربوا إلى الجبال . . وغنم جنود السلطان جمالهم وغنمهم وعددا من أولادهم ونسائهم . « ج ١ ص ١٢٢ »

وفى عام ٧١٣ هـ سافر الناصر محمد إلى بلاد الصعيد لاعتلال عربانها عليه ، فضيق عليهم الخناق حتى جلوا ورحلوا إلى الجبال , ومات منهم كثيرون بالجوع والعطش ، وأسر منهم الناصر عددا كبيراً ســاقه إلى القاهرة ، وسجنهم هناك واستخدم بعضهم فى حفر الجسور .

وفى عام ٧١٦ هـ ثار عربان هيذاب بأعالى الصعيد فجرد عليهم الناصر ألف مملوك بقيادة ستة أمراء مقدمين ، ولكنهم عادوا بلا طائل . « ج ١ ص ٢٥٩ ، ١٦٠ »

٣ ـ وفى عام ٧٥٤ هـ عهد سلطنة الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ثار عربان الصعيد ثورة جامحة ونشروا الفساد فى أرجائه ونهبوا جميع الغلات وقتلوا عددا من العمال ، والتفوا حول كبير منهم اسمه « ابن الأحدب » شيخ قبيلة « عرك » ، واجتمعوا حوله جموعا كثيرة . فخرج إليهم السلطان بنفسه ومعه أمراؤه وجنده بقيادة الأمير « طاز » والأمير « شيخو العمرى » والأمير « صرغتمش الناصرى » . وأوقعوا بهم وقتلوا نحو نصفهم وقطعوا رءوس كثير منهم . وعادوا ومعهم أسرى وغنائم عدة من خيل وجمال وأغنام وسيوف وغيرها . وما دخلوا بها القاهرة حتى أعدموا الأسرى وكانوا نحو سبعمائة . وقيل فر كثير من البقية إلى بلاد الزنج ... وبعد مدة طلب شيخهم ابن الأحدب الأمان من السلطان فأمنه وخلع عليه وأقره على مشيخته . « ج ١ ص ٢٠٠ »

٤ ـ وفى عام ٧٨١ هـ فى عهد الملك المنصور على بن الأشرف شعبان ، سطا نحو خمسة آلاف عربى من عربان البحيرة بزعامة كبيرهم « بدر بن سلام » على مدينة دمنهور . ونهبوا أسواقها وبيوتها وما حولها من القرى . فبعث إليهم أتابكى العصر برقوق ، ثمانية من الأمراء المقدمين ومعهم نحو أربعمائة جندى . فخيموا فى ناحية من البحيرة ، فهجم عليهم العربان ليلا . وكان الأتراك قد أخذوا الحيطة لذلك ، فكروا عليهم كرة شتتت شملهم وقتلوا نحو ألف منهم ، وأسروا عددا آخر من بينهم نساء وصغار ، وغنموا ما لديهم من دواب ومال . وهرب زعيمهم . وعاد

الجنود إلى القاهرة بما معهم ظافرين[1] .

وقد عادوا إلى عصيانهم عام ٧٨٢ ﻫ فسار إليهم نحو ٥٠٠ جندى فهزمهم العرب ثم سار إليهم نائب الإسكندرية ومعه عربان من الغربية فهزموهم وانتصروا عليهم هذه المرة حتى فر كثير منهم إلى برقة . « ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ » .

٥ ـ وفى سنة ٨٠٤ ﻫ فى عهد فرج بن برقوق اعتدى عربان بنى عقبة على الحجاج ونهبوا ما معهم ، فكر عليهم أمير الحاج وأسر شيخهم « منجد بن خاطر » ، فهم السلطان فرج بقتله ، فالتزم برد ما نهب ، فظل أسيرا حتى رده .

« ج ١ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ »

٦ ـ وفى عام ٨٦٥ ﻫ فى عهد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ثار عربان « لبيد » ووصلوا إلى البحيرة وشنوا عليها الغارات ونهبوا الغلال . فبعث إليهم السلطان تجريدة . « ج ٢ ص ٦٧ ، ٦٨ » .

٧ ـ وفى عام ٨٧٠ ﻫ فى عهد الملك خشقدم خرجت تجريدة إلى الجيزة بسبب عصيان العربان بها وثوراتهم ، وكانت بقيادة الأمرين بلباى المؤيدى وبردبك هجين ، فطردوهم وعادوا .

وفى عهد هذا الملك عام ٨٧٢ﻫ ثار العربان بجهة العقبة وأفسدوا البلاد، فبعث إليهم جندا بقيادة الأمير « أزبك بن ططخ » ـ وثار كذلك عربان الصعيد فسارت إليهم جنود أخرى . « ج ٢ ص ٧٩ ، ٨١ » .

٨ ـ وفى عهد قايتباى حدثت من العربان جملة من الحوادث نلخصها فيما يلى .

ا ـ إنه فى عام ٨٧٢ ﻫ تحالف عربان البحيرة على الخروج على السلطان، فوثبوا على بلادها وأحرقوا أجرانها ونهبوا بلاد المقطعين . فعين السلطان تجريدة لهم ، وأخرى إلى الشرقية ، وثالثة إلى الوجه القبلى بسبب ثورة عربان أولاد ابن عمر . وخلع على شيخ العرب « صقر » وقرره شيخا لعربان البحيرة . ـ ولكن جاءت

(١) للقيم خلف الغبارى الزجال زجل فى هذه الواقعة تراه فى باب الزجل بالجزء الرابع من هذا الكتاب .

الأخبار بهزيمة جند السلطان على يد « سوار » ملك الأبلستين ، فشغل السلطان بأمرهم عن التجاريد السالفة وعن إتمامها . « ج ٢ ص ٩٦ »

ب - وفى ذى الحجة عام ٨٧٥ هـ خلع السلطان على شيخ عربان الشرقية «صقر ابن بقر» وقرره فى مشيختها عوضا عن قريبه «عيسى بن بقر» الذى سجن بالمقشرة بعد ضربه ضربا مبرحا بين يد السلطان . وبعث الأميرين «تمرا» حاجب الحجاب و «قانصوه الخفيف» الإينالى ليسيرا إلى الشرقية بسبب فساد عربانها ، وأمرهما بالقبض على كل من يجدونه من بنى سعد وبنى وائل . وقد عاد حاجب الحجاب المذكور فى صفر عام ٨٧٦هـ ، وقد قبض على جماعة من المفسدين وفيهم « موسى بن عمران » وآخر اسمه « طاجن » وجماعة من بنى سعد وبنى وائل . فرسم السلطان بإعدامهم . فكان ذلك سببا فى أن عاود عربان الشرقية الثورة ، لذلك عاد إليهم حاجب الحجاب لتأديبهم مرة أخرى . - إلا أن فسادهم زاد وعبثهم استشرى ، وخاصة فى ذى الحجة من العام المذكور ، إذ ثار عربان بنى حرام وبنى وائل بالشرقية وأفسدوا أمورها على السلطان ، وزحفوا على القاهرة حتى بلغوا حى الحسينية ونهبوا حوانيتها وسلبوا سكانها أثوابهم ، وعبثوا بها ساعات ثم عادوا . فجهز لهم قايتباى حملة تأديبية بها عدد من الأمراء الكبار « أزبك بن ططخ » و « قانى بك قلقسير » و « أزدمر الطويل » . فهموا سراعا إلى الشرقية ، وعاد أزبك بعد قليل ومعه عدد من أسراهم فسجنوا بالمقشرة . وأقام بقية الأمراء زمنا فى الشرقية لإصلاحها وتطهيرها من هذا الفساد .

وما لبث عربان البحيرة أن ثاروا مرة جديدة فى صفر عام ٨٧٧ هـ فأدبهم أزبك بن ططخ وأسر عددا منهم سجنوا بالمقشرة . وما هدأت هذه الفتنة حتى جددها عرب الشرقية من بنى وائل وبنى حرام ، فخرج لتأديبهم الأمير «يشبك الدوادار» ، وذلك فى شوال عام ٨٧٩ هـ . وفى ذى القعدة من العام نفسه هجم عرب عزالة على ضواحى الجيزة ونهبوا خيول المماليك وقتلوا جماعة من الغلمان وأطلقوا من كان فى السجن ، فجرد عليهم السلطان عددا من الجند فلم يظفروا منهم بطائل . ولكن لم

يلبث بعد قليل ان وفد على السلطان خلال عام ٨٨٠ ﻫ شيخ العربان «مهنا بن عطية» رأس المفسدين ، وشفع فيه بعضهم، فأمنه السلطان وعفا عنه فدخل تحت طاعته.

« ج ٢ ص ١٢٧، ١٢٩، ١٣٤ إلى ١٣٧، ١٥٤، ١٥٦، ١٦٢ »

ج ـ هدأت فتن العربان حينا حتى كانت أواخر عام ٨٨٢ ﻫ حيث ثار عرب « هوارة » فى بلاد الصعيد ومعهم « يونس بن عمر » فى وجه كاشف الوجه القبلى « برسباى »، ووقع بين الفريقين معركة دموية حارة قتل فيها كثير من الجند وكسر الكاشف كسرة قاسية . فهم السلطان قايتباى بالسفر إلى الوجه القبلى لتأديبهم ـ وكان حينئذ يرتاض بالفيوم ـ فمنعه الأمراء ، فأخذ يحث الأمير «يشبك» الدوادار على الخروج إليهم ـ وكان مريضا ـ فخرج بعد قليل ومعه جماعة كثيفة من الجنود . فقبض على يونس بن عمر الهوارى » بعد أن تتبعه إلى بلاد النوبة ثم قطع رأسه وبعثه إلى القاهرة فطيف به ثم علقه على باب زويلة أياما . وكذلك قبض على أخيه أحمد وعلى فئة كثيرة من أتباعه . ثم عاد فى جمادى الأولى عام ٨٨٣ﻫ ومعه أسراه فأمر ببعضهم فأعدموا ، وبالبعض الآخر فسجن . وفى ذى القعدة عام ٨٩١ﻫ أمر السلطان بإعدام « عبد العزيز بن عمر الهوارى » المعروف بعزوز ، وجماعة من أقاربه .

« ج ٢ ص ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ٢٤٠ »

د ـ وفى شهر شعبان من العام نفسه ٨٨٣ﻫ ، أطلق السلطان سراح شيخ العرب «محمد بن عجلان» ، وكان منذ عشر سنوات مقيما فى السجن بالقلعة فى البرج . فأفرج عنه وخلع عليه وأعاده إلى مشيخته بالشرقية . « ج ٢ ص ١٨٤ »

ﻫ ـ وثار بعد ذلك عرب الأحامدة بالوجه القبلى أيضا فسار الأمير «أقبردى الدوادار» إليهم وأدبهم خير تأديب وأسر منهم عددا وقتل عددا آخر ، وعذبهم تعذيبا شديدا ودفن بعضهم أحياء ، وباع بعضهم بيع الأرقاء ، وقد بلغت أخبار نصرته مدينة القاهرة فى جمادى الأولى عام ٨٩٢ ﻫ وطهر بلاد الصعيد منهم .

« ج ٢ ص ٢٤٣ »

٨ ـ وفى عصر الناصر بن قايتباى وقعت فتنة « قانصوه خمسمائة » واضطربت القاهرة بمن فيها عام٩٠٢هـ ، فانتهز عرب الشرقية والغربية هذه الفرصة وعاثوا فى أرجائهما فسادا وقطعوا الطرق حتى اعتاص السفر إليها من القاهرة . وفى العام نفسه بعد قليل هبت فتنة كبيرة بين فريقين من عربان الصعيد أحدهما بزعامة « حمدين عمر » أمير هوارة ، والثانى بزعامة «إبراهيم » الهوارى . وهبت الشحناء كذلك بين بنى حرام وبنى وائل . ولذلك ظل « أقبردى » ببلاد الصعيد زمنا ليقضى على هذه الفتن ، ثم عاد بعد قليل إلى القاهرة . « ج ٢ ص ٢١٢ ، ٣٢٢ »

وفى شوال عام ٩٠٤ هـ يوم عيد الفطر جاءت الأخبار بأن عربان « عزالة » ثاروا فى وجه كاشف البحيرة فحاربهم ، ففروا منه وعبروا النيل من « الوراق » ، واتجهوا قريبا من « شبرا » ثم توجهوا من خلف الجبل الأحمر إلى ناحية «طرا » « فالمعيصرة » حيث ضربوا خيامهم . فجرد عليهم السلطان الناصر بن قايتباى تجريدة بها عدد كبير من الأمراء الكبار منهم « قانصوه البرجى » أمير المجلس و«قرقماس بن ولى الدين» رأس النوبة و«قيت الرجبى» حاجب الحجاب و«سنباى» نائب سيس وأحد المقدمين ، « وطراباى الشريفى » الدوادار الثانى ، ومعهم عدد ضخم من الجنود. واتجهت الحملة فى اليوم نفسه إلى المعيصرة ، حيث التقت بعرب « عزالة » ، فاقتتل الفريقان قتالا شديدا انهزم فيه جنود السلطان هزيمة منكرة وقتل منهم نحو خمسين ، ومن غلمانهم نحو خمسين ، وجرح « قرقماس » و « قيت » و « طراباى » ، ونهب العرب مامعهم وحملوا أمتعتهم وفروا إلى بلاد الصعيد وعادت فلول الحملة إلى القاهرة فاشتد فيها النواح والعويل . . .

وقد خفف من هذا المصاب ووقعه أن كان الأمير « طومان باى » الدوادار ـ وهو الذى ملك فيها باسم العادل ـ كان فى ناحية الصعيد وسمع بأخبار هذه الهزيمة فجمع جنوده وبغت بها عرب عزالة وشتت شملهم وأسر منهم نحو ثلثمائة إنسان من رجال ونساء وأطفال ، وعاد بهم إلى القاهرة، فطيف بهم فى الحديد والحبال بعد أن رسم السلطان بتسميرهم ووضعهم على الجمال ، ثم أمر الناس برجمهم بالأحجار

وقد نظم الشيخ بدر الدين الزيتونى زجلا فى هذه الموقعة ، فانظره فى الجزء الرابع من كتابنا هذا بعون الله . « ج ٢ ص ٣٥٦ إلى ٣٥٨ »

٩ — وفى عصر السلطان الغورى وقعت من العربان جملة حوادث نلخصها فيما يلى :

ا — فى عام ٩٠٧ هـ اعتاص على السلطان أمر عرب الشرقية. فبعث إليهم فى شهر شعبان الأمير « قانصوه بن سلطان جركس » كاشفا. فلم يستطع هذا الكاشف أن يتفاهم معهم ، وازدادوا عصياناً فوق عصيانهم ، وتندروا على هذا الكاشف وسموه « هات لبن » — ويظهر أنه كان يكثر من ترديد هذه الكلمة لهم — فلبث فيهم أربعين يوما ، ثم عاد بغير جدوى .

وفى أواخر العام نفسه اعتدى عربان مكة بزعامة « الجازانى » على ركبى الحاج المصرى والشامى وقتلوا عددا من رجالها ونهبوا المال وعروا النساء من ثيابهن . وعاد الحجاج فى أوائل عام ٩٠٨ هـ على أسوأ حال . ولذلك أعد لهم السلطان حملة مكونة من ستمائة مملوك رافقوا المحمل فى خروجه من القاهرة فى شوال عام ٩٠٨ هـ .

وفى ذى القعدة عام ٩٠٨ هـ ازداد شر عربان الشرقية والغربية وبلاد الصعيد وكادوا يملكون البلاد من أيدى مقطعيها ، فجرد عليهم الغورى حملات عدة بقيادة أمراء ، هزم بعضها فأمده ، حتى كسروا شوكتهم بكل مكان وأثخنوا فيهم حتى قيل قتل منهم نحو ألفين ، وقيل كان الأمير « طراباى » ينشر بعضهم بالمنشار من الرأس إلى القدم. وقطعت رءوس شبانهم وأرسلت إلى القاهرة فى تبن على جمال. ثم عاد الأمراء فى صفر عام ٩٠٩ هـ .

وقبلها فى المحرم عام ٩٠٩ هـ قبض على أحد عصاة العرب الكبار واسمه « علاء الدين بن قرطام » من بنى حرام فى جبل الطور ، قبض عليه « نجم » أحد مشايخ العربان . فقطع هو رأسه وبعثه إلى القاهرة . فطيف به وعلق على باب زويلة .

وفى القعدة عام ٩٠٩ أيضا أرسل « إقباى الكاشف » رأس أعرابى شرير من عربان الشرقية كان من العصاة واسمه « ابن بيسار » فعلق كذلك على باب زويلة. ثم بعث شخصاً آخر من العصاة أيضا اسمه « ابن بهيج » فرسم السلطان بشنقه على باب النصر .

وفى شهر رجب عام ٩١٠ هـ خلع السلطان على شيخ العرب « بيبرس بن بقر » وأعاده إلى شياخة العرب كما كان ـ وأقر « أقباى » فى كشف الشرقية ليمهدها من الثائرين فيها من العربان بهمته المعروفة .

وفى شوال ٩١١ هـ جاءت الأخبار من مكة بأن الأحوال فاسدة ، وأن عربان « بنى إبراهيم » قد التفوا على « يحيى بن سبع » أمير ينبع ـ وهو الذى عينه فى تلك الإمارة السلطان الناصر بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ . والتفوا كذلك حول « مالك بن رومى » أمير خليص . وعقدوا النية على الثورة والفتنة والفساد ، ولهذه الأسباب أبطل السلطان الحج فى هذا العام .

وفى ذى الحجة عام ٩١١ هـ وقعت فتنة هائلة بين شيخ العرب «بيبرس بن بقر» وبين « نجم » شيخ العايد . فقتل فيها عدد كبير وفر من وجههم « أقطوه » الكاشف بالشرقية . واستمرت الفتن زمنا حتى وردت الأخبار إلى القاهرة فى ربيع الأول عام ٩١٢ هـ بأن العربان العصاة المذكورين قطعوا جسور الماء على الأجران حتى غرقت . وكان النيل قد أشرف على الوفاء ـ وفى ربيع الثانى عام ٩١٢ هـ جاءت أخبار الكرك بأن عربان « بنى لام » هزموا نائب القدس وقتلوا عدداً من المماليك السلطانية . فحنق الغورى وبعث إلى نائب الشام ونائب طرابلس بقتال «بنى لام». وبينما هؤلاء فى عبثهم إذ جاءت أخبار عربان الشرقية فى شــوال عام ٩١٢ هـ كذلك بأنهم قطعوا طريق المحلة ونهبوا ما فيه وفى جملته أموال للسلطان ـ وفى ٢٤ من الشهر المذكور حضر إلى القاهرة « خاير بك المعمار » ومعه خمسون رأساً ممن قتل من العربان من « بنى إبراهيم » ، فأنعم عليه السلطان .

ثم طيف بهذه الرءوس ونودى عليها : « هذا جزاء من يقطع الطريق على الحجاج» ثم علقت على أبواب القاهرة . ثم رسم السلطان للأمير «أزدمر الدوادار» بالخروج على حين غفلة ليباغت عربان « بنى لام» فى الكرك ونابلس فخرج ومعه نحو خمسمائة جندى .

وفى ذى القعدة عام ٩١٢ ﻫ وفد إلى القاهرة عدة من الهجانة وأخبروا أن الجند السلطانية برئاسة «خاير بك» انتصروا على «يحيى بن سبع» بالقرب من ينبع . وهو الذى ثار فى العام الفائت ووجه إليه السلطان هذه الحملة .. فقتل من الفريقين عدد كبير ، ثم انتصرت الجنود المصرية ، وفر « يحيى بن سبع » .

أما ثورة عربان الشرقية فقد شغلت بال السلطان وجرد عليها الحملة تلو الحملة بغير جدوى ، ثم قبض على «أحمد بن منها» شيخ بنى وائل بعد أن هرب من السجن وقتل السجان . ورسم السلطان بشنقه ، فسمر هو وأقاربه وطيف بهم فى القاهرة ، ثم شنقوا على باب النصر فى ربيع الأول سنة ٩١٣ ﻫ .

وفى ١٤ ربيع الأول عام ٩١٣ ﻫ جاءت الأخبار من عند الأمير « أزدمر » الدوادار أنه لما وصل إلى الكرك ونابلس قاتل عربان « بنى لام » الذين كانوا من عصبة « يحيى بن سبع » فانتصر عليهم وقتل منهم عددا ضخما .

وقبض على « عبيد بن أبى الشوارب » أحد كبار العربان المفسدين ، وكذلك قبض على « قاسم الغريب » أحد أشرار عربان الشرقية ورسم السلطان بإعدامهما فى ٢ جمادى الآخرة عام ٩١٣ﻫ — وخلع على شيخ العرب «عبدالدايم بن أبى الشوارب» وقرره فى مشيخة العرب بالقليوبية .

وفى رجب عام ٩١٤ ﻫ وفد إلى الأبواب السلطانية «ابن يحى بن سبع » ذلك العربى الثائر على السلطان من أعوام . فطلب السلطان إليه أن يخاطب والده فى المثول بين يديه ، وأعطاه ماشاء من الأمان . — ولما نزل هذا الابن من لدن السلطان كاد العوام يفتكون به لأن أباه وجماعته نهبوا مال الحجاج . ولكن الأمراء تقدمت لحمايته منهم ، ورسم السلطان بألا يتعرض له إنسان وإلا قتل . وقد فسر

العوام هذا الأمر بأن السلطان تسلم منه مالا ! وبذلك سكت عن محاسبته عن أموال الحجاج فضاعت هباء .. !

وفى رمضان عام ٩١٤ هـ وفد إلى القاهرة كاشف الشرقية ومعه شيخ العرب «عبد الدايم» بن الأمير «أحمد بن بقر» وقد قبض عليه بحيلة . وكان عاصيا مفسدا، فرسم السلطان بتقييده وإيداعه فى البرج مسجونا .

وفى جمادى الآخرة عام ٩١٦ هـ رسم السلطان بشنق أحد العربان المفسدين واسمه «عمر بن موسى» النفعى من عربان ثعلبة . وكان شجاعا .

ولما فر «يحيى بن سبع» من وجه السلطان وجنوده عام ٩١٢ هـ أقام السلطان أميرا لينبع بدلا منه وهو «هجار» . ثم توفى هذا الأمير عام ٩١٧ هـ فحاول «يحيى ابن سبع» أن يعود إلى إمارته فرفض السلطان وعين ابن عم المتوفى واسمه «أجود ابن مسقار» فى ١٤ صفر من العام المذكور .

وفى الخميس ١٤ ربيع الآخرة عام ٩١٧ هـ قبض نائب الغيبة بالشرقية على عربى مفسد يقال له «أحمد بن شكر» فسلخ جلده وحشاه تبنا وأرسله إلى السلطان ! ..

وفى الثلاثاء ٢٦ المحرم عام ٩١٨ هـ وردت أخبار عربان البحيرة واتفاقهم على الثورة والعصيان . وقيل تحالفت على ذلك منهم سبع طوائف . فأمر السلطان بعض الأمراء بالخروج إليهم ، فما طلوا وتباطئوا حتى حنق السلطان عليهم ، وعزم على الخروج إليهم بنفسه . وظل يعرض الجنود آنا بعد آن . حتى توالت الأخبار فى يوم الجمعة ٢٩ منه بأن عرب «عزالة» وغيرهم من العربان قد أظهروا العصيان وزحفوا على البلاد بالبحيرة، وأفسدوا الزروع ونهبوا الغلال وأنهم ضيقوا الخناق على شيخ العرب «الجويلى» . وأنهم طردوا كاشف المنوفية وغيره من البلاد. فبعث إليهم السلطان تجريدة بها من الأمراء الأمير «طومان باى» الدوادار الكبير ، وأمدهم السلطان بحملة من الجنود فخرجوا لتأديبهم . ثم عاد طومان باى فى ١٦ صفر عام ٩١٨ هـ . ورسم لبعض الجنود بالإقامة بالبحيرة زمنا حتى يتم وفاء النيل.

وفى السبت ٢٨ صفر عام ٩١٨ هـ أرسل «الأمير قانصوه بن سلطان جركس» الذى توجه إلى الصعيد ، ثمـانية رءوس من عرب « عزالة » منهم شخص يسمى « حضين بن كروان » ، وكان من كبار المفسدين .

وفى ٥ جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ وفد على السلطان الأمير «بيبرس» بن الأمير « أحمد بن بقر » شيخ العرب فخلع عليه ورضى عنه ـ وكان عاصيا منذ أمد .

وفى ٤ ذى الحجة عام ٩١٨ هـ رسم السلطان بشنق « ابن حمادة » شيخ العرب بالقليوبية ، فشنق على قنطرة الحاجب .

وفى الثلاثاء ٤ ربيع الأول عام ٩١٩ هـ بعث السلطان طائفة من الجنود إلى الغربية لفساد عربانها الذين قتلوا كاشفها .

وفى شهر ربيع الأول عام ٩٢٠ هـ أخبر أن عرب « عزالة » نزلوا بالقرب من البدرشين ، فركب إليهم الأمير « طومان باى » وقبض على عدد منهم وسيقوا إلى القاهرة ، فسجنوا فى المقشرة وخيف من أن يحكم عليهم بالشنق لئلا ينهب أقرباؤهم إقليم الجيزة جميعه انتقاما لهم .

وفى شعبان عام ٩٢٢ هـ عاث عربان « بنى عطية » و « النعائم » بضياع الشرقية ونهبوا منها نحـــو أربعمائة رأس غنم من غنم السلطان والدوادار طومان باى . ودخلوا وادى العباسة . فخرج إليهم الدوادار المذكور ومعه خمسمائة مملوك وجاهم، فهربوا من وجهه بما غنموه . فعاد إلى القاهرة ، وما لبث العربان أن عاثوا مرة أخرى فى بلاد الشرقية وغيرها وسرقوا كثيرا من مواشيها وحلى نسائها وقتلوا من فلاحيها عددا كبيرا ـ وكان هذا الفساد أيام شاعت أخبار انكسار الجيش المصرى أمام العثمانيين ، وعلم أن الغورى قد قتل فانتهز هؤلاء الناس الفرصة ، وقطعوا الطرق وسلبوا المارة وتلمسوا الفارين من الجنود العائدين إلى الوطن فنهبوا مامعهم وقتلوا من قتلوا . فكان ذلك أحد أسباب الفوضى الضاربة فى البلاد إثر هذه الهزيمة : « تراجع هذه الحوادث فى الجزء الرابع والخامس من تاريخ ابن أياس فى أخبار التواريخ المذكورة » .

٥ — الزلازل والطواعين والقحط والغلاء :

فشت فى مصر فى هذا العصر جملة من الزلازل والأوبئة ، وضروب من القحط وسنون من الغلاء ، زادت فى شقاء الناس ، وأطالت تعسهم . ولا يد للسلاطين ولا لأمرائهم فى هذه الحوادث إلا قليلا . ولكنها كانت من سيئات ما أصيب به الناس فى أيام حكمهم . ونشعر أنهم لو طووا من بينهم هذه الشحناء واللجاجة فى البغضاء ولووا عنان عنايتهم إلى مرافق الشعب الحيوية لأمكنهم إلى حد ما تخفيف هذه الويلات الطبيعية عن المصابين بها .

ولكنهم ـ والحق يقال ـ عنوا بعض العناية بهذه الحوادث بعد نزولها، فرمموا من الأبنية ما تهدم ، وبنوا المستشفيات للمرضى والمصابين . وأقاموا المغاسل للأموات . وتبرعوا بالأموال والكسى والأطعمة للمنكوبين ومدوا يد المعونة للأسر المفجوعة . وهكذا . . صنعوا ضروبا من المروءة والجميل مما نشير إليه فى الحوادث التالية والآن نسرد بعض هذه الحوادث ليكون القارىء على ذكر منها . فمنها :

ا — الزلازل :

١ — فى عام ٧٠٢ ﻫ فى عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ، حدثت زلزلة عظيمة فى ٢٣ من ذى الحجة وشعر بها الناس فى أماكن عدة وخاصة فى مدينة الإسكندرية، إذ هدمت سورها وسبعة عشر من أبراجها وجزءا من منارتها وأربعين من مآذنها ، وفاض من جرائها ماء بحرها وطغى على بساتينها ـ وهدم أكثر جدران الجامع الحاكى ، ومئذنة المدرسة المنصورية ، ومئذنة جامع الظاهر بالشوايين ، ومئذنة جامع الصالح بباب زويلة، وبعض جدران جامع عمرو بن العاص، وأحدثت شقوقا فى جبل المقطم ، وأسقطت كثيرا من الدور وهلك من جراء ذلك كثير من الناس . وأخذت الزلزلة تعاودهم فى مدى عشرين يوما ، حتى ظنوا أنها القيامة . . . فخرجوا من دورهم إلى العراء وأقاموا فى الصحراء ، حتى هدأت الاهتزازات . وهبت فى عقبها ريح سوداء لافحة لم يطقها كثير من الناس، فأغمى عليهم. وأصابت

هذه الزلزلة دمشق والكرك والشوبك وصفد وكثيرا من البلاد الشامية .

وقد اهتم الأمراء بترميم المساجد والأبراج والأبنية التى تهدمت ، وشرعوا فى إصلاحها عام ٧٠٣ .

قال المقريزى فى سلوكه يصف هذه الزلزلة ما ملخصه : « أنها بدأت عند صلاة الصبح فاهتزت الأرض كلها وقعقعت الحيطان وصوتت السقوف ، وسقط الماشى والراكب، وخيل للناس أن السماء انطبقت على الأرض . فملأ قلوب الناس الفزع، وهرعوا إلى الطرقات ومعهم النساء غير متسترات والكل يعول ويصيح. ووضعت الحوامل . وتهدمت مآذن الجوامع والمدارس . وأعقبتها ريح عاصفة وفاض النيل وقذف بما فيه من السفن بعيدا عن الشاطىء . وسرق من الدور كثير من المتاع . ولم تكد دار بمصر تسلم من الهدم . وتهدمت مدينة سخا ، وانشق منار الإسكندرية وتهدم جزء منه كبير . وفاض بها البحر وقذف سفينة بعيداً عن شاطئه ، وخربت ضيعتان بالشرقية .

وأصيبت مدينة قوص. واكتسحت الرياح دورا عدة ومواضع من الأرض كثيرة، وحتى بان من تحتها عمائر مطمورة . وتهدم بعض جامع عمرو وجامع الحاكم والأزهر، فقام بترميمها جميعا الأمير «سلار» النائب وعاونه فى ترميم الأزهر الأمير سنقر الأعسر . وتهدم مساجد أخرى وأمكنة أخرى ثم قام الأمراء بإصلاحها . وقد مات فى هذه الحوادث خلائق لا تحصى » .

« ج ١ ص ١٤٦ - سلوك المقريزى جزء ١ ص ٩٤٢ »

٢ - وفى رجب عام ٨٨١ هـ فى عهد قايتباى وقع بالقاهرة زلزلة أخرى فى الليل تهدم بسببها بعض الأماكن . « ج ٢ ص ١٦٧ »

٣ - وفى ١٧ المحرم عام ٨٨٦ هـ فى عهد قايتباى أيضا حدثت بمصر زلزلة هائلة مادت بها الأرض والمآذن . وسمع لذلك دوى عظيم وخاف الناس فهبوا مذعورين خارج المنازل ، ومعهم النساء حاسرات، وتوفى بسببها خلق منهم : قاضى القضاة شرف الدين بن عيد الحنفى ، سقط عليه ما أهلكه . « ج ٢ ص ٢٠٣ »

٤ - فى عهد الغورى عام ٩١٦هـ فى يوم الجمعة ٧ ذى الحجة وقعت زلزلة خفيفة ارتجت لها الأرض ولم يشعر بذلك إلا قليل من الناس .

ب — الطواعين والأوبئة(١)

١ - فى عام ٦٧١ هـ حدث وباء قتل به كثير من الناس ، وظل نحو ستة أشهر .
« ج ١ ص ١٠٨ »

٢ - فى عام ٧٤٩هـ فى عهد الناصر حسن بن الناصر محمد وقع طاعون جارف . قيل مات به فى شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف إنسان . وقيل كان يخرج من القاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرين ألف جنازة . وظل فى البلاد زمنا طويلا حتى أهلك الحرث والنسل ، ومات به مالا يحصى من الفلاحين ، فبارت الأرض وأقفرت وكثر الجدب وعم الخراب وأصيبت به الحيوانات حتى الكلاب والقطط والوحوش . وارتفعت أثمان الحاجيات لقلتها وزاد الغلاء وخرج الناس للدعاء كما يفعلون فى الاستسقاء ونظم الشعراء فى ذلك مقطوعات . « ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ »

٣ - وفى عام ٧٦٩ هـ فى عهد الأشرف شعبان ، فشا فى القاهرة الوباء حتى أفنى كثيرا من الناس . قيل كان يخرج من القاهرة كل يوم اثناعشر ألف جنازة .
« ج ١ ص ٢٢٢ »

٤ - وفى عام ٧٩١هـ فى عهد برقوق وقع طاعون مات به كثير من الناس وارتفعت أثمان الحاجيات . « ج ١ ص ٢٦٩ » .

٥ - وفى عام ٨٠٧هـ فى عهد فرج بن برقوق فى سلطنته الأولى ، فشا بالبلاد وباء جارف وكثر موت الفجاءة واشتد مرض السعال ، فمات بذلك خلق لا يحصى ، وكانوا يتساقطون فى الطرق جماعات . وقد تبرع المقر السعدى ابن غراب بافتتاح مغسل على نفقته يغسل فيه الموتى ويكفنون . فكان الحمالون يفدون إلى هذا المغسل بمن حملوا

(١) اعتمدنا فى هذا الموضوع على ابن إياس ، وإذا نقلنا عن غيره نصصنا عليه . ويبدو لنا أن ابن إياس اعتمد فيه على « بذل الطاعون فى أخبار الطاعون » لابن حجر ، راجع البدائع ج ١ ص ١٩٢ .

من الموتى . ـ وقد سمى فصل الوباء المذكور «فصل ابن غراب» نسبة إلى هذا الرجل.
« ج ١ ص ٣٤٨ »

٦ ـ وفى عام ٨١٣ هـ فى عهد السلطنة الثانية لفرج ، وقع طاعون آخر وزاد واشتد فى شعبان ورمضان حتى قال فيه القاضى مجد الدين بن فضل الله . .

تزايد الطاعون لما أتى   شعبان والحمى به صعبه
ودام فى الصوم على فتكه   وفطر الضيف على كبه

« ج ١ ص ٣٥٣ »

٧ ـ وفى عام ٨١٩ هـ فى عهد المؤيد شيخ فشا طاعون آخر فتك بالناس فتكا ذريعا .
« ج ٢ ص ٥ »

٨ ـ وفى عام ٨٢١ فى عهده أيضا ازداد الطاعون واستمر حتى دخلت سنة ٨٢٢ هـ .
« ج ٢ ص ٦ »

٩ ـ وفى عام ٨٣٣ هـ فى عهد السلطان برسباى انتشر الطاعون بالبلاد ، وكان طاغيا فتاكا ـ قال ابن إياس: «كان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين . فإن عادة الطعن يقع فى فصل الربيع . وهذا وقع فى وسط الشتاء واستمر أربعة أشهر» وقال «وكانت قوة عمله فى الغرباء والأطفال والمماليك والعبيد والجوارى !! . فمات فيه من الناس مالا يحصى عددهم ، حتى قيل انتهى من مات فى يوم واحد إلى أربعة وعشرين ألف جنازة . حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضا» .
وقال فيه بعض الشعراء .

قد نقص الطاعون ثلث الورى   وأهلك الوالد والوالدة
كم منزل كالشمع سكانه   أطفأهم فى نفخة واحدة

وقد انتهى خطره فى شعبان ليلة واحدة منه بعد أن مات به كثير من الأعيان قال ابن إياس نقلا عن ابن حجر : ولما كثر الطاعون بمصر اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ، ودعوا الله برفعه ، فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص» !!
« ج ٢ ص ١٨ و ١٩ »

١٠ – وفى عام ٨٤١ هـ وقع طاعون بمصر كان أخف من سابقه ، وهذا هو الطاعون الثانى الذى وقع فى عهد برسباى . قيل : مات به عدد لا يحصى من مماليك وأطفال وجوار وعبيد وغيرهم . « ج ٢ س ٢١ »

١١ – وفى عام ٨٤٩ هـ فى عهد الظاهر جقمق وقع طاعون خفيف مات به كثيرون. « ج ٢ س ٢٩ »

١٢ – وفى عام ٨٥٣ هـ وقع طاعون آخر فى عهد الظاهر جقمق كذلك هلك به عدد كبير من الناس قيل كان يموت فى كل يوم نحو عشرة آلاف إنسان . « ج ٢ س ٣٢ »

١٣ – وفى عام ٨٦٤ هـ فى عهد الأشرف إينال فشا طاعون جارف قاس سرت عدواه من البلاد الشامية ، وتفشا فى مصر . قيل مات به ثلث المماليك والأطفال والجوارى والعبيد والغرباء، واستمر خمسة أشهر . وقيل: كان تعداد الجنائز يوميا اثنى عشر ألف جنازة . وكان الورد فى تلك الأثناء كثيرا فاتخذوه للتوابيت زينة. « ج ٢ س ٦٤ »

١٤ – وفى عام ٨٧٣ هـ فى عهد قايتباى ، وقع أول طاعون فى عهده ، وكان فى شهر رجب من العام المذكور . وقد فشا فى مصر والشام ، واستمر حتى شهر رمضان فاشتدفيه وزادت ضحاياه وكثرفتكه بالناس ، ثم زال خطره فى شوال . وقد أنشأ الأمير يشبك فى هذا العام مغسلا للموتى يكفنون به فعظمت فائدته . « ج ٢ س ١٠٦ الى ١٠٨ »

١٥ – وفى عام ٨٨١ هـ وقع ثانى طاعون فى أيام دولة قايتباى ، وكان وقوعه فى شهر رمضان ، واشتد خطره فى شوال وفتك بالمماليك والأطفال والعبيد والجوارى والغرباء فتكا ذريعا، وكان المطعون يموت فى يوم إصابته . وظل فى تفاقم خطره حتى شهر ذى القعدة وذى الحجة إذ مات به نحو ألفين من المماليك السلطانية، ومات عدد من خدم السلطان وطواشيه ، وعدد آخر من أعيان الناس ووجهائهم، منهم عمر بن الأمير دولات باى الدوادار . وكان جميل الصورة شابا ، ومنهم محمد

ابن الأمير يونس العلائى أمير آخور كبير. وعدد كبير من الأمراء العشرات ومن الخاصكية. ومات بترك النصارى اليعاقبة وهو «ميخائيل المنفلوطى»، وفقد كثير من الناس أولادهم. ولما هبت ريح الخماسين بدأ خطره يزول. «ج ٢ ص ١٦٧، ١٧٠»

١٦ ـ وفى عام ٨٩٧ هـ فى عهد قايتباى كذلك، حدث فى ربيع الثانى بدء وقوع الطاعون، وأخذ فى الانتشار، وهو الطاعون الثالث فى عهد قايتباى. وقد عجب ابن إياس من بطء هذا الطاعون، فقد مضى على سابقه نحو ستة عشر عاما . . . فكأنما اعتادوا أن تكون الفترة بين كل طاعونين أقل من هذه الأعوام المذكورة! ويقول ابن إياس: «وكان فى مدة انقطاعه عن مصر، كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس . .» ـ فكأنما يجعل هذه الأمور من أسباب وقوع الطاعون فى البلاد. ولذلك قال بعد ذلك: «وقد روى عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالفناء . .».

وزاد شره فى جمادى الآخرة وانتشر خطره فى القاهرة فى هذا الشهر. وبالغ فى الفتك بالناس حتى فر كثير منهم وغادروا البلاد خوفا من العدوى. وارتفعت أثمان الحاجيات. وتوفى به عدد من كبار الناس منهم والى القاهرة «قيت الساقى». ومازال فى شدة وخطر حتى أواخر رجب فخفت وطأته ثم زال فى شعبان، بعد أن أخلى كثيراً من الدور من سكانها. وقيل أحصى من ثبت موتهم بطريقة رسمية، فكانوا نحو مائتى ألف، من بينهم عشرة آلاف بنت عذراء من مصر والقاهرة والضواحى. وقد قال الشيخ بدر الدين الزيتونى زجلا فى هذا الحادث يرثى فيه أهل مصر «انظره فى الجزء الرابع». «ج ٢ ص ٢٧٢ الى ٢٧٦»

١٧ ـ وفى عام ٩٠٣ هـ فى عهد الناصر بن قايتباى. ظهر الطاعون فى جمادى الآخرة بجهة قطيا. ثم فى رجب ظهر فى مدينة القاهرة، ومات به كثيرون، منهم «الشاه بضاع بن دلغادر» أمير التركمان، وكان ضيفا بالقاهرة. وزاد خطره فى رمضان. وفى أواخر هذا الشهر خفت وطأته بعد أن لبث زهاء ثلاثة أشهر، ومات به نحو مائتى ألف إنسان من بينهم نحو ألف ومائتين من المماليك السلطانية.

«ج ٢ ص ٣٣٨ الى ٣٤١»

١٨ — وفى عهد الغورى وقع طاعون خفيف عام ٩٠٩ هـ واشتد خطره فى أواخر ذى الحجة بعد أيام فطر النصارى فى الخماسين.

١٩ — وفى عام ٩١٠ هـ فشا الطاعون فى مصر — ويظهر أنه امتداد لطاعون السنة الماضية. فقوى خطره فى رمضان من هذه السنة وازداد فى شوال حتى بلغ عدد الجنازات فى اليوم الواحد أربعة آلاف. فلما تزايد أمره فتح السلطان مغسلا للأموات بجوار سبيل المؤمنى فانتفع به الناس أيما انتفاع. وصحبه غلاء فاحش حتى بيع الرطل من السكر النباتى بثمانية أنصاف، وعز وجود البطيخ الصيفى والرمان. وجاءت أيام الخماسين فى ذى الحجة والطاعون يفتك بالناس فتكا لاحد له. وقد نظم السيوطى فى هذه الحوادث شعرا تجده بالجزء الرابع.

٢٠ — وفى أواخر ٩١٢ هـ فشا الطاعون ببلاد الصعيد. مع أنه لم يفش بها عام ٩١٠ هـ أيام كان بالقاهرة.

٢١ — وفى أوائل عام ٩١٩ هـ ظهر طاعون آخر وقتل عدداً من الأطفال والعبيد والجوارى. ثم فتك بالناس فتكا ذريعا.. وازداد خطره فى صفر، حتى ألقى الرعب منه فى قلوب الناس وفر بعضهم بأولاده وأهله إلى جبل الطور لأنه — كما قيل — لا يقربه الطاعون! وظل فى شدته إلى أواخر ربيع الأول.

قال ابن إياس: إن بعض الأطباء أشار على السلطان بأن يلبس فى أصابعه خواتم من الياقوت الأحمر، فإنه يمنع الطاعون!! فأخرج من الذخيرة فصين منه ثمينين صاغهما على قطع من الذهب خاتمين. وكان يلبسهما فى المواكب..! قال ابن إياس: «فعد ذلك غريبا وخصوصا من سلطان تركى».

«ج ٤ فى التواريخ المذكورة»

ج - القحط والغلاء.

١ — فى عام ٦٦١ هـ فى عهد الظاهر بيبرس، شح النيل وفشا الغلاء فتعاون السلطان والأمراء على معونة الفقراء. «ج١ ص ١٠٣»

٢ ـ فى عام ٦٩٥ ﻫ . فى عهد كتبغا : أجدبت البلاد وشح النيل وارتفع ثمن الحاجيات وبلغ سعر أردب القمح مائة وسبعين درهما . وكذلك الفول ، ورطل اللحم بسبعة دراهم ، وبيعت البيضة بأربعة دراهم ، وبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهما . وبيعت الدجاجة بخمسة عشر درهما . واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال ، وحتى لم يبق عند أحدهم شىء من الدواب . وقيل كان يباع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم ! ثم أرسل الله على الناس الجراد بوفرة عظيمة ، فأقبلوا على تناوله ، وبيع منه كل أربعة أرطال بدرهمين . وقد عم الغلاء سائر البلاد المصرية والشامية والحجازية وكل ممتلكات مصر ـ وقد أعقب ذلك فنـــاء عظيم ومات الناس جماعات وفى الطرقات . وقيل إن الملك العادل كتبغا كفن على نفقته فى مدة يسيرة مائتين وسبعين ألف إنسان . ـ ثم كشف الله عن الناس هذه الغمة وأزال الكرب بعد انقضاء هذا العام ، فانحطت الأسعار وصلح الحال . « ج ١ ص ١٣٣ »

٣ ـ فى ٧٠٦ ﻫ . فى أيام السلطنة الثانية للناصر محمد وقع غلاء فاحش فى البلاد المصرية وقلت الغلال وزادت أثمانها ، واضطرب الناس لذلك . وبلغ ثمن الرغيف درهما من الفضة . ثم انجلى الحال قريبا . « ج ١ ص ١٤٧ »

٤ ـ فى عام ٧٣٦ ﻫ فى أيام السلطنة الثالثة للناصر محمد ، اشتد بالناس الغلاء وانعدم الخبز من الأسواق . وبيع أردب القمح بسبعين درهما ، واضطربت نفوس الناس . فأمر السلطان بفتح مخازن غلاله ، ففتحت وبيع منها للناس بثمن رخيص . فصلح الأمر وانخفضت أسعار القمح حتى بلغ ثمن الأردب ثلاثين درهما . وما جاء شهر رمضان حتى ملأ القمح الأسواق وزالت الشدة عن الناس .

« ج ١ ص ١٦٨، ١٦٩ »

٥ ـ وفى عام ٧٧٥ ﻫ . فى عهد السلطان الأشرف شعبان لم يف النيل فى موعده وقل القمح وامتنع الخبز من الأسواق . فخرج القوم للاستسقاء فلم يجدهم ذلك فتيلا !

وازداد الغلاء وبلغ ثمن كل أردب من القمح مائة وعشرين درهما. ومن الشعير ثمانين درهماً، وثمن الرغيف أربعة دراهم، وثمن رطل اللحم من الضأن درهمين ونصفا، ومن البقر درهما ونصفا، وبلغ ثمن البيضة عشرة دراهم، وراوية الماء خمسة دراهم. واشتد أمر الغلاء حتى بلغ ثمن البطيخة مائة درهم، والرمانة ستة عشر درهما. واضطر الناس إلى الإقبال على خبز الذرة والفول، وماتت الدواب لقلة علفها، واضطر السلطان والأمراء إلى بذل المعونة للفقراء. «ج ١ س ٢٢٩»

٦ ـ وفى عام ٨٥٣ هـ فى عهد جقمق: انتشر الغلاء وارتفع ثمن القمح والفول والشعير، وبلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير أشرفية، ثم بلغ سبعة، وعلت أثمان الحاجيات حتى روايا الماء، وشرقت البساتين لعدم وفاء النيل وذبلت الأشجار، وماتت الدواب، واضطرب بسبب ذلك حبل الأمن فى البلاد واعتدى العامة على بعض الرؤساء. قال ابن إياس: «واستمرت هذه الغلوة نحو سنتين» وقد رثى بعض الشعراء الخبز رثاء فكاهيا، تجده فى الجزء الرابع. «ج ١ ص ٣١، ٣٢».

٧ ـ وفى عام ٨٧٥ هـ. فى عهد قايتباى ارتفعت الأسعار فى شهر المحرم، وغلت جميع أصناف المأكولات وغيرها. وعز وجود الأوز والدجاج، وأقبل الناس على خبز الذرة والدخن. «ج ٢ ص ١١٨».

٨ - وفى أوائل سنة ٨٩٢ هـ انتشر الغلاء وغلت الأسعار فى جميع البضائع واختفى الخبز من الحوانيت. حتى بيع كل رطل منه بنصف من الفضة؛ وذلك بسبب الاضطراب فى النقد وارتفع ثمن راوية الماء وعز وجود جمال السقائين. ومازال الأمر يشتد حتى بيع القمح بسعر الأردب ستة دنانير أشرفية؛ وبيعت «بطة» الدقيق بأربعمائة وخمسين درهما، وظهر خبز الذرة فى الأسواق ـ ولم يكن يظهر فيما سبق. حتى صنف العوام فيه رقصة وأغنية هى:

«زوجى دى المسخرة يطعمنى خبز الذرة»

وقسا الخطب على الفقراء ومات منهم على الطرقات كثيرون بتأثير الجوع.

فاضطر السلطان إلى فتح مخازن قمحه وباع الأردب بسعر خمسة دنانير أشرفية ، وأخذ المحتسب يضرب باعة الخبز لعدم إعدادهم الخبز وإظهاره للناس وتعريضه للبيع . ومازال الأمر كذلك حتى فرج الله الكرب وخفف الخطب ، وقل سعر القمح إلى أربعة دنانير أشرفية بفضل ماجلب من الذرة ، فحمد النأس الله على ذلك فهو المعين والموفق . . «ج ٢ س ٢٤١ ، ٢٤٢»

٩ ـ وفى عهد الغورى وقع غلاء عام ٩١٤ هـ فى شهر رجب ، وارتفع ثمن القمح حتى بلغ الأردب خمسمائة درهم وعز وجود الخبز فى الأسواق ، وغلا التبن حتى صار ثمن الحمل دينارا .

١٠ ـ وفى عام ٩١٦هـ فى شهر ذى القعدة بدت الفواكه والخضراوات والرياحين والأزهار حتى البطيخ والثوم والبصل والقمح فاسدة ، وأصيبت زراعتها ، فضعف المحصول ، وبذلك ارتفعت الأثمان واشتد الغلاء .

١١ ـ وفى أواخر صفر عام ٩١٧ هـ قل القمح فارتفع ثمنه وبلغ الأردب أشرفيا بعد أن كان كل أردبين بأشرفى . وسبب ذلك قلة ماء النيل. ثم زاد سعر القمح إلى أشرفيين . وسرى الغلاء إلى جميع البضائع من خضراوات وسكر وعسل وزيت وسمن وزبيب وأرز وبرسيم وشعير وفول . غير أن هذا الغلاء زال فى أواخر العام المذكور .

١٢ ـ ثم عاود الغلاء الناس فى جمادى الأولى عام ٩١٨هـ . وكذلك فى ذى الحجة عام ٩١٩هـ إذ ارتفعت أثمان الأضاحى فى عيد النحر ، وذلك لأن المماليك اشتد أذاهم بالناس واختطفوا الأغنام والأبقار . وقد حرم الغورى فى ذلك الحين بيع الملح ، وعمل على احتكاره فارتفع ثمن الأردب منه إلى ثمانمائة درهم وزاد ثمن الفحم فبلغ ثمن قنطاره ثمانية أنصاف وحجر السلطان على الخشب «خشب السنط» ومنع بيعه بسبب احتياجه إليه فى إنشاء السفن المجردة إلى بلاد الهند بسبب عبث الفرنجة . وبعث أعوانه لاقتطاع الخشب من حقول الناس رغم أنوفهم . وعز وجود الكبريت حتى بيع كل رطل بثمانية أنصاف . «ج ٤ فى التواريخ المذكورة»

العادات والتقاليد

لكل قوم عادات وتقاليد ، يتبعها السلطان فى قصره والسوقة فى وكره . ولكل جيل ، ولكل طبقة ، فى كل عصر ، أمور عرفية ، وخطط عامة ، يتبعونها دون وعى ، وتحل منهم محل العقيدة ، ويسيرون عليها سيرا غير شعورى ، مدفوعين بدافع التقليد والاعتياد . وقد يشعر أحدهم بفساد ما يجرى عليه ، وبقبح مايتبعه، وبثقله على نفسه أحيانا . ولكنه لا يجد لنفسه مفرا من اتباع ما تعود ، وانتهاج مارسمته له الوراثة والظروف الاجتماعية . ولأنه يرى من العسير على نفسه أن يلوى عنانها إلى طريق جديد ، وأن يتجه بها وجهة أخرى قد لا يأمن عليها - برغمه - فيها من العثار أو الملام .

وهذا العصر الذى نؤرخه ، كان لأهله تقاليدهم وعاداتهم . وماتزال منها بقية باقية حتى اليوم ، بيننا موروثة ، لم نجد عنها حولا ، رغم تقلبات العصور وتغاير الأجيال وتحول القرون .

ومن يتصفح هذا الجزء من كتابنا ، يرى خلال ما أثبتناه فيه ، ضروبا من العادات والتقاليد ، رسمية وغير رسمية ، متناثرة هنا وهناك . ونحن الآن نورد بعضها مدعوما ببعض الحوادث التاريخية أو بذكر مراجعه، وذلك مما لم نذكره فى باب من الأبواب السابقة أو ذكرناه عرضا ودون تركيز .

وكان بودنا أن نرسم فى مقالة صورة عامة متخيلة ، للمجتمع المصرى ، تكون أدنى إلى الحقيقة . ولكننا لم نستطع إحكامها لضيق ما بيدنا من المؤلفات الواصفة ، التى تعين على رسم هذه الصورة .

ومع هذا فمن يقرأ كتاب « المدخل » لابن الحاج «والتعريف» لابن خلدون ، و«إغاثة الأمة بكشف الغمة» للمقريزى ، ومتناثرات فى السلوك والبدائع والنجوم والضوء والطالع، والمؤلفات فى العلوم الكونية المذكورة فى الجزء الثانى من كتابنا

هذا ، وأمثال ذلك ، يستطيع أن يكون فكرة أو يرسم صورة لهذا المجتمع، أقرب إلى الصواب .

ومما يذكر هنا أن المقريزى كتب فى كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » فصلا يفهم منه أن المجتمع المصرى فى عهده كان ينقسم سبعة أقسام هى :

١ ـ أهل الدولة وهم السلطان والأمراء وكبار الجنود .

٢ ـ أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

٣ ـ الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم « أصحاب البز » ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة .

٤ ـ أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف .

٥ ـ الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة .

٦ ـ أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن .

٧ ـ ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤال الذين يتكففون الناس ، ويعيشون منهم.

هذا وإليك بعض عاداتهم وتقاليدهم ، فمنها .

١ ـ حفلة تولية السلطان :

إذا خلا عرش البلاد من سلطانه ، يتشاور الأمراء فيما بينهم ، ثم يختارون كبيرا من كبرائهم لولايته . فإذا تم هذا الاختيار ووقع الاتفاق عليه ، أقيمت حفلة شائقة لتنصيب السلطان ، فيجتمع الخليفة والقضاة وسائر الأمراء ومن حولهم كبار موظفى الدولة والجنود ، ويكتب تقليد للسلطان بالسلطنة ، يتلى فى هذا الحفل العظيم. وهذا التقليد عن لسان الخليفة يوليه به شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة فالقضاة فالأمراء بمبايعته . ويلبسونه شعائر المملكة وخلع السلطنة ، وهى ـ عادة ـ عمامة سوداء لها عذبة مذهبة ، وجبة سوداء ، وسيف ثمين ذو حمائل . ثم تقدم إليه فرس ذات سرج مذهب ، وهى مزدانة بما عليها من الثياب والحلى . ويختار له لقب من الألقاب كالأشرف والظاهر ، وكنية كأبى المعالى وأبى النصر ، ثم يركب الفرس المذكورة ويسير وسط هذه الجموع ، وهم فى ثيابهم الرسمية ، ويعبرون عنها بالشاش

والقماش» :وطورا يشقون به شوارع القاهرة ، وطورا يسيرون به ابتداء من أماكن قريبة إلى القلعة ـ حسب مقتضيات الأحوال ـ ويقصدون القلعة ويصعدون به إلى القصر الكبير بها ، حيث يجلسونه على سرير الملك . ثم يقبل الأمراء له الأرض، فيخلع على من يشاء منهم ويرقى من يشاء ، ويسمرون زمنا ، ثم ينفض هذا الحفل . وينادى باسم السلطان فى أرجاء مدينة القاهرة ، ويرسل باسمه إلى الأقاليم الأخرى .

وفى أثناء مسير السلطان إلى القلعة تنشر فوق رأسه « القبة والطير » وهما من شعار المملكة كذلك . وكان يحملهما عادة أكبر الأمراء مقاما . ومن رشح ليلى النيابة أو الأتابكية . ـ ويبدو أن القبة كانت كالمظلة وهى مصنوعة من قماش ثمين . أما الطير فهو من الذهب ، ويوضع فوق القبة . أما الشاش فقطعة واسعة من القماش الرقيق تضفى على الرأس والأكتاف . وقد وقع قليل من التغيير والتبديل فى هذه الشعائر ـ فقد بدل الغورى بالطير هلالا من الذهب المخرم فى شوال عام ٩٢٠هـ . ومعه جلالة مذهبة كذلك . « راجع تولية بيبرس فى ابن إياس ج ١ ص ١٠١ . وتولية برقوق فى ج ١ ص ٢٥٩ . وتولية الغورى بالجزء الرابع منه » .

ونسوق هنا ملخصا عن وصف ابن إياس لحفلة تولية السلطان الغورى فنقول :

« عقدت البيعة لقانصوه الغورى . وبايعه الخليفة . ثم أحضر إليه شعار السلطنة وهو الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك ، فلقبوه بالملك الأشرف وكنوه بأبى النصر . ثم قدمت إليه فرس النوبة بالسرج الذهبية والكنبوش . فركب من سلم الحراقة بباب السلسلة . فتقدم « قيت الرجبى » وحمل القبة والطير على رأسه ـ وقد رشح للأتابكية ـ فركب الخليفة عن يمين السلطان . ومشت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش . حتى طلع من باب سر القصر الكبير . وجلس على سرير الملك . فأول من قبل له الأرض « قيت الرجبى » ثم بقية الأمراء شيئاً فشيئاً ، ثم خلع السلطان على الخليفة ونزل إلى داره . وخلع على «مصر باى وقرره فى الدوادارية

الكبرى والوزارة ، والأستدارية عوضا عن نفسه . فنزل إلى داره فى موكب حافل . ثم دقت له البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء » .

٢ — حفلات الاستقبال .

وأعنى بها تلك الحفلات التى يقيمها السلاطين حفاوة بمقدم ضيف كبير أو سفير خطير ، ترحيبا به وإظهارا لعظمة مصر وقوتها . ويرسل السلطان عادة إلى القادم من يلقاه فى طريقه . ويهيء له مكانا مناسبا يقيم به مدة مكثه بالبلاد، ويعين من يقوم بخدمته ، ويعاونه عادة بالمال والحراس . ويستقبله فى الحوش السلطانى، وهو بملابسه الرسمية ، وحول أمراؤه وأعوانه ورجال دولته وحراسه . وهناك فى الحوش يجلس السلطان فوق الدكة السلطانية ـ وهى مكان رسمى للسلطان فى مثل هذه المناسبات ـ وتفرش عليها وأمامها وحولها البسط الثمنية . فإذا ماوفد القادم على مجلس السلطان يصحبه أحد رجال الدولة ، قام له السلطان ـ عادة ـ وسلم عليه ورحب به ودعاه إلى الجلوس والحديث .

ثم يخلع عليه السلطان خلعة وينزل من لدنه مكرما إلى مسكنه المعد . وتقام له فيما بعد ولائم يعدها بعض الأمراء ويحضرها السلطان بنفسه أحيانا مبالغة فى الترحيب والعناية . وقد تزيد هذه العناية ومظاهرها أو تنقص ، حسب مقام الضيف .

ومما يذكر أن الغورى فى عام ٩٢٠ ﻫ بنى بدلا من الدكة مصطبة فى مكانها ، ـ كما أشرنا ـ فلم يقع هذا التغيير فى النفوس موقع قبول .

هذا وقد نوهنا ببعض هذه الحفلات عند الكلام عن السفارة . وحسبنا هنا أن نذكر حفلة استقبال رائعه أعدها السلطان الغورى احتفاء بمقدم الأمير « قُرقُد العثمانى بن ملك الروم :

قال ابن إياس فى الجزء الرابع من تاريخه ما ملخصه :

« وفى يوم الأربعاء ١٨ صفر سنة ٩١٥ هـ وصل « قرقد بيك بن عثمان » إلى شبرا . وهو ابن « بايزيد » ملك بنى عثمان . فلما وصل إلى شبرا أخلى له السلطان قاعات البرابخية التى ببولاق . ورسم لناظر الخاص بأن يحضر إليه جميع ما يحتاج إليه من فرش وأوانى وصينى وغير ذلك . وخرج جماعة من الأمراء للقائه . وكان السلطان قد رسم للكشاف ومشايخ العربان بأن يلاقوه بطول الطريق ، ويصنعوا له الأسمطة والموائد الحافلة . فلما بلغ البرابخية أقيمت له مأدبة بأمر السلطان . ثم توجه إليه الأتابكى « قرقماس » والأمراء قاطبة ، فسلموا عليه . ثم توجه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف ، واستمر وفود الناس إليه حتى يوم الاثنين ٢٣ صفر ، وهو مقيم بالبرابخية . ثم أرسل إليه السلطان عشرين فرسا له ولمن معه ، منها أربعة بالسروج الذهبية ، والكنابيش المزركشة والغواشى الحريرية الصفراء . ثم رسم السلطان لنقيب الجيش بإعلان الأمراء أن الموكب فى الحوش بالشاش والقماش . ثم نصبت السحابة الزركشية فوق « الدكة » وفرشت هذه بالحرير الأطلس الأصفر . وزين باب الزردخاة بالصناجق السلطانية والأسلحة . وصفت على جانبيه المكاحل . وتوجه المهمندار ورءوس النوب بأمر السلطان إلى الأمير المضاف ، وهم بشاشهم وقماشهم « بملابسهم الرسمية » ، فصحبوه ركوبا وساروا أمامه إلى القلعة . والجميع فى زينة حافلة ، والناس يملئون الطريق للتمتع بمشاهدتهم . ثم بلغ الركب القلعة ، فعطفوا به إلى مصطبة باب الدهيشة حيث أعد هناك مقعد حريرى ، استراح عليه الضيف قليلا استجماما للقاء السلطان . ثم دخل إلى الحوش السلطانى حيث « الدكة » السلطانية فحينما بلغ طرف البساط السلطانى نزل السلطان حينئذ بجوار « الدكة » ، وانتظر واقفا حتى بلغ إليه الأمير ، فتعانقا . وقيل إن الأمير قبل يد السلطان ووضعها على عينه . ثم تحدثا نحو ساعة وقوفا ! ثم خلع السلطان عليه خلعة ذهبية لامعة . ثم عاد ركبه مكرما إلى سكناه ومعه بعض الأمراء . وأرسل إليه السلطان بعد ذلك هدايا قيمة . » .

٣ ـ الاحتفاء بخروج السلطان من القاهرة أو عودته إليها :

يحتفى أهل القاهرة والأمراء والرؤساء بالسلطان إذا خرج منها لأمر من الأمور كحرب خارجية أو زيارة لناحية من نواحى البلاد المصرية أو ممتلكاتها . وذلك كجهة الإسكندرية أو الفيوم أو الشام أو الحجاز للحج مثلا . فتقام الزينات المختلفة فى أماكن مروره من أعلام وثريات زينية مختلفة الألوان وأقمشة نفيسة ذات أشكال وألوان عدة . ويسير فى ركبه احتفالا به وتوديعاله عدد من الرؤساء والأمراء ، وحين مروره يقف الناس له تعظيما ورغبة فى المشاهدة كذلك ، وتمتلئ نوافذ المنازل وشرفاتها بالنسوة يزغردن .

ويقام مثل هذا الاحتفاء إذا عاد من غيبته . وقد يكون هذا الاحتفاء أبلغ من سابقه وأعم وأربى زينة . وقد يهدى إليه . وهو قد يمنح ويهب ويرقى من يشاء . بمناسبة هذه العودة .

وقـــد سافر الغورى إلى الفيوم لزيارتها ولابتغاء الرياضة وإصلاح جسر اللاهون . وذلك فى ذى القعدة عام ٩١٨ هـ . فلما عاد من زيارته بعد ١٧ يوماً خف إلى لقائه بدهشور الخليفة ، وقدم إليه بعض الهدايا فشكره السلطان وخلع عليه ثم نزل السلطان بجوار الأهرام فى وطاق خاص . فأسرع إلى مؤانسته هناك القضاة الشافعى والمالكى والحنبلى ـ بينما كان القاضى الحنفى عبد البر بن الشحنة يصحبه فى رحلته . ثم عبر السلطان نهر النيل ونزل بمقياس الروضة ثم عبر إلى مصر . ثم ركب جواده ومشى أمامه رءوس النوب بالعصى . . وعدد كبير من الخاصكية بغير شاش ولا قماش . وركب أمامه الأتابكى « سودون العجمى » والأمير « أركماس » والأمير « طومان باى الدوادار » وحاجب الحجاب « أنصباى » وجماعة من الأمراء والمباشرين غير هؤلاء . فمنحهم السلطان بهذه المناسبة خلعا ثمينة . وكان حولهم وأمامهم الجنود فساروا وقت الصباح إلى الصليبة فى أبهى زينة وأجمل ملبس . ويتقدم ركبه الأفيال الكبار التى أهديت إليه من قبل ، وهى مزينة بالأقمشة والكسى

الحمراء الثمينة ، وعلى ظهورها الأعلام حمراء حريرية . والموسيقا تصدح خلال ذلك. وأمام الركب كذلك بعض أمراء بنى عثمان ، وكانوا ضيوفا بمصر[١]. وكذلك عدد من العربان . وما زال الركب حتى بلغ القلعة . ثم قدمت هدايا كثيرة إلى السلطان كما قدمت إليه هدايا أخرى وقت قيامه بالرحلة . ثم إنه فرق بعضا منها على أمرائه » . « ابن اياس جزء ٤ حوادث ذى القعدة سنة ٩١٨ هـ »

٤ ـ الفرح بشفاء السلطان من مرضه :

اعتاد الناس أن يظهروا لمليكهم ابتهاجهم وفرحهم إذا من الله عليه بالشفاء بعد مرض ألم به . وكذلك كان المصريون فى عصر المماليك . ونذكر أن السلطان الغورى مرضت عيناه فى عام ٩١٩ هـ حتى خيف عليه العمى ، وامتنع عليه النزول لمزاولة شئون الدولة ، وتوارى عن الأنظار مدة حتى أرجف الناس فى المدينة ، وأشيع أنه ابتلى بالعمى .

ولكن الله من عليه بالشفاء . فأقيمت له بهذه المناسبة زينة بالغة فى مدينة القاهرة إعلانا بابتهاج الناس وفرحهم بشفاء ملكهم . وذلك فى يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٩ هـ :

وكان مجتمع الزينة فى «بركة الرطلى» حيث نادى محتسب القاهرة «الزينى بركات ابن موسى» بإقامتها ، فامتلأت نواحيها بالقناديل والثريات وعلقت على وجوه المحال وطاقات المنازل، الأعلام وأقسمة الأقمشة الحريرية ما بين صفراء وحمراء وغيرها . وانتشرت أنواع الموسيقا فى جهاتها ، وهناك فى الخليج المار بتلك الجهة انتشرت المراكب والزوارق تحمل الناس من مكان إلى آخر للرياضة والمشاهدة والتفرج برؤية والزينة ، كما كانت تحمل أعيان الناس من سكان بركة الرطلى ليتبادلوا التحية والتهنئة والتبريك بشفاء السلطان . كما ترددت هنا وهناك من هذه الناحية أصوات المغنين والمغنيات يغردون ويسمرون ، والناس طوال الليل وفود إلى مجالسهم للأنس والسماع ، ولمشاهدة الألعاب النارية التى كان يستخدم فيها زيت النفط . وظل هذا الأنس العظيم والمتعة البالغة ثلاثة أسابيع على هذا النمط السخى . .

وبدأت الزينة فى القاهرة يوم ٥ شعبان المذكور وهو يوم الثلاثاء فامتلأت الأسواق بالزينات الحافلة ، وكذلك زينت مصر « العتيقة » وبولاق ، وزين سوق الخانكاه وحارة زويلة وخان الخليلى وغير هذه النواحى والأحياء .

وبدت الزينات البالغة كذلك على أبواب منازل الأمراء والرؤساء والخليفة والقضاة . وظلت الزينة سبعة أيام متوالية .

« ابن إياس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١٩ هـ »

٥ - عاداتهم فى شهر رمضان [١] :

إذا اقترب مجىء هذا الشهر استعرض السلطان من فى السجون من المسجونين ، فتقع مشيئته على بعض منهم فيأمر بإطلاق سراحه ويتلمس أحيانا بعض أهل الديون فيقضى ديونهم ، وقد يجمع بين المتخاصمين فيزيل من بينهم أسباب الخصام . واشتهر الغورى بضروب كثيرة من هذه الصنائع .

ثم إن ناظر الدولة ومحتسب القاهرة أو من يشابههما من كبار الموظفين ذوى الصلة بأموال السلطان ، يقومون بإعداد كميات هائلة من اللحوم والأغنام والدقيق والسكر ، وضروب كثيرة من الأطعمة مما يحتاج إليه قصر السلطان لطهيه أو لتفريقه على الفقراء خلال شهر رمضان . ثم يحمل الحمالون هذه الأشياء فى حفل حاشد وركب حافل تقدمهم الآلات الموسيقية الصادحة ، ويسيرون بها فى شوارع القاهرة لإشهار أمرها بين الناس . وما يزالون يسيرون بها حتى يصلوا إلى ميدان القلعة لتعرض على الأنظار السلطانية . فيطل السلطان حينئذ من القلعة ليراها . فتنال من لدنه القبول ، ويجرد بالخلع السنية على من تولى أمر إعدادها .

ثم إذا ما سنحت ليالى رمضان كانت فرصة لأعمال البر والإحسان ، وتقديم مايستطاع من معونة للفقراء والمحتاجين . يجود بذلك السلطان والأمراء وذوو الجاه والممولون والأعيان والرؤساء ، كل منهم حسبما تقضى به ظروفه ومشيئته . وسرت هذه العادة واتبعت حتى أصبحت هذه المساعدات بمثابة ضرائب تقليدية يدفعها

---

(١) نشرت هذه الكلمة بجريدة الأهرام فى شهر رمضان عام ١٣٥٨ هـ .

هؤلاء العظاء للفقراء بمناسبة شهر رمضان . ـ وإذا ما حدثت أحد الأمراء نفسه بالإفلات من دفعها ، وإزاحة عبئها عن كاهله ، زايل القاهرة قبيل رمضان! وأقام فى إقطاعه مثلا . . ولكن هذا الإفلات سرعان مايصبح أمرا مكشوفا ، ولايمر على الناس مرور الكرام .. بل يلحظونه ويلهجون بذكره ثم يذيع أمره ويعرف خبره وتكثر تقولاتهم حول هذا العظيم الهارب الفار من ضريبة الإحسان . .

ومن عادات السلاطين فى هذا الشهر العناية بقراءة الأحاديث النبوية فى صحيح البخارى ، يأمرون بها القارئين من الفقهاء ويؤجرونهم لذلك . ودرجوا على أن تكون قراءتها بقصر السلطان ثم تختم بالقصر الكبير بالقلعة .

ويكون ختام البخارى فى يوم مشهود تجتمع فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأعيان والفقهاء ويقبل السلطان فى أبهة وعظمة ، فيجرى الختام على مسمع منه، ثم يأمر بتفرقة الخلع السلطانية والهبات المالية على من اعتاد ذلك منه فى مثل هذه المناسبة ، كل حسب مقامه ومنزلته .

وقد تكون قراءة البخارى فى الجامع الأزهر . وفى عهد الغورى كانت تتلى فى جامع القلعة وتختم بفنائها ختاما يسيرا هينا .

وفى النصف الثانى من شهر رمضان يكون ناظر الخاص قد هيأ خلع العيد التى اعتاد السلطان أن يهب منها لمن يشاء بمناسبة انقضاء رمضان وحلول العيد . فتزف هذه الخلع فى أحد الأيام من أواخر رمضان وتعرض على الناس فى الطرقات وتشهر بينهم ، ثم تعرض على الأنظار السلطانية لتنال من لدنها الرضا والقبول .. فإذا ما حظى ناظر الخاص برضا السلطان ، تناول منه خلعة نفيسة وعاد إلى داره شاكرا . .

وكان أهل هذا العصر يستعينون على الإشعار بدخول وقت السحور بأن يؤذن المؤذنون فى المساجد ، ويقولون جملا متعارفة بين الناس يعلمون منها دخول وقت السحور ، ومنها :«تسحروا .. كلوا واشربوا » ، ومنها بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ، وقوله

تعالى « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » . . ، ويتبعون ذلك بالتغنى وإنشاد بعض القصائد ، وهذا كله قبل ميعـاد الأذان الشرعى للسحور . ويستعينون مع الأذان المذكور بالدق على الطبل والمناداة فى الطرقات كما هو الشأن فى أيامنا . وكذلك بقرع الدور والمناداة على سكانها كما هو الشأن فى بعض عواصم المحافظات وبعض بلاد الريف المصرى اليوم . وكذلك يستعينون بإضاءة المصابيح. حتى إذا ما انتهى وقت السحور أطفئت فيعلم الناس دخول وقت الفجر .

« ابن إياس ج ٤ حوادث شهور رمضان عام ٩١١ هـ ، ٩١٣ هـ . ٩١٨ هـ . وراجع كتاب المدخل لابن الحاج ج ٢ »

٦ — الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى :

كان أهل العصر يستعدون للاحتفال بعيد الفطر والأضحى ـ كما نستعد نحن أهل العصر الحاضر ـ وفى رمضان ـ كما ذكرنا ـ قبل عيد الفطر ، تعد خلع العيد وتزف . ـ وفى يوم العيد يخرج السلطان للصلاة بمسجده ـ الذى أنشأه غالبا ـ أو بغيره ، ويكون بصحبته فى الصلاة ـ عادة ـ الخليفة والقضاة الأربعة وكثير من عظماء الأمراء . ثم يعود إلى قصره ، فيصعد إليه القوم للتهنئة ، فيهب الخلع الثمينة لمن يشاء منهم ـ وهذه الخلع كانت فى ذلك الزمن بمثابة النياشين والأوسمة فى زمننا الآن .

ومن العادات التى اتبعت زمنا طويلا أن ينزل الوزير من القلعة إلى داره فى موكب حافل يوم عيد الفطر فيمتطى بغلته ، وعلى رأسه « طرحة » بيضاء ، وتحت عمامته « عرقية » مذهبة ويسمونها « الطاسة » ، ويتقلد سبحة بأكر من العنبر ، وتسير أمامه الأوجاقية وهى لابسة ثيابا خاصة من الحرير الأصفر تعرف « بالتتريات » ، وتقود جنائب الوزير ، وأمامه كذلك « مبخرة السلطان » وبها البخور ، وقد بطلت هذه العادة وهذا الموكب بعد أن لبثت مدة طويلة من شعائر الدولة . وآخر من فعل ذلك من الوزراء الصاحب علاء الدين على بن الأهناسى المتوفى عام ٨٧٠ هـ « راجع باب الأفذاذ » . ثم اضمحل أمر هذه العـادة وانقضى

شأن هذا الموكب حتى أصبح الوزير «تغرى برمش» فى عهد الغورى إذا نزل يوم العيد من القلعة إلى داره لا يشعر به إنسان .. -

ومن العادات التى اتبعت زمنا : أن يخرج السلطان إلى صلاة العيد ، وفوق رأسه « القبة والطير » . وقد أبطل برقوق ، هذه العادة ..

وللناس إذ ذاك عادات لا يزال كثير منها بيننا موروثا حتى اليوم، منها خروجهم إلى الصلاة ثم الذهاب إلى زيارة المقابر حيث يختلط الرجال هناك بالنساء ، وتقع ضروب من المفاسد . ثم العودة إلى الدور بعد زمن طويل ، وكذلك يغالون فى عيد الفطر فى إعداد الكعك والخشكنان « البسكويت » والبسندود ، والسمك المشقوق .. - ولعله السمك المقدد الذى يطلق عليه الآن « البكلاه » -

ويحشى الكعك عادة بالعجوة ويرش عليه ماء الورد وكذلك يشترى النقل « الفطرة » .

وفى عيد النحر يتبارى كثيرون فى ذبح الأضحية . وكثيرا مايخالفون تلك السنة ، فيذبحون قبل الميعاد الشرعى . كما أنهم قد يتهادون بلحوم الأضاحى لا لله وإنما للسمعة ولانتظار العوض ، كما أنهم قد يقبلون على التهامها حبا فى الطعام .

وقد لا يفعلون هذا كله توسعة على الصغار والفقراء ، وإنما مباهاة وحبا للظهور . كما أن كثيرا من الأسر تعانى المشقات الكثيرة فى إعداد هذه الأشياء ، وتقع بينها الشحناء وتمد يدها للدين . وبعضها قد يقاسى ألم الحرمان . . . انظر إلى البوصيرى الشاعر المتوفى عام ٦٩٥هـ فى شكواه إلى أحد الوزراء من قصيدة يقول فيها واصفا أسرته وأطفاله :

وأقبل العيد وما عندهم	قمح ولا خبز ولا فطرة
فارحمهمو إن عاينوا كعكة	فى كف طفل أو رأوا تمرة
تشخص أبصارهم نحوها	بشـــهقة تتبعها زفرة

هذا وفى الأعياد تطوف جماعات من العذارى الأبكار والمراهقات ، ويسمين «بنات العيد» ، فى الطرقات وفى الأسواق على التجار والعلماء وغيرهم وعلى البيوت

كذلك ، يجمعن من الناس ماجادت به مكارمهم فى تلك المناسبة ، ومعهن الدفوف يدققن عليها ويغنين ... وهذا شبيه بما اعتاده الصغار فى أيامنا فى شهر رمضان من الطواف ليلا فى الطرقات يطرقون أبواب المنازل والحوانيت والمقاهى طلبا للعطاء ، وفى أيديهم المصابيح الملونة وهم ينشدون أناشيد مختلفة .

«ابن إياس ج ٤ فى حوادث رمضان وشوال عام ٩١٢ هـ أيضا و ج١ ص ٢٦٠ ـ والمدخل لابن الحاج ج ١ » .

٧ — الزواج وحفلاته :

لم يكن زواج السلاطين ولا زواج الأمراء خاضعا لاعتبارات سياسية ومشيئة عامة ، كما يحدث كثيرا فى عصرنا الحاضر لدى بعض الدول . ولكن كان كل من السلطان والأمير حراً فى اختيار زوجته حسبما يشاء ، ومع ذلك نرى أن هذه الطائفة الحاكمة صاهر بعض أفرادها البعض الآخر حتى كانت بين كثير منهم صلات نسب متينة . وقد تزوج ـ مثلا ـ الأمير يشبك الدوادار ببنت الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال . ثم توفيت فتزوج بأخت الأمير قانصوه خمسمائة . كما أن قانصوه خمسمائة المذكور تزوج بنت الأتابكى أزبك بن ططخ . وهذا الأتابكى كانت زوجته ـ حماة قانصوه ـ ابنة الملك الظاهر جقمق . وهكذا ..

ولم تكن هناك غضاضة على زوجة السلطان أن يتزوج غيرها مستخدماً حقه الشرعى فى تعدد الزوجات ولاغرابة فى ذلك فإن من المحال على زوجة أن تنكر إنكاراً أدبيا على زوجها السلطان . أن يتزوج سواها ، مع وجود نظام التسرى وبيع الرقيق . وقد كان السلاطين أنفسهم يعاونون على جلبهم ويأمرون به ويعدون الأسواق خصيصا لذلك كخان الخليلى مثلا . ـ وهكذا تعددت الزوجات والجوارى معا بل قد يتزوج السلطان أرملة أحد الأمراء أو مطلقته . .

وكذلك لم تجد الزوجة ـ زوجة السلطان ـ فى نفسها أية غضاضة أو مرارة أو شيئاً محرجاً أو موقفا غير عادى إن هى أقدمت على الزواج بعد وفاة

زوجها وانقضاء دولته. ولو كان السلطان الجديد ولدها وفلذة كبدها وكبد الراحل الكريم. وقد تتزوج بسلطان آخر ، وقد تتزوج بكبير من الأمراء ، وقد تتزوج برجل كان مملوكا لزوجها . . .

وإذا كانت هذه عادة زوجات السلاطين فلا غرابة أن اتبعها كذلك زوجات الأمراء وغيرهم .

ومن الأمثلة على ذلك: السلطان برسباى العلائى تزوج أرملة الظاهر خشقدم، والسلطان الناصر بن قايتباى تزوج مطلقة الأمير « كرتباى » نائب صفد. وهى التى تدعى « خوند مصر باى الجركسية » ويظهر أنها كانت فاتنة ، لرغبة الرجال فى زواجها . فقد تزوجها السلطان الظاهر قانصوه لما ملك البلاد بعد زوجها الثانى الناصر بن قايتباى . ومن الأمثلة : أن السلطان العادل « طومان باى » عقد على « خوند فاطمة » بنت العلائى على بن خاص بك ، وهى التى كانت زوجة للأشرف قايتباى. والأشرف جان بلاط قبل أن يملك البلاد تزوج أم الملك الناصر بن قايتباى وهى أخت الملك الظاهر قانصوه بن قانصوه الذى ملك بعد الناصر المذكور... وهكذا.

وكانت حفلات الزواج والدخول والزفاف وإعداد المتاع يبالغ فيها القوم ويغلب عليهم فيها حب الظهور والفخر ويشتد غناؤهم وتعلو أصواتهم ويدقون بالدفوف ويرقصون ويزغرد النساء ...

وحسبنا هنا أن ننقل ملخصا عن ابن إياس مما ذكره فى زواج الأمير « قانصوه خمسمائة » بابنة الأتابكى « أزبك بن ططخ » . قال ما مؤداه :

« فى عام ٨٩٢ هـ فى شهر جمادى الآخرة وفى يوم جمعة كان عقد « قانصوه خمسمائة » على بنت الأتابكى « أزبك » من خوند بنت الظاهر جقمق. عقد بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس وكان عقدا حافلا ، وأحضر السلطان عدة « زبادى » صينى ـ وهى أوعية معروفة للآن بهذا الاسم ـ فيها سكر ، وأوعية مملوءة بالفاكهة ، فرقت فى القلعة .

وفى شهر رجب من نفس العام تم حفل الزفاف والدخول. فحمل الجهاز من

الأزبكية - حيث دار أبيها - إلى دار الزوج بقناطر السباع ، نحو أربعمائة حمال : وقيل أنفق على هذا الجهاز نحو من مائتى ألف دينار. ولما كانت ليلة الزفاف زينت الأزبكية بأبهى زينة . وركب «قانصوه» من باب السلسلة وأمامه الأمراء المقدمون بالشاش والقماش - أى بالملابس الرسمية - وهى لا تلبس فى غير حفلة التولية وصلاة الجمعة والعيدين مع السلطان . ومشى الخاصكية وبأيديهم الشموع حتى بلغوا الأزبكية » .

وننقل أيضا وصفه لموكب زوجة الملك العادل طومان باى يوم زفافها إليه بالقلعة قال :

« يوم الخميس ٧ شعبان عام ٩٠٦ هـ صعدت خوند الخاصكية زوجة الملك العادل طومان باى إلى القلعة . فخرجت من بيتها بقنطرة سنقر فى محفة زركشية وأمامها رءوس النوب والحجاب والخاصكية وهم بالشاش والقماش. وأمامها كذلك الوالى ونقيب الجيش والزمام عبداللطيف وأعيان الأكابر والمباشرين والطواشية، وفى صحبتها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء ، والعظماء . فلما وصلت إلى باب الستارة فرشت لها الشقق الحريرية تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفائف الذهب والفضة ، وحمل الزمام فوق رأسها القبة والطير . حتى جلست بقاعة العواميد ، والموسيقا تصدح فى خلال ذلك . واستمر الابتهاج بقدومها فى القلعة ثلاثة أيام . ووضع أمامها فى موكبها كذلك جملة من الصرر وطست وإبريق من البلوك ومنديل كبير من الزركش » .

« إياس ج ٢ ص ٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ » .

٨ - حفلات الختان :

كان الناس فى ذلك الزمان يعنون بالختان ويقيمون له الحفلات . كما هو الشأن فى زماننا - ويهتمون بختان الذكور أكثر من اهتمامهم بختان الأنثيات. وكلما عظم مركز أهل هذا الحفل عظم اهتمام الناس بهم، وعنوا بالاحتفال معهم، وأحيانا تزين وجوه المنازل والحوانيت المجاورة لمنزل الأسرة المحتفلة وتوقد الشموع فى القناديل،

ويقبل الناس عليهم للتهنئة، وتتبادل الهدايا . ويغنى المغنون والمغنيات، وتمد الموائد وتقدم الأطعمة الشهية والحلويات . وقد تعرض على الحاضرين بعض الألعاب الظريفة . ومن الأمثال على ذلك :

ا ـ ختان أولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر عام ٨٨٦ هـ . وكان منزله ببركة الرطلى . فأم منزله فى ليلة الختان كثير من الأمراء المقدمين والعشرات . وزاره الأمير جمجمة العثمانى ـ وكان ضيفا فى مصر ـ وبات عنده تلك الليلة . وأوقد الناس لذلك منازلهم وحلوها بالقناديل، حتى انقلب الليل نهارا لشدة الضوء . وانتشرت الزينات هنا وهناك حتى جذبت إليها أنظار الناس فتوافدوا إليها زمرا للابتهاج بها وللتفرج بمشاهدتها . وامتلأت بركة الرطلى بالمراكب وركابها . وجلس المغنى «ابن رحاب» وغيره من مغنين ومغنيات يطربون الحضور بأصواتهم الشجية . . وربح بائعو الحلوى أرباحا وفيرة فى تلك الليلة . وبعث القاضى ابن مزهر إلى كل بيت فى البركة عشرة أرطال من الزيت، ومائدة فيها مالذ وطاب من الطعام . . وقد عنى القاضى ابن مزهر بهذه الليلة عنايته المذكورة بناء على أمر السلطان قايتباى إذ كانت له عناية بالأمير العثمانى جمجمة، فأحب أن يبهجه بالمبالغة فى هذه الحفلة . ثم إنها فرصة للظهور . . . انتهزوها « ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٨ » .

ب ـ ومن الأمثلة كذلك ليلة ختان ابن الملك الأشرف قايتباى عام ٨٩٤ هـ فى شهر رجب . وقد استمر الاحتفال به سبعة أيام متوالية، وزينت طرقات القاهرة وأسواقها، واجتمع سائر المغنين لإطراب الناس، وابتهج الناس فى هذه الأيام أيما ابتهاج . وقدمت الهدايا الحافلة إلى السلطان بهذه المناسبة، من مال وخيل وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك، وقد قومت هذه الهدايا بأكثر من خمسين ألف دينار . وفى جملتها طست وإبريق من الذهب زنة ستمائة مثقال، قدمها الشهابى أحمد ابن العينى . واختتن مع ابن السلطان عدة من أبناء الأعيان والأمراء والخاصكية . وأقيم لابن السلطان موكب شائق ركب فيه فرسا وسار من قاعة البحرة إلى باب

الستارة ، والسلطان ينظر إليه فى مقعد خاص . وسارت أمامه الأمراء والخاصكية وسائر أعيان المباشرين ، وكثير من كبار الخدم ، وأمسك لجام فرسه الأمير « أقبردى الدوادار » ، والشهابى « أحمد بن العينى » وجميعهم بالشاش والقماش «الملابس الرسمية» . وفرشت الشقق الحريرية تحت حوافر فرسه ، ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة ، وتلقته المغنيات بأناشيدهن ، وأدخل إلى قاعة البيسرية حيث جرى ختانه بوساطة أحد المزينين . . وقيل دفعت إليه على سبيل «النقطة» خمسة آلاف دينار أو تزيد فنال منها وحده ألف دينار ، وفرق الباقى على رؤساء المزينين . . ورسم السلطان بأن تصنع كسوة لكل طفل ممن يشتركون بختانهم فى ليالى ختان ابنه ، وكانوا نحو أربعين من أبناء الأعيان كما ذكرنا .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ »

جـ ـ ومن الأمثلة كذلك ليلة ختان ابن « على بن أبى الجواد » برددار السلطان الغورى ، فى ذى القعدة عام ٩٠٧ هـ . إذ زينت له القاهرة وحوانيتها . وأوقدت له الشموع والقناديل من المدرسة الأشرفية إلى الصليبة ، ومشى فى موكبه كثير من الأعيان والرؤساء حتى تغرى بردى الأستادار ، وجماعة من الطواشية ..

« ابن إياس جزء ٤ حوادث ذى القعدة عام ٩٠٧ هـ »

٩ — الجنازات وما يتصل بها .

إعتاد هؤلاء الناس فى الاحتفال بالجنازات أن يكثروا حولها من البكاء والعويل والنواح . وأن يسير النسوة ليلا إذا اقتضى الحال ، فيصوتن ويعلو صياحهن المقلق فى الطرقات ـ على نحو ما نسمع ونرى فى مدينة الإسكندرية ، وغيرها الآن .

ثم يؤجر أهل الفقيد من ينادى على باب مسجد أو يؤذن فوق مئذنته بما يشعر الناس أن فلانا قد مات . ثم يأخذون فى إعداد الميت فيقومون بغسله، ولهم فى ذلك عوائد غريبة . ويكفنونه فى نوع خاص من الأقمشة يعرف بعضه بالأثواب البعلبكية . وعند تمام إعداده ، والهم بالمسير به ، يتقدم شخص يلقب

« بالمدير »، وينادى فى وسط الجمع الحاشد مثنيا على الفقيد، ناسبا إليه كل خير وبر.
ولدى بروز الجنازة من منزل الأسرة مثلا، يتبارى النسوة فى إخراج صيحة مزعجة جدا وهى صيحة الوداع، يودعون بها فقيدهن الكريم. وهنا تجد اختلاط النساء بالرجال قد ازداد، وأسفر النسوة ومشين حافيات الأقدام فى صحبة الجنازة. — ويقدم أهل الفقيد فى بعض الأحيان خبزا ونحوه، يحمل فى أوعية خاصة يسعى بها الساعون أمام الجنازة لتفريقها على العامة وهى المسماة « الكفارة ». وكذلك قد يحملون معهم، خرافا فى أقفصة، وخبزا كذلك، فيذبحون الخراف على القبر، ويوزعون منها ومن الخبز على العامة قصدا للصدقة فى ظاهر الأمر، وقصدا للسمعة فى باطنه.

ووقت التفريق يشتد الزحام والهرج والمرج، وقد يعطى من لا يستحق ويحرم من يستحق العطاء..

فإذا سارت الجنازة فى الطرقات ترى على بعض جوانبها حصراً وأبسطة يجلس عليها القراء يقرءون القرآن الكريم أو الأوراد المختلفة. كما قد تتقدم الجنازة طوائف ممن يحترفون القراءات المختلفة يرتلونها بصوت واحد وبنغمة واحدة ويسمونهم « الفقراء ». ثم يصلى على الميت فى الجامع حيث يكون فى انتظاره بعض الناس جلوسا، ثم يسعى به إلى المقبرة ويلحد، ثم ينادى « المدير » على الناس بأن يتقدموا لعزاء أهل الميت، فيعزونهم وينصرفون. وهناك فى دار الفقيد تقام عادة ثلاث ليال تقرأ فيها آيات الكتاب الحكيم ويسعى الناس إليهم لمواساتهم.

وكثيرا ما يعنون عناية خاصة باليوم الثالث وأيام الخميس الثلاثة الأولى ويوم الأربعين. — وفى هذه الأيام المذكورة يقبل النسوة لتقديم العزاء لأسرة الفقيد وعند اقترابهن من الدار يبادرون بالنواح والعويل المفتعل، والصراخ ولطم الخدود فيقابلهن عدد من نساء أهل الفقيد بمثل ذلك. وهذا منهن بمثابة التحية وردها. الجميع بملابس سوداء أو زرقاء ويقوم بينهن فى كثير من الأحايين نادبات لطمن خدودهن ويسودن وجوههن ويرددن كلمات مثيرة محزنة، تؤثر فى

الحاضرات . فيقابلن هذا بمثله ، وقد يحثون فوق رءوسهن التراب ، ويشركن الدفوف معهن فى هذا الصخب البذىء . . ويضعن الغلالات السود فى رقابهن . وقد حاول بعض السلاطين ـ الغورى ـ وضع حد لهذه المفاسد ، وأغلب الظن أنه لم يفلح . . .

ويعنى بعض ذوى الموتى بتقديم صنوف الطعام للمعزين والمعزيات تفاخرا وظهورا لا صدقة ولا كفارة . .

هذا ، أما المقابر فيعنى عادة بتجميلها ، ويعنى أحيانا ببناء دار خاصة بجوار كل قبر لتقيم بها أسرة صاحب هذا القبر بعد دفنه . وتزيدمدة إقامتها أو تنقص حسب منزلته منها ومكانته بينها . . يقيمون فى تلك الدور يأكلون ويشربون ويبيتون ويوقدون الشموع والقناديل . ثم يعودون إليها بين الفينه والفينة فى المواسم والأعياد فيقيمون مرة أخرى وهكذا . وفيهم الرجال والنساء والأطفال .

ويقال إن الظاهر بيبرس حاول أن يهدم مرة تلك الدور المقامة حول المقابر فحذره أحد وزرائه مغبة هذا الهدم ، وخشى أن تكون من ورائه فتنة بين السلطان والأمراء لأن لهم فيها دورا ومواضع . . وطلب إليه أن يستفتى فى شأنها العلماء ليعتز بفتواهم إذا عارضه معارض . فأفتى العلماء بضرورة هدمها ، ولكن الوزير أهمل تنفيذ هذا المشروع .

« راجع هذه المعلومات فى كتاب المدخل لابن الحاج ، ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها ، ج ٣ ص ٢٣٣ وما بعدها ـ ابن إياس ج ٤ حوادث شوال عام ٩١٠ هـ ، وحوادث المحرم عام ٩١٧ هـ ـ ج ٢ ص ٢٩٥ »

١٠ — إقامة الموالد والمواسم :

وتلك عادة ورثوها من العهود التى سبقتهم إذ انتشرت الموالد والمواسم فى مصر منذ أيام الفاطميين بصفة خاصة ، فرسخت هذه العادة وتأصلت بالبلاد المصرية حتى اليوم ، واهتم بمراعاتها ملوكها وسوقتها على حد سواء فى عهد سلاطين المماليك . والغرض منها إشباع العاطفة الدينية وتغذيتها ، وحب الظهور بالنزعة الدينية

والمحافظة على الدين وإقامة شعائره ، وتثبيت الجاه وبث النفوذ عن طريقه .

ومن هذه الموالد والمواسم : موالد النبي عليه الصلاة والسلام ، وموالد بعض آل البيت النبوى الشريف ، وموالد بعض الأولياء ذوى الأضرحة الشهيرة بالبلاد ومنها موسم عاشوراء وليلة نصف شعبان ورأس السنة الهجرية وغير ذلك من الأمور التي لاتزال مرعية بين سوادنا حتى اليوم . ـ وفى هذه الليالى يشتد إقبال العامة على الطعام والحلوى ، ويتجمهرون فى أماكن مخصوصة أو فى المساجد لإحياء مراسيم هذه المواسم ، وللهو كذلك .

أما المولد النبوى فيقام طبعا فى شهر ربيع الأول ، ويهتم سلطان البلاد بإحيائه ويجتمع فى ليلته الكبرى بالقضاة الأربعة وأعيان الأمراء والمباشرين فى حوش القلعة . وقد تنصب لهم خيمة كبرى مزدانة . وتمد موائد الطعام . ويمنح السلطان بعض الخلع او الوظائف يريد بهذه المناسبة .

ومن الموالد التى اهتموا بها مولد « سيدى إسماعيل الإنبابى » ، فكانوا يحيون ليلته فى شهر المحرم أو صفر أو ربيع من كل عام . . واستمر ذلك سنين عدة فى عهد الغورى خاصة ، وكانت ليلته حافلة إذ تضرب فيها خيام عدة قد تبلغ خمسمائة ، فى الجزيرة تجاه بولاق وتقام بها سوق مؤقتة للبيع والشراء .

قال ابن إياس فى حوادث المحرم عام ٩١٣ هـ ، وفى ١١ منه ما ملخصه : « كان ببولاق ليلة حافلة بسبب وقت سيدى إسماعيل الإنبابى رحمه الله عليه . فضربت فى تلك الجزيرة التى تجاه بولاق نحو خمسمائة خيمة ، وصنعوا سوقا بد كاكين . وخرج الناس فى الفرجة عن الحد . وأقاموا هناك ليالى متوالية » .

ثم قال : « وفى عقب ذلك عمل مولد للشيخ سودان المجذوب فى مدرسة ابن الزمن التى ببولاق عند الرصف . فكان له مولد حافل . وضربت هناك الخيام الكثيرة عند المدرسة » .

هذا وقد أقيم مولد الانبابى فى صفر عام ٩١٤ هـ ، وفى صفر عام ٩١٥ هـ ، وصفر ٩١٦ هـ ، وصفر عام ٩١٧هـ وفى ربيع الثانى عام ٩٢٠هـ .

وفى عيد رأس السنة الهجرية ينزل السلطان عادة إلى ميدان القلعة ويتقدم إليه القضاة والأمراء بالتهنئة . . وكثيرا ما تمد الموائد بالأطعمة الشهية فى ذلك اليوم للمهنئين .

وأول من أحدث الاحتفال بمولد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، السلطان قايتباى فى ربيع الأول عام ٨٨٩ هـ ويطلق عليه مولد الخليفة .

« وراجع المدخل لابن الحاج . وابن إياس جزء ٤ حوادث شهر ربيع الأول من كل عام . وحوادث التواريخ المذكورة هنا . وحوادث شهر المحرم من كل عام وخاصة عام ٩١٦ هـ ، وراجع جزء ٢ ص ٢٢١ » .

١١ — حفلة كسر الخليج :

كتبنا وصفا لهذه الحفلة والعادات المرعية بها فى مقدمة الكلام على فيضان النيل فى هذا الجزء من الكتاب فنكتفى بمراجعتها والإشارة إليها هنا . ونسوق للقارىء ما وصف به ابن إياس مشاركة الغورى فى إحدى حفلاته، فنقول ملخصا :

« فى مساء الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ نزل السلطان من القلعة ثم انحدر إلى المقياس وطلع إلى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس .ودعا الأمراء قاطبة . ونصب لهم خياما على الشاطىء تجاه بر الجيزة ، فبات السلطان فى تلك الليلة فى المقياس هو والأمراء . ومد له القاضى كاتب السر محمود بن أجا أسمطة حافلة أنفق فيها نحو ٧٠٠ دينارا . وكان معه القضاة الأربعة وأعيان الناس . وحضر قراء ووعاظ البلد . ثم إن السلطان أوقد فى قاعة المقياس ، وعلق أحمالا بقناديل فى القصر على شرفات المقياس . وكذلك جامع المقياس المئذنة .

ثم إن سكان بر مصر ، وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه

بر الروضة ـ ثم أحضر السلطان المركب الكبير « الغليون » الذى عمره وأنفق عليه نحوا من ٢٠ ألف دينار ، فأرسوا به قبالة المقياس وصنعوا له ثمانى مراسى فى البحر وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط فكان الذى أوقد فى المقياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل – ثم صنع السلطان فى تلك الليلة إحراقة ، فكان مصروفها نحوا من مائة وسبعين دينارا ، مثل إحراقة نفط المحمل التى كانت تصنع بالرملة أمام القلعة ـــ فشقوا بالنفط من القاهرة مزفوفا بالطبل والزمر . وكانت عدة قلاع النفط خمسين قلعة ، والمآذن ستون، والأزيار عشرة ، والجرر أربعون ، والصواريخ الكبار ثلثمائة . والمأويات : ألف ومائتان. والشجرات عشر والتنانير عشرون . والقطع ألفان ، والشعل أربعون ـــ فلما وصلوا بالنفط إلى شاطىء البحر أنزل فى خمسين مركبا . وصفوا المراكب قبالة المقياس عند « البهطلة » ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طبلخاناتهم فى مراكب عند المقياس . ففعلوا ذلك . فكان صوت الطبل والزمر مع الكئوسات كالرعد القاصف .

فلما صلى السلطان صلاة العشاء جلس على سطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس والأمراء حوله ، وأحرقوا قدامه النفط – وكان النيل فى ثلاثة أصابع من عشرين ذراعا ـ وكانت الليلة ليلة البدر . فدقت الكئوسات السلطانية مع كئوسات الأمراء المقدمين وهم ٢٤ ، فقاموا فى صعيد واحد عند إحراق النفط فكانت ليلة لم يسمع بمثلها ... وقد بلغت أجرة كل مركب فى تلك الليلة خمسة دنانير أو أكثر . وازدحمت المراكب بالخلائق حتى كان النوتية يجبون من كل عابر عليها أربعة أنصاف ، فاجتمع لهم من ذلك مال كثير . وخرج الناس للمشاهدة. وأقام السلطان هناك الأربعاء والخميس وفى ذلك الليل الأول كان والى القاهرة وأعوانه يطوفون خلال المدينة محافظة على الأمن ورعاية للسكينة . ومع ذلك لم يخل الأمر من اضطراب وعبث » .

« راجع ابن إياس جزء ٤ حوادث ١٣ جمادى الآخرة عام ٩٠٨ هـ »

١٢ - خروج المحمل :

أفردنا للمحمل والحج بابا خاصا فى فيما مضى ، فليراجع .

١٣ - الحفلات الأخرى وليالى السمر والمغنون والمغنيات :

وصفنا فيما مر ضروبا من الحفلات والعادات المرعية فيها ، ونذكر هنا أن للقوم حفلات أخرى خاصة تقام بمناسباتها ومثال ذلك : نزول السلطان إلى ناحية ما كالمطرية أو الأزبكية أو غيرهما . فتقام لذلك حفلة يسهر عليها بعض أمراء الناحية المذكورة وأعيانها . ومنها احتفال السلطان أو أحد الأمراء أو الأعيان بتمام إنشاء بناء أسسه على نفقته كمسجد أو قصر أو حديقة ، ومنها احتفال السلطان بختام فصل لعب الكرة .

ومن الأمور المرعية فى هذه الحفلات أحيانا تجهيز شراب الليمون والسكر فى أحواض كبيرة وسق الناس منها . أو تفريق لون من اللبن على الحضور . أو مد موائد الأطعمة الشهية .

وقد كان لبعض السلاطين مضحكون يضحكونهم فى مجالسهم ومحافلهم . فقد روى ابن إياس أن الغورى كان له نديم يضحكه يدعى « الشنقجى العجمى » يلعب بالصحون النحاسية والجريد . « حوادث شوال عام ٩٢١ هـ » وروى المقريزى فى خططه بالجزء الأول ص ١٤٦ أن الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه فى مجلسه .

وكانوا يستعينون فى حفلاتهم أحيانا بالطبل والزمر وبالمغنين والمغنيات ، وكانوا يطلقون لفظ « أستاذ » على المغنى ، ولفظ « الريسة » على المغنية ، ولفظ « الريس » على المضحك ذى النكات اللطيفة والألعاب الطريفة « راجع طيف الخيال لابن دانيال » . وكانوا يقيمون للمغنى دكة يجلس عليها وحوله الناس يسمعون . وبهذه المناسبة نذكر أن البحث عن أغانى أية أمة ، وضروب تسليتها ، موضوع طريف جدا يتصل اتصالا وثيقا بالبحث عن عقليتها ، وعقيدتها ونفسيتها ودرجة ثقافتها وطريقة تهذيبها وذوقها . ثم هو يتصل بترقيها ومقدار تحوله وكيفية اتجاهه ، وهو بذلك

كله يطلعنا على جانب هام من جوانب تاريخها . فلعل أحد الأدباء يولى هذا البحث عناية ما حتى يقدم لنا وصفا شائقا لأغانى الأمة المصرية وألعابها يتضح منه جانب من تاريخها العقلى والعاطفى .

ونذكر الآن بعضا من المغنين والمغنيات ممن ورد لهم ذكر فى بدائع ابن إياس ، وبعض الحوادث التى لها صله بتوضيح هذا الموضوع فنقول :

ا — قال ابن إياس عن السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى : «إنه لما خلعه الأتابكى يلبغا العمرى من السلطنة عام ٧٦٤ هـ أدخله فى دور الحرم بالقلعة . واستمر مقيما فى غبوق وصبوح لا يفيق من السكر ساعة. وعنده جوقة جوارى مغنيات نحو عشرة يدقون بالطارات عند الصباح والمساء . »

قال : وكانت هذه عادة رؤساء مصر تغنيهم المغنيات . وآخر من كان يفعل ذلك من أعيان مصر الأمير جمال الدين محمود الأستادار . ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية «ج ١ ص ٢١٢» . .

ب — وقال فى حوادث عام ٨٦٢هـ فى جمادى الأولى توفى المغنى الأستاذ فى فن الشيد فريد عصره ، ووحيد دهره « ناصر الدين محمد المازونى القاهرى » . وكان بارعا فى فن الغناء . وكان يضرب به المثل فى حسن النغم ، ومعرفة الفن ولم يجىء بعده من هو فى طبقته إلى يومنا هذا . وقد رثاه الشهاب المنصورى بهذه الابيات :

يانزهة السمع سكنت الثرى فللملاهى أيما لهفى
كم لطمة من قدم أو يد فى خدى الدوكة والدف

وقال أيضا :

كانت به لذاتنا موصولة فانقطعت بموته اللذات
وكانت الأصوات تزهو بهجة فارتفعت لموته الأصوات

وكان قد أصيب المازونى بفالج فأقام به مدة طويلة حتى مات . وكان يقول : « ارحموا من سكت حسه وبطل نصفه . » . «ج ٢ ص ٦٢»

ج ـ وقال فى حوادث عام ٨٦٢ هـ : «إن الأمير جانى بك لما كملت عمارة القبة التى أنشأها فى منشية المهرانى عمل هناك وقدة عظيمة . وأحضر صوارى طوالا على البر ، وعلق فيها قناديل ، وعزم على جماعة من الأمراء ، ومد مدة عظيمة . وكانت ليلة لم يسمع بمثلها ، وحضر هناك « ابن رحاب المغنى » « وابراهيم ابن الجندى » ، وجمع بين قراء البلد والوعاظ ـ وكان ذلك فى ليلة الجمعة . » « ج ٢ ص ٧٦ »

د ـ نور الدين على بن رحاب المغنى : يظهر أن هذا المغنى كان ذا شهرة فائقة وذا فن بارع ، ولذلك كان كثيرا مايستدعى لإحياء ليالى الملوك والأمراء . وقد ورد ذكره مرارا فى سياق حوادث عصر قايتباى وقبله . فمن ذلك ماذكرناه فى « ج » ومنه أيضا أنه فى رجب عام ٨٧٥ هـ توجه السلطان قايتباى إلى قناطر العشرة وإلى الأهرام وأقيمت له الزينات ومدت له الموائد ، وظل كذلك سبعة أيام أحياها المغنى « ابن رحاب » ومعه كثير من المغنين المعروفين ، وأحيا كذلك ليلة ختان أولاد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وكان مقيما بالإسكندرية فى عهد قايتباى .

وفى عهد السلطان الظاهر قانصوه بن قانصوه قبض الأمير طومان باى على هذا المغنى « ابن رحاب » فى شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، وكان سبب ذلك أنه كان يتشيع للأمير أقبردى الدوادار الثائر على السلطان . وكان يسب الأمراء فى مجلس الغناء ، ويهجوهم بأفحش هجاء . فنقل عنه ذلك فقبض عليه وضرب بالمقارع وشهر فى القاهرة وهو عريان مكشوف الرأس على حمار ، وكان قد قبض عليه مرة أخرى قبل هذه المرة ، قبض عليه الأمير كرتباى الأحمر وهم بضربه ثم اكتفى بتوبيخه جزاء وعفا عنه . .

فلما عاد إلى مانهى عنه ضرب وشهر كما ذكر ، والمشاعلى ينادى عليه : « هذا من يكثر كلامه ويدخل نفسه فيما لا يعنيه » .

وقد توفى ابن رحاب « فى شهر ذى القعدة عام ٩٠٥ هـ . ـ وقال عنه ابن إياس : «فى ذى القعدة كانت وفاة الرئيس نور الدين بن رحاب المغنى المنشد المادح فريد

عصره ووحيد دهره ، وكان من نوادر الزمان . ينظم الشعر ويلحن الخفائف بألحان غريبة . وكان آخر مغانى الدكة فى الدخول والطرب . ولم يجىء بعده أحد فى الدخول مثله : وقد رثيته بعد موته بهذه الأبيات .

توفى نزهـــة الأسماع طرا   وصار العيش منا فى ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا   وأظهرت الصراخ مع انتحاب
وأبدى الدف والماصول زعقا   كمن جاء المـآتم فى المصاب
وأضحى الناس فى قلق ولم لا   وقد ضاق الوجود بلا رحاب»

« راجع ابن إياس جزء ٢ ص ٧٦ ، ١٦٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٣٥٢ ، ٣٦٨ »

هـ ـ ولما خرجت خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباى ، وهى بنت العلائى علاء الدين بن خاص بك ، إلى الحج عام ٨٧٩ هـ كان لها ركب حافل وموكب عظيم سار أمامه أربعة من الحداة منهم « إبراهيم بن الجندى » و « أبو الفوز الواعظ » .

« ابن اياس جزء ٢ ص ١٥٦ »

٥ ـ خديجة الرحابية : قال عنها ابن إياس : « إن الأمير يشبك من حيدر والى القاهرة قبض عليها وهى تغنى فى بعض الأفراح بتهمة إفساد عقول الناس . وكان ذلك فى شعبان عام ٨٨٦ هـ . وأمر بضربها بين يديه نحو خمسين عصا وقرر عليها غرامة مالية ، وكتب عليها تعهدا بأنها لاتزاول مهنتها . وقد لبثت بعد هذه الحادثة مريضة حتى ماتت ولها من العمر نحو ثلاثين عاما ، فأسف كثير من الناس لوفاتها.

وكانت خديجة من مشهورات المغنيات بمصر ، ذات صوت جميل وإنشاد بديع وكانت فى بدء أمرها من مغنيات العرب ، ثم عظم أمرها جدا ، فحظيت عند أرباب الدولة ورؤسائها . وكانت مع حسن صوتها جميلة الخلق حتى افتتن بها كثير من الناس . وقد قال فيها بعض الشعراء :

رحابية يخفى الشموس جمالها   لها حسن إنشاديزين مقالها(١)
وقد خايلت بالبدر ليلة تمه   فما زال من عينى وقلبى وخيالها

« ج ٢ ص ٢٠٧ »

---

(١) هكذا ، قافية بفتح اللام ، وقافية بضمها .

٦ ـ شمس الدين محمد بن حلة : كان من مشاهير الوعاظ ، وكان منشدا مطربا وله نظم جيد ، ولد قبل سنة ٨٢٠هـ توفى فى شهر المحرم عام ٨٩٢هـ . « ج ٣ ص ٢٤٢ »

٧ ـ فى ربيع الآخر عام ٨٩٩هـ اختار السلطان قايتباى الأمير ماماى بن خداد الدوادار الثانى رسولا إلى ملك بنى عثمان . فأخذ ماماى يستعد للرحيل ، وكانت توقد له كل ليلة بناحية بركة الرطلى وقدة حافلة يمثل فيها «خيال الظل» أو يغنى بعض من مغنى العرب أو ابن رحاب المغنى أو يتفكهون بألعاب ونكات فرقة المحبظين .
« ج ٢ ص ٢٨١ »

٨ ـ فى ١٣ شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ نزل السلطان الناصر محمد بن قايتباى من القلعة واتجه نحو القناطر العشرة ، ومعه أولاد عمه قيت وهما جانم وجانى بك وعدد من الخاصكية . وقد سبق هذا الجمع الخدم والطهاة ، فضربوا لهم وطاقا فى ناحية الجيزة حيث أقاموا ثلاثة أيام . واستدعى لإيناس السلطان ومن معه «أبو الخير» ومعه «خيال الظل» وجوق مغانى العرب و «برايوه» رئيس المحبظين» .
« ج ٢ ص ٣٤٧ »

٩ ـ عزيزة بنت السطحى : قال عنها ابن إياس : « إنها توفيت فى أوائل شهر شوال عام ٩٠٦ هـ . وكانت من أعيان مغنيات مصر ، فريدة عصرها فى النشيد مع حسن الصوت وفصاحة الإعراب فى الشعر ، فلم يخلفها من بعدها إحدى النساء . ورأت لدن أعيان مصر وأرباب دولتها غاية العز والعظمة ، مما لم يره غيرها من أهل هذا الفن . وماتت وهى فى العقد الثامن من عمرها ولها من الشهرة مازاد عن الحد . ومما قاله فيها الشهاب المنصورى :

وفتاة نزهت طرفى فيها ... شنفت مسمعى بجوهر فيها
منذ زارت محبها وتغنت ... كاد يرى بنفسه من أبيها[1]

« ج ٤ »

---

(١) مرجع كل من هذا الرقم وما يليه ج ٤ حوادث العام الذى ذكر فيه .

١٠ - علي بن غانم : كان علامة في ضرب الطنبورة ومعرفة الأنغام . وهو الذي أظهر الخفائف النجدية بمصر ولحنها في التلاحين الغربية ، حتى أبطل بها فن الموسيقا ، توفي عام ٩١٣ هـ «ج ٤ ص ١٣٠»

١١ - الريسة إنعام ريسة خوند الخاصبكية : كانت من أعيان مغنيات البلد . وكانت لا بأس بها . وتوفيت في أواخر شهر ربيع الآخر سنة ٩١٧ هـ . «ج ٤»

١٢ - الريسة خديجة أم خوخة : كانت من أعيان الدكة . ولها في هذا الفن اليد الطولى . توفيت في يوم الاثنين المحرم عام ٩١٨ هـ «ج ٤»

١٣ - الريسة بدرية بنت جريعة : كانت من أعيان المغنيات ولها بينهن شهرة توفيت قبل أم خوخة بقليل . «ج ٤ حوادث المحرم سنة ٩١٨ هـ»

١٤ - هيفه اللذيذة : كانت رئيسة المغنيات . ادعى عليها بعض أعدائها دعاوى رافعها بها أمام السلطان الغوري فقبض عليها في رمضان عام ٩١٨ هـ ، وسجنت وعذبت ثم غرمت خمسة آلاف دينار . وتوسط لها القاضي بركات بن موسى فدفعت ألف دينار ، باعت في سبيلها جميع ما تملكه . وقسطت عليها خمسمائة دينار تدفع منها في كل شهر مائة . «ج ٤»

١٥ - وفي ذي القعدة عام ٩١٨ هـ رحل السلطان الغوري إلى زيارة الأهرام فنصب له سرادق ووطاق واستقدم معه طائفة من المغنين وأرباب الآلات منهم «محمد بن عوينة العواد» ، و «جلال السنطيري» ، و «البوالقة» ، و «ابن الليموني» .

«ج ٤»

١٦ - الناصري محمد بن قجق : نديم السلطان الغوري وكان علامة في ضرب الطنبورة عارفاً بصنعة الأنغام لطيف الذات حسن المعاشرة . توفي في ١٨ رمضان سنة ٩٢٠ هـ وكانت جنازته حافلة ، مشى فيها أعيان الناس وكبار أهل الفن من مغنين وآلاتية . فقد كان شيخا لهم ومقربا إلى السلطان «ج ٤»

١٧ - ومما يذكر أن السلطان الغوري في عام ٩٢٢ هـ وهو آخذ في الخروج إلى الشام لملاقاة العثمانيين عرض مغاني الدكة وهم «أحمد أبو سنة» ، و «المحوحب» ،

و « الحلاوى » ، وأمرهم بأن يسافروا صحبته . « ج ٣ ص ٢٣ »

١٨ — محمد الريس فتات العنبر : وهو رئيس المحبظين فى عهده وكان أستاذاً فى صنعة الخيال وفاق فى ذلك « بريوه » . وقد توفى فى جمادى الآخرة عام ٩٢٦ هـ .
« ج ٣ ص ٢٢١ »

١٩ — أصيل القلعية : كانت من كبريات مغنيات عصرها ذات إنشاد لطيف ، وكانت بارعة فى غناء الخفائف ورأت لدن رؤساء الدولة وأعيانها غاية الحظ والحظوة ، وقد توفيت فى يوم الاثنين ٨ ذى القعدة عام ٩٢٨هـ . « ج٣ ص ٣١٢ »

٢٠ — الصلاح الثعلبى القوصى : وهو أحمد بن كامل بن الحسن الثعلبى القوصى ، كان مغنيا ملحنا شاعراً موسيقيا . توفى بقوص عام ٦٩٩ هـ .

« الطالع السعيد رقم ٥٩ » .

٢١ — التقى بن الثقة الإسنائى : وهو صالح بن عبد القوى بن على بن زيد . كان موسيقيا مغنيا حسن الصوت مقرئا . مات بقوص عام ٧٢٤ هـ .

« الطالع السعيد رقم ١٩١ »

٢٢ — إبراهيم بن بابى — بفتح البائين — وهو صارم الدين العواد المغنى . كان مقربا عند المؤيد شيخ . وكان أبى النفس ، إليه المنتهى فى العود والموسيقا . وهو رومى الأصل ، فى حديثه بالعربية عجمة . كان يسكن فى بستان الحلى المطل على النيل .. ومات عام ٨٢١هـ وخلف مالا جزيلا . « الضوء اللامع ج ١ ص٣٢ »

٢٣ — ابن القرادح : وهو أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن عبد الرحمن ، شهاب الدين القاهرى الواعظ . ويدعى القرداح أيضا بضم القاف . برع فى فنون عدة منها الميقات والفلك وفاق فى الموسيقا . وكان ينظم الشعر الحسن ويخترع ألحانه ويغنيها . وله اليد الطولى فى الضرب بالعود ، والبراعة فى ضرب السنطير . وانتهت إليه الرئاسة فى حسن الإنشاد ورخامة الصوت فى زمانه مع فصاحة وطلاقة وباشر الأذان والتسبيح عند المؤيد شيخ . وكان المؤيد يميل إليه ويستصحبه فى

خلواته ورياضاته . ولد فى نحو عام ٧٨٠هـ ، ومات عام ٨٤١ هـ بالقاهرة بالطاعون.
« الضوء اللامع ج ٢ رقم ٤٠٧ »

٢٤ ـ شهاب الدين القلقيلى المقدسى . وهو أحمد بن محمد بن أحمد ، كان حسن الصوت ناظما ناثراً كاتبا . توفى عام ٨٤٩هـ . « الضوء اللامع ج ٢ رقم ٢١٣ » .

هـذا ويضيق بنا المقام إذا رحنا نعدد ما كان لهؤلاء الأسلاف من تقـاليد وعادات . وحسبنا أن نجمل هنا القول عما يخاطرنا منها فنقول :

من ذلك حبهم للبناء وقد يتغالون فى ذلك تغاليا يدفعهم إلى الإسراف أحيانا أو الظلم أحيانا أخرى . وقل أن ترى سلطانا أو أميراً أو أميرة أو أحدا من أعيانهم لم يخلف أثراً كقصر مشيد أو مسجد جامع أو قنطرة نافعة أو بستان رائق أو غير ذلك . وتلك مساجدهم تملأ فجاج مدينة القاهرة ، وتتراءى مآذنها فى سمائها . كما لا يزال كثير من أسمائهم وقصورهم وشوارعهم وأزقتهم يتردد ذكره أو يلوح فيها . ومن ذلك : منح السلاطين الخلع للرؤساء وكبار الدولة فى المناسبات . وكانت هذه الخلع عادة متخذة من أفخم الأقمشة وأغلاها ، وتعد بمثابة النياشين أو الأوسمة .

ومن عادات السلاطين لبس الصوف والألوان القاتمة فى الشتاء ، والملابس البيضاء فى الصيف .

ومنها تخصيص موسم فى كل عام يشترك السلطان فيـه مع بعض الأمراء فى لعب الكرة وهم ركوب على الخيل ، وقد تصاحبهم الموسيقا أثناء لعبهم .

ومنها أن يحلف السلطان الأمراء على المصحف بالايشوروا ضده ولا يتآمروا عليه ، وذلك إذا وقعت منهم فتنة ثم خمدت ريحها .

هذا وقد كان كثير من المفاسد منتشراً فى هذا العصر كشرب الخمر وتعاطى الحشيش واقتراف الزنا بأنواعه والغش فى الكيل وما شابه ذلك ، وقد عمل كثير من السلاطين على ملافاة ذلك ومن هؤلاء

ملاحظات عامة

نتبع الفصل السابق بذكر ملاحظات عامة عنت لنا أثناء تصفحنا تاريخ هذا العصر ، لم نجد لها فرصة لتدوينها تحت أحد الأبواب السالفة من هذا الجزء . واضطررنا أمام أهميتها أحيانا ، وطرافتها أحيانا أخرى ، إلى إثباتها هنا تحت العنوان المتقدم فمنها :

١ ـ عيد النيروز : كان عيد النيروز « أول السنة القبطية » من أجل المواسم بالديار المصرية ، يحمل فيه لأكابر مصر من الأقباط والمباشرين الكثير من أصناف الفاكهة كالرمان والموز والسفرجل والتفاح الشامى والبلح والعنب والتمر القوصى والبطيخ الصغير والرطب والخوخ المشعر وقدور « الهريسة » المحشوة بلحوم الدجاج وغير ذلك من ضروب الحلوى . وذلك على سبيل الهدايا .

وكان جمع من « العياق » والسفلة يتعرض فى ذلك اليوم لأكابر الناس وأعيانهم فيقفون على أبواب منازلهم ، أو يقطعون عليهم طريق سيرهم ليبتزوا منهم ضريبة خاصة ، ومن امتنع عن دفعها أوذى أكبر الأذى ، طوراً يرش بالماء النجس ، أو يقذف بالبيض النىء ، أو يصفع بالنعال والأخفاف وقد أمر السلطان برقوق بإبطال هذه العادة السخيفة وذلك فى سنة ٧٨٧ هـ .

وكذلك كان بعض الناس ينتهز فرصة اليوم المذكور ويرسل نفسه إلى ملذاتها وعلى هواها فيشرب الخمر ويقترف الزنا، وربما وقعت بسبب هذا الفساد حوادث قتل.

« ابن اياس جزء ١ ص ٢٦٣ »

٢ ـ اهتمام برقوق بلعب الرمح : اهتم السلطان برقوق عام ٧٨٩ هـ بلعب الرمح ، وقد أمر المماليك فى ربيع الآخر بأن ينزلوا من طباق القلعة لمزاولة لعب الرمح من الظهر إلى العصر فى الحوش السلطانى ، وهو أول من اهتم بذلك من السلاطين.

« ابن اياس جزء ١ ص ٢٦٦ »

٣ ـ شرب القمز : فى أوائل صفر عام ٧٩١ هـ ابتدأ السلطان برقوق بشرب القمز . وهو عبارة عن لبن مصنوع محمض ، وكان الملوك تعودوا ذلك . فرسم برقوق للأمراء بأن يجتمعوا فى كل يوم أربعاء فى الميدان تحت القلعة ليشربوا القمز ، وكان ذلك من جملة شعائر المملكة . فتجتمع الأمراء بحضرة السلطان جالسين فى مراتبهم بالشاش والقماش « أى بالزى الرسمى » والسقاة يسقونهم القمز فى الزبادى الصينى وكان القمز يسكر . « ابن إياس جزء ١ ص ٢٦٩ »

٤ ـ التصدق بثمن الفرس : لما مرض السلطان خشقدم باع أحد أفراسه وتصدق بثمنه على الفقراء . وكانت هذه عادة قديمة عند الملوك إذا أصيبوا بمرض يتقربون بذلك لينعم الله عليهم بالشفاء . « ابن إياس جزء ٢ ص ٨٢ »

٥ ـ عصائب النساء : كان النساء إلى عهد الأشرف قايتباى يلبسن على رءوسهن عصابات مقنزعة وسراقوسات حريرية ويخرجن بذلك فى الأسواق . فرسم قايتباى للأمير يشبك الجمالى المحتسب فى رجب عام ٨٧٦ هـ بأن ينادى فى القاهرة بمنع ذلك ، وألا تلبس المرأة إلا عصابة طولها ثلث ذراع مختومة من جانبها بختم السلطان . وشدد فى ذلك على بائعى العصائب . كما شدد النكير على كل امرأة تخرج من بيتها بعصابتها المقنزعة أو سرقوسها الحريرى ، وإلا تضرب وتشهر فى الأسواق . فاضطر النسوة عند خروجهن إلى لبس العصابة الطويلة كارهات ، أو عدم لبس العصابات بتاتا ، واستبقين المقنزعة للبسها داخل منازلهن . وقد قال فى ذلك الأديب زين الدين بن النحاس :

أمر الإمام مليكنا بعصائب فى لبسها عسر على النسوان
فقلقن ثم أطعنه ولبسنها ودخلن تحت عصائب السلطان

واستمر الحال كذلك مدة ثم عاد النسوة إلى ما كن عليه من قبل .

« ابن إياس جزء ٢ ص ١٣٢ »

٦ ـ خلع أبواب الإسكندرية عند مقدم السلطان : كان من العادات القديمة

أن السلطان إذا توجه إلى الإسكندرية لزيارتها وتفقد أحوالها تخلع له أبوابها وتلقى على الأرض حتى يرحل عنها. فلما زارها الأشرف قايتباى عام ٨٨٢ هـ لم يوافق على هذه العادة وأبطلها. « ابن إياس ج ٢ ص ١٧٣ »

٧ – عمائم النصارى واليهود: اتجهت أنظار بعض السلاطين إلى جعل عمائم النصارى واليهود من ألوان خاصة تمييزا لها عن عمائم المسلمين. ومنهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد رسم فى عام ٧٠٠ هـ لليهود بأن يلبسوا عمائم صفراء وللنصارى بأن يلبسوا عمائم زرقاء، وللسامرية بأن يلبسوا عمائم حمراء. وأشهر النداء بذلك فى مدينة القاهرة. وكان النصارى – أى الأقباط – من قبل يلبسون عمائم بيضاء كعمائم المسلمين.

قيل: وكان سبب ذلك أن بعض المغاربة كان جالسا بباب القلعة فدخل بعض الكتاب الأقباط بالديوان وهم بعمائمهم البيضاء. فبالغ فى تعظيمهم على اعتبار أنهم مسلمون ثم تبين له أنهم أقباط. فشكا ذلك إلى السلطان الناصر فرسم بما سبق ذكره.

وفى عام ٧٥٤ هـ رسم لهم السلطان الصالح صلاح الدين بأن تكون عمائمهم عشرة أذرع لا غير.

وبهذه المناسبة نذكر أنه رسم لهم كذلك بألا يستعان بهم فى ديوان، ولا يركبوا دابة مكارى مسلم. وإذا مروا بالمسلمين ترجلوا. ولا يدخلوا الحمام إلا والصليب معلق فى أعناقهم. « ابن إياس ج ١ ص ١٤٣، ٢٠١ »

٨ – الأسر البارزة: أشرقت فى أفق هذا العصر أسر عدة من صميم الأمة أنجبت، ونبغ منها رجال خدموا الدولة فى مصر أو الشام خدمات جليلة، سواء أكان ذلك فى وظائف الجيش أم الإدارة أو القضاء أو الكتابة، أو فى العلم والأدب. والبحث عن هذه الأسر ونجبائها وذكر مآثرهم بحث طريف يحتاج إلى عناية مستقلة يبذلها أحد الأدباء.

ونذكر هنا بعضا منها على سبيل المثال :

(ا) أسرة الديرى : ومنها القاضى سعد الدين الديرى الحنفى. وبرهان الدين الديرى الحنفى « ذكرناهما فى القضاة » . وإبراهيم بن الديرى كاتب السر « ذكره ابن إياس ج ٢ ص ٨٣ ـ والضوء ج ١ ص ١٥٠ » وبدر الدين بن عبد الرحمن الديرى الحنفى « ذكره ابن إياس ج ٣ ص ٦٣ » وعبد الرحمن الديرى أخو القاضى سعد الدين « ذكره الضوء ج ٤ رقم ٣٥٣ » .

ب ـ أسرة البارزى : ومنها بهاء الدين بن البارزى « ذكره ابن إياس ج ٣ ص ١٢٢ ـ وتاريخ حماة للصابونى » ومنها : زين الدين عبد الرحمن بن على بن أحمد البارزى المتوفى فى رمضان عام ٧٣٣ هـ متجاوزاً الستين » مدحه ابن نباتة فقال :

أمولاى لا زالت مساعيك للعلى ويمناك للجدوى ورأيك للحزم
مضى السلف الأزكى وأبقاك للندى فلله ما أبقى الولى من الوسمى

« ذكر فى الدر الكامنة ج ٢ رقم ٢٣٣ »

ومنها : هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن عبد الله بن المسلم ، وهو شرف الدين بن البارزى الذى كان قاضى قضاة حماة ، ولد بها عام ٦٤٥ هـ ومات عام ٧٣٨ . وكان فقيها محدثا مشاركا فى فنون كثيرة ، وألف .

« ذكر فى طبقات السبكى ج ٦ ص ٢٤٨ »

ومنها عبد الرحيم بن إبراهيم بن هبة الله بن المسلم بن هبة الله بن حسان ، وهو نجم الدين البارزى قاضى حماة وأبو قاضيها ، ولد فى حماة عام ٦٠٨ هـ ومات عام ٦٨٣ هـ ، ودفن فى البقيع . « ذكر فى طبقات السبكى ج ٥ ص ٧١ »

ومنها : الناصرى محمد بن البارزى الذى كان كاتب المملكة فى زمن المؤيد شيخ ، ومدحه ابن حجة الحموى . وذكر فى خزانته « راجع مقدمتها »

جـ ـ أسرة ابن بنت الأعز : منها القاضى الأشهر تاج الدين بن بنت الأعز ومنها أبناه تقى الدين وصدر الدين . « ذكرناهم فى القضاة » قال عنهم أبو حيان : « ولا يعلم أهل بيت بالديار المصرية أنجب من هذا البيت ، كانوا أهل علم ورياسة

وسؤدد وجلالة » « راجع طبقات السبكى ج ٥ ص ١٣١ » .

د ـ أسرة ابن جماعة : ومنها القاضى الشهير بدر الدين بن جماعة . وابنه عز الدين بن جماعة ، وكلاهما ولى قضاء القضاة بمصر . ومنها برهان الدين بن جماعة ولى قضاة الشافعى بمصر . « ترجمنا لهم فى باب القضاة وغيره » .

هـ ـ أسرة ابن العديم : منها الصاحب كمال الدين بن العديم الحلبى صاحب تاريخ حلب . وولده مجد الدين . « حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٠ » .

و ـ أسرة البلقينى : ومنها سراج الدين عمر البلقينى ، وابناه جلال الدين ، وعلم الدين . وهم من قضاة مصر . « ذكرناهم فى القضاة » .

ز ـ أسرة القزوينى : ومنها جلال الدين القزوينى المشهور فى علوم البلاغة .

ح ـ أسرة ابن عبدالظاهر : ومنها الكاتب المنشىء محي الدين وأولاده ولاسيما فتح الدين وعلاء الدين .

ط ـ أسرة ابن فضل الله العمرى : ومنها القاضى شهاب الدين وعلاء الدين وغيرهما ، أصحاب دواوين الإنشاء والرسائل بمصر والشام :

ى ـ أسرة السبكى : ومنها القاضى تاج الدين السبكى صاحب طبقات الشافعية الكبرى . وأبوه تقى الدين رأس الشافعية فى زمانه . وأخوه أبو حامد بهاء الدين « راجع الطبقات ج ٥ »

ك ـ أسرة ابن مزهر . ومنها كاتب السر الشهير أبو بكر بن مزهر .

ل ـ أسرة ابن الشحنة : ومنها القاضى عبد البر بن الشحنة الحنفى صديق الغورى .

م ـ أسرة ابن الجيعان . ومنها الشهابى أحمد بن الجيعان وعبد الغنى بن الجيعان وأولاده الخمسة ومنهم شاكر ابنه ـ ومنها زين الدين عبدالباسط بن شاكر والقاضى محمد بن يحيى بن شاكر بن الجيعان . « انظر تراجمهم فى الضوء اللامع »

ن ـ أسرة الدميرى : ومنها القاضى محي الدين بن الدميرى .

ص ـ أسرة ابن حنا : ومنها الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا وأولاده فخر الدين محمد ، وزين الدين ثم أبناؤهما . « الخطط المقريزية ج ٤ ص ٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢٩٥ »

١١ ـ الآثار النبوية والمصحف العثمانى : قيل إن هذه الآثار كانت فى حيازة جماعة من بنى إبراهيم بينبع ، فما زال الصاحب بهاء الدين بن حنا يتلطف بهم حتى اشتراها منهم بستين ألف درهم من الدراهم القديمة . ونقلها إلى الديار المصرية وبنى لها مسجدا خاصا مطلا على النيل تقصده الناس بالزيارة كل أربعاء ، وفى عهد الغورى نقلت إلى مدرسته هى والمصحف العثمانى الذى كان حيازته ، وذلك فى جمادى الأولى عام ٩١٠ هـ بعد فتوى من القضاة . ونقل أيضا إلى هذه المدرسة مصحفاً آخر مكتوباً بالذهب كان بخانقاه بكتمر بالقرافة . وقيل إن هذه الآثار اشتريت بألف دينار ـ وقد احتفل بنقلها احتفالا رائعا .

« ابن إياس ج ٤ حوادث جمادى الأولى عام ٩١٠ هـ »

١٢ ـ البلسان : وهو البلسم . قيل إنه من آثار عيسى عليه السلام والإفرنج عناية به خاصة ويشترونه بثمن جيد . قيل إنه انقطع من مصر عام ٩٠٥ هـ فعمل الغورى على إعادة زرعه وجلب بذره من بلاد أخرى . وبذلك أعاد إلى مصر ثروة لا بأس بها . وكان يزرع من قبل جهة المطرية .

والبلسم ذكى الرائحة يشبه أوراق الملوخية ويصلح دهنه الأمراض الباردة كوجع الظهر والركب ، قيل وللأمراض البلغمية . وكان يعتنى باستخراج دهنه فى ١٤ بشنس . « ابن إياس جزء ٢ ص ٣٧٣ »

١٣ ـ كبار الأضياف : أم مصر فى خلال هذا العصر عديد من الملوك والأمراء والأعيان زوار فمنهم :

ا ـ الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأخوه الملك المجاهد سيف الدين أسحق صاحب الجزيرة وأخوه الملك المظفر : وفدوا جميعا عام ٦٦٢ هـ لتهنئة الظاهر بيبرس بالملك . « جزء أول ص ١٠٣ »

ب — ملك النوبة : وفدعلى مصر إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون عام٧١٢هـ ومعه هدايا حافلة . « جزء أول ص١٥٧ »

ج — ملك التكرور : وفد على مصر عام ٧٢٤ هـ ومعه هدايا نفيسة للملك الناصر بن قلاوون فى طريقه للحج . « جزء أول ص١٦٣ »

د — القان أحمد بن أويس : وفد على مصر عام ٧٩٦ هـ فى عهد السلطان برقوق ولقيه السلطان لقاء حسنا . « جزء أول ص٣٠١ »

هـ — السيد على بن بركات الحسنى أخو سلطان مكة: وفد إلى مصر عام٨٧٢هـ فى عهد قايتباى غاضبا من أخيه المذكور فتلقاه السلطان لقاء كريما « جزء ٢ص٩٥ »

و — الجام بن عثمان وهو ابن محمد الفاتح سلطان الترك، وأخو بايزيد:فر من أخيه هاربا إلى مصر هو وأهله عام ٨٨٦ هـ فتلقاهم السلطان قايتباى خير لقاء .

« ج ٢ ص٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ »

ز — شاه بضاع بن دلغادر ملك الأبلستين : وفدإلى مصر ٨٩٥ هـ وأقام بها حتى توفى عام ٩٠٣ هـ مطعونا . « ج ٢ ص ٢٦١ ، ٣٤٠ »

١٤ — « الطابور الخامس: قال السخاوى فى الضوء اللامع فى ترجمة تيمورلنك « ج ٣ رقم ١٩٢ » : إن تيمورا كانت له جواسيس فى جميع البلاد التى ملكها ، والتى يملكها ، وكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها . ويكاتبونه بجميع ما يروم ، فلا يتوجه إلا وهو على بصيرة من أمرها» .

وهذا هو ما تتبعة الدول المحاربة فىعصرنا الحديث فأمر «الطابور» الخامس ليس جديداً ..

١٥ — تعليم الحيوانات : ذكر ابن خلدون فى مقدمته ص ٣٠٤ قال : « ولقد بلغنا فى تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك ، مثل أنهم يعلمون الحمر الأنسية والحيوانات العجم من الماشى والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب بدورها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها » .

١٦ ـ الأولياء والصالحون : جاء هذا العصر عقب أيام ملئت بالحروب الصليبية وعاصر بدؤه حادثة سقوط بغداد على يد التتار الوثنيين ، فكان لذلك رد فعل فى العقلية المصرية إذ ملأها حماسة للإسلام وتعصبا له وحبا فى الالتفاف حول الداعين إليه . ثم عنى السلاطين والأمراء بإنشاء الربط والزوايا والخوانق وترتيب دروس فى التصوف بين المواد الدراسية . فكان لهذا كله أثره فى كثرة الأولياء أو مدعى الولاية ، وإيمان العامة بهم وتلمس الخير بوساطتهم ونهج بعض السلاطين والأمراء هذا النهج فائتمروا بأمرهم ونزلوا على إرشادهم ، وعنوا بإحياء ذكرى موالد المتوفين منهم ، وهكذا ويرد عليك فى الباب القادم أمثلة توضح ذلك .

قصص هذا العصر ونوادره

نختتم هذا الجزء من كتابنا بذكر طائفة من القصص والنوادر التى وقعت فى عصر المماليك . نذكرها بلا تعليق ، ونتركها تتكلم وحدها إلى القارىء أو يستنبط القارىء منها ما يشاء من ناحية الثقافة أو الأخلاق أو المعاملات أو النواحى الأخرى الاجتماعية ونوع التفكير . وكثيرا ما تكون القصة خير شارح لإحدى هذه الأحوال بغير حاجة إلى بيان مبين أو توضيح موضح . فمنها :

١ ـ نادرة عن الشيخ تاج الدين الفاكهانى والشاطر الدمنهورى : وهو ممن عاشوا فى المائة الثامنة. قال عنه صاحب الدرر الكامنة ما يلى . « قرأت بخط المحدث بدر الدين حسن النابلسى قال . حكى لنا شمس الدين محمد بن عبد المحسن بن أبى الربيع العباسى الدمنهورى قال . قال الشيخ تاج الدين الفاكهانى : كان الشيخ أبو العباس الشاطر الدمنهورى يقول : لايحجبنى عن أصحابى التراب . فكان .فطلبت من الله تعالى عند قبره ثلاث حوائج . تزويج البنات من فقراء صالحين ، وحفظ كتاب الله، وكان تعسر على ، والحج وكنت أعوز من النفقة ألف درهم. فرأيت الشيخ فى المنام قبل طلوع الشمس ، وهو يقول . يأتيك فلان التاجر بألف درهم كف بها حالك . وما تدخل مكة حتى يفتح عليك بها . ـ قال . فاقترضت الألف وسافرت حتى وصلت إلى المعلى ولم يفتح على شىء . فلما طلعت الحدرة وأناماش ، وإذا رجل يسأل عنى ، فأشاروا إلى ، فناولنى ألف درهم ، وقال . رأيت البارحة قائلا يقول . خذ معك ألف درهم ، والق بها فلانا ، ففعلت . فأخذتها ، وأتيت إلى الذى اقترضت منه الألف فدفعتها إليه . فقال . ما أريدها ، فإننى اشتريت بضاعة بثلاثين ألفاً فكسدت فلا تساوى الآن النصف . قال : فلما كان أمس ، رأيت رجلا عليه ثياب خضر وطاقية بيضاء . فقال : الألف التى بعث بها إليك أبوك مع الشيخ تاج الدين ، لا تأخذها منه . وأنت تبيع البضاعة فى أيام منى بخمسة وأربعين ألفاً ، فكان كذلك.
« الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٢٩٥ »

٢ ـ رؤيا الشيخ فرج بن عبد الله المغربي الصفدى الخاصة بالأمرد .

وهو نزيل صفد وممن عاشوا فى المائة الثامنة ، قيل إنه تحول إلى قرب بحيرة طبرية واشتهر أمره وصار له بها أتباع ومريدون . حكى العثمانى قاضى صفد أنه توجه لزيارته صحبة الشيخ تاج الدين المقدسى . فجرت مسألة النظر إلى الأمرد، وأن الرافعى يحرم بشرط الشهوة . والنووى يحرم مطلقا . فقال الشيخ فرج . رأيت النبي ﷺ فى المنام فقال لى : الحق فى هـذه المسألة مع النووى . فصاح الشيخ تاج الدين وقال : صار الفقه بالمنامات ! فخضع الشيخ فرج وقال : استغفر الله ، أنا حكيت ما رأيت ، والبحث له طريق . « الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٥٧٩ » .

٣ ـ زهد ابن تمام مصالحى ، وهو محمد بن أحمد بن تمام بن حسان الصالحى ، عاش بين سنة ٦٥١هـ إلى ٧٤١هـ ، كان عالما زاهداً قال عنـه البـدر النابلسى : « العالم الزاهد له المراقبة التامة على ملوك الدنيا ! كان تنكز ملك الأمراء يدخل عليه وهو يخيط الثياب ، وإحدى رجليه منصوبة والأخرى ممدودة فلا يتغير عن هيئته وكان يفرق كل شىء يهدى إليه على الحاضرين ، ولا يقتات إلا من الخياطة » .

« الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٨٣٥ »

٤ ـ من توضأ باللبن ، فى عهد الغورى حضر شخص من فقراء الصعيد يقال له « مهدى » ، مثل بين يدى السلطان المذكور وقامت عليه البينة بأنه زنديق ساحر يتوضأ باللبن ويستنجىء به . وذكرت عنه أشياء كثيرة على هذا النمط يخالف الشريعة. فأرسله السلطان إلى قاضى قضاة المالكية فحكم بكفره بموجب ما قامت به عليه البينة ، وضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية بعد أن أشهروه على جمل وهو عريان . « ابن إياس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١١هـ »

٥ ـ الشيخ سنبطاى المتصوف المزيف : كان من الأتراك ، وكان يدعى التصوف وكان مقيما بالمدرسة السنقرية الواقعة تجاه خانقاه سعيد السعداء . وشى به إلى السلطان الأشرف الغورى وقيل عنه إنه يزيف الدراهم والدنانير ، فتغير عليه خاطر السلطان

وقبض عليه وفتشت داره ، فوجدت لديه آلات التزييف ، وعمال يزاولونه . فأمر السلطان بقطع أيديهم . أما الشيخ سنطباى فشفع فيه الأتابكى « قرقماس » من قطع اليد ، فرسم له السلطان بأن يتوجه إلى القدس يقيم هناك عاطلا . ـ وقد كان من قبل من مماليك قايتباى ، ثم ادعى الصلاح ولكن انكشف أمره » . « ج ٤ »

٦ ـ حادث حريق فى مولد الشيخ سويدان : فى المحرم عام ٩١٣ هـ أقيم مولد الشيخ سويدان المجذوب فى مدرسة ابن الزمن ببولاق . فحدث فى تلك الليلة حادثة رائعة ، وهى أن امرأة طبخت على شاطىء البحر . فطارت منها شرارة فتعلقت بمركب هناك ، فعملت النار فيه . وكانت الريح فى تلك الليلة عاصفة ، فمشت النار إلى « شونة » تبن فى معصرة هناك ، فذهبت فيها النار وسرت فى نواحيها ، حتى احترقت المعصرة ونهب ما بها من قصب وسكر وعسل ، وألم الناس لهذا الحادث . ولو لا لطف الله تعالى ، ثم بركة الشيخ سويدان . لاحترقت الأماكن عن آخرها . « ج ٤ »

٧ ـ قاذف سيدنا إبراهيم : صدر كلام شاذ فاحش فى حق سيدنا إبراهيم عليه السلام من رجل كان خطيبا فى بعض الجوامع ويدعى عمر بن علاء الدين النقيب الحنفى المحلى . وذلك فى عهد الغورى عام ٩١٣ هـ . فاستتابه بعض القضاة ولكن بلغ السلطان أمره فغضب وتعصب للخليل إبراهيم عليه السلام . وجمع مجلسا من قضاة الشرع موظفين وغير موظفين ، ووقع بينهم نقاش شديد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا بشأن الحكم على هذا الرجل . ثم انفض مجلسهم على أن يسجن الرجل مدة طويلة . ثم يتوب ويطلق سراحه . وكان السلطان قد صمم فى دخيلة نفسه على قتله . ثم سجن فلبث فى السجن زمنا كبيرا . « ج ٤ »

٨ ـ خديجة الكليباتية : كانت تدعى الصلاح . وتدخل بيوت عظماء الناس . وقد توفيت فى ذى الحجة عام ٩١٣ هـ فوجد فى تركتها ذهب خالص ، يقدر بثلاثة آلاف دينار ، وأثاث منزلى بنحو خمسمائة دينار . ومع ذلك كانت تأخذ الصدقات من الناس . وقد عدت حالتها من النوادر . « ج ٤ »

٩ ـ جملان يحدثان حريقا دخل أحد الفلاحين ومعه جملان يحملان تبنا إلى القاهرة وقت العشاء، مارا بها من السويقة الواقعة عند بيت الخليفة . فتعلق فى ذلك الكتان لهيب من مسارج البائعين هناك . فلما أحس الجملان بالنار هاجا وفرا بين الناس مرتعبين . فقتلا كثيراً من الصغار وأصابا عددا آخر من الناس، وأتلفا كثيراً من البضائع ولم يستطع أحد كبح جماحهما حتى بلغا مشهد السيدة نفيسة فهدأ ومات أحدهما . « ج ٤ »

١٠ ـ رؤيا بواب جامع الحاكم : من النوادر أن شخصا قيل إنه بواب جامع الحاكم ، طلع إلى السلطان الغورى وذكر ما رآه فى منامه من أن قائلا يقول له: قل للسلطان إن جامع الحاكم تحت بعض دعائمه دنانير ذهبية لا ينحصر عددها . فلما سمع السلطان ذلك مال إلى كلامه وظن أنه حق وأرسل الأمير خاير بك الخازندار وبركات بن موسى المحتسب وجماعة آخرين من أخصائه ومعهم عدد من المهندسين والبنائين ، وأحضروا ذلك الرجل القائل . وطلبوا إليه أن يعين لهم الدعامة التى رآها فى منامه وتحتها الدنانير . فقال : لا أعلم فقال المهندسون ، إن لم نعرفها فقد يجرنا هذا إلى هدم جميع دعائم المسجد . وكثر بينهم القيل والقال والأخذ والرد . ثم شاوروا السلطان فى الأمر وفى هدم جميع الدعائم ، فأبى ولم يوافق . « ج ٤ »

١١ ـ جمال الدين الزغلى صاحب دار الضرب : كان قد التزم دار الضرب فى عهد الغورى ، فأتلف سائر العملة ، واتضح فيها غشه وتزييفه ، حتى ضج الناس ومعهم الأمراء منها وبلغ الخبر مسامع السلطان ، وهاله ألم الناس من هذه العملة الرسمية المغشوشة والتى أكرهوا على التعامل بها ، مما أدى إلى اختفاء الدنانير البرسيبة والجقمقية والإينالية والخشقدمية والقايتبايية . فاستدعاه السلطان وقبض عليه وأودعه سجن المقشرة بعد أن ضربه ضرباً مبرحا . ـ ولكنه استطاع الهرب من سجنه بعد أيام . فعاقب السلطان بسببه قانصوه أبا سنة الوالى وفرض عليه غرامة مالية قدرها خمسة عشر ألف دينار . واختفى بسبب هربه كذلك عدد من رجال سجن المقشرة خوف أن يبطش بهم السلطان . ثم إن السلطان تمكن من القبض

على الهارب وطيف به على حمار ، والمشاعلية تنادى عليه بين الناس لتفضح أمره . ثم شنق . «ج ٤»

١٢ ـ طفلة ترى النبي فى منامها : فى رمضان عام ٩١٥ هـ ظهرت فى قليوب ـ وقيل بقلمة ـ ابنة صغيرة دون البلوغ ، قيل إنها رأت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام مراراً عدة ، وظهرت لها كرامات خارقة . فتوجه إليها الناس أفواجا أفواجا. واشتهر عنها أنها تقيم المقعد ، وترد بصر الأعمى ! وحكى عنها من هذا النمط أشياء غريبة ليس لها صحة ! فبلغ كرى كل حمار من القاهرة إلى قليوب أشرفيا . ووفد عليها جماعة من الخاصكية والأمراء العشرات وكثير من أعيان الناس . وترددت الأحاديث عنها فى القاهرة . «ج ٤»

١٣ ـ ملك يرفس النيل برجله : فى عام ٩١٦ هـ نقص النيل عن مقداره فى العام الماضى ، حتى شرقت نواحى كثيرة من البلاد . فكثرت الخرافات والقصص بسبب ذلك فمنها ما قيل « إن امرأة صالحة رأت فى المنام أن ملكين نزلا من السماء ، وتوجها إلى البحر « النيل » فرفسه أحدهما برجله فهبط سريعا . ثم قال أحدهما للآخر : إن الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد إلى عشرين ذراعا ، فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو فى ١٨ ذراعا . » ـ فلما انتبهت من منامها هبط النيل فى تلك الليلة دفعة واحدة . . . «ج ٤»

١٤ ـ رؤيا تضطر السلطان إلى العدل : قيل فى اواخر صفر عام ٩١٩ هـ ، لما فشا الطاعون بالبلاد المصرية ثم اشتط السلطان فى فرض الضرائب على تركات الموتى ، ثم نكص فحط عنها بعض أعباء هذه الضرائب ، قيل إن ذلك بسبب رؤيا رآها ، ومؤداها أنه رأى النجوم من السماء قد تساقطت على الأرض ، ثم بعد ذلك سقط القمر . فأول ذلك بأن النجوم هى الجند ، وأن القمر هو الملك . فعند ذلك أخذ فى أسباب العدل وإبطال المظالم . «ج ٤»

١٥ ـ عبد العظيم يكبر عمامته : قال ابن إياس : إنه فى أواخر شوال عام ٩١٩ هـ خلع السلطان على عبد العظيم الصيرفى وقرره فى التحدث فى أمر الشون

السلطانية ، وجهات الذخيرة . فتعاظم عبد العظيم وكبر عمامته ، وصار من أعيان الرؤساء ، وركب الخيول ونسى ما جرى عليه من الضرب بالكسارات ، وعصر أكعابه بالمعاصير ، وإحراق أصابعه بالنار . فنسى ذلك كله وصار فى شمم عظيم !
« ج ٤ »

١٦ ـ حادثة زنى يتهم فيها أحد نواب الحكم وعزل بسببها القضاة : وقعت هذه الحادثة فى عهد السلطان الغورى ، وقد أشرنا إليها فى باب القضاء والقضاة . وملخصها أن رجلا من نواب الحنفية يدعى « غرس الدين خليل »له زوجة حسناء عشقها أحد نواب الشافعية واسمه « نور الدين على مشالى » . وكانت بين العاشقين صلات ود ووفاق . ولذلك انتهزا فرصة تغيب « غرس الدين » بجهة الإمام الليث لبعض أعماله ، واجتمعا فى منزلة لمقارفة الفسق والزنا ـ ولكن كان هناك رقيب يغار على المرأة وفى نفسه منها شىء واسمه « شميس » وهو ابن أخت القاضى «نور الدين الدمياطى» . فلحظ ماهنالك . فلحق بالزوج وأطلعه على الخبر فأسرع إلى منزله ، ورأى مارأى بعينى رأسه فهاله الأمر وطغت على نفسه الحماسة وعزم على شكواها . فتوسلت إليه زوجته وعشيقها بأن يسترهما لقاء مال يدفعانه ، فأبى وأبلغ خبرهما إلى حاجب الحجاب فقبض عليهما ، فاعترفا بما كان منهما من المنكر . وكتب الفاسق « نور الدين مشالى » كتابة بهذا الاعتراف . فما كان من الحاجب إلا أن ضربهما بالمقارع وأشهرهما فى القاهرة .

ثم إن الحادثة بلغت مسامع السلطان الغورى فاستاء أكبر استياء . وصمم على قتل الزانى . وجمع لذلك القضاة الأربعة ، ووبخهم وقرعهم لأن نوابهم يعيثون فى الأرض فساداً . وظل يجمعهم ويفرقهم ليظفر منهم بحكم قاس ضد هذا الفاسق . وضم إليهم عددا آخر من قضاة الشرع المعزولين ومن علمائه فكان مجمعا علميا عظيما ، ولكنه لم يظفر . وذلك ـ ويا للعجب ـ بسبب من تعصب للزانى من القضاة ونواب الحكم . ومن بينهم رجل يدعى « شمس الدين الزنكلونى » أحد نواب الحكم وصديق المتهم ، وهو شافعى المذهب . وقد قام بكتابة ورقة فيها فتوى

شرعية ملخصها أن المعترف له حق الرجوع عن اعترافه ، وحينئذ لا يحد . ووقع بمسعاه على هذه الفتوى عدد من القضاة ، ودفعها إلى قاضى قضاة الشافعية « الشيخ برهان الدين بن أبى شريف المقدسى » فأبدى هـذا القاضى الحـكم الشرعى فى هذا الموضوع للسلطان ، وهو أن الزانى له حق الرجوع عن الاعتراف وحينئذ لا يحد ولا يرجم . فاشتد غضب السلطان وقال : يا مسلمين ! رجل يطلع إلى بيت رجل يفسق فى زوجته ، ويقبض عليه تحت اللحاف مع زوجته ، ويعترف بذلك ويكتب بخط يده بما وقع منه ، تقولون بعد ذلك : له الرجوع !

ثم اضطر السلطان إلى جمع المجمع الذى أشرنا إليه لاستفتائه ، فكان من جملة من كان فيه من القضاة الأعلام : برهان الدين بن أبى شريف . وبرهان الدين القلقشندى وبرهان الدين بن الكركى الحنفى ، ونور الدين المحلى ، وعبد الحق السنباطى وشيخ الإسلام زين الدين زكريا الأنصارى المنفصل عن القضاء . وبين هؤلاء القضاة الأربعة .

طلب إليهم الرأى . فكرر ابن أبى شريف رأيه السابق وأورد النقول التى تثبت ذلك . فلم يلتفت إليه السلطان . وقال أنا ولى الأمر ، ولى النظر العام فى ذلك ! فقال ابن أبى شريف : نعم ! ولـكن بموافقة الشرع الشريف ، وإن قتلتهما تلزمك ديتان عنهما . . . فحنق السلطان وكان يبطش به .

ثم سأل الشيخ زكريا ، فرد بمـا رد به ابن أبى شريف . فزاد حنق السلطان ، وقيل إنه أهانه ورماه بخور قواه العقلية . .. ثم سأل الشيخ نور الدين على المحلى . فقال كما قالا ، وقال إنه نص ما نقله الإمام الشافعى ، فغضب منه السلطان وقال : « إن شاء الله تطلع إلى بيتك فتجد من يفعل فى زوجتك الفاحشة كما فعل المشالى فى زوجة خليل » ، فقال له المحلى . عافانا الله من ذلك .

وكان من نتيجة هذه المحنة العظيمة أن عزل الشيخ برهان الدين بن أبى شريف من مشيخة مدرسته وقيل نفى إلى القدس . وعزل محى الدين يحى بن الدميرى من قضاء المالـكية ومن خطابة جامعه . وتغير السلطان على قاضى قضاة الحنفية

عبد البر بن الشحنة وكاد يبطش به ، مع أنهما صديقان حميمان .

وقد سجن المذنبان ، سجن المشالى فى المقشرة . وسجنت الزوجة فى الحجرة

ثم استدعى السلطان القاضى الشافعى « شمس الدين الزنكلونى » الذى كان سببا فى إظهار الفتوى بحق الرجوع ، وقال : « يازنكلونى ! حكمك أنت يمشى ، وحكمى أنا يبطل » . ثم بطحه على الأرض وضربه نحوا من ألف عصا ونفاه إلى الواحات وأشيع موته بعد ذلك من الضرب .

ثم عزل السلطان قضاة القضاة الأربعة وبقيت مصر خمسة أيام بغير قضاة .

ثم أمر السلطان بشنق الزانيين على باب منزل القاضى ابن أبى شريف نكاية به . « ج ٤ » .

١٧ — نبوءة قلاوون بعصيان قفجق : قيل إن الملك المنصور قلاوون ـ وكان الأمير قفجق أحد مماليك — خرج يوما إلى جهة المطرية فى أيام النيل على سبيل الرياضة . ومعه جماعة من أخصائه الأمراء . فانشرح السلطان فى ذلك اليوم . وذبح خروفا سمينا بيده ، فلما حضر السماط قدموا ذلك الذبيح بين يديه ، فقطعه بيده ، ثم أخذ الكتف منه وجرده من لحمه ، وتركه ساعة حتى جف ، ثم لوحه على النار . قليلا قليلا ، ثم أخرجه . ونظر فى لوحة الكتف ساعة ، وأطال التأمل ، ثم تفل عليه وألقاه من يديه وظهر فى وجهه الغضب . فسأله بعض الأمراء عن ذلك بعد ما سكن غضبه . فقال : إن وليتم قفجق بعدى نيابة الشام يحصل منه غاية الفساد ، فلا تخرجوه بعدى من مصر لئلا تتعبوا من أمره. فكان الأمر كما قال الملك المنصور .

وذلك أن قفجق تولى نيابة الشام بعد موت المنصور ، وذلك فى دولة المنصور لاجين ، فعبث بها وعصى ، ثم فر إلى غازان ملك التتر وحبب إليه غزو البلاد المصرية والشامية . فغزاهما ووقع بين العسكرين وقائع هائلة .

« ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ ـ سلوك المقريزى ص ٨٧١ »

١٨ - خيبة ابن مفلح : لما غزا تيمورلنك التترى بلاد الشام وخرب ديارها عام ٨٠٣ هـ وحاصر دمشق ، وذعر أهلها من فظاظته ، بعث إليهم يطلب منهم أن يرسلوا إليه أحد عقلائهم لمفاوضته فى الصلح . فوقع اختيارهم على القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى لمعرفته التركية والعجمية، وجماعة معه . فتلطف معه تيمولنك وأفهمه أنه لا يقصد بدمشق سوءا لأنها بلد الأنبياء وبها قبر أم حبيبة زوجة رسول الله عليه السلام . . .

فعاد ابن مفلح من لدنه يخذل الناس عن قتاله حتى تخاذلوا . ثم عاد ابن مفلح إلى تيمور . فكتب له أمانا لأهل دمشق . فعاد إليهم وقرأ عليهم هذا الأمان . ففرحوا به وفتحوا باب المدينة لتيمور وجنده . فاحتل أحد أمرائه هذا الباب.

ثم طلب تيمور أن يحضر إليه ابن مفلح فحضر . فأمره بأن يجبى من أهل المدينة ألف ألف دينار . فعاد إليهم وجمعها منهم وحملها إليه . فحنق منه تيمور ، وادعى أنها ليست المقدار الذى طلب إليه جبايته ، وأنه يطلب عشرة أمثال هذا المبلغ .

عاد ابن مفلح إلى دمشق وأخذ فى إرهاق أهلها ليجمع منهم المال وأصبح عليهم سوط عذاب ، وسلط عليهم ضروب الأذى حتى جمع منهم هذا المقدار وحمله إلى تيمور ، بعد أن أفقر الناس وأجاعهم .

لم يكتف تيمورلنك بذلك بل طلب إليه استحضار جميع الودائع الخاصة بأمراء السلطان وعسكره ، فأحضرها إليه ، فقال له تيمور . قد بقى عليك أن تجمع لنا كل دابة فى البلد من فرس وبغل وحمار وجمل . . . فعاد ابن مفلح إلى المدينة يجمع لتيمور دوابها ، ثم ساقها إليه . .

لم يكتف تيمور بذلك بل قال له : بقى عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها وجميع خططها . فكتب له ذلك وقدمه إليه . . . فقال له تيمور :

قد بقي عليك أن تجبي لنا بقية ماقررناه على المدينة من المال . . وعدته سبعة آلاف ألف دينار . . فقال له ابن مفلح : لم يبق في البلد لا درهم ولا دينار » ، فخنق منه تيمور وقبض عليه وعلى أصحابه وقيدهم بالحديد . « ج ١ ص ٣٣١ إلى ٣٣٣ » .

١٩ ـ الشيخ أسد الدين المزيف . ذكر ابن إياس في حوادث عام ٨٥٢ هـ وفي عهد الظاهر جقمق ، أن رجلا أعجميا يدعى « الشيخ أسد الدين » كان يدعى أنه شريف ، فجاء إلى الشيخ ـ على المحتسب ـ وقال له اجمعني على السلطان فإني أعرف صنعة الكيمياء ، فجمعه عليه فأوحى إليه أنه يطبخ الكيمياء ، وأن هذا وجه حل . فانطاع السلطان لكلامه ، وأجرى عليه مايحتاج إليه من أسباب ذلك ، وصرف عليه جملة مال نحوا من عشرة آلاف دينار ، ولم تصح معه الكيمياء ، فكان يأخذ الحرير الأحمر بالأرطال ويوقده في النار ولا يأكل شيئا فيه روح . فأتلف على الملك الظاهر جملة مال ولم يفد ذلك شيئاً ، وقد قيل :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا — لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وقد تحـــدث قوم باجتماعهما — وما أظنهمـــا كانا ولا اجتمعا

فأوحي إلى السلطان أنه يعبد النار . وتحدث بعضهم في حقه بكلمات كثيرة . فأرسله السلطان إلى المدرسة الصالحية فحكم عليه القاضي المالكي بدر الدين التونسي نائب الحكم بأنه كافر ! فضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية وكان له يوم مشهود . » « ج ٢ . ص ٣٠ » .

٢٠ ـ الاستسقاء ببني العباس . لما آن أوان زيادة النيـــل في عام ٨٦٦ هـ توقف عن الزيادة نحو خمسة عشر يوما حتى ضج الناس وارتفعت أثمان البضائع ، فرسم السلطان خشقدم للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا هناك يتلون القرآن والحديث ويدعون الله ليزيد النيل . فتوجه عدد منهم ومكثوا أياما ثم رجعوا بلاجدوى ، ولم يزد النيل . فأرسل السلطان رسله إلى شيخ

الإسلام فى عصره أمين الدين يحيى الأقصرائى واستفتاه فى هذه المسألة فقال له . اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء ومن الصغار والكبار ، ثم ليضعوا فى أفواههم شيئاً من الماء يمجونه فى إناء ثم يصبونه فى فسقية المقياس . . . ففعلوا ذلك فكان فيه البركة . . ووفى النيل بعد ذلك «ج ٧ س ٧٤» .

٢١ ـ انشقاق بين العلماء بسبب ابن الفارض : فى عام ٨٧٥ هـ وقعت فتنة مروعة بين علماء الشرع وفقهائه بسبب ابن الفارض الشاعر المتصوف المشهور وذلك لاختلافهم فى فهم بعض الأبيات الشعرية من قصيدته التائية . وكثرت بينهم المحاجة والمناظرة ، فمنهم من أخذه بظاهر قوله ، ونسبه إلى الحلول والاتحاد وحكم بفسقه وكفره ، وعلى رأس هذا الفريق ، برهان الدين البقاعى ، وقاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وولده عبد البر ، ونور الدين المحلى ، وقاضى القضاة عز الدين الحلى ، فتبعهم جماعة كبيرة من العلماء .

ومنهم من لم يأخذ بظاهر القول ، وتأول كلام الشيخ ، ولم ينسبه إلى فسق أو كفر أو حلول أو اتحاد ، بل حكم بإيمانه الثابت الراسخ . وعلى رأس هذا الفريق : الشيخ محى الدين الكافيجى الحنفى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى ، والشيخ بدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين يحى بن حجى ، وجلال الدين السيوطى ، وزكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف .

وكثر القال والقيل بين الفريقين ، وزاد التراشق بينهما ، وكل يعز زمذهبه وسبيله . فلما زاد بينهما الأمر كتبت مقالات عدة وفتاوى كثيرة ، فمنها مقالة للكافيجى . ومنها كتاب للجلال السيوطى سماه «قمع المعارض فى الرد عن ابن الفارض» . ومنها كتاب البدر بن الغرس . وهو واضح شاف فى الرد على من طعن على ابن الفارض . وصنف أحدهم كتابا سماه «درياق الأفاعى فى الرد على البقاعى» .

واشترك فى المشاحنة بعض شعراء العصر من محى ابن الفارض ، ونظموا

الأبيات فيمن طعنوا عليه يهجونهم بها ، ويلصقونها أحيانا بمزاره . ومن هؤلاء الشعراء الشهاب المنصورى حيث يقول هاجيا البقاعى مع التورية .

أن البقاعى بما　　قد قاله مطالب
لا تحسبوه سالماً　　فقلبـــه يعـاقب

ونظم كذلك قصيدة طويلة ضمنها كثيراً من أبيات قصيدة لابن الفارض منها:

بين البقاعى وبين التاج من شرف　　ما بين معترك الأحداق والمهج
يقول من صح فيه سهم صاحبه　　أنا القتيل بلا إثم ولا حـرج
كلاهما مدع خوضا بفكرته . .　　فى كل معنى لطيف رائق بهج

ولبعضهم يهجو ابن الشحنة :

أصبحت يا ابن الشحنة الحنفى فى　　كل القبائح أوحد الأزمان
فى مصر علم أبى حنيفة تدعى　　جهـــلا وأنت معرة النعمان

هذا ولما طال الأمر وزاد الخطب وتفاقم الجدل ، وبلغ الأمر مسامع السلطان قايتباى ، تعصب لابن الفارض رسم لكاتب السر ابن مزهر أن يكتب سؤالا فى الموضوع يوجهه إلى الشيخ زكريا الأنصارى الشافعى فكتب ما صيغته .

« ما يقول الشيخ الإمام العالم العلامة البحر الفهامة زكريا الأنصارى الشافعى، ـ نفع الله المسلمين به ـ عمن قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدى عمر بن الفارض تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه ، فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على مافهمه من كلامه فى مواضع مرجعها إلى إطلاقات معلومة عند السادة الصوفية باصطلاح تخاطبهم ، لا محذور فيها شرعا ، فهل يحمل كلاما هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته ، أم على اصطلاح أهل ملة غير الإسلام ، فما الجواب عن ذلك ؟ أفتونا مأجورين » .

فأجاب الشيخ زكريا على هذا الاستفتاء بعد تمنع شديد ونص إجابته مايلى :

« يحمل كلام هذا العارف ـ رحمة الله عليه ونفع ببركاته ـ على اصطلاح أهل

طريقته ، بل هو ظاهر فيه عندهم ، إذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى مجاز فى غيره كما هو مقرر فى محله . ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره فى أبيات فى التائية من القول بالحلول والاتحاد ، فإنه ليس من ذلك فى شىء بقرينتى حاله ومقاله المنظوم فى تائيته بقوله من أبيات فى القصيدة .

ولى من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأى الحلول عقيدتى

وهذا يصدر عن العارف بالله إذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته فى ذاته ، وصفاته فى صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه ، بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التى يرقى إليها كما قاله جماعة من علماء الكلام رضى الله عنهم ، ولكن ينبغى كتم تلك العبارات عمن لم يدركها، فما كل قلب يصلح للسر ، ولا كل صدف ينطبق على الدر ، ولكل قوم مقال ، وما كل ما يعلم يقال . وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها . كما قيل .

وإذا كنت بالمدارك غرا ثم أبصرت حاذقا لا تمارى
وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه . كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلى صبابتى صبا معى لكنه ما ذاقها

والحالة هذه. والله يمنح بفضله من يشاء بعدله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وكتبه زكريا بن محمد الأنصارى الشافعى » .

وقد كانت هذه الفتوى سببا فى ركود ريح الخلاف وسكون الفتنة بين المتراشقين « ج ٢ ص ١١٩ إلى ١٢١ » .

٢٢ — كتاب الفصوص لابن عربى : فى جمادى الآخرة عام ٨٨٧ هـ توفى المدعو يحى بن حجى ، وأحيلت تركته على « شمس الدين الحلبى » لحصرها ، فرأى بين كتبه كتاب « الفصوص » لابن عربى . فقال : هذا الكتاب ينبغى أن يحرق وأن ابن عربى كان كافراً أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان . فقال له

بعض الحاضرين : كيف تحرق كتاب الفصوص وفيه آيات من كتاب الله تعالى؟ فقال : ولو كان ! فتمسكوا عليه بذلك ، وأرادوا تكفيره ، فبادر وترامى على كاتب السر ابن مزهر . فعاونه حتى آل أمره إلى الاكتفاء بتعزيزه وكشف رأسه . ثم حكموا بإسلامه وحقنوا دمه . «ج ٢ س ٢١٩»

٢٣ — السلطان قايتباى يقبل رجل الدشطوطى : فى شهر المحرم عام ٨٩٤ هـ وقعت للسلطان قايتباى نادرة غريبة ، وهى أن عبد القادر بن الرماح أحد أخصائه العقلاء . . قال له : « إن الشيخ عبد القادر الدشطوطى من عباد الله الصالحين » . فرغب السلطان فى لقائه للتبرك به « فأخبره ابن الرماح أن الشيخ المذكور يفد أحيانا إلى جامع فى مكان عند القرافة تحت جبل المقطم . فطلب إليه السلطان أن يراقبه حتى إذا حضر يعلمه ليذهب إلى لقائه هناك ، فعمد عبد القادر بن الرماح إلى شخص كان شبيها بالشيخ عبد القادر الدشطوطى ، واتفق وإياه على ملاقاة السلطان. ثم ذهب ابن الرماح إلى قايتباى وأخبره أن الدشطوطى سيكون الليلة بالمكان الذى يفد إليه وأخبره عنه .

فلما كانت العشاء صلى السلطان ونزل ومعه ثلاثة من رجاله وأتى إلى المكان المعين ، ونزل عن فرسه ، فوجد ذلك الشخص جالسا ورأسه فى قميصه . فشرع السلطان يقبل رجليه ويقول : يا سيدى ! احمل حملتى مع ابن عثمان — وكان بينه وبين العثمانيين نزاع ـ فصار ذلك الشخص يغرب عليه ، ويقول : « أنت لا ترجع عن ظلم العباد» . فطال المجلس بينهما ، ثم دفع السلطان إليه كيساً فيه ألف دينار ـ وقيل خمسمائة ـ فتمنع الشيخ عن قبولها والسلطان يتلطف به ويقول له : فرق ذلك على الفقراء . ثم ركب فرسه وانصرف من لدنه معتقدا أنه الدشطوشى . .

ثم نمى إلى السلطان بعد حين سر المسألة وانكشفت له حقيقتها وأطلعه بعضهم على جليتها . فاستدعى ابن الرماح والشخص المزيف والخدم المقيمين بتلك الجهة وأمر بهم فضربوا بالمقارع بين يديه . ووسم بحلق ذقن ابن الرماح ، وتشهيره بالقاهرة على حمارة . ثم سجنه بالمقشرة إلى أن مات . . . «ج ٢ س ٢٥٦»

٢٤ ـ عبد الصليب يذم النبي : فى رمضان عام ٩١٨ هـ ضبط نصرانى يقال له « عبد الصليب » من نواحى دجلة بالوجه القبلى ، وهو يتحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، حديثاً فاحشاً ، وشهد عليه بذلك جماعة ، وكتبوا له محضرا ، وثبت لدى قاضى الناحية . فأشخص النصرانى إلى السلطان الغورى ، فاعترف لديه بما قال . فعرض عليه الإسلام فأبى ، فبعثه السلطان إلى بيت الأمير طومان باى الدوادار ، فعقد له فيه مجلس بين يدى القضاة ، فاعترف فيه أيضا بما قال ، وصمم عليه ، وباع نفسه على ألا يرتد عن دينه . فحكم القضاة بسفك دمه ، ثم أركبوه جملا وسمروه على خشب ، وأشهروه فى القاهرة . ثم ضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية . ثم إن العوام أحرقوا جثته بالحطب وسط السوق وتركوه . فلما جن الليل نهش الكلاب لحمه وعظمه ، ومضى كأن لم يكن . « ج ٤ »

٢٥ — النحال ينظم الشعر : ولد إبراهيم بن خلف النحال ببلبيس قبل عام ٧٨٠ هـ بقليل . وكان يحفظ القرآن الكريم ، ثم نسيه . . وكان لا يعرف النظم وكان يجهل النحو . . ثم وفد عليه واعظ يقال له « الطبندى » فتكلم فى تفسير قوله تعالى : « ألست بربكم قالوا بلى » والناس يسمعون . وقال : إن الله لما استخرج ذرية آدم من ظهره فى صورة الذر وقال لهم « ألست بربكم » انقسموا فريقين : فريقا قال : بلى ، وفريقا سكت . ثم انقسم كل منهما قسمين فمن قال « بلى » أحدهما ظل على إجابته ، والثانى قال : ليتنا سكتنا . ومن سكت : أحدهما ظل على سكوته ، والثانى قال : « ليتنا أجبنا » . ولهذا انقسم الناس أربع فرق : مؤمن يموت مؤمنا . ومؤمن يموت كافراً . وكافر يموت كافرا . وكافر يموت مؤمنا . ثم قال :

حكى أن عابدا عبد الله مائة سنة ثم حضرته الوفاة ، فاستدار نحو المشرق — أى على عادة النصارى — فاستعظم خادمه ذلك ، وقال إن نفسه ملكها

الإعجاب نخذلت ، فمات على غير التوحيد ، فطار قلب الخادم خوفا . وأكثر من النحيب ، فبينما هو كذلك إذ طرق الباب نخرج ، فإذا راهب ، فقال : ما شأنك ؟ قال : « إن راهبا منا مات فوجهناه إلى الشرق فتوجه إلى القبلة ومات مسلما ، فجئت إليك لتسأل لى شيخك ، ماذا نصنع به ؟ فقال، إن شيخى قد مات إلى الشرق كافرا » ، فهات ميتنا وخذ ميتكم . . . » فدفن الراهب بالزاوية ، ونقلوا الشيخ إلى مقبرة الرهبان ....

قال النحال : فلما سمعت هذه الحكاية حصل منها ما أزعج نفسى وأطار عقلى وأدهش فكرى وأطال غمى وأدام همى ، بحيث بقيت أياما لا أنام أصلا ، ولا آكل إلا كما يأكل العليل . . . » . وكانت هذه الحادثة سبب جريان الشعر على لسانه بسهولة ، بغير معرفة للنحو .... «الضوء اللامع ج ١ ص ٤٧»

انتهى والحمد لله

الحمد لله

تم القسم الثانى من الجزء الأول من كتاب

« عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى »

وقد تمت طبعته الأولى فى يوليو عام ١٩٤٧ م

وتمت طبعته الثانية فى يونيو عام ١٩٦٥ م

ويليه المجلد الثالث : وهو القسم الأول من الجزء الثانى — الذى يؤرخ الحركة العلمية وأوله : « مدينة بغداد ومركزها العلمى والأدبى »

فهرس موضوعات المجلد الثانى

* * *

فهرس أعلام المجلد الثانى

(ت)

(ج)

(د)

(ر)

(ش)

(ك)

(ل)

(م)

تم والحمد لله

